تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

تأليف

الشيخ إسماعيل حقي البروسوي

المتوفى سنة ١١٣٧ هـ

المجلد الثاني

اختصار وتحقيق

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

المجلد الثاني

من تفسير سورة الأنفال إلى تفسير سورة الأنبياء



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ﴾ أي : عن حكم الغنائم فالسؤال استفتائي ولهذا عُدِّي بكلمة عن ، لا استعطائي كما يقال سألته درهما ، والنفل : الزيادة وسميت الغنيمة به لأنها عطية من الله زائدة على ما هو الأجر في الجهاد من الثواب الأخروي ، وعلى ما أعطاه لسائر الأمم حيث لم يحل لهم الغنائم ، روي : أن المسلمين اختلفوا في غنائم بدر وفي قسمتها ، فسألوا رسول الله ﷺ كيف تقسم ؟ وإلى أين تصرف ؟ ومن الذين يتولون قسمتها أهم المهاجرون أم الأنصار ؟ فنزلت ، فضمير يسألون لأصحاب بدر لتعينهم حال نزول الآية ، والمعنى يستفتونك في حكم الأنفال ﴿ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي : أمرها وحكمها مختص به تعالى ، يقسمها الرسول كيفما أمر به ، من غير أن يدخل فيه رأي أحد ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : إذا كان أمر الغنائم لله ورسوله فاتقوا الله تعالى ، واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف ، الموجب لسخطه تعالى ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ذات البين : هي الأحوال التي تقع بين الناس ، كما أن ذات الصدور هي المضمرات الكائنة فيها ، أي : وأصلحوا ما بينكم من الأحوال ، بالمواساة والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى ، وذلك لأن المقاتلة قالوا : لنا الغنائم ، وأرادوا أن لا يواسوا الشيوخ ، الذين كانوا عند الرايات ، قال عبادة بن الصامت : نزلت فينا معشر أصحاب بدر ، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا فجعله لرسوله ، فقسمه بين المسلمين على السواء[1] ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بتسليم أمره ونهيه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة ، والمعنى إن كنتم كاملي الإيمان ، فإن كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث . واعلم أن كثرة السؤال توجب الملال ولذلك قال رسول الله ﷺ : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال »[2] ففي الحديث فوائد منها : النهي عن عقوق الوالدين لأنه من الكبائر وإنما اقتصر على الأم اكتفاء بذكر أحدهما كقوله تعالى (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) أو لأن حقها أكثر وخدمتها أوفر ، وفيه نهي عن وأد البنات وهو فعل الجاهلية كان الواحد منهم إذا ولد له ابن تركه وإذا ولد له بنت دفنها حية وإنما حملهم على ذلك خوف الإملاق ودفع العار والأنفة عن أنفسهم وأراد بالمنع الامتناع عن أداء ما يجب ويستحب ، وبـ « هات » الإقدام على أخذ ما يكره ويحرم ، وفيه نهيٌ عن المقاولة ، وكثرة السؤال ، وتضييع المال .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ، وانظر تفسير ابن كثير ٢ / ٨٣ .

(٢) أخرجه الشيخان .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : إنما الكاملون في الإيمان المخلصون فيه ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ ﴾ عندهم ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ من هيبة الجلال وتصور عظمة المولى ، وهذا الخوف لازم لأهل كمال الإيمان سواء كان مَلَكاً مقرباً ، أو نبياً مرسلاً ، أو مؤمناً تقياً ، واعلم أن شأن نور الإيمان ، أن يرق القلب ، ويصفيه عن كدورات صفات النفس وظلماتها ، ويلين قسوته فيلين إلى ذكر الله ، ويجد شوقاً إلى الله ، ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ ﴾ قرئت ﴿ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ﴾ أي : آيات الله يعني القرآن أمراً ونهياً وغير ذلك ﴿ زَادَتْهُمْ ﴾ أي : تلك الآيات ﴿ إِيمَاناً ﴾ أي : يقيناً وطمأنينة نفس ، فإن تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين ، موجب لزيادة الإطمئنان وقوة اليقين ، قال أبو السعود في تفسيره : إن نفس التصديق مما يقبل الزيادة والنقصان ، للفرق الظاهر بين يقين الأنبياء ، وأرباب المكاشفات ، وبين يقين الأمة ، ولهذا قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً » وكذا بين ما قام عليه دليل واحد من التصديقات ، وما قامت عليه أدلة كثيرة ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم خاصة ﴿ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ يفوضون أمورهم ولا يخشون ولا يرجون إلا إياه ، ولما ذكر أولاً أعمال القلوب ، من الخشية والوجل عند ملاحظة عظمة الله تعالى وجلاله ، عقَّب بأفعال الجوارح التي هي العيار عليها كالصلاة والصدقة فقال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ بوضوئها وركوعها وسجودها في مواقيتها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أعطيناهم من الأموال ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ في طاعة الله ، وإنما خص الله الصلاة والزكاة لعظم شأنها وتأكيد أمرهما ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الجامعون لأعمال القلب والقالب ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً ﴿ حَقّاً ﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ كائنة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : كرامة وزلفى وعلو مرتبة وقيل درجات عالية في الجنة على قدر أعمالهم ، والدرجة إن كانت بمعنى المرقاة فجمعها درج ، وإن كانت بمعنى المرتبة والطبقة فجمعها درجات ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا ينتهي ولا ينقطع كأرزاق الدنيا .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ المراد بإخراج الله تعالى إياه أمره بالخروج ﴿ مِنْ بَيْتِكَ ﴾ في المدينة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : أخرجك ملتبساً بالحق ، وهو إظهار دين الله ، وقهر أعداء الله ، والمعنى هذه الحال وهي قسمة غنائم بدر بين الغزاة على السواء ، وحالهم في كراهتهم لهذه القسمة مع كونها حقاً كحالهم في كراهتهم لخروجك للحرب وهو حق ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أي : والحال إن فريقاً منهم كارهون للخروج ، لنفرة الطبع عن القتال ، أو لعدم الاستعداد ، روي : أن عِير قريش أي : قافلتهم أقبلت من الشام ، وفيها تجارة عظيمة ، ومعها أربعون راكباً منهم أبو سفيان وعمرو بن العاص ، وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة ، فأخبر جبريل رسول الله بإقبالها فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها ، لكثرة المال وقلة الرجال ، فلما خرجوا سمعه أبو سفيان فاستأجر « ضمضم بن عمرو الغفاري » فبعثه إلى

مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستفزهم ويخبرهم أن محمداً قد اعترض لعيركم فأدركوها ، فلما بلغ أهل مكة هذا الخبر نادى أبو جهل فوق الكعبة يا أهل مكة النجاءَ النجاءَ . عيركم وأموالكم تداركوها إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً ، فخرج أبو جهل بأهل مكة وهم النفير ، فقيل له إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة ، فقال : لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ، ونشرب الخمور ، ونقيم القينات والمعازف ببدر ، فتتسامع جميع العرب بمخرجنا ، فلا يزالون يهابوننا ، فنزل جبريل فقال : يا محمد إن الله وعدكم إحدى الطائفتين : إما العير وإما قريشاً ، فاستشار النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه ، فقال : « ما تقولون إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير أحب إليكم أم النفير ؟ » فقالوا : بل العير أحب إلينا من لقاء العدو ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ، وقام سيد الخزرج سعد بن عبادة فقال : انظر في أمرك وامض ، فوالله لو سرت بنا إلى عدن ما تخلّف عنك رجل من الأنصار ، ثم قام المقداد فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فإنا معك حيثما أحببت ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن نقول : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « أشيروا عليَّ أيها الناس » وهو يريد الأنصار . فقام سعد بن معاذ فقال : لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أجل » قال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف منا رجل ، وما نكره أن تلقى غداً بنا عدونا ، إنا لصُبَرٌ عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، ولعل الله تعالى يريك منا ما تقرُّ به عينك ، فسرْ بنا على بركة الله ، ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » ﴿ **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ** ﴾ الذي هو تلقي النفير ، لإيثارهم عليه تلقي العير ﴿ **بَعْدَمَا تَبَيَّنَ** ﴾ أي : يخاصمونك بعد تبين الحق وظهوره لهم ﴿ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ** ﴾ أي : مشبهين بالذين يساقون بالعنف والصغار إلى القتل ﴿ **وَهُمْ يَنْظُرُونَ** ﴾ أي : والحال أنهم ينظرون إلى أسباب الموت ويشاهدونها عياناً ، وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع ، إلا لقلة عددهم ، وعدم تأهبهم . روي : أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، ليس فيهم إلا فارسان ، الزبير والمقداد ، ولهم سبعون بعير وكان المشركون أكثر عَدَداً وعُدَداً بالأضعاف .

﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ** ﴾ أي : اذكروا أيها المؤمنون وقتَ وعد الله تعالى إياكم ﴿ **إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ** ﴾ أي : الفريقين إحداهما أبو سفيان مع العير ، والأخرى أبو جهل مع النفير ﴿ **أَنَّهَا لَكُمْ** ﴾

أي : يعدكم أن إحدى الطائفتين مسخرة لكم ، تتسلطون عليها تسلط الملاك على أملاكهم ، وتتصرفون فيها كيف شئتم ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ أي : وتحبون ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ غير ذات الشوكة : هي العير ، والشوكة الحدة أي : السلاح الذي له حدة كسنان الرمح والسيف ، مستعار من واحدة الشوك ، ﴿ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ أي : يثبته ويعليه ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ بأمره لكم بالقتال ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ ﴾ أي : آخرهم ويستأصلهم بالمرة ، والمعنى أنكم تريدون أن تصيبوا مالاً ولا تلقوا مكروهاً ، والله يريد إعلاء الدين ، وإظهار الحق ، وما يحصّل لكم فوز الدارين ﴿ لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ ﴾ اللام متعلقة بفعل مقدر أي : لهذه الغاية الجليلة وهي إظهار الدين الحق ، وإبطال الكفر ، فعل ما فعل ، لا لشيء آخر ، ومعنى إحقاق الحق إظهار حقّيته ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : المشركون ذلك ، أي : إحقاق الحق وإبطال الباطل ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ أي : اذكروا وقت استغاثتكم وهي طلب الفوز والنصر والعون ، وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال جعلوا يدعون الله تعالى قائلين : يا غياث المستغيثين أغثنا . وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعو : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض » فمازال كذلك حتى سقط رداؤه ، فأخذه أبو بكر فألقاه على منكبه ، والتزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز ما وعدك [1] . فهذه الاستغاثة كانت من النبي عليه الصلاة والسلام ومن المؤمنين لأنه دعا وتضرع ، والمؤمنون كانوا يؤمّنون ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ أي : أجاب عطف على تستغيثون داخل معه في حكم التذكير ﴿ أَنِّي ﴾ بأني ﴿ مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ أي : جاعلين غيرهم من الملائكة رديفاً لأنفسهم ، حتى صاروا ثلاثة آلاف ، ثم خمسة آلاف ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ ﴾ أي : فأمدّكم الله بإنزال الملائكة عياناً ، وما جعل ذلك الإمداد لشيء من الأشياء ﴿ إِلا بُشْرَىٰ ﴾ أي : إلا للبشارة لكم بأنكم تنصرون ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ ﴾ أي : بالإمداد ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلتكم وذلتكم ، وفي قصر الإمداد عليها إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال ، وإنما كان إمدادهم بتقوية قلوب المؤمنين وتكثير سوادهم ، ولو بعثهم الله بالمحاربة لكان يكفي ملك واحد ، فإن جبريل أهلك بريشة واحدة من جناحه سبعاً من مدائن قوم لوط ، وأهلك بصيحة واحدة جميع بلاد ثمود ، قال الحدادي : وهذا القول أقرب الى ظاهر الآية ، وقيل : قاتلوا يوم بدر ، ولم يقاتلوا يوم الأحزاب ويوم حنين ، وروي : أن رجلاً قال : تبعتُ رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر ، فوقع رأسه بين يديَّ قبل أن يصل إليه سيفي

(١) رواه الترمذي ، وانظر أسباب النزول للسيوطي ص ١٠٦ .

﴿ وَمَا النَّصْرُ ﴾ أي : حقيقة النصر على الإطلاق ﴿ إلا ﴾ كائن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ من غير أن يكون فيه شركة من جهة الأسباب ، فإن إمداد الملائكة وكثرة العدد وسائط لا تأثير لها ، فلا تحسبوا النصر منها ، ولا تيأسوا منه بفقدها ، ونعم ما قيل :

النصر ليس بأجناد مجندة * لكنه بسعادات وتوفيق

﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يغالب في حكمه ولا ينازع في أقضيته ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، واعلم أن للملائكة إمداداً وإن لم نرهم ، والله تعالى ينزل السكينة وهي طمأنينة القلب عند لقاء الأعداء ، يجمع نوراً وقوة وروحاً يسكن إليه الخائف ، ويتسلى به الحزين ، وإنما لا يظهر في بعض الأحيان والوقائع ، لحكمة أخفاها الله عن الغافلين ، وكل عصر على التنزل بالنسبة إلى ما قبله ، ولهذا لا يظهر النصر في بعض السرايا في هذه الأزمان بل يقال يا أيها الكفرة اقتلوا الفجرة ، قيل لعليّ رضي الله عنه : ما بال خلافة عثمان مع خلافتك كانت متكدرة ، بخلاف خلافة الشيخين ؟ قال : كنت أنا وعثمان من أعوانهما ، وأنت وأمثالك من أعواننا ، فعلى المجاهدين أن يستغيثوا بربهم ويتضرعوا إليه ، كما تضرع الأصحاب رضي الله عنهم ، لعل الله تعالى يظهر نصره ، واعلم أن أصدق المقال قول الله تعالى وقول رسوله ، وقد وعد وأمد ، فعليك بقوة الإيمان واليقين ، قال الشيخ محي الدين : ولقد ابتلي عندنا رجل من أعيان الناس بالجذام ، نعوذ بالله منه ، وقال الأطباء بأسرهم لما أبصروه ما لهذا المرض دواء ، فرآه شيخ من أهل الحديث ، وكان عنده إيمان بالحديث عظيم ، فقال له يا هذا لم لا تطبّب نفسك ؟ فقال له الرجل : إن الأطباء قالوا : ليس لهذه العلة دواء ، فقال : كذبت الأطباء ، والنبي عليه الصلاة والسلام أحذق منهم ، وقد قال في الحبة السوداء : « إنها شفاء من كل داء »[1] وهذا الداء الذي نزل بك من جملة ذلك ، ثم قال عليّ بالحبة السوداء والعسل ، فخلط هذا بهذا وطلى بها بدنه كله ، ووجهه ورأسه إلى رجليه ، وألعقه من ذلك وتركه ساعة ، ثم أنه غسل فانسلخ من جلده ، ونبت له جلد آخر ، وبرىء وعاد إلى ما كان عليه في حال عافيته ، فتعجب الأطباء والناس من قوة إيمانه بحديث رسول الله ﷺ ، وكان رحمه الله يستعمل الحبة السوداء في كل داء يصيبه ، حتى في الرمد ، إذا رمدت عينه اكتحل بها فبرىء من ساعته . ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ ﴾ روي : أن رسول الله ﷺ سار مع أصحابه حتى نزلوا في كثيب أعفر أي : في تل من الرمل الأحمر ، تسوخ فيه الأقدام أي : تدخل وتغيب ، على غير ماء ونزل المشركون بجانبه الأبعد ، ثم باتوا ليلتهم تلك وناموا ، ثم استيقظوا وقد أجنب أكثرهم ، وليس معهم ماء ، فتمثل لهم الشيطان فوسوس إليهم ، وقال : أنتم تزعمون أنكم على الحق

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، ومسلم وابن ماجه وأحمد .

وأنكم أولياء الله ، وتصلون على غير وضوء وعلى الجنابة ؟ وقد عطشتم ولو كنتم على الحق ما سبقكم المشركون إلى الماء وغلبوكم عليه ، وما ينتظرون إلا أن يضعفكم العطش فإذا قطع أعناقكم مشوا إليكم ، فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ، فحزنوا حزناً شديداً فأشفقوا فأنزل الله عليهم المطر ليلاً حتى سال الوادي ، وامتلأ من الماء ، فاغتسل المسلمون وتوضأوا وشربوا وسقوا دوابهم ، وبنوا على عدوته أي : جانبه حياضاً واشتد الرمل وتلبدت بذلك أرضهم ، حتى ثبتت عليها الأقدام ، وزالت وسوسة الشيطان ، وطابت النفوس وقويت القلوب وتهيأوا للقتل من الغد فذلك قوله تعالى ﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ** ﴾ أي : اذكروا أيها المؤمنون وقت جعل الله النعاس وهو أول النوم قبل أن يثقل غاشياً لكم ومحيطاً وملقى عليكم ﴿ **أَمَنَةً مِنْهُ** ﴾ أي : يغشيكم النعاس فتنعسون أمناً كائناً من الله تعالى ، لا كلالاً وإعياء ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : النعاس عند القتال أمنٌ من الله تعالى ، وهو في الصلاة من الشيطان ، قال الحسن : إن للشيطان ملعقة ومكحلة ، فملعقته الكذب ، ومكحلته النوم عند الذكر ﴿ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ** ﴾ أي : بذلك الماء يعني المطر من الحدث والجنابة ﴿ **وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ** ﴾ أي : وسوسته وتخويفه إياكم من العطش ، ويقال : أراد بالرجز الجنابة التي أصابتهم بالاحتلام فإن الاحتلام إنما يكون من رجز الشيطان أي : تخييله ووسوسته ﴿ **وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ** ﴾ الربطُ : الشدُّ والتقوية والمعنى وليربط قلوبكم ويشدها ويقويها ، بجعلها واثقة بلطف الله تعالى وكرمه ، وجيء بكلمة ﴿ عَلَى ﴾ للإيذان بأن قلوبهم امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها ﴿ **وَيُثَبِّتَ بِهِ** ﴾ أي : بذلك الماء ﴿ **الْأَقْدَامَ** ﴾ حتى لا تسوخ في الرمل .

وفي الآية بيان نعمة الماء ، وأن الخوف من العطش وكذا من الجوع من الشيطان ووسوسته ، فإن المرء إذا كان قوي التوكل يستوي عنده الفقد والوجود ، والله تعالى من اسمه الخالق والرازق ، قالوا وللأسد من الصبر على الجوع وقلة الحاجة إلى الماء ماليس لغيره من السباع ، ولا يأكل من فريسة غيره وإذا شبع من فريسته تركها ولم يعد إليها ، وإذا امتلأ بالطعام ارتاض ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب ، فينبغي للمؤمن أن لا يكون أدون من الأسد في هذه الصفات .

على المرء أن يسعى لتحسين حاله * وليس عليه أن يساعده الدهر

﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ** ﴾ الوحيُ : إلقاء المعنى إلى النفس من وجه خفي ، والمعنى اذكر يا محمد وقت إيحائه تعالى إلى الملائكة ﴿ **أَنِّي مَعَكُمْ** ﴾ أي : بالإمداد والتوفيق في أمر التثبيت فلا تخافوهم ﴿ **فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بالبشارة وتكثير السواد مما تقوى به قلوبهم ، والتثبيت عبارة عن الحمل على الثبات في مواطن الحرب ، والجد في مقاساة شدائد القتال ﴿ **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ**

﴿ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ أي : سأقذف في قلوبهم المخافة من المؤمنين ﴿ فَاضْرِبُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ فَوْقَ الأَعْنَاقِ ﴾ أعاليها التي هي المذابح أو الرؤوس ، وإنما أمر الله بضرب الأعناق لأن أعلى جلدة العنق هو المقتل ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ البنان في اللغة هو الأصابع وغيرها من الأعضاء والمقصود اضربوهم في جميع الأعضاء من أعاليها إلى أسافلها ﴿ ذٰلِكَ ﴾ الضرب والقتل والعقاب واقع عليهم ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : خالفوا وغالبوا من لا سبيل إلى مغالبته أصلاً ، واشتقاق المشاقة من الشق لما أن كلاً من المشاقين في شق خلاف شق الآخر ، كما أن كل سعادة وشقاوة تحصل للعبد في الدنيا والآخرة يكون للعبد فيها مدخل بالكسب ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : ومن يخالف أولياء الله ورسوله ﴿ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ وإظهار التضعيف في موضع الجزم في قوله (يُشَاقِقِ اللهَ) فهو لغة أهل الحجاز ، وغيرهم يُدغم أحد الحرفين في الآخر لاجتماعهما من جنس واحد كما قال تعالى في سورة الحشر (وَمَنْ يُشَاقَّ اللهَ) بقاف واحدة ﴿ ذٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ قوله ذلكم خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير حكم الله ذلكم أي : ثبوت هذا العقاب لكم عاجلاً وثبوت عذاب النار آجلاً ، وإنما قال في عذاب الدنيا فذوقوه ، لأن الذوق يتناول اليسير من الشيء ، فكل ما يلقى الكفار من ضرب أو قتل أو أسر ، فهو بالنسبة إلى ما أعدلهم في الآخرة بمنزلة ذوق المطعوم بالنسبة إلى أكله . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال سوى أصحاب رسول الله ﷺ صفوفهم وقدموا راياتهم فوضعوها مواضعها فوقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على بعير له يدعو الله ويستغيث فهبط جبريل عليه السلام في خمسمائة على ميمنتهم ، وميكائيل عليه السلام في خمسمائة على ميسرتهم ، وألقى الله في قلوب الكفرة الرعب ، ثم حمل المسلمون كلهم على المشركين فهزموهم بإذن الله تعالى ، وفي حق هؤلاء السادات قال ﷺ : « اطلع الله على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لقيه أي : رآه ﴿ زَحْفاً ﴾ الزحفُ : الدبيبُ يقال : زحف الصبي زحفاً من باب فتح اذا دب على إسته قليلاً قليلاً ، سمي به الجيش الدهم المتوجه إلى العدو لأنه لكثرته وتكائفه يرى كأنه يزحف ، والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ فلا تولوهم أدباركم فضلاً عن الفرار ، بل قابلوهم وقاتلوهم مع قلتكم ، عدل عن لفظ الظهور إلى لفظ الأدبار ، تقبيحاً لفعل الفارّ وتشنيعاً لانهزامه ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ أي : ومن يجعل ظهره إليهم وقت اللقاء والقتال ﴿ إِلا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ ﴾ إما بالتوجه الى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء ، وإما بالفر للكرّ بأن يخيل لعدوه أنه منهزم ليغره ويخرجه من بين أعوانه ، ثم يعطف عليه وحده أو مع من في المكمن من أصحابه وهو باب من « خُدَع الحرب »

ومكايدها ، ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ أي : منحازاً إلى جماعة أخرى من المؤمنين ، لينضم إليهم ، ثم يقاتل معهم العدو ، فالانهزام حرام إلا في هاتين الحالتين فإن كل واحدة منهم ليست انهزاماً في الحقيقة ، بل من قبيل التهيء والتقوّى للحرب ، فمن ولّى ظهره لغير أحد هذين الغرضين ﴿ فَقَدْ بَاءَ ﴾ أي : رجع ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ عظيم كائن ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ تعالى ﴿ وَمَأْوَاهُ ﴾ في الآخرة ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ أي : بدل ما أراد بفراره . مأوى ينجيه من القتل ، والمأوى المكان الذي يأوي إليه الإنسان أي : يأتيه ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : المرجع ، جهنم وهذا الوعيد وإن كان بحسب الظاهر متناولاً لكل من يولي دبره وقت ملاقاة الكفار إلا أنه مخصوص بما إذا لم يزد العدو على ضعف المسلمين لقوله تعالى في آخر هذه السورة (الآن خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْف يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ) . قال ابن عباس رضي الله عنه : من فر من ثلاثة لم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فرّ ، أي : ارتكب المحرم ، وهو كبيرة الفرار من الزحف . وعدّ بعض العلماء الكبائر إلى سبعين ، منها الفرار من الجيش في الغزو ، إذا كان مثلاً أو ضعفاً وكل ما كان شنيعاً بين المسلمين وفيه هتك حرمة الله والدين ، فهي كبيرة تسقط العدالة في الشهادة ، فعلى العاقل أن يقدم على الحرب بقلب جريء ، ويعلم أن الجبن لا يؤخر أجله ، وأن الإقدام على القتال لا يعجل موته .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ أي : إن افتخرتم بقتل الكفار يوم بدر ، فاعلموا أنكم لم تقتلوهم بقوتكم وقدرتكم ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ﴾ بنصركم وتسليطكم عليهم وإلقاء الرعب في قلوبهم . روي : أنه لما طلعت قريش من الكثيب الذي جاؤا منه إلى الوادي ، قال عليه الصلاة والسلام : « اللهمَّ هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إني أسألك ما وعدتني » ثم أخذ قبضة من تراب فرمى بها في وجوههم . وقال : « شاهت الوجوه » أي : قبحت ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه تراب فانهزموا ، وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ يا محمد حقيقة ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ صورة وإلا لكان أثر الرمي من جنس آثار الأفاعيل البشرية ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَىٰ ﴾ فأوصل أجزاء تلك القبضة إلى عيون جميع المشركين حتى انهزموا وتمكنتم من قطع دابرهم ، فصورة الرمي صدرت منه عليه الصلاة والسلام إلا أن أثرها إنما صدر من الله تعالى إذ ليس في وسع البشر أن يرمي كفاً من الحصباء في وجوه جيش فلا يبقى فيهم عين إلا ويصيبها منه شيء ، وإنه تعالى كان مسبب أسباب القتل ، من إمداد الملائكة ، وإلقاء الرعب في قلوب الكفار ، وتقوية قلوب المؤمنين وغير ذلك .

﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ ﴾ أي : ليعطيهم من عنده تعالى وينعم عليهم ﴿ بَلاءً حَسَناً ﴾ أي : عطاء جميلاً ونعمة عظيمة ، بالنصر والغنيمة ، ومشاهدة الآيات غير مشوبة بمقاساة الشدائد والمكاره ،

والبلاء يطلق على النعمة وعلى المحنة لأن أصله الاختيار وهو كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر ، يكون بالنعمة أيضاً لإظهار الشكر .

﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ ﴾ لاستغاثتهم ودعائهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم وأحوالهم الداعية إلى الإجابة ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ﴿ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ ﴾ معطوف على ذلكم أي : المقصود إبلاء المؤمنين ، وتوهين كيد الكافرين ، وإبطال حيلهم ، والوهنُ : الضعف ، والكيد : المكر والحيلة والحرب ، وفي الآية إشارة إلى أن التأثير من الله تعالى ، والعبد آلة . فينبغي للمرء أن لا يعجب بنفسه وعمله ، قال المسيح : يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأته الريح ، وكم من عابد قد أفسده العجب . فحق للعاقل أن يرى حقارة عمله وقلة مقداره ، وأن يرى منة الله عليه أشرف من قدر عمله ، وأن يحذر على فعله من أن يقع على وجه لا يصلح لله تعالى ، ولا يقع منه موقع الرضى ، فتذهب عنه القيمة التي حصلت له ، ويعود إلى ما كان في الأصل من الثمن الحقير من دراهم أو دوانق ، ومثاله أن العنقود من العنب تكون قيمته في السوق دانقاً فإذا أهداه واحد إلى الملك فوقع منه موضع الرضى ، يهب له على ذلك ألف دينار فصار ما قيمته حبة بألف دينار ، فإذا لم يرضه الملك أورده عليه رجع إلى قيمته الخسيسة من حبة أو دانق فكذلك ما نحن فيه .

﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا ﴾ الخطاب لأهل مكة على سبيل التهكم بهم ، وذلك أنهم حين أرادوا الخروج إلى بدر ، تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين ، وروي : أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم انصر أفضل الفريقين وأحقهما بالنصر ، اللهم أينا أقطع للرحم ، وأفسد للجماعة فأهلكه ، دعا على نفسه لغاية حماقته ، فالمعنى إن تستنصروا يا أهل مكة لأعلى الجندين ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ ﴾ حيث نصر أعلاهما وقد زعمتم أنكم الأعلى ، فالتهكم في نفس الفتح بالهزيمة والقهر والخزي ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﴿ فَهُوَ ﴾ أي : الانتهاء ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي : من الحرب الذي ذقتم غائلته ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ لمحاربته ﴿ نَعُدْ ﴾ لنصره ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ ﴾ أي : لن تدفع أبداً ﴿ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ أي : جماعتكم التي تجمعونهم وتستغيثون بهم ﴿ شَيْئاً ﴾ أي : من الإغناء ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فئتكم في العدد ﴿ وَأَنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ ﴾ أي : ولأن الله مع المؤمنين بالنصر والمعونة فعل ذلك ، وفي الآية إشارة إلى أن النجاة في الإيمان والتسليم لأمر الله الملك العلام ، وأن غاية الباطل هو الزوال والاضمحلال وإن ساعده الإمهال :

وإذا السعادة لاحظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا ﴾ بحذف إحدى التاءين أي : لا تتولوا والتولي الإعراض ﴿ عَنْهُ ﴾ أي : عن رسول الله ولم يقل عنهما لأن طاعة الله إنما تكون بطاعة رسوله ﴿ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي : والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته سماع فهم وتصديق ﴿ وَلا تَكُونُوا ﴾ بمخالفة الأمر والنهي ﴿ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا ﴾ على جهة القبول ﴿ وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ للقبول وإنما سمعوا به للرد والإعراض عنه ، كالكفار الذين قالوا سمعنا وعصينا ، وكالمنافقين الذين يدعون السماع والقبول بألسنتهم ويضمرون الكفر والتكذيب . ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ أي : شر ما يدب على الأرض ، أو شر البهائم ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي : في حكم قضائه ﴿ الصُّمُّ ﴾ الذين لا يسمعون الحق ﴿ الْبُكْمُ ﴾ الذين لا ينطقون به ﴿ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ الحق ، عدّهم من البهائم ثم جعلهم شرها ، لإبطالهم ما ميزوا به وفضّلوا لأجله ، وإنما وصفهم بعدم العقل ، لأن الأصم الأبكم ، إذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبه ، وأما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فهو الغاية في الشر وسوء الحال .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً ﴾ شيئاً من جنس الخير ﴿ لأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم وتدبر ، ولوقفوا على حقيقة الرسول وأطاعوه وآمنوا به ، ولكن لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك لخلوهم عنه بالمرة ، عبَّر عن عدم استقرار الخير فيهم ، بعدم علم الله تعالى بوجوده فيهم ، لكونه أبلغ في الدلالة على انعدام الخير فيهم ، لأن نفي لازم الشيء ، نفيٌ لنفس ذلك الشيء ببيِّنة ، فيكون أبلغ من نفي نفس ذلك الشيء ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم وهم على هذه الحالة ﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ عما سمعوه من الحق ولم ينتفعوا به قط ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أي : لتولوا على أدبارهم والحال أنهم معرضون عما سمعوه بقلوبهم لعنادهم ، واعلم أن الإنسان خلق في أحسن تقويم ، قابلاً للتربية والترقي ، مستعداً لكمال لا يبلغه المَلَك المقرَّب ، فهو في بدء الخلقة دون الملك وفوق الحيوان ، فبتربية الشريعة يصير فوق الملك فيكون خير البرية ، وبمخالفة الشريعة ومتابعة الهوى يصير دون الحيوان فيكون شر البرية . فعلى العاقل أن لا يخالف أمر الرسول وشريعته ، وكل ما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام أو نهى عنه ففيه حكمة ومصلحة ، ولست بمأمور بالتفتيش عنها وإنما يلزم عليك الإطاعة والانقياد ، أفترضى لنفسك أن تصدق ابن البيطار فيما ذكره في العقاقير والأحجار ، فتبادر إلى امتثال ما أمرك به ، ولا تصدق سيد البشر صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يخبر عنه ، وتتوانى عن الإتيان بما أمر به ؟! واعلم أنه لا يمكنك الوصول إلا بأمرين : أحدهما بمحبته ﷺ وبأن تؤثر حبه على نفسك وأهلك ومالك . والثاني : بمتابعته ﷺ في جميع ما أمر به ونهى عنه ، وبذلك تستحكم مناسبتك به ، وبكمال متابعتك يحصل لك الارتفاع إلى أوج الكمال ، ومن علامات المحبة

حب القرآن ، وحب تلاوته ، وإلا كنت من المعرضين عن سلوك طريقته ﷺ ، ومن تمام محبته إيثار الفقر والزهد في الدنيا ، اللهم اعصمنا من المهالك واجعلنا من السالكين إلى خير المسالك ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ** ﴾ أي : أجيبوا الله ورسوله بأن تطيعوهما ﴿ **إِذَا دَعَاكُمْ** ﴾ أي : الرسول إذ هو المباشر لدعوة الله تعالى ، ودعاؤه بأمر الله ، فهو دعاء الله تعالى ، ولذا وحدَّ الفعل ﴿ **لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ أي : إلى الذي يحييكم ، وهو أنواع : منها العلوم الدينية فإنها حياة القلب ، والجهل موته :

لا تَعْجِبنَّ الجَهُولَ حُلَّتُهُ * فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ

وفي الأثر « إنَّ الله تعالى ليحيي القلب الميت بالعلم ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر » ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** ﴾ كل ما حجز بين شيئين فقد حال بينهما ، وهو تمثيل لغاية قربه من العبد ، وهو أقرب إلى قلبه منه ، لأن ما حال بينك وبين الشيء فهو أقرب إلى الشيء منك ، أو حثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوب وتصفيتها ، قبل أن يحول الله بينه وبين القلب بالموت ، كأنه قيل : بادر إلى تكميل النفوس قبل فوات الفرصة ، فإنها قد تفوت بأن يحدث الله أسباباً لا يتمكن العبد معها من تصريف القلب فيما يشاؤه من إصلاح أمره فيموت غير مستجيب لله ورسوله ، ويحتمل أن يكون المراد بالحيلولة تصوير تملكه تعالى قلب العبد وغلبته عليه ، فيفسخ عزائمه ، ويغير نياته ومقاصده ، ولا يمكنه من إمضائها على حسب إرادته ، فيحول بينه وبين الكفر إن أراد سعادته ، وبينه وبين الإيمان إن قضى شقاوته ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول كثيراً : « يا مقلب القلوب والأبصار ، ثبِّتْ قَلبي على دينك »[1] ﴿ **وَأَنَّهُ** ﴾ أي : واعلموا أيضاً أن الله تعالى ﴿ **إِلَيْهِ** ﴾ لا إلى غيره ﴿ **تُحْشَرُونَ** ﴾ تبعثون وتجمعون فيجازيكم على حسب أعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فسارعوا إلى طاعة الله وطاعة رسوله وبالغوا في الاستجابة لهما . ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾ المعنى : لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم ، بل تعمه وغيره كإقرار المنكر بين أظهرهم ، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وافتراق الكلمة ، وظهور البدع ، والتكاسل في الجهاد ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ ولذلك يصيب بالعذاب من لم يباشر سببه ، وفيه تحذير من شدة العقوبة لمن أهاج الفتن . وفي بعض الأخبار « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها »[2] .

قال القرطبي : فإن قيل قال الله تعالى (**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**) وهذا يوجب أن لا يؤاخذ

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه والترمذي وأحمد . (٢) أخرجه الرافعي عن أنس كذا في الفتح الكبير ٢ / ٢٨٠.

أحد بذنب غيره ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب ، فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على من رآه أن يغيره ، فإن سكت عليه فكلهم عاص ، هذا بفعله ، وهذا برضاه ، فانتظم في العقوبة .

﴿ **وَاذْكُرُوا** ﴾ أيها المهاجرون ﴿ **إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ** ﴾ أي : وقت كونكم قليلاً في العدد ﴿ **مُسْتَضْعَفُونَ** ﴾ أي : مقهورون تحت أيدي قريش ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ أي : أرض مكة ﴿ **تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ** ﴾ التخطف : الأخذ والاستلاب بسرعة ، وهم كانوا يخافون أن يخرجوا من مكة حذراً من أن يستلبهم كفار قريش ويذهبوا بهم ﴿ **فَآوَاكُمْ** ﴾ أي : جعل لكم مأوى ترجعون إليه وهو المدينة دار الهجرة ﴿ **وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ** ﴾ على الكفار ﴿ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ من الغنائم التي لم تكن حلالاً للأمم السالفة ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ هذه النعم . قال الجنيد قدس سره : كنت عند السري وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ، ما الشكر ؟ فقلت : أن لا تعصي الله بنعمه ، فقال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك ، فلا أزال أبكي على هذه الكلمة . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ** ﴾ روي : أنه عليه الصلاة والسلام حاصر بني قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوه الصلح كما صالح إخوانهم بني النضير ، على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من الشام ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا « أبا لبابة بن عبد المنذر » وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله كانت في أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا : ما ترى هل ننزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه بالذبح أي : إن حكم سعد فيكم أن تقتلوا صبراً فلا تنزلوا على حكمه ، قال أبو لبابة : فمازالت قدماي من مكانهما حتى علمتُ أني قد خنتُ الله ورسوله وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أراد منهم أن ينزلوا على حكم سعد ويرضوا بما حكم فيهم ، وهو صرفهم عنه فنزلت هذه الآية ، فشدَّ نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : لا أفك نفسي حتى أموت أو يتوب الله عليَّ ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحل نفسك ، فقال : لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني ، فجاءه عليه الصلاة والسلام فحله ، فقال : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي فقال عليه الصلاة والسلام : « يجزئك الثلث أن تتصدق به » ﴿ **وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ** ﴾ فيما بينكم أي : لا تخونوها فهو مجزوم معطوف على الأول ﴿ **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ أنكم تخونون يعني أن الخيانة تُوجد منكم عن عمد لا عن سهو ، ولما نهى عن الخيانة نبَّه على أن الداعي إليها إنما هو حب المال والأولاد ، ألا يرى أن أبا لبابة إنما حمله على ما فعل ماله وأهله وولده الذين كانوا في بني قريظة ، لأنه إنما ناصحهم لأجلهم وخان

المسلمين بسببهم فقال ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ الفتنة : تطلق على الآفة والبلاء ، وقد تطلق على الابتلاء والامتحان ، فالمعنى : إنما أموالكم وأولادكم أسباب مؤدية إلى الوقوع في الآفة ، التي هي ارتكاب المعصية في الدنيا ، والوقوع في عقاب الآخرة ﴿ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لمن آثر رضى الله وراعى حدوده فيهم ، فعلقوا همكم بما يؤديكم إليه ولا يحملنكم حبهما على الخيانة .

قال بعض السلف : كل ما شغلك عن الله سبحانه من مال وولد فهو مشئوم عليك ، وأما ما كان من الدنيا يقرب من الله ويعين على عبادته فهو المحمود بكل لسان ، المحبوب لكل إنسان . واعلم أن الخيانة على أنواع : فالفرائض والسنن أعمال ائتمن الله تعالى عليها عباده ، ليحافظوا على أدائها في أوقاتها ، برعاية حدودها وحقوقها ، فمن ضيعها فقد خان الله تعالى فيها ، والجسد وما يتبعه من الأعضاء والقوى أمانات ، والأهل والأولاد والأموال أمانات ، والإماء والعبيد وسائر الخدم أمانات ، والوزارة والإمارة والقضاء والفتوى وما يلحقها أمانات وفي الحديث : « منْ قلَّدَ إنساناً عملاً وفي رعيته من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين » (١) .

وفي الحديث : « أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإن خان خرجت من بينهما وجاء الشيطان » (٢) ففي كل ذلك يلزم العبد أن يكون أميناً غير خائن ، وإلا فقد تعرض لسخط الله تعالى ، قال ابن عباس : كلب أمين خير من صاحب خائن ، وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم ، وكان شديد المحبة لهم ، فخرج في بعض منتزهاته ومعه ندماؤه ، فتخلف منهم واحد فدخل على زوجته ، فأكلا وشربا ثم اضطجعا فوثب الكلب عليهما ، فلما رجع الحارث إلى منزله وجدهما قتيلين ، فعرف الأمر فأنشد يقول :

وما زال يرعى ذمتي ويحوطني * ويحفظ عِرْسي والخليل يخون
فيا عجباً للخِلّ تحليل حرمتي * ويا عجباً للكلب كيف يصون

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ ﴾ أي : في كل ما تأتون وتذرون ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ فُرْقَاناً ﴾ هداية في قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أي : يسترها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذُنُوبَكُمْ بالعفو والتجاوز عنها ﴿ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ أي : عظيم

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه بلفظ : « من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » وانظر فيض القدير ٦ / ٥٦ .
(٢) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب البيوع .

الفضل على عباده ، وهو تعليل لما قبله ، وتنبيه على أن وعد الله لهم على التقوى تفضل وإحسان ، لا أنه مما توجبه التقوى كما إذا وعد السيد عبده إنعاماً على عمل ، وفي الآية أمور ؛ الأول : التقوى وهو في مرتبة الشريعة ما أشير إليه بقوله تعالى (**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**) وفي مرتبة الحقيقة ما أشير إليه بقوله تعالى (**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**) . الثاني : أن التقوى أسندت إلى المخاطبين ، وجعل الفرقان إلى الله تعالى ، فالله تعالى إذا أراد بالعبد خيراً اصطفاه لنفسه ، وجعل في قلبه سراجاً من نور قدسه ، يفرق به بين الحق والباطل ، والوجود والعدم ، والحدوث والقدم ، ويتبصر به عيوب نفسه ، كما حكي عن المقدسي ، قال : صحبت إبراهيم بن أدهم فسألته عن بداية أمره ، وما كان سبب انتقاله من الملك الفاني إلى الملك الباقي ، فقال لي : يا أخي ، كنت جالساً يوماً في أعلى قصر ملكي ، والخواص قيام على رأسي فأشرفت من الطاق فرأيت رجلاً من الفقراء جالساً بفناء القصر ، وبيده رغيف يابس ، فبله بالماء وأكله بالملح الجريش وأنا أنظر إليه إلى أن فرغ من أكله ، ثم شرب شيئاً من الماء وحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ونام في فناء القصر ، فألهمني الله سبحانه وتعالى الفكر فيه ، فقلت لبعض مماليكي : إذا قام ذلك الفقير فأتني به ، فلما استيقظ من نومه قال له الغلام : إن صاحب القصر يريد أن يكلمك ، قال : بسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، وقام معه ودخل عليَّ فلما نظر إليَّ سلَّم عليَّ فرددت عليه السلام ، وأمرته بالجلوس فجلس ، فلما اطمأن قلت له : يا فقير ، أكلت الرغيف ، وأنت جائع فشبعت . قال : نعم ، قلت : وشربت الماء على شهوة فرويت ، قال : نعم ، قلت : ثم نمت طيباً بلا هم وغم فاسترحت ، قال : نعم ، فقلت في نفسي وأنا أعاتبها : يا نفس ما أصنع بالدنيا والنفس تقنع بما رأيت وسمعت ؟ فعقدت التوبة مع الله تعالى ، فلما انصرم النهار وأقبل الليل لبست مسحاً من صوف ، وقلنسوة من صوف وخرجت حافياً سائحاً إلى الله تعالى . والثالث : أن المغفرة فضل عظيم من الله تعالى ، فلابد للمرء من حسن الظن بالله تعالى ، فإنها ليست بمقطوعة ، قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : « إني أعلمك خمس كلمات هن عماد الدين :

١ ـ ما لم تعلم أن قد زال ملكي فلا تترك طاعتي .

٢ ـ وما لم تعلم أن خزائني قد نفدت فلا تهتم برزقك .

٣ ـ وما لم تعلم أن عدوك قد مات يعني إبليس فلا تأمن مفاجأته ولا تدع محاربته .

٤ ـ وما لم تعلم أني قد غفرت لك فلا تعب المذنبين .

٥ ـ وما لم تدخل جنتي فلا تأمن مكري .

فعلى العاقل أن يجتهد إلى آخر العمر ، كي يكفر الله عنه سيئات وجوده الفاني ، ويستره بأنوار جماله وجلاله ، ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تذكير لمكر قريش حين كان بمكة ، ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم ، وذلك أنهم اجتمعوا في دار الندوة وهي الدار التي بناها بن كلاب بمكة ، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ، فتشاوروا في أمر النبي عليه الصلاة والسلام منهم عتبة وشيبة ابنا أبي ربيعة ، وأبو جهل ، وأبو سفيان ، والنضر بن الحارث وغيرهم من الرؤساء والأكابر ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ كبير ، عليه ثياب أطمار ، فجلس بينهم فقالوا ما لك يا شيخ دخلت في خلوتنا بغير إذننا ؟ فقال : أنا رجل من أهل نجد قدمت مكة فأحببت أن أسمع حديثكم ، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً ، فقالوا : هذا رجل لا بأس عليكم منه ، فتكلموا فيما بينهم فبدأ « عمرو بن هشام » فقال : أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً فتجعلوه في بيت تسدون عليه بابه وتشدون عليه وثاقه ، وتجعلون له كوة تدخلون عليه طعامه وشرابه ، فيكون محبوساً عندكم إلى أن يموت ، فقال إبليس : بئس الرأي ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم ! فقالوا : صدق والله الشيخ ، ثم تكلم أبو البختري فقال : أرى أن تحملوه على بعير فتشدوا وثاقه عليه ثم تخرجوه من أرضكم حتى يموت أو يذهب حيث شاء ، فقال إبليس : بئس الرأي ، تعمدون إلى رجل أفسد جماعتكم ومعه منكم طائفة فتخرجوه إلى غيركم فيأتيهم فيفسد منهم أيضاً جماعة بما يرون من حلاوة كلامه ، وطلاقة لسانه ، وتجتمع إليه العرب وتستمع إلى حسن حديثه ثم ليأتينكم بهم فيخرجكم من دياركم ، ويقتل أشرافكم ؟ فقالوا : صدق والله الشيخ ، فتكلم أبو جهل فقال : أرى أن يجتمع من كل بطن منكم رجل ، ويأخذون السيوف فيضربونه جميعاً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل فلا يدري قومه من يأخذونه ، ولا يقومون على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا ، فقال إبليس : صدق والله هذا الشاب هو أجودكم رأياً ، القول قوله ، لا أرى غيره ، فتفرقوا على رأيه ، فنزل جبرائيل عليه السلام فأخبر النبي بذلك ، وأمره أن لا يَبيتَ في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأمره بالهجرة إلى المدينة فبيت عليّاً رضي الله عنه على مضجعه ، وخرج هو مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الغار ، والمكرُ : حيلة وتدبير في إهلاك أحد وإفساد أمره بطريق الخفية ، بحيث لا يعلم المرء ذلك إلا عند وقوعه ، والمعنى اذكر يا محمد وقت مكرهم بك ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالوثاق والحبس كما قال عمرو بن هشام ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ أي : بسيوفهم المختلفة كما قال أبو جهل ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ أي : من مكة من بين أظهرهم إلى غيرهم كما قال البختري ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ أي : يرد مكرهم عليهم ، والمكر وأمثاله لا يسند إليه تعالى إلا على طريق المقابلة والمشاكلة ، ولا يحسن ابتداء لتضمنه معنى الحيلة والخدعة وهي لا تليق بعظمة الله تعالى ﴿ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ لا يُعبأ بمكرهم عند مكره ، لأنه لا يمكر إلا بحق وصواب ، ومكرهم باطل

وظلم ، واعلم أن للخلق مكراً وللحق مكراً ، فمكر الخلق من الحيلة والعجز ، ومكرُ الخالق من الحكمة والقدرة ، فمكر الخلق مع مكر الحق باطل زاهق ، ومكر الحق حق ثابت .

قال أبو العيناء : كانت لي خصماء ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود ، وقلت : قد تظاهروا فصاروا يداً واحداً فقال : (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم) فقلت : لهم مكر فقال (وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَيِّءُ إلا بِأَهْلِهِ) فقلت : هم كثير فقال : (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ) فرجعت مرتاح الفؤاد.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ ﴾ روي : أن النضر بن الحارث من بني عبد الدار ، كان يختلف تاجراً إلى فارس والروم والحيرة ، فيسمع أخبار رستم وأحاديث العجم ، وكان يمر باليهود والنصارى فيراهم يقرأون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون ، فجاء مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلي ويقرأ القرآن ، فطفق يقعد مع المستهزئين ويقرأ عليهم أساطير الأولين أي : ما سطروه في كتبهم من أخبار الأمم الماضية وأسمائهم ، وكان يزعم أنها مثل ما يذكره رسول الله ﷺ من قصص الأولين ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على النضر ومتابعيه ﴿ آيَاتُنَا ﴾ القرآنية ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ﴾ هذا الكلام ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ وهذا كما ترى غاية المكابرة ونهاية العناد ، وقد تحداهم عشر سنين فما استطاعوا معارضته مع فرط استنكافهم أن يُغلبوا ، خصوصاً فيما يتعلق بالفصاحة والبيان ، فلما تحقق إفحامهم دعتهم شدة المكابرة والعناد إلى أن علقوا معارضته بمشيئتهم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هَذَا إلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي : ما سطره الألون من القصص ، جمع أسطورة وهي المسطورة المكتوبة . ﴿ وَإِذْ قَالُوا ﴾ أي : واذكر وقت قول النضر ومتابعيه ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ هُوَ الحَقَّ ﴾ المنزل ﴿ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾ نازلة ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ عقوبة علينا كما أمطرتها على قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ سواه مما عذب به الأمم ، والمراد به التهكم وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً وحاشاه ، فانظر أنه من غاية ضلالته وجهالته قال ما قال ، ولم يقل بدلاً عنه اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ومتعنا به واجعله شفاء قلوبنا ، ونوِّرْ به صدورنا وأمثال هذا ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ ﴾ مريداً ﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ لأن العذاب إذا نزل عمَّ ، ولم يعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها ، وفيه تعظيم للنبي عليه الصلاة والسلام وحفظ لحرمته ، وقد أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، والرحمة والعذاب ضدان والضدان لا يجتمعان ، والآية دليل على شرفه عليه الصلاة والسلام واحترامه عند الله ، حيث جعله سبباً لأمان العباد وعدم نزول العذاب ، وفي ذلك إيماء إلى أنَّ الله تعالى يرفع عذاب قوم لاقترانهم بأهل الصلاح والتقى .

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ المراد استغفار من بقي فيهم من المؤمنين

المستضعفين ، الذين لا يستطيعون المهاجرة عنهم ، وقيل : معناه وفي أصلابهم من يستغفر ، وقيل : معناه وفيهم من يئول أمره إلى الاستغفار من الكفر ، قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : كان في الأرض أمانان فرفع أحدهما وبقي الآخر ، فأما الذي رفع فهو رسول الله ﷺ ، وأما الذي بقي فالاستغفار ، وقرأ بعده هذه الآية . ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ** ﴾ أي : أيّ شيء حصل لهم في انتفاء العذاب عنهم ، وكيف لا يعذبون ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ **يَصُدُّونَ** ﴾ يمنعون الرسول والمؤمنين ﴿ **عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ أي : عن طواف الكعبة شرفها الله كما وقع عام الحديبية ومن صدهم عنه ألجأ رسول الله ﷺ إلى الهجرة وكانوا يقولون نحن ولاة البيت الحرام ، فنصد من نشاء وندخل من نشاء ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ **وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ أي : مستحقين ولاية أمر المسجد الحرام مع شركهم ﴿ **إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا الْمُتَّقُونَ** ﴾ من الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن لا ولاية لهم عليه ، وفيه إشعار بأن منهم من يعلم ذلك ولكنه يعاند وقيل أريد بأكثرهم كلهم كما يراد بالقلة العدم ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ** ﴾ أي : دعاء المشركين ﴿ **عِنْدَ الْبَيْتِ** ﴾ أي : بيت الله وهو الكعبة ﴿ **إِلاَّ مُكَاءً** ﴾ صفيراً من مكا يمكو مكواً ومكاء إذا صفّر ، ﴿ **وَتَصْدِيَةً** ﴾ تصفيقاً وهو تصويت اليدين بضرب إحداهما على الأخرى ، وأصلها الصدى وهو ما يسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية ، وكان تقرب المشركين إلى الله بالصفير والتصفيق ، يفعلونها عند البيت مكان الدعاء والتسبيح ، ويعدونها نوعاً من العبادة والدعاء ، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، مشبكين بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، ﴿ **فَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ أي : عذاب القتل والأسر يوم بدر ﴿ **بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ فالكفر والمعصية سبب للوقوع في العذاب ، والتوبة والاستغفار وسيلة إلى فيض الرحمة من الوهاب ، وهي صابون الأوزار ، ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ نزلت في المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً من أشراف قريش ، يطعم كل واحد منهم عسكر الكفار كل يوم عشر جزر ، جمع جزور وهو البعير ذكراً كان أو أنثى ، ﴿ **يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ على عداوة الرسول ﷺ ﴿ **لِيَصُدُّوا** ﴾ أي : يمنعوا الناس ﴿ **عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي : دين الله واتباع رسوله ، لأنه طريق ثوابه والخلود في جنته ﴿ **فَسَيُنْفِقُونَهَا** ﴾ السين في قوله فسينفقونها للتأكيد لا للتسويف ، إلا أن مساق الأول لبيان غرضهم من الإنفاق ، ومساق الثاني لبيان عاقبته ﴿ **ثُمَّ تَكُونُ** ﴾ تلك الأموال ﴿ **عَلَيْهِمْ حَسْرَةً** ﴾ ندماً وغماً لفواتها من غير حصول المقصود ، ولما كانت عاقبة إنفاقها حسرة في قلوبهم ، جعلت ذوات الأموال كأنها عين الحسرة للمبالغة ﴿ **ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ آخر الأمر ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ وأصروا على الكفر ﴿ **إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ أي : يساقون لا إلى غيرها ﴿ **لِيَمِيزَ اللهُ** ﴾ اللام متعلقة بيحشرون ﴿ **الْخَبِيثَ** ﴾ فريق الكفار ﴿ **مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ فريق المؤمنين

﴿ وَيَجْعَلَ ﴾ الفريق ﴿ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَه جَمِيعاً ﴾ أي : يجمعهم ويضم بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا ويتزاحموا ، فالركم : الجمع بين أشياء بحيث يتراكب بعضها فوق بعض ، ومنه السحاب المركوم ﴿ فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾ كله ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الفريق الخبيث ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون في الخسران لأنهم خسروا أموالهم وأنفسهم .

ويروى : أن الله تعالى يضم الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقيها في جهنم ويعذب أربابها كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ وروي : أن أبا سفيان استأجر ليوم أحد ألفين من العرب على محاربة الرسول ﷺ ، وأنفق عليهم أربعين أوقية ، فانظر إلى الكفار وجسارتهم على الإنفاق لغرض فاسد وهو الصد عن سبيل الله ، وأقل من القليل من المسلمين من يبذل ماله ولو قليلاً لجذب القلوب والوصول إلى رضى المحبوب ، فلابد للمرء من قطع النفس عن مألوفها وهو حب المال ، ومن كلمات الجنيد قدس سره ما أخذنا التصوف عن القال والقيل ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات ، وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رجل : يا رسول الله أيُّ الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله » قال : ثم من ؟ قال : رجل معتزلٌ في شِعب من الشعاب يعبد ربه ، ويَدَع النَّاس من شَرِّه »[1] وفيه دليل على فضل العزلة وهي مستحبة عند فساد الزمان ، وتغير الإخوان ، ووقوع الفتن ، وتراكم المحن ، كما فعله جماعة من الصحابة رضي الله عنهم ، ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والمراد أبو سفيان وأصحابه ﴿ إِنْ يَنْتَهُوا ﴾ عن معاداة الرسول بالدخول في الإسلام ﴿ يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ من ذنوبهم قبل الإسلام ﴿ وَإِنْ يَعُودُوا ﴾ إلى قتاله انتقمنا منهم وأهلكناهم ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء بالتدمير ، كما جرى على أهل بدر فليتوقعوا مثل ذلك وأنشد بعضهم :

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترف * ثم انتهى عما أتاه واقترف
لقوله قل للذين كفروا * إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ أي : قاتلوا المشركين ﴿ حَتَّىٰ ﴾ إلى أن ﴿ لا تَكُونَ ﴾ توجد منهم ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أي : شرك ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ وتضمحل الأديان الباطلة ، إما بإهلاك أهلها جميعاً ، أو برجوعهم عنها خشية القتل ﴿ فَإِنْ انْتَهَوْا ﴾ عن الكفر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيهم على انتهائهم عنه وإسلامهم ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي : أعرضوا عن قبول الحق ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن .

﴿ مَوْلاكُمْ ﴾ ناصركم فثقوا به ، ولا تبالوا بمعاداتهم ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ ﴾ لا يضيع من تولاه ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ لا يغلب من نصره ، وفي الآية حث على الجهاد وفي الحديث : « موقف ساعة في سبيل الله ، خيرٌ من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود » (١) .

﴿ وَاعْلَمُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنَّمَا ﴾ حق ما هذه أن تكتب منفصلة ، لكنها كتبت متصلة اتباعاً للرسم أي : أنَّ الذي ﴿ غَنِمْتُمْ ﴾ أخذتموه وأصبتموه من الكفار قهراً وغلبة ، ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي : ما غنمتموه كائناً مما يقع عليه اسم الشيء ، حتى الخيط والمخيط ، غير أن سلب المقتول للقاتل إذا نفله الإمام ، وأن الأسارى يخير فيها الإمام ﴿ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ﴾ أي : فالحكم أن لله خمسه ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أعاد اللام في « لذي القربى » دون غيرهم من الأصناف الثلاثة ، لدفع توهم اشتراكهم في سهم النبي ﷺ لمزيد اتصالهم به عليه الصلاة والسلام ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، دون بني عبد شمس ، وبني نوفل ، وإنما خص ذوو قرابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ببني هاشم وبني المطلب ، لأنهم لم يفارقوه عليه الصلاة والسلام في جاهلية ولا في إسلام ، فأعطوا الخمس ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ جمع يتيم وهو الصغير المسلم الذي مات أبوه ، يصرف إليه سهم من الخمس إذا كان فقيراً ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ جمع مسكين وهو الذي أسكنه الضعف عن النهوض لحاجته أي : أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أي : المسافر البعيد عن ماله . واعلم أن اللام في الآية لام الاستحقاق لخمس الغنيمة ، فاقتضى الظاهر أن تكون المصارف ستة أقسام ، لكن الجمهور على أن ذكر الله تعالى للتعظيم وافتتاح الكلام باسمه تعالى على طريق التبرك ، لا لأن لله نصيباً من الخمس ، فإن الدنيا والآخرة كلها له سبحانه ، وسهم رسول الله ﷺ سقط بوفاته ، لأن الأنبياء لا يورثون ، قال ابن الشيخ : لأنه عليه الصلاة والسلام لم يخلفه أحد في الرسالة فلا يخلفه في سهمه هذا عند الإمام الأعظم وأما الشافعي فيصرف سهمه عليه الصلاة والسلام إلى مصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام ، وكذا سقط سهم ذوي القربى بوفاته عليه الصلاة والسلام فلا يعطى لهم لأجل قرابتهم بل يعطى لفقرهم ، وكان عليه الصلاة والسلام يعطيهم غنيهم وفقيرهم لقرابتهم لا لفقرهم ، حتى كان يعطي العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله ، والحاصل أن ذوي القربى أسوة لسائر الفقراء أي : يدخلون فيهم ويقدمون على غيرهم ، ولا يعطى أغنياؤهم . وفي شرح الآثار عن أبي حنيفة أن الصدقات كلها أي : فرضها ونفلها جائزة على بني هاشم ، والحرمة كانت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لوصول خمس الخمس إليهم ، فلما سقط ذلك بموته حلت لهم الصدقة . وتقسم الأخماس الأربعة بين

---

(١) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي ، وانظر الترغيب والترهيب ٢ / ١٥٢ . وأخرجه أحمد ٢ / ٤٤٦ بلفظ : « مقام أحدكم في سبيل الله .. » بأوسع منه .

الغانمين ، للفارس سهمان وللراجل سهم ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ ﴾ أي : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أنه جعل الخمس لهؤلاء ، فسلموه إليهم واقطعوا أطماعكم منه ، واقتنعوا بالأخماس الأربعة الباقية ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ أي : وبما أنزلناه ﴿ عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ محمد ﷺ من الآيات والنصر ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أي : يوم بدر ، فإنه فرق فيه بين الحق والباطل ، بنصر المؤمنين وكبت الكافرين ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي : المسلمون والكفار ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ لقتال المشركين ، لإعلاء الحق والدين ﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على نصر القليل على الكثير ، والذليل على العزيز كما فعل بكم ذلك اليوم ﴿ إِذْ أَنْتُمْ ﴾ نازلون ﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : شفير الوادي الأدنى من المدينة ﴿ وَهُمْ ﴾ أي : عدوكم نازلون ﴿ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ ﴾ أي : في جانبها الأبعد منها ، وهو الجانب الذي يلي مكة ، والعدوة : شط الوادي أي : جانبه وشفيره ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ جمع راكب مثل صحب وصاحب ، والمراد بالركب ههنا العير أي : القافلة المقبلة المتوجهة من الشام ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ أي : نازل في مكان أسفل من مكانكم ، وكان بقرب ساحل البحر بينهم وبين المسلمين ثلاثة أميال ، وفائدتها الدلالة على قوة العدو واستظهارهم بالركب ، وضعف حال المسلمين ، ولهذه الفائدة ذكر مراكز الفريقين ، فإن العدوة الدنيا كانت رخوة تسوخ فيها الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ، ولم يكن فيها ماء ، بخلاف العدوة القصوى ، فورد النظم على هذا الوجه الدال على القوة والضعف ، ليتحققوا أن ما اتفق لهم من الفتح ، ليس إلا صنعاً من الله خارقاً للعادة ، فيزدادوا إيماناً وشكراً ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾ أنتم وهم القتال ثم علمتم حالكم وحالهم ﴿ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ هيبة منهم ويأساً من الظفر عليهم ﴿ وَلَٰكِنْ ﴾ جمع بينكم على هذه الحال من غير ميعاد ﴿ لِيَقْضِيَ اللهُ ﴾ ليتم الله ﴿ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ﴾ حقيقاً بأن يفعل ، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ بدل من ليقضي ، والمعنى ليكون هلاك من شارف الهلاك ، بَعد مشاهدة بينة واضحة للدلالة ، على أن الدين المرضي عند الله تعالى هو الإسلام ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أي : يعيش من يعيش عن حجة شاهدها ، حتى يقوى يقينه ويكمل إيمانه ، فإن وقعة بدر كانت من الآيات الواضحة ، الدالة على حقيقة الإسلام ، فمن كفر بعد مشاهدتها كان مكابراً معانداً عادلاً عن الحق الذي وضحت حقيته ، ﴿ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : بكفر من كفر وعقابه ، وإيمانِ من آمن وثوابه ، ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ ﴾ أي : اذكر يا محمد وقت إراءة الله المشركين إياك ﴿ فِي مَنَامِكَ ﴾ مصدر ميمي بمعنى النوم ﴿ قَلِيلاً ﴾ أي : حال كونهم قليلاً . روي : عن مجاهد أنه قال : أرى الله تعالى كفار قريش لنبيه ﷺ في منامه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه ، فقالوا : رؤيا النبي حق والقوم قليل ، فكان ذلك سبباً لقوة قلوبهم ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ ﴾ أي : لجبنتم وتأخرتم عن الصف ، ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ أي : أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين

الثبات والفرار ، والتنازع أن يحاول كل واحد من الاثنين أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿ **وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ** ﴾ أي : أنعم بالسلامة من الفشل والتنازع ﴿ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن ، والصبر والجزع ، ولذلك دبر ما دبر ﴿ **وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً** ﴾ وإنما قللهم في أعين المسلمين حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن إلى جنبه أتراهم سبعين ، قال أراهم مائة مع أنهم كانوا ألفاً ، تثبيتاً لهم وتقوية لقلوبهم ، وتصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ ، فإنها وحي لا خُلف فيه أصلاً ﴿ **وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ** ﴾ حتى قال أبو جهل : إن محمد وأصحابه أكلة جزور ، وهو مثل يضرب في القلة أي : قلتهم بحيث يشبعهم جزور واحد ، قللهم في أعينهم قبل التحام القتال ليجترئوا عليهم ، ولا يبالغوا في الاجتهاد والاستعداد والتأهب والحذر ، ثم كثّرهم حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة فتبهتهم وتكسر قلوبهم ﴿ **لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً** ﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلل به وهو الجمع بين الفريقين على الحالة المذكورة في الأول ، وتقليل كل واحد من الفريقين في عين الآخر في الثاني ﴿ **وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** ﴾ كلها يصرفها كيف يريد ، لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً** ﴾ أي : حاربتم جماعة كافرة لأن اللقاء مما غلب في الحرب والقتال ، وهم ما كانوا يحاربون إلا الكفار ﴿ **فَاثْبُتُوا** ﴾ وقت لقائهم وقتالهم ولا تنهزموا وفي الحديث : « لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا »[1] وإنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والوثوق بالقوة ، ولأنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو وتحقيرهم وهذا يخالف الاحتياط ، كما قالوا في آداب المناظرة إنه ينبغي أن لا يحسب المناظر الخصم حقيراً أي صغيراً ذليلاً لأن استحقار الخصم ربما يؤدي إلى صدور الكلام الضعيف من المناظر لعدم المبالاة فيكون سبباً لغلبة الخصم الضعيف عليه فيكون الضعيف قوياً والقوي ضعيفاً .

﴿ **وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً** ﴾ أي : في تضاعيف القتال ومواطن الشدة ، بالتكبير والتهليل وغيرهما وادعوه بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ أي : تفوزون بمرامكم وتظفرون بمرادكم ، من النصرة والمثوبة ، وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي أن لا يشغله شيء عن ذكر الله ، وأن يلتجىء إليه عند الشدائد ، ويقبل إليه بالكلية ، فارغ البال واثقاً بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال ، وعلى أن ذكر الله تعالى له تأثر عظيم في دفع المضار وجلب المنافع . وفي الحديث : « إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ثم بعثوا رائدهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى ، فيقولون : ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ، ويتلون كتابك ، ويصلون على

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان ، وتمامه « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .. » ثم دعا ﷺ دعاء النصر .

نبيك محمد ﷺ ويسألونك لآخرتهم ودنياهم فيقول الله تبارك وتعالى : غشوهم رحمتي ، فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم »[١] ، قال في أنوار المشارق : وكما يستحب الجلوس في حلق أهله ، والعادة جرت في حلق الذكر بالعلانية ، إذ لم يعرف في كرّ الدهور حلقة ذكر اجتمع عليها قوم ذاكرون في أنفسهم ، فالذكر برفع الصوت أشد تأثيراً في قمع الخواطر الراسخة في قلب المبتدي ، وأيضاً يغتنم الناس بإظهار الدين بركة الذكر من السامعين في الدور والبيوت ، ويشهد له يوم القيامة كل رطب ويابس سمع صوته خصوصاً في مواضع الازدحام بين الغافلين من العوام ، لتنبيه الغافلين وتوفيق الفاسقين ، وقد نهي عن أن يجلس الإنسان مجلساً لا يذكر الله فيه ، ولا يصلي على نبيه محمد ﷺ ، ويكون ذلك المجلس حسرة عليه يوم القيامة وفي الحديث : « من جلس مجلساً كثر فيه لغطه فقال : قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك »[٢] فعلى العاقل أن يكون رطب اللسان ، بالذكر والدعاء والاستغفار ، خصوصاً في الأوقات المباركة .

والذكر الكثير ـ ما كان بصفاء القلب ـ جنة العارف في الدنيا فإنه يجاوز بذكر الله تعالى عن جحيم النفس الأمارة وهاويتها ، فيترقى إلى نعيم الحضور ، قال أبو بكر الفرغاني : كنت أسقط في بعض الأيام عن القافلة ، فقلت : يارب لو علمتني الاسم الأعظم ، فدخل عليَّ رجلان وقال أحدهما للآخر : الاسم الأعظم أن تقول : يا الله ففرحت به ، فقال : ليس كما تقول بل بصدق الإلتجاء والإضطرار ، كما يقول من كان في لجة البحر ليس ملجأ غير الله ، واعلم أن الجهاد من أعظم الطاعات ، ولذلك لا يجتمع غبار المجاهد مع دخان جهنم ، وبخطوة من المجاهد يغفر ذنب ، وبأخرى تكتب حسنة ، ولكن ينبغي للمجاهد أن يصحح نيته ، ويثبت في مواطن الحرب ، فإن بثبات القلب والقدم يتبين أقدار الرجال ، كما كان للصديق رضي الله عنه حين صدمته الوجيعة بوفاة رسول الله ﷺ ، حين قال : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت » والغلبة على الأعداء بالقوة القدسية والتأييد الإلهي ، لا بالقوة الجسمانية وكثرة العدد والعُدَد . استعرض الإسكندر جنده فتقدم إليه رجل بفرس أعرج ، فأمر بإسقاطه فضحك الرجل ، فاستعظم ضحكه في ذلك المقام فقال له : ما أضحكك وقد أسقطتك ؟ قال : العجب منك ، قال : كيف ؟ قال : تحتك آلة الهرب ، وتحتي آلة الثبات ثم تسقطني فأعجب بقوله وأثبته .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه والترمذي بنحوه ، ورواه أحمد في المسند باختلاف يسير وانظر الفتح الكبير ١ / ٤١٠ .

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات وحسّنه ورواه ابن حبان في صحيحه رقم ٢٣٦٦ .

﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ، خصوصاً في أمر الجهاد وثبات القدم في معركة القتال ﴿ وَلا تَنَازَعُوا ﴾ باختلاف الآراء ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ جواب للنهي ، يقال : فشل أي : ضعف وتراخى وجبن ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أي : تذهب دولتكم وشوكتكم ، ﴿ وَاصْبِرُوا ﴾ على شدائد الحرب ، وقتال المشركين ولا تولوهم الأدبار ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصرة والكلاءة ، ومعيته تعالى إنما هي من حيث الإمداد والإعانة ﴿ وَلا تَكُونُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ يعني أهل مكة حين خرجوا منها لحماية العير أي : القافلة المقبلة من الشام ﴿ بَطَراً ﴾ أي : افتخاراً بمآثر الأصول من الآباء والأمهات ، وأشراً وهو مقابلة النعمة بالتكبر والخيلاء ﴿ وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ ليثنوا عليهم بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة أتاهم رسول أبي سفيان ، وقال : ارجعوا فقد سلمت عيركم من أصحاب محمد ومن نهبهم ، فقال أبو جهل : لا والله حتى نقدم بدراً ونشرب بها الخمور ، وتعزف علينا القيان ، ونطعم بها من حضرنا من العرب ، فوافوها ولكن سقوا كأس المنايا ، بدل كأس الخمور ، وناحت عليهم النوائح مكان تغنيّ القيان ، فنهي المؤمنون أن يكونوا أمثالهم بطرين مرائين ، وأمرهم بالتقوى والإخلاص ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : وصداً ومنعاً للناس عن دين الله ، المؤدي إلى الجنة والثواب ﴿ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فيجازيهم عليه ، وفيه تهديد على الأعمال القبيحة خصوصاً ما ذكر في هذه الآية من البطر ، والرئاء : هو إظهار الجميل وإبطان القبيح ، وهو من الصفات المذمومة للنفس وحكي : عن بعض الصالحين أنه قال : كنت ليلة في وقت السحر في غرفة لي على الطريق ، اقرأ سورة طه ، فلما ختمتها غفوت غفوة ، فرأيت شخصاً نزل من السماء ، بيده صحيفة فنشرها بين يدي ، فإذا هي سورة طه ، وإذا تحت كل كلمة عشر حسنات مثبتة ، إلا كلمة واحدة فإني رأيت مكانها محواً ولم أر تحتها شيئاً ، فقلت : والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى ثواباً ولا أراها أُثبتت ! فقال الشخص : صدقتَ قد قرأتها وكتبناها ، إلا أنا قد سمعنا منادياً ينادي من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها ، فمحوناها ، قال : فبكيتُ في منامي فقلت : لم فعلتم ذلك ؟ فقال : مر رجل فرفعت بها صوتك لأجله فذهب ثوابها . فعلى العاقل إخلاص العمل ، وهو إرادة التقرب إلى الله تعالى ، وتعظيم أمره ، وإجابة دعوته ، سواء كان من العبادات المالية أو البدنية ، وفي التتارخانية لو افتتح الصلاة خالصاً لله تعالى ثم دخل في قلبه الرياء فهو على ما افتتح ، والرياء أنه لو خلا عن الناس لا يصلي ، ولو كان مع الناس يصلي ، فأما لو صلى مع الناس يحسنها ، ولو صلى وحده لا يحسن ، فله ثواب أصل الصلاة دون الإحسان ، ولا رياء في الصوم إلا أن يكون مراده من الرياضة اصفرار الوجه وهزال البدن ، ليظنه الناس رجلاً صالحاً متقياً ، مريداً للآخرة فانظر إلى تعبه لأجل الناس ، ولو كان

له عقل صحيح وفكر ثاقب ، لما فعل هذا وفي مثل هذا قالوا : « أخفُّ حلماً من عصفور » قال حسان رضي الله عنه :

لا بأسَ بالقَوْمِ منْ طُوْلٍ ومنْ عِظَمٍ * جِسْم البِغَالِ وأحلامُ العَصَافِير

وما الدنيا حتى يطلبها العاقل بعمله ويضيع عمره إلى حلول أجله ؟ روي : أن النبي عليه الصلاة والسلام مرَّ بدمنة قوم فيها سخلة ميتة ، فقال : « ما لأهلها فيها حاجة ؟ » قالوا : يا نبي الله لو كان لأهلها فيها حاجة ما نبذوها ، قال : « فوالله الدنيا أهون على الله من هذه السخلة على أهلها » (١) .

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ والمعنى : اذكر يا محمد ، وقت تزيين الشيطان أعمال كفار مكة ، في معاداة المؤمنين ﴿ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فإنكم كثير وهم قليل ، والمراد من الناس المؤمنون ﴿ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ أي : مجيركم ومعين لكم ، فمعنى الجار المجير الحافظ الذي يدفع عن صاحبه أنواع الضر ، كما يدفع الجار عن جاره ، تقول العرب : أنا جار لك من فلان أي : حافظ لك من مضرته ، فلا يصل إليك منه مكروه ، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ ﴾ أي : تلاقى الفريقان يوم بدر ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ رجع القهقري وهو أصل معنى النكوص ، لأن الغالب فين يفر عن موضع القتال أن يرجع القهقرى لخوفه من جهة العدو ، ﴿ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ ﴾ من نزول الملائكة للإمداد فقال الحارث وما نرى إلا جعاشيش أهل يثرب والجعشوش الرجل القصير ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللهَ ﴾ من أن يصيبني بمكروه أو يهلكني ﴿ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ لمن لا يخاف منه ، وقد صدق الكذاب أنه يخاف من شدة عذاب الله ، فإن عقابه لو وقع عليه لتلاشى ، ولذلك كان يفر من ظل عمر رضي الله عنه ، وما سلك فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخر ، وقد علم الشيطان أنه من المعذبين المعاقبين ، وإنما خوفه من الله من شدة عقابه ، لأنه يعلم أنه لا نهاية لشدة عقابه .

ثم إن من عادة الشيطان أن يقحم من أطاعه ورطة الهلاك ثم يتبرأ منه ، حكي : أن عابداً عَبَدَ الله في صومعته دهراً طويلاً ، فولدت لملكهم ابنة فأنف الملك أن يمسها الرجال ، فأخرجها إلى صومعته وأسكنها معه كيلا يعرف أحد مكانها ويستخطبها منه ، فكبرت الإبنة ، فحضر إبليس على صورة شيخ وخدعه بها حتى واقعها الزاهد وأحبلها ، فلما ظهر بها الحبل ، رجع إليه فقال له : إنك زاهدنا وأنها لو ولدت يظهر زناك ، فتصير فضيحة ، فاقتلها قبل الولادة ، وأعلم والدها أنها قد ماتت فيصدقك فتنجو من العذاب والشين ، فقتلها الزاهد فجاء الشيطان إلى الملك في زيّ العلماء ، فأخبره بصنع الزاهد بابنته

(١) الحديث أخرجه مسلم بنحو هذا اللفظ ، وفيه أن النبي ﷺ مرَّ بالسوق والناس كنفتيه ـ أي : عن جانبيه ـ فمرَّ بجدْي أسك ميّت ... إلخ الحديث

من الإحبال والقتل ، وقال إن أردت أن تعرف حقيقة ما أخبرتك فانبش قبرها ، ففعل الملك ذلك فإذا الأمر كما قال ، فأخذ الزاهد وأركبه الإبل وحمله إلى بلده فصلبه ، فجاءه الشيطان وهو مصلوب ، فقال له : إنك زنيت بأمري ، وقتلت نفساً بأمري ، فآمن بي أُنْجِكَ من عذاب الملك فأدركته الشقاوة فآمن به ، فهرب الشيطان منه ووقف من بعيد ، فقال الزاهد : نجني ، فقال الشيطان : إني أخاف الله رب العالمين ، فعلى العاقل الحذر من كيده . واعلم أن الشيطان إذا ظفر بالسالك يغره بالقوة والكمال والبلوغ إلى مرتبة الرجال .

﴿ إِذْ ﴾ منصوب باذكر ﴿ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ من أهل المدينة من الأوس والخزرج ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ من قريش كانوا قد أسلموا ولم يهاجروا لعدم قوة إسلامهم ولمنع أقربائهم إياهم من الهجرة ، فلما خرجت قريش إلى بدر أخرجوهم معهم كرهاً ، ولما رأوا قلة عدد المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا لأهل مكة ﴿ غَرَّ هَؤُلاءِ ﴾ يعنون المؤمنين ﴿ دِينُهُمْ ﴾ إذ خرجوا مع قلة عددهم وعُدَدِهم ، لحرب قريش مع كثرتهم وشوكتهم ، ولم يشكوا بل قطعوا بأن قريشاً تغلبهم ، لأنهم زهاء الألف ، والمؤمنون ثلاثمائة وبضعة عشر ، فقال الله تعالى جواباً لهم ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ أي : ومن يسلم أمره إلى الله تعالى ، ويثق به وبقضائه ﴿ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يذل من توكل عليه واستجار به ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما تستبعده العقول ، وتحار في فهمه ألباب الفحول ، روي : أن الحجاج بن يوسف سمع ملبياً يلبي حول البيت ، رافعاً صوته بالتلبية ، وكان إذ ذاك بمكة ، فقال عليَّ بالرجل ، فأتي به إليه ، فقال : ممن الرجل ؟ قال : من المسلمين ، فقال : ليس عن الإسلام سألتك ، قال : فَعمَّ سألت ؟ قال : سألتك عن البلد ، قال : من أهل اليمن ، قال : كيف تركت محمد بن يوسف ـ يعني أخاه ـ قال : تركتُه عظيماً جسيماً ، خرَّاجاً ولاجاً ، قال : ليس عن هذا سألتك ، إنما سألتك عن سيرته ، قال : تركته ظلوماً غشوماً ، مطيعاً للمخلوق عاصياً للخالق ، فقال له الحجاج : ما حملك على هذا الكلام وأنت تعلم مكانه مني ؟ قال الرجل : أترى مكانه منك أعز مني بمكاني من الله ، وأنا وافد بيته ، وزائر نبيه ، ومتَّبعُ دينه ! فسكت الحجاج ولم يحر جواباً ، وانصرف الرجل من غير إذن ، فتعلق بأستار الكعبة وقال : اللهم بك أعوذ ، وبك ألوذ ، اللهم فرجك القريب ، ومعروفك القديم ، وعادتك الحسنة ، فانظر إلى هذا الرجل كيف أظهر الحق ولم يخف من المخلوق ، خصوصاً من الحجاج الذي كان أظلم خلق الله في زمانه ، حتى سفك الدماء ، وفعل ما فعل إلى حيث يضيق نطاق البيان عنه ، فلما توكل على الله واستجار به نصره الله ، واعلم أن مرض القلوب على نوعين : نوع منه الشك في الإيمان والدين ، فذلك مرض قلوب الكفار والمنافقين ، والثاني ميلها إلى الدنيا وشهواتها وملاحظة الحظوظ النفسانية وهو مرض

قلوب المسلمين ، ومعالجة قلوب الكفار والمنافقين ، بالإيمان والتصديق واليقين ، وإن ماتوا في مرضهم فهم من الهالكين ، ومعالجة مرض قلوب المسلمين ، بالتوبة والاستغفار والزهد والطاعة والورع والتقوى .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾ يا محمد حال الكفرة أي : لو رأيت ، فإن لو تجعل المضارع ماضياً عكس إن ﴿ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ ﴾ أي : حين تقبض أعوان ملك الموت أرواح الكفار ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ أي : حال كون الملائكة يضربون بمقامع من حديد ، كلما ضربوا التهب النار منها ﴿ وُجُوهَهُمْ ﴾ أي : ما أقبل من أعضائهم ﴿ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي : ما أدبر منها ﴿ وَذُوقُوا ﴾ أي : ويقولون ذوقوا بعد السيف في الدنيا ﴿ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أي : العذاب المحرق الذي هو مقدمة عذاب الآخرة ، وجواب لو محذوف للإيذان بخروجه عن حدود البيان ، أي : لرأيت أمراً فظيعاً لا يكاد يوصف ﴿ ذٰلِكَ ﴾ المذكور من الضرب والعذاب واقع ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي : بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصي ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي : والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم .

ولفظ « ظلاَّم » كما في بزاز وعطَّار ، أي : لا ينسب إليه ظلم البتة[1] ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ، أي : عادة كفار قريش في كفرهم وعنادهم كعادة آل فرعون المشهورين بقباحة الأعمال ، وأصل الدأب في اللغة ، إدامة العمل ، يقال : فلان يدأب في كذا أي : يداوم عليه ويواظب ويتعب نفسه فيه ، والمقصود هنا كدأب فرعون وآله أي : أتباعه ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من قبل آل فرعون ، كقوم نوح وثمود وعاد ، وغيرهم من أهل الكفر والعناد ﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ والآيات هي دلائل التوحيد المنصوبة في الأنفس والآفاق ، أو معجزات الأنبياء على الإطلاق ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : عاقبهم الله تعالى بسبب كفرهم وسائر معاصيهم ﴿ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لا يغلبه في دفعه شيء ﴿ ذٰلِكَ ﴾ أي : ترتب العقاب على أعمالهم السيئة ﴿ بِأَنَّ اللهَ ﴾ أي : بسبب أنه تعالى ﴿ لَمْ يَكُ ﴾ في حد ذاته ، وأصله يكن فحذفت النون تخفيفاً لشبهها بحرف اللين ، ﴿ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا ﴾ أي : لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أنعم بها ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ من الأقوام ، أيَّ نعمة كانت ، جلَّت أو هانت ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها ، ويتصفوا بما ينافيها ، كدأب هؤلاء الكفرة ، حيث كانوا قبل البعثة كفرة عبدة الأصنام ، فلما بعث إليهم النبي عليه الصلاة والسلام بالبينات ، كذبوه عليه

---

(١) مراده أن لفظة « ظلاَّم » ليست للمبالغة ، وإنما هي صيغة نَسَب ، كما تقول : جزَّار ، وعطَّار ، ونجَّار ، فإنها نسبة إلى الصنعة وليست صيغة مبالغة .

الصلاة والسلام وعادوه ومن تبعه من المؤمنين ، وتحزبوا عليهم يبغونهم الغوائل ، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من نعمة الإمهال ، وعاجلهم بالعذاب والنكال ، وقال الحدادي : أطعمهم الله من جوع ، وآمنهم من خوف ، وأرسل إليهم رسولاً منهم ، وأنزل عليهم كتاباً بألسنتهم ، ثم إنهم غيروا هذه النعم ولم يشكروها ، فغيَّر الله ما بهم وأهلكهم وعاقبهم ببدر ﴿ **وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أي : وبسبب أن الله تعالى يسمع ويعلم جميع ما يأتون وما يذرون ، من الأقوال والأفعال السابقة واللاحقة ، ﴿ **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾ تكرير للتأكيد ﴿ **وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ وعطف قوله تعالى ﴿ **وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرعَوْنَ** ﴾ على أهلكنا مع اندراجه تحته ، للإيذان بكمال هول الإغراق وفظاعته ، كعطف جبرائيل على الملائكة ﴿ **وَكُلٌّ** ﴾ من القبط وقتلى قريش ﴿ **كَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ، حيث عرّضوها للهلاك .

قال الإمام الغزالي : إن النعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها ، واقنع في هذا الباب بمثال « مَلِكٌ يكرم عبداً له ، فيخلع عليه خاصة ثيابه ، ويقربه منه ، ويجعله فوق سائر حجابه وخدامه ، ويأمره بملازمة بابه ، ثم يأمر أن يبتنى له في القصور ، وتوضع له الأسرة ، وتنصب له الموائد ، وتزين له الجواري ، حتى إذا رجع من الخدمة أجلس هنالك ملكاً معزّزاً مكرماً مخدوماً ، وما بين خدمته إلى ملكه وولايته إلا ساعة من نهار أو أقل ، فإن أبصر هذا العبد بجانب باب الملك ، سائساً للدواب ، يأكل رغيفاً ، أو كلباً يمضغ عظماً ، فجعل يشتغل عن خدمة الملك بنظره إليه وإقباله عليه ، ولا يلتفت إلى ماله من الخلع والكرامة ، فيسعى إلى ذلك السائس ويمد يده ويسأله كسرة من رغيفه ، أو يزاحم الكلب على العظم ويعظمهما ويعظم ما هما فيه ، أليس الملك إذا نظر إليه على مثل هذه الحالة يقول : هذا السفيه لم يعرف حق كرامتنا ، ولم ير قدر إعزازنا إياه بخلعنا والتقرب إلى حضرتنا مع صرفنا إليه من عنايتنا وأمرنا له من الذخائر وضروب الأيادي ، ما هذا إلا ساقط عظيم الجهل قليل التمييز ، اسلبوه الخلع واطردوه عن بابنا ، فهذا حال العالم إذا مال إلى الدنيا ، والعابد إذا اتبع الهوى ، فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف نعم الله تعالى عليك ، واحذر من أن تكون النعمة نقمة ، والولاء بلاء ، والعز ذلاً ، والإقبال إدباراً فإن الله تعالى غيور .

والمقصود أن من عرف الله ، وعرف قدر نعمته ، عليه ترك الالتفات إلى الدنيا فإن الله أجلُّ من كل شيء ، وذكره أفضل من كل ذكر وكلام ، وحكي : أن سليمان بن داود عليهما السلام مرَّ في موكبه ، والطير تظلُّه ، والدواب من الوحوش والأنعام والجن والإنس وسائر الحيوانات عن يمينه ويساره ، فمر بعابد من عبَّاد بني إسرائيل ، فقال : والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكاً عظيماً ، فسمع ذلك سليمان ،

فقال : لتسبيحةٌ في صحيفة مؤمن ، خير مما أُعطي بن داود ، فإن ما أعطي ابن داود يذهب ، والتسبيحة تبقى ، فهذا إرشاد عظيم لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وتوجه إلى الحضرة العليا ، فارغاً عن شواغل الدنيا ﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ** ﴾ أي : شر ما يدب على الأرض ويتحرك من الحيوانات ﴿ **عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي : في حكمه وقضائه ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي : أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿ **فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ فلا يتوقع منهم إيمان لكونهم من أهل الطبع ، وجعلوا شر الدواب لا شر الناس ، إيماء إلى أنهم بمعزل عن مجالستهم ، وإنما هم من جنس الدواب ، ومع ذلك هم شر من جميع أفرادها كما قال تعالى (**إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**) .

﴿ **الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ** ﴾ أي : الذين أخذت منهم عهدهم ﴿ **ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ** ﴾ الذي أخذته منهم ﴿ **فِي كُلِّ مَرَّةٍ** ﴾ من مرات المعاهدة ﴿ **وَهُمْ لا يَتَّقُونَ** ﴾ أي : يستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سيئة الغدر ، ولا يبالون ما فيه من العار والنار ، وهم يهود قريظة ، عاهدهم رسول الله ﷺ على أن لا يعينوا عليه عدواً فنقضوا العهد ، وأعانوا أهل مكة يوم بدر بالسلاح ، ثم قالوا نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم مرة أخرى فنكثوا ومالأوهم عليه يوم الخندق أي : ساعدوا وعاونوا وذلك أنهم لما رأوا غلبة المسلمين على المشركين يوم بدر ، قالوا إنه هو النبي الموعود بعثه في آخر الزمان ، فلا يقدر أحد على محاربته ، ثم إنهم لما رأوا يوم أحد ما وقع من نوع ضعف المسلمين شكُّوا ، وقد كان احترق كيدهم بنار الحسد من ظهور دينه وقوة أمره ، فركب « كعب بن أسد » سيِّد بني قريظة مع أصحابه إلى مكة ، وواثقوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ ، فأدى ذلك إلى غزوة الخندق .

﴿ **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ** ﴾ إمَّا مركبة من إن للشرط وما للتأكيد ، أي : فإذا كان هذا حالهم ، فإما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿ **فِي الْحَرْبِ** ﴾ أي : في تضاعيفها ﴿ **فَشَرِّدْ** ﴾ فرِّق ﴿ **بِهِمْ** ﴾ أي : بسبب قتلهم ﴿ **مَنْ خَلْفَهُمْ** ﴾ أي : من وراءهم من الكفر من أعدائك ، والتشريد : الطردُ للشمل وتبديد الجمع ، يعني إن صادفت هؤلاء الناقضين في الحرب فافعل بهم ، وأوقع فيهم من النكاية والقهر ما يضطرب به حالهم ، ويخاف منك أمثالهم ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ أي : لعل من خلفهم يتعظون بما شاهدوا مما نزل بالمنافقين ، فيرتدعون عن النقض أو عن الكفر ، ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ** ﴾ تعلمن ﴿ **مِنْ قَوْمٍ** ﴾ من المعاهدين ﴿ **خِيَانَةً** ﴾ نقض عهد بما لاح منهم من علامات الغدر ﴿ **فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ** ﴾ أي : فاطرح عهدهم حال كونك ﴿ **عَلَىٰ سَوَاءٍ** ﴾ أي : ثابتاً على طريق سوي في العداوة ، بأن تظهر لهم النقض وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من الوصلة ، فلا تناجزهم الحرب وهم على توهُّم بقاء العهد ، كيلا يكون من قبلك شائبة خيانة أصلاً ، ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾

تعليل للأمر بالنبذ كأنه قيل : لِمَ أمرتنا بذلك ونهيتنا عن المحاربة قبل نبذ العهد فأجيب بذلك ، ﴿ **وَلا يَحْسَبَنَّ** ﴾ أي : لا يظن ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا** ﴾ أي : فاتوا وأفلتوا من أن يظفر بهم ، من الذين آذوه عليه الصلاة والسلام وبالغوا في عصيانه ﴿ **إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ** ﴾ أي : لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم ، يقال : أعجزه الشيء إذا فاته ، وأعجزت الرجل إذا وجدته عاجزاً ، وفي الآية تهديد للنفوس التي اجترأت على المعاصي ، وهي في الحقيقة مجترئة على الله تعالى ، وعن السري السقطي ، قال : كنت يوماً أتكلم بجامع المدينة ، فوقف عليّ شاب حسن الشباب فاخر الثياب ، ومعه أصحابه ، فسمعني أقول في وعظي : عجباً لضعيف يعصي قوياً ، فتغير لونه وانصرف ، فلما كان الغد جلست في مجلسي وإذا به قد أقبل ، فسلم وصلى ركعتين ، وقال : يا سري ، سمعتك بالأمس تقول : عجباً لضعيف كيف يعصي قوياً ؛ فما معناه ؟ قلت : لا أقوى من الله ، ولا أضعف من العبد وهو يعصيه ، فنهض وخرج ثم أقبل من الغد ، وعليه ثوبان أبيضان وليس معه أحد ، فقال : يا سري كيف الطريق إلى الله ؟ فقلت : إن أردت العبادة فعليك بصيام النهار وقيام الليل ، وإن أردت الله فاترك كل شيء سواه تصل إليه ، وليس إلا المساجد والخراب والمقابر فقام وهو يقول : والله لا سلكت إلا أصعب الطرق وولى خارجاً ، فلما كان بعد أيام أقبل إليّ غلمان كثير فقالوا ما فعل أحمد بن يزيد الكاتب . فقلت : لا أعرف إلا رجلاً جاءني من صفته كذا وكذا وجرى لي معه كذا وكذا ولا أعلم حاله فقالوا : بالله عليك متى عرفت حاله فعرفنا ودلنا على داره فبقيت سنة لا أعرف حاله ولا أعرف له خبراً فبينا أنا ذات ليلة بعد العشاء الأخيرة جالس في بيتي إذا بطارق يطرق الباب فأذنت له في الدخول ، فإذا بالفتى عليه قطعة من كساء في وسطه وأخرى على عاتقه ومعه زنبيل فيه نوى ، فقبّل بين عينيّ وقال : يا سري ، أعتقك الله من النار كما أعتقني من رق الدنيا ، فأومأت إلى صاحبي أن امض إلى أهله فأخبرهم ، فمضى فإذا زوجته قد جاءت ومعها ولده وغلمانه ، فدخلت وألقت الولد في حجره وعليه حلي وحلل ، وقالت له : يا سيدي أرملتني وأنت حي ، وأيتمت ولدك وأنت حي ، قال السري : فنظر إليّ فقال : يا سري ما هذا وفاء ، ثم أقبل عليها وقال : والله إنك لثمرة فؤادي وحبيبة قلبي ، وإن هذا ولدي لأعز الخلق عليّ ؛ غير أن هذا السري أخبرني أن من أراد الله قطع كل ما سواه ، ثم نزع ما على الصبي وقال ضعي هذا في الأكباد الجائعة ، والأجساد العارية ، وقطع قطعة من كسائه فلف فيها الصبي ، فقالت المرأة : لا أرى ولدي في هذه الحالة ، وانتزعته منه فحين رآها قد اشتغلت به نهض ، وقال : ضيعتم عليّ ليلتي بيني وبينكم الله ، ووَلّى خارجاً وضجت الدار بالبكاء فقالت : إن عاد يا سري وسمعت له خبراً فأعلمني ، فقلت : إن شاء الله فلما كان بعد أيام أتتني عجوز فقالت : يا سري بجوارنا غلام يسألك الحضور ، فمضيت فإذا به مطروح تحت رأسه لبنة فسلمت عليه ففتح عينيه وقال : يا سري ترى تغفر لي

تلك الجنايات ؟ فقلت : نعم . قال : أيغفر لمثلي ؟ قلت : نعم . قال : أنا غريق ، قلت : هو منجي الغرقى ، قال : عليَّ مظالم فقلت في الخبر أنه يؤتى بالتائب يوم القيامة ومعه خصومه فيقال لهم : خلوا عنه فإن الله تعالى يعوضكم ، فقال : يا سري معي دراهم من لقط النوى إذا أنا مت فاشتر ما أحتاج إليه وكفني ولا تعلم أهلي لئلا يغيروا كفني بحرام ، فجلست عنده قليلاً ففتح عينيه وقال : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ العَامِلُونَ ﴾ . ثم مات فأخذت الدراهم فاشتريت ما يحتاج إليه ثم سرت نحوه فإذا الناس يهرعون فقلت : ما الخبر ؟ فقيل : مات ولي من أولياء الله نريد أن نصلي عليه ، فجئت فغسلته ودفناه فلما كان بعد مدة وفد أهله يستعلمون خبره فأخبرتهم بموته ، فأقبلت امرأته باكية فأخبرتها بحاله ، فسألتني أن أريها قبره قلت : أخاف أن تغيروا أكفانه ، قالت : لا والله فأريتها القبر فبكت وأمرت بإحضار شاهدين فأحضرا فأطلقت جواريها ووقفت عقارها وتصدقت بمالها ، ولزمت قبره تتردَّدُ عليه حتى وافاها الأجل ، رحمة الله عليهما .

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ ﴾ أي : لقتال الكفار وهيئوا لحربهم ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أي : ما استطعتموه ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ من كل ما يتقوى به في الحرب ، من خيل وسلاح وغيرها ، وفي الحديث : « ألا إن القوة الرمي »[1] ، روي : أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، رمى يوم أحد ألف سهم ، ما منها سهم إلا ورسول الله ﷺ قال : « فداك أبي وأمي يا سعد »[2] ، وكره بعض العلماء تفدية المسلم بأبويه المسلمين ، قال النووي : الصحيح أنه جائز مطلقاً ، لأنه ليس فيه حقيقة الفداء وإنما هو تلطف في الكلام وإعلام بمحبته ، وفي الحديث فضيلة الرمي والدعاء لمن فعل خيراً وجاء في الحديث : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير ، والمهدي له ، والرامي به »[3] ، وفي الحديث أيضاً : « كل شيء ليس من ذكر الله تعالى فهو لهوٌ إلا أربع خصال : مشيُ الرجل بين الغرضين ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله ، وتعليم السباحة »[4] ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ ﴾ فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس ، أي : الخيل المربوطة ، واعلم أن الخيل ثلاثة : فرس للرحمن وهو ما اتخذ في سبيل الله وقتل عليه أعداء الله ، وفرس للإنسان وهو ما يلتمس بطنه وهو ستر من الفقر ، وفرس للشيطان وهو ما يقامر عليه ويراهن ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ ﴾ أي : حال كونهم مرهبين مخوفين بالإعداد ﴿ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ وهم كفار مكة لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد في العداوة ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) الحديث أخرجه البخاري بلفظ : « إرم فداكَ أبي وأمي » وأخرجه مسلم والترمذي .

(٣) الحديث أخرجه أصحاب السنن والدارمي والإمام أحمد .

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد .

﴿ دُونِهِمْ ﴾ أي : ترهبون أيضاً عدواً آخرين من غيرهم من الكفرة كاليهود والمنافقين ﴿ لا تَعْلَمُونَهُمْ ﴾ أي : لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ أي : يعرفهم لا غيره تعالى ، ﴿ وَمَا ﴾ شرطية ﴿ تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ ﴾ لإعداد العتاد قلَّ أو جلَّ ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ الذي أوضحه الجهاد ﴿ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : جزاؤه كاملاً ﴿ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ بترك الإثابة أو بنقص الثواب ، والتعبير عن تركها بالظلم ، لبيان كمال نزاهته سبحانه عن ذلك ، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح ، روي : أن رسول الله ﷺ لما عرج به أتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا شيئاً عاد كما كان ، فقال : « يا جبريل من هؤلاء » قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه »[1] .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا ﴾ الجنوح الميل أي : وإن مال الكفار ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ للصلح والاستسلام بوقوع الرهبة في قلوبهم ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ أي : للسلم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ أي : لا تخف من إبطان مكرهم في الصلح ، فإن الله يعصمك ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ فيسمع ما يقولون في خلواتهم من مقالات الخداع ﴿ العَلِيمُ ﴾ فيعلم نياتهم ويرد كيدهم في نحرهم ، والأمر في قوله (فَاجْنَحْ) للإباحة ، والأمر فيه مفوض لرأي الإمام ، وليس يجب عليه أن يقاتلهم أبداً ، ولا أن يسعفهم إلى الصلح عند طلبهم ذلك أبداً ، بل يبني الأمر على ما فيه صلاح المسلمين ، فإذا كان للمسلمين قوة فلا ينبغي أن يصالحهم ، وينبغي أن يحاربهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ، وإن رأى المصلحة في المصالحة ومال إليها لا يجوز أن يصالحهم سنة كاملة ، إلا إذا كانت القوة والغلبة للمشركين ، فحينئذ جاز له أن يصالحهم عشر سنين ولا تجوز الزيادة عليها اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه عليه الصلاة والسلام فعل كذلك ثم إنهم نقضوا العهد قبل تمام المدة ، وكان ذلك سبباً في فتح مكة ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا ﴾ أي : الذين يطلبون منك الصلح ﴿ أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴾ بإظهار الصلح فتكفَّ عنهم ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ ﴾ فإن الله كافيك من شرورهم وناصرك عليهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ﴾ أي : قواك بإمداد من عنده مشاهد ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ من المهاجرين والأنصار ، ثم إنه تعالى بين كيف أيده بالمؤمنين فقال ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ مع ما كان بينهم قبل ذلك من العصبية والضغينة ، بحيث لا يكاد يأتلف فيهم قلبان ، وكان إذا لطم رجل من قبيلة لطمة ، قاتل عنها قبيلته حتى يدركوا ثأره ، فصاروا بتوفيقه تعالى كنفس واحدة ، وهذا من أبهر معجزاته عليه الصلاة والسلام .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل في المعراج أخرجه البزار ، والهيثمي في مجمع الزوائد ، وذكره بطوله الروداني في كتابه جمع الفوائد ٢ / ٢٩٣ .

﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ أي : لتأليف ما بينهم ﴿ مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : تناهت عداوتهم إلى حدٍّ لو أنفق منفق في إصلاح ذات بينهم جميع ما في الأرض من الأموال والذخائر ، لم يقدر على التأليف والإصلاح ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ قلباً وقالباً بقدرته الباهرة ، فإنه المالك للقلوب فيقلبها كيف يشاء ﴿ إِنَّهُ عَزِيزٌ ﴾ كامل القدرة والغلبة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، فهو القادر على التأليف والموافقة مع الإخوان مع ائتلاف الأرواح وفي الحديث : « المؤمن آلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف »[1] وفي الحديث : « مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى المؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيراً »[2] ، ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد من أهل كل محلة ، وفي الجامع في الأسبوع مرة من أهل كل بلد ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان في الأعياد في جميع السنة مرتين ، وأهل الأقطار من البلدان في العمر مرة للحج ، كل ذلك لحكم بالغة منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين ، وفي الحديث : « ألا إن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[3] ، والتألف والتودد مع الأخيار مؤثرة جداً ، بل مجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحاً ، والنظر في الصور يؤثر أخلاقاً مناسبة لخلق المنظور إليه ، كدوام النظر إلى المحزون يحزن ، ودوام النظر إلى المسرور يسر ، وقد قيل : من لا ينفعك لَحْظُه ، لا ينفعك لفظه ، والجمل الشرود يصير ذلولاً بمقارنة الجمل الذلول ، فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والجماد ، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف ، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر ، فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة ، فتغتنم مقارنتُهم ، والاستئناسُ بهم استئناس بالله تعالى ، كما أن محبتهم من محبة الله تعالى ، والجامع معهم رابطة الحق ، ومع غيرهم رابطة الطبع ، والمؤمن مرآة المؤمن إذا التقى مع أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله تجليات إلهية وتعريفات خفية غابت عن الأغيار ، وأدركها أهل الأنوار ، يقول الفقير : سمعت من بعض العلماء المتورعين والمشايخ المتعبدين ممن له زوجتان متباغضتان أنه قال : قرأت هذه الآية وهي قوله تعالى (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ) إلى آخرها على ماء في كوزة ونفخت فيه ثم أشربته إياهما ، فوقع التودد والألفة بينهما بإذن الله تعالى ، وزال التباغض والتنافر إلى الآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ المخبر عن الله تعالى المرتفع شأنه ﴿ حَسْبُكَ اللهُ ﴾ أي : كافيك في جميع أمورك ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الواو بمعنى مع أي كفاك وكفى اتباعك ناصراً كقولك حسبك وزيداً درهم ، أو

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٣٢ .

عطف على اسم الله تعالى أي : كفاك الله والمؤمنون . قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في إسلام عمر رضي الله عنه فتكون الآية مكية كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ ؛ روي : أنه أسلم مع النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر رضي الله عنه فكمّل الله أربعين بإسلامه فنزلت ، وكان ﷺ يدعو فيقول : « اللهم أيد الإسلام بأحد الرجلين ، إما بأبي جهل بن هشام ، وإما بعمر بن الخطاب » وكان دعاؤه بذلك يوم الأربعاء فأسلم عمر رضي الله عنه يوم الخميس ، وكان وقتئذ ابن ست وعشرين سنة ، وسبقه حمزة بن عبد المطلب بالإسلام بثلاثة أيام ، روي : أنه لما نزل قوله تعالى (**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**) قام أبو جهل بن هشام وكان يكنى في الجاهلية بأبي الحكم ، لأنهم يزعمون أنه عالم ذو حكمة ثم كناه النبي عليه الصلاة والسلام بأبي جهل ، وغلبت عليه كنيته وكان خال عمر لأن أم عمر أخت أبي جهل ، فأبو جهل خال عمر فلما قام خطب فقال : يا معشر قريش إن محمداً قد شتم آلهتكم ، وسفّه أحلامكم ، وزعم أنكم وآباءكم وآلهتكم في النار ، فهل من رجل يقتل محمداً وله عليّ مائةٌ ناقة حمراء وألف أوقية من فضة ، فقام عمر بن الخطاب وقال : أتضمن ذلك يا أبا الحكم ، فقال : نعم يا عمر ، فأخذ عمر بيد أبي جهل ودخلا الكعبة وكان عندها صنم عظيم يسمونه هبل ، فتحالفا عنده وأشهدا على أنفسهما هبل - فإنهم كانوا إذا أرادوا أمراً من سفر أو حرب أو سلم أو نكاح ، لم يفعلوا شيئاً حتى يستأمروا هبل ويشهدوه عليه - ثم خرج عمر متقلداً سيفه ، متنكباً كنانته أي : واضعاً لها في منكبه يريد رسول الله ﷺ ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام مختفياً مع المؤمنين في دار بن الأرقم ، تحت الصفا يعبدون الله تعالى فيها ويقرأون القرآن ، فلما أتى إلى البيت الذي هم فيه قرع الباب ، فنظر إليه رجل من خلال الباب فرآه متوشحاً سيفه ، فرجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فزع ، فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه ولم يرد إلا سفك الدم ، فقال حمزة : فأذن له فإن جاء يريد خيراً بذلنا له ، وإن جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فأذن له في الدخول فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال : « ما أنت منتهٍ يا عمر حتى ينزل الله بك قارعة » ثم أخذ بساعده أو بمجامع ثوبه وحمائل سيفه وانتهره فارتعد عمر هيبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجلس ، فقال : أعرضْ عليّ الإسلام الذي تدعو إليه فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله » فقال : أشهد أن لا إله إلا أنت وأنك رسول الله ، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة ، وضرب النبي عليه الصلاة والسلام صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول : « اللهم أخرج ما في صدر عمر من غلٍّ ، وأبدله إيماناً » ونزل جبرائيل عليه السلام فقال : يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر ، ولما أسلم قال المشركون لقد انتصف القوم منا وقيل له رضي الله عنه : ما تسمية النبي عليه الصلاة والسلام لك بالفاروق ؟ قال : لما

أسلمت والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه مختفون قلت : يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : « بلى » فقلت : فيم الاختفاء والذي بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام ، غير هائب ولا خائف ، والله لا نعبد الله سراً بعد اليوم ، فخرج رسول الله ﷺ ومعه المسلمون وعمر رضي الله عنه أمامهم معه سيفه ينادي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حتى دخل المسجد ثم صاح مسمعاً لقريش ، كل من تحرك منكم لأمكنن سيفي منه ، ثم تقدم أمام رسول الله ﷺ وهو يطوف والمسلمون ، ثم صلوا حول الكعبة وقرأوا القرآن جهراً ، وكانوا قبل ذلك لا يقدرون على الصلاة عند الكعبة ، ولا يجهرون بالقرآن ، فسماه النبي عليه الصلاة والسلام « الفاروق » لأن الله فرّق به بين الحق والباطل ، وصار حبُّه من الإيمان ، وبغضُه من النفاق ، فلا يبغضه إلا منافق ، قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : كان لنا جار طحان رافضيّ ملعون ، وكان له بغلان سمى أحدهما أبا بكر ، والآخر عمر ، فرمحه ذات ليلة أحد البغلين فقتله ، فأخبر جدي أبو حنيفة فقال : انظروا فإني إخال أن البغل الذي اسمه عمر هو الذي رمحه ، فنظروا فكان كما قال ، واستأذن عمر رضي الله عنه في العمرة ، فأذن له عليه الصلاة والسلام وقال : « يا أخيَّ لا تنسنا من دعائك » قال عمر : ما أحب أن لي بقوله يا أخيَّ ما طلعت عليه الشمس »[1] وجاء : « أنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون ، ـ المحدَّث : هو الذي يلقى في نفسه الشيء فيخبر به فراسة ـ فإنه إن كان في أمتي هذه فهو عمر بن الخطاب »[2] .

وجاء في الحديث : « إيه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك »[3] والفج : طريق واسع ، وفيه دليل على علو درجة عمر رضي الله عنه حيث لا يقدر الشيطان أن يسلك طريقاً فيه عمر ، والطريق واسع ، فكيف يتصور أن يجري منه مجرى الدم كما يجري في سائر الخلق ؟ وفيه تنبيه على صلابته في الدين واستمرار حاله عل الحق المحض ، وكان نقش خاتم أبي بكر : « نعم القادر الله » وكان نقش عمر : « كفى بالموت واعظاً يا عمر » .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَبِيُّ** ﴾ يا رفيع القدر ﴿ **حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ القِتَالِ** ﴾ أي : بالغ في حثهم على قتال الكفار ، ورغبهم فيه بوعد الثواب ، والحث : إنما يكون بعد الإقدام بنفسه ليقتدي القوم به ، ولهذا كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا اشتدت الحرب أقرب إلى العدو منهم ، كما قال عليّ رضي الله عنه : « كنا إذا اشتدَّ البأس ، ولقي القوم القوم ، اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٣) الحديث أخرجه الشيخان والإمام أحمد .

أقرب إلى العدو منه » . ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عِشْرُونَ صَابِرُونَ ﴾ في معارك القتال ﴿ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهذا القيد معتبر في المائتين أيضاً ، كما أن قيد الصبر معتبر في كلا المقامين ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : بسبب أنهم قوم جهلة بالله وباليوم الآخر لا يقاتلون احتساباً وامتثالاً لأمر الله وإعلاء لكلمته ، وابتغاء لمرضاته ، وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية واتباع الشهوات ، وخطوات الشيطان ، فيستحقون القهر والخذلان ، ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ ﴾ قال ابن عباس : من فر من ثلاثة لم يفر ، ومن فرَّ من اثنين فقد فرَّ ، أي : ارتكب المحرم وهو كبيرة الفرار من الزحف ، وهذا إذا كان للواحد المسلم من السلاح والقوة ما لكل واحد من الرجلين الكافرين كان فاراً ، وأما إذا لم يكن لم يثبت حكم الفرار ﴿ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ﴾ أي : ضعف البدن ، ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ بتيسيره وتسهيله ﴿ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصر والتأييد فلذلك لا يغلبون ؟ .

﴿ مَا كَانَ ﴾ ما صح وما استقام ﴿ لِنَبِيٍّ ﴾ من الأنبياء عليهم السلام ﴿ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ ﴾ أسرى جمع أسير كجرحى جمع جريح ، وأسارى جمع الجمع ، روي : أنه عليه الصلاة والسلام أُتي يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل بن أبي طالب ، فاستشار فيهم أصحابه فقال أبو بكر : هم قومك وأهلك استَبْقِهم لعل الله يهديهم إلى الإسلام ، وخذ منهم فدية تستعين بها ويتقوَّى بها أصحابك ، وقال عمر : كذبوك وأخرجوك من ديارك وقاتلوك ، فاضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر ، مكِّنْ فلاناً من فلان لنسيب له ، ومكن علياً من عقيل ، وحمزة من العباس فلنضرب أعناقهم ، فلم يهو ذلك رسول الله ﷺ وقال : « إن الله ليلين قلوب الرجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب الرجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبرهيم حين قال : (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيم) ومثلك يا عمر مثل نوح حين قال : (لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّاراً) فنزلت الآية في فداء أسارى بدر ، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان ، فقال : يا رسول الله أخبرني فإن أجد بكاءً بكيت وإلا تباكيت فقال : « أبكي على أصحابك في أخذهم الفداء ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة منه . قال في السيرة الحلبية : أسرى بدر منهم من فدى ومنهم من خُلِّي سبيله من غير فداء ، ومنهم من قتل وهو النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ﴿ حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ يُكثِر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الإسلام ويستولي أهله ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ أي : تريدون حطامها بأخذكم الفداء ؟ وسمى المال عرضاً لقلة لبثه ، فمنافع الدنيا وما يتعلق بها لا ثبات لها ولا دوام ، ﴿ وَاللهُ يُرِيدُ

﴿ الآخِرَةَ ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة الذي لا مقدار عنده للدنيا وما فيها ﴿ وَاللهُ عَزِيزٌ ﴾ يغلب أولياؤه على أعدائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يعلم بما يليق بكل حال ويخصها به ، كما أمر بالاثخان ومنع عن الافتداء حين كانت الشوكة للمشركين ، وخيَّر بينه وبين المنّ بقوله تعالى (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) لما تحولت الحال وصار الغلبة للمؤمنين ، قال بعضهم : دلت الآية على أن الأنبياء مجتهدون ، لأن العتاب الذي فيها لا يكون فيما صدر عن وحي ، ولا فيما كان صواباً ، وأنه قد يكون خطأ ولكن لا يتركون عليه بل ينبهون على الصواب ﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ ﴾ لولا حكم من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ ، وهو أن لا يعاقب المخطىء في اجتهاده ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ أي : لأصابكم ﴿ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ أي : لأجل ما أخذتم من الفداء ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره ، روي : أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر » . قال عبد الله بن عمر : ما نزل بالناس أمر فقال الناس وقال عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر ، وفي الحديث : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه »[1] ، ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ ﴾ روي : أنهم أمسكوا عن الغنائم فقال تعالى قد أبحت لكم الغنائم فكلوا مما غنمتموه ﴿ حَلالاً ﴾ حال من المغنوم ، وفائدته إزاحة ما وقع في نفوسهم من عدم حِلِّ المغنوم بسبب تلك المعاتبة ، فإن من سمع العتاب المذكور وقع في قلبه اشتباه في أمر حله ﴿ طَيِّبًا ﴾ الطيب المستلذ ويوصف الحلال بذلك على التشبيه ، فإن المستلذ ما لا يكون فيه كراهية في الطبع ، وكذا الحلال ما لا يكون فيه كراهية في الدين ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ أي : في مخالفة أمره ونهيه ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فيغفر لكم ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل ورود الإذن فيه ويرحمكم ويتوب عليكم إذا اتقيتموه ، قال ابن عباس : كانت الغنائم حراماً على الأنبياء ، فكانوا إذا أصابوا مغنماً جعلوه لقربان ، فكانت تنزل نار من السماء فتأكله .

﴿ يَا أَيُّهَا النَبِيُّ ﴾ من الألقاب المشرفة لرسول الله ﷺ أي : يا أيها المخبر عن الله وعن أحكامه ﴿ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَىٰ ﴾ جمع أسير ، روي : أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب عم النبي عليه السلام ، وكان أسر يوم بدر ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام من خرج من مكة لحماية العير ، وكان يوم بدر قد خرج بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الكفار ، فوقع القتال قبل أن يطعم بها وبقيت العشرون أوقية معه فأخذت منه في الحرب فكلم النبي عليه الصلاة والسلام في أن يحتسب العشرين أوقية من فدائه فأبى وقال : « أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا أتركه لك » فكلفه أن يفدي نفسه بمائة أوقية زائداً على فداء غيره لقطع الرحم ، وكلَّفه أن يفدي أيضاً ابني أخويه « عقيل بن

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد والطبراني بنحوه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٢٩ .

أبي طالب ، ونوفل بن الحارث » كل واحد بأربعين أوقية ، فقال : يا محمد تركتني أي : صيرتني أتكفف قريشاً ما بقيت ! والتكفف هو أن يمد كفه يسأل الناس يعني غنم المسلمون مالي وما بقي لي شيء حتى أفدي نفسي فقال : « فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل ـ يعني زوجته ـ وقت خروجك من مكة وقلت لها إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ، فإن حدث بي حدث فهو لك ولعبد الله ، والفضل ، وقثم ، وهم أبناؤه فقال العباس : وما يدريك ؟ قال : أخبرني به ربي ، قال : أشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ولقد دفعته إليها في سواد الليل ولقد كنت مرتاباً في أمرك فأما إذْ أخبرتني بذلك فلا ريب »[1] ﴿ **إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً** ﴾ إيماناً وإخلاصاً ، ﴿ **يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ** ﴾ من الفداء ﴿ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ قال العباس : فأبدلني الله خيراً مما أخذ مني ، لي الآن عشرون عبداً وإن أدناهم ليضرب أي : يتجر في عشرين ألف درهم ، وأعطاني سقاية زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة ، أنجز لي أحد الوعدين وأنا أرجو أن ينجز لي الوعد الثاني أي : أنتظر المغفرة من ربي فإنه لا خلاف في وعد الكريم ، ﴿ **وَإِنْ يُرِيدُوا** ﴾ يعني الأسرى ﴿ **خِيَانَتَكَ** ﴾ أي : نقض ما عاهدوك عليه من الإسلام ، بالارتداد إلى دين آبائهم ﴿ **فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ** ﴾ بكفرهم ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه في الأزل ﴿ **فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ** ﴾ أي : أقدر عليهم كما فعل يوم بدر ، فإن أعادوا الخيانة فيمكنك منهم أيضاً ﴿ **والله عليم** ﴾ فيعلم ما في نياتهم وما يستحونه من العقاب ﴿ **حكيم** ﴾ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه حكمته البالغة .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بالله تعالى وبمحمد عليه الصلاة والسلام وبالقرآن ﴿ **وَهَاجَرُوا** ﴾ أوطانهم وهي مكة حباً لله ولرسوله ﴿ **وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ** ﴾ بأن صرفوها إلى السلاح وأنفقوها على المحاويج ﴿ **وَأَنْفُسِهِمْ** ﴾ بمباشرة القتال واقتحام المعارك ، والخوض في المهالك ، ولعل تقديم الأموال على الأنفس لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً ، وأتم دفعاً للحاجة حيث لا تتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالمال ، ﴿ **فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ المراد بسبيل الله الطريق الموصل إلى ثوابه وجناته ودرجاته وقرباته ، وهو إنما يكون موصلاً بالإخلاص ، فبذل المال والنفس بطريق الرياء ، لا يوصل إلى رضى الله ذي العظمة والكبرياء .

﴿ **وَالَّذِينَ آوَوْا** ﴾ النبي والمهاجرين معه ، أي : أعطوهم المأوى وأنزلوهم ديارهم بالمدينة

(١) هذا من أعظم معجزاته الباهرة ﷺ حيث أخبره بما جرى بينه وبين امرأته من سرٍّ ، مما كان سبباً في إسلام العباس رضي الله عنه .

﴿ وَنَصَرُوا ﴾ أي : نصروهم على أعدائهم ، وأعانوهم بالسيف على الكفار ، وسموا الأنصار لأنهم نصروا رسول الله ﷺ ، وواحد الأنصار نصير كشريف وأشراف ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوف بما ذكر من النعوت الفاضلة ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ في الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار يتوراثون بالهجرة والنصرة ، دون الأقارب حتى نسخ بقوله (وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ) أي : أولى بميراث بعض من الأجانب ، والحاصل : أن التوارث في الابتداء بالهجرة والنصرة ، لا بمجرد القرابة فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصاري ، إذا لم يكن بالمدينة له وارث مهاجري ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجري ، واستمر أمرهم كذلك إلى أن فتحت مكة فسقطت فرضية الهجرة ثم توارثوا بالقرابة ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا ﴾ كسائر المؤمنين ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيءٍ ﴾ أي : من توليهم وإن كانوا من أقرب أقاربكم ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ ولما بين تعالى أن حكم المؤمن الذي لم يهاجر انقطاع الولاية بينه وبين المؤمنين ، وتوهم أنه يجب أن يتحقق بينهم التقاطع التام لتحققه بينه وبين الكفار ، أزال هذا الوهم بقوله ﴿ وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ أي : إن طلب منكم المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة ﴿ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ﴾ أي : فوجب عليكم نصرهم على من يعاديهم في الدين ﴿ إِلا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ منهم ﴿ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ أي : إلا إذا كان من يعاديهم ويحاربهم من الكفار بينهم وبينكم عهد موثق ، فحينئذ يجب عليكم الوفاء بالعهد وترك المحاربة معهم ولا يلزمكم نصر الذين آمنوا ولم يهاجروا عليهم ، بل الإصلاح بينهم على وجه غير القتال ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فلا تخالفوا أمره كيلا يحل بكم عقابه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ المراد منه نهي المسلمين عن موالاتهم وإيجاب المباعدة بينهم إن وجد بينهم قرابة نسبية ، لأن الموالاة بين الكفار مبنية على التناسب في الكفر ، كما أنها بين المؤمنين مبنية على التناسب في الإيمان ، والأول ظلمة والثاني نور ، فإن الكافر عدو الله ، والمؤمن ولي الله ، فوجب التقاطع وإزالة الوصلة من غير الجنس .

﴿ إِلا ﴾ أي : إن لا ﴿ تَفْعَلُوهُ ﴾ أي : ما أُمرتم به من التواصل بينكم ، وتولي بعضكم بعضاً حتى في التوارث ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : تحصل فتنة عظيمة فيها ، وهي ضعف الإيمان وظهور الكفر ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ في الدارين وفيه إشارة إلى مساعدة طالب النصرة بأي وجه كان ، فإن تركها يؤدي إلى الخسران وارتفاع الأمان وفي الحديث : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً »[1] ونصرة الظالم بنهيه عن الظلم . وفي فتاوى قاضيخان وإذا وقع النفير من قبل الروم ، فعلى كل من يقدر على القتال أن يخرج إلى الغزو ، إذا ملك الزاد والراحلة ، ولا يجوز له

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب المظالم ، والترمذي في الفتن وأحمد في المسند ٣ / ٩٩ وهو جزء من حديث له تتمة .

التخلف إلا بعذر بيّن . اهـ . ولا كلام في الهجرة إلى ما يحفظ به دينَ المرء من البلاء فقد روي : أن رسول الله ﷺ لما رأى ما نزل بالمسلمين من توالي الأذى عليهم من كفار قريش ، مع عدم قدرته على إنقاذهم مما هم فيه قال لهم : « اخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً عظيماً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » ، فهاجرَ إلى الحبشة ناس فراراً إلى الله تعالى بدينهم ، منهم من هاجر إلى الله بأهله ، ومنهم من هاجر بنفسه ، وهي الهجرة الأولى ، كما تنبغي الهجرة من أرض الفساد ، وفي الحديث : « كان فيما كان قبلكم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، فكمل به المائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ، فقال : نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ إنطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم حكماً ، فقال : قيسوا بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو لها ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[1] . فإن قلتَ : إن حقوق العباد لا تسقط بالتوبة ؟ قلنا : إذا تاب ظالم وقبل الله توبته ، يغفر له ذنب مخالفة أمر الله ، وما بقي عليه من حق العبد فهو في مشيئة الله تعالى إن شاء أرضى خصمه ، وإن شاء أخذ حقه منه ، والحديث من القسم الأول ، وفي الحديث استحباب أن يفارق التائب موضع الذنب ، ويستبدل صحبة أهل الصلاح ، اللهم ألحقنا بعبادك الصالحين ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بجميع ما يجب أن يؤمن به إجمالاً وتفصيلاً ﴿ **وَهَاجَرُوا** ﴾ أوطانهم تأسياً برسول الله ﷺ وطلباً لمرضاة الله ﴿ **وَجَاهَدُوا** ﴾ الكفار ﴿ **فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ هو دين الإسلام ، والإخلاص الموصلان إلى الجنة ودرجاتها ﴿ **وَالَّذِينَ آوَوْا** ﴾ أي : ضمُّوا المؤمنين إلى أنفسهم في مساكنهم ومنازلهم وواسوهم ﴿ **وَنَصَرُوا** ﴾ أي : أعانوهم على أعدائهم ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ إيماناً ﴿ **حَقّاً** ﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد ، وبذل المال ونصرة الحق ، فالآية الأولى مذكورة لبيان حكمهم وهو أنهم يتوراثون ويتولى بعضهم بعضاً في الميراث ، وهذه الآية مذكورة لبيان أن الكاملين في الإيمان هم المهاجرون الأولون ، والأنصار لا غيرهم فلا تكرار ﴿ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ** ﴾ لذنوبهم ﴿ **وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ أي : واسع كثير ، يطعمهم الله تعالى في الجنة طعاماً يصير كالمسك رشحاً ، ولا يستحيل في

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦ / ٣٧٣ ومسلم في كتاب التوبة رقم / ٢٧٦٦ / .

أجوافهم نجواً ، وهو ما يخرج من البطن من ريح أو غائط ، ثم ألحق بهم في الأمرين من سيلحق بهم ويتسم بسمتهم فقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ ﴾ أي : من بعد الهجرة الأولى ﴿ وَهَاجَرُوا ﴾ بعد هجرتكم ﴿ وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ ﴾ في بعض مغازيكم ﴿ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ أي : من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار وهم الذين جاؤا من بعدهم ، ألحقهم الله بالسابقين وجعلهم منهم ، تفضلاً منه وترغيباً في الإيمان والهجرة ، ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ في التوارث من الأجانب ﴿ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ أي : في حكمه ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ومن جملته ما في تعليق التوارث بالقرابة النسبية من الحكم البالغة ، واعلم أن المهاجرين الأولين من حيث إنهم أسسوا قاعدة الإيمان ، أفضل من الأنصار ، يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار » فإن المراد منه إكرام الأنصار ، بأن لا رتبة بعد الهجرة أعلى من نصرة الدين ، والمهاجرون على طبقات : منهم من هاجر معه عليه الصلاة والسلام أو بعد هجرته قبل صلح الحديبية ، وهم المهاجرون الأولون ، ومنهم من هاجر بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة وهم أهل الهجرة الثانية ، ومنهم ذو هجرتين هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة ، وكانت الهجرة إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ فرضاً على المؤمن المستطيع ، ليكون في سعة من أمر دينه ، ولينصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في إعلاء كلمة الله ، فلما فتح مكة أعلمهم بأن الهجرة المفروضة قد انقطعت ، وأنه ليس لأحد بعد ذلك أن ينال فضيلة الهجرة ، وأن ينازع المهاجرين في مراتبهم ، وأما الهجرة التي تكون من المسلم لصلاح دينه ، فإنها باقية أبد الدهر غير منقطعة ، وفي الحديث : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيَّةٌ ، وإذا استُنْفِرتم فانفِرُوا »[1] .

« تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة الأنفال »

• • •

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه .



بسم الله الرحمن الرحيم

إنما تركت التسمية أول براءة ، لعدم المناسبة بين الرحمة التي تدل عليها البسملة ، والتبري الذي يدل عليه أول براءة ، فإنها آية عذاب ، ﴿ **بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ أي : هذه براءة من جهة الله ورسوله واصلة ﴿ **إِلَىٰ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ** ﴾ أيها المسلمون ﴿ **مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ والبراءة من الله : انقطاع العصمة ونقض العهد ، ولم يُذكر ما تعلق به البراءة ، اكتفاء بما في حيز الصلة ، واحترازاً عن تكرير لفظة من ، والمعنى إن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين ، فإنه منبوذ إليهم ، والعهدُ : العقدُ الموثق باليمين ، وقد كان المسلمون عاهدوا مشركي العرب من أهل مكة وغيرهم ، بإذن الله ، فنكثوا فأُمر المسلمون بنبذ العهد إلى الناكثين وأُمهلوا أربعة أشهر كما قال تعالى ﴿ **فَسِيحُوا** ﴾ أي : فقولوا لهم سيحوا وسيروا ﴿ **فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** ﴾ آمنين من القتال ، غير خائفين من النهب والغارة ، والسياحة : الذهابُ في الأرض والسير فيها بسهولة ، كسيح الماء على وجه الأرض ، وزيادة ﴿ في الأرض ﴾ لقصد التعميم لأقطارها من دار الإسلام وغيرها ، والمراد بالأشهر الأربعة هي الأشهر الحرم ، وهي شوال ، وذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، لأن السورة نزلت في شوال سنة تسع من الهجرة بعد فتح مكة ، أُمروا بأن لا يتعرضوا للكفار بتلك المدة ، صيانة للأشهر الحرم عن القتال فيها ، ثم نسخ وجوبها ليتفكروا ويعلموا أن ليس لهم بعد هذه المدة إلا الإسلام أو السيف ، فيصير ذلك حاملاً لهم على الإسلام ، ولئلا ينسبوا المسلمين إلى الخيانة ونقض العهد على غفلة المعاهدين ، وقيل : هي عشر من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشر من شهر ربيع الآخر ، لأن التبليغ كان يوم النحر ، كما روي أن رسول الله ﷺ ولى سنة الفتح « عتاب بن أسيد » للوقوف بالناس في الموسم ، واجتمع في تلك السنة في الوقوف المسلمون والمشركون فلما كانت سنة تسع بعث أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الموسم ، فلما خرج منطلقاً نحو مكة ، أتبعه علياً رضي الله عنه راكب العضباء ليقرأ هذه السورة على أهل الموسم ، فقيل له عليه الصلاة والسلام : لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال : « لا يؤدي عني إلا رجلٌ مني » وذلك لأن عادة العرب أن لا يتولى أمر العهد والنقض على القبيلة إلا رجل منها ، سيِّدهم أو واحد من رهطه وعترته ، فبعث علياً إزاحة للعلة لئلا يقولوا : هذا خلاف ما نعرفه فينا في العهد والنقض ، فلما دنا علي سمع أبو بكر الرغاء ، فوقف وقال هذا رغاء ناقة رسول الله ، فلما لحقه قال : أمير أم مأمور ؟ قال : مأمور ، فمضيا فلما كان قبل يوم التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام عليّ يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم ، فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية من أول هذه السورة ، ثم قال : أُمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل

الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده » ، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ ﴾ بسياحتكم في أقطار الأرض ﴿ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ﴾ أي : لا تفوتونه بالهرب والتحصين ، ﴿ وَأَنَّ اللهَ ﴾ أي : واعلموا أنه تعالى ﴿ مُخْزِي الكَافِرِينَ ﴾ أي : مذلكم في الدنيا بالقتل والأسر ، وفي الآخرة بالعذاب وما يحصل لكم من الافتضاح ، والإخزاء : هو الإزلال بما فيه فضيحة وعار ، ففي الآية دعوة إلى الصلح والإيمان بعد الحرب والكفران ، فمن كفر وعصى فقد خاصم ربه فجاء الندم في تأخيره التوبة والاستغفار ، وعدم مبالاته بمباغتة قهر الملك الجبار ، قال بعض الأولياء : إن شئت أن تصير من الأبدال ، فحوّل خلقك إلى بعض خلق الأطفال ، فيهم خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالاً : لا يهتمون للرزق . ولا يشكون من خالقهم إذا مرضوا ، ويأكلون الطعام مجتمعين ، وإذا تخاصموا تسارعوا إلى الصلح ، وإذا خافوا جرت عيونهم بالدموع .

﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الأذان : بمعنى الإيذان كالعطاء بمعنى الإعطاء ، أي : هذا إعلام واصل منهما ﴿ إِلَى النَّاسِ ﴾ كافة المؤمنين والكافرين ، فالأذان عام والبراءة خاصة بالناكثين من المعاهدين ﴿ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه يوم العيد فإنه يتم فيه أركان الحج كطواف الزيارة وغيره ، ويتم فيه معظم أفعاله كالنحر والرمي وغيرهما ، والثاني : أنه يوم عرفة لقوله عليه الصلاة والسلام : « الحج عرفة » حصر النبي عليه الصلاة والسلام أفعال الحج في الوقوف بعرفة لأنه معظم أفعاله ، من حيث أن من أدرك الوقوف بعرفة فقد أدرك الحج ، ومن فاته الوقوف فاته الحج ، ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى « الحج الأصغر » ولاجتماع المسلمين والمشركين في ذلك اليوم ، وموافقته لأعياد أهل الكتاب ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده ، ﴿ أَنَّ اللهَ ﴾ أي : بأن الله والباء صلة الأذان حذفت تخفيفاً ﴿ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ أي : من عهدهم الذي نقضوه ، فالمراد بالمشركين المعاهدون الناكثون ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ هو مرفوع معطوف على المستكن في بريء ، أي : ورسوله كذلك بريء من المشركين ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ من الكفر والغدر ﴿ فَهُوَ ﴾ أي : فالتوبة ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ في الدارين من الإقامة على الكفر والغدر ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي : أعرضتم عن التوبة ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ﴾ غير سابقين ولا فائتين أي : لا تفوتونه طلباً ولا تعجزونه هرباً ، ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ في الآخرة والخطاب لرسول الله ﷺ ، وذكر التبشير في مقام الإنذار تهكم بهم ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت مع عليّ رضي الله عنه حيث بعثه رسول الله بالبراءة إلى مكة ، فقيل لأبي هريرة : بماذا كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ، ولا يحجنّ هذا البيت بعد هذا العام مشرك ولا عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى أربعة شهر ، فإذا مضت أربعة أشهر

فإن الله بريء من عهد المشركين ورسولُه ﴿ **إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ استدراك أي : استثناء منقطع ، كأنه قيل : لا تمهلوا الناكثين فوق أربعة أشهر ، لكن الذين لم ينكثوا عهدهم فلا تجروهم مجرى الناكثين ، في المسارعة إلى قتلهم ، بل أتموا إليهم عهدهم ﴿ **ثُمَّ** ﴾ للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادي المدة ﴿ **لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً** ﴾ من شروط العهد ولم ينكثوا ﴿ **وَلَمْ يُظَاهِرُوا** ﴾ لم يعاونوا ﴿ **عَلَيْكُمْ أَحَداً** ﴾ من أعدائكم كما عدت بنو بكر على خزاعة حلفاء النبي عليه الصلاة والسلام فظاهرتهم قريش بالسلاح ﴿ **فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ** ﴾ أي : فأدوه إليهم تاماً كاملاً ﴿ **إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ** ﴾ ولا تفاجئوهم بالقتال عند مضي الأجل المضروب للناكثين ، ولا تعاملوهم معاملتهم ، روي : أن بني ضمرة عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية عند البيت ، وكان بقي لهم من عهدهم تسعة أشهر ، فأتم عليه الصلاة والسلام إليهم عهدهم ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ تعليل لوجوب الامتثال ، وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهد من باب التقوى ، وأن التسوية بين الوفي والغادر منافية لذلك ، وإن كان المعاهد مشركاً .

قال الشيخ نصر آبادي : للمتقين علامات أربع : حفظ الحدود ، وبذل المجهود ، والوفاء بالعهود ، والقناعة بالموجود ، ﴿ **فَإِذَا انْسَلَخَ** ﴾ أي : انقضى استعير له من الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده ﴿ **الأَشْهُرُ الْحُرُمُ** ﴾ وانفصلت عما كانت مشتملة عليه ساترة له انفصال الجلد عن الشاة وانكشفت عنه انكشاف الحجاب عما وراءه ، ووصفت الأشهر بالحرم وهي جمع حرام ، لأن الله تعالى حرم فيها القتال ، وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها ، لا الأشهر الدائرة في كل سنة وهي « رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم » لأن نظم الآية يقتضي توالي الأشهر المذكورة ، وهذه ليست كذلك لأن ثلاثة منها سرد وواحد فرد ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ** ﴾ الناكثين أبد الآباد ، فهذه الآية ناسخة لكل آية في القرآن ، فيها ذكر الإعراض عن المشركين ، والصبر على إيذائهم ، على ما أجمع عليه جمهور العلماء ﴿ **حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾ أدركتموهم في حل أو حرم ﴿ **وَخُذُوهُمْ** ﴾ أي : اسروهم ، والأخيذ : الأسير ﴿ **وَاحْصُرُوهُمْ** ﴾ الحصرُ : المنع ، والمرادُ إما حبسهم ومنعهم عن التبسط والتقلب في البلاد أو منعهم عن المسجد الحرام ﴿ **وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ** ﴾ أي : كل ممر ومجتاز يجتازون منه في أسفارهم ، وهذا أمر لتضييق السبيل عليهم ﴿ **فَإِنْ تَابُوا** ﴾ عن الشرك ﴿ **وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوا الزَّكَاةَ** ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم ، واكتفى بذكرهما عن بقية العبادات ، لكونها رئيسي العبادات البدنية والمالية ﴿ **فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ** ﴾ فدعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بشيء مما ذكر .

﴿ **إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ تعليل للأمر أي : فخلوهم فإن الله يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر ، لأن الإيمان يَجبُّ ما قبله أي : يقطعه ، واعلم أن الله تعالى أمر في هذه الآية بالجهاد ، وهو

أربعة أنواع ، جهاد الأولياء بالقلب بتحليته بالأخلاق الحميدة ، وجهاد الزهاد بالنفس بتزكيتها عن الأوصاف الرذيلة ، وجهاد العلماء بإظهار الحق خصوصاً عند سلطان جائر وإمام ظالم ، وجهاد الغزاة ببذل الروح والنفس والمال ، وهذا أعلى أنواع الجهاد وأعظمها .

﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ** ﴾ رفع بفعل يفسره ما بعده لا بالابتداء ، لأن إن من عوامل الفعل ﴿ **مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ الذين أمرتك بقتلهم ﴿ **اسْتَجَارَكَ** ﴾ أي : طلب منك الأمان والجوار ، بعد انسلاخ الأشهر الحرم ﴿ **فَأَجِرْهُ** ﴾ فآمنه ولا تسارع إلى قتله ﴿ **حَتَّى يَسْمَعَ** ﴾ أي : إلى أن يسمع ﴿ **كَلامَ اللهِ** ﴾ أي : القرآن فيما له وما عليه من الثواب والعقاب ، استدل بعضهم بهذه الآية إلى أنه يجوز أن يسمع الكلام القديم الذي هو صفة الله تعالى ، ﴿ **ثُمَّ أَبْلِغْهُ** ﴾ بعد استماعه له إن لم يؤمن ﴿ **مَأْمَنَهُ** ﴾ أي : مسكنه الذي يأمن فيه وهو دار قومه ﴿ **ذٰلِكَ** ﴾ يعني الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن ﴿ **بِأَنَّهُمْ** ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ **قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ ما الإسلام وما حقيقته ، أو قوم جهلة فلابد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ، ولا يبقى لهم معذرة أصلاً ، وقد أمهل الله تعالى بفضله العصاة ليرجع العبد إليه ، وإلى طاعته ، روي : أنه كان في بني إسرائيل شاب قد عبد الله عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته ، فساءه ذلك ، فقال : إلهي أطعتك عشرين سنة ، وعصيتك عشرين سنة ، فإن رجعت إليك تقبلني ؟ فسمع هاتفاً من وراء البيت وهو يقول : « أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ، فإن رجعت إلينا قبلناك » وينبغي للعبد أن يسارع إلى التوبة والاستغفار ، فإن توبة الشاب أحسن من توبة الشيخ ، فإن الشاب ترك الشهوة مع قوة الداعي إليها ، والشيخ قد ضعفت شهوته وقلّ داعيه ، فلا يستويان .

﴿ **كَيْفَ** ﴾ الاستفهام إنكاري لا بمعنى إنكار الواقع ، بل بمعنى إنكار الوقوع ﴿ **يَكُونُ** ﴾ من الكون التام ﴿ **لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ هم الناكثون ، والمعنى على أي حال يوجد لهم ﴿ **عَهْدٌ** ﴾ معتد به ﴿ **عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ** ﴾ يستحق أن يراعى حقوقه ويحافظ عليه إلى تمام المدة ؟ أي : مستنكر مستبعد أن يكون لهم عهد يجب الوفاء به ﴿ **إِلا الَّذِينَ** ﴾ أي : لكن الذين ﴿ **عَاهَدْتُمْ** ﴾ يعني بني ضمرة وبني كنانة ﴿ **عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ التعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام لزيادة بيان أصحابها ، والإشعار بسبب وكادتها والالتزام بها ، ﴿ **فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ** ﴾ أي : فاستقيموا لهم بوفاء أجلهم مدة استقامتهم لكم في وفاء العهد ، ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ تعليل للأمر بالاستقامة ، وإشعار بأن المحافظة على العهد من لوازم التقوى ، وفي الحديث : « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف

بقدر غدرته»[١] المراد باللواء التشهير يعني يفتضح الغدّار يوم القيامة بقدر غدره .

﴿ كَيْفَ ﴾ يكون للمشركين عهد حقيق بالمراعاة عند الله سبحانه وعند رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي : وحالهم أنهم إن يظفروا بكم ﴿ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ ﴾ أي : لا يراعوا في شأنكم ﴿ إِلاًّ ﴾ أي : حلفاً أو قرابة ﴿ وَلا ذِمَّةً ﴾ أي : عهداً يعاقب على إغفاله وإضاعته يعني أن وجوب مراعاة حقوق العهد على كل من المتعاهدين ، مشروطة بمراعاة الآخر لها ، فإذا لم يراعها المشركون فكيف تراعونها ؟ ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ حيث يظهرون الوفاء والمصافاة ، ويؤكدون ذلك بالأيمان الفاجرة ، ويتعللون عند ظهور خلافه بالمعاذير الكاذبة ، ونسبة الإرضاء للأفواه ، للإيذان بأن كلامهم مجرد ألفاظ يتفوهون بها ، من غير أن يكون لها مصداق في قلوبهم ﴿ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ ما تتفّوه به أفواههم ، يعني أن ألسنتهم تخالف قلوبهم ، وما في بواطنهم من الضغائن ينافي ما أظهروره بألسنتهم من وعد الإيمان والطاعة والوفاء بالعهد ، فهم إنما يقولون كلاماً حلواً مكراً وخديعة ، ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ أي : أكثر المشركين ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون عن الطاعة ، متمردون في الكفر ، ليست لهم عقيدة تمنعهم ، ولا مروءة تردعهم . وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذاً بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق فقال : « يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقُّهِ في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح »[٢] .

قال بعضهم :

الْـــــزَمْ الصِّـــــدقَ والتُّقى * واترك العُجْبَ والريـــــــا
واغْلِبِ النَّفْسَ والهَـــــــوَى * تُرْزَقِ السُّـــــــؤْلَ والمُنَى

فعلى العاقل المجاهدة مع النفس ورعاية العهود والحقوق ، ومجانبة الفسوق والعقوق .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ﴾ يعني المشركين الناقضين ، تركوا الآيات الآمرة بالإيفاء بالعهود ، والاستقامة في كل أمر ، وأخذوا بدلها ﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ أي : شيئاً حقيراً من حطام الدنيا ﴿ فَصَدُّوا ﴾ أي : منعوا وصرفوا غيرهم ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي : دينه الموصل إليه ، أو سبيل بيته الحرام حيث كانوا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه ، واللفظ لمسلم ، وتتته عنده (ولا غادر أعظم غدراً من أمير عامة) وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٥ .

(٢) الحديث لم أره فيما بين يديّ من مراجع كتب الحديث .

يصدون الحجاج والعمار عنه ويحصرونهم ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : بئس العمل عملهم المستمر ، وقيل : أن أبا سفيان بن حرب جمع الأعراب وأطعمهم ، ليصدهم بذلك عن متابعة رسول الله ﷺ ، وليحملهم على نقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ، فنقضوه بسبب تلك الأكلة ، ﴿ لا يَرْقُبُونَ ﴾ أي : لا يراعون ولا يحفظون ﴿ فِي مُؤْمِنٍ ﴾ أي : في شأنه وحقه ﴿ إِلاًّ ﴾ أي : حلفاً أو حق قرابة ﴿ وَلا ذِمَّةً ﴾ أي : عهداً ، وهذا ناعي عليهم عدم مراعاة حقوق عهد المؤمنين على الإطلاق فلا تكرار ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفن بما عد من الصفات السيئة ﴿ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ المجاوزون الغاية القصوى من الظلم والشر ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ عن الكفر وسائر العظائم ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ أي : التزموا إقامتها واعتقدوا فرضيتها ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أي : فهم إخوانكم ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ أي : لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، فعاملوهم معاملة الإخوان ، ومتى لم توجد هذه الثلاثة ، لا تحصل الأخوة في الدين ، ولا عصمة الدماء والأموال ﴿ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أي : نبين الآيات المتعلقة بأحوال المشركين الناكثين وغيرهم وأحكامهم حالتي الكفر والإيمان ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : ما فيها من الأحكام ويحافظون عليها ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا ﴾ أي : وإن لم يفعلوا ذلك بل نقضوا ﴿ أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ الموثق بها وأظهروا ما في ضمائرهم من الشر ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ عابوه وقدحوا فيه بتصريح التكذيب وتقبيح الأحكام ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ أي : فقاتلوهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى علة وجوب مقاتلتهم ، أي : للإيذان بأنهم صاروا بذلك ذوي رياسة وتقدمٍ في الكفر أحقاء بالقتل ، وقيل : المراد بأئمتهم رؤساؤهم ، وتخصيصهم بالذكر ليس لنفي الحكم عما عداهم ، بل لأن قتلهم أهم من حيث إنهم هم المعتدون في الشر ، ويدعون أتباعهم إلى الأفعال الباطلة ، كأنه قيل : فقاتلوا من نكث الوفاء بالعهود لا سيما أئمتهم والرؤساء منهم ، ﴿ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ أي : على الحقيقة حيث لا يراعونها ولا يعدون نقضها محذوراً ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أي : قاتلوهم إرادة أن ينتهوا ، عما هم عليه من الكفر ، وسائر العظائم التي يرتكبونها ، لا إيصال الأذية كما هو ديدن المؤذين .

﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ التي حلفوها مع الرسول والمؤمنين على أن لا يعاونوا عليهم ، فعاونوا بني بكر على خزاعة ، ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ حين تشاوروا في أمره بدار الندوة ﴿ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ ﴾ أي : بدأوا نقض العهد بالمعاداة والمقاتلة ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ لأن رسول الله ﷺ جاءهم أولاً بالكتاب المبين وتحداهم به ، فعدلوا عن المحاجة لعجزهم عنها إلى المقاتلة ، فما يمنعكم أن تعارضوهم وتصادموهم ؟ ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ أتتركون قتالهم خشية أن ينالكم مكروه منهم ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ فقاتلوا أعداءه ولا تتركوا أمره ، فخشية الله تعالى أحق من خشيتهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ

﴿ مُؤْمِنِينَ ﴾ فإن قضية الإيمان أن لا يُخشى إلا منه ، ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : يجعلكم جميعاً غالبين عليهم أجمعين ﴿ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ ممن لم يشهد القتال وهم خزاعة ، قال ابن عباس : هم بطن من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلموا فلقوا من أهلها أذىً كثيراً فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه فقال عليه الصلاة والسلام : « أبشروا فإن الفرج قريب ».

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ولقد أنجز الله ما وعدهم به على أجمل ما يكون ﴿ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ كلام مستأنف ينبىء عما سيكون من بعض أهل مكة من التوبة المقبولة فكان كذلك حيث أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم مثل أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو وغيرهم ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بما كان وما سيكون ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل ولا يأمر إلا على وفق الحكمة ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أم منقطعة ، والمعنى بل أحسبتم ومعنى بل الإضراب عن أمرهم بالقتال إلى توبيخهم على الحسبان ﴿ أَنْ تُتْرَكُوا ﴾ مهملين غير مأمورين بالجهاد ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ أي : والحال أنه لم يتبين الخلص وهم الذين جاهدوا من غيرهم ، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذُوا ﴾ أي : ولما يعلم الله الذين لم يتخذوا ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ أي : بطانة وصاحب سر ، وهو الذي تطلعه على ما في ضميرك من الأسرار الخفية ، من الولوج وهو الدخول ، قال أبو عبيدة : كل شيء أدخلته في شيء وليس منه فهو وليجة ، تكون للواحد والإثنين والجمع بلفظ واحد ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بجميع أعمالكم ، لا يخفى عليه شيء منها ، فيعلم غرضكم من الجهاد هل فيه إخلاص أو هو مشوب بالعلل ، كإحراز الغنيمة أو جلب الثناء أو نحو ذلك ، وفي الآية حث على الجهاد قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة »[1] والمجاهد من جاهد نفسه ، وأشجع الناس أقهرهم لهواه ، كم عاقل أسيرٌ ، هواه عليه أمير ، عبد الشهوات أذل من عبد الرق ، وفي الآية بيان أن المؤمن المخلص ، يجتنب الكافر والمنافق ولا يتخذهما صاحبي سر ، ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ نزلت الآية في جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، فيهم العباس عم النبيّ عليه الصلاة والسلام ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله فعيَّروهم بالشرك ، وجعل عليٌّ رضي الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله ﷺ وقطع رحمه وعون المشركين عليه ، وأغلظ القول له فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوينا وتكتمون محاسننا ؟ فقال له عليّ : وهل لكم محاسن ؟ قال : نعم ، إنَّا نعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقي الحاج ، فقال الله تعالى رداً ﴿ مَا كَانَ

(١) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن .

﴿ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : ما صح وما استقام على معنى نفي الوجود والتحقق لا نفي الجواز ﴿ أَنْ يَعْمُرُوا ﴾ عمارة معتداً بها ﴿ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ أي : المسجد الحرام وإنما جمع لأنه قبلة المساجد وإمامها ، فعامره كعامرها.

﴿ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ أي : بإظهار آثار الشرك من نصب الأوثان حول البيت للعبادة ، فإن ذلك شهادة صريحة على أنفسهم بالكفر ، وإن أبوا أن يقولوا نحن كفار ، وقال السدي : شهادتهم على أنفسهم بالكفر أن اليهودي لو قيل له : ما أنت ؟ قال : يهودي ، ويقول النصراني : هو نصراني ، ويقول المجوسي : هو مجوسي ، أو قولهم نعبد الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى ، فمحالٌ عمارة بيت الله ، مع ملابستهم لما ينافيها ويحبطها من عبادة غيره تعالى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين يدَّعون عمارة المسجد ، وما يضاهيها من أعمال البر مع ما بهم من الكفر ﴿ حَبِطَتْ ﴾ بطلت وضاعت ﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ التي يفتخرون بها ﴿ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ لكفرهم ومعاصيهم ، قال القاضي عياض : انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ، ولا يثابون عليها بنعيم ولا بتخفيف عذاب ، لكن بعضهم يكون أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم ، وذكر الإمام الفقيه البيهقي : أنه يجوز أن يراد مما ورد في الآيات والأخبار في بطلان خيرات الكفار ، أنهم لا يتخلصون بها من النار ، ولكن يخفف عنهم ما يستوجبونه بجنايات ارتكبوها سوى الكفر ، ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ شامل للمسجد الحرام وغيره ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾ وحده ، والإيمان بالرسول داخل في الإيمان بالله ، ﴿ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ بما فيه من البعث والحساب والجزاء ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ ﴾ مع الجماعة وفي الحديث : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً »[1] والجماعة في التراويح أفضل ، وكل ما شرع فيه الجماعة فالمسجد فيه أفضل ، ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ أي : الصدقة المفروضة عن طيب نفس ، وقرن الزكاة بالصلاة في الذكر لما أن أحداهما لا تقبل إلا بالأخرى أي : إنما تستقيم عمارتها ممن جمع هذه الكمالات العلميَّة والعَمَليَّة ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللهَ ﴾ أي : ولم يخف من أحدٍ إلا من ربه ، غير خائف في الله لومة لائم ، ولا خشية ظالم ﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ إلى مطلبهم من الجنة وما فيها من فنون المطالب العلية ، وإبراز اهتدائهم مع ما بهم من الصفات السنية في معرض التوقع ، لقطع أطماع الكفرة عن الانتفاع بأعمالهم التي يحسبون أنهم لها محسنون ، ولتوبيخهم بقطعهم بأنهم مهتدون ، فإن المؤمنين مع ما بهم من هذه الكمالات إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى ، فمال بال الكفرة المفسدين ؟ قال الحدادي : كلمة « عسى » من الله واجبة ، والفائدة في ذكرها في آخر هذه الآية ، ليكون الإنسان على حذر من فعل ما يحبط ثواب عمله ، واعلم أن عمارة المساجد تعم أنواعاً : منها البناء وتجديد ما انهدم منها ، ومنها قَمُّها

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ٩ / ٤١٣ .

أي : كنسها وتنظيفها ، قال الحسن : « مهور الحور العين كنس المساجد » ومنها تزيينها بالفرش ، قال بعضهم : أول من فرش الحصير في المساجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت قبل ذلك مفروشة بالحصى ، ومنها تعليق القناديل في المساجد وإسراج المصابيح والشموع ، وأول من جعل في المسجد المصابيح عمر بن الخطاب ، ويوافقه قول بعضهم ، وأول من فعل ذلك عمر بن الخطاب ، فإنه لما جمع الناس على « أبي بن كعب » رضي الله عنه في صلاة التراويح ، علَّق القناديل ، فلما رأها عليٌّ كرَّم الله وجهه تزهر ، قال : نوَّرتَ مسجدنا نوَّر الله قبرك يا ابن الخطاب » ، ومنها صيانتها مما لم تبن له كحديث الدنيا . ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ** ﴾ روي : أن المشركين قالوا : القيام على السقاية ، وعمارة المسجد الحرام ، خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفتخرون بالحرم ويستكثرون به من أجل أنهم أهله وعُمَّارهُ فأنزل الله هذه الآية ، والمعنى : أجعلتم أيها المشركون المؤثرون للسقاية والعمارة على الهجرة والجهاد سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام في الفضيلة وعلو الدرجة ﴿ **كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي : أجعلتم أهلها كإيمان من آمن بالله وجاهد في سبيله ﴿ **لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي : لا يساوي الفريق الأول الثاني ﴿ **وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي : الكفرة الظلمة ، فكيف يساوون الذين هداهم الله ووفقهم للحق والصواب ؟ ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ استئناف لبيان مراتب فضلهم ﴿ **وَهَاجَرُوا** ﴾ من أوطانهم إلى رسول الله ﴿ **وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ العدو في طاعة الله ﴿ **بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ** ﴾ أي : هم باعتبار اتصافهم بهذه الأوصاف الجليلة ﴿ **أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي : أعلى رتبة وأكثر كرامة ، ممن لم يتصف بها كائنا من كان ﴿ **وَأُولَئِكَ** ﴾ المنعوتون بتلك النعوت ﴿ **هُمُ الفَائِزُونَ** ﴾ المختصون بالفوز العظيم أو بالفوز المطلق ، كأن فوز من عداهم ليس بفوز بالنسبة إلى فوزهم ﴿ **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ** ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿ **بِرَحْمَةٍ** ﴾ عظيمة ﴿ **مِنْهُ** ﴾ هي النجاة من العذاب في الآخرة ﴿ **وَرِضْوَانٍ** ﴾ رضى الله عليهم ﴿ **وَجَنَّاتٍ** ﴾ أي : بساتين عالية ﴿ **لَهُمْ فِيهَا** ﴾ أي : في تلك الجنات ﴿ **نَعِيمٌ مُقِيمٌ** ﴾ لانفاد لها ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أي : في الجنات ﴿ **أَبَداً** ﴾ تأكيد للخلود لزيادة توضيح المراد ، إذ قد يراد به المكث الطويل ﴿ **إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ أي : ثواب كثير في الجنة ، لا قدر عنده لأجور الدنيا .

وأعظم قربة في مقام العبودية لله عزَّ وجل ، من وصل إلى مقام العندية ، فالله يعظم أجره أي : يجده في مقام العندية فافهم واسأل ولا تغفل عن حقيقة الحال ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ سبب نزولها أنه لما أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ، كان من الناس من يتعلق به زوجته وولده وأقاربه ، فيقولون : ننشدك الله أن لا تروح وتدعنا إلى غير شيء فنضيع بعدك ، فيرقُّ لهم ويدع

الهجرة ، فقال الله تعالى أيها المؤمنون ﴿ لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ﴾ الكفرة بمكة ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ أحباباً وأنصاراً ﴿ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ ﴾ أي : اختاروه ﴿ عَلَى الإِيمَانِ ﴾ عدى استحب بعلى لتضمنه معنى اختار وفضل ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ بوضعهم الموالاة في غير موضعها ، قال الإمام : الصحيح أن هذه السورة إنما نزلت بعد فتح مكة ، فكيف يمكن حمل هذه الآية على إيجاب الهجرة ، والحال أن الهجرة إنما كانت واجبة قبل فتح مكة ! والأقرب أن تكون هذه الآية محمولة على إيجاب التبري من أقربائهم المشركين ، وترك الموالاة معهم باتخاذهم بطانة وأصدقاء ، بحيث يفشون إليهم أسرارهم ، ويؤثرون المقام بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام ، ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للذين تركوا الهجرة ﴿ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ أي : أقرباؤكم من المعاشرة وهي المخالطة ﴿ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي : اكتسبتموها وأصبتموها بمكة ﴿ وَتِجَارَةٌ ﴾ أي : أمتعة اشتريتموها للتجارة والربح ﴿ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ بفوات وقت رواجها في أيام الموسم ﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ أي : منازل تعجبكم الإقامة فيها من الدور والبساتين ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي : من طاعة الله وطاعة رسوله بالهجرة إلى المدينة ﴿ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ أي : وأحب إليكم من الجهاد في طاعة الله ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي : انتظروا ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ بعقوبة عاجلة أو آجلة ، وهو وعيد لمن آثر حظوظ نفسه على مصلحة دينه ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الخارجين عن الطاعة في موالاة المشركين أي : لا يرشدهم إلى ما هو خير لهم ، وفي الآية الكريمة وعيد شديد لا يتخلص منه إلا أقل قليل ، فإنك لو تتبعت إخوان زماننا من الزهاد ، لوجدتهم يتحزنون بفوات أحقر شيء من الأمور الدنيوية ، ولا يبالون بفوات أجل حظ من الحظوظ الدينية ، فإن محصول الآية أن من آثر هذه المشتهيات الدنيوية على طاعة الرحمن ، فليستعد لنزول عقوبة آجلة ، أو عاجلة ، ولينظر أن ما آثره من الحظوظ العاجلة هل يخلص من الأهوال والدواهي النازلة ؟ اللهم عفوك وغفرانك يا أرحم الراحمين ، وفي الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده والناس أجمعين »[1] ، قال ابن ملك : المراد به نفي كمال الإيمان ، وبالحب الحب الإختياري ، مثلاً لو أمر رسول الله مؤمناً بأن يقاتل الكافر حتى يكون شهيداً ، أو أمر بقتل أبويه وأولاده الكافرين ، لأحب أن يختار ذلك لعلمه أن السلامة في امتثال أمره عليه الصلاة والسلام ، وأن لا يخير كما أن المريض ينفر بطبعه عن الدواء ، ولكن يميل إليه ويفعله لظنه أن صلاحه فيه ، كيف ونبينا عليه الصلاة والسلام أعطف علينا منا ومن آبائنا وأولادنا ، لأنه عليه الصلاة والسلام يسعى لنا لا لغرض ، ومن

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، ومسلم والنسائي وابن ماجه وأحمد في المسند ٣ / ١٧٧ .

محبته عليه الصلاة والسلام ، نصرة سنته والذب أي : المنع والدفع عن شريعته .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ ﴾ أي : بالله قد أعانكم يا أصحاب محمد على عدوكم ، وأعلاكم عليهم مع ضعفكم وقلة عددكم وعُددكم ﴿ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ من الحروب وهي مواقعها ومقاماتها ، جمع موطن وهو كل موضع أقام به الإنسان لأمر ، والمراد بها واقعات بدر ، والأحزاب ، وقريظة ، والنضير ، والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ أضيف اليوم إلى حنين لوقوع الحرب يومئذ بها ، وهي غزوة حنين ويقال لها غزوة هوازن ، ، وغزوة أوطاس باسم الموضع الذي كانت به الواقعة في آخر الأمر ، وحنين وادٍ بين مكة والطائف ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ أي : سرَّتكم كثرة عددكم ووفور عُددكم ، وكانت الواقعة في حنين بين المسلمين ، وهم اثنا عشر ألفاً ، عشرة آلاف منهم ممن شهد فتح مكة من المهاجرين والأنصار ، وألفان من الطلقاء وهم أهل مكة ، سموا بذلك لأنه عليه الصلاة والسلام أطلقهم يوم فتح مكة عنوة ولم يقيدهم بالأسار ، وبين « هوازن وثقيف » وكانوا أربعة الآف ، روي : أنه عليه الصلاة والسلام فتح مكة في أواخر رمضان ومكث فيها إلى أن دخل شوال ، فغدا يوم السبت السادس منه خارجاً إلى غزوة حنين ، واستعمل على مكة « عتاب بن أسيد » يصلي بهم ، « ومعاذ بن جبل » يعلمهم السنن والفقه ، وحين فتحت مكة أطاعه عليه الصلاة والسلام قبائل العرب ، إلا هوازن وثقيفاً فإن أهلها كانوا طغاة مردة ، فخافوا أن يغزوهم رسول الله ﷺ ، فحشدوا وبغوا وقالوا : إن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال ، فأجمعوا أمرهم على ذلك ، فأخرجوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فحملوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثم جاؤا بالإبل والغنم والذراري وراء ذلك ، كي يقاتل كل منهم عن أهله وماله لا يفر أحد بزعمهم ، فساروا كذلك حتى نزلوا بأوطاس ، وقد كان عليه الصلاة والسلام بعث إليهم عيناً ليتجسس عن حالهم ، وهو « عبد الله بن أبي حدرد » من بني سليم ، فوصل إليهم فسمع مالك بن عوف ، أمير هوازن يقول لأصحابه : أنتم أربعة آلاف رجل ، فإذا لقيتم العدو فاحملوا عليهم حملة رجل واحد ، واكسروا جفون سيوفكم ، فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئاً إلا فرج ، فأقبل العين إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبره بما سمع من مقالتهم ، فقال سلمة بن سلامة الأنصاري : يا رسول الله لن نغلب اليوم من قلة ، فساءت رسولَ الله ﷺ كلمتُه ، وقوله لن نغلب اليوم من قلة إعجاب بالكثرة ، فركب ﷺ بغلته ولبس درعه ، ووضع الألوية والرايات مع المهاجرين والأنصار ، فلما كان بحنين وانحدروا في الوادي عند غبش الصبح خرج عليهم القوم ، وكانوا كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضايقه ، وكانوا رماة فاقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم المشركون ، وخلوا الذراري فأكب المسلمون فتنادى المشركون يا حماة السوء اذكروا الفضائح ، فتراجعوا وحملوا عليهم ، فأدركت المسلمين كلمة الإعجاب أي :

لحقهم شؤم كلمة الإعجاب فانكشفوا ولم يقوموا لهم مقدار حلب شاة ، وذلك قوله تعالى ﴿ **فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً** ﴾ أي : لم تعطكم تلك الكثرة مما تدفعون به حاجتكم شيئاً من الإغناء ﴿ **وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** ﴾ أي : رحبها وسعتها على أن ما مصدرية والباء بمعنى مع أي : لا تجدون فيها مقراً تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ، ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكانه . قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهي عريضة * على الخائف المطلوب كفة حابل

أي : حبالة صيد ﴿ **ثُمَّ وَلَّيْتُمْ** ﴾ الكفار ظهوركم ﴿ **مُدْبِرِينَ** ﴾ أي : منهزمين لا تلوون على أحد ، يقال : ولى هارباً أي أدبر ، فالإدبار خلاف الإقبال ، روي : أنه بلغ فلهم أي : منهزمهم مكة ، وسُرَّ بذلك قوم من أهل مكة وأظهروا الشماتة ، ولما انهزموا بقي رسول الله ﷺ وحده ، وليس معه إلا عمه العباس ، آخذاً بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن حرب ، آخذاً بركابه ، وهو يركض البغلة نحو المشركين ويقول :

أنا النبي لا كذب * أنا ابنُ عبد المطلب

وهذا ليس بشعر ، لأنه لم يقع عن قصد ، وإنما قال أنا ابن عبد المطلب ، ولم يقل : أنا ابن عبد الله ، لأن العرب كانت تنسبه ﷺ إلى جده عبد المطلب لشهرته ، ولموت عبد الله في حياته ، فليس من الافتخار بالآباء الذي هو من عمل الجاهلية .

روي : أنه عليه الصلاة والسلام كان يحمل على الكفار فيفرون ، ثم يحملون عليه فيقف لهم ، قال العباس : كنت أكف البغلة لئلا تسرع به نحو المشركين ، وناهيك بهذا شهادة على تناهي شجاعته ، حيث لم يخف الكفار على نفسه ، وما ذلك إلا لكونه مؤيداً من عند الله العزيز الحكيم ، وقال للعباس وكان صيتاً جهوري الصوت : « صِحْ بالناس » فنادى الأنصار ثم نادى يا أصحاب الشجرة وهم أهل بيعة الرضوان ، يا أصحاب سورة البقرة ، فكرُّوا عُنُقاً واحداً أي : جماعة واحدة يعني دفعة وهم يقولون : لبيك لبيك ، وذلك قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** ﴾ أي : رحمته التي تسكن بسببها القلوب ، وتطمئن إليها اطمئناناً كلياً مستتبعاً للنصر القريب ﴿ **وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ شامل للمنهزمين وغيرهم فعاد المنهزمون وظفروا ﴿ **وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا** ﴾ أي : بأبصاركم وهم الملائكة على خيول بلق ، ثم نزل ﷺ عن بغلته ، ثم قبض قبضة من تراب فرمى به المشركين وقال : « شاهت الوجوه » فلم يبق منهم أحد إلا امتلأت به عيناه ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « انهزموا ورب الكعبة » وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان » فقال له

جبريل عليه السلام : « لقد لُقِّنتَ الكلمات التي لقنها الله موسى يوم فلق البحر » واختلفوا في عدد الملائكة يومئذ فقيل : خمسة آلاف وقيل ثمانية آلاف وفي قتالهم أيضاً فقيل : قاتلوا ، وقيل : لم يقاتلوا إلا يوم بدر ، وإنما كان نزولهم لتقوية قلوب المؤمنين ، بإلقاء الخواطر الحسنة وتأييدهم بذلك ، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين ﴿ **وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بالقتل والأسر والسبي ﴿ **وَذٰلِكَ** ﴾ أي : ما فعل بهم مما ذكر ﴿ **جَزَاءُ الكَافِرِينَ** ﴾ في الدنيا ، ولما هزم الله المشركين بوادي حنين ولوا مدبرين ونزلوا بأوطاس ، وبها عيالهم وأموالهم ، فبعث رسول الله رجلاً من الأشعريين يقال له : أبو عامر ، وأمره على جيش إلى أوطاس ، فسار إليهم فاقتتلوا وهزم الله المشركين ، وسبى المسلمون عيالهم ، وهرب أميرهم مالك بن عوف فأتى الطائف وتحصن بها ، وأخذوا أهله وماله فيمن أخذ ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر ، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام ، انصرف عنهم فأتى الجعرانة ـ وهو موضع بين مكة والطائف ـ فأحرم منها بعمرة بعد أن قام بها ثلاث عشرة ليلة ، وقسم بها غنائم حنين وأوطاس ، وكان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرون ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألفاً ، وتألف أناساً فجعل يعطي الرجل الخمسين والمائة من الإبل ، فقالت طائفة من الأنصار : يا للعجب إن أسيافنا تقطر من دمائهم ، وغنائمنا ترد عليهم ، فبلغ ذلك النبي عليه الصلاة والسلام ، فجمعهم فقال : « يا معشر الأنصار ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ » فقالوا : هو الذي بلغك ـ وكانوا لا يكذبون ـ فقال : « ألم تكونوا ضُلاَّلاً فهداكم الله بي ، وكنتم أذلة فأعزكم الله بي ، وكنتم وكنتم ، أما ترضون أن ينقلب الناس بالشاء والإبل ، وتنقلبون برسول الله إلى بيوتكم ؟ » فقالوا : بلى رضينا يا رسول الله ، والله ما قلنا ذلك إلا محبة لله ورسوله ، فقال ﷺ : « إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم » ﴿ **ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أن يتوب عليهم منهم لحكمة تقتضيه أي : يوفقه للإسلام ﴿ **وَاللهُ غَفُورٌ** ﴾ يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصي ﴿ **رَحِيمٌ** ﴾ يتفضل عليهم ويثيبهم ، روي : أن أناساً منهم جاؤا رسول الله وبايعوه على الإسلام ، وقالوا : يا رسول الله : أنت خير الناس ، وأبرّ الناس ، وقد سُبيَ أهلونا وأولادنا ، وأخذت أموالنا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إن عندي ما ترون ، إن خير القول أصدقه ، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم ، وإما أموالكم » قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً ، كنوا بهذا القول عن اختيار ما سبي منهم من الذراري والنسوان . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾ النَّجَس : بفتحتين مصدر بمعنى النجاسة ، وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة ، يجب الاجتناب عنهم والتبري منهم وقطع مودتهم ، أو لأنهم لا يتطهرون من الجنابة والحدث ، ولا يجتنبون عن النجاسة الحقيقية ، فحكم عليهم بأنهم نجس بمعنى ذوي نجاسة ، في أعضائهم الظاهرة ، أو أنهم نجس بمعنى ذوي نجاسة في باطنهم حيث تنجسوا بالشرك والاعتقاد الباطل . ﴿ **فَلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ** ﴾

أي : فلا يقربوه بسبب أنهم عين النجاسة ، فضلاً عن أن يدخلوه ، فإن نهيهم عن اقترابه للمبالغة في نهيهم عن دخوله ، وقيل : المراد ألا يدخلوا الحرم كله ، ﴿ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ وهو السنة التاسعة من الهجرة التي حج فيها أبو بكر رضي الله عنه أميراً ، وكانت حجة الوداع في السنة العاشرة ، وهو الظاهر الذي عليه الإمام الشافعي ، وأما على مذهب الإمام الأعظم ، فالمراد من الآية المنع من الدخول حاجاً أو معتمراً فالمعنى لا يحجوا ولا يعتمروا بعد هذا العام ، ويدل عليه قول عليّ رضي الله عنه حين نادى ببراءةً : « ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك » فلا يمنع المشرك عنده من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد ، فلما منعوا من قربان المسجد الحرام ، قال أناس : ستعلمون يا أهل مكة إذا فعلتم هذا ماذا تلقون من الشدة ومن أين تأكلون ، فأنزل الله تعالى قوله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي : فقراً بسبب منعهم من الحج ، وانقطاع ما كانوا يجلبونه إليكم من الأرزاق والمكاسب ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر ، وقد أنجز وعده ، فأكثر من خيرهم وميرهم ، وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ أن يغنيكم ، قيده بالمشيئة لفوائد : الفائدة الأولى ، أن لا يتعلق القلب بتحقق الموعود بل يتعلق بكرم من وعد به، والثانية : التنبيه على أن الإغناء الموعود ليس يجب على الله تعالى ، بل هو متفضل في ذلك . والثالثة : التنبيه على أن الموعود ليس بموعود بالنسبة إلى جميع الأشخاص ، ولا بالنسبة إلى جميع الأمكنة والأزمان ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴾ بمصالحكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يعطي ويمنع .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ كما ينبغي فإن اليهود مثنية ، والنصارى مثلثة ، فإيمانهم بالله كلا إيمان ﴿ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ كما ينبغي ، فإن اليهود ذهبوا إلى نفي الأكل والشرب في الجنة ، والنصارى إلى إثبات المعاد الروحاني ، فعلمهم بأحوال الآخرة كلا علم ، والمؤمن الكامل يثبت المعاد الجسماني والروحاني كليهما ، فإن لكل من الجسم والروح حظاً من النعيم يليق بحاله ، ويناسب لمقامه ﴿ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ أي : ما ثبت تحريمه بالوحي المتلو وهو الكتاب ، أو غير المتلو وهو السنّة ، وذلك مثل الدم والميتة ولحم الخنزير ونظائرها ﴿ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ ولا يدينون الدين الحق وهو دين الإسلام ، فإنه دين ثابت نسخ جميع ما سواه من الأديان ، وعن قتادة : أن الحق هو الله تعالى ، والمعنى ولا يدينون دين الله الذي هو الإسلام ، فإن الدين عند الله الإسلام ﴿ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من التوراة والإنجيل ، وهو بيان للذين لا يؤمنون ﴿ حَتَّى يُعْطُوا ﴾ أي : يقبلوا أن يعطوا ﴿ الْجِزْيَةَ ﴾ من جزى دينه إذا قضاه ، سمى ما يعطيه المعاهد مما تقرر عليه بمقتضى عهده جزية لوجوب قضائه عليه ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ فالإعطاء عن يد : كناية عن الانقياد

والطوع ، يقال : أعطى فلان بيده إذا استسلم وانقاد .

﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي : أذلاء ، وذلك بأن يأتي بها بنفسه ماشياً غير راكب ، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ، ويقال له : أدّ الجزية يا ذمي أو يا عدو الله ، واعلم أن الكفار ثلاثة أنواع : نوع منهم يقاتلون حتى يسلموا إذ لا يقبل منهم إلا الإسلام ، وهم مشركو العرب ، والمرتدون ، أما مشركو العرب فلأن النبي عليه الصلاة والسلام بُعث منهم ، فظهرت المعجزات لديهم ، فكفرهم يكون أفحش ، وأما المرتدون فلأنهم عدلوا عن دين الحق ، بعد اطلاعهم على محاسنه ، فيكون كفرهم أقبح ، فالعقوبة على قدر الجناية ، وفي وضع الجزية تخفيف لهم فلم يستحقوه ، ونوع آخر يقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ، وهم اليهود والنصارى والمجوس ، أما اليهود والنصارى فبهذه الآية ، وأما المجوس فبقوله عليه الصلاة والسلام : « سنُّوا بهم سنّة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم »[1] . والنوع الثالث منهم : الكفرة الذين ليسوا مجوساً ، ولا أهل كتاب ، ولا من مشركي العرب ، كعبدة الأوثان من الترك والهند ذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى جواز أخذ الجزية منهم ، ومقدارها على الفقير المعتمل اثنا عشر درهماً في كل شهر درهم ، هذا إذا كان في أكثر الحول صحيحاً ، أما إذا كان في أكثره مريضاً فلا جزية عليه ، وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرون درهماً في كل شهر درهمان ، وعلى الغني ثمانية وأربعون درهما في كل شهر أربعة دراهم ، ولا شيء على فقير عاجز عن الكسب ، ولا على شيخ فانٍ أو مقعد ، أو أعمى ، أو صبي ، أو امرأة ، وإنما لم توضع عليهم الجزية ، لأن الجزية شرعت زجراً عن الكفر ، وحملاً على الإسلام ، فيجري مجرى القتل ، فمن لا يُعاقب بالقتل وهم هؤلاء لا يؤاخذ بالجزية ، لأن الجزية خلف من القتال وهم ليسوا بأهله ، أما طعن الملحدة بقولهم كيف يجوز إقرار الكفار على كفرهم بأداء الجزية بدلاً من الإسلام ؟ فالجواب أنه لا يجوز أن يكون أخذ الجزية منهم رضى بكفرهم ، وإنما الجزية عقوبة لهم على إقامتهم على الكفر ، فعلى الولاة أن لا يتعدوا ما حدَّ الله تعالى في كتابه ، فإن الظلم لا يجوز مطلقاً ، ويعود وباله على الظالم .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ﴾ روي : أن بخت نصر البابلي لما ظهر على بني إسرائيل ، قتل علماءهم ، ولم يبق فيهم أحد يعرف التوراة ، وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره فلم يقتله ، وذهب به إلى بابل مع جملة من أخذ من سبايا بني إسرائيل ، فلما نجا عزير من بابل ، ارتحل على حمار له حتى نزل بديْر هرقل على شط دجلة ، فطاف في القرية فلم ير فيها أحداً ، وعامةُ شجرها حامل فأكل من الفاكهة ، واعتصر من العنب ، فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة ، وفضل العصير في زق فلما رأى

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الزكاة ١ / ٢٧٨ ورجاله ثقات ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٦٦٠ .

خراب القرية وهلاكها قال (**أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**) قالها تعجباً لا شكاً في البعث ، فألقى الله تعالى عليه النوم ونزع منه الروح ، وبقي ميتاً مائة عام ، وأمات حماره ، وعصيرهُ وتينه عنده ، وأعمى الله تعالى عنه العيون فلم يره أحد ، ثم إنه تعالى أحياه بعدما أماته مائة سنة ، وأحيى حماره أيضاً فركب حماره حتى أتى محلته ، فقال لبني إسرائيل : يا قوم إن الله بعثني إليكم لأجدّد لكم توراتكم ، قالوا : فأملها علينا فأملاها عليهم من ظهر قلبه ، فقالوا : إن الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا أنه ابنه ، فعند ذلك قالت اليهود المتقدمون : عزيرٌ بن الله ﴿ **وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ** ﴾ وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب ، أو لأن ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى لا يحصل إلا من إله ، ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم ﴿ **قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ أي : ليس فيه برهان ولا حجة ، وإنما هو قول بالفم فقط ، إذ لا برهان لهم ، لأنهم يعترفون أن الله لم يتخذ صاحبة ، فكيف يزعمون أن له ولداً؟ ﴿ **يُضَاهِئُونَ** ﴾ أي : يضاهي ويشابه قولهم في الكفر والشناعة ﴿ **قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي : من قبلهم ، وهم المشركون الذين يقولون : الملائكة بنات الله ، أو اللات والعزى بنات الله ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللهُ** ﴾ دعاء عليهم جميعاً بالإهلاك ، فإن من قاتله الله هَلَك ، فهو من قبيل ذكر الملزوم وإرادة اللازم ، ﴿ **أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾ كيف يصرفون من الحق إلى الباطل ؟ والاستفهام بطريق التعجب ﴿ **اتَّخَذُوا** ﴾ أي : اليهود ﴿ **أَحْبَارَهُمْ** ﴾ أي : علماءهم جمع حبر بالكسر ، وغلب في علماء اليهود ﴿ **وَرُهْبَانَهُمْ** ﴾ أي : اتخذ النصارى علماءهم ، جمع راهب وهو الذي تمكنت الرهبة والخشية في قلبه ، وغلب في عُبَّاد النصارى وأصحاب الصوامع منهم ﴿ **أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي : كالأرباب فهو من باب التشبيه البليغ ، والمعنى أطاعوا علماءهم وعبَّادهم فيما أمروهم به طاعة العبيد للأرباب ، فحرموا ما أحل الله ، وحللوا ما حرم الله ، ومثاله : من اعتقد أن اللبن حرام يكون كمن اعتقد أن الخمر حلال ، ومن اعتقد أن لحم الغنم حرام يكون كمن اعتقد أن لحم الخنزير حلال ﴿ **وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ عطف على رهبانهم أي : اتخذه النصارى رباً معبوداً بعدما قالوا : إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ **وَمَا أُمِرُوا** ﴾ أي : والحال أن أولئك الكفرة ما أُمروا في التوراة والإنجيل ﴿ **إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهاً وَاحِداً** ﴾ عظيم الشأن هو الله تعالى ، ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره ، ﴿ **لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ** ﴾ صفة ثانية ﴿ **سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ أي : تنزيهاً له عن الإشراك به في العبادة والطاعة ﴿ **يُرِيدُونَ** ﴾ أي : يريد أهل الكتابين ﴿ **أَنْ يُطْفِئُوا** ﴾ يخمدوا ﴿ **نُورَ اللهِ** ﴾ أي : يردوا القرآن ويكذبوه فيما نطق به من التوحيد والتنزه عن الشركاء والأولاد والشرائع التي من جملتها ما خالفوه من أمر الحل والحرمة ﴿ **بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ بأقاويلهم الباطلة من غير أن يكون لها أصل تستند إليه ﴿ **وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ** ﴾ ولا يريد الله شيئاً إلا إتمام نوره ، بإعلاء كلمة التوحيد ، وإعزاز دين الإسلام ،

﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ جواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : لا يريد الله إلا إتمام نوره ولو كره الكافرون ذلك .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِالهُدَىٰ ﴾ أي : القرآن الذي هو هدى للمتقين ﴿ وَدِينِ الحَقِّ ﴾ أي : الدين الحق وهو دين الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ أي : ليغلب الرسول ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي : على أهل الأديان كلهم ، أو ليظهر الدين الحق على سائر الأديان . ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ ﴾ ذلك الإظهار ، ووصفُهم بالشرك بعد وصفهم بالكفر ، للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الكفر بالله ، قال ابن الشيخ : وغلبةُ دين الحق على سائر الأديان تكون على التزايد أبداً ، وتتمُّ عند نزول عيسى عليه السلام ، لما روي أن رسول الله ﷺ قال في نزول عيسى ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام وقيل ذلك عند خروج المهدي ، فإنه حينئذ لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام ، والتزم أداء الخراج ، والمهدي الذي من عترة النبي عليه الصلاة والسلام إمام عادل ليس بنبي ولا رسول ، والفرق بينهما أن عيسى هو المهدي المرسل الموحى إليه ، والمهدي ليس بنبيٍّ موحى إليه ، وأيضاً إن عيسى خاتم الولاية المطلقة ، والمهدي خاتم الخلافة المطلقة ، وكل منهما يخدم هذا الدين الذي هو خير الأديان وأحبها إلى الله تعالى .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ ﴾ أي : علماء اليهود ﴿ وَالرُّهْبَانِ ﴾ وهم أصحاب الصوامع من النصارى ﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ ﴾ يأخذونها بطريق الرشوة ، لتغيير الأحكام والشرائع ، ويوهمون الناس أنهم حذاق مهرة في تأويل الآية وبيان مراد الله تعالى منها ، وإنما عبَّر عن الأخذ بالأكل ، مع أن المذموم مجرد أخذها بالباطل ، بناءً على أن الأكل معظم الغرض من الأخذ ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ أي : يمنعون الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ عن دين الإسلام أو يعرضون عنه بأنفسهم بأكلهم الأموال بالباطل ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ﴾ أي : يجمعونها ويحفظونها سواء كان ذلك بالدفن أو بوجه آخر ، والكنز في كلام العرب هو : الجمع وكل شيء جمع بعضه إلى بعض فهو مكنوز ، ﴿ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : لا ينفقون منها أي : لا يؤدون زكاتها ولا يخرجون حق الله منها ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وضع الوعيد لهم بالعذاب موضع البشارة تهكماً بهم ﴿ يَوْمَ ﴾ منصوب بعذاب ﴿ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ أي : يوم توقد النار الحامية أي : الشديدة الحرارة على تلك الدنانير والدراهم ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ وإنما تكوى هذه الأعضاء دون غيرها ، لأن الغني إذا رأى الفقير الطالب للزكاة كان يعبس جبهته ، وإذا بالغ في السؤال يعرض عنه بجنبه ، وإذا بالغ يقوم من موضعه ويولي ظهره ولم يعطه شيئاً غالباً ، ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ ﴾ أي : يقال لهم حين الكي : هذا ما جمعتم في دار الدنيا ﴿ لأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : لمنفعتها فكان

عين مضرتها وسبب تعذيبها ﴿ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أي : وبال كنزكم ، وإنما ذاقوه في الآخرة لأنهم في الدنيا في منام الغفلة عن الآخرة ، والنائم لا يذوق ألم الكي في النوم ، وإنما يذوقه عند الانتباه ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وفي الحديث الشريف : « ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته ، إلا أحمي عليها في نار جهنم فتجعل صفائح ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره حتى يحكم الله بين عباده ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بُطح لها بقاع قرقر تستن عليه بقوائمها وأخفافها ـ أي : ترفع يديها وتطرحهما معاً على صاحبها ـ كلما مضى عليه آخرها ردَّ عليه أولها ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بُطح لها بقاع قرقر ، تطأه بأظلافها وتنطحه بقرونها ليس فيها جماع ولا منكسر قرنها ، كلما مضى عليه آخرها رد عليه أولها حتى يقضي الله بين عباده ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » [1] ، واعلم أن الزكاة شكرٌ لنعمة المال ، كما أن الصوم والصلاة والحج شكر لنعمة الأعضاء ، وهي تمليك خمسة دراهم في مائتين ، للفقير المسلم لله تعالى ولرضاه .

وجاز دفع القيمة في زكاة وكفارة وإذا قال الناذر عليَّ أن أتصدق اليوم بهذا الدرهم على هذا الفقير ، فتصدق غداً بدرهم آخر على غيره يجزئه عندنا ، والمريض إذا خاف من ورثته يخرجها سراً عنهم ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ العدة مصدر بمعنى العدد أي : أن عدد الشهور التي تتعلق بها الأحكام الشرعية ، من الحج والعمرة والصوم والزكاة والأعياد وغيرها ، وهي الشهور العربية ، القمرية التي تعتبر من الهلال إلى الهلال وهي تكون مرة ثلاثين يوماً ومرة تسعة وعشرين يوماً ، ومدة السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثلث يوم ، ومدة السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، ولما كانت السنة القمرية أقل من السنة الشمسية وبسبب ذلك النقصان تنتقل الشهور القمرية من فصل إلى فصل ، كان الحج والصوم والفطر يقع تارة في الصيف وأخرى في الشتاء ، ولما كانت عند سائر الطوائف عبارة عن مدة تدور فيها الشمس دورة تامة ، كانت أعيادهم وصومهم تقع في موسم واحد أبداً ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي : في حكمه ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾ تمييز مؤكد ﴿ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾ صفة لإثنا عشر والتقدير اثنا عشر شهراً مثبتة في كتابه وهو اللوح المحفوظ ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أي : مثبتة في كتاب الله منذ خلق الأجرام اللطيفة والكثيفة ، وإنما قال ذلك لأن الله تعالى أجرى الشمس والقمر في السموات يوم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في كتاب الزكاة بلفظ : « ما من صاحب ذهب ولا فضة .. » وأخرجه أبو داود والنسائي ووردت فيه روايات متعددة بألفاظ متقاربة .

خلق الله السموات والأرض ، فبلغ عدد الشهور اثنا عشر من غير زيادة ، أولها المحرم وآخرها ذو الحجة .

قال في كتاب عقد الدرر : تكلم بعض أهل العلم على معاني أسماء الشهور ، فقال : كانت العرب إذا رأوا السادات تركوا العادات وحرموا الغارات قالوا المحرم ، وإذا مرضت أبدانهم وضعفت أركانهم واصفرت ألوانهم قالوا صفر ، وإذا ثبتت الرياحين واخضرت البساتين قالوا ربيعَيْن ، وإذا قلت الثمار وبرد الهواء وانجمد الماء قالوا جماديين ، وإذا ماجت البحار وجرت الأنهار ورجبت الأشجار قالوا رجب ، وإذا تشعبت القبائل وانقطعت الوسائل قالوا شعبان ، وإذا حر الفضاء ورمضت الرمضاء قالوا رمضان ، وإذا ارتفع التراب وكثر الذباب وشالت الإبل الأذناب قالوا شوال ، وإذا رأوا التجار قعدوا عن الأسفار قالوا ذو القعدة ، وإذا قصدوا الحج من كل فج ووجّ وكثر العج والثج قالوا ذي الحجة ، انتهى . ﴿ **مِنْهَا** ﴾ أي : من تلك الشهور الاثنى عشر ﴿ **أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** ﴾ واحد فرد وهو رجب وثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والحُرُم بضمتين جمع الحرام أي أربعة أشهر حرم يحرم فيها القتال ، ﴿ **ذٰلِكَ** ﴾ أي : تحريم الأشهر الأربعة المعينة هو ﴿ **الدِّينُ القَيِّمُ** ﴾ المستقيم دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والعرب ورثوه منهما ﴿ **فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ بهتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن ، والجمهور على أن حرمة القتال فيهن منسوخة ، وأوّلوا الظلم بارتكاب المعاصي فيهن ، فإنه أعظم وزراً كارتكابها في الحرم وخلال الإحرام ، يعني أن هذه الأشهر الأربعة ، خصت بالنهي عن ظلم النفس فيها ، مع أن الظلم حرام في كل وقت ، لبيان أن الظلم فيها أغلظ كأنه قيل فلا تظلموا فيهن خصوصاً أنفسكم ﴿ **وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَآفَّةً** ﴾ معناه : كل وجميع وهو منصوب على الحال ، والمعنى قاتلوا جميعاً المشركين أي : مجتمعين على قتالهم ، متعاونين متناصرين ﴿ **كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً** ﴾ أي : مجتمعين ، في الحل والحرم ، وفي جميع الأزمان ، فإن الجهاد مستمر إلى آخر الزمان ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ** ﴾ أي : معكم بالنصر والإمداد فيما تباشرون من القتال ، وإنما وضع المظهر موضعه ، مدحاً لهم بالتقوى ، وإيذاناً بأنه المدار في النصر ، فكلمة التقوى هي كلمة الشهادة ، وبها يقي المؤمن نفسه ، وعياله من التعرض للقتل في الدنيا ، ومن العذاب في العقبى ، وفي الحديث : « الجنة تحت ظلال السيوف »[1] يعني كون المجاهد في القتال سبب للجنة حتى كأن أبوابها حاضرة معه ، وإنما ذكر السيوف لأنها أكثر سلاح العرب .

﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ** ﴾ مصدر نسأه أي : أخره كمس مسيساً كانت العرب إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر ، أي : إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر ﴿ **زِيَادَةٌ فِي**

(١) هذا جزء من حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « يأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدوّ ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .. » الحديث .

﴿ الْكُفْرِ ﴾ لأنه تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما حلّله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم ، وبدعة زائدة على بدع الكفار ﴿ يُضَلُّ ﴾ على بناء المفعول من أضل ﴿ بِهِ ﴾ وهو النسيء ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والمضل هو الله تعالى أي : يخلق فيهم الضلال عند مباشرتهم لمباديه وأسبابه ، أو الرؤساء أي : الأتباع يضلون به بإضلال الرؤساء ﴿ يُحِلُّونَهُ ﴾ أي : الشهر المؤخر ﴿ عَامًا ﴾ من الأعوام ، ويحرمون مكانه شهراً آخر مما ليس بحرام ﴿ وَيُحَرِّمُونَهُ ﴾ أي : يحافظون على حرمته كما كانت ﴿ عَامًا ﴾ آخر إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم ﴿ لِيُوَاطِئُوا ﴾ أي : ليوافقوا ﴿ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ﴾ أي : عدد ما حرمه من الأشهر الأربعة ، فإنهم كانوا يقولون : الأشهر الحرم أربعة وقد حرمنا أربعة أشهر ﴿ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ ﴾ أي : يتوصّلوا بهذه الحيلة إلى إحلال الشهر الذي حرمه الله بخصوصه من الأشهر المعينة ، ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ أي : جعلت أعمالهم مشتهاة محبوبة للنفس ، والمزين هو الله تعالى أو الشيطان أو النفس ، على تفاوت المراتب ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ هداية موصلة إلى المطلوب البتة وإنما يهديهم إلى ما يوصل إليه عند سلوكه ، وهم قد أعرضوا عنه بسوء اختيارهم فتاهوا في تيه الضلال ، ثم إن النسيء المذكور وقعت إليه الإشارة في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا عدوى ولا طَيرة ولا هامة ولا صفر »[1] أما العدوى فهو اسم من الإعداء ، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره ، وكانت العرب في الجاهلية تعتقد أن الأمراض تُعدي بطبعها ، من غير اعتقاد تقدير الله لذلك . والعدوى : واقعة بفعل الله تعالى ، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يورد ممرضٌ على مصحٍّ »[2] والممرض صاحب الإبل المريضة ، والمصحُّ صاحب الإبل الصحيحة ، والمراد النهي عن إيراد الإبل المريضة على الصحيحة ، وهو من باب اجتناب الأسباب التي هي سبب البلاء ، فكما أنه مأمور أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار ، أو يدخل تحت ما أشرف على الانهدام ونحوه ، مما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذى ، فكذلك مأمور بالاجتناب عن مقاربة المريض كالمجزوم ، والقدوم على بلد الطاعون ، فإن هذه كلها أسباب المرض والتلف ، والله تعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها ، ففي الأمر بالاجتناب صيانة للمؤمن الضعيف يقينه لئلا يعتقد التأثير من الأسباب أي : عند وقوع البلاء أو يعتقد أن السراية كانت بالطبع ، لا بقضاء الله تعالى وقدره ، وأما إذا قويَ التوكل على الله ، والإيمان بقضائه وقدره ، فتجوز مباشرة بعض هذه الأسباب ، كما ورد أن النبي عليه الصلاة والسلام أكل مع مجذوم وقال : « بسم الله ثقةً بالله ، توكلت على الله » ، ولا هامة : بالتخفيف ففيه تأويلان : أحدهما أن العرب كانت تتشاءم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطب ، وروي في الصحيح أيضاً بلفظ : « لا يوردنَّ ممرضٌ على مصحّ » وانظر جامع الأصول ٧ / ٦٣٥ .

بالهامة ، وهي الطير المعروف من طير الليل ، وقيل هي البومة كانت إذا سقطت على دار أحدهم قالوا : نعتْ إليه نفسه أو بعض أهله ، والثاني : أن العرب كانت تعتقد أن روح القتيل الذي لم يؤخذ بثأره تصير هامة ، فتنشر جناحيها عند قبره ، وتصيحُ : اسقوني اسقوني من دم قاتلي ، فإذا أخذ بثأره طارت ، وقيل : كانوا يزعمون أن عظام الميت إذا بليت تصير هامة ، وتخرج من القبر وتتردَّدُ ، وتأتي الميت بأخبار أهله ، وهذا تفسير أكثر العلماء وهو المشهور ، وأما قوله ﷺ : « ولا صفر » ففيه تأويلان أيضاً : الأول : أن الجاهلية كانت تعتقد أن في الجوف حية ، يقال لها الصفر تعض كبد الإنسان عضاً إذا جاع ، والثاني : أن المراد تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر ، وهو النسيء الذي كانوا يفعلونه ، وقيل : كانوا يتشاءمون بصفر فنفاه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « ولا صفر » .

قال في عقد الدرر : وكثيرٌ من الجهال يتشاءم من صفر ، وربما ينهى عن السفر ، والتشاؤُم بصفر هو من جنس التطيُّر المنهي عنها ، وكذا التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وأيام العجائز في آخر الشتاء ، وكذا تشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة . وقد قيل : إن طاعوناً وقع في شوال في سنة من السنين فمات فيه كثير من العرائس فتشاءم بذلك أهل الجاهلية ، وقد ورد الشرع بإبطاله ، قالت عائشة : « تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، ودخل بي في شوال ، فأيُّ نسائه كان أحظى عنده مني »[1] ؟ فتخصيص الشؤم بزمان دون زمان كصفر أو غيره غير صحيح ، وإنما الزمان كله خلق الله تعالى ، وفيه تقع أعمال بني آدم فكل زمان مشئوم عليه ، فالشؤم في الحقيقة هو المعصية ، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه إن كان الشؤم في شيء ففيما بين اللحيين يعني اللسان ، وفي الحديث : « الشؤم في ثلاث : في المرأة والدار والفرس »[2] وتفسيره أن شؤم المرأة إذا كانت غير ولود ، وشؤم الدار جار السوء ، فإن المرء يتأذى به وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه في سبيل الله ، فإن الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للإنسان ، وفرس للشيطان ، فأما الذي للرحمن : فما اتخذ في سبيل الله ، وأما الذي للإنسان : فهو الذي يرتبطها يلتمس بطنها فهو ستر من الفقر ، وأما الذي للشيطان : فهو ما روهن عليه وقومر . ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ شروع في بيان غزوة تبوك ، وهي أرض بين الشام والمدينة ، ويقال لها : غزوة العسرة ، روي : أنه عليه الصلاة والسلام لما فتح مكة وغزا هوازن أمر بالخروج إلى غزو الروم ، وذلك في شهر رجب سنة تسع ، فقد بلغه عليه الصلاة والسلام أن الروم قد جمعت له جموعاً كثيرة بالشام ، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس ، وجدب في البلاد وشدة من الحر ، حين طابت ثمار المدينة وأينعت ، فشق

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٤٤٣ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في النكاح والترمذي في الأدب بلفظ : « إن كان الشؤم في شيء ففي المرأة ، والدابة ، والمسكن » وأخرجه الطبراني وأحمد في المسند ٥ / ٢٢٥ .

عليهم الخروج ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال أيها المؤمنون ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ استفهام في اللفظ وإنكار وتوبيخ في المعنى ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ﴾ من طرف رسول الله الآمر بأمر الله ﴿ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ اخرجوا إلى الغزو ، يقال نفر القوم إذا خرجوا إلى مكان لمصلحة توجب الخروج والقوم الذين يخرجون يقال لهم النفير واستنفر الإمام الناس لجهاد العدو أي : طلب منهم الخروج إلى الغزو وحثهم عليه ﴿ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ أصله تثاقلتم وهو ماض لفظاً مضارع معنى ﴿ إِلَى الأَرْضِ ﴾ والمعنى : أيُّ سبب وغرض حصل لكم واستقر ، إذا قيل لكم ذلك كنتم متثاقلين أي : مائلين إلى الدنيا وشهواتها الفانية ، وكرهتم مشاق السفر والجهاد المستتبعة للراحة الخالدة ، ﴿ أَرَضِيتُمْ ﴾ باستفهام التوبيخ ﴿ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ولذاتها من الثمار والظلال ﴿ مِنَ الآخِرَةِ ﴾ أي : بدل الآخرة ونعيمها ﴿ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي : فما التمتع بها وبلذائذها ﴿ فِي الآخِرَةِ ﴾ أي : في جنب الآخرة ﴿ إلا قَلِيلٌ ﴾ أي : مستحقر لا يعتد به ، لأن متاع الدنيا فان معيوب ، ومتاع الآخرة باق مرغوب ، روي : أنه عليه الصلاة والسلام قال : « والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذا في اليم ، فلينظر بِمَ يرجع »[1] ! ﴿ إلا ﴾ كلمتان أصلُها إنْ لا ، إنْ للشرط ، ولا للنفي أي : إن لم ﴿ تَنْفِرُوا ﴾ تخرجوا إلى الغزو ﴿ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ أي : الله تعالى ﴿ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وجيعاً لأبدانكم وقلوبكم ، أي : يهلككم بسبب فظيع كقحط وظهور عدو ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ ﴾ بكم بعد إهلاككم ﴿ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أي : قوماً مطيعين ، مؤثرين للآخرة على الدنيا ﴿ وَلا تَضُرُّوهُ ﴾ أي : الله تعالى بترك الجهاد ﴿ شَيْئاً ﴾ أي : لا يقدح تثاقلكم في نصرة دينه أصلاً فإنه الغنيُّ عن كل شيء في كل شيء ﴿ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على إهلاككم والإتيان بقوم آخرين . وفي الحديث : « لغدوة في سبيل الله ـ وهو الذهاب في أول النهار ـ أو روحة ـ وهو الذهاب في آخره ـ خير من الدنيا وما فيها »[2]، يعني أن أفضل الغدوة والروحة في سبيل الله وثوابها ، خير من نعيم الدنيا بأسرها ، لأنه زائل ، ونعيم الآخرة باق ، وحق الجهاد أن ينوي به نصرة الدين ، وبذل النفوس في رضاه تعالى ، ويُكثر ذكره تعالى ، فالجهاد بهذا الوجه أفضل الأعمال كما قال تعالى (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) وفي امتثال أمر الله عاقبة حميدة ، إذ ربَّ شيء تكرهه النفس كالجهاد وهو عند الله محبوب ، فبترك الراحة واختيار المشقة ينال العبد أمانيه الدنيوية والأخروية ، ﴿ إلا تَنْصُرُوهُ ﴾ إن لم تنصروا محمداً في غزوة تبوك ﴿ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ﴾ فيسنصره الله

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه في الزهد ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٠٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦ / ١١ ومسلم في الإمارة برقم / ١٨٨١ / والترمذي في فضائل الجهاد رقم / ١٦٦٤ .

كما نصره ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : تسببوا لخروجه بأن همُّوا بقتله ، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام إنما خرج بإذن الله تعالى وأمره ، لا بإخراج الكفرة إياه ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ أي : أحد اثنين من غير اعتبار كونه عليه الصلاة والسلام ثانياً ، والإثنان أبو بكر ورسول الله ﷺ ﴿ إِذ هُمَا فِي الغَارِ ﴾ الغار : ثقب في أعلى ثور ، وثور جبلٌ في يُمنى مكة على مسيرة ساعة ، من جهة الجنوب .

وتحرير القصة أنه لما ابتلي المسلمون بأذى الكفار ، أذن ﷺ لهم في الهجرة وقال : « إني رأيت دار هجرتكم ذات نخيل بين لابتين ـ وهما الحرتان ـ وقال : « إني لأرجو أن يؤذن لي في الهجرة إليها ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : « نعم » فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه عند هجرته ، فلم يتخلف إلا هو وعليّ وصهيب ومن كان محبوساً أو مريضاً أو عاجزاً عن الخروج ، فابتاع أبو بكر بعد هذا المقال النبوي راحلتين بثمانمائة درهم فحبسهما في داره يعلفهما الخبط إعداداً لذلك ، فكانتا عنده قريباً من ثلاثة أشهر لأن الهجرة كانت في ذي الحجة ، ومهاجرته عليه الصلاة والسلام كانت في ربيع الأول ، ولما رأت قريش قوة أمر رسول الله ﷺ حيث بايعه الأوس والخزرج وصار له أنصار في القبائل والأقطار ، خافوا من أن يخرج ويجمع الناس على حربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة ليتشاوروا في أمره عليه الصلاة والسلام ، ودار الندوة هي أول دار بنيت بمكة كانت منزل قصي بن كلاب ، وكانت جهة الحِجْر عند مقام الحنفي الآن وكان لها باب للمسجد وقيل لها « دار الندوة » لاجتماع الندوة وهي الجماعة فيها ، وجاء إليهم إبليس في صورة شيخ نجدي وقال أنا من أهل نجد ، وإنما قال ذلك لأن قريشاً قالوا لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة ، لأن هواهم كان مع محمد ، فعند ذلك قالوا هو من أهل نجد لا من مكة ، فلا يضركم حضوره معكم ، وعند المشورة قال بعضهم بالحبس ، وبعضهم بالنفي كما في قوله تعالى (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) فمنعه إبليس ، واتفقت آراؤهم على قول أبي جهل ، وهو أن يُخْرِجوا إليه من كل قبيلة من قريش شاباً جلداً أي : قوياً بسيف صارم ، ويقتلوه فيفرق دمه في القبائل ، بحيث لا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فيرضون بالدية ، واستحسن الشيخ النجدي هذا الرأي ، وتفرقوا عن تراض ، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل فأخبره بمكر قريش ، وأمره بمفارقة مضجعه تلك الليلة ، فلما علم ما يكون منهم قال لعلي رضي الله عنه : « نم على فراشي واتشح بردائي هذا الحضرمي ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » وإنما أمر علياً رضي الله عنه أن يضطجع على فراشه ، ليمنعهم سواد عليّ عن طلبه حتى يبلغ هو وصاحبه إلى ما أمره الله أن يبلغا إليه ، فلما مضى عتمة من الليل أي : الثلث الأول منه اجتمعوا على باب رسول الله ﷺ ، وكانوا مائة فجعلوا يتطلعون من شق الباب ، ويرصدون متى ينام فيثبون عليه فيقتلونه ، فخرج عليه السلام عليهم وهم

ببابه وقرأ قوله تعالى : (يَسٓ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) إلى قوله : (فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ) فأخذ الله أبصارهم عنه عليه الصلاة والسلام ، فلم يبصروه حتى خرج من بينهم ، وعند خروجه عليه الصلاة والسلام أخذ حفنة من تراب فذرّها عليهم ، فأتاهم آت فقال : ما تنتظرون ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيَّبكم الله ، والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك رجلاً منكم إلا وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، فما ترون ما بكم ؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، فدخلوا على « عليّ » فقالوا له : يا عليّ أين محمد ؟ فقال : لا أدري أين ذهب ، وكان قد انطلق إلى بيت أبي بكر بإشارة جبرائيل عليه السلام ، فلما دخل عليه قال : « قد أُذن لي في الخروج » فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله بأبي أنت ، أي أسألك الصحبة ، قال : « نعم » فبكى أبو بكر سروراً ، ولله در القائل :

هجم السرور عليّ حتى إنه * من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عينُ صار الدمع عندك عادة * تبكين من فرح ومن أحزان

قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت إحدى راحلتيَّ هاتين ، فإني أعددتها للخروج فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم بالثمن » وذلك لتكون هجرته عليه الصلاة والسلام إلى الله بنفسه وماله ، وإلا فقد أنفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله أكثر ماله ، ثم استأجر رسول الله وأبو بكر رجلاً من بني الدئل ، وهو « عبد الله بن أريقط » ليدلهما على الطريق للمدينة وكان على دين قريش ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار جبل ثور بعد ثلاث ليال أن يأتي بالراحلتين صباح الليلة الثالثة فمكث عليه الصلاة والسلام في بيت أبي بكر إلى الليلة القابلة فخرجا إلى طرف الغار ، وجعل أبو بكر يمشي مرة أمام النبي ومرة خلفه ، فسأله رسول الله عن ذلك فقال : يا رسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك لأكون فداءك ، فلما أراد رسول الله ﷺ دخوله قال له أبو بكر : مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغار ، فدخل واستبرأه وجعل يسد الجُحُر بثيابه خشية أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله ﷺ ، ولما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار ، أمر الله شجرة فنبتت في وجه الغار فسترته بفروعها ، وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين فروعها نسجاً متراكماً بعضه على بعض كما قال في البردة :

ظنُّوا الحَمَامَ وظنوا العنكبوتَ على * خير البرية لم تنسج ولم تحم

ولما فقد المشركون رسول الله ﷺ شق عليهم ذلك وخافوا ، وطلبوه بمكة وبعثوا القافة أي : الذين يقفون الأثر في كل وجه ليقفوا أثره ، فلما انتهوا إلى فم الغار قال قائل منهم : ادخلوا الغار ، فقال أمية بن خلف : وما حاجتكم إلى الغار إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد ، ولو دخل لما نسج ذلك

العنكبوت ، وعندما حاموا حول الغار ، حزن أبو بكر رضي الله عنه خوفاً على رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى ﴿ **إِذْ يَقُولُ** ﴾ والقائل هو رسول الله ﷺ ﴿ **لِصَاحِبِهِ** ﴾ وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ولذلك قالوا : من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر ، لإنكاره كلام الله تعالى ، وكذا الروافض إذا كانوا يسبون الشيخين أبا بكر وعمر ويلعنونهما يكفرون ، وإذا كانوا يفضلون علياً عليهما يكونون مبتدعين ، وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال لجماعة : أيكم يقرأ سورة التوبة ؟ قال رجل : أنا أقرأ ، فلما بلغ إلى قوله : (**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ**) الآية ، بكى رضي الله عنه وقال أنا والله صاحبه ﴿ **لا تَحْزَنْ** ﴾ ولم يقل لا تخف ، لأن حزنه على رسول الله ﷺ يغفله عن حزنه على نفسه ، وهذا النهي تأنيسٌ وتبشير له كما في قوله تعالى (**وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ**) وبه يرد ما زعمته الرافضة أن ذلك كان غضباً من أبي بكر وذماً له ، لأن حزنه إن كان طاعة فالنبي عليه الصلاة والسلام لا ينهى عن الطاعة ﴿ **إِنَّ اللهَ مَعَنَا** ﴾ بالعون والعصمة ، وتأمل الفرق بين قوله عليه الصلاة والسلام (**إِنَّ اللهَ مَعَنَا**) وبين قول موسى عليه السلام (**إِنَّ مَعِيَ رَبِّي**) كيف تجده دقيقاً والله الهادي ، روي : أن المشركين لما طلعوا فوق الغار ، أشفق أبو بكر على رسول الله ﷺ ، فقال له عليه الصلاة والسلام : « مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا » فأعماهم الله عن الغار فجعلوا يترددون حوله فلم يروه . وفي الآية دلالة على علو طبقة الصديق وسابقة صحبته ، وهو ثاني رسول الله ﷺ حين خرج مهاجراً وثانيه في الغار ، وثانيه في الخلافة ، وثانيه في القبر بعد وفاته ، وثانيه في انشقاق الأرض عنه يوم البعث ، وثانيه في دخول الجنة كما قال عليه الصلاة والسلام : « أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل الجنة من أمتي »[1] ، ﴿ **فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ** ﴾ أمنته التي تسكن عندها القلوب ﴿ **عَلَيْهِ** ﴾ أي : على النبي عليه الصلاة والسلام ، فالمراد بها ما لا يحوم حوله شائبة الخوف أصلاً .

﴿ **وَأَيَّدَهُ** ﴾ أي : قوّى النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ **بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا** ﴾ وهم الملائكة النازلون يوم بدر والأحزاب ليعينوه على العدو ﴿ **وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ** ﴾ يعني جعل الله الشرك مقهوراً مغلوباً أبداً إلى يوم القيامة ، أو دعوتهم إلى الكفر ﴿ **وَكَلِمَةُ اللهِ** ﴾ أي : التوحيد أو الدعوة إلى الإسلام ﴿ **هِيَ الْعُلْيَا** ﴾ إلى يوم القيامة وجعل الله ذلك بأن أخرج رسوله من بين الكفر ﴿ **وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ في أمره وتدبيره وحكمه . وتمام القصة أنه لما انصرف قريش من الغار وأيسوا منها ، أرسلوا لأهل السواحل أن من أسر أو قتل أحدهما كان له مائة ناقة ، ومكثا في الغار ثلاث ليالٍ يبيت

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الترمذي في السنة برقم / ٤٦٥٢ / وأوله : « أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي ... » الحديث وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٨٤ .

عندهما ابن أبي بكر ، وهو غلام يأتيهما حين يختلط الظلام ، ويخبرهما بما وعاه من أخبار أهل مكة ، ويدلج من عندهما بفجر فيصبح مع قريش بمكة كبائت في بيته ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى لأبي بكر أغناماً له نهاره ثم يروح عليهما فيحلبهما لهما ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما إذا أمست بطعامهما وشرابهما ، فلما طلع صبح الليلة الثالث أتى الدليل بالراحلتين فركباهما وانطلقا نحو المدينة ، ولما خرج ﷺ من مكة التفت إليها وبكى وقال : « إني لأعلم أنك أحب بلاد الله وأكرمها على الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » وهو يدل على أن مكة أفضل من سائر البلاد . ﴿ **انْفِرُوا** ﴾ أي : اخرجوا أيها المؤمنون مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى غزوة تبوك ﴿ **خِفَافاً وَثِقَالاً** ﴾ جمع خفيف وثقيل أي : حال كونكم شباناً وشيوخاً ، أو ركباناً ومشاةً ، أو أصحاء ومرضى ، على أي حال كان ، من يسر أو عسر ، بأي سبب كان من الصحة والمرض ، أو الغنى والفقر . ﴿ **وَجَاهِدُوا** ﴾ الجهاد : بذل المجهود وقتال المتردين حملاً لهم على الإسلام ، ومنعاً لهم عن عبادة الأصنام ، واعلم أن الجهاد لا ينافي كونه عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة ، وذلك أنه مأمور بالجهاد مع من خالفه من الأمم بالسيف ليرتدعوا عن الكفر ، وقد كان عذاب الأمم المتقدمة عند مخالفة أنبياءهم بالهلاك والاستئصال ، فأما هذه الأمة فلم يعاجلوا بذلك كرامة لنبيهم عليه الصلاة والسلام ، ولكن يجاهدوا بالسيف ﴿ **بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ** ﴾ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن ، وبأحدهما عند إمكانه وإعواز الآخر ، حتى إن من ساعده النفس والمال يجاهد بهما ، ومن ساعده المال دون النفس يرسل للغزو مكانه من حاله على عكس حاله . ﴿ **فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ هذا اللفظ عام يقع على كل عمل خالص لله تعالى ، سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأداء الفرائض والنوافل وأنواع الطاعات ، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه ، فمعنى في سبيل الله أي : في الطريق الموصل إلى الجنة والقربة والرضى ، وهو أن لا يكون بهوى وغرض ، حكي : أنه لما دنا « قتيبة بن مسلم » من بلدة بخارى ليفتحها فانتهى إلى جيحون ، أخذ الكفار السفن حتى لا يعبر جيش المسلمين عليها ، فقال قتيبة : اللهم إن كنت تعلم أني ما خرجت إلا للجهاد في سبيلك ، ولإعزاز دينك ولوجهك فلا تغرقني في هذا البحر ، ثم أرسل دابته في جيحون فعبره مع أصحابه بإذن الله ، وحُكي : أن بعضهم رأى إبليس في صورة شخص يعرفه ، وهو ناحل الجسم ، مصفر اللون ، باكي العين ، فقال له : ما الذي نحل جسمك ؟ قال : صهيل الخيل في سبيل الله ، فقال له : ما الذي غيَّر لونك ؟ فقال : تعاون الجماعة على الطاعة ، ولو تعاونوا على المعصية لكان أحب إليَّ ، قال : فما الذي أبكى عينك ؟ قال : خروج الحاج إليه لا بتجارة ، أقول قد قصدوه وأخاف أن لا يخيِّبهم فيحزنني ذلك » ، وفي الصحيحين عن أبي سعيد يرفعه : « قيل : يا رسول الله أيُّ الناس أفضل ؟ فقال رسول الله ﷺ : مؤمن مجاهد بنفسه وماله ، قالوا : ثم من ؟ قال : مؤمن في شعب من الشعاب ، يتقي

الله ويدع الناس من شره » ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ أي : ما ذكر من النفير والجهاد ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من القعود وترك الإمداد ، وخير مما يستفيده القاعد من الراحة ، وسعة العيش ، والتنعم بها ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لأن فيه استجلاب خير الدنيا وخير الآخرة ، عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه قرأ سورة براءة فأتى على هذه الآية (انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً) فقال : أيَ بنيَّ جهزوني ، فقال : بنوه رحمك الله ، قد غزوتَ مع النبي عليه الصلاة والسلام حتى مات ، ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حتى ماتا ، فنحن نغزو عنك ، فقال : لا ، جهزوني فإن الله استنفرنا خفافاً وثقالاً ، فغزا بحراً فمات في البحر ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام ، فدفنوه فيها ولم يتغير .

﴿ لَوْ كَانَ ﴾ لو كان يا محمد ما دعوتهم إليه ﴿ عَرَضاً قَرِيباً ﴾ العرض ما عرض لك من نافع الدنيا أي : غُنْماً سهل المأخذ قريب المنال ﴿ وَسَفَراً قَاصِداً ﴾ ذا قصد وتوسط بين القريب والبعيد ، سمي السفر سفراً لأنه يسفر أي : يكشف عن أخلاق الرجال ﴿ لا تَّبَعُوكَ ﴾ في الخروج طمعاً في المال ، ﴿ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ أي : المسافة التي تقطع بمشقة ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ ﴾ أي : سيحلف المتخلفون عن الغزو ، إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك ، وقد صنع كما أخبر فهو من جملة المعجزات النبوية ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا ﴾ أي قائلين : لو كان لنا استطاعة من جهة العدة أو من جهة الصحة أو جهتها جميعاً ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي : إلى الغزاة ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالحلف الكاذب ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع »[1] جمع بلقع وبلقعة ، وهي الأرض القفر التي لا شيء بها ، والمرأة البلقعة الخالية من الخير ، يعني من حلف عمداً كذباً ، لأجل الدنيا وزيادة المال ، فقد تعرض لزوال ما في يده من المال والجاه وبزواله يفتقر وتخرب داره من البركة وفي الحديث : « اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ـ أي : سبب لنفاقها ورواجها ـ ممحقة للكسب »[2] أي : سبب لمحق البركة ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فيما ادعوا حيث كانوا مستطيعين للخروج ولم يخرجوا ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ أي : لأي سبب أذنت لهم في التخلف حين اعتلُّوا بعللهم ؟

ودل على أن ذلك التخلف كان بإذن رسول الله ﷺ ، والعفو يستدعي سبق الخطأ ، وهذا الخطأ ليس من قبيل الذنب بل من ترك الأولى والأفضل ، الذي هو التأني والتوقف إلى انجلاء الأمر وانكشاف الحال ، وإنما قدم الله العفو على العتاب تصديقاً وتحقيقاً لقوله تعالى (لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وقوله : (لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) ما كان على وجه العتاب حقيقة ، بل كان على إظهار

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ / ٧٩ بنحوه .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ٢٣٥ .

لطفه به ، وكمال رأفته في حقه ، قال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف ، بدأ بالعفو قبل ذكر المعفو ؟! ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ أي : فيما أخبروا به عند الاعتذار ، من عدم الاستطاعة من جهة المال ، أو من جهة البدن أو من جهتها معاً ﴿ وَتَعْلَمَ الكَاذِبِينَ ﴾ في ذلك فتعامل كلاً من الفريقين بما يستحقه ، وهو بيان لذلك الأولى والأفضل ، وحتى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام ، تقديره : لِمَ سارعتَ إلى الإذن لهم وهلا أخَّرتهم وتأنَّيت إلى أن يتبين الأمر وينجلي ؟ واعلم أن الآية الأولى أشارت إلى أن من كان مطلوبه الدنيا وزينتها ، يجد له مساعداً ومصاحباً كثيراً ، ومن كان مطلوبه الحق والوصول إليه ، لا يجد له مرافقاً وموافقاً إلا أقل من القليل لصعوبة الانقطاع عن الحظوظ والأماني . والآية الأخيرة أفادت التحري والتأني في الأمور ، والعجلة صفة من صفات الشيطان .

﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ في ﴿ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ وإن الخُلَّص منهم يبادرون إليه من غير توقف على الإذن ، فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلُّف ، وحيث استأذنك هؤلاء في التخلُّف كان دليلاً على نفاقهم ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين ، وإشعار بأن ما صدر عنهم معلل بالتقوى ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ في التخلف ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ كان الاستئذان في ذلك الوقت علامة النفاق ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الرَّيبُ : شك مع اضطراب القلب ، ودل على أن الشاك المرتاب غير مؤمن ﴿ فَهُمْ ﴾ حال كونهم ﴿ فِي رَيْبِهِمْ ﴾ وشكهم المستقر في قلوبهم ﴿ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي : يتحيرون فإن التردد ، ديدنُ المتحير ، كما أن الثبات ديدن المستبصر ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ ﴾ قالوا عند الاعتذار : كنا نريد الخروج ، لكنْ لم نتهيأ له وقد قرب الرحيل بحيث لا يمكننا فكذبهم الله ، وقال : لو أرادوا الخروج معك إلى العدو في غزوة تبوك ﴿ لأَعَدُّوا لَهُ ﴾ أي : للخروج في وقته ﴿ عُدَّةً ﴾ أي : أهبة من الزاد والراحلة والسلاح ، وغير ذلك مما لابد منه للسفر ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ ولكن كره الله نهوضهم للخروج ، لما فيه من المفاسد الآتية ، ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي : حبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه ولم يستعدوا له ، والتثبيطُ : صرف الإنسان عن الفعل الذي يهم به ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ ﴾ الذين شأنهم القعود وملازمة البيوت ، وهم المرضى والعميان والنساء والصبيان ، ففيه ذم لهم ، ثم بين سر كراهته تعالى لانبعاثهم فقال ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ﴾ أي : مخالطين لكم ﴿ مَا زَادُوكُمْ ﴾ أي : ما أورثوكم شيئاً من الأشياء ﴿ إِلا خَبَالاً ﴾ أي : فساداً وشراً كالتجبين وتهويل أمر الكفار ، والسعي للمؤمنين بالنميمة وإفساد ذات البين ، وقد كان في هذه الغزوة منافقون كثير ، ولهم لا شك خبال ، فلو خرج هؤلاء لاجتمعوا فزاد الخبال ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أي : لسعوا بينكم وأسرعوا

بإلقاء ما يهيج العدواة ، أو ما يؤدي إلى الانهزام ، والإيضاع : تهييج المركوب وحمله على الإسراع ، من قولهم وضع البعير وضعاً إذا أسرع ، وأوضعته أنا إذا حملته على الإسراع ، والمعنى لأوضعوا ركائبهم بينكم على حذف المفعول ، والمراد به المبالغة في الإسراع بالنائم لأن الراكب أسرع من الماشي ، والخلال جمع خلل وهو الفرجة بين الشيئين وهو بمعنى بينكم ﴿ **يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ** ﴾ أي : حال كونهم طالبين الفتنة لكم وهي افتراق الكلمة ﴿ **وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ** ﴾ أي : نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم فاللام للتعليل ، أو فيكم قوم ضَعَفة يسمعون للمنافقين أي : يطيعونهم فاللام لتقوية العامل ، ﴿ **وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم ، وهو شامل للفريقين السماعين والقاعدين ﴿ **لَقَدِ ابْتَغَوْا** ﴾ أي : طلب هؤلاء المنافقون ﴿ **الفِتْنَةَ** ﴾ تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي : قبل غزوة تبوك ، يعني يوم أحد فإن أبيّاً انصرف يوم أحد مع ثلاثمائة من أصحابه ، وبقي النبي عليه الصلاة والسلام مع سبعمائة من خُلَّص المؤمنين ، وقد تخلف بمن معه عن تبوك أيضاً ، وكذا ابتغوا الفتنة في حرب الخندق حيث قالوا : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ﴿ **وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ** ﴾ أي : اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد ، ورددوا الآراء في إبطال أمرك ﴿ **حَتَّى جَاءَ الحَقُّ** ﴾ أي : النصر والتأييد الإلهي ﴿ **وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ** ﴾ غلب دينه وعلا شرفه ﴿ **وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾ والحال أنهم كارهون لذلك أي : على رغم منهم .

انظر إلى ما في هذه الآيات من تقبيح حال المنافقين ، وتسلية رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وبيان كون العاقبة للمتقين ، ولن يزال الناس مختلطاً مخلصهم بمنافقهم ، لكن من كان له نية صادقة صالحة يختار فراق أهل الهوى والرياء أجمعين ، لأن صحبة غير الجنس لا تزيد إلا تشويشاً وتفرقة في باب الدين ، ثم في قوله تعالى ﴿ **وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ** ﴾ ذم للنمام والنميمة ، وهي كشف ما يكره كشفه ، وإن ثلث عذاب القبر من النميمة ، روي : أن الحسن البصري جاء إليه رجل بالنميمة ، وقال : إن فلاناً وقع فيك ، فقال الحسن : متى ؟ قال : اليوم ، قال : أين رأيته ؟ قال : في منزله ، قال : ما كنت تصنع في منزله ؟ قال : كانت له ضيافة ؟ قال : ماذا أكلت في منزله ؟ قال : كيت وكيت حتى عدد ثمانية ألوان من الطعام ، فقال الحسن : يا هذا قد وَسِع بطنك ثمانية ألوان من الطعام ، أما وسع حديثاً واحداً ؟ قُمْ من عندي يا فاسق » وفيه إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بصداقته ، وذكر : أن حكيماً من الحكماء زاره بعض إخوانه ، وأخبره بخبر عن غيره ، فقال له الحكيم : قد أبطأت في الزيارة وأتيتني بثلاث جنايات : بغَّضتَ إليَّ أخي ، وشغلت قلبي بالفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة . فعلى العاقل حفظ اللسان وحفظ الجوارح من مساوي الكلام ، ﴿ **وَمِنْهُمْ** ﴾ أي : من المنافقين

﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ لك يا محمد ﴿ ائْذَنْ لِي ﴾ في القعود عن غزوة تبوك ﴿ وَلا تَفْتِنِّي ﴾ أي : لا توقعني في الفتنة وهي المعصية والإثم ، يريد أني متخلف لا محالة ، أذنت أو لم تأذن لي ، حتى لا أقع في المعصية بالمخالفة ، أو لا تلقني في الهلكة فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي لعدم من يقوم بمصالحهم ﴿ أَلا فِي الفِتْنَةِ ﴾ أي : في عينها ونفسها ﴿ سَقَطُوا ﴾ وهي فتنة التخلف ، ومخالفة الرسول ، وظهور النفاق ، يعني أنهم وقعوا فيما زعموا أنهم محترزون عنه ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ ﴾ أي : جامعة للمنافقين وغيرهم من الكفار يوم القيامة من كل جانب ، لإحاطة أسبابها من الكفر والمعاصي ، نزلت في « الجدِّ بن قيس » من المنافقين دعاه النبي عليه الصلاة والسلام إلى الخروج إلى العدو وحرَّضه على الجهاد ، فقال له : « يا جد بن قيس هل لك في جلاد بني الأصفر ؟ تتخذ منهم سراري ووصفاء » فقال جد : ائذن لي بالقعود ولا تفتني بذكر نساء الروم ، فإنه قد علمت الأنصار أني رجل مولع بالنساء أي : مفرط في التعلق بهن فأخشى إن ظفرت ببنات الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأواقعهن قبل القسمة فأقع في الفتنة والإثم ، فلما سمع النبي عليه الصلاة والسلام قوله أعرض عنه ، والمراد ببني الأصفر الروم .

ثم إن القعود عن الغزو من بخل الرجل وهو من أذم الصفات ، قال إبراهيم بن أدهم : إياك والبخل ، قيل : وما البخل ؟ قال : أما البخل عند أهل الدنيا : فهو أن يكون الرجل شحيحاً بماله ، وأما الذي عند أهل الآخرة : فهو الذي يبخل بنفسه عن الله تعالى ، ألا وإن العبد إذا جاد بنفسه لله تعالى ، أورث الله قلبه الهدى والتقى ، وأعطاه السكينة والوقار ، والعلم الراجح والعقل الكامل ، حكي : عن أبي جهيم بن حذيفة قال : انطلقتُ يوم تبوك أطلب عمي ، ومعي ماء أردت أن أسقيه إن كان به رمق ، فرأيته ومسحت وجهه ، فقلت : له أسقيك الماء ؟ فأشار برأسه نعم ، فإذا رجل يقول آه من العطش فأومأ برأسه أن اذهب إليه فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ قال : نعم فلما دنوت منه سمعت صوتاً يقول آه من العطش ، فأشار إليَّ أن اذهب إليه ، فذهبت فإذا هو ميت ، فرجعت بالماء إلى هشام ، فإذا هو ميت ، فرجعتُ إلى عمي فإذا هو ميت ، كذا في خالصة الحقائق .

﴿ إِنْ تُصِبْكَ ﴾ في بعض غزواتك ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ظفر وغنيمة كيوم بدر ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ تلك الحسنة أي : تورثهم يعني المنافقين مساءة وحزناً ، لفرط حسدهم وعداوتهم لك ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ جراحة وشدة كيوم أحد ، أو قتلٌ وهزيمة والمراد بالخطاب المؤمنين كما يدل عليه ما بعد الآية ﴿ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل إصابة المصيبة ، ﴿ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ أي: يدبروا عن مجلس الاجتماع ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بما صنعوا من الاعتزال عن المسلمين والقعود عن الحرب ﴿ قُلْ ﴾ بياناً

لبطلان الاعتقاد ﴿ لَنْ يُصِيبَنَا ﴾ أبداً ﴿ إلا مَا كَتَبَ اللهُ ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿ لَنَا ﴾ أي : لأجلنا من خير وشر ، وشدة ورخاء ، لا يتغير بموافقتكم ومخالفتكم ﴿ هُوَ مَوْلانَا ﴾ ناصرنا ومتولي أمورنا ﴿ وَعَلَىٰ اللهِ ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ التوكلُ : تفويضُ الأمر إلى الله تعالى ، والمعنى إن حق العبد أن يتوكل على مولاه ويبتغي رضوانه ، ويعتقد أنه لن يصيبه شيء من الأشياء إلا ما قدّر له ، وفي الحديث : « إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » (١) ، ﴿ قُلْ ﴾ للمنافقين ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ التربص : التمكث مع انتظار مجيء شيء خيراً كان أو شراً ، والمعنى ما تنتظرون بنا ﴿ إلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ أي : العاقبتين اللتين كل واحدة منهما من حسنى العواقب ، وهما النصر أو الشهادة ، والمعنى : فما تفرحون إلا بما لنا مما هو أحسن العواقب ، فأين أنتم من التيقظ والعمل بالحزم ؟ وفي الحديث : « تضمَّنَ الله لمن خرج في سبيله لا يخرج إلا إيماناً بالله ، وتصديقاً برسوله ، أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة » (٢) .

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أحد السوأيين من العواقب ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ كما أصاب من قبلكم من الأمم المهلكة من الصيحة والرجفة والخسف ﴿ أَوْ ﴾ بعذاب ﴿ بِأَيْدِينَا ﴾ وهو القتل بسبب الكفر ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أي : إذا كان الأمر كذلك ، فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ ما هو عاقبتكم ، لا تشاهدون إلا ما يسُرُّنَا ، ولا نشاهد إلا ما يسؤوكم ، وفي الحديث : « مثل المؤمن مثل السنبلة تحركها الريح فتقوم مرة وتقع أخرى ، ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزال قائمة حتى تنقعر » (٣) ، أي : تنقطع ، يقال : قعر الشجرة قلعها من أصلها فانقعرت ، والأرزة شجرة تشبه الصنوبر ، وقيل هو شجر الصنوبر .

وقد ذم الله المنافقين بتقلب الحال وفي الحديث : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » (٤) وفي الحديث : « من شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب القدر ، بلفظ : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، وحتى يعلم أن ما أصابه .. إلخ وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٠٣ . وأخرجه أبو داود والترمذي من حديث عبادة بن الصامت أنه قال لابنه عند الموت : « يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم ... » الحديث ، جامع الأصول ١٠ / ١٠٦ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وانظر جامع الأصول ٩ / ٤٧٦ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع .. » الحديث ، وانظر جامع الأصول ١ / ٢٧٢ .

(٤) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٣ / ١٩٨ .

بوجه آخر »[1] ، ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا ﴾ أيها المنافقون أموالكم في سبيل الله ﴿ طَوْعاً ﴾ أي : طائعين من قبل أنفسكم ﴿ أَوْ كَرْهاً ﴾ أو كارهين مخافة القتل ، ﴿ لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ﴾ المراد أنه تعالى لا يقبله منهم ولا يثيبهم عليه ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ أي : كافرين ، فالمراد بالفسق . ما هو الكامل منه ، لا الذي هو دون الكفر ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ أي : ما منعهم من قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم ﴿ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ أي : لا يأتونها في حال من الأحوال إلا حال كونهم متثاقلين ، والكسالي جمع كسلان كما يقال سكارى وسكران ، والذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل ، فإن الكفر مكسل ، والإيمان منشط ﴿ وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ الرغبة والنشاط في أداء العبادات متفرعة على رجاء الثواب بها وخوف العقاب على تركها ، المتفرعين على الإيمان بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من عند الله ، والمنافق لا يؤمن بذلك فلا يرجو ثواب الآخرة ولا يخاف عقابها ، فيكون كسلان في إتيان الصلاة وكارهاً للإنفاق ، لزعمه أنها إتعاب للبدن وتضييع للمال بلا فائدة ، وفيه ذم الكسل ومن دام كسله خاب أمله ، قال الخوارزمي :

لا تصحب الكسلان في حالاته * كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة * والجمر يوضع في الرماد فيخمد

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ ﴾ الإعجاب استحسان على وجه التعجب من حسنه ﴿ أَمْوَالُهُمْ ﴾ أي : أموال المنافقين ﴿ وَلا أَوْلادُهُمْ ﴾ فإن ذلك وبال عليهم واستدراج لهم كما قال ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ضمير بها راجع إلى الأموال والمعنى ليعذبهم بالتعب في جمعها ، والكره في إنفاقها ، ويجوز أن يرجع إليهما ، بناء على أن الأولاد أيضاً أسباب للتعذيب الدنيوي ، بتاعب تربيتهم وتحصيل أسباب معاشهم ، من المآكل والمشارب والملابس ، فإن قلت : إن المؤمن والكافر يشتركان في هذا التعب والحسرة ، فما معنى تخصيص المنافق ؟ قلت : إن المؤمن أخف حالاً لإيمانه وأمله ثواب الآخرة ، وصبره على الشدائد ، فيكون التعذيب بتربية الأولاد وحسرة فراقهم كلا تعذيب بالنسبة إليه ﴿ وَتَزْهَقَ ﴾ أصل الزهوق : خروج الشيء بصعوبة ﴿ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي : فيموتون كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة ، فيكون ذلك لهم نقمة لا نعمة ، واعلم أن الطاعة في العبودية بثلاثة أنواع : بالمال ، والبدن ، والقلب ، أما بالمال فهو الإنفاق في سبيل الله ، وفي الحديث أنه ﷺ : « أتي بفرس يجعل كل خطوة منه أقصى بصره ، فسار ومعه جبريل ، فأتى على قوم يزرعون في يوم

(١) أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه »[1] وأما بالبدن فهو القيام بالأوامر والنواهي ، والسنن والآداب المستحسنة المستحبة ، وأما بالقلب فهو الإيمان والصدق ، والإخلاص في النية .

﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ أي : المنافقون ﴿ بِاللهِ ﴾ متعلق بيحلفون ﴿ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ﴾ أي : من جملة المسلمين ﴿ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ﴾ لكفر قلوبهم ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي : يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين ، فيظهرون الإسلام تقية ويؤكدونه بالأيمان الفاجرة ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ أي : مكاناً حصيناً يلجأون إليه ، من رأس جبل ، أو قلعة أو جزيرة ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ هي الكهوف الكائنة في الجبال الرفيعة أي : كهوفاً يخفون فيها أنفسهم جمع مغارة ﴿ أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ هو السرب الكائن تحت الأرض أي نفقاً يندسون فيه ، ﴿ لَوَلَّوْا ﴾ أي : لصرفوا وجوههم وأقبلوا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلى أحد ما ذكر ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي : يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء كالفرس الجموح ، لئلا يجتمعوا معكم والجموحُ : النفور بإسراع يقال فرس جموح إذا لم يردَّه لجام ، والمعنى : أنهم وإن كانوا يحلفون لكم إنهم منكم إلا أنهم كاذبون في ذلك ، وإنما يحلفون خوفاً من القتل ، لتعذر خروجهم من بلادهم ، ولو استطاعوا ترك دورهم وأموالهم ، والالتجاء إلى بعض الحصون أو الغيران التي في الجبال أو السروب التي تحت الأرض لفعلوه تستراً عنكم واستكراهاً لرؤيتكم ولقائكم ، وفيه بيان لكمال عتوهم وطغيانهم ، وإشارة إلى أن المنافق يصعب عليه صحبة المخلص ، فإن الجنس إلى الجنس يميل لا إلى خلافه .

قيل : أضيقُ السجون معاشرة الأضداد ، وقال الأصمعي : دخلتُ على الخليل وهو جالس على الحصير الصغير فأشار إليَّ بالجلوس ، فقلت أضيِّق عليك ، فقال : مه إن الدنيا بأسرها لا تسع متباغضين ، وإن شبراً بشبر يسع المتحابين ، ولله در القائل :

رَحْبُ الفَلاةِ مع الأعداء ضَيِّقة * سَمُّ الخِيَاطِ مع الأحبابِ مَيْدَانُ

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي : من المنافقين ﴿ مَنْ يَلْمِزُكَ ﴾ أي يعيبك فإن اللمز والهمز العيب واللامز كالهامز بمعنى العياب ، ﴿ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أي : في شأن الزكاة ويطعن عليك في قسمتها ، جمع صدقة من الصدق ، لأن بها يظهر صدقه في العبودية ، والآية نزلت في أبي الجوَّاظ المنافق حيث قال : ألا ترون إلى صاحبكم ؟ يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا ﴾ أي : إن أُعطوا من تلك الصدقات قدر ما يريدون ﴿ رَضُوا ﴾ بما أُعطوه واستحسنوه ﴿ وَإِنْ لَمْ يُعْطَوا مِنْهَا ﴾ ذلك

(١) هذا جزء من حديث طويل في قصة المعراج رآها النبي ﷺ في عروجه إلى السماء .

المقدار بل أقل مما طمعوا ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي : يفاجئون السخط لما جُبلوا عليه من محبة الدنيا ، والشره في تحصيلها ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ أي : ما أعطاهم الرسول من الصدقات ، طيبي النفوس به وإن قلَّ ، وذكرُ الله تعالى للتعظيم ، والتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره سبحانه فلا اعتراض عليه ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ﴾ أي : كفانا فضله وما قسمه لنا ، فإن جميع ما أصابنا إنما هو تفضل منه ﴿ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ صدقة أخرى ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ فيعطينا منها أكثر مما أعطانا اليوم ﴿ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ أن يغنينا من فضله والآية بأسرها في حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره ولتذهب فيه النفس كل مذهب ممكن أي لكان خيراً لهم ، ولأكرمهم الله غاية الإكرام .

يقال : إذا كان القَدَرُ حقاً كان السخط حُمْقاً ، ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مكة بعدما كُفَّ بصرُه ، قيل له : أنت مجاب الدعوة لِمَ لا تسأل رد بصرك ؟ فقال : قضاء الله تعالى أحبُّ إليَّ من بصري . قيل لحكيم : ما السببُ في قبض الكفِّ عند الولادة ، وفتحه عند الموتِ ، فأنشد :

ومقبوضُ كفّ المرء عند ولادة * دليلٌ على الحرص المركَّب في الحيّ
ومبسوطُ كفّ المرء عند وفاته * يقول انظروا إني خرجتُ بلا شيء

حكي : أن نباشاً تاب على يد أبي يزيد البسطامي ، فسأله أبو يزيد عن حاله فقال : نبشتُ عن عشرة فلم أر وجوههم إلى القبلة إلا رجلين ، فقال أبو يزيد : مساكين أولئك نهمةُ الرزق حولت وجوههم عن القبلة ، فعلى العاقل التوكل على الله والاعتماد بوعده ، فإن الله كاف لعبده ، ومن وجد الله فقد ما دونه لأن فقدان الله في وجدان ما سواه ، ووجدانه في فقدان ما سواه ، ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ أي : جنس الزكاة المشتملة على الأنواع المختلفة من النقدين وغيرهما ، سميت الزكاة صدقة لدلالتها على صدق العبد في العبودية ، ﴿ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ أي : مخصوصة بهؤلاء الأصناف الثمانية لا تتجاوزهم إلى غيرهم من المنافقين ، والفقير من له شيء دون نصاب ، والمسكين من لا شيء له وهو المروي عن أبي حنيفة ، وقيل بالعكس ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ الساعي في جمعها وتحصيلها ، فيعطى العامل مما في يده من مال الزكاة بقدر عمله ، فقيراً كان أو غنياً ، فلو ضاع ذلك المال لم يعط شيئاً ، وكذا لو أعطى المالك بنفسه زكاته إلى الإمام لا يستحق العامل شيئاً ، ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم طائفة من العرب لهم قوة وأتباع ، أعطوا من الصدقة تقريراً على الإسلام ، أو تحريضاً عليه ، أو خوفاً من شرهم ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أي : وللصرف في فك الرقاب أي : في تحصيلها من الرق ، بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أداء بدل كتابتهم ، والرقاب جمع رقبة وهي يعبر بها عن الجملة وتجعل اسماً للمملوكة

﴿ وَالغَارِمِينَ ﴾ أي : الذين تدينوا لأنفسهم في غير معصية ، إذا لم يكن لهم نصاب فاضل عن ديونهم ، والغارم والغريم وإن كان يطلق كل واحد منهما على من له الدين ، إلا أن المراد بالغارم في الآية الذي عليه الدين ، وأن المديون قسمان : الأول من ادّان لنفسه في غير معصية ، فيعطى له من الزكاة ما يفي بدينه ، بشرط أن لا يكون له من المال ما يفي بدينه ، وإن كان له ذلك فلا يعطى ، والثاني : من أدان في المعروف وإصلاح ذات البين فإنه يعطى من مال الزكاة ما يقضي به دينه وإن كان غنياً وأما من ادّان في معصية أو فساد فإنه لا يعطى له شيء منها ، وعن مجاهد : أن الغارم من احترق بيته ، أو ذهب السيل بماله ، أو ادّان على عياله ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : فقراء الغزاة الذين عجزوا عن اللحوق بجيش الإسلام لفقرهم ، وسبيل اللهِ وإن عمَّ كل طاعة إلا أنَّهُ خُصَّ بالغزو إذا أطلق ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أي : المسافر الكثير السير المنقطع عن ماله ، سمي به لملازمة الطريق ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ﴾ مصدر لما دل عليه صدر الآية ، أي : فرض الله لهم الصدقات فريضة ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة ، التي من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقيها . واعلم أن سهم المؤلفة قلوبهم ساقط بإجماع الصحابة ، لما أن ذلك كان لتكثير سواد الإسلام ، فلما أعزه الله وأعلى كلمتَه استغنى عن ذلك ، كما قال عمر رضي الله عنه : الإسلام أعز من أن يرشى عليه ، فإن ثُبتم على الإسلام بغير رشوة فبها ، وإلا فبيننا وبينكم السيف ، فبقيت المصارف السبعة على حالها ، فللمتصدق أن يدفع صدقته إلى كل واحد منهم وأن يقتصر على صنف منهم ، بل لو صرف إلى شخص منهم جاز ، فإن اللام في للفقراء لبيان أنهم مصارف لا يخرج عنهم ، كما يقال الخلافة لبني العباس ، أي : ليست الخلافة لغيرهم لا أنها بينهم بالسوية ، فاللام لام الاختصاص لا التمليك ، لعدم جواز التمليك للمجهول ، ثم اعلم أن الأوصاف التي عبر بها عن الأوصاف المذكورة . وإن كانت تعم المسلم والكافر ، إلا أن الأحاديث خصتها بالمسلم منهم ، والتصدق على الفقير العالم أفضل من الجاهل ، وصدقة التطوع يجوز صرفها إلى المذكورين وغيرهم من المسلم والذمي ، وإلى بناء المساجد والقناطر ، وتكفين الميت وقضاء دينه ونحوها ، لعدم اشتراط التمليك في التطوع .

﴿ وَمِنْهُمُ ﴾ أي : من المنافقين ﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَبِيَّ ﴾ بأن يقولوا في حقه ما يتأذى به الإنسان ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إذا قيل لهم لا تفعلوا هذا الفعل فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فتفضحوا ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ يسمع كل ما قيل له ، كأنه نفس الأذن السامعة ، يريدون بذلك أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور ، بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع ، وإنما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ، ويصفح عنهم حلماً وكرماً ، فظن أولئك أنه عليه الصلاة والسلام إنما يفعله

لقلة فطنته وقصور شهامته ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ المعنى : نعم إنه أذن لكنه نعم الأذن ، فإن من يسمع العذر ويقبله خير ممن لا يقبله ، لأنه إنما ينشأ من الكرم وحسن الخلق ، سلم الله تعالى قول المنافقين في حقه عليه الصلاة والسلام أنه أذن إلا أنه حمل ذلك القول على ما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ فيسمع جميع ما جاء من عنده ويقبله ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : يسلم لهم قولهم ويصدقهم فيما أخبروا به ، لما علم من إخلاصهم وصدقهم ، ولا شك أن ما أخبر به المؤمنون الخلص يكون حقاً ، فمن استمعه وقبله يكون أذن خير ، ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي : وهو رحمة بطريق إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ أي : للذين أظهروا الإيمان منكم وهم المنافقون ، حيث يقبله منهم ، رفقاً بهم وترحماً عليهم ، ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم ، ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ ﴾ بالقول أو الفعل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإنه قد تبين أنه عليه الصلاة والسلام خير ورحمة لهم ، فأذاه مقابلة لإحسانه بالإساءة ، يكون مستوجباً للعذاب الشديد ، وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتون المؤمنين فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم فقال تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ ﴾ أيها المؤمنون أنهم ما قالوا ما نقل إليكم ﴿ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ بذلك ﴿ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ بالتوبة وترك الطعن والعيب ، والمبالغة في باب الإجلال والإعظام مشهداً ومغيباً ، وضمير يرضوه إلى الله ، فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر . قال الحدادي : لم يقل يرضوهما لأنه يكره الجمع بين ذكر الله وذكر اسم رسول الله في كناية واحدة ، كما روي أن رجلاً قام خطيباً عند النبي عليه الصلاة والسلام فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بئس الخطيب أنت هلا قلت ومن يعص الله ورسوله »[1] . قال في أبكار الأفكار : إنما أراد بذلك تعليم الأدب في المنطق وكراهة الجمع بين اسم الله واسم غيره تحت حرفي الكناية لأنه يتضمن نوعاً من التسوية . وفي الحديث : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان »[2] قال الخطابي وهذا إرشاد إلى الأدب ، لأن الواو للجمع والتشريك ، وثم للعطف مع الترتيب والتراخي فأرشدهم عليه الصلاة والسلام إلى تقديم مشيئة الله على مشيئة من سواه ، ﴿ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : صادقين فيما أظهروه من الإيمان ، فليرضوا الله ورسوله بالطاعة وإخلاص الإيمان ، فإنها أحق بالإرضاء ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ أي : أولئك المنافقون ، والاستفهام للتوبيخ ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ مفاعلة من الحد وهو الطرف والنهاية ، وكل واحد من المتخالفين

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم / ٨٧٠ / وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٧٣٩ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم / ٤٩٨٠ / وإسناده صحيح . جامع الأصول ١١ / ٧٤٠ .

والمتعاندين في حد غير حد صاحبه ﴿ فَأَنَّ لَهُ ﴾ بالفتح أي : فحق أن له ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذٰلِكَ ﴾ العذاب الخالد ﴿ الخِزْيُ العَظِيمُ ﴾ الخزي : الذل والهوان المقارن للفضيحة والندامة ، وهي ثمرات نفاقهم حيث يفتضحون على رؤوس الأشهاد بظهورها ولحوق العذاب الخاص بهم .

﴿ يَحْذَرُ المُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على المؤمنين ﴿ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ أي : تخبر تلك السورة المؤمنين ﴿ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : قلوب المنافقين من الشرك والنفاق ، فتفضحهم وتهتك عليهم أستارهم ، ويجوز أن تكون الضمائر كلها للمنافقين ، فالمعنى يحذر المنافقون أن تنزل في شأنهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم من الأسرار الخفية فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم من أقاويل الكفر والنفاق ، فإن قلت : كيف يحذر المنافقون نزول الوحي الكاشف عن نفاقهم مع أنهم ينكرون نبوّته عليه الصلاة والسلام فكيف يجوزون نزول الوحي عليه ؟ قلت : إن بعض المنافقين كانوا يعلمون النبوة لكنهم كانوا يكفرون عناداً وحسداً ، وبعضهم كانوا شاكين مترددين في أمره صلى الله تعالى عليه وسلم والشاك يُجَوِّزُ نزول الوحي فيخاف أن ينزل عليه ما يفضحه ، ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ أي : افعلوا الاستهزاء وهو أمر تهديد ﴿ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ أي : ما تحذرون إظهاره من مساويكم ، ومن هذا سميت هذه السورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين ، ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ عما قالوا بطريق الاستهزاء ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ﴾ في الكلام ونتحدث كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث ﴿ وَنَلْعَبُ ﴾ كما يلعب الصبيان ، روي : أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير في غزوة تبوك ، وبين يديه ركب من المنافقين ، يستهزئون بالقرآن وبالرسول عليه الصلاة والسلام ، ويقولون انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام وقصوره ، وهيهات هيهات ، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب ، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : « احبسوا عليَّ الركب » فأتاهم فقال : « قلتم كذا وكذا ؟ » فقالوا : يا نبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أصحابك ، وإنما كنا نخوض ونلعب ، فلما أنكروا ما هم فيه من الاستهزاء ، أمر الله تعالى رسوله فقال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد على طريق التوبيخ غير ملتفت إلى اعتذارهم ﴿ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ عقَّب حرف التقرير بالمستهزىء به ، إشارة إلى تحقق الاستهزاء وثبوته ، ﴿ لا تَعْتَذِرُوا ﴾ لا تشتغلوا بالاعتذار فإنه معلوم الكذب ، بيِّن البطلان ، يقال : اعتذرت إليه أي قطعت ما في قلبه من الموجدة ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ الكفر بأذى الرسول والطعن فيه ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي : بعد إظهاركم له فإنهم قط لم يكونوا مؤمنين ولكن كانوا منافقين ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم أو لتجنبهم عن الأذية والاستهزاء ﴿ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على الإجرام ، وهم غير التائبين وغير المجتنبين ، واعتذر النبي عليه الصلاة والسلام لمن قال : ألا نقتلهم لظهور كفرهم ؟ بقوله : أكره أن تقول العرب : يقتل محمد

أصحابه ، وفي الآيات إشارات : الأولى : أن المنافقين وإن اعتقدوا نزول الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام واعتقدوا نبوته لكن لم ينفعهم مجرد الاعتقاد والإفراد باللسان في ثبوت الإيمان مع أدنى شك داخلهم ولم ينفعهم الحذر مع القدر وهذا تحقيق قوله : « ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ » . والثانية : أن إظهار القهر والانتقام لا يكون إلا بسبب جرم من المجرمين كما قال تعالى ﴿ **بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ . والثالثة : أن الاستهزاء بالله وبرسوله وبالآيات القرآنية كفر ، والاستهزاء استحقار الغير بذكر عيوبه ، وذلك حرام معدود من الكبائر . وفي الحديث : « إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة فيقال له : هلُّم هلم ، فيجيء بكربه وغمه ، فإذا جاء أغلق دونه ثم يفتح له باب آخر فيقال له : هلُّم هلم ، فيجيء بغمه وكربه فإذا جاء أغلق دونه ، فما يزال كذلك حتى إن أحدهم ليفتح له الباب من أبواب الجنة فيقال له : هلم فما يأتيه من الإياس[1] » .

ومن تعظيم الرسول ﷺ تعظيم أولاده وأقربائه ، روي : أن زيد بن ثابت رضي الله عنه ركب بغلته فدنا ابن عباس رضي الله عنه ليأخذ ركابه ، فقال : لا يا ابن عم رسول الله ، خلِّ عنك . ، فقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا وعلمائنا ، فقال زيد : أرني يدك فأخرجها إليه فقبَّلها ، فقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ ، ﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ** ﴾ أي : متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كأبعاض الشيء الواحد بالشخص ﴿ **يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ** ﴾ أي : بالكفر والمعاصي ﴿ **وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ** ﴾ أي : عن الإيمان والطاعة ﴿ **وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ** ﴾ أي : عن الإنفاق في سبيل الله وعن الصدقة وعن كل خير ، فإن قبض اليد كناية عن الشح ، ﴿ **نَسُوا اللهَ** ﴾ صاروا غافلين عن ذكره وتركوا أمره ، حتى صار كالمنسي عندهم ، ذكر الملزوم وهو النسيان وأريد اللازم وهو الترك ، ﴿ **فَنَسِيَهُمْ** ﴾ فتركهم من لطفه وفضله لا من قهره وتعذيبه ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ الكاملون في التمرد ، والفسق ، الذي هو الخروج عن الطاعة ، والانسلاخ عن كل خير ﴿ **وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ** ﴾ الوعد يستعمل في الخير وفي الشر ، يقال : وعدته خيراً ووعدته شراً ، والغالب أنه في الخير الوعد والعدة ، وفي الشر الإيعاد والوعيد ، وقد أوعده أي : العقاب ﴿ **وَالْكُفَّارَ** ﴾ أي : المجاهرين ﴿ **نَارَ جَهَنَّمَ** ﴾ وهي من أسماء النار ، تقول العرب للبئر البعيدة القعر جهنام فيجوز أن تكون جهنم مأخوذة من هذا اللفظ لبعد قعرها ، ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أي : مقدراً خلودهم فيها ﴿ **هِيَ حَسْبُهُمْ** ﴾ عقاباً وجزاء ، ولا شيء أبلغ من تلك العقوبة ولا يمكن الزيادة عليها ﴿ **وَلَعَنَهُمُ اللهُ** ﴾ أي : أبعدهم من رحمته وأهانهم ، فإن النار مع كونها في الإيلام ، تتضمن شدائد آخر

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في الزهد ، وابن أبي الدنيا في الصمت ، والبيهقي في البعث عن الحسن مرفوعاً ، وانظر الدر المنثور ٦ / ٣٢٨ .

من اللعن والإهانة وغيرهما ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ لا ينقطع والمراد به ما وعدوه وهو الخلود في نار جهنم ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي : أنتم أيها المنافقون مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ أي : تمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا ، سُمي النصيب خَلاقاً لأنه مشتق من الخلق بمعنى التقدير ونصيب كل واحد هو الخير المقدر له ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ ﴾ الكاف في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي : استمتاعاً كاستمتاعهم ، وليس في الآية تكرار لأن قوله فاستمتعوا بخلاقهم ذم للأولين بالاشتغال بالحظوظ الفانية ، وذمهم بذلك تمهيد لذم المخاطبين بسلوكهم سبيل الأولين ، وتشبيه حالهم بحالهم ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ أي : دخلتم في الباطل وتوسعتم فيه ﴿ كَالَّذِي ﴾ أي : كالفوج الذي ﴿ خَاضُوا ﴾ ويجوز أن يكون أصله الذين حذفت النون تخفيفاً ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذمية ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ التي كانوا يستحقون بها الأجور ، أي : ضاعت وبطلت بالكلية ولم يترتب عليها أثر ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أما في الآخرة فظاهر ، وأما في الدنيا فلأن ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحة والسعة ، ليس على طريق المثوبة والكرامة ، بل بطريق الاستدراج ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بحبوط الأعمال في الدارين ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون في الخسران في الدارين ، فإنه قد ذهبت رؤوس أموالهم فيما ضرهم ولم ينفعهم .

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ أي : المنافقون ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : خبرهم الذي له شأن ، وهو ما فعلوا وما فعل بهم ، والاستفهام للتقرير والتحذير ، أي : قد أتاهم خبر الأمم السالفة وسمعوه ، فليحذروا من الوقوع فيما وقعوا ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أُغرقوا بالطوفان ﴿ وَعَادٍ ﴾ أهلكوا بريح صرصر ﴿ وَثَمُودَ ﴾ أهلكوا بالرجفة والصيحة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أهلك نمرود ببعوضة وأهلك أصحابه بالهدم ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ أي : وأهل مدين وهم قوم شعيب ، أهلكوا بالنار يوم الظلة ، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ وهي قريات قوم لوط أئتفكت بهم أي : انقلبت بهم فصار عاليها سافلها وأُمطروا حجارة من سجيل ﴿ أَتَتْهُمْ ﴾ أي : جمع من تقدم من المهلكين ﴿ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي : بالحجج والبراهين فكذبوهم فأهلكهم الله ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي : لم يكن من عادته ما يشابه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب .

فعلى العاقل أن لا يغتر بالقوة والأولاد والأموال ، فإنها كلها في معرض الزوال .

ولابدَّ من تدارك الأمر بالتوبة والاستغفار ، قبل نزول ما نزل بالقوم الأشرار ، قال بعض الصالحين : خرجت إلى السوق ومعي جارية حبشية ، فأجلستها في مكان وقلت لها : لا تبرحي حتى أعود إليك ،

فذهبت ثم عدت إلى المكان فلم أجدها فيه ، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها ، فجاءتني وقالت لي : يا مولاي لا تعجل عليّ فإنك أجلستني بين قوم لا يذكرون الله تعالى ، فحسبت أن ينزل بهم خسف وأنا معهم ، فقلت : إن هذه الأمة قد رفع عنها الخسف إكراماً لنبيها محمدٍ ﷺ ، فقالت : إن رفع عنها خسف المكان فما رفع عنها خسف القلوب ؟ فسررتُ بجوابها فأعتقتها ثم تزوجتها .

﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ أي : متفقون في التوحيد وبعضهم معين بعض في أمر دينهم ودنياهم ، وبعضهم موصل إلى الدرجات العالية بسبب التربية وتزكية النفس ، وهم المرشدون في طريق الله تعالى ﴿ **يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ أي : جنس المعروف الشامل لكل خير ومنه الإيمان والطاعة ﴿ **وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾ أي : جنس المنكر المنتظم لكل شر ومنه الكفر والمعاصي التي تقطع العبد عن الله ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ** ﴾ فلا يزالون يذكرون الله تعالى ويديمون مراقبة القلب وحضوره مع الله بحيث لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وهم أرباب المكاشفة وأصحاب القلوب وهذا بمقابلة ما سبق من قوله نسوا الله ﴿ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ بمقابلة قوله تعالى (**وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**) فهم يؤدون الزكاة الواجبة بل ينفقون ما فضل عن كفافهم الضروري ويطهرون أنفسهم عن محبة الدنيا بالإنفاق ﴿ **وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ أي : في كل أمر ونهي وهو بمقابلة وصف المنافقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بهذه الأوصاف الكريمة ﴿ **سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ** ﴾ أي : يفيض عليهم آثار رحمته من التأييد والنصرة وينجيهم من العذاب الأليم سواء كان عذاب النار أو عذاب البعد من الملك الجبار ، قال بعضهم : يرحمهم في خمسة مواضع : عند الموت وسكراته يهوّن عليهم سكرات الموت ويحفظ إيمانهم من الشيطان ، وفي القبر وظلماته ينوّر قبورهم ويحفظهم من عذاب القبر ، وعند قراءة الكتاب وحسراته يؤتيهم كتابهم بيمينهم ويمحو سيِّئاتهم كيلا يتحسروا عليها ، وعند الميزان وندماته يثقل موازينهم ، وعند الوقوف بين يدي الله وسؤالاته يسهل عليهم جوابهم ولا يؤاخذهم بعيوبهم ﴿ **إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ** ﴾ تعليل الوعد أي : قوي قادر على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ بنى أحكامه على أساس الحكمة الداعية إلى إيصال الحقوق ، من النعمة والنقمة إلى مستحقيها من أهل الطاعة وأهل المعصية ﴿ **وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ أي : وعدهم وعداً شاملاً لكل واحد منهم ، على اختلاف طبقاتهم في مراتب الفضل ﴿ **جَنَّاتٍ** ﴾ جمع جنة وهي الحديقة ذات النخل والشجر ﴿ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا** ﴾ أي : أشجارها وغرفها ﴿ **الأَنْهَارُ** ﴾ أنهار الماء والعسل والخمر واللبن ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ أي : مقدراً خلودهم ودوامهم فيها فكل واحد من المؤمنين فائز بهذه الجنات لا محالة ﴿ **وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً** ﴾ أي : منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش ، وفي الخبر أنها قصور من اللؤلؤ والزبرجد ، والياقوت الأحمر ﴿ **فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ** ﴾ هي أبهى أماكن الجنات وأسناها ، دار لم ترها عين ولم تخطر على قلب

بشر ، ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ ﴾ أي : وشيء يسير من رضوانه تعالى ﴿ أَكْبَرُ ﴾ وأعظم من الجنان ونعيمها لأنه مبدأ جميع السعادات ، ومنشأ تمام الكمالات .

روي : أنه تعالى يقول لأهل الجنة : « هل رضيتم ؟ فيقولون : ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً »[١] ، ﴿ ذٰلِكَ ﴾ المذكور من النعيم والرضى ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ دون ما يعدُّه الناس فوزاً من حظوظ الدنيا ، فإنها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنقصها وتكدرها ليست بالنسبة إلى أدنى شيء من نعيم الآخرة ، إلا بمثابة جناح البعوضة ، قال عليه الصلاة والسلام : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء »[٢] ، قال يحيى بن معاذ : الدنيا دار خراب ، وأخربُ منها قلب من يعمرها ، والآخرة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ اعلم أن الله تعالى خاطب الأنبياء عليهم السلام بأسمائهم الشريفة ، مثل : يا آدم ويا نوح ويا موسى ويا عيسى وخاطب نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بالألقاب الشريفة ، مثل : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) و (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ) وذلك يدل على علو جنابه عليه الصلاة والسلام ، والمعنى : يا أيها المبلغ عن الله تعالى والمخبر ، أو يا صاحب علو المكانة والزلفى ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أي : المجاهرين منهم بالسيف ، والجهادُ : بذل الجهد في صرف المبطلين عن المنكر وإرشادهم إلى الحق ، ولا تجوز المحاربة مع المنافقين بالسيف ، لأن شريعتنا تحكم بالظاهر وهم يظهرون الإسلام وينكرون الكفر ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على الفريقين جميعاً في ذلك واعنف بهم ولا ترفق .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملة مستأنفة لبيان آجل أمرهم إثر بيان عاجله ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : بئس الموضع موضعهم الذي يصيرون إليه ويرجعون ، وفي الحديث : « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس أمرك » وحديث « وعليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي »[٣] الرهبانية الخصال المنسوبة إلى الرهبان من التعبد وفي الصوامع وترك أكل اللحم والطيبات ، فقد أفاد النبي عليه الصلاة والسلام ، أن الثواب الذي يحصل للأمم السالفة بالرهبانية يحصل لهذه الأمة المرحومة بالغزو وإن لم يترهبوا ، بل رب آكلٍ لِمَا يشتهيه ، خير من صائم نبت حب الدنيا فيه .

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيها .

(٢) أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ، من وصيته ﷺ لأبي ذر الغفاري ، وأخرجه الطبراني بأوسع من هذا ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٦٤ .

قال الأوزاعي : خمس كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون : لزوم الجماعة ، واتباع السنّة ، وعمارة المسجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيل الله ، وفي الحديث : « إذا أخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم »(١) دل هذا على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا خروج من الدين ، وكفى بهذا إثماً وذنباً مبيناً .

﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا** ﴾ روي : أن رسول الله ﷺ أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المنافقين المتخلفين ، فيسمعه من كان منهم معه عليه الصلاة والسلام ، فقال الجلاس بن سويد منهم : لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم ـ وهم سادتنا وأشرافنا ـ فنحن شرٌّ من الحمير ، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس : أجل والله ، والله إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحضره فحلف بالله ما قال ، فرفع عامر يده فقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب ، فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقوا بهذه الآية ﴿ **وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ** ﴾ هي ما حكي آنفاً ﴿ **وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ** ﴾ أي : وأظهروا ما في قلوبهم من الكفر بعد إظهارهم الإسلام ﴿ **وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ أي : قصدوا إلى ما لم يصلوا إلى ذلك من قتل الرسول ، وذلك أن خمسة عشر منهم توافقوا عند مرجعه عليه الصلاة والسلام من تبوك على أن يفتكوا به في العقبة التي هي بين تبوك والمدينة ، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك ، فلما وصل الجيش إلى العقبة ، وسمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة ، وأمر عليه الصلاة والسلام عمار بن ياسر رضي الله عنه أن يأخذ بزمام الناقة يقودها وأمر حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن يسوقها من خلفها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح فرجع إليهم ومعه محجن فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال إليكم يا أعداء الله ، فهربوا ﴿ **وَمَا نَقَمُوا** ﴾ نقم الأمر كرهه أي : وما كرهوا وما عابوا وما أنكروا شيئاً من الأشياء ﴿ **إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ المدينة في غاية ما يكون من شدة العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فاستغنوا وكثرت أموالهم ، وهذا الكلام من قبيل قولهم ما لي عندك ذنب إلا إحساني إليك أي : إن كان ثمة ذنب فهذا ، وهو تهكم بهم وتوبيخ ﴿ **فَإِنْ يَتُوبُوا** ﴾ عما هم عليه من الكفر والنفاق ﴿ **يَكُ** ﴾ ذلك التوب ﴿ **خَيْراً لَهُمْ** ﴾ في الدارين ﴿ **وَإِنْ يَتَوَلَّوْا** ﴾ أي : استمروا على ما كانوا عليه من التولي والإعراض عن الدين ﴿ **يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا** ﴾ بالقتل والأسر

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب البيوع رقم / ٣٤٦٢ / بلفظ : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد .. » الحديث وانظر جامع الأصول ١١ / ٧٦٥ .

والنهب ﴿ وَالآخِرَةِ ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العقاب ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ مع سعتها وتباعد أقطارها وكثرة أهلها ﴿ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ أي : ينقذهم من العذاب بالشفاعة والمدافعة فالعاصي لا ينجو من العذاب وإن كان سلطاناً ذا منعة إلا بالاستغفار من الذنوب ، وإخلاص التوحيد ، والتوجه إلى علام الغيوب ، حكي : عن محمد بن جعفر أنه قال : كنت مع الخليفة في زورق فقال الخليفة : أنا واحد وربي واحد ، فقلت له : اسكت يا أمير المؤمنين ، لو قلت ما قلت مرة أخرى لنغرقنَّ جميعاً ، قال : لِمَ ؟ قلت : لأنك لست بواحد إنما أنت اثنان ، الروح والجسد ، من الإثنين الأب والأم ، في الاثنين الليل والنهار ، بالاثنين الطعام والشراب ، مع الاثنين الفقر والعجز ، والواحد هو الله الذي لا إله إلا هو . ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي : من المنافقين ﴿ مَنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ المعاهدة المعاقدة واليمين ﴿ لَئِنْ آتَانَا ﴾ أي : الله تعالى ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ من جوده وإحسانه ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ أي : لنؤتين الزكاة وغيرها من الصدقات ، وأصله لنتصدقن أدغمت التاء في الصاد ، والمتصدق معطي الصدقة ، وسميت صدقة لدلالتها على صدق العبد في العبودية ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد الحج ، نزلت في رجل يسمى « ثعلبة » وكان منافقاً ، وكان ملازماً لمسجد رسول الله ﷺ ليلاً ونهاراً وكان يلقب لذلك حمامة المسجد ، وكانت جبهته كركبة البعير من كثرة السجود على الأرض والحجارة المحماة بالشمس ، ثم جعل يخرج من المسجد كلما فرغ رسول الله ﷺ من الفجر بالجماعة من غير لبث واشتغال بالدعاء ، فقال له عليه الصلاة والسلام يوماً : « ما لك صرت تعمل عمل المنافقين بتعجيل الخروج » فقال : يا رسول الله إني في غاية الفقر ، بحيث لي ولامرأتي ثوب واحد وهو الذي عليَّ وأنا أصلي فيه وهي عريانة في البيت ثم أعود إليها فأنزعه وهي تلبسه فتصلي فيه ، فادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره ، خير من كثير لا تطيقه » فراجعه وقال : يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبياً لو دعوت الله أن يرزقني مالاً لأُوَدين كل ذي حق حقه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت بها أزقة المدينة ، فنزل وادياً حتى فاتته الجماعة لا يصلي بالجماعة إلا الظهر والعصر ، ثم نمت وكثرت فتنحى مكاناً بعيداً حتى انقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل عنه رسول الله ﷺ فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه وادٍ ، أي : واد واحد بل يسعه أودية وصحارى ، فخرج بعيداً فقال عليه الصلاة والسلام : « يا ويح ثعلبة » فلما نزل قوله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) استعمل النبي عليه الصلاة والسلام رجلين على الصدقات رجلاً من الأنصار ورجلاً من بني سليم وكتب لهما الصدقة وأسنانها وأمرهما أن يأخذاها من الناس فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرءآه كتاب رسول الله ﷺ

فيه الفرائض فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، وقال : ارجعا حتى أرى رأيي[١] وذلك قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ ﴾ الله تعالى المال ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وكرمه ﴿ بَخِلُوا بِهِ ﴾ أي : منعوا حق الله منه ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ أي : أعرضوا عن طاعة الله والعهد معه ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ وهو قوم عادتهم الإعراض ، ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي : أعقب فعلهم ذلك نفاقاً راسخاً وسوء اعتقاد ، إلى يوم موتهم الذي يلقون ربهم عنده ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ أي : لكونهم مستمرين على الكذب في جميع المقالات التي من جملتها وعدهم المذكور ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ الاستفهام للتقرير أي : قد علموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ أي : ما أسروه في أنفسهم من العزم على الإخلاف ، ولم يتكلموا به سراً ولا جهراً ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما يتناجون به فيما بينهم من تسمية الزكاة جزية وغير ذلك مما لا خير فيه ، والتناجي والنجوى السر الخفي ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ، فكيف يجترئون على ما هم عليه من النفاق والعزم على الإخلاف ؟ .

وفي الحديث : « ثلاث من كنَّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان »[٢] ولعل هذا يكون في حق من اعتاد بهذه الخصال لا في حق من ندرت منه كما هو مذهب البخاري ، ومذهب الجمهور على أن هذه الخصال خصال المنافقين وصاحبها شبيه لهم ، فإطلاق اسم المنافق عليه على سبيل التجوز تغليظاً كما أن الله تعالى قال (وَمَنْ كَفَرَ) مكان ومن لم يحج لكمال قبحه ، ﴿ الَّذِينَ ﴾ رفع على الذم أي : المنافقون هم الذين ﴿ يَلْمِزُونَ ﴾ أي : يعيبون ويغتابون ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ أي : المتطوعين المتنفلين ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ حال من المطوعين ﴿ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ متعلق بيلمزون ، روي : أن النبي ﷺ خطب ذات يوم حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك يحث الناس على الإنفاق والإعانة في تجهيز العسكر ، فكان أول من جاء بالصدقة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله ﷺ : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله ، وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله فقال له عليه الصلاة والسلام : « هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ » قال : النصف الثاني » ومنه يعرف فضل أبي بكر على عمر رضي

---

(١) هذا رجل من المنافقين وهو ليس بصحابي وإن اتفق الإسم فإن الله تعالى قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ أي : من المنافقين فهو منافق بنص الآية الكريمة ، والصحابة كلهم عدول أخيار ، فتنبه وانظر كتابنا صفوة التفاسير ١ / ٥٥١ .

(٢) الحديث أخرجه النسائي في سننه ٨ / ١١٧ ، ورواه البخاري ومسلم بلفظ : « آية المنافق ثلاث . وزاد مسلم : وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم » إذا حدث كذب .. إلخ ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٧٠ .

الله عنه ، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار ، وصب في حجر النبي عليه الصلاة والسلام ألف دينار ، وأعطى ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً وعند ذلك قال ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض » وقد كان عليه الصلاة والسلام زوَّج بنته رقية من عثمان فماتت بعدما خرج رسول الله إلى بدر ، فلما رجع من بدر زوَّجَه أم كلثوم ولذا سمي عثمان بذي النورين ، وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بأربعة آلاف درهم فقال عليه الصلاة والسلام : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » وجاء العباس بمال كثير وكذا طلحة ، وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر والوسق ستون صاعاً ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر ، وقال : يا رسول الله بت ليلتي كلها أجر بالجرير على صاعين ، أما أحدهما فأمسكته لعيالي ، وأما الآخر فأقرضته ربي ، فأمره رسول الله أن ينثره في الصدقات ، فطعن فيهم المنافقون وقالوا ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وسمعة ، وإن الله لغني عن صاع أبي عقيل ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إلا جُهْدَهُمْ** ﴾ أي : ويلمزون الذي لا يجدون إلا طاقتهم من الصدقة ، عابوا المكثر بالرياء ، والمقلَّ بالإقلال ، يقال : الجَهْد بالفتح المشقة ، والجُهْدُ بالضم الطاقة ﴿ **فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ** ﴾ أي : يستهزئون بهم ، والمراد بهم الفريق الأخير كأبي عقيل ﴿ **سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ** ﴾ أي : جازاهم على سخريتهم ، فيكون تسمية جزاء السخرية سخرية من قبيل المشاكلة ، لوقوعه في صحبة قوله فيسخرون منهم ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ أي : ثابت لهم ﴿ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ على كفرهم ونفاقهم ، ولما نزلت هذه الآية أتى المنافقون إلى رسول الله وقالوا : يا رسول الله استغفر لنا فكان عليه الصلاة والسلام يستغفر لقوم منهم على ظاهر الإسلام من غير علم منه بنفاقهم ، وكان إذا مات أحدهم منهم يسألون رسول الله الدعاء والاستغفار لميتهم ، فكان يستغفر لهم على أنهم مسلمون ، فأعلمه الله أنهم منافقون ، وأخبره أن استغفاره لا ينفعهم ، فذلك قوله تعالى ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لهم**﴾ أي : إن شئت استغفر لهم وإن شئت لا تستغفر ، فالأمران متساويان في عدم النفع الذي هو المغفرة والرحمة ﴿ **إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً** ﴾ أي : سبعين استغفارة وتخصيص السبعين بالذكر لتأكيد نفي المغفرة ، لأن الشيء إذا بولغ في وصفه أُكِّد بالسبع والسبعين ، وهذا كما يقول القائل : لو سألتني حاجتك سبعين مرة لم أقضها ، لا يريد أنه إذا زاد على السبعين قضى حاجته ، فالمراد الكثير لا التحديد ﴿ **فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ** ﴾ أي : امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغة في الاستغفار ليس لعدم الاعتداد باستغفارك بل ﴿ **بِأَنَّهُمْ** ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ **كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ أي : كفراً متجاوزاً عن الحد كما يلوح به وصفهم بالفسق ﴿ **وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ** ﴾ فإن الفسق في كل شيء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده ، أي : لا يهديهم هداية موصلة إلى المقصد ، لمخالفة ذلك للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع .

فالصدقة بالكثير والقليل لها عند الله شأن كبير ، بحسب إخلاص النيَّة لا بالكثرة والقلة .

روي : أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ، فأراه إياه في المنام ، فلما رأى عظمته غشي عليه فلما أفاق قال : إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته من الحسنات ؟ فقال : يا دود إني إذا رضيت عن عبدي أملأها بتمرة ، وروي : أن الحسن مر به نخاس ومعه جارية جميلة ، فقال للنخاس : أترضى في ثمنها بدرهم أو درهمين ؟ قال : لا ، قال : فاذهب فإن الله يرضى في الحور العين بالفلس والفلسين ، ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ** ﴾ المراد المنافقون الذين خلَّفهم النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة حين الخروج إلى غزوة تبوك ، بالإذن لهم في القعود عند استئذانهم ﴿ **بِمَقْعَدِهِمْ** ﴾ مصدر ميمي بمعنى القعود أي : بقعودهم وتخلفهم عن الغزو ﴿ **خِلافَ رَسُولِ اللهِ** ﴾ أي : خلفه وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا ، فالخلاف بمعنى التخلف كما في قوله تعالى (**وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلا قَلِيلاً**) ، أو بمعنى المخالفة ، أي : فرحوا لأجل مخالفتهم إياه عليه الصلاة والسلام ، بأن مضى هو للجهاد وتخلفوا عنه ﴿ **وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ إيثاراً للراحة وسعة العيش على طاعة الله ، مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاق ، ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي : قال بعضهم لبعض تثبيتاً لهم على التخلف والقعود وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ونهياً لهم عن المعروف فقد جمعوا ثلاث خصال من خصال الكفر والضلال : الفرح بالقعود ، وكراهة الجهاد ، ونهي الغير عن ذلك ﴿ **لا تَنْفِرُوا** ﴾ أي : لا تخرجوا ﴿ **فِي الْحَرِّ** ﴾ فإنه لا تستطاع شدته وكانوا دُعوا إلى غزوة تبوك في وقت نضج الرطب وهو أشد ما يكون من الحر ، وكان ممن تخلف عن مسيره معه « أبو خَيْثمة » ولما سار عليه الصلاة والسلام دخل أبو خيثمة على أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في حائط قد رشت كل منهما عريشتها وبردت فيها ماء وهيأت طعاماً ، فلما دخل نظر إلى امرأتيه وما صنعتا ، فقال : رسول الله ﷺ في الحر وأبو خيثمة في ظل وماء بارد ، وطعام مهيأ وامرأة حسناء ؟ ثم قال : والله لا أدخل عريشة واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهيئا لي زاداً ففعلتا ، ثم قدَّم ناضحه فارتحلها وأخذ سيفه ورمحه ، ثم خرج في طلب رسول الله حتى أدركه ، ﴿ **قُلْ** ﴾ رداً عليهم وتجهيلاً ﴿ **نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً** ﴾ من هذا الحر ، فما لكم لا تحذرونها ؟ ﴿ **لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** ﴾ أي : يعلمون أنها كذلك لما خالفوا وفي الحديث : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من أجزاء نار جهنم »[1] ، وبيانه أنه لو جمع حطب الدنيا فأوقد كله حتى صار ناراً ، لكان الجزء الواحد من أجزاء نار جهنم ، الذي هو من سبعين جزءً أشد من حر نار الدنيا .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وتتمة الحديث : « قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله ، قال : فإنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرّها » .

﴿ فَلْيَضْحَكُوا ﴾ ضحكاً ﴿ قَلِيلاً ﴾ في الدنيا وهو إشارة إلى مدة العمر ، وعمر الدنيا قليل ، فكيف عمر من في الدنيا فإنه أقل من القليل ؟ ﴿ وَلْيَبْكُوا ﴾ بكاء ﴿ كَثِيراً ﴾ في الآخرة في النار ﴿ جَزَاءً ﴾ أي : ليبكوا جزاءً ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من فنون المعاصي ، وهذا لفظ أمر ومعناه خبر ، أي : يضحكون قليلاً ويبكون دائماً . يروى : أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم وفي الحديث : « يرسل الله البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى ترى وجوههم كهيئة الأخدود » وفي الحديث : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً »(١) ، قال ابن عمر رضي الله عنهما : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فوقف وسلم عليهم فقال : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات ، قلنا وما هاذم اللذات ؟ قال : الموت »(٢) . ومر الحسن البصري بشاب وهو يضحك فقال له : يا بني هل مررت على الصراط ؟ فقال : لا ، فقال : هل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار ؟ فقال : لا، فقال : ففيم هذا الضحك ؟ فما رؤي الفتى بعد ذلك يضحك . قال العلماء : البكاء على عشرة أنواع : بكاء فرح ، وبكاء حزن ، وبكاء رحمة ، وبكاء خوف مما يحصل ، وبكاء كذب كبكاء النائحة ، لأنها تبكي لشجو غيرها ، وبكاء موافقة بأن يرى جماعة يبكون فيبكي مع عدم علمه بالسبب ، وبكاء المحبة والشوق ، وبكاء الجزع من حصول ألم لا يحتمله ، وبكاء الخور والضعف ، وبكاء النفاق ، وهو أن تدمع العين والقلب قاس ، وأما التباكي فهو تكلف البكاء ، وهو نوعان محمود ، ومذموم ، والأول ما يكون لاستجلاب رقة القلب ، والثاني ما يكون لأجل الرياء والسمعة كما في إنسان العيون ، والحاصل أن طالب الآخرة ينبغي له تقليل الضحك وتكثير البكاء ولا يغفل عن الموت ولقاء الجزاء فإنه « كم ضاحكٍ وكفنه عند القصار » ؟ .

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ ﴾ من الرجع المتعدي دون الرجوع اللازم ، والمعنى فإن ردك الله من غزوة تبوك ﴿ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾ وضمير منهم إلى المنافقين المتخلفين في المدينة دون المتخلفين مطلقاً ، ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه وهي تبوك ﴿ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً ﴾ أي : لا تأذن لهم بحال ، وهو إخبار في معنى النهي للمبالغة ﴿ وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ من الأعداء ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ تعليل لما سلف أي : لأنكم ﴿ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ ﴾ أي : عن الغزو وفرحتم بذلك ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك ﴿ فَاقْعُدُوا ﴾ من بعد ﴿ مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ أي : المتخلفين تغليب الذكور على الإناث . قال العلماء : أخرجهم الله تعالى من ديوان الغزاة ، ومحا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١ / ٢٧٣ والترمذي في الزهد رقم / ٢٣١٤ / .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد رقم / ٢٣٠٨ / والنسائي في الجنائز ٤ / ٤ .

أساميهم من دفتر المجاهدين ، وأبعد محلهم من محفل صحبة النبي ﷺ عقوبة لهم على تخلفهم لما فيه من الإهانة وإظهار نفاقهم ، وبيان أنهم ليسوا ممن يتقوى به الدين ويعز الإسلام كالمؤمنين الخلص نسأل الله تعالى صحبة الدين وصحبة أهل الدين إلى يوم الدين .

﴿ **وَلا تُصَلِّ** ﴾ يا محمد ﴿ **عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ** ﴾ أي : من المنافقين ﴿ **مَاتَ أَبَدًا** ﴾ ظرف للنهي أي : لا تَدْعُ ولا تستغفر لهم أبداً ، وكان حذيفة رضي الله عنه ، صاحبَ سر رسول الله ﷺ وقال له ﷺ يوماً : « إني مسرٌّ إليك سراً فلا تذكرنَّه ، إني نُهيتُ أن أصلي على فلان وفلان ، وعدَّ جماعة من المنافقين » ولما توفى رسول الله ﷺ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته « إذا مات الرجل ممن يظن أنه من أولئك ، أخذ بيد حذيفة فناداه إلى الصلاة عليه » فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر ، وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه ﴿ **وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ** ﴾ أي : ولا تقف عند قبره للدفن ، أو للزيارة والدعاء ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له ﴿ **إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ تعليل للنهي لأنهم استمروا على الكفر بالله ورسوله مدة حياتهم . ﴿ **وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ أي : متمردون في الكفر خارجون عن حدوده ، روي : عن ابن عباس أن رئيس المنافقين عبد الله بن سلول دعا رسول الله ﷺ في مرضه فلما دخل عليه سأله أن يستغفر له ويصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره ، ثم إنه أرسل إليه عليه الصلاة والسلام يطلب منه قميصه ليكفن فيه ، فأرسل إليه القميص الفوقاني فرده فطلب الذي يلي جلده ، فقال عمر رضي الله عنه : تعطي قميصك للرجس النجس ؟ وهذا يدل على أن عدوَّ الله أراد التبرك بأثر النبي ﷺ ، وإنما يُؤثِّر عند صلاح المحل ، ويدل عليه ما قاله جابر رضي الله عنه : « ادفنوا أمواتكم وسط قوم صالحين ، فإن الميت يتأذى بجار السوء ، كما يتأذى الحي بجار السوء »[1] وقد ثبت أن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه لما قتل سفيان بن خالد الهذلي ووضع بين يديه عليه الصلاة والسلام دفع إليه عصا كانت بيده وقال : « تخصَّرْ بهذه في الجنة » أي : توكأ عليها فكانت تلك العصا عنده فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يجعلوها بين جلده وكفنه ففعلوا ، وثبت أنه عليه الصلاة والسلام حلق رأسه الشريف معمر بن عبد الله فأعطى نصف شعر رأسه لأبي طلحة ، وفرق النصف الآخر بين الأصحاب شعرة وشعرتين ، فكانوا يتبركون بها وينصرون ما داموا حاملين لها ، فلما مات ابن أبيّ انطلق ابنه وكان مؤمناً صالحاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام ودعاه إلى جنازة أبيه ، ثم قال ﷺ : « صلِّ عليه وادفنه » فإن لم تصل عليه يا رسول الله لا يصلي عليه مسلم ، أنشدك الله أن لا تشمت بي الأعداء ، فأجابه عليه الصلاة والسلام تسلية له ومراعاة لجانبه ، فقام ليصلي عليه فجاء عمر رضي الله

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة . وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٦١ .

عنه فقام بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلي عليه وقال : أتصلي على عدو الله القائل كذا يوم كذا وكذا ، وعدَّ أيامه الخبيثة ، فنزلت الآية ، فأعرض ﷺ عن الصلاة عليه ، وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضي الله عنه ، فإن الوحي كان ينزل على وفق قوله في آيات كثيرة منها هذه الآية ، وهو منصب عال ودرجة رفيعة له في الدين ، وقال : « إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدَّثون فإنه إن كان في أمتي هذه فإنه عمر بن الخطاب »[1] والمحدَّث بفتح الدال المشددة هو الذي يلقي في نفسه الشيء فيخبر به فراسة ، وهي الإصابة في النظر ويكون كما قال وكأنه حدثه الملأ الأعلى ، وقد قيل في فضيلة عمر رضي الله عنه :

لَـهُ فَضَـائِـلُ لا تَخْفَى عَلَى أَحَـدٍ * إلا عَلَى أَحَـــــدٍ لا يَعْرِفُ القَمَرَا

وقيل نزلت الآية بعدما صلى النبي ﷺ ولبث يسيراً[2] ، فما صلى بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره ، وأما دفع القميص إليه فذكروا فيه وجوهاً : منها أن العباس عمَّ النبي عليه الصلاة والسلام لما أخذ أسيراً يوم بدر ولم يجدوا له قميصاً يساوي قده ، وكان رجلاً طويلاً كساه عبد الله قميصه ، فهو عليه الصلاة والسلام إنما دفع إليه قميصه مكافأة لإحسانه ذلك لا إعزازاً له ، ومنها أنه تعالى أمره أن لا يرد سائلاً حيث قال (**وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ**) فالضنة بالقميص وعدم إرساله سيما وقد سئل فيه مخل بالكرم ، ومنها أنه لعله أوحي إليه أنك إن دفعت إليه قميصك صار ذلك حاملاً لدخول ألف نفر من المنافقين في الإسلام ففعل ذلك بناء عليه والله أعلم . ﴿ **وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ** ﴾ الضمير للمنافقين ، وتقديم الأموال في أمثال هذه المواقع على الأولاد ، مع كونهم أعز منها ، لعموم مساس الحاجة إليها ، لأن المال مناط لبقاء النفس والأولاد ، وإما لأنها أقدم في الوجود من الأولاد ، ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ** ﴾ بما متعهم به من الأموال والأولاد ﴿ **أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا** ﴾ أي : يعذبهم بسببها ﴿ **وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ** ﴾ أي : تخرج ويموتوا ﴿ **وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ أي : كافرون بسبب اشتغالهم بالتمتع بها ، والالتهاء عن النظر والتدبر في العواقب . واعلم أن هذه الآية مرت في هذه السورة الكريمة مع التغاير في بعض الألفاظ ، فالتكرير لتأكيد النصيحة بها والاعتناء بشأنها تنبيهاً على أن هذه النصيحة مما لا ينبغي أن يذهل السامع عنها ، والأولاد وإن كانوا نعمة في حق المؤمنين فإنها نقمة في حق المنافقين ، لكونها شاغلة لقلوبهم عن الله وطلبه ، ﴿ **وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ** ﴾ من القرآن ﴿ **أَنْ آمِنُوا بِاللهِ** ﴾ إن مصدرية حذف منها الجار أي : بأن آمنوا بالله ﴿ **وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ** ﴾ لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « لقد كان من قبلكم من الأمم ناس محدثون .. » الحديث ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٠٩ ورواه الترمذي بنحوه .

(٢) هذا هو الأصح أن الآية نزلت بعدما صلَّى الرسول عليه كما في البخاري .

﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ أي : ذووا الفضل والسعة ، والقدرة على الجهاد بدناً ومالاً من المنافقين ، وأصل هذه الكلمة من الطول الذي هو خلاف القصر لأنه إذا كان طويلاً ففيه كَمَالٌ وزيادة ، كما أنه إذا كان قصيراً ففيه قصور ونقصان ، وسمي الغنى أيضاً طَوْلاً لأنه ينال به من المرادات ما لا ينال عند الفقر ، كما أنه ينال بالطول ما لا ينال بالقصر ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا ﴾ دعنا ﴿ نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ ﴾ أي : الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر ﴿ رَضُوا ﴾ أي : المنافقون ﴿ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ ﴾ أي : مع النساء المتخلفات في البيوت جمع خالفة فالتاء للتأنيث ، وقد يقال الخالفة الذي لا خير فيه فالتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية لا للتأنيث ، ولعل الوجه في تسمية من لا خير فيه من الرجال خالفة كونه غير مجيب إلى ما دعي إليه من المهمات ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ معنى الطبع في اللغة جعل الشيء كالطابع نحو طبع الدينار والدرهم ، والتركيب يدل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها ويقاس على هذا طبع الإنسان وطبيعته وطباعه ، أي : سجيته التي جبل عليها ، وخص القلب بالختم لأنه محل الفهم ولذا قال ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ ما في الإيمان بالله وطاعته في أوامره ونواهيه ، وموافقة رسول الرسول ﷺ والجهاد من السعادة ، وما في أضداد ذلك من الشقاوة ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ بالله وبما جاء من عنده تعالى ، أي : آمنوا كما آمن هو عليه الصلاة والسلام ، ﴿ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ لكن لم يختل أمر الجهاد بتخلفهم ، لأنه قد جاهد من هو خير منهم وأخلص نيَّةً ومعتقداً ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ ﴾ أي : منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة والكرامة في العقبى . ويجوز أن يكون معناه الزوجات الحسان في الجنة وهن الحور لقوله تعالى (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ) وهي جمع خَيْرَة تخفيف خَيِّرة ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ أي : الفائزون بالمطلوب لا من حاز بعضاً من الحظوظ الفانية ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾ أي : هيأ لهم في الآخرة ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع جنة وهي البستان الذي فيه أشجار مثمرة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أي : من أسفل أرضها ، أو من تحت أشجارها أو من تحت القصور والغرف ﴿ الأَنْهَارُ ﴾ جمع نهر وهو مسيل الماء ، سمي به لسعته وضيائه ، والنهر واحد ويجري فيه الخمر والماء والعسل واللبن لا يخالط بعضها بعضاً ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : مقدَّر خلودهم في تلك الجنات الموصوفة ﴿ ذٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما فهم من إعداد الله سبحانه لهم الجنات المذكورة من نيل الكرامة العظمى ﴿ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ الذي لا فوز وراءه ، فازوا بالجنة ونعيمها ، ونجوا من النار وجحيمها .

وفي الحديث : « إن في الجنة مائة درجة ـ المراد بالمائة هنا الكثرة وبالدرجة المرقاة ـ أعدها الله للمجاهدين في سبيله ـ الذين جاهدوا أنفسهم مرضاة ربهم ـ كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض ،

فإن سألتم الله فأسألوه الفردوس - وهو بستان في الجنة جامع لأنواع الثمر - فإنه أوسط الجنة - يعني أشرفها - وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر - أصله تتفجر فحذف إحدى التاءين - أنهار الجنة »[1] وهي أربعة مذكورة في قوله تعالى (**فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُه ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى**) ، ثم قال تعالى : ﴿ **وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ** ﴾ من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل ، ولا عذر له ، فالمعذر اسم فاعل من باب التفعيل ، والاعتذار قد يكون بالكذب وقد يكون بالصدق ، وذلك لأن الاعتذار عبارة عن الإتيان بما هو في صورة العذر ، سواء كان للمعتذر عذر حقيقة أو لم يكن ، والأعراب سكان البوادي من العرب لا واحد له ، والعرب خلاف العجم وهم سكان الأمصار ، والمراد بالمعذرين أسد وغطفان ، استأذنوا في التخلف حين الخروج إلى غزوة تبوك معتذرين بالجهد أي : ضيق العيش ، وكثرة العيال ، واختلفوا في أنهم كانوا معتذرين بالتصنع أو بالصحة ، والظاهر الثاني ويدل عليه كلام القاموس حيث قال : قوله تعالى ﴿ **وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ** ﴾ بتشديد الذال المكسورة هم المعتذرون الذين لهم عذر ، وقد يكون المعذر غير محق ، فالمعنى المقصرون بغير عذر . انتهى .

﴿ **وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ** ﴾ وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيبوا ولم يعتذروا ولم يستأذنوا في القعود ، فظهر أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعاء الإيمان والطاعة ، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر ، ﴿ **سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ** ﴾ أي : من الأعراب أو من المعذرين وعلى كل تقدير فمن تبعيضية لا بيانية إذ ليس كلهم كفرة وقد علم الله تعالى أن بعض الأعراب سيؤمن وأن بعض المعذرين يعتذر لكسله لا لكفره ﴿ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ بالقتل والأسر في الدنيا ، والنار في الآخرة ، ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ** ﴾ كالهرمى والزمنى جمع هرم بكسر الراء وهو كبير السن ، وجمع زمن هو المقعد ﴿ **وَلا عَلَى الْمَرْضَى** ﴾ جمع مريض ﴿ **وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ** ﴾ لفقرهم كزينة وجهينة وبني عذرة ﴿ **حَرَجٌ** ﴾ إثم في التخلف والتأخر عن الغزو ﴿ **إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ النصح : إخلاص العمل من الغش ، يقال نصح الشيء إذا خلص ، ونصح له في القول إذا كلمه بما هو خير محض له ، والناصح الخالص وفي الحديث : « الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة » ذكرها ثلاث مرات قيل : هذا الكلام مدار الإسلام لأن النصيحة هي إرادة الخير معناه عماد الدين النصيحة كما يقال : الحج عرفة ، أي : عماده ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله » معنى

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد « باب درجات المجاهدين » ٦ / ٩ وذكره في باب التوحيد أيضاً ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٤٩١.

نصيحته تعالى الإيمان به وإخلاص العمل فيما أمر به « ولرسوله » نصيحته تصديقه بكل ما علم مجيئه به وإحياء طريقته « ولكتابه » نصيحته الاعتقاد بأنه كلام الله والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه « ولأئمة المسلمين » نصيحتهم إطاعتهم في المعروف وتنبيههم عند الغفلة « وعامتهم »[1] نصيحة عامة المسلمين دفع المضار عنهم ، وجلب المنافع إليهم بقدر الوسع ، فمعنى الآية أن المتخلفين من أصحاب الأعذار لا إثم عليهم في تخلفهم ، إذا أخلصوا الإيمان لله ولرسوله ، وامتثلوا أمرهما في جميع الأمور ، ومعظمها أن لا يفشوا ما سمعوه من الأراجيف في حق الغزاة ، وأن لا يثيروا الفتن وأن يسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين ويقوموا بإصلاح مهات بيوتهم ، ﴿ **مَا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ** ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما سبق أي : ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيلٌ و« مِنْ » زائدة لعموم النفي ، ﴿ **وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ يشير إلى أن بهم حاجة إلى المغفرة وإن كان تخلفهم بعذر ، فإن الإنسان محل التقصير والعجز فلا يسعه إلا العفو .

﴿ **وَلا عَلَىٰ الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ** ﴾ أي : ليس شيء ثابتاً على المحسنين ولا على الذين إذا ما أتوك (**لِتَحْمِلَهُمْ**) وهم البكَّاؤن سبعة من الأنصار ، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : نذرنا الخروج ، فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة فنغزو معك ﴿ **قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ أي : قلت إذا ما أتوك : لا أجد ، و﴿ مَا ﴾ عامة لما سألوه على الصلاة والسلام وغيره مما يحمل عليه عادة من النفقة والظهر وفي إيثار لا أجد على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كأنه عليه الصلاة والسلام يطلب ما يسألونه عن الاستمرار فلا يجده ﴿ **تَوَلَّوْا** ﴾ جواب إذا ﴿ **وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ** ﴾ أي : تسيل بشدة ﴿ **مِنَ الدَّمْعِ** ﴾ إسناد الفيض إلى العين مجازي ، كسال الميزاب ، والأصل يفيض دمعها ، عدل إلى هذه الصورة للدلالة على المبالغة في فيضان الدمع كأن العين كلها دمع فياض ﴿ **حَزَناً** ﴾ نصب على العلية ﴿ **أَنْ لا يَجِدُوا** ﴾ أي : لئلا يجدوا ﴿ **مَا يُنْفِقُونَ** ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه إذ لم يجدوه عندك . ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ** ﴾ بالمعاتبة ﴿ **عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ** ﴾ في التخلف ﴿ **وَهُمْ أَغْنِيَاءُ** ﴾ واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم ﴿ **رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ** ﴾ أي : النساء رضيَ بالدناءة ، وإيثاراً للدَّعة ﴿ **وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ حتى غفلوا عن وخامة العاقبة ﴿ **فَهُمْ** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أبداً غائلة ما رضوا به عاجلاً ، كما لم يعلموا بخساسة شأنه آجلاً ، قال حكيم : الدنيا سوق الآخرة ، والعقل قائد الخير ، والمال رداء التكبر ، والهوى مركب المعاصي ، والحزن مقدمة السرور . وقد ذم الله تعالى أهل النفاق بالفرح والاستهزاء ، ومدح أهل

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه .

الإخلاص بالحزن والبكاء ، وأدّى ضحك أولئك إلى البكاء الكثير ، وبكاء هؤلاء إلى الضحك الوفير .

﴿ يَعْتَذِرُونَ ﴾ أي : يعتذر المنافقون ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ في التخلف ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، والخطاب لرسول الله ﷺ وأصحابه ، والآية نزلت قبل وقوع الاعتذار ، ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ من غزوة تبوك منتهين ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ وإنما لم يقل إلى المدينة إيذاناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة ، فلعل منهم من بادر بالاعتذار قبل الرجوع إليها ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ لا تَعْتَذِرُوا ﴾ أي : لا تفعلوا الاعتذار ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ لن نصدقكم في اعتذاركم لأنه ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أي : أعلمنا بالوحي بعض أخباركم النافية للتصديق ، وهو ما في ضمائركم من الشر والفساد ، ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فيما سيأتي ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ أتتوبون عن الكفر والنفاق أم تثبتون عليه ؟ ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ إِلَىٰ عَالِمِ الغَيْبِ ﴾ وهو ما غاب عن العباد ﴿ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وهو ما علمه العباد ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ عند ردكم إليه ووقوفكم بين يديه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بما كنتم تعملونه في الدنيا ، والمراد بالتنبئة بذلك المجازاة به ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة ، القائلين والله ما قدرنا على الخروج ولو قدرنا عليه لما تخلفنا ﴿ إِذَا انْقَلَبْتُمْ ﴾ أي : انصرفتم من الغزو ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ وهم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابها ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ إعراض صفح وتتركوا لومهم وتعنيفهم ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ إعراض اجتناب ومقت وتحقير ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أي : كالنتن الذي يجب الاجتناب عنه ، وفيهم رجس روحاني ، ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أي : مصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ من تمام التعليل فإن كونهم من أهل النار من دواعي الاجتناب ، وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب ﴿ جَزَاءً ﴾ أي : يجزون جزاء ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ في الدنيا من فنون السيئات ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ به تعالى ﴿ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ بحلفتهم الكاذبة ولتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ المتمردين في الكفر فإن رضاكم لا يستلزم رضى الله ، ورضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كانوا في سخط الله وعقابه ، والمقصود نهي المخاطبين عن الرضى عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده ، روي : أن النبي عليه الصلاة والسلام حين قدم المدينة قال : « لا تجالسوهم ولا تكلموهم » وفيه إشارة إلى هجر المنافق والمصر على ذنبه إلى أن يتوب ، قال محمد الباقر : أوصاني أبي زين العابدين ، فقال : لا تصحبنَّ خمسة ولا تحادثهم ، ولا ترافقهم في الطريق : لا تصحبنَّ فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة فما دونها ، ولا تصحبنَّ البخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه ، ولا تصحبنَّ كذاباً فإنه بمنزلة السراب يبعد عنك القريب ويقرب منك البعيد ، ولا تصحبنَّ أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وقد قيل « عدوٌّ عاقل خير من صديق أحمق » ولا تصحبنَّ قاطع رحم

فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع ، ﴿ **الأَعْرَابُ** ﴾ جمع أعرابي كما أن العرب جمع عربي ، والمجوس جمع مجوسي ، واليهود جمع يهودي بحذف ياء النسبة في الجمع ، والفرق بين العرب والأعراب : أن العرب صنف خاص من بني آدم سواء سكن البوادي أم القرى ، وأما الأعراب فلا يطلق إلا على من يسكن البوادي ، فالعرب أعم ، وقيل العرب هم الذين استوطنوا المدن والقرى والأعراب أهل البدو ﴿ **أَشَدُّ كُفْرَاً وَنِفَاقاً** ﴾ من أهل الحضر لأن أهل البدو تشبه الوحوش ، من حيث إنهم مجبولون على الامتناع عن الطاعة والانقياد ، لأن استيلاء الهواء الحار اليابس عليهم يزيدهم قساوة لقلوبهم ، وهي تستتبع التكبر والفخر والطيش عن الحق ، ولأن من لم يدخل تحت تأديب مؤدب ولم يخالط أهل العلم والمعرفة ، ولم يستمع إلى كتاب الله تعالى ومواعظ رسوله ﷺ ، كيف يكون مساوياً لمن أصبح وأمسى في صحبة أهل العلم والحكمة ، مستمعاً لمواعظ الكتاب والسنّة ؟ وإن شئت أن تعرف الفرق بين أهل الحضر والبادية ، فقابل الفواكه الجبلية بالفواكه البلديَّة ، والمراد بهم بنو تميم وبنو أسد وغطفان ﴿ **وَأَجْدَرُ أَنْ لا يَعْلَمُوا** ﴾ أي : أحق وأولى أن لا يعلموا ﴿ **حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** ﴾ أي : حدود العبادات والشرائع المنزلة من الله تعالى على رسوله ، فرائضها وسننها ، وذلك لكونهم أبعد عن استماع القرآن والسنن ، ولذلك تكره إمامة الأعرابي في الصلاة ، قال العلماء : إذا كان الإمام يرتكب المكروهات في الصلاة كره الاقتداء به ، وينبغي للناظر وولي الأمر عزله ﴿ **وَاللهُ عَلِيمٌ** ﴾ بأحوال كل من أهل الوبر والمدر ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب .

﴿ **وَمِنَ الأَعْرَابِ** ﴾ أي : ومن جنس الأعراب ﴿ **مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ** ﴾ من المال أي : يعد ما يصرفه في سبيل الله ويتصدق به صورة ﴿ **مَغْرَماً** ﴾ مصدر بمعنى الغرامة ، وهو ما ينوب الإنسان في ماله من ضرر لغير جناية ، ومن لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ولا يرجو على إنفاقه في سبيل الله ثواباً ولا يخاف على تركه عقاباً ، فلا جَرَمَ يَعُدُّ ما أنفقه غرامة وضياع مال بلا فائدة ، وإنما ينفق رياء أو تقية ﴿ **وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ** ﴾ والتربص : الانتظار ، والدوائر : جمع دائرة وهي ما يدور حول الإنسان من المصائب والآفات ، ومعنى تربص الدوائر : انتظار المصائب ، بأن تنقلب دولة المسلمين بموت الرسول ﷺ وغلبة الكفار عليهم ، فيتخلصوا من الإنفاق ، وهذا النفاق موجود الآن ، ألا ترى إلى بعض المتسمين بسمة الإسلام ، كيف يتمنى ظهور الكفار ليتخلص من الإنفاق والتكاليف السلطانية ، ﴿ **عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ** ﴾ دعا عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين ، والسَّوْء : بالفتح مصدر ساء نقيض سرَّ ، ثم أطلق على كل ضرر وشر ، وأضيفت إليه الدائرة ذاتاً كما يقال : رجل سوء ، ﴿ **وَاللهُ سَمِيعٌ** ﴾ لما يقولون عند الإنفاق مما لا خير فيه ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بما يضمرونه من الأمور الفاسدة التي من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر

﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ ﴾ أي : من جنسهم على الإطلاق من أسد وجهينة وغفار وأسلم ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ قال في الروضة : سمع أعرابي قوله تعالى : (الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرَاً وَنِفَاقَاً) فانقبض ثم سمع (وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ) فقال : الله أكبر ، هجانا الله ثم مدحنا ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾ أي : ينفقه في سبيل الله ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ أي : سبب قربات وذرائع إليها ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي : يتخذ نفقته في الجهاد تقرباً إلى الله تعالى ، في طلب المنزلة عنده والثواب ، والجمع باعتبار أنواع القربات أو أفرادها ، وفيه إشارة إلى الحديث القدسي : « من تقرّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً »[1]، ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أي : وسائل إليها وسبباً لها ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، ولذلك سُنَّ للمتصدَّق عليه وهو من يأخذ الصدقة أن يدعو للمُتَصَدِق أي : معطي الصدقة عند أخذ صدقته ، لكن ليس له أن يصلي عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال : « اللهم صلِّ على آل أبي أوفى » فإن ذلك منصبه ، فله أن يتفضل به على من يشاء ﴿ أَلا ﴾ كلمة تنبيه ﴿ إِنَّهَا ﴾ أي : النفقة المدلول عليها بما ينفق ، والتأنيث باعتبار الخير ﴿ قُرْبَةٌ ﴾ عظيمة ﴿ لَهُمْ ﴾ أي : سيقربهم الله بهذا الإنفاق إذا فعلوه وهو شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه من كون ما ينفقونه في سبيل الله سبب قربات وتصديق لرجائهم ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة رحمته الواسعة بهم ، والسين لتحقيق الوعد ، لأنها في الإثبات بمنزلة لن في النفي ، ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بهم لا يعجل لهم العقوبة ، واعلم أن فضل الصدقة والإنفاق لا يخفى على أحد ، حكي : أنه وقع القحط في بني إسرائيل ، فدخل فقير سكة من السكك وكان فيها بيت غني فقال : تصدقوا عليّ لأجل الله ، فأخرجت إليه بنت الغني خبزاً حاراً فاستقبله الغني ، فقال : من دفع إليك هذا الخبز ، فقال : ابنة من هذا البيت ، فدخل وقطع يد ابنته اليمنى ، فحول الله حاله فافتقر ومات فقيراً ، ثم إن شاباً غنياً استحسن الابنة لكونها حسناء فتزوجها وأدخلها داره فلما جنَّ الليل أحضرت مائدة فمدت اليد اليسرى فقال الغني : سمعت أن الفقراء يكونون قليلي الأدب ، فقال : مدي يدك اليمنى ، فمدت اليسرى ثانياً وثالثاً ، فهتف بالبيت هاتف اخرجي يدك اليمنى فالرب الذي أعطيت الخبز لأجله رد عليك يدك اليمنى ، فأخرجت يدها اليمنى بأمر الله تعالى وأكلت ، كذا في روضة العلماء ، ففي الحكاية أن من آتاه الله تعالى نعمة فلم يؤد شكرها عوقب بزوالها ، ألا ترى إلى بلعم لم يشكر نعمة الإسلام فقبضه الله على ملة الكفر ، فإن من طلب رضى الله تعالى في كل فعل وترك ، جبر الله كسره وإن الأكل باليسرى خلاف الأدب ، فإن الشيطان يأكل بيساره ، إلا أن يكون معذوراً بسبب من الأسباب.

---

(١) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه البخاري .

قيل : ما مُنع من حق إلا ذهب في باطل أضعافه ، قال علي رضي الله عنه : فرض الله في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما منع غني ، والله سائلهم عن ذلك ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ** ﴾ والمراد قدماء الصحابة وهم الذين سبقوا إلى الإيمان ، وصلّوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً ، وكان أول من أسلم خديجة رضي الله عنها وعليه الجمهور ﴿ **وَالأَنْصَارِ** ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة ومُصْعب بن عمير كما سيأتي ، وإنما مدح السابقين لأن السابق إمام للتالي ، والفضل للمتقدم ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ** ﴾ أي : ملتبسين به والمراد به كل خصلة حسنة ، وهم اللاحقوق بالسابقين من الفريقين ، وقيل المراد بهم جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار فإنهم سابقون إلى الإسلام بالنسبة إلى سائر المسلمين فمن بيانية ، والتابعون هم أهل الإيمان إلى يوم القيامة ﴿ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ** ﴾ أي : رضي عنهم بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ **وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ بما نالوا من نعمه الدينية والدنيوية ﴿ **وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ** ﴾ القراء يقرأون (**تَحْتَهَا الأَنْهَارُ**) في هذا الموضع بغير من ، إلا ابن كثير فإنه يقرأ (**مِنْ تَحْتِهَا**) كما هو في سائر المواضع ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ مقدراً خلودهم في تلك الجنات ﴿ **أَبَداً** ﴾ من غير انتهاء فهو لاستغراق المستقبل ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ إشارة إلى ما فهم من نيل الكرامة العظمى ﴿ **الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ الذي لا فوز وراءه .

﴿ **وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ** ﴾ خبر مقدم لقوله منافقون أي : حول بلدتكم يعني المدينة ﴿ **مِنَ الأَعْرَابِ** ﴾ من أهل البوادي وقد سبق الفرق بينه وبين العرب ﴿ **مُنَافِقُونَ** ﴾ وهم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ** ﴾ قوم ﴿ **مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ** ﴾ المرود على الشيء : التمرن عليه والمهارة فيه باعتياده ، والمدينة إذا أطلقت أريد بها دار الهجرة التي فيها بيت رسول الله ﷺ وقبره ولها أسماء كثيرة منها طابة وطيبة ، لطيبها بساكنيها ، أو لطيب عيشها فيها أو لكونها طاهرة التربة ، وفي الحديث : « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »[1] ، ﴿ **لا تَعْلَمُهُمْ** ﴾ أي : بلغوا من المهارة في النفاق إلى حيث خفي نفاقهم عليك ، مع كمال فطنتك وقوة فراستك ، فالمراد لا تعرف حالهم ونفاقهم ﴿ **نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾ منافقين ونُطْلعكَ على أسرارهم ، إن قدروا أن يلبسوا عليك لم يقدروا أن يلبسوا علينا ﴿ **سَنُعَذِّبُهُمْ** ﴾ السين للتأكيد ﴿ **مَرَّتَيْنِ** ﴾ يجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير كما في قوله تعالى (**فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ**) أي : كرة بعد أخرى ﴿ **ثُمَّ يُرَدُّونَ** ﴾ يوم القيامة ﴿ **إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ** ﴾ هو عذاب النار . ﴿ **وَآخَرُونَ** ﴾ أي : ومن أهل المدينة قوم آخرون

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم .

﴿ **اعْتَرَفُوا** ﴾ أقروا ﴿ **بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ التي هي تخلفهم عن الغزو وإيثار الدعة عليه والرضى بسوء جوار المنافقين وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد عندما بلغهم ما نزل في المتخلفين ، فقدم رسول الله ﷺ من سفره فدخل المسجد أولاً فصلى ركعتين حسب عادته الكريمة ورآهم كذلك ، فسأل عن شأنهم ؟ فقالوا : هؤلاء تخلفوا عنك فعاهدوا الله وأقسموا أن لا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقهم فنزلت ، فأطلقهم وأعذرهم ﴿ **خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً** ﴾ هو ما سبق منهم من الأعمال الصالحة والخروج إلى المغازي السابقة وما لحق من الاعتراف بذنوبهم في التخلف عن هذه المرة وتذمهم وندامتهم على ذلك ﴿ **وَآخَرَ سَيِّئاً** ﴾ هو ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولاً وآخراً فيدخل فيه التخلف عن غزوة تبوك . قال الحدادي : خرجوا إلى الجهاد مرة وتخلفوا مرة ، فجمعوا بين العمل الصالح والعمل السيء ، كما يقال خلط الدنانير والدراهم أي : جمعها وخلط الماء واللبن أي : أحدهما بآخر ﴿ **عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أن يقبل توبتهم المفهومة من اعترافهم بذنوبهم ﴿ **إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ يتجاوز عن سيئات التائب ويتفضل عليه وهو تعليل لما يفيده كلمة عسى من وجوب القبول فإنها للإطماع الذي هو من أكرم الأكرمين إيجاب وأي إيجاب .

﴿ **خُذْ** ﴾ يا محمد ﴿ **مِنْ أَمْوَالِهِمْ** ﴾ أي : من أموال هؤلاء المتخلفين المعترفين بذنوبهم ﴿ **صَدَقَةً** ﴾ حال كونك ﴿ **تُطَهِّرُهُمْ** ﴾ أي : عما تلطخوا به من أوضار التخلف ﴿ **وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** ﴾ أي : تنمي بتلك الصدقة وأخذها حسناتهم ، وترفعهم إلى مراتب المخلصين ، روي : أنه لما حلَّهم النبي عليه الصلاة والسلام من وثاقهم وتاب الله عليهم ، راحوا إلى منازلهم وجاؤا بأموالهم كلها وقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا خلفتنا عنك ، خذها صدقة بها عنا ، فكره النبي عليه الصلاة والسلام ذلك ، فنزلت هذه الآية فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم لتكمل به توبتهم ، ويكون جارياً مجرى الكفارة لتخلفهم ، فهذه الصدقة ليست الصدقة المفروضة فإنها لا تؤخذ هكذا ، وقيل : هذا كلام مبتدأ نزل لإيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء عليه ، والمعنى : خذ من أموال أغنياء المسلمين صدقة أي : زكاة وسميت بها لدلالتها على صدق العبد في العبودية ، ومن امتنع عن أداء الزكاة أخذها الإمام كرهاً ووضعها موضعها لقوله تعالى (**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً**) ، ﴿ **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي : ادع لهم بالخير والبركة واستغفر لهم ﴿ **إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم ﴿ **واللهُ سَمِيعٌ** ﴾ باعترافهم ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بندامتهم ، والصلاة على الميت مشروعة بقوله تعالى (**وَصَلِّ عَلَيهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ**) ولو اختلط موتى المسلمين وموتى الكفار ، فمن كانت عليه علامة المسلمين صُلِّي عليه ، ومن كانت عليه علامة الكفار ترك .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ الاستفهام للتقرير أي : ألم يعلم أولئك التائبون ﴿ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ﴾ الصحيحة الخالصة ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ المخلصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم ﴿ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ أي : جنس الصدقات صدقاتهم وصدقات غيرهم ، أراد به أخذ النبي عليه الصلاة والسلام والأئمة بعده ، لأن أخذهم لا يكون إلا بأمر الله تعالى ، وكأن الله هو الآخذ . قال البيضاوي : يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله ففيه استعارة تبعية لأن الآخذ حقيقة هو الرسول عليه الصلاة والسلام لا من عيَّنه لأخذها ، ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ أي : المتجاوز عمن تاب ، وهو الذي يرجع بالإنعام على كل مذنب رجع إلى التزام الطاعة ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ ورحمة الله على العباد إرادة الإنعام عليهم ، فالآيةُ إذاً ترغيب للعصاة في التوبة والصدقة ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ ما شئتم من الأعمال ، فظاهره ترخيص وتخيير ، وباطنه ترغيب وترهيب ﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فإنه لا يخفى عليه شيءٌ ، خيراً كان أو شراً ، تعليل لما قبله وتأكيد للترغيب والترهيب والسين للتأكيد ﴿ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ والمعنى أنه تعالى لا يخفى عليه عملهم كما رأيتم وتبين لكم ﴿ وَسَتُرَدُّونَ ﴾ أي : بعد الموت ﴿ إِلَىٰ عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ قدم الغيب على الشهادة لسعة عالمه وزيادة خطره ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ عقيب الرد ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قبل ذلك في الدنيا ، والمراد بالتنبئة الإظهار لما بينهما من الملابسة ، أي : يظهر لهم على رؤس الأشهاد ، أي : شيء شنيع كانوا يعملونه في الدنيا ، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء انتهى ، فعلى العاقل أن يسعى في طريق الأعمال الصالحة ويجتنب عن ارتكاب الأفعال الفاضحة كيلا يفتتضح عند الله وعند الرسول وكافة المؤمنين . قال في التأويلات النجمية أن لعمل المحسن وخلوصه نوراً يصعد إلى السموات بقدر قوة صدقه وإخلاصه ، فالله تعالى يراه بنور ألوهيته وروح الرسول عليه الصلاة والسلام يراه بنور نبوته وأرواح المؤمنين يرونه بنور إيمانهم فاستعلاء ذلك بصفائه وضوئه يكون على قدر علو همة المحسن وخلوص نيته وصفاء طويته .

﴿ وَآخَرُونَ ﴾ أي : ومن المتخلفين من أهل المدينة ومن حولها من الأعراب قوم آخرون غير المعترفين المذكورين ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ يقال : أرجيته وأرجأتهُ بالياء والهمزة إذا أخرته ، والمعنى : مؤخرون ﴿ لأَمْرِ اللهِ ﴾ في شأنهم ، أي : حتى ينزل الله فيهم ما يريد ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ إن بقوا على ما هم عليه من عدم المسارعة إلى التوبة والاعتذار ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ إن خلصت نيتهم وصحت توبتهم ، وإذا كانت إما للشك جاز أن يليها الاسم وجاز أن يليها الفعل ، فإن كانت للتخيير وقع الفعل بعدها وكانت معه إن كقوله تعالى (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ) ، ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما فعل بهم من الإرجاء وغيره ، والآية نزلت في ثلاثة نفر من المتخلفين وهم « كعب بن مالك » و« مرارة بن الربيع

العمري » و« هلال بن أمية » كانوا من أهل بدر وتخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . قال كعب ابن مالك : أنا أفره أهل المدينة جملاً فمتى شئت لحقت العسكر ، فتأخر أياماً وأيس بعدها من اللحوق بهم فندم على ما صنعه ، وكذلك صاحباه ولكن لم يفعلوا ما فعله أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري ، وإظهار الغم والجزع ، فوقفهم رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية ونهى الناس أن يجالسوهم أو يؤاكلوهم أو يشاربوهم ، وأمرهم باعتزال نسائهم ، وإرسالهن إلى أهليهن ، فجاءت امرأة هلال تسأل أن تأتيه بطعامه فإنه شيخ كبير ، فأذن لها ﷺ في ذلك خاصة ، وجاء رسول من الشام إلى كعب يرغبّه في اللحاق بهم ، فقال كعب : بلغ من خطيئتي إلى أن طمع فيَّ المشركون ، قال : فضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، وبكى هلال بن أمية حتى خيف على بصره فجعل ناس يقولون : هلكوا إن لم ينزل الله لهم عذراً ، وآخرون يقولون : عسى الله أن يغفر لهم فصاروا عندهم مرجئين لأمر الله تعالى ، إما يعذبهم وإما يرحمهم حتى نزلت توبتهم بعدما مضى خمسون يوماً بقوله تعالى (**لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَبِيِّ**) إلى قوله (**وَعَلَىٰ الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**) الآية ، أخر الله تعالى أمرهم مدة ، ثم بيَّن توبتهم على أجمل الوجوه ، حيث قرن توبتهم بتوبته تعالى على النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ، وعلم منه أن الهجران للتربية جائز ولو فوق ثلاثة أيام ، ألا ترى إلى الأصحاب كيف قطعوا سلامهم وكلامهم من أولئك الثلاثة إلى أن بلغ الكتاب أجله ، وأن إخلاص النية وتفويض الأمور إلى الله تعالى سبب لرحمة الله تعالى ، وأن البكاء أيضاً مدار لقبول التوبة وإخلاص الحال ، فلابد من الاستغفار والبكاء على الأوزار .

﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً** ﴾ أي : ومن المتخلفين عن غزوة تبوك ، المنافقون الذين اتخذوا مسجد « قُبا » وهو بضم القاف ، وكان أول مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ بأصحابه جماعة آمنين ، وكان يأتيه يوم السبت ماشياً وراكباً ويصلي فيه ثم ينصرف ، وفي الحديث : « من توضأ وأسبغ الوضوء ثم جاء مسجد قبا فصلى فيه ، كان له أجر عمرة »[1] ، وفي الحديث أيضاً : « من بنى مسجداً لا يريد به رياء ولا سمعة بنى الله له بيتاً في الجنة »[2] ، قال القرطبي : هذه المسألة ليست على ظاهرها من كل الوجوه وإنما معناه بنى له بثوابه بناء أشرف وأعظم وأرفع ، لأن أجور الأعمال متضاعفة وأن الحسنة بعشر أمثالها ، وهذا كما قال في التمرة إنها تزاد حتى تكون مثل الجبل ، ولكن هذا التضعيف إنما هو بحسب ما يقترن بالفعل من الإخلاص ، فإن بنى على غير الإخلاص ، فلا ثواب له ولا يعبأ الله به ، وإن كان ظاهر الشرع له حكم المساجد من الاحترام والتعظيم وغير ذلك .

---

(١) الحديث أخرجه النسائي ورواه الترمذي قريباً منه.

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي بلفظ (من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله ، بنى الله له بيتاً في الجنة) وانظر جامع الأصول ١١ / ١٨٦ وأخرجه أحمد والنسائي قريباً من اللفظ.

وهل يُمَكَّن الكافر من بناء المسجد ؟ فذهب بعضهم إلى أن الصحيح جوازه لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وقال الواحدي عند قوله تعالى (**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ**) دلت الآية على أن الكفار ممنوعون من عمارة مسجد المسلمين ، ولو أوصى لم تقبل وصيته ، انتهى . قال سعدي جلبي : المفتى به عدم قبول وصيته وهو أمر مجمع عليه بين أصحابنا انتهى . ولا يصير الكافر ببناء المسجد مسلماً وإن عظمه حتى يأتي بالشهادتين ، بخلاف المسلم إذا أتى كنيسة واعتقد تعظيمها فإنه يكفر ، لأن الكفر يحصل بمجرد النية ، والإسلام لا يحصل إلا بالتلفظ بالشهادتين ، ثم نرجع ونقول : إن بني عمرو بن عوف لما بنوا ذلك المسجد ، حسدتهم اخوتهم بنو غنم بن عوف ، فبنوا مسجداً آخر في قبا على قصد الفساد وتفريق جماعة المؤمنين ، وأن يؤمهم فيه « أبو عامر الراهب » إذا قدم من الشام .

ولما انتهى بناؤه كانوا يجتمعون فيه فيتحدثون بما فيه إيذاء للنبي والمؤمنين ، ثم طلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم فيصلي فيه ، فقال لهم ﷺ : « إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا لأتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما رجع من تبوك أتوه فسألوه إتيان مسجدهم ، فدعا عليه الصلاة والسلام بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً** ﴾ مفعول لأجله أي : مضارة للمؤمنين ﴿ **وَكُفْراً** ﴾ وتقوية للكفر الذي يضمرونه ﴿ **وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الذين كانوا يجتمعون في مسجد قباء ، فإنهم أرادوا ببنائهم المسجد صرف بعض الجماعة إليه ، وتفريق كلمة المؤمنين ﴿ **وَإِرْصَاداً** ﴾ أي : ترقباً وانتظاراً ﴿ **لِمَن حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي : من قبل اتخاذ هذا المسجد وهو « أبو عامر الراهب » أي : لأجله حتى يجيء فيصلي فيه ويظهر على رسول الله ﴿ **وَلَيَحْلِفُنَّ** ﴾ أي والله ليحلفن ﴿ **إِنْ** ﴾ نافية ﴿ **أَرَدْنَا** ﴾ أي : ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿ **إِلا الْحُسْنَىٰ** ﴾ إلا الخصلة الحسنى ، وهي الصلاة وذكر الله ، والتوسعة على المصلين ﴿ **وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ في حلفهم ذلك ، ولما نزلت هذه الآية وأعلمه الله بخبرهم وما هموا به ، دعا رسول الله وحشياً ـ قاتل حمزة ـ وجماعة معه فقال لهم : « إنطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه[1] » فخرجوا سراعاً ، وأخذوا سعفاً من النخل وأشعلوا فيه النار ، وذلك بين المغرب والعشاء وهدموه إلى الأرض ، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتخذ كناسة يلقى فيها القمامة والجيف ، ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً وذلك أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة ، أقبل إليه أبو عامر فقال : ما هذا الذي جئت به ؟ قال : « جئت بالحنيفية دين إبراهيم » قال أبو عامر : وأنا عليها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنك لست عليها »

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في قصة طويلة في الجهاد برقم / ٣٠٦٢ / وأخرجه مسلم وابن ماجه وأحمد ٣ / ٣٠٩ .

قال : بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس فيها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما فعلت ذلك ولكن جئت بها بيضاء نقية » فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « آمين » فسماه أبو عامر الفاسق مكان الراهب ، فمات كافراً بقنسرين ، اسم بلدة في الشام ، ومع هذه الخيانة كان له ولد صالح يقال له أبو حنظلة استشهد يوم أحد فغسلته الملائكة عليهم السلام ، ﴿ **لا تَقُمْ** ﴾ يا محمد للصلاة ﴿ **فِيهِ** ﴾ أي : في مسجد هؤلاء المنافقين ﴿ **أَبَداً** ﴾ أي : لا تصلّ فيه ، عبر بالقيام عن الصلاة كما في قولهم فلان يقوم الليل ومنه الحديث الصحيح : « من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[1] ، ﴿ **لَمَسْجِدٌ** ﴾ مسجد قباء ، واللام للابتداء أو القسم ﴿ **أُسِّسَ** ﴾ التأسيس : إحكام البناء ، يعني أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء ﴿ **عَلَى التَّقْوَىٰ** ﴾ أي : بنيت حدوده ورفعت قواعده على طاعة الله ﴿ **مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ** ﴾ من أيام وجوده وتأسيسه ، ويقال : أراد بالمسجد مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة ، والأول أشهر وأوفق للقصة ، إذ المسجد بقبا فالموازنة بينهما أولى من الموازنة بين ما بقبا وما بالمدينة ، قال الحدادي : لا يمتنع أن يكون المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى كلا المسجدين مسجد النبي عليه الصلاة والسلام ومسجد قبا ﴿ **أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** ﴾ أي أولى أن تصلي فيه ، ﴿ **فِيهِ** ﴾ أي : في المسجد المؤسس على التقوى ﴿ **رِجَالٌ** ﴾ يعني الأنصار ﴿ **يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا** ﴾ من الأنجاس والأخباث مطلقاً بدنية كانت أو عملية ، كالمعاصي والخصال الذميمة ﴿ **وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ أي : يحب المتطهرين ويدنيهم من جنابه إدناء المحب لحبيبه ، روي : أن هذه الآية لما نزلت مشى رسول الله ﷺ ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قبا ، فجلس ثم قال : « يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ؟ » فقالوا : نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء ، فتلا الآية (**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**)[2] وأول من استنجى بالماء إبراهيم عليه السلام والاستنجاء بثلاثة أمداد ، فإن لم يجد فبالأحجار ، والمقصود التنقية فلو حصل بالواحد كفاه ، وإذا لم يحصل بالثلاثة زاد ، وكان الأنصار يتبعون الماء أثر البول أيضاً .

﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ** ﴾ همزة الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر ، والتأسيس : إحكام أسّ البناء وهو أصله ، والبنيان مصدر كالغفران أريد به المفعول أي : المبنيّ ، والمعنى أبعد ما علم حالهم فمن أسس بنيان مسجده ، ﴿ **عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ** ﴾ المراد بالتقوى : هي التقوى عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ﴿ **وَرِضْوَانٍ** ﴾ وطلب مرضاته بالاشتغال بالطاعة ﴿ **خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ** ﴾

(١) أخرجه الشيخان في صحيحها .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٠٢ .

والمعنى : أي الفريقين خير وأحق بالمصاحبة والصلاة معهم ؟ من أسس بناء مسجده مريداً به تقوى الله وطاعته وهم أهل مسجد قبا ، أم من أسس بنيان مسجده على النفاق والكفر وتفريق المؤمنين ، وتوهين أمر الدين ؟ ﴿ **عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ** ﴾ شفا الشيء : طرفه وشفيره ، والجُرُفُ : بالضم الأرض التي جرفت السيول أصلها أي : حفرته ، والهاري : المتصدع المشرف على السقوط ، ﴿ **فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ** ﴾ يقال : هارَ البناءَ : هدمه فانهار ، أي : تساقط بنيانه وتناثر به أي : بصاحبه في النار ، قال جابر : رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار ، قال الحدادي : كما أن من بنى على جانب نهر صفته ما ذكرنا ، انْهَارَ بناؤه في الماء ، فكذلك بناء أهل النفاق مسجد الشقاق كبناء على جرف جهنم يهور بأهله فيها ﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي : لا يرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وصلاحهم ، والظلم في الحقيقة وضع عبادة الدنيا ومحبتها والحرص في طلبها ، في موضع عبادة الله تعالى ومحبته والصدق في طلبه ﴿ **لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا** ﴾ البنيان : مصدر أريد به المفعول ، أي : لا يزال مسجدهم ذلك مبنياً ومهدوماً ﴿ **رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ أي : سبب ريبة وشك في الدين ، كأنه نفس الريبة ، ﴿ **إِلا أَنْ تَقَطَّعَ** ﴾ بحذف إحدى التائين أي : إلا أن تتقطع ﴿ **قُلُوبُهُمْ** ﴾ قطعاً وتتفرق أجزاء بحيث لا يبقى لها قابلية إدراك ، أي : لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت من الأوقات ، إلا وقت تقطع قلوبهم فحينئذ يسلون عنها ، وأما ما دامت سالمة فالريبة باقية فيها ، فهو تصوير لامتناع زوال الريبة عن قلوبهم إلى الموت ، ﴿ **وَاللَّهُ عَلِيمٌ** ﴾ عالمٌ بما يشرع ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ فيما حكم وأمر من هدم مسجدهم ، وإظهار نفاقهم ، واعلم أن في الآية فوائد منها : أن من كانت شقاوته أصلية أزلية فهو لا يزداد بما ابتلاه الله تعالى به إلا ضلالاً وغيظاً وإنكاراً . ومنها أن رسول الله ﷺ لم يزل يذب الناس عن النار وعن الوقوع فيها ولذا هدم مسجد الضرار إذ لو تركه على حاله لعاد الضرر على العامة بنزول البلية ، وفي الحديث : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس وأنظر إلى أقوام يتخلفون عن الجماعة فأحرق بيوتهم »[1] ، وهذا يدل على جواز إحراق بيت الذي يتخلف عن الجماعة ، فإذا علم جواز إحراق البيت على تركه السنّة المؤكدة ، فما ظنك في إحراق البيت على ترك الواجب والفرض ؟ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ** ﴾ روي : أن الأنصار لما بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً ، قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : « اشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قال : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال ﷺ : « الجنة » قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، أي : لا نفسخه ولا ننقضه فنزلت : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وللحديث طرق عديدة ، وروي في صحيح مسلم بلفظ : « يتخلفون عن الجمعة » وانظر جامع الأصول ٥ / ٥٦٦ .

لا من المنافقين والكافرين ، فإنهم غير مستعدين لهذه المبايعة ، قال الحسن : اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن ، والله ما على وجه الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة ، ﴿ **أَنْفُسَهُمْ** ﴾ المراد بالنفس : هو البدن الذي هو الآلة في اكتساب الكمالات للروح المجرد الإنساني ﴿ **وَأَمْوَالَهُمْ** ﴾ والمال الذي هو وسية إلى رعاية مصالح هذا المركب ﴿ **بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ أي : باستحقاقهم الجنة في مقابلتها ، فإن قيل : كيف يشتري أحد ملكه بملكه والعبد وماله لمولاه ؟ قيل : إنما ذكر على وجه التحريض في الغزو ، ففيه تلطف للمؤمنين في الدعاء إلى الطاعة البدنية والمالية ، وتأكيد للجزاء كما قال تعالى : (**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**) فذكر الصدقة بلفظ القرض للتحريض على ذلك والترغيب فيه ، إذ القرض يوجب رد المثل لا محالة ، وكأن الله تعالى عامل عباده معاملة من هو غير مالك ، فالله تعالى بمنزلة المشتري ، والمؤمن بمنزلة البائع ، وبدنه وأمواله بمنزلة المبيع الذي هو العمدة في العقد ، والجنة بمنزلة الثمن الذي هو الوسيلة ، وعن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه كان يقول : يا ابن آدم اعرف قدر نفسك ، فإن الله لَمَّا عرف قدرك لم يرض أن يكون لك ثمن غير الجنة .

﴿ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ استئناف لبيان البيع المذكور ، كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ؟ فقيل : يقاتلون في سبيل الله ، وهو بذل منهم لأنفسهم وأموالهم ، وتعريض لهما للهلاك في طاعة الله ﴿ **فَيَقْتُلُونَ** ﴾ فهم الغزاة فلهم الجنة ﴿ **وَيُقْتَلُونَ** ﴾ فهم الشهداء فلهم الجنة ، وإنما يستحق البائع تسليم الثمن إليه بتسليم المبيع ، وأنشد أبو علي الكوفي :

من يشتري قُبَّةً في عَدْنَ عاليةً * في ظلِّ طُوْبى رفيعاتٌ مبانيها
دَلالُهَا المُصْطَفَى ، وَاللهُ بَائِعُهَا * مِمَّنْ أَرَادَ ، وَجِبْرِيلٌ مُنَادِيهَا

﴿ **وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً** ﴾ وعداً حقاً أي : ثابتاً مستقراً عليه تعالى ، ﴿ **فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ** ﴾ أي : وعداً مثبتاً مذكوراً في التوراة والإنجيل ، كما هو مثبت مذكور في القرآن ، يعني أن الوعد بالجنة للمقاتلين في سبيل الله من هذه الأمة مذكور في كتب الله المنزلة ، ﴿ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ** ﴾ من استفهام بمعنى الإنكار ، أي لا يكون أحد وافياً بالوعد والعهد وفاء الله بعهده ووعده ، لأنه تعالى قادر على الوفاء وغيره عاجز عنه ، ﴿ **فَاسْتَبْشِرُوا** ﴾ الاستبشارُ : إظهار السرور ، أي : فإذا كان كذلك فسرُّوا نهاية السرور ، وافرحوا غاية الفرح ، بما فزتم به من الجنة ﴿ **بِبَيْعِكُمْ** ﴾ قال الحدادي : ببيعكم أنفسكم من الله ، فإنه لا مشتري أرفع من الله ، ولا ثمن أعلى من الجنة ، وقوله تعالى ﴿ **الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ** ﴾ لزيادة تقرير بيعهم ، فإنه بيع للفاني بالباقي ، ولأن كلا البدلين له سبحانه وتعالى ﴿ **وَذٰلِكَ** ﴾ أي : الجنة التي جعلت ثمناً بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم ﴿ **هُوَ الْفَوْزُ**

﴿ **العَظِيمُ** ﴾ الذي لا فوز أعظم منه ، لأنه نيل الجنة الباقية بالنفس الفانية ، واعلم أن الخلق كلهم ملك الله وعبيده ، وأن الله يفعل في ملكه وعبيده ما يريد ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ومع هذا فقد اشترى من المؤمنين أنفسهم لنفاستها لديه إحساناً منه ، ثم اعلم أن الأجل محكوم ومحتوم ، وأن الرزق مقسوم ومعلوم ، وأن كل نفس ذائقة الموت ، وأن الجنة تحت ظلال السيوف ، وأن الشهداء حقاً عند الله من الأحياء ، وأن أرواحهم في جوف طيور خضر تتبوأ من الجنة حيث تشاء ، وأن الشهيد يغفر له جميع ذنوبه وخطاياه ، وأنه يشفع في سبعين من أهل بيته وأولاده ، وأنه آمن يوم القيامة من الفزع الأكبر ، وأنه لا يجد كرب الموت ولا هول الحشر ، وأنه لا يحسُّ بألم القتل ، ولله در القائل :

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها * يمسي ويصبح مغروراً وغراراً
هلا تركت من الدنيا معانقة * حتى تعانق في الفردوس أبكاراً
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها * فينبغي لك أن لا تأمن النارا

﴿ **التَّائِبُونَ** ﴾ المراد : التائبون عن الشرك والنفاق وكل معصية صغيرة كانت أو كبيرة ، وأصل التوبة الرجوع ، وهي واجبة على الفور ، ويتقدمها معرفة الذنب المرجوع عنه أنه ذنب ، وعلامة قبولها أربعة أشياء : أن ينقطع عن الفاسقين ، ويتصل بالصالحين ، وأن يقبل على الطاعات ، إذ الرجوع إذا صح من القلب ترى الأعضاء تنقاد لما خلقت له ، كالشجرة إذا صلح أصلها أثمر فرعها ، وأن يذهب عنه فرح الدنيا ، ﴿ **العَابِدُونَ** ﴾ الذين عبدوا الله تعالى مخلصين له . والعبادة عبارة عن الإتيان بفعل يشعر بتعظيم الله تعالى ، ﴿ **الحَامِدُونَ** ﴾ أي : المثنون عليه بآلاءه ، الشاكرون له على نعمائه ، المادحون له بصفاته وأسمائه ، ومما ينبغي أن يعلم أنَّ التوفيق للتوحيد نعمة عظيمة من الله تعالى ، فليقل المؤمن دائماً : « الحمد لله على دين الإسلام وتوفيق الإيمان » قال مجاهد في تفسير قوله تعالى ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ يعني : بالشاكرين على التوحيد ﴿ **السَّائِحُونَ** ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : كل ما ذكر في القرآن من السياحة فهو الصيام ، وفي الحديث : « سياحة أمتي الصوم » ، قال الشاعر :

تراه يصلي ليله ، ونهاره * يظل كثير الذكر لله سائحاً

أي : صائماً وشبه الصوم بالسياحة لأنه عائق عن الشهوات ، كالسائح لا يتوسع في استيفاء ما يميل إليه طبعه ، لأن الصوم رياضة نفسانية يتوسل بها إلى العثور على خفايا الملك والملكوت ، كما أن السائح يصل إلى ما لم يعرفه ولم يره ، وقال عطاء : المراد الغزاة في سبيل الله ، يقطعون المنازل والمراحل ، إلى أن يصلوا إلى ديار الكفرة فيجاهدوهم ، وقال عكرمة : هم طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى بلد ، ورحل

جابر رضي الله عنه من المدينة إلى مصر لحديث واحد ، ولذا لا يعد أحد كاملاً إلا بعد رحلته ، ولا يصل إلى مقصوده إلا بعد هجرته ، ﴿ **الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ** ﴾ في الصلاة وإنما كنى بالركوع والسجود عن الصلاة ، لكون جهة العبادة أظهر فيهما بالنسبة إلى باقي أركان الصلاة ، فإن هيئتي القيام والقعود قد يؤتى بهما على وفق العادة ، بخلاف الركوع والسجود فإنهما ليسا من الهيئات الطبيعية الموافقة للعادة ، فلا يؤتى بهما إلا على سبيل العبادة ، فكان لهما مزيد اختصاص بالصلاة ، ﴿ **الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ أي : بالإيمان والطاعة ﴿ **وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ﴾ أي : عن الشرك والمعاصي ، وقال الحدادي : المعروف هو السنّة ، والمنكر هو البدعة ، قال ابن مالك في قوله عليه الصلاة والسلام : « وكل بدعة ضلالة » يعني كل خصلة جديدة أتى بها ولم يفعلها النبي عليه الصلاة والسلام ضلالة ، لأن الضلالة ترك الطريق المستقيم ، والذهاب إلى غيره ، والطريق المستقيم الشريعة ، خص من هذا الحكم البدعة الحسنة ، كما قال عمر رضي الله عنه في التراويح : « نعمت البدعة » قال العلماء : البدع خمس : واجبة كنظم الدلائل لرد شبه الملاحدة وغيرهم ، ومندوبة كتصنيف الكتب وبناء المدارس ونحوها ، ومباحة كالتوسع في ألوان الأطعمة وغيرها ، ومكروهة ، وحرام وهما ظاهران ، انتهى .

﴿ **وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ** ﴾ أي : فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع عملاً وحملاً للناس عليه ، ثم إنه لما كانت التكاليف الشرعية غير منحصرة فيما ذكر ، بل لها أصناف وأقسام كثيرة ، لا يمكن تفصيلها وتبيينها إلا في مجلدات ، ذكر الله تعالى سائر أقسام التكاليف على سبيل الإجمال بقوله (**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ**) لأن أفعال المكلفين قسمان : أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب ، وكتب الفقه مشتملة على شرح أقسام التكاليف المتعلقة بأعمال الجوارح ، وأما التكاليف المتعلقة بأعمال القلوب فليس في كتبهم منها إلا قليل نادر ، وبعض مباحثها مدون في الكتب الكلامية ، والبعض الآخر منها فصّله الإمام الغزالي وأمثاله في علم الأخلاق ، ومجموعها مندرج في قوله تعالى (**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ**) قال الحدادي : وهذه الصفة من أتم ما يكون من المبالغة في وصف العباد بطاعة الله والقيام بأوامره والانتهاء عن زواجره ، لأن الله تعالى بين حدوده في الأمر والنهي وفيما ندب إليه ، فرغب إليه أو خيّر فيه وبين ما هو الأولى في مجرى موافقة الله تعالى فإذا قام العبد بفرائض الله تعالى وانتهى إلى ما أراد الله منه ، كان من الحافظين لحدود الله ، كما روي عن خلف بن أيوب أنه أمر امرأته أن تمسك عن إرضاع ولده في بعض الليل ، وقال : قد تمت له السنتان ، فقيل له لو تركتها حتى ترضعه هذه الليلة ؟ قال فأين قوله تعالى (**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ**) ؟ ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ يعني : هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل ، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك ، وحذف المبشر به للتعظيم ، كأنه قيل :

وبشّرهم بما يجلُّ عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : ما صح لهم وما استقام في حكم الله تعالى وحكمته ﴿ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا ﴾ أي : يطلبوا المغفرة ﴿ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ به سبحانه ﴿ وَلَوْ كَانُوا ﴾ أي : المشركون ﴿ أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ أي : ذوي قرابة لهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ أي : ظهر للنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي : المشركين ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أي : أهل النار بأن ماتوا على الكفر ، أو نزل الوحي بأنهم يموتون على ذلك ، روي : أنه لما مرض أبو طالب ، وبلغ قريشاً اشتداد مرضه قال بعضهم لبعض إن حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منه فإنا والله نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا قتل محمد فتعيرنا العرب ، ويقولون : تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه فمشى إليه أشرافهم منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأمية بن خلف وأبو سفيان ، فأرسلوا رجلاً فاستأذن لهم على أبي طالب ، فقال : هؤلاء أشراف قومك يستأذنون عليك ، قال : أدخلهم فدخلوا عليه ، فقالوا : يا أبا طالب ، أنت سيدنا وكبيرنا وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه ليدعنا وديننا وندعه ودينه ، فبعث إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أبو طالب ، فجاء ولما دخل عليه الصلاة والسلام على أبي طالب وكان بين أبي طالب وبين القوم فرجة تسع الجالس ، فخشي أبو جهل أن يجلس النبي عليه الصلاة والسلام في تلك الفرجة فيكون أرقى منه وثب لعنه الله فجلس فيها فلم يجد عليه الصلاة والسلام مجلساً قريباً إلى أبي طالب فجلس عند الباب ، فقال أبو طالب لرسول الله عليه الصلاة والسلام : يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك أعطهم ما سألوك فقد أنصفوك ، سألوا أن تكف عن شتم آلهتهم وَيَدَعُوك وإلهك . فقال عليه الصلاة والسلام : « أرأيتكم إن أعطيتكم ما سألتم ، فهل تعطونني كلمة واحدة تملكون بها العرب ويدين لكم بها العجم ؟ » فقال أبو جهل : نعطيكها وعشراً معها فما هي ، قال ﷺ : تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : سلنا يا محمد غير هذه الكلمة ، ثم قال بعضهم لبعض : والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون فامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا وعند ذلك قال عليه الصلاة والسلام : أي عم فأنت قلها أشهد لك بها عند الله » فقال : والله يا ابن أخي لولا مخافة العار عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها خوفاً من الموت لقلتها ، فلما أبى كلمة التوحيد قال عليه الصلاة والسلام : « لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه ؟ » وذلك لأنه كان يحفظه عليه الصلاة والسلام وينصره ، فبقي عليه الصلاة والسلام يستغفر لأبي طالب إلى وقت نزول هذه الآية . ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ بقوله (وَاغْفِرْ لِأَبِي) أي : بأن توفقه للإيمان وتهديه إليه ﴿ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ ﴾ أي : لم يكن استغفاره لأبيه آزر ناشئاً عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة ﴿ وَعَدَهَا ﴾ إبراهيم ﴿ إِيَّاهُ ﴾ أي :

إياه بقوله (**سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي**) بناء على رجاء إيمانه ، لعدم تبين حقيقة أمره ﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ** ﴾ أي : لإبراهيم بأن أوحى إليه أنه مصر على الكفر غير مؤمن أبداً ﴿ **أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ** ﴾ فإن وصفه بالعداوة مما يأباه حالة الموت ﴿ **تَبَرَّأَ مِنْهُ** ﴾ أي : تنزه عن الاستغفار وتجانب كل التجانب ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ** ﴾ لكثير التأوه ، وهو أن يقول الرجل عند التضجر والتوجع آه من كذا ، والأواه الخاشع المتضرع ، والمعنى : إنه مترحم متعطف ، ولفرط رحمته ورأفته كان يتعطف لأبيه الكافر ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ صبور على الأذية ولذلك كان يحلم على أبيه ، ويتحمل أذاه ويستغفر له مع صعوبة خلقه وغلظ قلبه ، ثم إن رسول الله ﷺ لما استغفر لعمه وهو مشرك ، كما استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك ثم نهي عن الاستغفار للكافر ، نزلت هذه الآية لبيان عذر من استغفر لأسلافه المشركين قبل المنع عنه وهو قوله تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً** ﴾ أي : ليس من عادته أن يصفهم بالضلال ويجري عليهم أحكامه ﴿ **بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ** ﴾ للإسلام ﴿ **حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ بالوحي صريحاً أو دلالة ﴿ **مَا يَتَّقُونَ** ﴾ أي : يجب اتقاؤه من محظورات الدين ، وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدر عنهم ضلالاً ولا يؤاخذون به ، وفيه دليل على أن العاقل غير مكلف بما لا يستبد بمعرفته العقل ﴿ **إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ أي : إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، التي من جملتها حاجتهم إلى بيان قبح ما لا يستقل العقل بمعرفته ، فبين لهم ذلك كما فعل ههنا ﴿ **إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ من غير شريك له فيه ﴿ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ أي : يحيي الأموات ويميت الأحياء ، أي : يوجد الحياة والموت في الأرض والأجساد وقلوب الأمم ﴿ **وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ متجاوزين ولايته ونصرته ﴿ **مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ لما منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى ، بيَّن لهم أن الله مالك كل موجود ومتولي أمره ، والغالب عليه ، ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصرة إلا منه تعالى ، ليتوجهوا إليه ويتبرأوا مما عداه ، حتى لا يبقى لهم مقصود فيما يأتون ويذرون سواه .

قال في السيرة الحلبية : منع الاستغفار لأمه عليه الصلاة والسلام إنما يأتي على القول بأن من بدل دينه أو غيره أو عبد الأصنام من أهل الفترة معذب وهو قول ضعيف مبني على وجوب الإيمان والتوحيد بالعقل ، والذي عليه أكثر أهل السنّة والجماعة أن لا يجب ذلك إلا بإرسال الرسل ، ومن المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل عليه السلام ، وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته كبقية الرسل ، لأن ثبوت الرسالة بعد الموت من خصائص نبينا ﷺ ، وأن أهل الفترة من العرب لا تعذيب عليهم وإن غيروا أو بدلوا أو عبدوا الأصنام ، والأحاديث الواردة بتعذيب من ذُكِرَ أو من بدل أو غير أو عبد الأصنام مؤولة أو خرجت مخرج الزجر للحمل على الإسلام . وأما أمُّ النبي ﷺ وأبوه فقد ذهب الجمهور

إلى نجاتها لأنها من أهل الفترة والله تعالى يقول ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وأهل الفترة لم يأتهم رسول[١] ..

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَبِيِّ ﴾ قال ابن عباس : هو عن إذنه للمنافقين في التخلف عنه ، وهذا الذنب من قبيل الزلة لأن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر ، لأن ركوب الذنوب مما يسقط حشمة من يرتكبها وتعظيمه من قلوب المؤمنين ، والأنبياء يجب أن يكونوا مهابين موقرين ولذا عصموا من الأمراض المنفرة كالجذام وغيره ، فليس معنى الزلة أنهم زلوا عن الحق إلى الباطل ولكن معناها أنهم زلوا عن الأفضل إلى الفاضل ، وأنهم يعاتبون به لجلال قدرهم ومكانتهم من الله تعالى ، كما قال أبو سعيد الخراز : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ﴾ والأنصار جمع نصير كشريف وأشراف ، أو جمع ناصر كصاحب وأصحاب ، وهم عبارة عن الصحابة الذين آووا رسول الله ﷺ من أهل المدينة ، وهو اسم إسلامي سمى الله تعالى به « الأوس والخزرج » ولم يكونوا يدعون بالأنصار قبل نصرتهم لسيدنا رسول الله ﷺ ولا قبل نزول القرآن بذلك ، وحبهم واجب وهو علامة الإيمان وفي الحديث : « آية المؤمن حب الأنصار ، وآية المنافق بغض الأنصار »[٢] والمهاجرون أفضل من الأنصار كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » والمراد منه إكرام الأنصار ، فإنه لا رتبة بعد الهجرة أعلى من نصرة الدين ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ أي : النبي ﷺ ولم يتخلفوا عنه ﴿ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أي : وهو الزمان الذي وقع فيه غزوة تبوك فإنه قد أصابتهم فيها مشقة عظيمة ، من شدة الحر ، وقلة المركب حتى كانت العشرة تعتقب على بعير واحد ، عن عمر رضي الله عنه : خرجنا في قيظ شديد ، وأصابنا فيه عطش شديد حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ولذلك سميت غزوة العسرة ، وسمى من جاهد فيها بجيش العسرة وهذه صفة مدح لأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام باتباعهم إياه في وقت الشدة ، ومع ذلك فقد كانوا محتاجين إلى التوبة فما ظنك بغيرهم ممن لم يقاس ما قاسوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ أي : يميل قلوب طائفة منهم عن الثبات مع رسول الله ﷺ بأن هموا أن ينصرفوا في غير وقت الانصراف من غير أن يؤذن لهم في ذلك لشدائد أصابتهم في تلك الغزوة ، لكنهم صبروا واحتسبوا ، ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : تجاوز عن ذنبهم الذي فرط منهم وهو تكرير للتأكيد وتنبيه على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العُسرة والأهوال .

---

(١) هذا هو الصحيح في المسألة أن الله لا يعذّب أمة إلا بعد بعثة الرسول ، كما قال سبحانه ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ .. ﴾ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد ٣ / ١٣٠ .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي : الله تعالى ﴿ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ استئناف للتعليل فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعي التوبة والعفو ، ومن كمال رحمته إرسال حبيبه وإظهار معجزاته ، روي أنهم شكوا للنبي عليه الصلاة والسلام عسرة الماء في غزوة تبوك فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله إن الله تعالى عوَّدك في الدعاء خيراً فادع الله لنا ، قال : « أتحب ذلك ؟ » قال : نعم ، فرفع عليه الصلاة والسلام يديه فلم يرجعها حتى أرسل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا ما يحتاجون إليه وتلك السحابة لم تتجاوز العسكر[1] ، وروي : أنهم نزلوا يوماً في غزوة تبوك على غير ماء بفلاة من الأرض وقد كادت عتاق الخيل والركاب تهلك عطشاً فدعا عليه الصلاة والسلام وقال : « أين صاحب الميضأة » قيل : هو ذا يا رسول الله ، قال : « جئني بميضأتك » فجاء بها وفيها شيء من ماء فوضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء بين أصابعه العشر ، وأقبل الناس واستقوا وفاض الماء حتى رووا ورووا خيلهم وركابهم ، وكان في العسكر من الخيل اثنا عشر ألف فرس ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير والناس ثلاثون ألفاً ، وروي : أنهم لما أصابهم في غزوة تبوك مجاعة قالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا نحرنا نواضحنا وادَّهنَّا فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله إن فعلت فني الظهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعلها في ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « نعم » فدعا بنطع[2] فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتي بكف من ذرة ويجيء الآخر بكف من تمر ويجيء الآخر بميرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا عليه الصلاة والسلام بالبركة ثم قال : « خذوا أوعيتكم » فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه وأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة فقال ﷺ : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاكٍ إلا وقاه الله النار »[3] .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ أي : وتاب الله على الثلاثة الذين أخر أمرهم ولم يُقطع في شأنهم بشيء إلى أن نزل فيهم الوحي ، وهم « كعب بن مالك » الشاعر و« مرارة بن الربيع » و« هلال بن أمية الأنصاري » يجمعهم حروف كلمة « مكة » ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ ﴾ غاية للتخفيف أي : أخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي : برحبها وسعتها لإعراض الناس حتى عن المكالمة معهم ولو بالسلام ورده ، وكانوا يخافون أن يموتوا فلا يصلي النبي عليه الصلاة والسلام ولا المؤمنون على جنازتهم ، وهو مثل لشدة الحيرة كأنه لا يستقر به قرار ولا تطمئن له دار ﴿ وَضَاقَتْ

---

(١) ذكر هذه الرواية ابن جرير الطبري رحمه الله .

(٢) النطع : بساط من جلد .

(٣) الحديث أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أي : امتلأت قلوبهم بفرط الوحشة والغم بحيث لم يبق فيها ما يسع شيئاً من الراحة والأنس والسرور ، ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلا إِلَيْهِ ﴾ أي : علموا وأيقنوا أن لا ملاذ ولا خلاص من سخطه تعالى ، إلا إلى الإنابة إليه . قال بعض المتقدمين : من تظاهرت عليه النعم فليكثر الحمد لله ، ومن كثرت همومه فليكثر الاستغفار ، واعلم أن من توغل في بحر التوحيد بحيث لا يرى في الوجود إلا الله ، لم يلتجىء إلا إلى الله ، فالفرار ليس إلا إليه على كل حال .

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : وفقهم للتوبة ﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ ليرجعوا عن المعصية ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أي : المبالغ في قبول التوبة لمن تاب ، المتفضل عليهم بفنون الآلآء مع استحقاقهم لأفانين العقاب . رُوي عن أبي ذر الغفاري : أن بعيره أبطأه فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال ﷺ لما رأى سواده : « كن أبا ذر » فقال الناس : هو ذاك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله أبا ذر يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » ومنهم من بقي ولم يلحق به عليه الصلاة والسلام ، وهم الثلاثة وكان « كعب » شهد بيعة العقبة و« هلال ومرارة » شهدا بدر ، قال كعب : لما قفل رسول الله ﷺ جئته وسلَّمتُ عليه فردَّ عليّ كالمغضب وقال : « ما خلَّفك عني ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ » فقلت : ما خلفني عنك عذرٌ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « قم عني حتى يقضي الله فيك » وكذا قال لصاحبيه ونهى المسلمين عن كلامهم ، فاجتنبهم الناس ولم يكلمهم أحد من قريب ولا بعيد ، فأما الرجلان فمكثا في بيوتهما يبكيان ، وأما كعب فكان يحضر الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق فلا يكلمه أحد منهم ، قال كعب : وبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدلني على كعب بن مالك ؟ فطفق أي : جعل الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان وهو الحارث بن أبي شمر ، وكان الكتاب ملفوفاً في قطعة من الحرير ، فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا بضيعة ذل ، فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأته : وهذا أيضاً من البلاء فتيممت أي : قصدتُ به التنور فسجرته به أي : ألقيته فيه ، حتى إذا مضت أربعون ليلة جاءني رسول من رسول الله ﷺ ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صاحبيَّ وهما هلال ومرارة ، بمثل ذلك ، فقلت لامرأتي : ألحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالت : يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا ولكن لا يقربك » وقالت : والله إنه ما به حركة إلى شيء ، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، فمضى بعد ذلك عشر ليال حتى كملت خمسون ليلة من حين النهي عن الكلام ، قال كعب : فلما كان صلاة الفجر

صبح تلك الليلة سمعت صوتاً من ذروة جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشرْ ، فخررتُ ساجداً وعرفت أن رسول الله ﷺ أُعلم بتوبة الله علينا ، فلما جاءني الرجلُ الذي سمعت صوته يبشرني ، نزعت ثوبيَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت من ابن عمي قتادة ثوبين فلبستهما ، قال كعب : أنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة رضي الله عنها ، وكانت أم سلمة محسنة في شأني معينة في أمري فقال عليه الصلاة والسلام : « يا أم سلمة تيب على كعب » قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ قال : « إذاً يحطم الناس فينعوكم النوم سائر الليلة » حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر أعلم بتوبة الله علينا ، قال : فانطلق إلى رسول الله ﷺ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة ، يقولون : ليهنئك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس ، فقام إليَّ طلحة بن عبد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل إليَّ من المهاجرين غيرُه ولا أنساها لطلحة ، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان آخى بينهما حين قدم المدينة ، قال : فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر ، فلما جلست بين يديه ﷺ قال : « أبشر يا كعب بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك » ثم تلا علينا الآية **(لَقَدْ تَابَ اللهُ)** إلى قوله **(وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)** فقلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، قال : « أمسكْ عليك بعض مالك فهو خير لك » [1] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قولاً وتصديقاً **﴿ اتَّقُوا اللهَ ﴾** فيما لا يرضاه **﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾** في كل شأن من الشئون ومع الصادقين في معنى من الصادقين ، أي : كونوا في جملة الصادقين ومصاحبين لهم أو لبعضهم ، وفي الآية دليل على فضل الصدق وعلو درجته وحث عليه ، وفي الحديث : « إن التجار يحشرون يوم القيامة فجاراً ، إلا من اتقى وبرَّ وصدق » [2] ، الفجار جمع فاجر ، سماهم فجاراً لما في البيع والشراء من الأيمان الكاذبة والغبن والتدليس ، والربا الذي لا يتحاشاه أحدهم ، ولذا قال : « إلا من اتقى » أي : الكذب وبرّ في يمينه ، وصدق في حديثه ، فلم ينفق سلعته بالحلف الكاذب ، وبالحلف الكاذب يمحق الله البركة من الثمن .

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ ﴾ أي : ما صح وما استقام لهم والمدينة علم بالغلبة لدار الهجرة ، والنسبة إليها مدني ولغيرها من المدن مديني للفرق بينهما ، وفي كلام بعضهم : لها نحو مائة اسم منها دار الأخيار

---

(١) القصة ذكرها المفسرون وهي موجودة في الصحيحين وكتب السنن .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في البيوع رقم / ١٢١٠ / وابن ماجه في التجارات رقم / ٢١٤٦ / وابن حبان .

ودابر الأبرار ودار السنّة ودار السلامة ودار الفتح والبارَّة وطابة وطيبة لطيب العيش بها ولأن لعطر الطيب بها رائحة لا توجد في غيرها ، وعجوتها شفاء من السم وقد خص الله تعالى مكة والمدينة بأنهما لا يخلوان من أهل العلم والفضل والدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وهي أي : المدينة محفوظة من شر الدجال هي ومكة المكرمة ، فلا يدخلها الدجال كما صحت بذلك الأحاديث الشريفة ﴿ **وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ** ﴾ كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأضرابهم ، ﴿ **أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ** ﴾ عند توجهه إلى الغزو ، إذا استنفرهم واستنهضهم ، وهذا نهيٌ ورد بلفظ النفي للتأكيد ﴿ **وَلا** ﴾ أنْ ﴿ **يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ** ﴾ رغبت عنه معناه أعرضت عنه ، فالمعنى ولا يجعلوا أنفسهم راغبة ومعرضة عن نفسه عليه الصلاة والسلام ، وحاصل المعنى لا يصرفوا أنفسهم عما ألقى فيه نفسه من شدائد الغزو وأهوالها ، بل يكابدوا معه ما يكابده ، فإنه لا ينبغي أن يختاروا لأنفسهم الدعة ورغد العيش ورسول الله في الحر والمشقة ، قال الحدادي : لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم آثر وأشفق عن نفس محمد ﷺ بل عليهم أن يجعلوا أنفسهم وقاية للنبي عليه الصلاة والسلام ، لما وجب له من الحقوق عليهم بدعائه لهم إلى الإيمان ، حتى اهتدوا به ونجوا من النار ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي : وجوب المتابعة ﴿ **بِأَنَّهُمْ** ﴾ أي : بسبب أنهم إذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام ﴿ **لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ** ﴾ أي : عطش يسير ﴿ **وَلا نَصَبٌ** ﴾ ولا تعب ما في أبدانهم ﴿ **وَلا مَخْمَصَةٌ** ﴾ أي : مجاعة ما ﴿ **فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ وإعلاء كلمته ﴿ **وَلا يَطَئُونَ** ﴾ ولا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم ﴿ **مَوْطِئاً** ﴾ أي : مكاناً ﴿ **يَغِيظُ الْكُفَّارَ** ﴾ أي : لا يبلغون موضعاً من أراضي الكفار من سهل أو جبل ، يغيظ قلوبهم مجاوزة ذلك الموضع ﴿ **وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ** ﴾ من قبلهم ﴿ **نَيْلاً** ﴾ أي : أيَّ شيءٍ من الضرر ، كالقتل والأسر والهزيمة والخوف ﴿ **إِلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ** ﴾ أي : بكل واحد من الأمور المعدودة ﴿ **عَمَلٌ صَالِحٌ** ﴾ أي : استوجبوا به الثواب الجزيل ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ على إحسانهم وهو تعليل وتنبيه على أن الجهاد إحسان ، ﴿ **وَلا يُنْفِقُونَ** ﴾ في الجهاد ﴿ **نَفَقَةً صَغِيرَةً** ﴾ ولو تمرة أو علاقة سوط أو نعل فرس ﴿ **وَلا كَبِيرَةً** ﴾ مثل ما أنفق عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما في جيش العسرة ﴿ **وَلا يَقْطَعُونَ** ﴾ أي : لا يجتازون في مسيرهم إلى أرض الكفار مقبلين ومدبرين ﴿ **وَادِياً** ﴾ من الأودية وهو في الأصل كل منفرج من الجبال والآكام ينفذ فيه السيل ﴿ **إِلا كُتِبَ لَهُمْ** ﴾ أي : أُثبت لهم في صحائفهم ذلك الذي فعلوه من الإنفاق والقطع ﴿ **لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ أي : ليجزيهم جزاء أحسن أعمالهم ، ففي الجهاد فضائل لا توجد في غيره ، وهو حرفة النبي عليه الصلاة والسلام ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشعب فيه عيينة من ماء عذب فأعجبته ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل

حتى استأذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله فقال : « لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة »[1] » ، وفي الحديث دلالة على أن الجهاد أفضل من العزلة للعبادة. واعلم أن المتخلف بعذر إذا كانت نيته خالصة يشارك المجاهد في الأجر والثواب ، كما روي : أنه عليه الصلاة والسلام لما رجع من غزوة تبوك قال : « إن أقواماً خلَّفناهم بالمدينة ، ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا ، حبسهم العذر »[2] يعني : يشاركوننا في استحقاق الثواب ، لكونهم معنا نيَّة وإنما تخلفوا عنا للعذر ولولاه لكانوا معنا ذواتاً ، ولا يظن منه التساوي في الثواب ، لأن الله قال (**فَضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَىٰ القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً**) .

﴿ **وَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً** ﴾ اللام لتأكيد النفي أي : ما صح وما استقام لهم أن ينفروا أي : يخرجوا جميعاً لنحو غزو أو طلب علم ، كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعاً فإن ذلك مخل بأمر المعاش ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ** ﴾ فلولا تحضيضية مثل هلاَّ ، وحرف التحضيض إذا دخل على الماضي يفيد التوبيخ على ترك الفعل ، والتوبيخ إنما يكون على ترك الواجب فعلم منه أن الفعل واجب وأن قوله فلولا نفر معناه الأمر بالنفير وإيجابه ﴿ **مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ** ﴾ أي : من كل جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة جماعة قليلة ، والطائفة تتناول الواحد فما فوقه ﴿ **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ﴾ ليتكلفوا الفقاهة في الدين ويتجشموا مشاق تحصيلها ، الفقهُ معرفة أحكام الدين ﴿ **وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ** ﴾ وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم إرشاد القوم وإنذارهم ، وذكر الإنذار دون التبشير لأنه أهم ، والتخلية أقدم من التحلية ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ إرادة أن يحذر قومهم عما ينذرون منه ، وفي الآية دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم الاستقامة والإقامة ، لا الترفع على الناس بالتصدر والترأس ، والتبسط في البلاد بالملابس والمراكب والعبيد والإماء كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان ، فينبغي أن يطلب المتعلم رضى الله والدار الآخرة ، وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال ، وإحياء الدين وإبقاء الإسلام ، فإن بقاء الإسلام بالعلم ، ولا يصح الزهد والتقوى بالجهل ، وينبغي لطالب العلم أن ينوي به الشكر على نعمة العقل ، وصحة البدن ، وسلامة الحواس ، عملاً بقوله تعالى (**وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) وينبغي لطالب العلم أن يختار الأستاذ الأعلم والأورع ، بعد التأمل التام ، كما اختار أبو حنيفة رضي الله عنه حماداً قال : دخلت البصرة فظننت أن لا أُسأل عن

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند . وروى جزءاً منه السيوطي في الفتح الكبير ٣ / ٢١٥ .

(٢) الحديث رواه البخاري ورواه مسلم بنحوه .

شيء إلا أجبت عنه ، فسألوني عن أشياء لم يكن عندي جوابها فحلفت على نفسي أن لا أفارق حماداً ، فصحبته عشرين سنة وما صليت قط إلاَّ ودعوت لشيخي حماد مع والديَّ ، ففي أنفاس الأساتذة الصالحين ودعوات الرجال الكاملين تأثيرات عجيبة ، كما حكي : أن والد أبي حنيفة « ثابتاً » أهدى الفالوذج لعلي بن أبي طالب يوم النيروز ويوم المهرجان فدعا له ولأولاده بالبركة ، فإذا وجد الطالب الأستاذ العالم العامل ، فعليه أن يختار من كل علم أحسنه وأنفعه في الآخرة . قال العز بن عبد السلام : العلم الذي هو فرض لازم ثلاثة أنواع ، الأول : علم التوحيد فالذي يتعين عليك منه مقدار ما تعرف به أصول الدين ، فيجب عليك أولاً أن تعرف المعبود ثم تعبده ، وكيف تعبد من لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته ، وما يجب له وما يستحيل في نعته ؟ فربما تعتقد شيئاً في صفاته يخالف الحق فتكون عبادتك هباء منثوراً ، والنوع الثاني : علم السر وهو ما يتعلق بالقلب ومساعيه فيفترض على المؤمن علم أحوال القلب ، من التوكل ، والإنابة ، والخشية ، والرضى ، فإنه واقع في جميع الأحوال ، واجتناب الحرص ، والغضب ، والكبر ، والحسد ، والعجب ، والرياء وغير ذلك ، والنوع الثالث : علم الشريعة وهو ما يجب عليك فعله من الواجبات الشرعية ، فيجب عليك علمه لتؤديه على جهة الشرع كما أمرت به ، وكذا علم كل ما يلزمك تركه من المناهي الشرعية لتتركه ، وذلك شامل للعبادات والمعاملات ، فكل من اشتغل بالبيع والشراء وأيضاً بالحرفة فيجب عليه علم التحرز عن الحرام في معاملاته وفيما يكسبه في حرفته ، وأما حفظ ما يقع في بعض الأحايين ففرض على سبيل الكفاية ، قال في عين المعاني : المراد بقوله ﴿ **لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ﴾ علم الآخرة لاختصاصه بالإنذار والحذر به ، وعلم الآخرة يشمل علم المعاملة وعلم المكاشفة ، أما علم المعاملة فهو العلم المقرب إليه تعالى والمبعد عنه ، ويدخل فيه أعمال الجوارح وأعمال القلوب ، وأما علم المكاشفة فهو المراد فيما ورد : « فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي » [١] ، ويجوز أن يتعلم من علم النجوم قدر ما يعرف به القبلة وأوقات الصلاة ، ويتعلم من علم الطب قدر ما يمكن بمعرفته تداوي الأمراض ، قال في الأشباه : تعلم العلم يكون فرض عين ، وهو بقدر ما يحتاج إليه لدينه ، وفرض كفاية وهو ما زاد عليه لنفع غيره ، ومندوباً وهو التبحر في الفقه وعلم القلب ، وحراماً وهو علم الشَّعوذة والتنجيم والرمل والسحر ، ومكروهاً وهو أشعار المولدين من الغزل والبطالة ، ومباحاً كأشعارهم التي لا سخف فيها ، وفي نشر العلم والإرشاد به فضائل أيضاً قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن : « لأن يهدي الله بك رجلاً ، خيرٌ لك مما تطلع عليه الشمس » [٢] ، والعلماء ورثة الأنبياء فكما أنهم

(١) الحديث أخرجه الترمذي بلفظ : « كفضلي على أدناكم » ، وهو جزء من حديث طويل في فضل العلم ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٦٨.

(٢) الحديث أخرجه الطبراني بنحوه كما في الفتح الكبير ٣ / ٦ وأخرجه البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد وقوله لعلي كرم الله وجهه : « فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النعم » وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٥٤ .

اشتغلوا بالإبلاغ والإرشاد . كذلك ورثتهم ، فكل مرشد من الورثة ينبغي أن يكون غرضه إقامة جاه رسول الله ﷺ وتعظيمه بتكثير أتباعه وقد قال : « إني مكاثر بكم الأمم » ، وفي الآية تحريض للمؤمنين على الخروج من الأوطان لطلب العلم النافع ، ورحل جابر من المدينة إلى مصر لحديث واحد ، ولذا لم يعد أحد كاملاً إلا بعد رحلته ، ولا وصل مقصده إلا بعد هجرته ، وقيل :

سَافرْ تجدْ عِوَضاً عَمَّنْ تفارِقُه * وانْصَبْ فإنَّ اكتسابَ المَجْدِ فِي النَّصَبِ

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أقروا بالله وبوحدانيته ، وصدقوا بحضرة صاحب الرسالة وحقانيته ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ** ﴾ أي : القريبين منكم ﴿ **مِنَ الْكُفَّارِ** ﴾ أي : قاتلوا من نحوكم وبقربكم من العدو ، وجاهدوا الأقرب فالأقرب ، ولا تدعوا الأقرب وتقصدوا الأبعد فيقصد الأقرب بلادكم وأهاليكم وأولادكم ، وفيه أنهم إذا أمنوا الأقرب كان لهم محاربة الأبعد ، واعلم أن القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم ولكن الأقرب فالأقرب أوجب ، ولذا حارب عليه الصلاة والسلام قومه أولاً ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ، ثم انتقل عنهم إلى غزو الشام ، وكذا الصحابة رضي الله عنهم لما فرغوا من أمر الشام دخلوا العراق ، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضر بهم أهل ناحية أخرى ، وقد وقع أمر الدعوة أيضاً على هذا الترتيب ، فإنه عليه الصلاة والسلام أمر أولاً بإنذار عشريته ، فإن الأقرب أحق بالشفقة والاستصلاح لتأكد حقه ، واختلفوا في أفضل الأعمال بعد الفرائض . فقال الشافعي رضي الله عنه الصلاة أفضل أعمال البدن وتطوعها أفضل التطوع ، وقال أحمد : لا أعلم شيئاً بعد الفرائض أفضل من الجهاد ، لأنه كان حرفة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال أبو حنيفة ومالك : لا شيء بعد فروض الأعيان من أعمال البر أفضل من العلم لأن الأعمال تبتني عليه ثم الجهاد . ﴿ **وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً** ﴾ أي : شدة وصبراً على القتال ، قال في القاموس الغلظة : ضد الرقة وهذا الكلام من باب لا أَرَينَّك ههنا فإنه وإن كان على صورة أن ينهى المتكلم نفسه عن رؤية المخاطب على أن يحضر ههنا ، فكذا الآية فإنها على صورة أمر الكفار بأن يجدوا من المؤمنين غلظة ، لكن المعنى على أمر المؤمنين بأن يعاملوا الكفار بالغلظة والخشونة على طريق الكناية ، حيث ذُكر اللازم وأريد الملزوم . ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ بالحراسة والإعانة ، والمراد بالمعية الولاية الدائمة وأدخل مع على المتقين مع اختصاصه بالمتبوع لكونهم المباشرين للقتال كأنه قيل : واعلموا أن نصرة الله معكم بسبب تقواكم بالتوحيد والإسلام والإيمان والطاعة .

﴿ **وَإِذَا مَا** ﴾ كلمة ما صلة مؤكدة لارتباط الجزاء بالشرط ﴿ **أُنْزِلَتْ سُورَةٌ** ﴾ من سور القرآن وعددها مائة وأربع عشرة بالإجماع والسورة طائفة من كلامه تعالى ﴿ **فَمِنْهُمْ** ﴾ أي : من المنافقين

﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ لإخوانه إنكاراً واستهزاء ﴿ أَيُّكُمْ ﴾ مبتدأ وما بعده خبره ﴿ زَادَتْهُ هَذِهِ ﴾ السورة ﴿ إِيمَاناً ﴾ مفعول زادته وإيراد الزيادة مع أنه لا إيمان فيهم أصلاً باعتبار اعتقاد المؤمنين ، وفيه إشارة إلى أن الاستهزاء من علامات النفاق وأمارات الإنكار ثم أجاب الله تعالى عن إنكارهم واستهزائهم ، فقال ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله تعالى وبما جاء من عنده ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ هذا بحسب المتعلق ، وإنما تتفاوت درجاته قوة وضعفاً ، فإنه ليس من يعرف الشيء إجمالاً كمن يعرفه تفصيلاً ، كما أن من رأى الشيء من بعيد ليس كمن يراه من قريب ، فصورة الإيمان هو التصديق القلبي إجمالاً وتفصيلاً ، وحقيقته الإحسان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وحقيقة الإحسان مرتبة « كنت سمعه وبصره »[1] التي هي قرب النوافل ، وفوقها مرتبة قرب الفرائض المشار إليه بقوله سمع الله لمن حمده ، والحاصل أن من اعتقد الكعبة ، إذا رآها من بعيد قوي يقينه ، ثم إذا قرب منها كمل ، ثم إذا دخل ازداد الكمال ، ولا تفاوت في أصل الاعتقاد ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بنزولها وبما فيه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي : كفر وسوء عقيدة ، سمى الله النفاق مرضاً لأن الحيرة في القلب مرض القلب ، كما أن الوجع في البدن مرض البدن ، يقول الفقير : كل منهما مؤدٍ إلى الهلاك ، أما المرض الظاهر فإلى هلاك الجسم ، وأما المرض الباطن فإلى هلاك الروح ، فلابد من معالجة كل منهما بحسب ما يليق به ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ أي : كفراً بها مضموماً إلى الكفر وعقائد باطلة واخلاقاً ذميمة كذلك ، والفرق بين الرجس والنجس ، أن الرجس أكثر ما يستعمل فيما يستقذر عقلاً ، والنجس أكثر ما يستعمل فيما يستقذر طبعاً ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي : واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه ، بيَّن الله تعالى أن بنزول سورة من السماء حصل للمؤمنين أمران : زيادة الإيمان والاستبشار ، وحصل للمنافقين أمران مقابلان لهما : زيادة الرجس ، والموت على الكفر ، وفي الحديث : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين »[2] يعني : أن من آمن بالقرآن وعظم شأنه وعمل به يرفع الله درجته في الآخرة ، ويرزقه عزة وشرفاً ، ومن لم يؤمن به أو لم يعمل به أو لم يعظم شأنه ، خذله الله في الدنيا والآخرة ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ ، أي : لا ينظر المنافقون ولا يرون ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ ﴾ من الأعوام ﴿ مَرَّةً أَو مَرَّتَيْنِ ﴾ والمراد مجرد التكثير ، لا بيان الوقوع حسب العدد ، أي : يبتلون بأصناف البليات من المرض والشدة ، وغير ذلك مما يُذكِّر

---

(١) أشار إلى الحديث الصحيح المروي في البخاري وغيره : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به » وانظر جامع العلوم والحكم / ٣١٣ / .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ٨١٧ / وفيه قصة عن عمر بن الخطاب أنه قال لأحد عماله من استعملتَ على أهل البوادي ؟ قال : ابن أبزى ، قال : ومن ابنُ أبزى ؟ قال : مولىً من موالينا .. إنه قارىء لكتاب الله فذكره » ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٠٧ .

الذنوب والوقوف بين يدي رب العزة فيؤدي إلى الإيمان به تعالى ﴿ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ ﴾ عطف داخل تحت الإنكار والتوبيخ ﴿ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ والمعنى : أولا يرون افتتانهم الموجب لإيمانهم ، ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفتن الموجبة للتذكر والتوبة ، وهذه الفتنة موجبة لانتباه القلب الحي ، وقلوبهم ميتة ، والقلب الميت لا يرجع إلى الله ولا يؤثر فيه نصح الناصحين كما قال (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ) وقال (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً) .

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ بيان لأحوالهم عند نزولها في محفل تبليغ الوحي ﴿ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي : تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي : قائلين هل يراكم من أحد من المسلمين ؟ لينصرفوا من المسجد والمجلس مظهرين أنهم لا يضطربون عند استماعها ، ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ أي : انصرفوا جميعاً عن محل الوحي خوفاً من الافتضاح ، والمعنى يقول بعضهم لبعض هل يراكم من أحد من المؤمنين إن قمتم من مجلسكم ؟ فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا فيه وثبتوا حتى يفرغ عليه الصلاة والسلام من خطبته ثم انصرفوا ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي : عن الإيمان حسب انصرافهم عن المجلس ، والجملة دعائية ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبر ، قال بعض العلماء : أصحاب القلوب من الإنس ثلاثة أصناف ، صنف كالبهائم قال الله تعالى (لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا) . وصنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف في ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله . وعن أبي بكر الوراق رحمه الله أنه قال : للقلب ستة أشياء : حياة ، وموت ، وصحة ، وسقم ، ويقظة ، ونوم ، فحياته الهدى ، وموته الضلالة ، وصحته الصفاء ، وسقمه العلاقة ، ويقظته الذكر ونومه الغفلة .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ ﴾ الخطاب للعرب والعجم جميعاً أي : بالله قد جاءكم أيها الناس ﴿ رَسُولٌ ﴾ أي : رسول عظيم الشأن ، والرسول إنسان بعثه الله تعالى إلى الخلق لتبليغ الأحكام ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : من جنسكم آدميٌّ مثلكم ، لا من الملائكة ولا من غيرهم ، وذلك لئلا يتنفروا عنه ويمتنعوا من متابعته ، ويقولوا لا طاقة لنا بمتابعته لأنه ليس من جنسنا ويؤيده ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ ، ويحتمل أن يكون الخطاب للعرب خاصة ، فالمعنى بالله قد جاءكم أيها العرب رسول عربي مثلكم وعلى لغتكم ، وذلك أقرب إلى الألفة ، وأسرع إلى فهم الحجة ، فإن الإرشاد لا يحصل إلا بمعرفة اللسان ، حكي : أن أربعة نفر عجمي ، وعربي ، وتركي ، ورومي ، وجدوا في طريق درهماً فاختلفوا فيه ولم يعرف ولم يفهم واحد منهم مراد الآخر ، فسأل منهم رجل آخر يعرف الألسنة ، فقال للعربي : إيش تريد ؟ وللعجمي [چه

ميخواهي] مثلاً ، وعلم أن مراد الكل أن يأخذوا بذلك الدرهم عنباً ، فأخذ العارف الدرهم منهم واشترى لهم عنباً فارتفع الخلاف من بينهم ، وقرىء (**مِنْ أَنْفَسِكُمْ**) بفتح الفاء أي من أشرفكم وأفضلكم من النفاسة ، وشيء نفيس أي خطير ، ﴿ **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** ﴾ العَنَتُ : الوقوع في أمر شاق ، وأشق الأمور دخول النار ، والمعنى شاق شديد عليه عنتكم أي : ما يلحقكم من المشقة والألم بترك الإيمان ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب .

﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي : على إيمانكم وصلاح أحوالكم إذ من البيّن أنه عليه الصلاة والسلام ليس حريصاً على ذواتهم ، والحرص شدة الطلب للشيء مع اجتهاد فيه ، ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ** ﴾ قدم الأبلغ منهما وهو الرؤف ، لأن الرأفة شدة الرحمة ، مع أن مقام المدح يقتضي الترقي من الفاضل إلى الأفضل ، محافظة على الفواصل ، وقدم بالمؤمنين على متعلقه وهو رؤف ، ليفيد الاختصاص أي : لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين ، وأما الكفار فليس له عليهم رأفة ولا رحمة ، روي : أنه لما مات أبو طالب ونالت قريش من النبي عليه الصلاة والسلام ما لم تكن نالته في حياته خرج إلى الطائف وهو مكروب مما لقي من قريش وعترته ، من الهجو والسب والتكذيب ، يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلهاً واحداً ؟ فجعل أبو بكر يضرب هذا ويدفع هذا ويقول : « أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله » وكان خروجه في شوال سنة عشر من النبوة ، يلتمس من ثقيف الإسلام ، رجاء أن يسلموا وأن يناصروه على الإسلام ، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى أشراف ثقيف وكلّمهم فيما جاءهم به ، فقال أحدهم : هو يقطع ثياب الكعبة ولا يسرقها ، وقال آخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال له الثالث : والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من عند الله كما تقول لأنت أعظم قدراً من أن أردَّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ، فقام عليه الصلاة والسلام من عندهم محزوناً وقال لهم : « اكتموا عليَّ » وكره أن يبلغ قومه ذلك فيشتد أمرهم عليه ، وقالوا له عليه الصلاة والسلام : اخرج من بلدنا وسلطوا عليه سفهاءهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما مر عليه الصلاة والسلام بين الصفين دقوا رجليه بالحجارة حتى أدموها ، فلما خلص عمد إلى بستان فاستظل في شجرة كرم ودعا بقوله : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، أنت ربي إلى من تكلني ؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي » ثم انطلق عليه الصلاة والسلام وهو مهموم حتى أتى « قرن الثعالب » وهو ميقات أهل نجد أو اليمن وبينه وبين مكة يوم وليلة فأرسل الله تعالى جبريل ومعه ملك الجبال فقال : إن شئت أطبقتُ على ثقيف هذين الجبلين ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى لا يشرك به شيئاً » وعند ذلك قال له ﷺ ملك الجبال : أنت كما سماك ربك ﴿ **رَؤُفٌ رَحِيمٌ** ﴾.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ أي : إن أعرضوا عن الإيمان بك ، وقبول نصحك ، ولم يتبعوك ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ ﴾ كافيني فإنه يكفيك معرتهم أي : المساءة التي تلحقك من قبلهم ويعينك عليهم ، وفيه إشارة إلى أن تبليغ الرسالة من النبي عليه الصلاة والسلام كان موجباً لقربه إلى الله وقبوله ، ﴿ لا إِلَـهَ إِلا هُوَ ﴾ أي : لا معبود بحقٍّ غيره ، ولا ربَّ سواه ، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي : وثقت فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ، والتوكل اعتماد القلب على الله ، وسكونه وعدم اضطرابه لتعلقه بالله تعالى ﴿ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ أي : خالق السرير العظيم الذي هو أعظم من السموات والأرض ، وإنما خص العرش بذلك لأنه إذا كان رب العرش العظيم مع عظمته ، كان رب ما دونه في العظم ، وقيل إنما خص العرش تشريفاً للعرش وتعظيماً لشأنه . وقد ذكر في فضائل هاتين الآيتين ، ما حكي عن بعض الصالحين أنه حصل له ضيق شديد ، فرأى النبي ﷺ في المنام فقال له : يا فلان لا تغتم ولا تحزن ، إذا كان الغد ادخل على « عليّ بن عيسى » الوزير ، فأقرئه السلام وقل له : بعلامة إنك صليت عليَّ ألف مرة يدفع لك مائة دينار عيناً ، فلما أصبح ذهب إليه وقصَّ عليه الرؤيا فاغرورقتْ عينا عليّ بن عيسى بالدموع ، وقال : صدق الله ورسوله ، وصدقت أنت يا رجل ، هذا شيء ما كان علم به إلا الله ورسوله ، يا غلام هات الكيس فأحضره بين يديه فأخرج منه ثلاثمائة دينار ، وقال هذه المائة التي قال رسول الله ﷺ ، وهذه المائة الأخرى بشارة ، وهذه المائة الثالثة هدية لك ، فخرج الرجل من عنده ومعه ثلاثمائة دينار ، وقد زال همه وغمه ، منَّ الله على الوزير المذكور فترك الوزارة وعلو الرياسة ، وعظمة الجبابرة ، وذهب إلى مكة وجاور فيها ببركة ذكر النبي ﷺ وتخصيصه بإرسال ذلك الرجل لما سبق له في علم الله تعالى بما يؤول أمره إليه من الخير وحسن الخاتمة .

واعلم أن الأحاديث التي ذكرها صاحب الكشاف في أواخر السورة ، وتبعه القاضي البيضاوي والمولى أبو السعود ، قد أكثر العلماء القول فيها ، فمن مثبت ومن ناف ، بناء على زعم وضعها كالإمام الصغاني وغيره ، فإن كانت صحيحة قوية فلا كلام فيها ، وإن كانت ضعيفة الأسانيد فقد اتفق المحدثون على أن الحديث الضعيف يجوز العمل به في الترغيب والترهيب فقط ،.كما في الأذكار للنووي ، وإن كانت موضوعة فقد ذكر الحاكم وغيره أن رجلاً من الزهاد انتدب في وضع الأحاديث في فضل القرآن وسوره فقيل له : فلِمَ فعلت هذا ؟ فقال : رأيت الناس زهدوا في القرآن فأحببت أن أرغبهم فيه ، فقيل له : إن النبي ﷺ قال : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » أي : فليتخذ مباءة أي : مسكناً ومنزلاً ، ولفظه أمر ومعناه خبر ، يعني : فإن الله بوأه مقعده أي موضع قعوده منها ، فقال : أنا كذبت له لا عليه ، والصحيح أن الكذب لا يجوز مطلقاً لأنه يؤدي إلى هدم قواعد الإسلام ، وإفساد الشريعة

والأحكام ، وهذا من جهل من لا يعرف أحكام الشريعة ، فإن الكذب حرام سواءً كان من أجل الترغيب أو الترهيب .

تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبة

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر ﴾ الظاهر أن الر اسم للسورة وأنه في محل الرفع على أنه مبتدأ حذف خبره ، أو خبر مبتدأ محذوف أي الر هذه السورة أي مسماة بهذا الاسم ، ولله أن يسمي السور بما أراد ومنهم من ذهب إلى جانب التأويل وقال كل حرف من الحروف المقطعة مأخوذ من اسم من أسمائه والاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية كما قال الشاعر : قلت لها قفي فقالت ق ، اي وقفت ولذا قال ابن عباس رضي الله عنهما معنى ﴿ الر ﴾ أنا الله أرى ، وعنه أنه من حروف الرحمن وذلك أنه إذا جمعت الر ، وحم ، ون انتظم حروف الرحمن ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى ما تضمنته هذه السورة من الآيات ﴿ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ أي آيات القرآن المشتمل على الحكم وذلك لأن الله تعالى أودع فيه الحكم كلها فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿ أَكَانَ للنَّاسِ عَجَباً ﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم ، ولتعجيب السامعين منه ، والمراد بالناس كفار مكة ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ أي بشرٍ من جنسهم فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ، ولم يتعجبوا من أن يكون الإله صناً من حجر ، أو ذهب أو خشب أو نحاس ، وأرادوا أن يكون ذا جاه ومال ورياسة ونحو ذلك ، مما يعدّونه من أسباب العز والعظمة ، فإنهم كانوا يقولون العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس ، إلا يتيم أبي طالب ، وهذا من فرط حماقتهم وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة ، فإنه عليه السلام لم يكن يقصر عن عظمائهم في النسب والحسب والشرف وكل ما يعتبر في الرياسة من كرم الخصال إلا في المال ، ولا مدخل له في شرف النفس ونجابة جوهرها إلا أنهم لعظم الغنى في أعينهم تعجبوا من اصطفائه للرساله كما أخبر عنهم (وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)؟ ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة للمفعول المقدر أي أوحينا إليه شيأ هو ﴿ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ أي جميع الناس كافة وقدَّم الإنذار على التبشير لإن إزالة مالا ينبغي متقدمة في الرتبة على فعل ما ينبغي ، وهو لا يفيد ما دامت النفس ملوثة بالكفر والمعاصي ، فإن تطييب البيت بالبخور ، إنما يكون بعد الكنس وإزالة القاذورات ، ألا ترى أن الطبيب الذي يباشر معالجة الأمراض البدنية يبدأ أولاً بتنقية البدن من الأخلاط الرديئة ، ثم يباشر المعالجة بالمقويات ، فكذلك الطبيب الذي يباشر معالجة مرض القلب ، لابد له أن يبدأ أولاً بتنقيته من العقائد الزائغة ، والأخلاق الرديئة ، والأعمال القبيحة المكدرة للقلب ، وبعد تنقيته من المهلكات يعالجه بما يقويه على الطاعات ، ولهذا اقتصر على ذكر الإنذار في مبدأ أمر النبوة حيث قال (يا أَيُّهَا المدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ) ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ دون الذين كفروا إذ

ليس لهم ما يبشرون به من الجنة والرحمة ما داموا على كفرهم ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي أعمالاً صالحة سابقة قدموها ذخراً لآخرتهم ، ومنزلة رفيعة يقدمون عليها ، سميت قدماً على طريق تسمية الشيء باسم آلته لأن السبق والقدوم يكون بالقدم ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ، وعن ابن عباس أنه قال ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ شفاعة نبيهم لهم ، وهو أمامهم إلى الجنة وهم بالأثر ، ﴿ قَالَ الكَافِرُونَ ﴾ هم المتعجبون أي كفار مكة ﴿ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ وفيه اعتراف بأنهم صادفوا من الرسول أموراً خارقة للعادة ، معجزة إياهم عن المعارضة ، والنفس جبلت على حب الرياسة وطلب التقدم ، فلا ترضى أن تكون مرؤوسة تحت غيرها ، فإصلاحها إنما هو بالعبودية التي هي ضد الرياسة قال عيسى عليه السلام للحواريين : أين تنبت الحبة ؟ قالوا في الأرض ، فقال : كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلبٍ مثل الأرض ، يشير إلى التواضع ، وإلى هذا الإشارة بقول سيد البشر (من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[1] والينابيع لا تكون إلا في الأرض ، وهو موضع نبع الماء ، فظهر أن الكفار لما لم ينزلوا أنفسهم إلى مرتبة التواضع والعبودية ، ولم يقبلوا الإنذار بحسن النية ، حرموا من الورود إلى المنهل العذب الذي هو القرآن ، فبقوا عطشى الأكباد في زوايا الهجران ، وأين المتكبرون المتصعدون إلى جوّهواهم ، من الشرب من ينبوع الهدى الذي اجراه من لسان حبيبه مولاهم ؟ وكما أن الكفار ادّعوا كون القرآن سحراً ، وأنكروا مثل ذلك الخارق لعاداتهم ، فكذا المشركون بالشرك الخفي أنكروا الكرامات المخالفة لمعاملاتهم ، قال الإمام اليافعي رحمه الله : ثم إن كثيراً من المنكرين لو رأوا الأولياء والصالحين يطيرون في الهواء ، لقالوا هذا سحر ، وهؤلاء شياطين ، ولا شك أن من حرم التوفيق وكذّب بالحق غيباً وحدساً كذّب به عياناً وحساً ، فواعجبا كيف نسب السحر وفعل الشياطين إلى الأنبياء العظام والأولياء الكرام ؟ نسأل الله العفو والعافية سراً وجهاراً ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي ﴾ خطاب لكفار مكة ، أي مربيكم ومدبّر أموركم ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ التي هي الأجسام العظام ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أي في ستة أوقات ، وسمي يوماً لأن الشأن يحدث فيه وهو أدنى ما يطلق عليه الزمان أي أدنى مقدار ستة أيام ، لأن اليوم عبارة عن زمان مقدَّر ، مبدأه طلوع الشمس ومنتهاه غروبها ، فكيف تكون حين لاشمس ولا نهار ؟ ولو شاء لخلقها في أقل من لحظة لكنه أشار إلى التأني في الأمور ، فلا يحسن التعجيل إلا في عدة أمور : في التوبة ، وقضاء الدين ، وقرى الضيف ، وتزويج البكر ، ودفن الميت ، والغسل من الجنابة ﴿ ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى العَرْشِ ﴾ قال في التبيان : ﴿ ثُمَّ ﴾ في كتاب الله تعالى على خمسة أوجه : الوجه الأول أتت عاطفة مرتبة وهو قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُم كَفَروا ثُمَّ

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥ / ١٨٩ ورواه أحمد في الزهد مرسلاً ، والحديث ضعيف ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٥٧ .

آمنُوا ثُم كفَرُوا ﴾ والوجه الثاني بمعنى قبل وهو قوله ﴿ ثُمّ اسْتَوىٰ عَلىٰ العَرْشِ ﴾ معناه قبل ذلك استوى على العرش ، لأن قوله تعالى ﴿ وَكانَ عَرْشُهُ عَلى الماءِ ﴾ يدل على أن وجود العرش سابق على تخليق السموات والأرض ، ومثله ﴿ ثُمّ إنّ مرْجِعَهُمْ إلىٰ الجحيم ﴾ معناه قبل ذلك مرجعهم ومثله قول الشاعر :

قلْ لمنْ سَادَ أبوه ثم قد ساد بعد ذَلِكَ جَدُّهُ

والوجه الثالث بمعنى الواو وهو قوله ﴿ ثُمّ كَانَ مِنَ الذّينَ آمنُوا ﴾ معناه : ومع ذلك كان من الذين آمنوا ، والرابع بمعنى الابتداء كقوله تعالى ﴿ أَلَم نُهْلِكِ الأَوّلِينَ ثمّ نُتْبِعُهم الآخرِين ﴾ معناه نحن نتبعهم والوجه الخامس تكون بمعنى التعجب وهو قوله ﴿ الحمدُ للهِ الذّي خَلَقَ السّمواتِ والأَرْضَ وجَعلَ الظّلُماتِ والنّورَ ثُمّ الذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يعْدِلونَ ﴾ معناه تعجبوا منهم كيف يكفرون بربهم انتهى ، وخص العرش بالإخبار عن الاستواء عليه لكونه أعظم المخلوقات قال الحدادي ودخلت ثم على الاستواء وهي في المعنى داخلة على التدبير كأنه قال ثم ﴿ يَدبّرُ الأَمْرَ ﴾ وهو مستو على العرش ، فإن تدبير الأمور كلها ينزل من عند العرش ، وإذا ترفع الأيدي في دعاء الحوائج نحو العرش ، قال القاضي يدبر الأمر أي يُقدّر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ، وعن عمرو بن مرة : يدبر أمر الدنيا بأمر الله أربعة : جبرائيل ، وميكائيل ، وملك الموت ، وإسرافيل ، أما جبرائيل فعلى الوحي والرياح والجنود ، وأما ميكائيل فعلى القطر والنبات ، وأما ملك الموت فعلى الأنفس ، وأما إسرافيل فينزل عليهم ما يؤمرون به ﴿ يَدبّرُ الأَمْرَ ﴾ أمر السعادة والشقاوة ، ويهيء أسبابها من الأخلاق والأحوال ، والأعمال والأفعال ، والأقوال والحركات والسكنات ، وإلى هذا يشير قوله ﷺ (قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء)[1] ﴿ ما من شَفِيعٍ ﴾ يشفع لأحد في وقت من الأوقات ﴿ إلاّ منْ بعْدِ إذْنِهِ ﴾ المبني على الحكمة ولا نبي مرسل يشفع لأحد ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، فكيف تشفع الأصنام التي ليس لها عقل ولا تمييز ، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ ذٰلِكُمُ ﴾ أي ذلك العظيم الشأن المنعوت بما ذكر من نعوت الكمال ﴿ اللهُ ﴾ خبر ذلكم ﴿ رَبّكُمْ ﴾ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك ﴿ فاعْبُدوهُ ﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه ، من مَلَك أو إنسان ، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿ أَفلاَ تَذّكّرونَ ﴾ أفلا تتفكرون ؟ فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة ، لا ما تعبدونه ﴿ إليْهِ مرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ بالموت والنشور لا إلى غيره فاستعدوا للقائه

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه وأحمد بلفظ (ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه) انظر سنن ابن ماجه ١ / ٣٩ طبعة الدكتور الأعظمي .

﴿ وَعْدَ اللهِ ﴾ أي وَعَد الله البعثَ بعد الموت وعداً ﴿ حَقّاً ﴾ كائناً لا شك فيه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الله تعالى ﴿ يَبْدأُ الخَلْقَ ﴾ يقال بدأ الله الخلق أي خلقهم ﴿ ثُم يُعيدُهُ ﴾ أي يبدأ الخلق أولا في الدنيا ليكلفهم ويأمرهم بالعبادة ، ثم يميتهم عند انقضاء آجالهم ، ثم يبعثهم بعد الموت ﴿ لِيجْزِيَ الذّينَ آمَنُوْا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ ﴾ أي يثيبهم بما يليق بلطفه وكرمه ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ بِالقِسْطِ ﴾ أي بالعدل فلا ينقص من ثواب محسن ، ولا يزيد على عقاب مسيء ، بل يجازي كلاً على قدر عمله كما قال تعالى ﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ ﴿ والذّينَ كَفَروا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي من ماء حار قد انتهت حرارته ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿ بما كَانوا يَكْفُرونَ ﴾ أي ذلك المذكور من الشراب والعذاب ، حاصل لهم بسبب كفرهم بالله ورسوله ، واعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فالله تعالى بقدرته يعيد الخلق بعد الموت ، ليحصدوا فيها ما زرعوه في الدنيا ، فمن زرع الخير يحصد السلامة ، ومن زرع الشر يحصد الندامة ، وإنما أخّر الجزاء إلى دار الآخرة ، لأن الدنيا لا تسعه ، ولله تعالى في كل شيء حكمة ، فإذا عرفت الحال فخف من الله المتعال ، فإنه غيور لا يرضى إقامة عبده على مخالفته ، وخروجه من دائرة طاعته .

وفي الحديث (لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معيشتهم ، فكيف بمن طعامه من زقوم وشرابه من حميم)[1] ومن تذكر المبدأ والمعاد ، وتفكّر أن الرجوع إلى رب العباد ، تاب من الخطايا والسيآت وصار من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكر أنه (إذا بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره شرّه ، قَبّل الشيطان بين عينيه ، وقال : فديتُ وجهاً لا يفلح أبداً ، فإن منّ الله عليه وتاب ، واستخرجه من غمرات الجهالة واستنقذه من ورطات الضلالة ، يقول الشيطان واويلاه قطع عمره في الضلالة ، وأقر عيني في المعاصي ، ثم أخرجه الله بالتوبة من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة) ﴿ هُوَ الذّي جَعَلَ الشّمْسَ ضِياءً ﴾ أي صيَّرها ذاتَ ضياء بالنهار ، أو خلقها وأنشأها حال كونها ذات ضياء ﴿ والقَمَرَ نُوْراً ﴾ أي ذا نور بالليل ، والضياء أقوى ولذا نسب الضياء إلى الشمس ، والنور إلى القمر ، وعند الحكماء الضياء ما يكون بالذات كالشمس ، والنور بالعرض كما يظهر على وجه الأرض ، فيكون نور القمر مستفاداً من الشمس ، يعني أن القمر في نفسه جرم مظلم يقبل النور ، فعند المقابلة يمتلىء نوراً من الشمس بطريق الانعكاس فيقع ذلك الشعاع على وجه الأرض ، ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ ﴾ أي وهيأ لكل من الشمس والقمر منازل ، لا يجاوزها ولا يقصر دونها ومنازل الشمس هي البروج الاثنا عشر ، تسير الشمس في كل واحد من هذه البروج شهراً حتى تتم السنة بانقضائها فتكون السنة الشمسية ـ وهي مدة وصول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من ذلك البرج ـ ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم على ما في صدر الشريعة ،

(١) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وابن حبان وأحمد عن ابن عباس ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤١.

ومنازل القمر ثمان وعشرون منزلة وهذه المنازل مقسومة على البروج الاثنى عشر لكل برج منزلتان وثلث فينزل القمر كل ليلة منها منزلة فإذا كان في آخر منازله دق واستقوس ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين وليلة واحدة إن كان الشهر تسعة وعشرين ، ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوماً ، وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسبت إليها العرب الأنواء المستطرة ﴿ **لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِنِينَ والحِسَابَ** ﴾ أي حساب الأوقات من الأشهر والأيام ، والليالي والساعات ، لصلاح معاشكم ودينكم من فرض الحج ، والصوم ، والفطر ، والصلاة وغيرها من الفروض ﴿ **ما خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ** ﴾ المذكور من الشمس والقمر على ما حكي بحال ما من الأحوال ﴿ **إلاّ** ﴾ ملتبساً ﴿ **بالحقّ** ﴾ مراعياً لمقتضى الحكمة البالغة ، وهو ما أشير إليه إجمالاً من العلم بأحوال السنين والأوقات المنوط به أمور معاملاتهم وعباداتهم ، فليس في خلقها عبثٌ باطل أصلاً ، حكي أن رجلاً رأى خنفساء فقال : ماذا يريد الله تعالى من خلق هذه أَحْسُنُ شكلها ؟ أم طيبُ ريحها ؟ فابتلاه الله بقرحة عجز عنها الأطباء ، حتى ترك علاجها فسمع يوماً صوت طبيب من الطرقيين ينادي في الدرب ، فقال هاتوه حتى ينظر في أمري فقالوا ما تصنع بطرقي وقد عجز عنك حذاق الأطباء ؟ فقال لابدّ لي منه فلما أحضروه ورأى القرحة استدعى بخنفساء فضحك الحاضرون فتذكر العليل القول الذي سبق منه قال أحضروا ما طلب فإن الرجل على بصيرة ، فأحرقها ووضع رمادها على قرحته فبرئت بإذن الله تعالى ، فقال للحاضرين إن الله تعالى أراد أن يعرفني أن أخس المخلوقات أعزُّ الأدوية ، وأن في كل خلقه حكمة ﴿ **يُفَصِّلُ الآياتِ** ﴾ التكوينية المذكورة الدالة على وحدانيته وقدرته ﴿ **لِقَوْمٍ يعْلَمونَ** ﴾ الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبدعها ، وخص العلماء بالذكر لأنهم المنتفعون بالتأمل فيها ﴿ **إنّ في اخْتِلاَفِ اللّيْلِ والنَّهارِ** ﴾ أي في اختلاف ألوانها بالنور والظلمة ، أو في اختلافها بذهاب الليل ومجيء النهار وبالعكس ، واختلف في أيهما أفضل قال الإمام النيسابوري : الليل أفضل لأنه راحةٌ ، والراحة من الجنة ، والنهار تعب والتعب من النار ، وقيل النهار أفضل لأنه محل النور والليل محل الظلام ﴿ **ومَا خَلَقَ اللهُ في السَمَواتِ** ﴾ من أنواع الكائنات كالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، والرياح ﴿ **والأَرْضِ** ﴾ من أنواعها أيضاً كالجبال ، والبحار ، والأشجار ، والأنهار ، والدواب ، والنبات ﴿ **لآياتٍ** ﴾ عظيمة دالة على وجود الصانع ، ووحدته وكال علمه وقدرته ﴿ **لِقَوْمٍ يتّقونَ** ﴾ خص المتقين لأنهم يحذرون العاقبة ، فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر وأما قوله عليه السلام (من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر)[1] أي قطعة منه ، فقد قال الحافظ : المنهي عنه من علم النجوم ، هو ما يدّعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان كمجيء المطر ، ووقوع الثلج ، وهبوب الريح ، وتغير الأسعار ونحو

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٦٨ .

ذلك ، ويزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب واقترانها وافتراقها ، وظهورها في بعض الأزمان دون بعض ، وهذا علم استأثر الله به لا يعلمه أحد غيره ، فأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال وجهة القبلة وكم مضى وكم بقي فإنه غير داخل في النهي انتهى .

﴿ **إنّ الذّينَ لا يرْجُونَ لقاءَنا** ﴾ المراد بلقائه تعالى إما الرجوع إليه بالبعث ، أو لقاء الحساب كما في قوله (**إنّى ظَنَنْتُ أنّى مُلاقٍ حِسابِيَه**) أي لا يتوقعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا ﴿ **وَرَضُوا بالحيوٰة الدنيا** ﴾ من الآخرة ، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ﴿ **واطمأنّوا بِها** ﴾ وسكنوا إليها قاصرين هممهم على لذائذها وزخارفها ، أو سكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها فبنوا شديداً وأمّلوا بعيداً وفي الأثر (عجبت من ثلاثة : ممن آمن بالنار ويعلم أنها وراءه كيف يضحك ، وممن اطمأنت نفسه بالدنيا وهو يعلم أنه يفارقها كيف يسكن إليها ، وممن هو غافل وليس بمغفول عنه كيف يلهو) ونزل النعمان بن المنذر تحت شجرة ليلهو ،فقال عدي :أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟ ثم أنشأ يقول :

ربَّ ركبٍ قد أناخُوا حولنا * يَمْزُجون الخمر بالماءِ الزُلال
ثم أضْحوا عَصَفَ الدّهر بهم وكذاكَ الدهرُ حالاً بعد حال

فتنغَّصَ على النعمان يومُه ﴿ **والذّينَ هُمْ عنْ آياتِنا** ﴾ عن آيات القرآن أو عن دلائل الصنع ، فيكون المراد الآيات التكوينية ﴿ **غَافِلونَ** ﴾ لا يتفكرون فيها لانهماكهم فيما يضادها أي للجمع بين الوصفين المتغايرين : الانهماك في لذات الدنيا وزخارفها ، والذهول عن آيات الله ودلائل المعرفة ﴿ **أُولئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ﴿ **مأْوٰيهُمْ** ﴾ أي مسكنهم ومقرهم ﴿ **النّارُ** ﴾ نار جهنم لا ما اطمأنوا بها من الحياة الدنيا ونعيمها ﴿ **بِما كانُوا يَكْسِبون** ﴾ أي جُوزوا بما واظبوا عليه من أصناف المعاصي والسيآت ﴿ **إنّ الذّينَ آمنُوا** ﴾ فعلوا الإيمان ، أو آمنوا بما تشهد به الآيات التي غفل عنها الغافلون ﴿ **وَعَمِلوا الصّالحاتِ** ﴾ أي الأعمال الصالحة في أنفسها اللائقة بالإيمان وهي ما كان لوجه الله تعالى ورضاه ﴿ **يَهْديهِمْ رَبّهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **بِإيمَانِهِمْ** ﴾ أي بسبب إيمانهم وبنوره إلى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة وقد روي (أن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة فيقول له أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار) .

﴿ **تَجْري من تحتِهِمُ** ﴾ من تحت سررهم المرفوعة الموضوعة في البساتين والرياض ﴿ **الأنْهارُ** ﴾

الأربعة ﴿ **في جنات النعيم** ﴾ أي في جنات يتنعمون فيها ويترفهون ، وسميت جنة لاستتار أرضها بأشجارها ، ومنه سمي الجنُّ لاستتارهم عن الأبصار ﴿ **دَعْوٰيهُمْ فيها** ﴾ أي دعاؤهم في تلك الجنات ﴿ **سُبحانك اللهم** ﴾ أي ياالله نسبحك تسبيحاً وننزهك عن الخلف في الوعد فقد وجدنا ما وعدتنا ﴿ **وتحيّتهُمْ فيها** ﴾ أي تحية بعضهم لبعض في الجنة ﴿ **سَلامٌ** ﴾ أي سلامة من كل مكروه أي تحية الملائكة إياهم كما قال تعالى (**والملائكةُ يدْخُلونَ عليْهِمْ منْ كُلِ بابٍ سلامٌ عليْكُمْ**) أو تحية الله إياهم كما قال (**سَلامٌ قوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحيمٍ**) ، ﴿ **وَآخِر دعْوٰيهُمْ** ﴾ أي خاتمة دعائهم ﴿ **أَنِ الحمدُ للهِ رَبِّ العَالمينَ** ﴾ أي أن يقولوا ذلك ، أي دعاؤهم منحصر فيما ذكر ، وإن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، روي أن أهل الجنة إذا اشتهوا شيأ يقولون « سبحانك اللهم » فيأتيهم الخدم بالطعام والشراب ، وكل ما يشتهون ، فإذا طعموا قالوا ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ واعلم أنه لا تكليف في الجنة ولا عبادة ، وما عبادة أهل الجنة إلا أن يسبّحوا الله ويحمدوه ، وذلك ليس بعبادة ، وإنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة ، وفيه إشارة إلى أن اللسان إنما خلق للذكر والدعاء ، لا لكلام الدنيا والغيبة والبهتان ، ﴿ **ولو يُعَجّلُ الله للنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالخَيْرِ** ﴾ التعجيل تقديم الشيء قبل وقته والاستعجال طلب العجلة ، والمراد بالشر العذاب وسمي به لأنه أذى مكروه في حق المعاقب ، وكانوا يستعجلون العذاب المتوعد به ﴿ **لقُضِيَ إليْهِمْ أجَلُهُمْ** ﴾ لأدّي إليهم الأجل الذي عيّن لعذابهم وأُميتوا وأُهلكوا بالمرة ، وما أُمهلوا طرفة عين ، لأن تركيبهم في الدنيا لا يحتمل ما استعجلوه من العذاب ، ولكن لا نعجّل ولا نقضي ﴿ **فَنَذَرُ الذّينَ** ﴾ أي نترك فالفاء للعطف على مقدر لا على يعجل ، لأن التعجيل لم يقع ، وتركهم في طغيانهم يقع ﴿ **لا يَرْجُونَ لقاءَنا** ﴾ لا يتوقعون جزاءنا في الآخرة ﴿ **في طُغْيانِهِمْ** ﴾ الذي هو عدم رجاء اللقاء وإنكار البعث والجزاء ﴿ **يَعْمَهون** ﴾ أي حال كونهم متحيرين ومترددين ، وذلك لأنه لا صلاح ولا حكمة في إماتتهم وإهلاكهم عاجلاً ، إذ ربما آمنوا بعد ذلك أو ربما خرج من أصلابهم من يكون مؤمناً ، ولذلك لا يعاجلهم الله تعالى بإيصال الشر إليهم بل يتركهم إمهالاً لهم واستدراجاً ، والآية عامة في كل من يستعجل العقاب الذي يستحقه بالمعاصي ، ويدخل فيها دعاء الإنسان على نفسه وولده بما يكره أن يستجاب له ، مثل قول الرجل إذا غضب على ولده : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، وقوله لنفسه رفعني الله من بينكم ، قال شهر بن حوشب : قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملكين لا تكتبا على عبدي في حال ضجره شيأ ، ثم بين الله تعالى أنهم كاذبون في استعجال العذاب ، بناءً على أنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه ، لا يصبر عليه ، بل يتضرع إلى الله في إزالته عنه فقال ﴿ **وإذا مسّ الإنسانَ** ﴾ أصابه ﴿ **الضُّرُّ** ﴾ جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من

الشدائد إصابة يسيرة ﴿ دَعانا لجنْبهِ ﴾ أي دعانا كائناً على جنبه أي مضطجعا ، أو ملقى لجنبه على الأرض لما به من المرض ﴿ أَوْ قاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ وذلك أن من الضرر ما يغلب الإنسان ويجعله صاحب فراش يضطره إلى الاضطجاع ، ومنه ما يكون أخف من ذلك ويجعله بحيث يقدر على القعود ، ومنه ما يتمكن الإنسان معه على القيام لا غير ، ويجوز أن يكون لجميع الأحوال أي دعانا في جميع أحواله مما ذكر وما لم يذكر ، لإزالة الضرّ عنه ﴿ فلمّا كَشَفْنَا عنهُ ضُرَّهُ ﴾ رفعناه وأزلناه بسبب إخلاصه في الدعاء ﴿ مرَّ ﴾ مضى على طريقته ، ونسي حالة الجهد والبلاء ، واستمر على كفره ﴿ كَأَنْ ﴾ أي كأنه ﴿ لَمْ يدْعُنا إلى ضُرٍ مَسّهُ ﴾ أي مشبها بمن لم يدع إلى كشف ضره ﴿ كذٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التزيين ﴿ زُيّنَ للمُسْرِفينَ ما كانُوا يعْملونَ ﴾ من الإعراض عن التضرع ، والانهماك في الشهوات حين انكشاف الضرّ عنهم ، وسمي الكافر مسرفاً لكونه مسرفاً في أمر دينه ، متجاوزاً عن الحد في الغفلة عنه ، فإنه لا شبهة في أن المرء كما يكون مسرفاً في الإنفاق ، فكذا يكون مسرفاً في اتباع الهوى وتضييع العمر فيما لا ينفعه بل يضره .

﴿ ولقَدْ أهلكْنا القُرونَ ﴾ يعني الأمم الماضية مثل قوم نوح وعاد ﴿ منْ قبْلِكُمْ ﴾ أي أهلكناهم من قبل زمانكم يا أهل مكة ﴿ لمّا ظَلَمُوا ﴾ حين ظلموا بالتكذيب واستعمال القوى والجوارح لا على ما ينبغي ﴿ وَجاءتْهُمْ ﴾ أي والحال أنهم قد جاءتهم ﴿ رُسُلُهُمْ بالبيّناتِ ﴾ أي بالحجج الدالة على صدقهم ﴿ ومَا كانُوا ليُؤْمِنوا ﴾ وما استقام لهم أن يؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله لهم وعلمه بأنهم يموتون على كفرهم ، وهو عطف على ظلموا كأنه قيل لما ظلموا وأصروا على الكفر بحيث لم يبق فائدة في إمهالهم أهلكناهم ﴿ كذٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء وهو إهلاكهم بسبب تكذيبهم للرسل ﴿ نَجْزي القَوْمَ المُجْرِمينَ ﴾ نجزي كل مجرم ﴿ ثُمّ جعلْناكُمْ خلائِفَ في الأرْضِ منْ بعدِهِمْ ﴾ استخلفناكم فيها بعد القرون التي أهلكناها استخلاف من يختبر ، لأن الله تعالى لا يحتاج في العلم بأحوال الإنسان إلى الاختبار والامتحان في الحقيقة ، ولكنْ يعامل معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه ﴿ لِننْظُرَ ﴾ النظر عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي طلباً لرؤيته ، وهو مستعار للعلم المحقق الذي لا يتطرق إليه شك ولا شبهة .

﴿ كيْفَ تَعْمَلونَ ﴾ كيف معمول تعملون وفائدته الدلالة على أن المعتبر في الجزاء جهات الأفعال وكيفياتها ولذلك يحسن الفعل تارة ويقبح أخرى وفي الحديث (إن الدنيا حلوة خضرة) يعني حسنة في المنظر صورتها ومتاعها ، وإنما وصفها بالخضرة لتشبيهها بالخضروات في سرعة زوالها ، وفي بيان كونها غرارة يفتتن الناس بحسنها ، حسنُها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة ، فإن النفس تطلبها

طلبا حثيثا فكذلك الدنيا ، وهي في الحال حلوة خضراء ، وفي المآل مرة كدرة ، نعمت المرضعة وبئست الفاطمة (**وإن الله مستخلفكم فيها**) أي جاعلكم خلفاء في الدنيا (**فناظر كيف تعملون**)[1] أي تتصرفون قال قتادة ذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال صدق ربنا جعلنا خلفاء الأرض لينظر إلى أعمالنا ، فأروه من أعمالكم خيراً بالليل والنهار ، والسر والعلانية * وفي الآية وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ ليرتدعوا عن إنكار النبوة حذراً من أن ينزل بهم عذاب الاستئصال كما نزل بمن قبلهم من المكذبين ﴿ **وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ** ﴾ أي على مشركي مكة ﴿ **آياتُنا** ﴾ القرآنية الدالة على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك حال كونها ﴿ **بيّناتٍ** ﴾ واضحات الدلالة على ذلك ﴿ **قَالَ الّذينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا** ﴾ يعني المكذبين للحشر ﴿ **ائْتِ بِقُرْآنٍ غيْرِ هَذا** ﴾ القرآن المنزل ، بأن لا يكون على ترتيب هذا ونظمه ، وبأن يكون خالياً عما نستبعده من أمر البعث والجزاء ﴿ **أَوْ بَدِّلْه** ﴾ بوضع مكان الآيات الدالة على ما نستبعده ونستكرهه آيات أخر موافقة لطريقتنا ، كما بدل أحبار اليهود التوراة ورهبان النصارى الإنجيل بما كان موافقاً لهواهم ، ولعلهم سألوه ذلك طمعاً في أن يسعفهم من قبل نفسه ، فيلزموه بأن يقولوا قد تبيَّن لنا أنك كاذب في دعوى أن ما تقرأه علينا كلام إلهي ، وكتاب سماوي ، أوحي إليك بواسطة الملك ، وإنك تقوله من عند نفسك وتفتري على الله كذبا ﴿ **قُلْ ما يَكونُ لي** ﴾ أي ما يصح ولا يمكنني أصلاً ﴿ **أَنْ أُبدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نفْسي** ﴾ أي من قبل نفسي ﴿ **إنْ أَتّبِعُ إلاّ ما يُوحىٰ إليّ** ﴾ أي ما أتبع إلا ما يوحى إليَّ من غير تغيير في شيء أصلاً كأنه قيل : ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إليّ ﴿ **إنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبي** ﴾ أي بالتبديل ﴿ **عَذابَ يوْمٍ عَظيمٍ** ﴾ هو يوم القيامة ﴿ **قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ** ﴾ أن لا أتلو عليكم ما أوحي إليّ من القرآن ﴿ **ما تَلَوتُهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ لاني أمي وليس التلاوة والقراءة من شأني .

﴿ **ولا أَدْرَاكُمْ بهِ** ﴾ دريتُ الشيء ودريت به أي علمته ، وأدرانيه غيري أي أعلمنيه والمعنى ولا أعلمكم الله القرآن على لساني ، ولا أشعركم به أصلاً ﴿ **فقدْ لبِثْتُ فيكُمْ** ﴾ أي مكثت بين ظهرانيكم ﴿ **عُمُراً** ﴾ بضمتين الحياة والجمع أعمار أي مدة متطاولة وهي أربعون سنة ﴿ **منْ قَبْلِهِ** ﴾ من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ، وكان عليه السلام لبث فيهم قبل الوحي أربعين سنة ، ثم أوحي إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة ، ثم هاجر إلى المدينة فأقام عشر سنين ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة ، فمن عاش بين أظهرهم أربعين سنة ، لم يمارس فيها علماً ، ولم يشاهد عالماً ، ولم ينشىء قريضاً ، ولا خطبة ثم قرأ

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وتتمته (فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٠٤.

عليهم كتاباً بزّت فصاحته ، فصاحة كل منطيق ، وعلا كل منثور ومنظوم ، واحتوى على قواعد علميْ الأصول والفروع ، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه ، علم أنه معلم به من عند الله وإن ما قرأه عليه معجز خارق للعادة ﴿ **أَفَلا تعْقِلونَ** ﴾ أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكر فيه ، لتعلموا أنه ليس إلا من الله ؟ ﴿ **فَمنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلى اللهِ كَذِباً** ﴾ احتراز مما أضافوه إليه عليه السلام ، وهو أنه عليه السلام نظم هذا القرآن من عند نفسه ، ثم قال إنه من عند الله افتراء عليه ، فإنَ قولهم ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدّله** ﴾ كناية عنه ، فقوله عليه السلام ﴿ **فمن أظلم ممن افترى** ﴾ كناية عن نفسه كأنه قيل : لو لم يكن هذا القرآن من عند الله كما زعمتم ، لما كان أحد في الدنيا أظلم على نفسه منيّ حيث افتريته على الله ، لكن الأمر ليس كذلك بل هو وحي إلهي ﴿ **أَوْ كذّب بآياتِهِ** ﴾ فكفر بها ﴿ **إِنّهُ لا يُفْلِحُ المجْرمونَ** ﴾ لا ينجون من محذور ، ولا يظفرون بمطلوب ، لأن الطريق طريق الصدق والإخلاص ، لا طريق الكذب والرياء ، فمن سلك سبيل الصدق أفلح ونجا ووصل ، ومن سلك سبيل الكذب خاب وهلك وضل ، وعن أبي القاسم الفقيه أنه قال : أجمع العلماء على ثلاث خصال ، أنها إذا صحت ففيها النجاة ، ولا يتم بعضها إلا ببعض : الإسلام الخالص ، وطيب الغذاء ، والصدق لله في الأعمال ﴿ **ويَعْبُدونَ** ﴾ أي كفار مكة ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي متجاوزين الله لا بمعنى ترك عبادته بالكلية ، بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلها قريباً لعبادة الأصنام ﴿ **مالاَ يضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ** ﴾ أي الأصنام التي لا قدرة لها على إيصال الضرر إليهم ، ولا على المنفعة ، لأن الجماد بمعزل عن ذلك ، والمعبود ينبغي أن تكون عبادته بجلب نفع ، أو دفع ضر ﴿ **وَيقُولُونَ هَؤُلاءِ** ﴾ الأصنام ﴿ **شَفَعاؤُنا عِنْد اللهِ** ﴾ تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا ، أو في الآخرة إن يكن بعث ، واعلم أن أول ما حدثت عبادة الأصنام في قوم نوح عليه السلام ، وذلك أن آدم كان له خمسة أولاد صلحاء وهم « ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر » فمات « ودّ » فحزن الناس عليه حزناً شديداً ، فاجتمعوا حول قبره لا يكادون يفارقونه ، فلما رأى إبليس ذلك جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم : هل لكم أن أصّور لكم صورة إذا نظرتم إليها ذكرتموه ؟ قالوا : نعم ، فصوَّر لهم صورته ، ثم صار كلما مات منهم واحد صوَّر صورته ، وسموا تلك الصور بأسمائهم ، ثم لما تقادم الزمن وتناست الآباء والأبناء وأبناء الأبناء ، قال لمن حدث بعدهم : إن الذين كانوا قبلكم يعبدون هذه الصور فعبدوها ، فأرسل الله إليهم نوحاً فنهاهم عن عبادتها فلم يجيبوه لذلك ، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق ، وأول من نصب الأوثان في العرب « عمرو بن لحي » من خزاعة ، وذلك أنه خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فرأى بأرض البلقاء العماليق وهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم :

ما هذه ؟قالوا : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب ؟ فأعطوه صنما يقال له هبل من العقيق على صورة إنسان فقدم به مكة فنصبه في بطن الكعبة على يسراها وأمر الناس بعبادته وتعظيمه فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده وكان أهل الطائف يعبدون اللات ، وأهل مكة العزى ، ومناة ، وهبل ، وإسافاً ﴿ **قُلْ أَتنبّئونَ اللهَ** ﴾ أتخبرونه ﴿ **بما لا يَعْلَمُ** ﴾ أي بالذي لا يعلمه كائناً ﴿ **في السّمواتِ ولا في الأرْضِ** ﴾ في الاستفهام الإنكاري تقريع لهم وتهكم بهم حيث نزلوا منزلة من يخبر علام الغيوب بما ادعوه من المحال الذي هو وجود الشركاء وشفاعتهم عند الله ، وفي الظرف تنبيه على أن ما يعبدونه من دون الله إما سماوي كالملائكة والنجوم ، وإما أرضي كالأصنام المنحوتة من الشجر والحجر ، ولا شيء من الموجودات فيهما ، إلا وهو حادث مقهور مثلهم ، لايليق أن يشرك به سبحانه ، فإن شيأ من ذلك لو كان موجوداً لَعَلِمه الله ، وما لا يعلمه الله استحال وجوده ﴿ **سُبْحانَهُ وَتَعالى عمّا يُشْرِكونَ** ﴾ أي تبرأ وجلَّ عَن إشراكهم .

﴿ **وما كَانَ النّاسُ إلاّ أُمةً واحدةً** ﴾ أي على ملة واحدة في عهد آدم عليه السلام ، إلى أن قتل قابيل هابيل فإن الناس كانوا متفقين على الدين الحق ﴿ **فاخْتَلَفوا** ﴾ أي تفرقوا إلى مؤمن وكافر ﴿ **وَلَوْلاَ كَلمةٌ سَبَقتْ منْ رَبّكَ** ﴾ أي لولا الحكم الأزلي بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة ، فإنه يوم الفصل والجزاء ﴿ **لَقُضِيَ بينَهُمْ** ﴾ عاجلاً ﴿ **فيما فيهِ يخْتَلِفونَ** ﴾ بإهلاك المبطل ، وإبقاء المحق ، وهذا الاختلاف كما كان بين الأمم السالفة ، كذلك كان بين هذه الأمة ، فمن مؤمن ومن كافر،ومن مبتدع ، وفي اختلافهم تظهر إرادة الله ومشيئته ، حيث إن الكمال الإلهي إنما يظهر بمظاهر جماله وجلاله ، لكن ينبغي للناس أن يكونوا على التآلف والتوافق ، دون التباغض والتفرق ، لأن يد الله مع الجماعة ، وإنما يأكل الذئب الشاة المنفردة ، وأوصى حكيم أولاده عند موته وكانوا جماعة ، فقال لهم :

ائتوني بعصيّ فجمعها ، وقال اكسروها وهي مجموعة ، فلم يقدروا على ذلك ، ثم فرّقها وقال لهم : خذوا واحدة واحدة فاكسروها ، فقال لهم هكذا أنتم بعدي ، لن تغلبوا ما اجتمعتم ، فإذا تفرقتم تمكّن منكم عدوكم فأهلككم ، وفي الحديث (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضُّوا عليها بالنواجذ)[1] والحاصل أن من الاختلاف ما كان مذموماً وما كان ممدوحاً ، فالمذموم هو ما كان في العقائد

(١) الحديث أخرجه أبو داود عن العرباض بن سارية قال : (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال رجل يارسول الله : كأن هذه موعظة مودّع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : أوصيكم ..) الحديث وانظر جامع الأصول ١ / ٢٧٨ .

وأصول الدين ، والممدوح هو ما كان في الأعمال وفروع الدين ، واختلاف الأئمة رحمة ، وعن علي كرم الله وجهه قال له يهودي ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم ؟ فقال إنما اختلفنا عنه لا فيه ، ولكنكم ما جفَّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم (**اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**) وهذا من الأجوبة المسكتة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ﴿ **ويَقُولُون** ﴾ أي كفار مكة ﴿ **لوْلا** ﴾ للتحضيض مثل هلاَّ ﴿ **أُنْزِلَ علَيْهِ** ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **آيَةٌ** ﴾ معجزة ﴿ **منْ رَبّهِ** ﴾ كانوا يقولون إن القرآن يمكن معارضته ، كما دل عله قولهم « لو نشاء لقلنا مثل هذا » ويقترحون أشياء أخر سوى القرآن لتكون معجزة ، مثل اليد ، والعصا وتفجير الأنهار وغيرها ﴿ **فَقُلْ** ﴾ لهم في الجواب ﴿ **إِنَّما الغَيْبُ للهِ** ﴾ اللام للاختصاص والمعنى إن ما اقترحوه وزعمتم أنه من لوازم النبوة ، من الغيوب المختصة بالله سبحانه ، لا وقوف لي عليه ، ولو علم الصلاح في زيادة الآيات لأنزلها عليَّ ﴿ **فانتَظِروا** ﴾ لنزول ما اقترحتموه ﴿ **إِنّي مَعَكُمْ مِنَ المنْتَظِرِينَ** ﴾ لما يفعل الله بكم بجحودكم ما نزل عليّ من الآيات العظام واقتراحكم غيره ، وقد أمهلهم الله سبحانه ليأخذ الظالم منهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد يُعجِّل عقوبة من يشاء . حكي أن عثمان الغازي جد السلاطين العثمانية ، إنما وصل إلى ما وصل برعاية كلام الله تعالى ، حتى فتح الله على يديه معظم البلاد ، فمن ذلك الوقت إلى الآن الدولة العثمانية على الازدياد ، بسبب تعظيمه كتاب الله ، فليلازم العاقل تعظيم القرآن العظيم ، ليزداد جاهه ورتبته ، وليحذر من تحقيره لئلا ينتقص شأنه وهيبته ، ألا ترى أن السلطان محمد الرابع وأعوانه لما رفضوا العمل بالقرآن ، وأخذوا بالظلم والعدوان ، سلَّط الله عليهم وعلى الناس بسببهم القحط والخوف ، فخرج من أيديهم أكثر القلاع الرومية ، واستولى الكفار إلى أن طمعوا في القسطنطينية ، واشتد الخوف إلى أن قال الناس أين المفرّ ؟ وكل ذلك وقع من القرناء السوء ، فإنهم كانوا يحثون السلطان على الجريان بخلاف الشرع ، اللهم اجعلنا من المعتبرين واجعلنا من المتبصرين ﴿ **وَإِذا أَذَقْنَا النّاسَ** ﴾ أي أهل مكة ﴿ **رَحْمَةً** ﴾ صحة وسعة ﴿ **مِنْ بعْدِ ضرّاءَ** ﴾ كقحط ومرض ﴿ **مَسّتْهُمْ** ﴾ أصابتهم وخالطتهم حتى ظهر أثرها فيهم ، وإسناد المساس إلى الضراء ، بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة ، من الآداب القرآنية كما في قوله تعالى (**وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ**) ونظائره ﴿ **إذا** ﴾ للمفاجأة ﴿ **لَهُمْ مَكرٌ في آياتِنا** ﴾ أي فاجأوا في وقت إذاقة الرحمة وقوع المكر منهم بالطعن في الآيات والاحتيال في دفعها وسارعوا إليه قبل أن ينفضوا عن رؤسهم غبار الضراء ، قيل قحط أهل مكة سبع سنين ، حتى كادوا يهلكون ، ثم رحمهم الله وأنزل الغيث على أراضيهم ، فطفقوا يقدحون في آيات الله ويكيدون رسوله ، .

﴿ **قُل اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً** ﴾ أي أعجل عقوبة ، أي عقابه أسرع وصولاً إليكم مما يأتي منكم في دفع

الحق ، وتسمية العقوبة بالمكر لوقوعها في مقابلة مكرهم ، فيكون من باب المشاكلة ، والمكر إخفاء الكيد ، وإرادة الله خفية عليهم ، وإرادتهم ظاهرة .

تـــوكلْ على الرحمن واحتمـــل الردى * ولا تخش مما قد يكيد لـك العدى

﴿ **إِنَّ رُسُلَنا** ﴾ الذين يحفظون أعمالكم وهم الكرام الكاتبون ، وفيه التفاتٌ إذ لو جرى على أسلوب قوله (**قُلِ اللهُ**) لقيل إن رسله ﴿ **يَكتُبونَ مَا تَمْكُرونَ** ﴾ أي مكركم أو ما تمكرونه ، وهو تحقيق للانتقام ، وتنبيه على أن ما دبروا إخفاءه لم يخف على الحفظة ، فضلاً عن أن يخفى على الله ، وفيه تصريح بأن للكفار حفظة ، فإن قيل : فالذي يكتب عن يمينه أي شيء يكتب ولم يكن لهم حسنة ؟ يقال : إن الذي عن شماله يكتب بإذن صاحبه ، ويكون شاهداً على ذلك وإن لم يكتب ، واختلفوا في عددهم فقال عبد الله بن المبارك : هم خمسة اثنان بالنهار ، واثنان بالليل ، وواحد لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، فثبت بهذا أن أفعال الناس وأقوالهم ، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين ، مضبوطة مكتوبة للإلزام عليهم يوم القيامة ، وأن المكر والحيلة لا مدخل له في تخليص الإنسان من مكروه ، فمن ظن نجاته في المكر كان كثعلب ظن نجاته في تحريك ذنبه ، وإنما المنجي هو العمل الصالح بعد الإيمان الكامل ، والعاقل يتدارك حاله قبل وقوع القضاء ﴿ **هُوَ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **الذّي يُسيّرُكُمْ** ﴾ من التسيير والتضعيف فيه للتعدية ﴿ **في البَرِّ** ﴾ على الأقدام وظهر الدواب ، من الخيل والبغال والحمير والإبل ﴿ **والبَحْرِ** ﴾ على السفن الكبيرة والصغيرة وفيه إشارة إلى أن المسيّر في الحقيقة هو الله تعالى لا الريح ، فإن الريح لا يتحرك بنفسه ، بل له محرك إلى أن ينتهي إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ **حَتّى إذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ** ﴾ غاية لقوله يسيركم في البحر ﴿ **وَجَرينَ** ﴾ أي الفلك بمعنى السفن ﴿ **بِهِمْ** ﴾ أي بالذين فيها ، والالتفات في « بهم » للمبالغة في التقبيح والإنكار عليهم ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليُعجّبهم منها ﴿ **بريح طَيّبةٍ** ﴾ لينة الهبوب موافقة لمقصدهم ﴿ **وَفَرِحُوا بِها** ﴾ بتلك الريح لطيبها وموافقتها ﴿ **جَاءَتْها** ﴾ أي تلقت الريح الطيبة واستولت عليها ﴿ **رِيحٌ عاصِفٌ** ﴾ أي شديدة الهبوب ، ولم يقل عاصفة لاختصاص الريح بالعصوف فلا حاجة إلى الفارق ﴿ **وَجَاءَهُمُ المَوْجُ** ﴾ وهو ما ارتفع من الماء ﴿ **مِنْ كُلّ مكانٍ** ﴾ أي من أمكنة مجيء الموج ، ولا بعد في مجيئه من جميع الجوانب أيضا ﴿ **وَظَنّوا أَنّهم أُحِيطَ بِهِمْ** ﴾ أي هلكوا فإن ذلك في الهلاك ، وأصله إحاطة العدو بالحي ﴿ **دَعَوُا اللهَ** ﴾ بدل من ظنوا بدل اشتمال ﴿**مُخْلِصينَ لَهُ الدّينَ** ﴾ من غير أن يشركوا به شيأ من آلهتهم ، فإن إخلاص الدين عبارة عن ترك الشرك ، وهذا الإخلاص ليس مبنياً على الإيمان ، بل جار مجرى الإيمان الاضطراري ﴿ **لَئِنْ أَنجَيْتَنَا** ﴾ اللام موطئة للقسم على إرادة القول أي دعوا حال كونهم قائلين : والله لئن أنجيتنا

﴿ مِنْ هَذهِ ﴾ الورطة ﴿ لَنَكُونَنّ ﴾ بعد ذلك أبداً ﴿ مِنَ الشّاكِرِينَ ﴾ لنعمك وذلك باتباع أوامرك والاجتناب عن مساخطك ، لا نكفر نعمتك بعبادة غيرك ﴿ فَلَمّا أَنْجيهُمْ ﴾ مما غشيهم من الكربة إجابة لدعائهم ، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة ﴿ إذا هُمْ يَبْغونَ في الأرْضِ ﴾ أي فاجأوا الفساد فيها ، وسارعوا إلى ما كانوا عليه من التكذيب والشرك ، والجراءة على الله تعالى ﴿ بِغَيْرِ الحقّ ﴾ أي حال كونهم ملتبسين بغير الحق ﴿ يَا أَيُّها النّاسُ ﴾الباغون ﴿ إنّما بغيُكُمْ ﴾ الذي تتعاطونه ﴿ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي وباله راجع عليكم ، وجزاؤه لاحق بكم ، لا على الذين تبغون عليهم ﴿ مَتاعَ الحَيَاةِ الدُّنيا ﴾ أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا أياماً قلائل ، فتفنى الحياة وما يتبعها من اللذات ، وتبقى العقوبات على أصحاب السيآت ﴿ ثُمّ إلَيْنا مَرْجِعُكُمْ ﴾ في يوم القيامة لا إلى غيرنا ﴿ فَنُنَبِئُكُمْ بما كُنْتُم تعْملونَ ﴾ في الدنيا وهو وعيد بالجزاء كقول الرجل لمن يتوعده : سأخبرك بما فعلت ، وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن الفلك نعمة من الله تعالى ، إذ قد يحتاج الناس إلى عبور البحر به ، ولذا امتن الله عليهم بالتسيير في البحر ، ويجوز ركوب البحر للرجال ، وكره ركوبه للنساء ، لأن الستر فيه لا يمكنهن غالباً ، ولا غض البصر فيه ، ولا يؤمن انكشاف عوارتهن لا سيما فيما صغر من السفن ، مع ضرورتهن إلى قضاء الحاجة بحضرة الرجال ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يرفعه إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تركب البحر إلا حاجاً أو معتمراً ، أو غازياً في سبيل الله ، فإن تحت البحر ناراً ، وتحت النار بحراً)[1] قيل لبحّار ما أعجب ما رأيت من عجائب البحر ؟ قال : سلامتي منه ، وركب نحويٌّ سفينة فقال للملاح : أتعرف النحو ؟ قال لا ، قال : ذهب نصف عمرك ، فهاجت الريح واضطربت السفينة ، فقال الملاح : أتعرف السباحة ؟ قال : لا ، قال ذهب كلُّ عمرك ﴿ إنّما مَثَلُ الحيٰوة الدُّنْيا ﴾ أي حالها العجيبة وسميت الحال العجيبة مثلاً ، تشبيهاً لها بالمثل السائر في الغرابة ﴿ كماءٍ أَنْزلناهُ مِنَ السّماء فاخْتَلَطَ بهِ نباتُ الأرْضِ ﴾ أي اختلط بسبب المطر نبات الأرض ، واشتبك بعضه في بعض وكثف ﴿ ممّا يأْكُلُ النّاسُ ﴾ من الزروع والبقول ﴿ والأنْعامُ ﴾ من الحشيش ﴿ حتّى ﴾ غاية للاختلاط باعتبار الجزاء الذي هو إتيان الأمر الإلهي ﴿ إذا أَخَذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ زينتها وحسنها ﴿ وازّيّنَتْ ﴾ بأصناف النبات وأشكالها وألوانها المختلفة ، كعروس أخذت من ألوان الثياب والزين فتزينت بها ، ففيها استعارة بالكناية ، حيث شبّهها بالعروس وأثبت لها ما يلائم العروس ، وهو أخذ الزينة وهو قرينة الاستعارة بالكناية ﴿ وَظَنّ أَهْلُها ﴾أي أهل تلك الأرض ﴿ أَنّهُم قادِرُونَ عَليها ﴾متمكنون من حصدها ورفع غلتها ﴿ أَتيهَا أَمْرُنا ﴾ جواب إذا ﴿ ليْلاً أَوْ نَهاراً

(١) الحديث أخرجه أبو داود برقم / ٢٤٨٩ / في الجهاد ، وإسناده ضعيف .

فجعلناها ﴾ أي زروع تلك الأرض وسائر ما عليها ﴿ **حَصِيداً** ﴾ شبيهاً بما حصد من أصله ﴿ **كَأَنْ لم تَغْنَ** ﴾ زروعها أي لم تنبت ﴿ **بالأمْسِ** ﴾ يقال غني بالمكان إذا أقام به ﴿ **كذلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك التفصيل البديع ﴿ **نُفَصِلُ الآياتِ** ﴾ القرآنية التي من جملتها هذه الآيات ، المنبهة على أحوال الحياة الدنيا أي نوضحها ونبّينها ﴿ **لِقَوْمٍ يتفكَّرُونَ** ﴾ في تضاعيفها ويقفون على معانيها واعلم أن التشبيه الواقع في هذه الآية ، تشبيه مركب ، لأنه شبهت الهيئة المنتزعة من اجتماع الحياة وبهائها ، وسرعة انقضائها بعد اغترار الناس بها ، بالهيئة المنتزعة من اجتماع خضرة الأرض ونضارتها ، وانعدامها عقيبها بآفة سماوية قال بعض الحكماء : الدنيا كالأم تربي الناس كالأولاد ، فمن اشتغل بالأم كالطِّفل عن المعلم بقي جاهلاً ، وصار كأنه اتخذها صناً لنفسه يعبده ، ومن اشتغل بالمعلم عن الأم ، صار عالماً ، وتخلّص من عبادة الهوى ، ووصل إلى المقصود ، فذم الدنيا إنما هو بحسب اشتغاله عن الله تعالى ، ﴿ **وَاللهُ** ﴾ اسم للذات الأحدية ، جامع لجميع الأسماء والصفات ، ومن ثمة توسَّل به بعضهم إلى دخول عالم الحقيقة ، وقال رجل للشبلي قدس سره ، لم تقول « الله » ولا تقول « لا إله إلا الله » ؟ فقال : أخشى أن أؤخذ في وحشة الجحد ﴿ **يَدْعو** ﴾ الناس جميعاً على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **إلىٰ دارِ السّلامِ** ﴾ أي إلى دار السلامة من كل مكروه وآفة ، وهي الجنة أولها العطاء ، وأوسطها الرضاء ، وآخرها اللقاء ، حكي أن بعض ملوك الأمم السالفة ، بنى مدينة وتأنق وتغالى في حسنها وزينتها ، ثم صنع طعاماً ودعا الناس إليه ، وأجلس أناسا على أبوابها يسألون كل من خرج : هل رأيتم عيباً ؟ فيقولون : لا ، حتى جاء أناس عليهم أكسية ، فسألوهم هل رأيتم عيباً ؟ فقالوا : عيبين اثنين ، فحبسوهم ودخلوا على الملك ، فأخبروه بما قالوا ، فقال : ما كنت أرضى بعيب واحد ؟ فائتوني بهم فأدخلوهم عليه ، فسألهم عن العيبين ، ما هما ؟ فقالوا : تَخْربُ ، ويموتُ صاحبها ، فقال : أفتعلمون داراً لاتخرب ولا يموت صاحبها ؟ قالوا : نعم ، فذكروا له الجنة ونعيمها وشوَّقوه إليها ، وذكروا النار وعذابها وخوفوه منها ، ودعوه إلى عبادة الله تعالى ، فأجابهم إلى ذلك وخرج من ملكه ، هارباً تائباً إلى الله تعالى وفي الحديث (ما من يوم تطلع فيه الشمس إلاَّ وبجنبتَيْها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلق إلا الثقلين : أيها الناس هلموا إلى ربكم ، والله يدعو إلى دار السلام)[1] ويجوز أن يكون المعنى إلى دار الله تعالى ، فإن السلام اسم من أسمائه سبحانه ، والإضافة للتشريف كبيت الله ، ومعنى السلام في حقه تعالى أنه سلم ذاته من العيب ، وصفاته من النقص ، وأفعاله من الشر ، وفي حق العبد أنه سلم من الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبُه ، وسلم من الآثام والمحظورات جوارحه ، ولن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده .

(١) الحديث له ما يؤيده في الصحاح .

﴿ وَيَهْدِي مَنْ يشاءُ ﴾ هدايته منهم ﴿ إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيم ﴾ موصل إليها وهو الإسلام والتزود بالتقوى ﴿ للذّين أحْسنوا ﴾ أعمالهم أي عملوها على الوجه اللائق وهو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسر هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ﴿ الحسْنىٰ ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي في اللغة تأنيث الأحسن ، والعرب تطلق هذا اللفظ على الخصلة المرغوب فيها ﴿ وزِيادَةٌ ﴾ أي وما يزيد على تلك المثوبة تفضلاً لقوله تعالى (وَيَزيدهم مِنْ فضْلِهِ) فالمثوبة ما أعطاه الله في مقابلة الأعمال ، والزيادة ما أعطاه الله لا في مقابلتها والكل فضل عندنا ، وقيل : الحسنى مثل حسناتهم والزيادة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وأكثر جمهور المحققين على أن الحسنى الجنة ، والزيادة اللقاء والنظر إلى وجه الله الكريم ، وفي الحديث (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيأ أزيديكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال فيكشف لهم الحجاب فما أعطوا شيأ أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا هذه الآية ﴿ للذّين أحْسنوا الحُسْنى وزيادَةٌ ﴾[1] ولو أزال الحق الحجاب عنا وشاهدناه ، نسينا الكون وما فيه ، كما ينسى أهل الجنة نعيمها عند التجلي ، فكان يفوت أوانُ التعبد الشرعي ، ولذا لا نشاهد الحق في دار الدنيا لأنها مقام التكليف ﴿ ولا يَرْهَقُ وُجوهَهُمْ ﴾ أي لا يغشاها ﴿ قَتَرٌ ﴾ غبرة فيها سواد والقتر أشد من الغبار ﴿ ولا ذِلّةٌ ﴾ أي أثر هوان وكسوف بال ، والغرض من نفي هاتين الصفتين ، نفي أسباب الخوف والحزن والذل عنهم ، ليعلم أن نعيمهم الذي ذكره الله خالص لا يشوبه شيء من المكروهات ، وأنه لايتطرق إليهم ما يزيل ما فيها من النضارة والحسن ﴿ أُولئِكَ أصحابُ الجنّةِ هُمْ فيها خَالِدونَ ﴾ بلا زوال دائمون بلا انتقال ﴿ والذّينَ كَسَبُوا السيّئآتِ ﴾ أي ارتكبوا الشرك والمعاصي ﴿ جَزاءُ سيئةٍ بمثْلِها ﴾أي وجزاء الذين كسبوا السيآت أن يجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها ، لا يُزاد عليها كما يزاد في الحسنة ﴿ وتَرْهَقُهم ﴾ إذا عاينوا النار ﴿ ذِلّةٌ ﴾ يعني آثار مذلة ﴿ ما لَهُمْ مِن الله مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي لا يعصمهم أحد من سخطه تعالى وعذابه ولا يمنعه ﴿ كأنّما أغْشِيَتْ ﴾ أُلبست ﴿ وجُوهُهُمْ قِطعاً مِنَ اللَّيْلِ ﴾ لفرط سوادها وظلمتها ﴿ مُظْلِماً ﴾ أي قِطَعاً كائنة من الليل في حال كونه مظلماً ﴿ أُولَئِكَ أصحابُ النار هُمْ فيها خَالِدونَ ﴾ اعلم أن دخول الجنة برحمة الله تعالى ، وقسمة الدرجات بالأعمال ، والخلود بالنيات ، فهذه ثلاثة مقامات ، وكذلك في دار الشقاوة دخول أهلها فيها بعدل الله ، وطبقات عذابها بالأعمال ، وخلودهم بالنيات ، يعني أن المؤمن لما كانت نيته في الدنيا أن يعبد الله أبداً ما عاش ، وكذا الكافر لما كانت نيته عبادة الأصنام أبدا ما عاش ، جوزي كل

(١) أخرجه أحمد في المسند ورواه مسلم والترمذي وابن ماجه .

أحد بتأبيد النية ، ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ أي أنذرهم أو ذكرهم ، وضمير نحشرهم لكلا الفريقين ، الذين أحسنوا والذين كسبوا السيآت ، لأنه المتبادر من قوله ﴿ جَميعاً ﴾ أي مجتمعين لا يشذ منهم فريق ﴿ ثُمّ نَقُوْلُ للذّينَ أَشْرَكُوا ﴾ أي نقول للمشركين من بينهم ﴿ مكانَكُمْ ﴾ أي الزموا مكانكم حتى تنظروا ما يُفعل بكم ﴿ أَنتُمْ ﴾ تأكيد للضمير المنتقل من عامله لسده مسده ﴿ وَشُرَكَاؤُكُمْ ﴾ عطف عليه ﴿ فَزَيّلْنَا ﴾ من زلتُ الشيء عن مكانه أزيله ، أي أزلته ، والتضعيف فيه للتكثير أي ففرقنا ﴿ بيْنَهُمْ ﴾ وبين الآلهة التي كانوا يعبدونها ، وقطعنا العلائق التي كانت بينهم في الدنيا ، فخابت أعمالهم وانصرمت عرى أطماعهم ، وحصل لهم اليأس الكلي من حصول ما كانوا يرجونه من جهتهم ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ التي كانوا يعبدونها ويثبتون الشركة لها ، وهم الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم ممن عبدوه ﴿ ما كُنْتُمْ إيّانا تَعْبُدونَ ﴾ براءة من عبادة المشركين حيث لم تكن تلك العبادة بأمر الشركاء وإرادتهم ، فالمشركون إنما عبدوا في الحقيقة أهواءهم وشياطينهم الذين أغووهم ﴿ فَكفىٰ باللهِ شَهيداً بيْنَنا وَبيْنَكُمْ ﴾ فإنه العالم بكنه الحال ﴿ إنْ ﴾ مخففة من إنَّ واللام فارقة ﴿ كُنّا عَنْ عِبادَتِكُمْ ﴾ لنا ﴿ لغَافِلينَ ﴾ والغفلة عبارة عن عدم المرضى ، وإلا فعدم شعور الملائكة بعبادتهم لهم غير ظاهر ﴿ هنالِكَ ﴾ أي في ذلك المقام الدهش أو في ذلك الوقت ﴿ تَبْلو ﴾ من البلوى والاختبار أي تختبر وتذوق ﴿ كُلُّ نفْسٍ ﴾ مؤمنة كانت أو كافرة ، سعيدة أو شقية ﴿ ما أَسْلَفتْ ﴾ أي قدَّمت من العمل ، فتعاين نفعه وضره ﴿ وَرُدُّوا ﴾ الضمير للذين أشركوا ﴿ إلى اللهِ ﴾ أي جزائه وعقابه ﴿ مَوْلَيٰهُمُ ﴾ ربهم ﴿ الحقِّ ﴾ أي المتحقق الصادق ربوبيته ، الذي يتولى ويملك أمرهم حقيقة ﴿ وَضَلّ عنْهُمْ ﴾ وضاع أي ظهر ضياعه وضلاله ﴿ ما كانُوا يفْتَرونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم ، أو ما كانوا يدعون أنهم شركاء الله ، واعلم أن أكثر ما اعتمد عليه أهل الإيمان ، يتلاشى ويضمحل عند ظهور حقيقة الأمر يوم القيامة ، فكيف ما استند إليه أهل الشرك والعصيان ؟ كما حكي أن الجنيد قدس سرُّه رؤي في المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال طاحت تلك الإشارات ، وفنيت تلك العبارات ، وغابت تلك العلوم ، وما نفعنا إلاّ رُكيعات كنا نركعها في السحر ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين احتجاجاً على حقيقة التوحيد وبطلان الشرك ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السّماء والأَرْضِ ﴾ ﴿ أَمّ منْ ﴾ أم منقطعة لأنه لم يتقدمها همزة استفهام ولا همزة تسوية وتقدر هنا ببل ﴿ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ ﴾ أي يستطيع خلقها وتسويتها على هذه الفطرة العجيبة ؟ أو من يحفظها من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالها من أدنى شيء يصيبها ؟ وكان علي رضي الله عنه يقول سبحان من بصَّر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم ، ولما كانت حاجة الإنسان إلى السمع والبصر أكثر من حاجته إلى الكلام ، خلق الله له أذنين

وعينين ، ولساناً واحداً ﴿ **وَمنْ يُخرجُ الحيَّ من الميّتِ ويُخْرجُ الميّتَ مِنَ الحيّ** ﴾ أي من ينشيء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ؟ وكذا من يخرج الطائر من البيضة ويخرج البيضة من الطائر ؟ ﴿ **وَمنْ يُدَبّرُ الأَمْرَ** ﴾ أي أمر جميع العالم علوياً كان أو سفلياً ، روحانياً أو جسمانيا ﴿ **فَسَيقُولونَ اللهُ** ﴾ يفعل ما ذكر من الأفاعيل لا غيره ، إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوحه ﴿ **فَقُلْ** ﴾ عند ذلك تبكيتاً لهم ﴿ **أَفَلاَ تَتّقُونَ** ﴾ أي أتعلمون ذلك فلا تتقون عقابه ، بإشراككم به الأصنام ؟ ﴿ **فذٰلكم اللهُ** ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء هو ﴿ **رَبُّكُمُ الحقُّ** ﴾ أي الثابت ربوبيته لا ما أشركتم معه .

﴿ **فماذا** ﴾ أي ما الذي ﴿ **بعْدَ الحقّ** ﴾ أي غيره ﴿ **إلاّ الضّلالُ** ﴾ الذي لا يختاره أحد وهو عبادة الأصنام ، ﴿ **فأنّى تُصْرَفُونَ** ﴾ استفهام إنكاري أي فكيف تصرفون من التوحيد وعبادة الله ، إلى الإشراك وعبادة الأصنام الذي هو ضلال ؟ ﴿ **كذٰلكَ** ﴾ أي كما حقت الربوبية لله تعالى ﴿ **حَقّتْ كلمةُ رَبّكَ** ﴾ حكمه وقضاؤه ﴿ **على الّذينَ فَسَقُوا** ﴾ أي تمردوا في كفرهم ، وخرجوا عن حد الاستصلاح ﴿ **أنّهم** ﴾ تعليل أي لأنهم ﴿ **لا يُؤمِنُونَ** ﴾ فالكفر أدّاهم إلى العذاب ، فإن كل نتيجة مبنية على المقدمات والأسباب ، والقمح لا ينبت من الزوان ﴿ **قُلْ هل منْ شركَائِكُمْ منْ يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمّ يُعيدُهُ** ﴾ أي يخلق الخلق أولاً ثم يعيده بعد الموت ، ولّما كانوا مقرين بالبدء ومنكرين للإعادة ، عناداً ومكابرة ، أُمر صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبين لهم من يفعل ذلك فقيل له ﴿ **قُلِ اللهُ يَبْدؤُا الخَلْقَ ثُمّ يُعيدُهُ** ﴾ أي هو يفعلها لا غير ﴿ **فَأنّى تُؤْفَكونَ** ﴾ ؟ أي فكيف تصرفون وتُقْلبون عن قصد السبيل ؟ والاستفهام إنكاري ﴿ **قُلْ هَلْ مِنْ شُركائِكُمْ مَنْ يَهْدي** ﴾ غيره ﴿ **إلى الحقّ** ﴾ فإن أدنى مراتب العبودية ، هداية المعبود العباد إلى ما فيه صلاح أمرهم ﴿ **قُلِ اللهُ يَهْدي** ﴾ من يشاء ﴿ **للحَقِ** ﴾ دون غيره ، بنصب الأدلة وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، فالاهتداء لإدراك الحقائق ، لا يكون إلا بإعانة الله وهدايته وإرشاده ﴿ **أَفَمنْ يَهْدي** ﴾ غيره ﴿ **إلى الحقّ** ﴾ هو الله تعالى ﴿ **أحقُّ أن** ﴾ أي بأن ﴿ **يُتّبعَ** ﴾ والمفضل عليه محذوف أي ممن لا يهدي ﴿ **أمّ منْ لا يَهدّي** ﴾ بكسر الهاء وتشديد الدال أصله لا يهتدي ، وأُدغم وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين أي لا يهتدي في حال من الأحوال ﴿ **إلاّ أَنْ يُهدىٰ** ﴾ إلا حال هدايته تعالى له إلى الاهتداء ؟ والآية بيانٌ لفساد مذهب من يتخذ العقلاء الذين يقبلون الهداية أرباباً ، بعد ما بيَّن فساد مذهب أهل الشرك من عبدة الأوثان ، قال في التبيان : الصنم لا ينفع ولا يضر ولا يقدر على شيء في نفسه ألا أن يُدخل ويُخرج وينقل ويتصرف فيه ، والله جلَّ عن ذلك ، وظاهر هذا الكلام يدل على أن الأصنام إن هديت اهتدت ، وليس كذلك ، لأنها

حجارة لاتهتدي ، إلا أنهم لما اتَّخذوها آلهة عبَّر عنها كما يعبر عمن يعقل ويفعل ﴿ **فما لَكُمْ** ﴾ أي أيُّ شيء لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله تعالى ؟ ﴿ **كيْفَ تحكمونَ** ﴾ بما يقضي صريح العقل ببطلانه وهو إنكار لحكمهم الباطل ، حيث سوّوا بين من يحتاجون هم إليه وهو الله تعالى ، وبين من يحتاج هو إليهم وهو ما عبدوه من دون الله من الأصنام ، ولا مساواة بين القادر والعاجز ﴿ **وما يَتّبِع أكْثَرُهُمْ** ﴾ فيما يعتقدون من أن الأصنام آلهة ﴿ **إلا ظَنّاً** ﴾ من غير تحقيق وإنما قلّدوا في ذلك آباءهم ﴿ **إنّ الظّنّ لا يُغْني مِنَ الحقّ شَيْئاً** ﴾ من الإغناء وقال بعضهم : إن الظن بأن الأصنام شفعاء ، لا يدفع عنهم العذاب ، فقولهم بأنها شفعاء باطل محض ، مبنيٌ على خيال فاسدٍ وظنٍ واه ﴿ **إن اللهَ عَليمٌ بما يفْعلونَ** ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان ، وفي الآية دلالة على وجوب العلم في الأصول ، وعدم جواز الاكتفاء بالتقليد .

﴿ **ومَا كانَ هذا القرآنُ** ﴾ مع ما فيه من دلائل الإعجاز ، من حسن نظمه ، ومعانيه الدقيقة ، وحقائقه الجامعة ﴿ **أنْ يُفْتَرى** ﴾ أي مفترى يُفترى به على الله ﴿ **مِنْ دُونِ الله** ﴾ أي صادرا من دون الله ، لأنه لا يتكلم بمثله إلا الله ﴿ **وَلٰكِنْ** ﴾ كان ﴿ **تَصْديقَ الذّي بيْنَ يدْيهِ** ﴾ أي مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية ، فيما أخبر به من أصول الدين ، وقصص الأولين ، ظهر على يد من لم يمارس شيأ من العلوم ، ويجالس علماء تلك الكتب ﴿ **وَتفْصيلَ الكتابِ** ﴾ أي وتفصيل ما حقق وأثبت من الحقائق والشرائع ﴿ **لا رَيْب فيهِ** ﴾ أي منتفياً عنه الريب ﴿ **مِنْ ربِّ العَالَمينَ** ﴾ كائناً من رب العالمين ، فهو وحي نازل على رسول الله ﷺ من عنده تعالى ﴿ **أمْ يَقُولونَ افْتراهُ** ﴾ أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة ، والمعنى بل أيقول كفار مكة افتراه محمد ، والهمزة لإنكارالواقع واستبعاده ﴿ **قُلْ فَأْتُوْا** ﴾ الأمر من باب التعجيز وإلقام الحجر ﴿ **بِسُورَةٍ مِثْلِهِ** ﴾ في البلاغة وحسن النظم ، وقوة المعنى ، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة ﴿ **وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ** ﴾دعاءه والاستعانة ليعاونكم على إتيان مثله ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي ادعوا متجاوزين الله أي سواه تعالى من استطعتم من خلقه ، فإنه لا يقدر عليه أحد ﴿ **إنْ كُنْتُمْ صَادِقينَ** ﴾ في أني افتريته ، فإن ما افتراه أحد من المخلوقين يفتريه غيره ، لأنه فوق كل ذي علم عليم ، فإذا عرفتم عجزكم حال الاجتماع وحال الانفراد عن هذه المعارضة فحينئذ يظهر أن نظمه وتنزيله ليس إلا من قبل الله تعالى ، واعلم أن إعجاز القرآن كونه في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة ، بحيث يصرفُ الناس عن قدرة معارضته ﴿ **بَلْ كَذّبُوا بما لَمْ يُحيطُوا بِعلْمِهِ** ﴾ أي سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل فهمه ، فإن تكذيب الكلام قبل الإحاطة بمعانيه ، مسارعة إليه في أول وهلة ، ومعنى الاضطراب في « بل » ذمُّهم على التقليد وترك النظر ، كأنه قيل : دع تحدّيهم وإلزامهم ، فإنهم لا

يستأهلون الخطاب لأنهم مقلدون متهافتون في الأمر لا عن خبر وتعقل ، ولو كان لهم وقوف على ما في تضاعيف القرآن من شواهد الإعجاز ، لعلموا أنه ليس مما يمكن أن يكون له نظير يقدر عليه المخلوق ﴿ **وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ أي لم يجئهم ما يئول إليه امره ، والمعنى أن القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ، ومن جهة الإخبار بالغيب ، وهم قد فاجأوا تكذيبه قبل أن يتدبروا نظمه ، وينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة ، التي يظهر بعضها في الدنيا ، ويظهر بعضها في الآخرة ، ليستدلوا بذلك على صحة القرآن ، وصدق قول النبي عليه السلام ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك التكذيب الواقع من قومك ﴿ **كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أنبياءهم ﴿ **فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾ فيه وعيد لهم بمثل ما عوقب به من قبلهم ، وإنما وصفهم بالظلم لأنهم وضعوا التكذيب في موضع التصديق ، فكان مآل أمرهم إلى ما أخبر به الكتب والأنبياء من العذاب والهلاك ﴿ **وَمِنْهُمْ** ﴾ أي من المكذبين ﴿ **مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ** ﴾ من يُصدِّق بالقرآن ويعلم أنه حقٌّ ولكنه معاند ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ** ﴾ لفرط غَباوته وقلة تدبره ، أو منهم من سيؤمن به ويتوب عن كفره ، ومنهم من لا يؤمن به فيما يستقبل ، بل يموت على كفره لعدم استعداده لقبوله ﴿ **وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ** ﴾ بالمعاندين أو بالمصرين ، وإنما وصفهم بالإفساد ، لأنهم أفسدوا استعدادهم الفطري بالأعمال الفاسدة ﴿ **وَإِنْ كَذَّبُوكَ** ﴾ وإن أصرُّوا على تكذيبك بعد إلزام الحجة ﴿ **فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ** ﴾ فتبرأ منهم فقد أعذرت أي بالغت في العذر ، والمعنى لي جزاء عملي ، ولكم جزاء عملكم ، حقاً كان أو باطلاً ﴿ **أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ أي لا تؤاخذون بعملي ، ولا أؤاخذ بعملكم ﴿ **وَمِنْهُمْ** ﴾ أي من المكذّبين ﴿ **مَنْ** ﴾ أي ناس ﴿ **يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ** ﴾ عند قراءتك القرآن بسمع الظاهر ، وفي سمع قلوبهم صمم ، من محبة الدنيا وشهواتها ، فإن حب الشيء يُعمي ويُصمّ ﴿ **أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ** ﴾ الهمزة الاستفهامية إنكارية والتقدير أيستمعون إليك فأنت تسمعهم ؟ أي تقدر على إسماعهم وقد أصمهم الله بسوء أعمالهم ؟ ﴿ **وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ** ﴾ أي ولو انضم إلى صممهم عدم العقل ، لأن الأصم العاقل ربما تفرس إذا وصل إلى صماخه صوت وأما إذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعاً فقدتم الأمر ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ** ﴾ بنظر الحس ويرى دلائل نبوتك الواضحة وفي بصيرته عمى ﴿ **أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ** ﴾ جمع الأعمى أي عقيب ذلك أنت تهديهم ﴿ **وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ** ﴾ أي ولو انضم إلى عدم البصر عدم البصيرة ، فإن المقصود من الإبصار هو الاعتبار والاستبصار ، والعمدة في ذلك البصيرة ، ولذلك فقد يفقه الأعمى المستبصر ويتفطن لما يدركه البصير الأحمق ، فحيث اجتمع فيهم الحمق والعمى فقد انسد عليهم باب الهدى ، فقد شبه الله المكذبين الذين أصروا على التكذيب بالأصم والأعمى من حيث إن شدة بغضهم وكمال نفرتهم عن رسول الله

منعهم عن إدراك محاسن كلامه ومشاهدة دلائل نبوته ، كما يمنع الصمم في الأذن عن إدراك محاسن الكلام ، ويمنع العمى في العين عن مشاهدة محاسن الصورة ، وقرن عدم العقل بعدم السمع وبعدم البصر عدم الإدراك تفضيلاً لحكم الباطن على الظاهر ، حتى بلغوا في معرض العقل إلى حيث لا يقبلون الفلاح ، والطبيب إذا رأى مريضاً لا يقبل العلاج أعرض عنه ، ولا يستوحش من عدم قبوله للفلاح فقد وجب التبري منهم وعدم الانفعال من إصرارهم على التكذيب ، قال بعض العلماء : خمسة أشياء ضائعة : المطر في الأرض السبخة ، والسراج المشتعل في ضوء الشمس ، والمرأة الحسنة الصورة عند الرجل الأعمى ، والطعام الطيب عند المريض ، والرجل العاقل عند من لا يعرف قدره ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئاً** ﴾ لا يعاقبهم على شيء لم يفعلوه ، ولا يحملهم وزر ذنب لم يرتكبوه ﴿ **ولكنَّ النّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ** ﴾ بانتهاكهم محارم الله ، وفعلهم ما يسخطه ﴿ **وَيومَ يحشُرُهُمْ** ﴾ الضمير لكفار مكة أي اذكر لهم يا محمد أو أنذرهم يوم يحشرهم الله ويجمعهم وهو يوم القيامة ﴿ **كَأَنْ** ﴾ مخففة اسمها محذوف أي كأنهم ﴿ **لَمْ يلْبثُوا** ﴾ لم يمكثوا في الدنيا أو في القبور ﴿ **إلاّ ساعةً مِنَ النَّهَارِ** ﴾ أي شيأ قليلاً منه ، فإنها مَثَلٌ في غاية القلة ، استقصروا المدة لهول ما رأوا ، والإنسان إذا عظم خوفه ينسى الأمور الظاهرة ﴿ **يَتَعارَفُون بيْنَهُمْ** ﴾ يعرف بعضهم بعضاً كما كانوا يعرفون في الدنيا ، فكأنهم لم يتفارقوا بسبب الموت إلا مدة قليلة لا تؤثر في زوال ذلك التعارف أول ما خرجوا من القبور ، ثمَّ ينقطع التعارف إذا عاينوا العذاب ، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلقَاءِ اللهِ** ﴾ شهادة من الله على خسرانهم ، وعجب منهم أي قد غبن المكذبون بالحساب والجزاء ﴿ **وَما كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴾ في تجارتهم إذْ باعوا الإيمان بالكفر ، والتصديق بالتكذيب ، فلم يكونوا على نفع وقد مضى الوقت .

﴿ **وَإِمّا نُرِيَنَّكَ** ﴾ أصله إن نُرك ، وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط أي إن نبصرنك بأن نُظهر لك ﴿ **بعضَ الذّي نَعِدُهُمْ** ﴾ من العذاب ونعجّله في حياتك كما أراه ببدر ، والجواب محذوف لظهوره أي فذاك هو المأمول وإنا عليهم مقتدرون ﴿ **أَوْ نَتَوَفَيَنَّكَ** ﴾ قبل أن نريك ﴿ **فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ** ﴾ أي رجوعهم فنريكه في الآخرة وإنا منهم منتقمون ﴿ **ثُمّ اللهُ شَهيدٌ عَلى ما يفْعَلون** ﴾ أي مُجازٍ لهم على أفعالهم السيئة ﴿ **وَلِكُلِّ أُمّةٍ** ﴾ من الأمم الماضية ﴿ **رَسولٌ** ﴾ يبعث إليهم بشريعة خاصة مناسبة لأحوالهم ، ليدعوهم إلى الحق ﴿ **فإذا جَاءَ رَسولُهُمْ** ﴾ بالبينات فكذبوه ﴿ **قُضِيَ بيْنَهُمْ** ﴾ أي بين كل أمة ورسولها ﴿ **بالقِسطِ** ﴾ بالعدل وحكم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاك المكذبين ﴿ **وَهُمْ لا يُظْلَمونَ** ﴾ في ذلك القضاء المستوجب لتعذيبهم لأنه من نتائج أعمالهم ﴿ **وَيَقُولُونَ** ﴾ استبعاداً واستهزاء ﴿ **متىٰ هَذا الوعْدُ** ﴾ بالعذاب فليأتنا عجلة ﴿ **إنْ كُنْتُمْ** ﴾ أي أنت وأتباعك ﴿ **صَادِقِينَ** ﴾

في أنه يأتينا ﴿ **قُلْ لا أَمْلِكُ** ﴾ لا أقدر لأن الملك يلزمه القدرة ﴿ **لنَفْسي ضَرّاً** ﴾ بأن أدفعه ﴿ **وَلا نفْعاً** ﴾ بأن أجلبه فكيف أملك لكم ، فأستعجل في جلب العذاب إليكم ؟ ﴿ **إلاّ مَا شَاءَ اللهُ** ﴾ استثناء منقطع أي لكن ما شاء الله كائن ، فالله هو المالك للضر والنفع ﴿ **لِكُلّ أُمّةٍ** ﴾ ممن قضي بينهم وبين رسولهم ﴿ **أَجَلٌ** ﴾ معين خاص بهم لا يتعدى إلى أمة أخرى ﴿ **إذا جَاء أَجَلُهُمْ** ﴾ أي زمانهم الخاص المعين ﴿ **فلا يَسْتأخِرونَ** ﴾ أي لا يتأخرون عن ذلك الأجل ﴿ **سَاعةً** ﴾ أي شيأ قليلاً من الزمان ﴿ **ولا يَسْتَقدِمونَ** ﴾ أي لا يتقدمون عليه فلا يستعجلون ، فسيحين وقتكم وينجز وعدكم ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** ﴾ أي أخبروني لأن الرؤية سبب الإخبار ﴿ **إنْ أتيكُمْ عَذَابُهُ** ﴾ الذي تستعجلون به ﴿ **بَيَاتاً** ﴾ أي وقت الليل واشتغالكم بالنوم ﴿ **أَوْ نهاراً** ﴾ حين كنتم مشتغلين بطلب معاشكم ﴿ **ماذا يَسْتعجِلُ مِنْهُ المجرمون** ﴾ جواب للشرط أيْ أيّ شيءٍ ونوع من العذاب يستعجلونه ؟ وليس شيء من العذاب يستعجل به لمرارته وشدة ألمه ﴿ **أَثُمّ إذا ما وَقَع آمنْتُمْ بِهِ** ﴾أي قل لهم أبعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقة ، آمنتم به حين لا ينفعكم الإيمان ؟ ﴿ **آلآنَ** ﴾ أي قيل لهم بعد وقوع العذاب آلآن آمنتم به إنكاراً للتأخير ﴿ **وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتعجِلونَ** ﴾ أي تكذيباً واستهزاء ﴿ **ثمّ قِيلَ** ﴾ عطف على ما قدر قبل آلآن ﴿ **للذّينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي وضعوا التكذيب موضع التصديق ، والكفر موضع الإيمان ﴿ **ذُوقُوا عَذابَ الخُلْدِ** ﴾ وذلك أنهم يعذبون في قبورهم ، ثم يصيرون إلى جهنم فيعذبون فيها أبداً ﴿ **هَلْ تُجْزَوْنَ** ﴾ يعني لا تجزون ﴿ **إلاّ بما كُنْتُمْ تكْسِبونَ** ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي ، وفيه تنبيه على أن العذاب لم يصدر منه تعالى ابتداء فإنه لم يخلق عباده إلا ليرحمهم ، بل هو نتيجة عملهم الباطل ، بمنزلة الهلاك المترتب على تناول السم ﴿ **ويَسْتَنْبِئُونَكَ** ﴾ أي يستخبرونك فيقولون على طريق الاستهزاء والإنكار ﴿ **أَحَقٌّ هُوَ** ﴾ الهمزة للاستفهام وحق خبر قدم على المبتدأ أي هل ما تعدنا به حق ؟ ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم غير ملتفت إلى استهزائهم ﴿ **إي وَرَبِّيَّ** ﴾ أي بكسر الهمزة بمعنى نعم ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي العذاب الموعود ﴿ **لَحَقٌّ** ﴾ ثابت البتة ﴿ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** ﴾ ربكم حتى يفوتكم العذاب بالهرب ، فهو لاحق بكم لا محالة ﴿ **وَلوْ أنّ لِكُلّ نفْسٍ ظَلَمتْ** ﴾ أشركت صفة نفس ﴿ **ما في الأَرْضِ** ﴾ أي في الدنيا من خزائنها وأموالها ﴿ **لافْتَدَتْ بِهِ** ﴾ أي جعلته فدية لها من العذاب وبذلته مقابل نجاتها ﴿ **وأَسَرُّوا النَّدَامَةَ** ﴾ على ما فعلوا من الظلم ﴿ **لَمّا رَأَوُا العَذابَ** ﴾والمعنى أخفوها ولم يظهروها عند معاينةِ العذاب ، عجزاً عن النطق لكمال الحيرة ، كمن يذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتاً لا ينطق بكلمة ﴿ **وَقُضِيَ بيْنَهُمْ** ﴾ أي أوقع القضاء والحكم بين الظالمين من المشركين ، وغيرهم من أصناف أهل الظلم ﴿ **بالقِسْطِ** ﴾ بالعدل ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي الظالمون ﴿ **لا يُظْلَمونَ** ﴾ فيما فعل بهم العذاب ، بل هو

من مقتضيات ظلمهم ولوازمه الضرورية ﴿ أَلاَ ﴾ كلمة (أَلاَ) إنما تذكر لتنبيه الغافلين ، وأهل هذا العالم غافلون ، وهم مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة ، فيضيفون الأشياء إلى مُلاَّكها الظاهرة فيقولون الدار لزيد والغلام لعمرو ، والسلطنة للخليفة ، والتصرف للوزير ، ونحو ذلك فكانوا مستغرقين في نوم الجهل والغفلة ، حيث يظنون صحة تلك الإضافات ، فلذلك نادى الحق هؤلاء النائمين بقوله ألا ﴿ إِنَّ للهِ ما في السّمواتِ والأَرْضِ ﴾ لأنه قد ثبت أن جميع ما سواه مملوك له تعالى ، يتصرف فيه كيفما يشاء ، إيجاداً وإعداماً ، وإثابة وعقاباً ﴿ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أي ما وُعِدُوه من الثواب والعقاب ، كائنٌ لا خُلف فيه ، فالوعد بمعنى الموعود ، والحق بمعنى الثابت والواقع ﴿ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ لقصور عقلهم واستيلاء الغفلة عليهم ﴿ لا يعْلَمونَ ﴾ ذلك ، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، فيقولون ما يقولون ﴿ هُوَ يُحيي وَيُميتُ ﴾ في الدنيا من غير دخل لأحد في ذلك ﴿ وَ إِليْه تُرْجَعونَ ﴾ في الآخرة بالبعث والحشر ، وفي الآية إشارة إلى أنه لابد من الرجوع ، ونعم ما قيل : إذا جاء الموت لا ينفع العلم كما لم ينفع آدم ، ولا الخلة كما لم تنفع إبراهيم ، ولا القربة كما لم تنفع موسى ، ولا الملك كما لم ينفع داود وسليمان .

﴿ يَا أَيُّها النّاسُ ﴾ نداء عام ﴿ قَدْ جَاءتْكُمْ موْعِظَةٌ ﴾ هي التذكير بالعواقب سواء كان بالزجر والترهيب ، أو بالاستمالة والترغيب ، أي كتاب مبيّن لما يجب لكم وعليكم ، مرغِّبٌ في الأعمال الحسنة ، منفّر عن الأفعال السيئة وهو القرآن ﴿ مِنْ ربّكُمْ ﴾ متعلق بجاءتكم ﴿ وَشِفَاءٌ لما في الصُّدورِ ﴾ ودواء من أمراض القلوب ، كالجهل ، والشك ، والشرك ، والنفاق وغيرها من العقائد الفاسدة ﴿ وَهُدىً ﴾ إلى طريق الحق واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس ﴿ وَرحْمةٌ للمُؤمِنينَ ﴾ حيث نجوا بمجيء القرآن من ظلمات الكفر والضلال ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للناس ﴿ بِفَضْلِ اللهِ وَبرَحمتِهِ ﴾ أصل الكلام ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ﴿ فَبِذلكَ فلْيفْرَحُوا ﴾ للتأكيد والتقرير ، والأصل إن فرحوا بشيء فبذلك فليفرحوا لا بشيء آخر ﴿ هُوَ خيْرٌ ممّا يَجْمَعُوْنَ ﴾ من الأموال الفانية ، قال بعض الكبار : فضل الله إيصال إحسانه إليك ، ورحمته ما سبق لك منه من الهداية ، فكأن الله تعالى يقول : عبدي لا تعتمد على طاعتك وخدمتك ، واعتمد على فضلي ورحمتي ولو كان في جمع حطام الدنيا منفعة لانتفع قارون ، قال مالك بن دينار : كنت في سفينة مع جماعة فنبه العَشَّار أن لا يخرج أحد فخرجت فقال ما أخرجك فقلت ليس معي شيء ، فقال اذهب ، فقلت في نفسي : هكذا أمر الآخرة ، فالعلائق قيد ، والتجرد حضور وراحة ، واعلم أن الاتعاظ بالموعظة القرآنية ، يوصل العبد إلى السعادة الباقية ، ويخلصه من الحظوظ النفسانية ، حكي أن إبراهيم بن أدهم سرَّ ذات يوم بملكته ونعمته ،

ثم نام فرأى رجلاً أعطاه كتاباً ، فإذا فيه مكتوب : لا تُؤثر الفاني على الباقي ، ولا تغتر بملكك ، فإن الذي أنتَ فيه جسيم لولا أنه عديم ، فسارع إلى أمر الله فإنه يقول (**سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ**) فانتبه فزعاً وقال هذا تنبيه من الله وموعظة ، فتاب إلى الله واشتغل بالطاعة ، وفي لفظ (جاءتكم) إشارة إلى أن القرآن تحفة من الله تعالى جسيمة ، وهدية منه عظيمة ، وصلت إلينا ، فلم يبق إلا القبول ، وقبوله الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه ، قال بعض القراء : قرأت القرآن على شيخ لي ، ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرني وقال : جعلتَ القراءة عليّ عملاً ؟ اذهب فاقرأ على غيري فانظر ماذا يأمرك وينهاك .

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ** ﴾ أخبروني أيها المشركون ﴿ **مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ** ﴾ جعل الرزق مُنزَّلاً من السماء مع أن الأرزاق إنما تخرج من الأرض ، لأنه إنما يخرج من الأرض بأسباب متعلقة بالسماء ، كالمطر ، والشمس ، والقمر ، فإن المطر سبب الإنبات ، والشمس سبب النضج ، والقمر سبب اللون ﴿ **فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ** ﴾ أي جعلتم بعضه ﴿ **حَرَاماً** ﴾ أي حكتم بأنه حرام ﴿ **وَحَلَالاً** ﴾ أي وجعلتم بعضه حلالاً أي حكتم بحله والمقصود الإنكار لتجزئتهم الرزق ، وذلك قولهم (**هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ**) وقولهم (**مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا**) وهي البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامُ ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ** ﴾ في ذلك الجعل فأنتم فيه ممتثلون لأمره ، قائلون بالتحريم والتحليل بحكمه ﴿ **أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾ في نسبة ذلك إليه ، وهذه الآية من أبلغ الزواجر عن التجوز فيما يسأل عنه من الحكم ، ومن لم يحتط في الحكم فهو مفتر ، قال علي كرم الله وجهه : « من أفتى الناس بغير علم لعنته السماء والأرض » . وسألت بنت علي البلخي أباها عن القيء إذا خرج إلى الحلق ، فقال : يجب إعادة الوضوء ، فرأى في منامه أحد شيوخه فقال : لا يا علي حتى يكون ملء الفم ، فقال علمت أن الفتوى تعرض على الأشياخ ، فآليت على نفسي أن لا أفتي أبداً ، وفي الآية إشارة إلى أنه لا يجوز للمرء أن يعتقد ويقول : إن النَّفَحات الإلهية ، والشواهد الربانيَة ، حرام على أرباب النفوس ، وحلال على أصحاب القلوب ، وإن تحصيل هذه السعادات ليس من شأننا ، وإنما هو من شأن الأخيار الكبراء ، وخواص الأنبياء والأولياء ، فإن هذا افتراء على الله ، فإن الله تعالى ما خصَّ قوماً بالدعوة إلى الدرجات والمقامات العلية ، بل جعل الدعوة عامة ، فتحريمه هذا الرزق من خساسة نفسه ، وركاكة عقله ، ودناءة همته ، وإلا فالله تعالى لم يسد عليه هذا الباب ، بل هو الفياض الوهاب .

﴿ **وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** ﴾ ما استفهامية ﴿ **يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ أيْ أيُّ شيء ظنهم في ذلك اليوم ؟ يوم عرض الأفعال والأقوال ، والمجازاة عليها مثقالاً بمثقال ، والمراد تهويله وتفظيعه

بهول ما يتعلق به ، مما يصنع يومئذ ﴿ **إنّ الله لذو فَضْلٍ** ﴾ عظيم ﴿ **عَلى النّاسِ** ﴾ جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل ، المميز بين الحق والباطل ، والحسن والقبيح ، ورحمهم بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل ﴿ **ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرونَ** ﴾ تلك النعمة الجليلة فلا يصرفون قواهم ومشاعرهم إلى ما خلقت له ، ولا يتبعون دليل العقل فيما يستبد به ، ولا دليل الشرع فيما لا يدرك إلا به ﴿ **وَمَا** ﴾ نافية ﴿ **تَكُونُ** ﴾ يا محمد ﴿ **في شَأْنٍ** ﴾ أي في أمر ، والجمع شؤون ويكون الشأن بمعنى الحال أيضاً يقال ما شأن فلان بمعنى ما حاله ﴿ **وما تَتْلو مِنْهُ** ﴾ الضمير للشأن ، لأن تلاوة القرآن معظم شأن الرسول ﴿ **مِنْ قُرْآنٍ** ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي ﴿ **وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ** ﴾ من الأعمال ، تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة ، وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير ، لأن رئيس القوم إذا خوطب دخل قومه في ذلك الخطاب ، كما في قوله تعالى (**يَا أَيُّها النَبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**) ﴿ **إلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهوداً** ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي إلا حال كوننا رقباء ، مطَّلعين عليه ، حافظين له ﴿ **إذ تُفيضُونَ فيهِ** ﴾ ظرف لشهوداً أي تخوضون وتندفعون فيه ﴿ **وما يَعْزُبُ عَنْ رَبّكَ** ﴾ أي لا يبعد ولا يغيب عن علمه الشامل ﴿ **مِنْ مِثْقال ذَرَّةٍ** ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي أي ما يساوي في الثقل نملة صغيرة أو هباءةً ﴿ **في الأَرْضِ ولا في السّماءِ** ﴾ أي في دائرة الوجود والإمكان ﴿ **وَلاَ** ﴾ لنفي الجنس ﴿ **أَصْغَرَ** ﴾ اسمها ﴿ **مِنْ ذلِكَ** ﴾ الذرة ﴿ **وَلا أَكْبَرَ إلاّ في كِتابٍ مُبينٍ** ﴾ خبرها وهو اللوح المحفوظ ، فإذا كان كل شيء مكتوباً في اللوح ، فكيف يغيب عن علمه شيء ؟ وكيف يخفى عليه أمر ؟ فلا يظن أحد أنه لا يجازى على أقواله وأفعاله خيراً كانت أو شراً ؟ وفيه إشارة إلى طريق المراقبة ، وحثٌّ على المحافظة فإن المرء إذا علم يقيناً اطلاع الله عليه في كل آن ، حافظ على أوقاته من الخلاف وعامل بالإنصاف ، حكي عن عمر البناني رحمه الله تعالى قال : مررت بعابدٍ في مقبرة في كفه اليمنى حصى أبيض ، وفي كفه اليسرى حصى أسود ، فقلت يا عابدُ ما تصنع ههنا ؟ قال إذا فقدت قلبي أتيت المقابر فاعتبرت بمن فيها ، فقلتُ : ما هذا الحصى الذي في كفك ؟ فقال : أمَّا الحصى الأبيض إذا عملت حسنة ألقيت واحدة منها في الأسود ، وإذا عملتُ سيئة ألقيتُ واحدة من هذا الأسود في الأبيض ، فإذا كان الليل نظرتُ فإن فضلتْ الحسناتُ على السيآت ، أفطرتُ وقمتُ إلى وردي ، وإن فضلتْ السيآتُ على الحسنات لم آكل طعاماً ولم أشرب شراباً في تلك الليلة ، هذه حالتي والسلام عليك ، وعن بعض الكبار : من علامة موت القلب عدمُ الحزن على ما فاتك من المراقبات ، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات ، لأن الحياة تقتضي الإحساس ، والعكسُ صفة الميت ، وكل معصية من الغفلة والنسيان ، فذاكرُ الحق سالم في الدنيا والآخرة ، حكي أن ولياً اشتاق إلى رؤية حبيب من أحباء

الله ، فقيل له اذهب إلى القصبة الفلانية ففيها حبيبي ، فجاء إليها ورأى رجلاً يذكر الله وأسداً إلى جانبه فإذا تغافل يختطفه الأسد ، فلما قرب إليه وسأل عن حاله ، قال : أردت أن لا أتغافل عن ذكر الله ، فإذا وقعت الغفلة سلَّط عليَّ كلباً من كلاب الدنيا ، فأنا ألازمه مخافة أن يسلط كلباً من كلاب الآخرة عليّ للغفلة .

﴿ **أَلا** ﴾ تنبهوا واعلموا ﴿ **إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ** ﴾ أي أحباء الله ، فإن الولاية هي معرفة الله ومعرفة نفوسهم ، فإذا عرفت نفسك حق المعرفة وعلمت أنها عدوة لله ولك ، وعالجتها بالمعاندة والمكابدة ، أمنتَ مكرها وكيدها ، قال المولى أبو السعود رحمه الله : الوليُّ لغة القريب ، والمراد بأولياء الله خُلَّص المؤمنين لقربهم الروحاني منه سبحانه انتهى لأنهم يتقربون إليه بطاعته والاستغراق في معرفته ، بحيث إذا رأوا رأَوْا دلائل قدرته ، وإن سمعوا سمعوا آياته ، وإن نطقوا نطقوا بالثناء عليه ، وإن تحركوا تحركوا في خدمته ﴿ **لا خَوْفٌ عليْهِمْ** ﴾ في الدارين من لحوق مكروه ، والخوف إنما يكون من حدوث شيء من المكاره في المستقبل ﴿ **وَلا هُمْ يَحْزَنونَ** ﴾ من فوات مطلوب أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك ، ولذا قال في الكواشي : (**لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يحْزَنونَ**) في الآخرة ، وإلا فهم أشد خوفاً وحزناً في الدنيا من غيرهم انتهى ﴿ **الذّينَ آمنُوا وكَانُوا يتّقونَ** ﴾ استئناف مبنيٌّ على السؤال كأنه قيل : من أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة ؟ فقيل : هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى ، قال وكانوا يتقون الله تعالى من صدور سيآت الأعمال والأخلاق ، في مرتبة الشريعة والحقيقة ، لأنهم يصلحون طبائعهم بالشريعة ، وأنفسهم بالذِّكر ، وقلوبهم بالمعرفة ، وأرواحهم بالحقيقة فلا جرم أنهم يتقون من جميع ما سوى الله انتهى ، يقول الفقير : يشير رضي الله عنه بذلك إلى أن المراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها ، وهو تنزه الإنسان عن كل ما يشغل سره عن الحق ، وهذه المرتبة جامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك التي يفيدها الإيمان أيضا ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك ، وللأولياء في شأن التبتل والتنزه درجات متفاوتة ، حسب تفاوت درجات استعداداتهم ، أقصاها ما انتهى إليه هم الأنبياء عليهم السلام ، الذين جمعوا بين رياستي النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعلم الأشباح عن العروج إلى عالم الأرواح ، ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية ، المؤيدة بالقوة القدسية فيصير بدنه كثوبٍ يلبسه تارة ويخلعه أخرى ، ألا ترى أن من قدر على النفقة فهو متى جاع فبيده الشبع يأكل ما يشاء ؟

فإذا عرفت أن أولياء الله تعالى هم المؤمنون المتقون ، فاعرف أيضا أنه قد جاء في الأولياء أوصاف أخر ، بعضها متقارب ، كما قال علي كرم الله وجهه : هم صُفْرُ الوجوه من السهر ، عُمْشُ العيون من

العبر ، خُمْصٌ البطون من الطوى ، أي الجوع وعن سعيد بن جبير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سئل من أولياء الله ؟ فقال (هم الذين يذكر الله برؤيتهم)[١] أي بسمتهم وإخباتهم وسكينتهم وقال بعضهم : علامة الأولياء شغلهم بالله وفرارهم إليه ، فنوا في أحوالهم في مشاهدة مالكهم ، فتوالت عليهم أنوار الولاية ، فلم يكن لهم عن نفوسهم أخبار ، ولا مع واحد غير الله قرار ، وهم المتحابون في الله قال صلى الله تعالى عليه وسلم (إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يَغْبِطُهم النبيون والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قيل يارسول الله : منْ هم ، وما أعمالهم ؟ قال : هم قومٌ تحابّوا في الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لايخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس)[٢] قوله « يغبطهم الأنبياء » تصويرٌ لحسن حالهم على طريقة التمثيل ، قال الكواشي وهذا مبالغة والمعنى لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء ، وإلا فلا خلاف أن أحداً من غير الأنبياء لا يبلغ منزلة الأنبياء ، ولا يلزم من ذلك بلوغهم منزلة الأنبياء ولا رجحانهم عليهم ، فقد تقرر أن الأفضل قد يكون مفضولاً من وجه وبالعكس ، ألا ترى قوله عليه السلام (أنتم أعلم بأمور دنياكم) ودرجات المعرفة لا نهاية لها وإلى الله المنتهى ، وقال أبو زيد : أولياء الله تعالى عرائس ، ولا يرى العرائس إلا من كان مَحْرماً لهم ، وأما غيرهم فلا . وقال سهل : أولياء الله لا يعرفهم إلا أشكالهم ، أو من أراد أن ينفعه بهم ، ولو عرَّفهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم ، وقال الشيخ أبو العباس : معرفة الولي أصعبُ من معرفة الله ، فإن الله معروف بكماله وجماله ، ومتى يعرف مخلوق مخلوقاً مثله ؟ يأكل كما يأكل ، ويشرب كما يشرب ، وهم ظاهرُهم مزيَّنٌ بأحكام الشرع ، وباطنهم مشتغل بأنوار الفقر ﴿ **لَهُمُ البُشْرىٰ في الحيٰوةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ** ﴾ بيان لما أولاهم من خيرات الدارين ، بعد بيان إنجائهم من شرورهما ، كأنه قيل : هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة ؟ فقيل : لهم ما يسرهم في الدارين ، وتقديم الأول لما أن التخلية سابقة على التحلية ، والبشرى مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة ، كالنصر ، والفتح ، والغنية وغير ذلك ، والآجلة الغنيَّة عن البيان أي لهم البشرى حال كونها في الحياة الدنيا ، وحال كونها في الآخرة أي عاجلة وآجلة ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ومحبة الناس ، والرؤيا الصالحة كما ورد عن النبي عليه السلام (هي الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو تُرى له)[٣] أي يراها مسلم لأجل مسلم آخر ، ولا يخفى أن كون الرؤيا الصالحة مبشرة للمؤمن ، يمنع أن تكون بنبوة ، فتكون بوجه آخر ، من صلاح وتنبيه غفلة وفرح وغيرها كما قال عليه السلام (لم يبق من النبوة

(١) رواه البزار عن ابن عباس ، وانظر مختصر ابن كثير ٢ / ١٩٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ورواه ابن جرير الطبري عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٣) جزء من حديث أخرجه مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار مرفوعاً وانظر جامع الأصول ٢ / ٥٢٥ .

إلا المبشرات)[١] وفي الحديث (الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة)[٢] وإنما ابتدىء رسول الله بالرؤيا ، لئلا يفجأه الملك بالرسالة ، فلا تتحملها القوى البشرية ، فكانت الرؤيا تأنيساً له ، وقال بعضهم : لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة ، وأما البشرى في الآخرة فتلقّي الملائكة إياهم مُسَلِّمين مبشرين بالفوز والكرامة ، وما يرون من بياض وجوههم ، وإعطاء الصحف بأيمانهم ، وغير ذلك من البشارات في كل موطن من المواطن الأخروية .

﴿ **لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ** ﴾ أي لمواعيده الواردة في حقهم ، إذ لا خُلف لمواعيده أصلاً ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ التبشير ﴿ **هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ** ﴾ الذي لا يصل إلى كنهه العقول ، وكيف لا وفيه سعادة الدارين ؟ اعلم أن الولاية على قسمين : عامة وهي مشتركة بين جميع المؤمنين كما قال الله تعالى ﴿ **اللهُ وَلِيُّ الذّينَ آمنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلىٰ النُّورِ** ﴾ وخاصة وهي مختصة بالواصلين إلى الله من أهل السلوك ، والولاية : عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به ، ولا يشترط في الولاية الكرامات الكونية ، فإنها توجد في غير الملة الإسلامية ، لكن يشترط فيها الكرامات القلبية كالعلوم الإلهية والمعارف الربانية ، فهاتان الكرامتان قد تجتمعان كما اجتمعتا في الشيخ عبد القادر الكيلاني ، والشيخ أبي مدين المغربي قدس الله سرهما ، فإنه لم يأت من أهل الشرق مثل عبد القادر في الخوارق ، ومن أهل الغرب مثل أبي مدين مع مالهما من العلوم والمعارف الكلية ، وقد تفترقان فتوجد الثانية دون الأولى كما في أكثر الكُمَّل من أهل الفناء ، وأما الكرامات الكونية كالمشي على الماء ، والطيران في الهواء ، وقطع المسافة البعيدة في المدة القليلة وغيرها ، فقد صدرت من الرهبان والمتفلسفة ، الذين استدرجهم الحق بالخذلان من حيث لا يعلمون * وينبغي للمؤمن أن يجتهد في تحصيل سير أولياء الله ، وأقل الأمر أن لا يُقصِّر في حبهم ، فإن المرء مع من أحب أن يحشر معه كما ورد في الحديث ﴿**وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ**﴾ نهيٌ له عليه السلام عن الحزن ، كأنه قيل لا تحزن بقولهم ، ولا تبال بتكذيبهم ، وتشاورهم في هلاكك ، وإبطال أمرك ، وجَّه النهي إلى قولهم للمبالغة في نهيه عليه السلام عن الحزن ﴿ **إنّ العزّةَ** ﴾ أي الغلبة والقهر ﴿ **للهِ جَمِيعاً** ﴾ أي لا يملك أحد شيأ منها أصلاً ، ولا غيرهم ، ويعصمك منهم وينصرك عليهم ﴿ **هُوَ السّميع العَليمُ** ﴾ يسمع ما يقولون في حقك ، ويعلم ما يعزمون عليه ، وهو مكافئهم بذلك ﴿ **ألا إنّ للهِ منْ في السّمواتِ ومَنْ في الأرْضِ** ﴾ أي العقلاء من الملائكة والثقلين ، وإذا كان هؤلاء الذين هم أشرف المخلوقات عبيداً له سبحانه ، مقهورين تحت قدرته وملكيته ، فما عداهم من الموجودات أولى بذلك ، فهو

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومالك في الموطأ وانظر جامع الأصول ٢ / ٥٢٦ .

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود بلفظ (رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) وانظر جامع الأصول ٢ / ٥١٥ .

تعالى قادر على نصرك ، ونقل أموالهم وديارهم إليك ﴿ **وما يتّبع الّذين يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ** ﴾ أي وما يتّبع الذين يدعون آلهة في الحقيقة ، وإن سموها شركاء ، لأن شركة الله تعالى في الربوبية محال ﴿ **إنْ يتّبِعُونَ إلاّ الظنّ** ﴾ أي ما يتبعون إلا ظنهم أنها شركاء ﴿ **وَإنْ هُمْ** ﴾ أي ما هم ﴿ **إلاّ يخْرُصونَ** ﴾ يكذبون فيما ينسبونه إلى الله سبحانه ، والخرّاصُ : الكذاب ، ثم نبه تعالى على تفرده بالقدرة الكاملة ، والنعمة الشاملة ، ليدلهم على توحده باستحقاق العبادة فقال ﴿ **هُوَ الّذي جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ** ﴾ مظلما ﴿ **لِتَسْكُنوا فيهِ** ﴾ وتستريحوا من تعب الطلب ﴿ **والنّهارَ مُبْصِراً** ﴾ لتتحركوا فيه لتحصيل أسباب معاشكم ، فحذف مظلما لدلالة « مبصراً » عليه ، وحذف لتتحركوا لدلالة لتسكنوا عليه ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى ، جعل بعض الأوقات للاستراحة ، من نصب المجاهدات ، وتعب الطاعات ، لتزول ملالة النفوس وكلالة القلوب ، ويستجد الشوق إلى جانب المطلوب ، ففي الانتقال من أسلوب إلى اسلوب تجديد ، كتقلب أهل الكهف من اليمين إلى اليسار ﴿ **إنّ في ذلكَ** ﴾ أي في جعل كل منهما كما وصف ﴿ **لآياتٍ** ﴾ عجيبة كثيرة ﴿ **لِقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ** ﴾ أي سماع تدبر واعتبار لمواعظ القرآن وتخصيص الآيات بهم مع أنها منصوبة لمصلحة الكل لما أنهم المنتفعون بها ﴿ **قَالوا** ﴾ أي بنو مدلج ﴿ **اتّخذَ اللهُ ولَداً** ﴾ أي تبناه * وفي التبيان قالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله ، وقالت قريش الملائكة بنات الله ﴿ **سُبْحانَهُ** ﴾ تنزيه وتقديس له عما نسبوهُ إليه من الولد ، وتعجب لكلمتهم الحمقاء .

﴿ **هُوَ الغَنِيُّ** ﴾ عن كل شيء وهو علة لتنزهه سبحانه ، فإنّ اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة ، فيتخذه الضعيف ليتقوى به ، والفقير ليستعين به ، والذليل ليتعزّز به ، وكل ذلك علامة الاحتياج ﴿ **لَهُ ما في السّمواتِ ومَا في الأَرْضِ** ﴾ أي من العقلاء وغيرهم ، وهو تقرير لغناه وتحقيق لمالكيته تعالى لكل ما سواه ﴿ **إنْ عِندَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا** ﴾ أي ما عندكم حجة وبرهان بهذا القول الباطل الذي صدر منكم ، فإن نافيةٍ ومن زائدة لتأكيد النفي ﴿ **أَتَقُوْلُوْنَ عَلى اللهِ مالا تَعْلَمونَ** ﴾ توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم ، وفيه تنبيه على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد لابدَّ لها من برهان قطعي ، وأن التقليد فيها غير جائز ﴿ **قُلْ إنّ الّذينَ يفْتَرونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ** ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ﴿ **لا يُفْلِحونَ** ﴾ لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلاً ﴿ **مَتاعٌ في الدُّنْيا** ﴾ جواب سؤال أي ذلك متاعٌ يسير في الدنيا زائل لا بقاء له ، وليس بفوز بالمطلوب ﴿ **ثُمّ إلَيْنا مَرْجِعُهُمْ** ﴾ أي بالموت ﴿ **ثُمّ نُذيقُهُمُ العذابَ الشّديدَ بما كَانوا يَكْفُرُونَ** ﴾ فيبقون في الشقاء المؤبد ، بسبب كفرهم المستمر في الدنيا ، فأين هم من الفلاح ؟

﴿ **واتْلُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي على المشركين من أهل مكة ﴿ **نَبَأَ نُوحٍ** ﴾ خبره مع قومه لينزجروا بذلك عماهم عليه من الكفر والعناد ﴿ **إِذْ قَالَ** ﴾ معمول لنبأ والمراد بعض نبأه عليه السلام ، لا كل ما جرى بينه وبين قومه ﴿ **لِقَوْمِهِ** ﴾ اللام للتبليغ ﴿ **يا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي عظم وشقّ ﴿ **مَقَامِي** ﴾ أي نفسي أو قيامي ومكثي بين ظهرانيكم مدة طويلة ﴿ **وَتَذْكِيري بِآياتِ اللهِ** ﴾ فإنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة يقومون على أرجلهم ، لكون ذلك أدخل في الاسماع كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود ، وكان عليه السلام يخطب على منبر من طين قبل أن يتخذ المنبر الذي هو من الشجر وكان له ثلاث درجات ﴿ **فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ جواب للشرط أي دمت على التوكل به وتفويض الأمور إليه ، فإنه معيني وناصري فيما أردتم بي من القتل والأذى وقال ابن الشيخ الأظهر إن يقال الجواب محذوف أي فافعلوا ما شئتم والمذكور تعليل لعدم مبالاته بهم ﴿ **فَأَجْمِعوا أَمْرَكُم** ﴾ بقطع الهمزة من الإجماع وهو العزم ، يقال أجمعت على الأمر إذا عزمت عليه ، والمعنى فاعزموا على أمركم الذي تريدون بي ، من السعي في إهلاكي ﴿ **وَشُرَكَاءَكُمْ** ﴾ أي مع آلهتكم واجتمعوا فيه على أي وجه يمكنكم ﴿ **ثُمّ** ﴾ للتراخي في الرتبة ﴿ **لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ** ﴾ ذلك ﴿ **عَلَيْكُمْ غُمّة** ﴾ أي مستوراً اجعلوه ظاهراً مكشوفاً تجاهرونني به ، ﴿ **ثمّ اقْضُوا إِليَّ** ﴾ أي أوصلوا ذلك الأمر الذي تريدون بي وأمضوا ما في أنفسكم ﴿ **ولا تُنْظِرُوْنِ** ﴾ ولا تمهلوني بل عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير انتظار ، وإنما خاطبهم بذلك إظهاراً لعدم المبالاة بهم ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً ، وثقة بالله سبحانه وبما وعده من عصمته وحفظه ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ أي إن أعرضتم عن نصيحتي وتذكيري ، ﴿ **فما سَأَلتكُمْ** ﴾ بمقابلة وعظي وتذكيري ﴿ **مِنْ أَجْرٍ** ﴾ أي شيء من حطام الدنيا تؤدونه إليّ ، حتى يؤدي ذلك إلى توليكم ﴿ **إِنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلى اللهِ** ﴾ أي ما ثوابي على العظة والتذكير ، إلا عليه يثيبني به آمنتم أو توليتم ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكونَ مِنَ المسْلِمينَ** ﴾ممن أسلم وجهه لله فلا يأخذ على تعليم الدين شيأ ، وقد جوز المتأخرون أخذ الأجرة على التعليم والأذان والإمامة والخطابة ، وغير ذلك ، لكن ينبغي للآخذ إخلاص النية في عمله وإلا فقد جاء الوعيد ﴿ **فَكَذّبُوهُ** ﴾ أي فأصروا على تكذيبه تمرداً وعناداً فحقت عليهم كلمة العذاب فأُغرقوا ﴿ **فَنَجّيناهُ** ﴾ من الغرق ﴿ **وَمَنْ** ﴾ استقر ﴿ **مَعَهُ في الفُلْكِ** ﴾ وكانوا ثمانين أربعين رجلاً ، وأربعين امرأة ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ** ﴾ أي سكان الأرض وخلفاً ممن غرق وهلك ، ولما خرجوا من السفينة ماتوا كلهم إلا أولاد نوح (سام وحام ويافث) ونساؤهم كما قال تعالى ﴿ **وَجعلْنا ذُرِّيَتَهُ هُم الباقِينَ** ﴾ فتوالدوا حتى كثروا ، فالعرب والعجم والفرس والروم كلهم من ولد سام ، والحبش والسند والهند من أولاد حام ، ويأجوج ومأجوج والترك من أولاد يافث ﴿ **وَأَغْرقْنا**

﴿ الذّينَ كَذَّبُوْا بِآياتِنا ﴾ بالطوفان ﴿ فانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبةُ المنْذَرينَ ﴾ وهم قوم نوح ، وفيه تحذير لمن كذب الرسول وتسلية له ﴿ ثُمّ بعثْنا ﴾ أي ارسلنا ﴿ مِنْ بَعْدِه ﴾ أي بعد نوح ﴿ رُسُلاً ﴾ التكثير للتفخيم أي رسلاً كراماً ذوي عدد كثير ﴿ إلى قَوْمِهِمْ ﴾ كل رسول إلى قومه خاصة ، مثل هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، وإبراهيم إلى قوم بابل ، وشعيب إلى قوم الأيكة ﴿ فجاؤُهُمْ ﴾ أي جاء كل رسول قومه المخصوصين به ﴿ بالبيّناتِ ﴾ بالمعجزات الواضحة ، مثبتة لدعواهم ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي ثم كانت حالتهم بعد مجيئهم الرسل ، كحالتهم قبل ذلك ، كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿ كذلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الطبع والختم المحكم ، الممتنع زواله ﴿ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوْبِ المُعْتَدِينَ ﴾ المتجاوزين الحدود باختيار الإصرار على الكفر .

﴿ ثُمّ بعَثْنا مِنْ بعْدِهِمْ ﴾ من بعد هؤلاء الرسل ﴿ مُوسَى ﴾ ابن عمران ﴿ وَهَرونَ ﴾ وهو اخو موسى أكبر منه بثلاث سنين ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ وليد بن مصعب ﴿ وَملائِهِ ﴾ أي أشراف قومه وهو اكتفاء بذكر الجُلِّ عن الكل ﴿ بآياتِنا ﴾ التسع وهي « العصا ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ، وفلق البحر » ﴿ فاسْتكْبَروا ﴾ الاستكبار ادعاء الكبر من غير استحقاق أي فأتيَاهم فبلَّغاهم الرسالة ، فاستكبروا عن اتباعهما ، وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام (أَلَمْ نُربِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) ؟ ﴿ وَكَانوا قَوْماً مُجْرِمينَ ﴾ أي كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العظام ، فإن الإجرام مؤذن بعظم الذنب ﴿ فَلَمّا جَاءَهُمُ الحَقُّ مِنْ عِنْدِنا ﴾ المراد بالحق الآيات التسع ، التي هي حق ظاهر من عند الله ، بخلقه وإيجاده ، لا تخييلٌ وتمويه كصنعتهم ﴿ قَالوا إنَّ هٰذا لَسِحْرٌ مُبينٌ ﴾ ظاهر كونه سحراً ﴿ قَالَ مُوسىٰ ﴾ على طريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿ أَتَقولُونَ لِلْحَقّ ﴾ الذي هو أبعد شيء من السحر ﴿ لَمّا جَاءَكُمْ ﴾ أي حين مجيئه إياكم من غير تأمل وتدبر أي أتقولون له إنه لسحر ، وتطعنون به وتعيبونه ؟ ﴿ أَسِحْرٌ هٰذا ﴾ الذي أمره واضح مكشوف ، وشأنه مشاهد معروف ، بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة ﴿ ولا يُفْلِحُ السّاحِرونَ ﴾ أي أتقولون إنه سحر والحال أنه لا يفلح فاعله أي لا يظفر بمطلوب ولا ينجو من مكروه ، فكيف يمكن صدوره من مثلي ؟ ﴿ قَالُوا ﴾ قالوا عاجزين عن المحاجة ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ خطاب لموسى وحده لأنه هو الذي ظهرت على يده معجزة العصا واليد البيضاء ﴿ لِتَلْفِتَنَا ﴾ أي لتصرفنا ﴿ عمّا وَجَدْنَا عَليهِ آباءَنا ﴾ أي من عبادة غير الله تعالى ، فإنهم كانوا يعبدون فرعون ﴿ وتكونَ لَكُما الكِبْرِيَاءُ ﴾ أي الملك لأن الملوك موصوفون بالكبر والتعظم ﴿ في الأرْضِ ﴾ أي أرض مصر ﴿ وما نَحْنُ لكُما بِمُؤمِنينَ ﴾ أي بمصدقين فيما جئتما به ﴿ وَقال

﴿ فِرْعَوْنُ ﴾ لملائه بعد اليأس عن إلزامهما بالقول ﴿ ائتوني بِكُلِ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ بفنون السحر ، حاذق ماهر فيه ، ليعارض موسى ﴿ فَلَمّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ أي فأتوا فلما جاؤا في مقابلة موسى ﴿ قَالَ لَهُمْ موسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴾ أي ملقون له من أصناف السحر ، أمرهم بإلقاء الحبال والعصيِّ ، ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد ، وسعيٌ باطل ﴿ فَلَمّا أَلْقَوْا ﴾ ما ألقوا من العِصيِّ والحبال واسترهبوا الناس ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ مُوسىٰ ﴾ غير مكترث بهم وبما صنعوا ﴿ ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ﴾ أي الذي جئتم به هو السحر ، لا ما سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله سبحانه ﴿ إِنّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ أي سيمحقه بالكلية ، بما يظهره علي يدي من المعجزة ، فلا يُبقي له أثراً أصلاً ، أو سيظهر بطلانه للناس ، والسين للتأكيد كما قال القائل :

إذا جاء موسى وألقى العصا * فقد بطل السحر والساحر

﴿ إِنّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ ﴾ أي لا يثبته ولا يكمله ولا يديمه ، بل يمحقه ويهلكه ويسلط عليه الدمار ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ ﴾ أي يثبته ويقويه ﴿ بِكَلِماتِهِ ﴾ بأوامره وقضاياه ﴿ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ ﴾ ذلك ، والمراد كل من اتصف بالإجرام ، من السحرة وغيرهم ﴿ فما آمَنَ لموسىٰ ﴾ في مبدأ أمره ﴿ إِلاّ ذُرِّيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي إلا أولاد من أولاد قومه بني اسرائيل ، حيث دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون ، وأجابته طائفة من شبانهم ، ﴿ عَلىٰ خَوْفٍ ﴾ أي كائنين على خوف عظيم ﴿ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ ﴾ أي ملأ الذرية ، تلخيصه آمنوا وهم يخافون من فرعون ومن أشراف بني إسرائيل ، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم ، خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ﴿ أَنْ يفْتِنَهُمْ ﴾ أن يعذبهم فرعون ﴿ وَإِنّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ ﴾ لغالب في أرض مصر ، ومتكبر وطاغٍ ﴿ وَإِنّهُ لَمِنَ المُسْرِفِينَ ﴾ في الظلم والفساد ، بالقتل وسفك الدماء ، أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية واسترقَّ أسباط الأنبياء وهم بنو إسرائيل ﴿ وقَالَ مُوسىٰ ﴾ لما رأى خوفهم منه ﴿ يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ ﴾ أي صدقتم به وبآياته ، وعلمتم أن المنافع والمضار بقبضة اقتداره ﴿ فَعَلَيهِ تَوَكّلُوا ﴾ وثقوا به واعتمدوا عليه ولا تخافوا أحداً غيره ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلصين له ﴿ فَقَالُوا ﴾ مجيبين له من غير تلعثم في ذلك ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكّلْنا ﴾ لأنهم كانوا مؤمنين مخلصين ، ولذلك أجيبت دعوتهم ، ثم دعوا ربهم قائلين ﴿ رَبّنا لا تَجْعَلْنا فِتنَةً لِلْقَوْمِ الظّالِمِينَ ﴾ أي موضع عذاب لهم ، بأن تسلطهم علينا فيعذبونا ويفتنونا عن ديننا ﴿ وَنَجّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ من كيدهم وشؤم جوارهم قال الشاعر :

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا على الحرِ أن يَرَى * عَدُواً لَه ما مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

وفي تقديم التوكل على الدعاء ، تنبيه على أن الداعي ينبغي أن يتوكل أولاً لتجاب دعوته ، ولما آمن هؤلاء الذرية بموسى ، لزمهم أن يبنوا مساجد للاجتماع فيها للعبادة ، لكن لما لم يقدروا على إظهار شعائر دينهم خوفاً من أذى فرعون ، أُمروا باتخاذ المساجد في بيوتهم ، كما كان المؤمنون في أول الإسلام يعبدون ربهم سراً في دار الأرقم بمكة ، وذلك قوله تعالى ﴿ **وَأَوْحَينَا إلى مُوسىٰ وَأخيهِ** ﴾ هارون ﴿ **أَنْ** ﴾ أي أوحينا إليهما شيأ هو ﴿ **تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيوتاً** ﴾ يقال تبوأ المكان إذا اتخذه منزلا ، والمعنى اجعلا بمصر المعروفة بيوتاً للسكنى والعبادة ﴿ **واجْعلوا** ﴾ أنتما وقومكما ﴿ **بُيُوتَكُمْ** ﴾ تلك ﴿ **قِبلةً** ﴾ مساجد متوجهة نحو القبلة ﴿ **وأَقِيمُوا الصّلٰوةَ** ﴾ فيها وهذا ينبىء أن الصلاة كانت مفروضة عليهم دون الزكاة ، ولعل ذلك لفقرهم ﴿ **وَبَشِّرِ** ﴾ يا موسى ﴿ **المُؤْمِنينَ** ﴾ بالنصرة في الدنيا إجابة لدعوتهم والجنة في العقبى ، ﴿ **وَقَالَ مُوسىٰ رَبَّنَا إنّكَ آتيْتَ فِرْعوْنَ وَملأَهُ زِينةً** ﴾ أي ما يتزين به من اللّباس والمراكب ونحوها ﴿ **وَأَمْوالاً في الحيوٰةِ الدُّنْيا** ﴾ وأنواعاً كثيرة من المال ، كالنقود والمتاع والضياع ، ومعادن الذهب والفضة ﴿ **رَبّنا** ﴾ أي آتيته وملأه هذه الزينة والأموال ﴿ **لِيُضِلّوا عَنْ سَبيلِكَ** ﴾ أي ليكون عاقبة أمرهم أن يُضلّوا عبادك عن طريق الإيمان ، فاللام للعاقبة كما في قوله

أموالُنَا لِذوي الميراثِ نَجْمعُها * ودُوْرُنا لِخَرابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

أو لأجل أن يضلوا عن سبيلك ، فاللام للتعليل مجازاً ، لأن الله تعالى آتاهم ذلك ليؤمنوا ويشكروا نعمه ، فتوسلوا إلى مزيد البغي والكفر ، فأشبهت هذه الحالة حال من أعطي المال لأجل الإضلال ، وفي الآية بيان أن حطام الدنيا سبب للضلال والإضلال ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، قال أبو بكر رضي الله عنه : اللهم ابسط لي الدنيا وزهدني فيها ، ولا تَزوِها عني وترغبني فيها ﴿ **رَبَّنَا اطْمِسْ عَلىٰ أَمْوالِهِمْ** ﴾ دعاء عليهم بعد الإنذار ، وأصل الطمس : المحو وإزالة الأثر ، والمعنى أذهبْ منفعتها وامسخها ، لأنهم يستعينون بنعمتك على معاصيك ، ﴿ **وَاشْدُدْ عَلىٰ قُلوبِهِمْ** ﴾ أصل الشد : الإيثاقُ ، والمعنى اجعلها قاسية واختم عليها لئلا يدخلها الإيمان ﴿ **فلا يُؤمِنُوا** ﴾ جواب للدعاء ﴿ **حَتّى يَرَوُا** ﴾ أي إلى أن يروا ﴿ **العَذابَ الأَليمَ** ﴾ أي يعاينوه ويوقنوا به بحيث لا ينفعهم ذلك ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما** ﴾ يعني موسى وهارون لأنه كان يؤمّن ، والتأمين دعاء أيضا ﴿ **فَاسْتَقِيمَا** ﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه ﴿ **ولا تَتَّبِعَانِّ سَبيلَ الذّينَ لا يعْلَمونَ** ﴾ سبيل الجهلة في الاستعجال ، روي أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعد الدعاء أربعين سنة ، قال علي رضي الله عنه : جعل في يديك مفاتيح خزائنه ، بما أذن لك فيه من مسألته ، فما شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرت شآبيب رحمته ، فلا يقنطك إبطاء إجابته ، فإن العطية على قدر النية ، وربما أُخّرت عنك

الإجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجرِ السائل ، وأجزل لعطاء الآمل ، وفي الحديث (ما من داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته ، أو صرف عنه مثلها سوأ ، أو حطَّ من ذنوبه بقدرها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم)[١] ومن شرائط الدعاء الذلة ، فإن الإجابة مترتبة عليها كالنصر وعن أبي يزيد البسطامي أنه قال : كابدتُ العبادة ثلاثين سنة ، فرأيت قائلا يقول لي : يا أبا يزيد : خزائنه مملوءة من العبادة ، إن أردتَ الوصول إليه فعليك بالذلة والافتقار ، وفي الآية بيان جواز الدعاء بالسوء عند مساس الحاجه إليه ، وقد صدر من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أيضاً حيث دعا على مضر حين بالغوا في الأذية له عليه السلام فقال (اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سِنِينَ كسنّي يوسف)[٢] يعني خذهم أخذاً شديداً ، وعنى بسني يوسف السبع الشداد ، ، فاستجاب الله دعاءه عليه السلام فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف ، والجلود ، والعظام ، والعلهز وهو الوبر والدم أي يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار ، وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع .

﴿ **وَجَاوَزْنا بَبني إسْرائيل البَحْرَ** ﴾ من جاوز المكان إذا تخطاه أي جعلناهم مجاوزين البحر ، بأن جعلناه يَبَساً وحفظناهم حتى بلغوا الشط ﴿ **فأتْبَعَهُمْ** ﴾ أي أدركهم ولحقهم ﴿ **فِرْعَونُ وَجُنودُهُ** ﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿ **بَغْياً وَعَدْواً** ﴾ أي حال كونهم باغين ومعتدين ، أو للبغي والعدوان وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيل على حين غفلة من فرعون ، فلما سمع بهم تبعهم حتى لحقهم ووصل إلى الساحل ، وهم قد خرجوا من البحر ، ومسلكهم باق على حاله يبساً ، فسلكه بجنوده أجمعين فلما دخل آخرهم ، وهمَّ أولهم بالخروج غشيهم من اليمِّ ما غشيهم ﴿ **حَتّى إذا أدْرَكَهُ الغَرقُ** ﴾ أي لحقه وألجمه وأحاط به ﴿ **قَالَ** ﴾ فرعون ﴿ **آمنْتُ أنّهُ** ﴾ أي بأنه والضمير للشأن ﴿ **لا إلَهَ إلاّ الذّي آمنَتْ بِهِ بَنو إسْرائِيلَ** ﴾ لم يقل كما قاله السحرة ﴿ **آمّنا بِرَبِّ العَالمينَ رَبِّ مُوسى وهَرونَ** ﴾ بل عبر عنه بالموصول طمعاً في القبول وفي قول ذلك المخذول رائحة التقليد ، ولذا لم يقبل ، ولو تمسك بحبل التحقيق لقال : آمنت بالله الذي لا إله إلا هو ﴿ **وَأنا مِنَ المسْلِمينَ** ﴾ أي الذين أسلموا نفوسهم لله أي جعلوها سالمة خالصة له تعالى ﴿ **آلآنَ** ﴾ أي فقيل آلآن تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات ؟ ﴿ **وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ** ﴾ أي والحال قد عصيت قبل ذلك مدة عمرك ﴿ **وَكُنْتَ مِنَ المفْسِدينَ** ﴾أي الغالين في الضلال والإضلال ، والظلم والتعدي ، وصد بني إسرائيل عن

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي بلفظ (ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها ، أو صرف عنه ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٩ / ٥١٢ .

(٢) الحديث أخرجه النسائي وابن أبي حاتم ، وأصله في الصحيحين .

الإيمان ، جاء في الأخبار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : غار النيل على عهد فرعون ، فأتاه أهل مملكته فقالوا أيها الملك أجر لنا النيل ، فقال إني لست براض عنكم ، حتى قالوا ذلك ثلاث مرات ، فذهبوا فأتوه فقالوا أيها الملك ماتت البهائم ، وهلكت الصبيان والأبكار ، فإن لم تجر لنا النيل اتخذنا إلهاً غيرك ، فقال لهم اخرجوا إلى الصعيد ، فخرجوا فتنحى عنهم بحيث لا يرونه ولا يسمعون كلامه ، وألصق خده بالأرض وأشار بالسبابة فقال : اللهم إني خرجت إليك خروج العبد الذليل إلى سيده ، وإني أعلم أنه لا يقدر على إجرائه غيرك ، فأجْرِه فقام فجرى النيل جرياً ، فأتاهم فقال لهم إني أجريت لكم النيل فخرّوا له سجداً ، وهذا لا يدل على إيمان فرعون ، وذلك لأن الإيمان ينبغي أن لا يكون صاحبُه كافراً بشيء من أفعال الكفر وألفاظه ، إلا أنّ من المعاصي ما جعله الشارع أمارة التكذيب ، ومنه دعوة فرعون إلى عبادة نفسه ، ورضاه عن سجود قومه له ، ونحو ذلك ، فمع ذلك لا يكون مؤمناً البته ﴿ **فاليومَ نُنَجِّيكَ** ﴾ أي نبعدك ونخرجك من قعر البحر ، ونجعلك طافياً ليراك بنو إسرائيل ويتحققوا بهلاكك ﴿ **بِبَدَنِكَ** ﴾ الباء للمصاحبة أي ننجيك ملابسا ببدنك فقط ، لا مع روحك كما هو مطلوبك ، فهو قطع لطمعه بالكلية ، أو كاملاً سوياً من غير نقص ، لئلا يبقى شبهة في أنه بدنك ﴿ **لتكونَ لِمنْ خَلْفَكَ آيةً** ﴾ لمن وراءك علامة وهم بنو إسرائيل ، إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خُيّل إليهم أنه لا يهلك ، حتى كذبوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه ، إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل أو لمن يأتي بعدك من الأمم ، إذا سمعوا مآل أمرك ممن شاهدك ، وحجة تدلُهم على أن الإنسان وإن بلغ الغاية القصوى من عظم الشأن ، وعلو الكبرياء ، وقوة السلطان ، فهو مملوك مقهور بعيد عن مظان الربوبية ، قال في الكواشي : خاطبه كخطاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أهل القليب ، وذلك أن الله تعالى لما هزم المشركين يوم بدر ، أمر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يطرح قتلاهم في القليب ، ثم جاء حتى وقف على شفير القليب وجعل يقول : يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان ، هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني الله حقاً ؟ بئس عشيرة النبي كنتم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فقال عمر يا رسول الله : كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فقال عليه السلام (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) وفي رواية (لقد سمعوا ما قلت غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيأ) وعن قتادة أحياهم الله حتى سمعوا كلام رسول الله توبيخاً لهم وتصغيراً ، ونقمة وحسرة ، والمراد بإحيائهم شدة تعلق أرواحهم بأجسادهم ، حتى صاروا كالأحياء في الدنيا للغرض المذكور ، لأن الروح بعد مفارقة جسدها يصير لها تعلق به أو بما يبقى منه ولو عَجْبُ الذنب ، فإنه لا يفنى وإن اضمحل الجسم ، بأكل التراب ، أو بأكل السباع ، أو الطير أو

النار ، وبواسطة ذلك التعلق يعرف الميت من يزوره ويأنس به ، ويردُّ سلامه إذا سلم عليه ، كما ثبت في الأحاديث ، والغالب أن هذا التعلق لا يصير به الميت حياً في الدنيا ، بل يصير كالمتوسط بين الحي والميت .

﴿ **وَإِنَّ كثيراً مِنَ النّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلونَ** ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها . قالوا : فرعون مع شدة شكيمته ، وفرط عناده ، آمن ولو حال اليأس ، وأما فرعون هذه الأمة أبو جهل قتله الله يومئذ شر قتله ، ولم يصدر منه ما يؤذن بإيمانه ، بل اشتد غيظه وغضبه في حق رسول الله ، وفي حق المؤمنين إلى أن خرج روحه لعنه الله ، فصار أشد من فرعون ، فليعتبر العاقل بهذا وليقس عليه كل من سلك مسلكه في الكفر والظلم والعناد ، فنعوذ بالله رب العباد ، من كل شر وفساد ، ثم إن الله تعالى أهلك العدو وأنجى بني إسرائيل ، وذلك لصدق إيمانهم وبركة يقينهم ﴿ **وَلقدْ بَوّأْنا بني إسْرائِيلَ** ﴾ أي أسكناهم وأنزلناهم بعد ما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم فرعون وقومه ﴿ **مُبَوّأَ صِدْقٍ** ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً ، ومكانا محموداً وهو الشام ومصر ، فصاروا ملوكاً بعد الفراعنة وتمكنوا في نواحيها ﴿ **وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ أي اللذائذ من الثمار وغيرها ، من المنّ والسلوى ﴿ **فما اخْتَلَفُوا** ﴾ في أمور دينهم ﴿ **حتّى جَاءَهُمُ العِلْمُ** ﴾ أي إلا من بعد ما قرأوا التوراة وعلموا أحكامهم وما هو الحق في أمور دينهم بالتأويل طلباً للرياسة ، وبغياً من بعضهم على بعضهم ، حتى أداهم ذلك إلى القتال ﴿ **إنّ رَبّكَ يقْضي بيْنَهُمْ يوْمَ القِيٰمةِ فيما كانُوا فيهِ يخْتَلِفونَ** ﴾ فيميز المحق من المبطل ، بالإثابة والتعذيب ﴿ **فَإنْ كُنْتَ في شَكٍ** ﴾ أي في شك على الفرض والتقدير ﴿ **مّما أَنْزلنا إليكَ** ﴾ من القصص التي من جملتها قصة فرعون وقومه ﴿ **فَاسْألِ الّذِينَ يقْرأوْنَ الكِتاب مِنْ قبْلِكَ** ﴾ فإن ذلك محقق عندهم ثابت في كتبهم ، على نحو ما ألقينا إليك ، والمراد إظهار نبوته عليه السلام بشهادة الأحبار وتهييجه عليه السلام وزيادة تثبيته على ما هو عليه من اليقين ، لا تجويز صدور الشك منه عليه السلام ، ولذلك قال عليه السلام (لا أشك ولا أسأل)[1] وقيل : الخطاب للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد أمته ، فإنه محفوظ ومعصوم من الشكوك والشبهات ، وعادة السلطان الكبير إذا كان له أمير فأراد السلطان أن يأمر الرعية بأمر مخصوص ، فإنه لا يوجه خطابه لهم بل يوجه ذلك الخطاب لذلك الأمير الذي جعله أميراً عليهم ، ليكون أقوى تأثيراً في قلوبهم ﴿ **لَقَدْ جَاءكَ الحَقُّ** ﴾ الذي لا ريب في حقيقته ﴿ **مِنْ رَبّكَ** ﴾ وظهر ذلك بالآيات القاطعة ﴿ **فلا تَكونَنَّ مِنَ الممْتَرينَ** ﴾ بالتزلزل عما أنت عليه ، والامتراء : التوقفُ في الشيء والشك فيه ﴿ **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الذّينَ كَذّبُوا بِآياتِ اللهِ** ﴾ من باب التهييج والإلهاب ، والمراد

(١) هذا حديث موقوف على قتادة قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أشك ولا أسأل » ابن كثير ٢ / ٢٠٧ .

به إعلام أن التكذيب من القبح بحيث ينبغي أن ينهى عنه ﴿ فَتَكُونَ ﴾ بذلك ﴿ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ أنفساً وأعمالاً ﴿ إِنَّ الذِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ ﴾ ثبتت ووجبت ﴿ كلمةُ رَبِّكَ ﴾ أي وجبت عليهم النار بسبق هذه الكلمة لقوله تعالى (وَلكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ) ﴿ لا يُؤْمِنونَ ﴾ أبداً إذ لا كذب لكلامه ، ولا انتقاض لقضائه ﴿ ولوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ سألوها واقترحوها ﴿ حتّى يَرَوُا العَذابَ الأَلِيمَ ﴾ إلى أن يروه وحينئذ لا ينفعهم كما لا ينفع فرعون ﴿ فَلوْلا ﴾ « لَوْلاَ » تحضيضٌ بمعنى هلاً ، وحرف التحضيض إذا دخل على الماضي يكون للتوبيخ على ترك الفعل ﴿ كانَتْ ﴾ تامة ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ من القرى المهلكة والمراد أهاليها ﴿ آمَنَتْ ﴾ قبل معاينة العذاب ولم تؤخر إيمانها ، كما أخر فرعون وقومه ﴿ فَنَفَعَها إيمانُها ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف بسببه العذاب عنها ﴿ إلاّ قوْمَ يُونُسَ ﴾ لكن قوم يونس بن متى ﴿ لَمّا آمنُوا ﴾ أول ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنا عَنْهُمْ ﴾ رفعنا وأزلنا ﴿ عَذابَ الخِزْيِ ﴾ أي الذل والهوان الذي يفضح صاحبه وهو لا يدل على حصولهم في العذاب ، بل يقع ذلك على إشراف العذاب عليهم ، ﴿ في الحيٰوةِ الدُّنيا ﴾ فنفعهم إيمانهم فوقوعه في وقت الاختيار لا حال اليأس ﴿ وَمتّعْناهُمْ ﴾ بمتاع الدنيا بعد كشف العذاب عنهم ﴿ إلى حِينٍ ﴾ مقدر لهم في علم الله سبحانه والاستثناء منقطع ، ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي ، كأنه قيل : ما آمنت أهل قرية من القرى المشرفة على الهلاك فنفعهم إيمانهم ، إلا قوم يونس ، فيكون قوله تعالى لما آمنوا استئنافا لبيان نفع إيمانهم ، وفيه دلالة على أن الإيمان المقبول هو الإيمان بالقلب ، روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل ، قرية على شاطىء دجلة ، فدعاهم إلى الله تعالى مدة فكذبوه وأصروا عليه ، فضاق صدره فقال : اللهم إن القوم كذبوني فأنزل عليهم نقمتك فقيل له أخبرهم أن العذاب مصبّحهم بعد ثلاث أو بعد أربعين ، قال في الكواشي : فحنّ بعضهم إلى بعض وعجوا وتضرعوا واختلطت أصواتهم وفعلوا ذلك ليكون أرق لقلوبهم وأخلص للدعاء وأقرب إلى الإجابة وترادوا المظالم حتى كان الرجل يقلع الحجر قد وضع عليه بنيانه فيرده وقالوا جملة بالنية الخالصة : آمنا بما جاء به يونس ، أو قالوا : ياحيُّ ياقيُّومُ برحمتك نستغيث ، ويا حي لا إله إلا أنت أو قالوا اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، وأما يونس فذهب مغاضباً ونزل السفينة فاضطربت فقال لهم الرُّبّان : إنَّ معكم عبداً آبقاً من ربه ، وإنها لا تسير حتى تلقوه في البحر فاقترعوا فخرجت القرعة عليه ثلاث مرات ، فألقوه فالتقمه الحوت ، قال الشعبي : التقمه الحوت ضحوة يوم عاشوراء ، ونبذه عشية ذلك اليوم ، أي بعد العصر وقاربت الشمس الغروب ، وفيه بيان فضل يوم عاشوراء ، فإنه اليومُ الذي كشف الله العذاب فيه عن قوم يونس ، وأخرج يونس من بطن الحوت ، وأزال عنه ذلك الابتلاء .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ إيمان من في الأرض من الثقلين ﴿ لآمَنَ مَنْ في الأرْض كُلُّهُمْ ﴾ بحيث لا يشذ منهم أحد ﴿ جَميعاً ﴾ مجتمعين على الإيمان لا يختلفون ، لكنه لا يشاؤه لكونه مخالفاً للحكمة التي عليها بني أساس التكوين والتشريع ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ على ما لم يشأ الله منهم ﴿ حَتّى يَكُونُوا مُؤمِنينَ ﴾ ليس ذلك إليك ﴿ وَمَا كانَ ﴾ أي وما صح وما استقام ﴿ لِنَفْسٍ ﴾ من النفوس التي علم الله أنها تؤمن ﴿ أَنْ تُؤمِنَ ﴾ في حال من أحوالها ﴿ إلاّ بإذْنِ اللهِ ﴾ أي إلا حال كونها ملابسة بإذنه تعالى وتسهيله وتوفيقه ، فلا تُجهد نفسك في هداها فإنه إلى الله ﴿ وَيَجْعَلُ الرِجّسَ ﴾ أي الكفر عبر عنه بالرجس الذي هو عبارة عن القبيح المستقذر المستكره ، لكونه عَلَماً في القبح والاستكراه أي يجعل الكفر ويبقيه ﴿ عَلَى الذّينَ لا يَعْقِلونَ ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحجج والآيات ، فلا يحصل لهم الهداية التي عبر عنها بالإذن ، فيبقون مغمورين بقبائح الكفر والضلال ﴿ قُلِ انْظُروا ﴾ تفكروا يا أهل مكة ﴿ ماذا في السّموات والأرْضِ ﴾ أي أيَّ شيءٍ بديع فيهما ، من عجائب صنعه الدالة على وحدته ، وكمال قدرته ، ﴿ وَما تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ ﴾ جمع نذير بمعنى منذر ، أي لا تنفع الآيات الدالة على الوحدانية ، والرسل المنذرون ، أو الإنذارات شيئاً ﴿ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنونَ ﴾ في علم الله تعالى وحكمه ﴿ فَهلْ ينْتَظِرونَ ﴾ أي فما ينتظر كفار مكة وأضرابهم ﴿ إلاّ مثْلَ أيّامِ الذينَ خَلَوا ﴾ أي إلا يوماً مثل أيام الذين مضوا ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من مشركي الأمم الماضية ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وأصحاب الأيكة وأهل المؤتفكة أي مثل وقائعهم ونزول بأس الله بهم ، إذ لا يستحقون غيره ﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لهم ﴿ فانْتَظِرُوا ﴾ ما هو عاقبتكم من العذاب ﴿ إنّي مَعَكُمْ مِنَ المنْتَظِرينَ ﴾ المنتظرين لهلاككم ، فإن العاقبة للمتقين ﴿ ثُمَّ نُنَجّي رُسُلَنا والذّينَ آمنُوا ﴾ كأنه قيل نهلك الأمم ، ثمَّ ننجي رسلنا ومن آمن بهم عند نزول العذاب ﴿ كذلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿ حَقّاً عَليْنا ﴾ أي حق ذلك حقاً ﴿ نُنْجِي المُؤْمِنينَ ﴾ من كل شدة وعذاب ، ولم يذكر إنجاء الرسل إيذاناً بعدم الحاجة إليه ، وفيه تنبيه على أن مدار النجاة هو الإيمان ، وهذه سنة الله تعالى في جميع الأمم ، فإن الله تعالى كما أنجى الرسل المتقدمين ومن آمن بهم ، وأنجز ما وعد لهم ، كذلك أنجى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من أصحابه ، وحقق لهم ما وعد لهم ، وسينجي إلى قيام الساعة جميع المؤمنين من أيدي الكفرة وشرورهم ، ما دام الشرع باقياً ، والعمل به قائماً ، وأقلُّ النجاة الموت ، فإن الموت تحفة المؤمن ألا ترى إلى قوله عليه السلام حين مرّ بجنازة « مستريح أو مستراح منه »[1] فالأول هو الرجل الصالح يتخلص من تعب الدنيا ، ويستريح في البرزخ بالثواب الروحاني ، وهو نصف النعيم ، والثاني هو الرجل الفاسق يستريح بموته الخلق ، ويتخلصون بموته من أذاه ، يصل هو إلى العذاب الروحاني البرزخي وهو نصف

(١) الحديث جزء من حديث طويل أخرجه الشيخان وأحمد والنسائي ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٣٦ .

الجحيم ، وأفضل العبادة انتظار الفرج ، وذلك لأن فيه استراحة القلب ، وثواب الصبر ، إذ المؤمنُ المبتلَى يعتقد أن المبتلي هو الله تعالى ، وأنه لا كاشف له إلا هو ، وذلك يخفف ألم البلاء عنه ، ويهّون عليه الصبر ، فيرفع الجزع ويجد الاستراحة في قلبه ، بخلاف حال الجاهل الذي لا يخطر بباله أن ما يجري عليه إنما هو بقضاء الله ، وأن الله لطيف بعباده ، إذ ربما يعتقد أنه لا يتخلص من بلائه أبداً ، فينسب العجز إلى الله تعالى من حيث لا يحتسب ، ويتقلب في ألم البلاء صباحاً ومساء ، فنعوذ بالله من الضلال.

﴿ **قُلْ يَا أَيُّها النّاسُ** ﴾ خطاب لأهل مكة ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِيني** ﴾ الذي أتعبد الله به وأدعوكم إليه ﴿ **فَلا أَعْبُدُ** ﴾ أي فأنا لا أعبد ﴿ **الّذِينَ تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ في وقت من الأوقات ﴿ **وَلكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الّذي يتَوَفّاكُمْ** ﴾ يقبض أرواحكم بواسطة الملك ، ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب ، فارفضوا عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلاً ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ** ﴾ أي بأن ﴿ **أَكُونَ مِنَ المؤمِنينَ** ﴾ وفي الانتقال من العبادة إلى الإيمان والمعرفة ، دلالة على أنه ما لم يصر الظاهر مزيناً بالأعمال الصالحة ، لا يستقر في القلب نور الإيمان والمعرفة ، فإن الله تعالى جعل أحكام الشريعة أساس المعرفة ، فإذا زال الأساس زال ما بُني عليه ﴿ **وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ** ﴾ أيْ وأمرتُ بالاستقامة في الدين بأداء الفرائض ، والانتهاء عن القبائح ، قال في الكواشي : والمعنى : كنْ مؤمناً ، وأخلصْ عملك لله ﴿ **حَنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة ، مستقيماً على الدين الحق الذي لا اعوجاج فيه بوجه ما ﴿ **ولا تَكُوْنَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ** ﴾ اعتقاداً وعملاً قال الإمام : من عرف مولاه لو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركاً ، وهذا هو الذي تُسمّيه أصحاب القلوب بالشرك الخفي ﴿ **وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله** ﴾ استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿ **مالا يَنْفَعُكَ** ﴾ بدفع مكروه ، أو جلب محبوب ﴿ **ولا يَضُرُّكَ** ﴾ بسلب المحبوب أو بإيقاع المكروه ﴿ **فَإِنْ فَعَلْتَ** ﴾ أي ما نُهيت عنه من دعاء ما لا ينفع ولا يضر ﴿ **فَإِنّكَ إِذاً مِنَ الظّالِمينَ** ﴾ الضارين بأنفسهم فلا نافع ولا ضار إلا الحق ، وكل شيء هالك إلا وجهه ﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ** ﴾ عنك ﴿ **إِلاّ هُوَ** ﴾ وحده ﴿ **وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ** ﴾ فلا دافع ﴿ **لِفَضْلِهِ** ﴾ كائنا من كان فيدخل فيه الأصنام ، وفيه إيذان بأن الخير مراد بالذات ، وأن الضر إنما يمس من يمسه لما يوجبه من الدواعي الخارجية ﴿ **يُصِيبُ بِهِ** ﴾ أي بفضله الشامل لما أراك به من الخير ولغيره ﴿ **منْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحيمُ** ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ، ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية قال في المفاتيح : معنى الغفور منْ يستر القبائح والذنوب ، بإسبال الستر عليها في الدنيا ، وترك المؤاخذة والعقاب عليها في الآخرة ، وحظ العارف من هذا الإسم أن يستر من أخيه ما يحب أن يستر منه ﴿ **قُلْ** ﴾ لكفار مكة ﴿ **يا أَيُّها النّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ ربّكُمْ** ﴾ وهو القرآن

العظيم ، واطلعتم على ما في تضاعيفه من البينات والهدى ، فلم يبق لكم عذر ولا عليه تعالى حجة ﴿ **فَمَنِ اهْتَدَىٰ** ﴾ بالإيمان به والعمل بما في آياته البيِّنات ﴿ **فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ** ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة ﴿ **وَمَنْ ضَلَّ** ﴾ بالكفر به والإعراض عنه ﴿ **فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ﴾ أي فوبال الضلال مقصور عليها ﴿ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ** ﴾ بحفيظ موكول إليَّ أمركم ، وإنما أنا بشير ونذير ﴿ **وَاتَّبِعْ** ﴾ اعتقاداً وعملاً وتبليغاً ﴿ **مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ** ﴾ من الحق المذكور المتأكد يوما فيوما ﴿ **وَاصْبِرْ** ﴾ على دعوتهم وتحمل أذيَّتهم ﴿ **حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ** ﴾ يقضي لك بالنصر وإظهار دينك ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطلاعه على السرائر ، وسعادة العبد أن يستسلم لحكمه وينقاد لأمره ، ليعيش ، راضياً مرضياً ، ويكفي لنا حال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإنه رضي بقضاء الله ، وصبر على بلائه ، فعاش حميداً وصار عاقبة أمره إلى النصرة ، ومما وقع له صلى الله تعالى عليه وسلم من الأذية ، ما حدَّث به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « كنا مع رسول الله في المسجد وهو يصلي ، وقد نحر جزور وبقي فرثه أي روثه في كرشه ، فقال أبو جهل أيكم يقوم إلى هذا القذر ويلقيه على محمد ؟ فقام عقبة بن أبي معيط وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي عليه السلام وهو ساجد ، فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض من شدة الضحك ، فهممنا أي خففنا لنلقيه عنه ، إذْ جاءت فاطمة رضي الله عنها فألقته عنه وأقبلت عليهم تشتمهم .. »[1] إلخ وكان بجواره صلى الله تعالى عليه وسلم جماعة منهم أبو لهب ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبي معيط ، وكانوا يطرحون عليه الأذى ، فإذا طرحوا عليه أخذه عليه السلام وخرج به ووقف على بابه ، ويقول : يا بني عبد مناف أيُّ جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق ، وهذه الأذية لا يظن ظانٌّ أنها منقصة له عليه السلام ، بل هي رفعة له ، ودليلٌ على فخامة قدره ، وعلو مرتبته ، وعظيم رفعته ومكانته عند ربه ، لكثرة صبره عليه السلام وحلمه واحتماله مع علمه باستجابة دعائه ونفوذ كلمته عند الله تعالى وقد قال ﷺ (أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ ، ثم الأمثل فالأمثل)[2] فالأنبياءُ كالذهب ، والشدائد التي تصيبهم كالنار التي يعرض عليها الذهب ، فإن ذلك لا يزيد الذهب إلا حسنا ، فكذا الشدائد لا تزيد الأنبياء إلا رفعة نسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق المبين ، ويحكم لنا بالنصر على نفوسنا وهو خير الحاكمين .

« تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة يونس »

● ● ●

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه النسائي في الطهارة .

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان ، وفيه ﴿ **يُبْتَلَى النَّاسُ على قدر دينهم ..** ﴾ الحديث ، الفتح الكبير ١ / ١٨٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرّ ﴾ أي هذه السورة « الر » أي مسماة بهذا الاسم جيء بها للتحدي والإعجاز ، قالوا : اللهُ أعلم بمراده من الحروف المقطعة ، فإنها من الأسرار المكتومة ، كما قال الشعبي حين سئل عنها سر الله فلا تطلبوه ، والله تعالى لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ، وقال الرقاشي : هي أسرار الله يبديها إلى أنبيائه ، والسادات النبلاء ، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال « حفظت من رسول الله وعاءين : فأما أحدهما فبثثته فيكم ، وأما الآخر فلو بثثته لقُطِع منّي هذا البلعوم »[1] * وقال سلطان المفسرين ابن عباس رضي الله عنهما معنى « الر » أنا الله أرى ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي هذا القرآن كتاب ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ نظمت نظماً محكماً ، لا يعتريه نقضٌ ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف ، أو منعت من النسخ بمعنى التغيير مطلقاً ﴿ ثُمّ فُصِّلَتْ ﴾ زينت آياته بالفوائد ، كما تزين القلائد أي ميزت وجعلت تفاصيل في مقاصد مختلفة ، ومعان متميزة ، من العقائد والأحكام ، والمواعظ والأمثال وغير ذلك ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ صفة ثانية للكتاب ، وصف أولاً بجلالة الشأن من حيث الذات ، ثم وصف من حيث الإضافة ، ولدن بمعنى عند لكنها مختصة بأقرب مكان ، وعند للبعيد والقريب ، ولهذا تقول عندي كذا لما تملكه ، حضرك أو غاب عنك ، ولاتقول لديَّ كذا إلا لما هو بحضرتك ، والحكيم الخبير : هو الله تعالى حكيم فيما أنزل ، خبير بمن أقبل على أمره أو أعرض عنه ﴿ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاّ اللهَ ﴾ مفعول له حذف منه اللام أي لأجل أن لا تعبدوا إلا الله أي تتركوا يا أهل مكة عبادة غير الله ، وتتمحضوا في عبادته ﴿ إِنّني لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ كلام على لسان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أي أنذركم من عذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم ، وتقديم النذير لأن التخويف هو الأهم ، إذ التخليةُ قبل التحلية ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ الاستغفار طلب المغفرة ، وهي أن يستر على العبد ذنوبه في الدنيا ، ويتجاوز عن عقوبته في العقبى ﴿ ثُمّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً ﴾ التمتيع جعل الشخص منتفعاً بشيء ، والمعنى يُعيِّشكم عيشاً مرضياً ، لا يفوتكم فيه شيء مما تشتهون ﴿ إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً ﴾ إلى آخر الأعمار المقدرة وتموتوا على فرشكم ، وههنا سؤالان : الأول أن قوله عليه السلام (الدنيا سجن المؤمن وجنة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ١ / ١٩٢ ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٢٣ .

الكافر) وقوله (أشدكم بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ ...) ونحوهما يدل على أن نصيب المطيع عدم الراحة في الدنيا ، فكيف يكون في أمن وسعة إلى حين الموت ؟ والجواب أن من ربط قلبه بالله ، ورضي بما قضاه الله في حقه ، حيِيَ حياة طيبة ، ومن ربط قلبه بالأسباب ، كان أبداً في ألم الخوف من فوات محبوبه ، فيتنغَّصُ عيشه ، ويضطرب قلبه ، وكون الدنيا سجناً إنما هو بالإضافة إلى ما أُعدَّ للمؤمن ، من نعيم الآخرة ، وهو لا ينافي الراحة في الجملة ، كما حكي أنه كان قاض من أهل بغداد ماراً بزقاق كلخان مع خدمه وحشمه كالوزير ، فطلع عليه يهوديٌّ في صورة جهني رث الهيئة ، كأن القطران يقطر من جوانبه ، فأخذ بلجام بغلة القاضي ، فقال : أيَّد الله القاضي ما معنى قول نبيكم (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) ؟ أما ترى أن الدنيا جنة لك وأنت مؤمن والدنيا سجن لي وأنا كافر يهودي ؟ فقال القاضي : الدنيا وما ترى من زينتها ونعيمها سجن للمؤمنين ، بالنسبة إلى الجنة وما أُعدَّ لهم فيها من الدرجات ، وجنة للكافرين بالنسبة إلى جهنم وما أعدَّ لهم فيها من الدركات ، فعَقَل اليهودي فأسلم وأخلص ، والثاني أن قوله تعالى (**إلى أجَلٍ مُسَمًّى**) يدل على أن للعبد أجلين كما قال الكعبي أن للمقتول أجلين : أجلُ القتل ، وأجل الموت وأن المقتول لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو أجل الموت .

والجواب أن الأجل واحد عند أهل السنة والجماعة ، فإن الأرزاق والأعمار وإن كانت متعلقة بالأعمال كالاستغفار والتوبة لكنها مسماة بالإضافة في كل أحد ، بناء على علم الله في العبد باشتغاله بما يزيد في العمر من القُرَبِ ، فلا يثبت تعدد الأجل ﴿ **وَيُؤتِ كُلَّ ذي فَضْلٍ** ﴾ في الأعمال والأخلاق والكمالات ﴿ **فَضْلَهُ** ﴾ أي جزاء فضله من الثواب والدرجات العالية ﴿ **وَإنْ تَوَلّوا** ﴾ أي تعرضوا عما ألقي إليكم ، من التوحيد والاستغفار والتوبة ، وتستمروا على الإعراض ﴿ **فإنّي أَخافُ عَليْكُمْ** ﴾ بموجب الشفقة والرحمة أو أتوقع ﴿ **عَذابَ يَوْمٍ كَبيرٍ** ﴾ شاقٍ وهو يوم القيامة ، قال في التبيان : وهو كبير لما فيه من الأهوال ، فوصف بوصف ما يكون فيه ﴿ **إلى اللهِ مَرْجعُكُمْ** ﴾ أي رجوعكم بالموت ثم بالبعث للجزاء ﴿ **وَهُوَ عَلىٰ كُلّ شَيْءٍ قَديرٌ** ﴾ فيقدر على تعذيبكم * واعلم أن الآية تدل على فضل التوحيد وشرف الاستغفار ، ألا يرى أن الموحد المستغفر كيف ينال العيش الطيّب في الدنيا ، والدرجات التالية في العقبى ، فهما مفتاح سعادة الدارين وفي الحديث (لا إله إلا الله مفتاح الجنة)[1] وفي الخبر (قال آدم يارب إنك سلَّطتَ عليَّ إبليس ولا أستطيع أن امتنع منه إلا بك ، قال الله تعالى : لا يولد لك ولد إلا وكَّلت عليه من يحفظه من مكر إبليس ، ومن قرناء السوء ، قال يارب زدني ، قال : الحسنةُ عشر وأزيد ، والسيئة واحدة وأمحوها ، قال يارب زدني ، قال التوبة مقبولة ما دام الروح في الجسد ، قال يارب زدني

(١) أخرجه البخاري عن وهب بن منبّه قيل له : أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ولكن ليس مفتاح إلاّ له أسنان ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٧١ .

فأجابه بقوله (**قل يا عبادِيَ الذينَ أسرفُوا على أنفسِهِمْ لا تقنطوا مِنْ رحمةِ الله إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوبَ جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**) ثم الاستغفار لا يختص بكونه من الذنوب ، بل يكون من العبادة التي لا يؤتى بها على الوجه اللائق ﴿ **أَلاَ** ﴾ أي تنبهوا أيها المؤمنون ﴿ **إِنَّهُمْ** ﴾ أي مشركي مكة ﴿ **يَثْنُوْنَ صُدورَهُمْ** ﴾ من ثنى يثني أي عطف وصرف ، والمعنى يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق ، وعداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **لِيسْتَخفُوا مِنْهُ** ﴾ أي ليختفوا ويستتروا من الله تعالى ، لجهلهم بما لا يجوز على الله تعالى ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أخنس بن شريق الزهري ، وكان رجلاً حلو المنطق ، حَسَن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المحبة ويضمر في قلبه ما يضادها ﴿ **ألا حِين يَسْتَغْشُوْنَ ثِيابَهُمْ** ﴾ أي يتغطَّون بها للاستخفاء ، وكان الرجل من الكفار يدخل بيته ، ويرخي ستره ، ويتغشى ثوبه ويقول : هل يعلم الله ما في قلبي ؟

﴿ **يعْلَمُ ما يُسِرُّونَ** ﴾ أي يضمرون في قلوبهم ﴿ **وما يُعْلِنونَ** ﴾ بأفواههم وما مصدرية أي إسرارهم وإعلانهم أو بمعنى الذي والعائد محذوف وقدم السر على العلن ، لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **عَليمٌ بِذاتِ الصُّدورِ** ﴾ فكيف يخفى عليه ما يسرون وما يعلنون ؟ ومعنى الآية إن الذين أضمروا الكفر والعداوة لا يخفون علينا ، وسنجازيهم على ما أبطنوا من سوء أعمالهم حق جزائهم ، فحقه أن يتقى ويحذر ، ولا يجترىء على شيء مما يخالف رضاه ، * واعلم أن إصلاح القلب أهم من كل شيء ، إذ هو كالمَلِك المطاع في إقليم البدن ، النافذ الحكم وظاهر الأعضاء كالرعية والخدم له ، والنفاق صفة من صفاته المذمومة وهو عدم موافقة الظاهر للباطن والقول للفعل * وقال ناس لابن عمر: إنَّا لندخل على سلطاننا وأمرائنا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم ، فقال كنا نعدُّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ ، وقال حذيفة : إن المنافقين اليوم شر منهم على عهد رسول الله ، قالوا وكيف ذلك ؟ قال كانوا يومئذ يسرون ، واليوم يجهرون ﴿ **وَما مِنْ دَابَّةٍ** ﴾ عام لكل حيوان يحتاج إلى الرزق ، صغيراً كان أو كبيراً ذكراً أو أنثى ﴿ **في الأرض** ﴾ أي يستقر في قطر من أقطار الأرض ﴿ **إلاّ عَلَى اللهِ رِزْقُها** ﴾ غذاؤها ومعاشها اللائق ، لتكلفه إياه تفضلاً ورحمة ﴿ **وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها ومُسْتَوْدَعَها** ﴾ يحتمل وجوهاً ، الأول ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مستقرها المكان الذي تأوي إليه ، ليلاً أو نهاراً أو تستقر فيه ، ومستودعها : الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت بلا اختيار منها كالشيء المستودع ، قال عبد الله إذا كان مدفن الرجل بأرض دفعتْهُ الحاجة إليها ، حتى إذا كان عند انقضاء أمره قبض ، فتقول الأرض يوم القيامة هذا ما استودعتني ، والثاني مستقرها

محل قرارها في أصلاب الآباء ، ومستودعها موضعها في الأرحام ، وسميت الأرحام مستودعاً لأنها يوضع فيها النطفةُ من قبل شخص آخر بخلاف وضعها في الأصلاب فإن النطفة بالنسبة إلى الأصلاب في حيزها الطبيعي ومنشأها الخلقي ، والثالث مستقرها مكانها من الأرض حين وجودها بالفعل ، ومستودعها حيث تكون مودعة فيه ، قبل وجودها بالفعل ، من صلب أو رحم ﴿ **كُلٌّ** ﴾ أي كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها ﴿ **في كِتابٍ مبينٍ** ﴾ أي مثبت في اللوح المحفوظ ، البين لمن ينظر فيه من الملائكة * وقد اتفقوا على أن أربعة أشياء لا تقبل التغير أصلاً وهي : « العمر ، والرزق ، والأجل ، والسعادة والشقاوة » فعلى العاقل أن لا يهتم لأجل رزقه ، ويتوكل على الله فإنه حسبه .

روي أن موسى عليه السلام لما أُمِرَ بالذهاب إلى فرعون للدعوة له إلى الإيمان ، تعلق قلبه بأحوال أهله ، قائلاً يارب من يقومُ بأمر عيالي ؟ فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه صخرة ، فضربها فانشقت وخرج منها صخرة ثانية ، ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت منها صخرة ثالثة ، ثم ضربها بعصاه فخرجت منها دودة ، وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، ورفع الحجاب عن سمع موسى ، فسمع الدودة تقول : « سبحان من يراني ، ويسمع كلامي ، ويعرف مكاني ، ويذكرني ولا ينساني » وعن أنس رضي الله عنه قال خرجت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوماً إلى المفازة في حاجة لنا فرأينا طيراً يلحن بصوت جهوري فقال عليه السلام (أتدري ما يقول هذا الطير يا أنس ؟ قلت الله ورسوله أعلم ، قال إنه يقول يارب أذهبتَ بصري ، وخلقتني أعمى ، فارزقني فإني جائع ، قال أنس : فبينما نحن ننظر إليه إذ جاء طائر آخر وهو الجراد ودخل في فم الطائر فابتلعه ، ثم رفع الطائر بصوته وجعل يلحن فقال عليه السلام : أتدري ما يقول الطير يا أنس ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال إنه يقول : الحمد لله الذي لم ينس من ذكره) وفي رواية (من توكل على الله كفاه) كما في إنسان العيون * قيل كان مكتوباً على سيف الحسين بن علي رضي الله عنه أربع كلمات : الرزق مقسوم ، والحريص محروم ، والبخيل مذموم ، والحاسد مغموم ﴿ **وهو الذّي خَلقَ السّمواتِ** ﴾ السبع بدون عَمَد ، قائمة بقدرة الله تعالى ، لا يمسكها شيء ولا تستند على دعائم ، إلا قدرة خالقها وباريها ، وفوق هذه عرش الرحمن ، وجَمَع السموات لاختلاف العلويات لأنها سبع سموات متطابقات ، وبين كل اثنتين منها مسيرة خمسمائة عام على ما ورد في الخبر ﴿ **والأرضَ** ﴾ أي الأرضين السبع بدليل قوله تعالى (**وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**) وأكثر الأرض مفازات ، وجبال ، وبحار ، والقليل منها العمران ﴿ **في ستّةِ أيّامٍ** ﴾ السموات في يومين ، والأرض في يومين وما عليها من أنواع الحيوان والنباتات وغير ذلك في يومين ، حسبما في سورة حم السجدة والمراد في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، أولها يوم الأحد، وآخرها

يوم الجمعة ، فإن الأيام في المتعارف زمان كون الشمس فوق الأرض ، ولا يتصور ذلك حين لا أرض ولا سماء ، أو من أيام الآخرة كل يوم كألف سنة مما تعدون على ما نقل عن ابن عباس ، وفي خلقها على التدريج مع أنه لو شاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر ، حثٌّ على التأني في الأمور ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُ** ﴾ العرش في أصل اللغة السرير ، والعرش المضاف إليه تعالى عبارةٌ عن مخلوق عظيم موجود ، هو أعظم المخلوقات ، قال مقاتل : جعل الله تعالى للعرش أربعة أركان ، بين كل ركن وركن وجوه لا يعلم عددها إلا الله تعالى ، أكثر من نجوم السماء ، وتراب الأرض ، وورق الشجر ، ليس لطوله وعرْضه منتهى ، لا يعلمه أحد إلا الله تعالى ، فإن قيل : لم خلق الله تعالى العرش وهو سبحانه لا حاجة له به ؟ أجيب بوجوه : أحدها أنه جعله مكاناً لاجتماع ملائكته لقوله تعالى (**وَترىٰ الملائكة حافّين مِنْ حوْلِ العْرشِ**) . وثانيها أنه أراد إظهار قدرته وعظمته كما قال مقاتل : السموات والأرض في عظم الكرسي كحلقةٍ في فلاة ، والكرسي مع السموات والأرض ، في عظم العرش كحلقة في فلاة ، وكلها في جنب عظمة الله تعالى كذرة في جنب الدنيا ، فخلقه كذلك ليعلم أن خالقه أعظم منه ﴿ **عَلى الماءِ** ﴾ أي العذب ثم وضع العرش على الماء ، ليس ذلك على معنى كون أحدهما على الآخر ملتصقاً بالآخر ، بل ممسك بقدرته تعالى ، قال الأصمُّ : هذا كقولهم السماء على الأرض ، وليس ذلك على سبيل كون أحداهما ملتصقة بالأخرى ، فالمعنى وكان عرشه تعالى قبل خلق السموات والأرض على الماء ، لم يكن حائل محسوس بينهما ، وإنما قلنا محسوس فإن بين السماء والأرض حائلاً هو الهواء ، لكن لما لم يكن محسوساً لم يعد حائلاً ، وفيه دليل على أن العرش والماء خلقا قبل السموات والأرض قال أبو السعود رحمه الله : وكان عرشه قبل خلقهما على الماء ، ليس تحته شيء غيره ، سواء كان بينهما فرجة أو كان موضوعاً على متنه كما ورد في الأثر ، فلا دلالة فيه على كون الماء أول ما حدث في العالم بعد العرش ، وإنما يدل على أن خلقهما أقدم من خلق السموات والأرض ، من غير تعرض للنسبة بينهما ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ** ﴾ أي خلق السموات والأرض ، وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم ، ورتب فيها جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معايشكم ، وأودع في تضاعيفها من أعاجيب الصنائع والعبر ، ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ، ليعاملكم معاملة من يبتليكم ويمتحنكم ﴿ **أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ فيجازيكم بالثواب والعقاب ، بعد ما تبين المحسن من المسيء والمراد بالعمل ما يعُمّ عمل القلب والجوارح ، ولذلك فسَّره بعضُ السلف بقوله « أيكم أحسنُ عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله » .

﴿ **وَلَئِنْ قُلْتَ** ﴾ يامحمد لقومك وهم أهل مكة ، واللّامُ لام التوطئة للقسم ﴿ **إِنَّكُمْ** ﴾ أيها المكلفون ﴿ **مَبعوثُونَ مِن بعْدِ الْموتِ** ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ **ليقُولَنَّ الذّينَ كَفَروا** ﴾ منهم وهو جواب

القسم ﴿ إِنْ هَذا ﴾ ما هذا القرآن الناطق بالبعث ﴿ إلا سِحْرٌ مُبينٌ ﴾ أي مثله في البطلان ، فإن السحر تمويه وتخييل باطل ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنا عنْهُمُ العَذابَ ﴾ الموعود ﴿ إلى أُمَّةٍ مَعْدُوْدَةٍ ﴾ إلى طائفة من الأيام قليلة ﴿ ليقُولُنَّ ﴾ أي الكفار ﴿ ما يَحبِسُهُ ﴾ أيْ أيَّ شيء يمنع العذاب من المجيء والنزول ؟ يقولون ذلك بطريق الاستهزاء ﴿ ألاَ يوْمَ يَأْتِيهِمْ ﴾ العذاب كيوم بدر ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ أي مدفوعاً عنهم ، لا يدفعه عنكم دافع ، بل هو واقع بكم ﴿ وحَاقَ بِهِمْ ﴾ ونزل بهم وأحاط ﴿ ما كانُوا به يسْتَهزِئونَ ﴾ أي العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً * واعلم أن السبب الموجب للعذاب الاستهزاءُ والتكذيب ، والناس صنفان في طريق الآخرة : صنفٌ مبتاع نفسه من عذاب الله تعالى ، بالإيمان والأعمال الصالحة ، وصنف مهلكها باتباع الهوى وترك الأعمال الصالحة ، والكفار أمنوا من عذاب الله تعالى وسخطه ، فوقعوا فيما وقعوا من العذاب العاجل والآجل ، وفي الحديث القدسي (وعزتي لا أجمع علي عبدي خوفين وأمنين ، إذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة) قال بعضهم : إني لا أغبط مَلَكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ، ولا عبداً صالحاً ، أليس هؤلاء يعاينون القيامة وأهوالها وإنما أغبط من لم يُخْلَق لأنه لا يرى أحوال القيامة وشدائدها * وعن السرى السقطي أشتهى أن أموت ببلدة غير بلدتي لئلا أفتضح ، فعلى العاقل أن يتدارك أمره قبل حلول الأجل ويستغفر من ذنبه ويحترز عن الإصرار وفي الحديث (المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه)[1] .

﴿ وَلَئِن ﴾ اللام موطئة للقسم ﴿ أذقْنا الإنْسانَ مِنّا رحمةً ﴾ أي أعطيناه نعمة من صحة وأمن وغيرها ﴿ ثُمَّ نزعْناها مِنهُ ﴾ أي سلبنا تلك النعمة منه وأزلناها عنه ﴿ إنّه لَيئُوسٌ ﴾ شديد اليأس لقلة صبره وتسليمه لقضائه ﴿ كَفورٌ ﴾ عظيم للكفران لما سلف له من النعم ، ومعنى الكفران إنكار النعمة والمعروف وترك شكره ، وفيه إشارة إلى أن النزع إنما كان بسبب كفرانهم ﴿ وَلئِنْ أذقْناهُ نَعْمَاءَ بعْدَ ضَرّاءَ مَسّتْهُ ﴾ كصحة بعد سقم ، وفرج بعد شدة ﴿ لَيَقُوْلَنَّ ﴾ الإنسان ﴿ ذَهبَ السَيِّآتُ عنيّ ﴾ أي المكاره والمصائب التي ساءتني ، ولن يعتريني بعد أمثالها ﴿ إنّه لَفَرِحٌ ﴾ اسم فاعل من فعل اللازم والفرح بالنعمة ونسيان المنعم فرح الغافلين ﴿ فَخورٌ ﴾ على الناس بما أوتي من النعم ، مشغول بذلك عن القيام بحقها ، وشكر ربّه عليها ﴿ إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوْا ﴾ أي المؤمنين الذين صبروا على الضراء ، إيماناً بالقضاء .

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، وابن عساكر وأوله (التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب .. إلخ) الفتح الكبير ٢ / ٤٠ .

﴿ وَعَمِلوا الصّالحاتِ ﴾ شكراً لنعمائه الظاهرة والباطنة ، والعملُ الصالح هو ما كان لوجه الله تعالى * وعن عمر رضي الله عنه الشكر والصبر مطيتان ما باليت أيهما أركب » يشير رضي الله عنه إلى أن كل واحد من طريق الصبر والشكر موصل إلى الله تعالى ﴿ أولئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿ لَهُمْ مغْفِرةٌ ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿ وأجْرٌ ﴾ ثواب لأعمالهم الحسنة ﴿ كبيرٌ ﴾ وهو الجنة وصف الأجر بقوله « كبير » لما احتوى عليه من النعيم السرمدي ، ورفع التكاليف ، والأمن من العذاب ، ورضى الله عنهم ، والنظر إلى وجهه الكريم ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوْحَى إلَيْكَ ﴾ أي فلعلك يا محمد تارك تبليغ بعض ما أوحاه الله إليك ، رُوِي أن مشركي مكة لما قالوا أئت بقرآن ليس فيه سَبُّ آلهتنا ولا مخالفةُ آبائنا ، هَمّ النبيُّ عليه السلام أن يدع سبَّ آلهتهم ظاهراً فأنزل الله تعالى هذه الآية ، و « لَعَلَّ » إما للترجي، وإما للإشفاق وهو توقع أمر مخوف كقوله تعالى (لَعَلّ الساعةَ قَريبٌ) والرجاء والإشفاق يتعلقان بالمخاطبين دون الله سبحانه ، والمراد هنا الإشفاق أي أشفق على نفسك أن تترك تبليغ ما يوحى إليك ، وهو ما يخالف رأي المشركين مخافة ردهم له واستهزائهم ﴿ وَضَائِقٌ بهِ صَدْرُكَ ﴾ أي عارض لك ضيق صدر ، بتلاوته عليهم وتبليغه إليهم ﴿ أنْ يَقولُوا ﴾ أي مخافة أن يقولوا مكذبين ﴿ لوْلا أُنزِلَ عَليْهِ ﴾ هلاَّ أُلقيَ عليه ﴿ كنْزٌ ﴾ مال من السماء يستعين به في أموره كالملوك ﴿ أوْ جاءَ معَهُ مَلَكٌ ﴾ يشهد له على صدق قوله ، ويعينه على تحصيل مقصوده كما قال رؤساء مكة يا محمد : اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً وقال آخرون : ائتنا بالملائكة ليشهدوا بنبوتك ﴿ إنّما أنْتَ نذيرٌ ﴾ ليس عليك إلا الإنذار بما أوحي إليك ، ولا عليك ردوا أو تهكموا ، فما بالك يضيق به صدرك ؟ ﴿ وَاللهُ علىٰ كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ ﴾ فتوكل عليه فإنه عالم بحالهم ، وفاعلٌ بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم ، وتلخيصه : أدِّ الرسالة غير ملتفت إليهم ، فإني حافظك وناصرك عليهم ، ﴿ أمْ يقُولونَ افْتَريهُ ﴾ أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة ، ومعنى الهمزة فيه التوبيخ والإنكار والمعنى : بل أيقولون افتراه وليس من عند الله ؟ ﴿ قُلْ ﴾ إن كان الأمر كما يقولون ﴿ فَأْتُوا ﴾ أنتم أيضاً ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ﴾ في البلاغة وحسن النظم ﴿ مفْتَرَياتٍ ﴾ صفة أخرى لسور ، والمعنى فائتوا بعشر سور مماثلة له في البلاغة ، مختلفات من عند أنفسكم ، إن صح أني اختلقته من عند نفسي ، فإنكم فصحاء مثلي تقدرون على ما أقدر عليه ﴿ وَادْعوا ﴾ للاستظهار في المعارضة ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التي تلجأون إلى آرائهم في الملمات ليسعدوكم فيها ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي متجاوزين الله تعالى ﴿ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أني افتريته على الله ، فإن ما افترى إنسان يقدر آخر أن يفتري مثله ﴿ فإنْ لَمْ يسْتَجيبوا لَكُمْ ﴾ الضمير في لكم للرسول عليه السلام وللمؤمنين ، والمعنى فإن لم يستجب هؤلاء المشركون لكم إلى ما دعوتموهم إليه من المعارضة ، وتبيَّنَ عجزهم عنه بعد الاستعانة بمن استطاعوا

﴿ فاعْلموا أنّما أُنْزِل بعلمِ اللهِ ﴾ أي ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله تعالى ، من المزايا والخواص والكيفيات ، فدوموا أيها المؤمنون واثبتوا على أنه منزل من عند الله ، وأنه من جملة المعجزات الدالة على صدقه عليه السلام في دعوى الرسالة ﴿ وَأَنْ لا إلهَ إلاّ هُوَ ﴾ يعني لا معبود بحقٍ غيره ، هو ينزل الوحي وليس أحد يُنزل الوحي غيره ﴿ فَهلْ أَنْتُمْ مُسْلِمونَ ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه ؟ أي فاثبتوا عليه مع زيادة الإخلاص ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ بما عمله من أعمال البر والإحسان ﴿ الحيٰوةَ الدُّنْيَا وزِينَتها ﴾ أي ما يَزينها ويحسنها من الصحة ، والأمن ، والسعة في الرزق ، والرياسة وغير ذلك ، ولا يريد وجه الله تعالى ﴿ نُوَفِّ إليْهِمْ أعمَالَهُمْ فِيها ﴾ أي نوصل إليهم ثمرات أعمالهم في الحياة الدنيا كاملة ﴿ وَهُمْ فيها ﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿ لا يُبخَسونَ ﴾ لا ينقصون شيأ من أجورهم ﴿ أُولئِكَ ﴾ المريدون للحياة الدنيا وزينتها الموفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس ﴿ الذّينَ ليْسَ لَهُمْ في الآخِرةِ إلا النّارُ ﴾ لأن هممهم كانت مصروفة إلى الدنيا ، وأعمالهم مقصورة على تحصيلها فقد اجتَنَوْا ثمراتها فلم يبق لهم في الآخرة إلا العذاب المخلد ﴿ وَحَبِطَ ما صَنَعوا فيها ﴾ يعني بطل ثواب أعمالهم التي صنعوها في الدنيا ، لأنها لم تكن لوجه الله تعالى ﴿ وبَاطِلٌ ما كَانُوا يعْمَلونَ ﴾ رياء وسمعة ، والآية في حق الكفار كما يفصح عنه الحصر ، واعلم أن حسنات الكفار من البر وصلة الرحم ، والصدقة وتسوية الطرق وإجراء الأنهار ونحو ذلك مقبولة بعد إسلامهم ، يعني يحسب ثوابها ولا يضيع ، وأما قبل الإسلام فانعقد الإجماع على أنهم لا يثابون على أعمالهم بنعيم ولا تخفيف عذاب ، لكن يكون بعضهم أشد عذاباً من بعض بحسب جرائمهم ﴿ أَفمنْ كَانَ على بَيّنةٍ منْ رَبّهِ ﴾ الهمزة للإنكار ، والبينةُ : الحجة والبرهان والتقدير أفمن كان على برهان ثابت من ربه كمن ليس على بينة ؟

﴿ ويتْلُوه ﴾ من التلو وهو التبع ﴿ شَاهِدٌ منْهُ ﴾ أي يتبعه شاهد من الله تعالى يشهد بصحته وهو القرآن ﴿ ومنْ قَبْلِهِ ﴾ أي ومن قبل القرآن الشاهد ﴿ كِتابُ مُوسىٰ ﴾ وهو التوراة ﴿ إماماً ﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين ومقتدى ﴿ورَحْمةً ﴾ أي نعمة عظيمة على من أنزل إليهم إلى يوم القيامة ، قال في إنسان العيون : التوراة أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع بخلاف ما قبله من الكتب فإنها لم تشتمل على ذلك وإنما كانت مشتملة على الإيمان بالله وتوحيده ﴿ أُولئِكَ ﴾ إشارة إلى من كان على بينة ﴿ يُؤْمِنونَ بهِ ﴾ أي يصدّقون بالقرآن ﴿ وَمنْ يَكْفُرْ بهِ من الأحْزابِ ﴾ من أهل مكة ومن تحزّب معهم على رسول الله ﷺ ﴿ فالنّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أي مكان وعده الذي يصير إليه ﴿ فلاتَكُ في مِرْيَةٍ مِنْهُ ﴾ أي في شك من أمر القرآن وكونه من عند الله ﴿ إنّهُ الحقُّ منْ رَبّكَ ﴾ الذي يتعهدك ويربيّك في دينك ودنياك ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يُؤْمِنونَ ﴾ بأن ذلك حق لا شبهة فيه ، إما

لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم ﴿ **وَمنْ أَظْلَمُ** ﴾أي لا أحد أظلم ﴿ **مِمَّنِ افْترىٰ على اللهِ كَذِباً** ﴾ بأن نسب إليه مالا يليق به ، كقولهم للملائكة بنات الله ، وقولهم لآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿ **أولئِكَ** ﴾ المفترون ﴿ **يُعْرَضُونَ عَلىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ المراد عرضهم على الموقف المعد للحساب ، وحبسهم فيه إلى أن يقضي الله تعالى بين العباد ﴿ **وَيقُولُ الأَشْهادُ** ﴾ وهم الملائكة والنبيون والمؤمنون جمع شاهد أو شهيد ﴿ **هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبوا عَلىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ المحسن إليهم والمالك لنواصيهم بالافتراء عليه ، وهؤلاء اشارة إلى تحقيرهم واصغارهم بسوء صنيعهم ﴿ **ألا لَعْنَةُ اللهِ** ﴾ عذابه وغضبه ﴿ **عَلى الظّالِمِينَ** ﴾ بالافتراء المذكور وفي الحديث (إن الله تعالى يدني المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس ، فيقول : أي عبدي أتعرف ذنب كذا وكذا ؟ فيقول نعم يارب ، فإذا قرره بذنوبه قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وقد غفرتُها لك اليوم ، ثُمَّ يُعْطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنةالله على الظالمين)[1] وفي الحديث (من سَمَّع سَمَّع الله به)[2] أي من أظهر عمله للناس رياء أظهر اللهنيته الفاسدة يوم القيامة وفضحه على رؤس الأشهاد ، وهم الملائكة وقيل : عموم الخلائق أجمعين ، ثم وصفهم بالصدِّ عن الإسلام فقال ﴿ **الَّذِينَ يَصُدُّوْنَ** ﴾ أي يمنعون كل من يقدرون على منعه بالتحريف وإدخال الشبه ﴿ **عنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ عن دين الله وطريق طاعته ﴿ **ويبْغُونَها عِوَجاً** ﴾ السبيل مؤنث سماعي فلذلك أنث ضمير يبغونها أي ويصفونها بالإنحراف عن الحق والصواب ﴿ **وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرونَ** ﴾ أي والحال أنهم كافرون بها لا أنهم مؤمنون بها ﴿ **أولئِكَ** ﴾ الكاذبون ﴿ **لم يكونُوا مُعْجِزِينَ** ﴾ الله تعالى أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ﴿ **في الأَرْضِ** ﴾ مع سعتها وإن هربوا منها كل مهرب ﴿ **ومَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أولياءَ** ﴾ ينصرونهم ويمنعونهم من العقاب ، ولكن أخَّر ذلك إلى يوم القيامة تحقيقاً للإمهال ﴿ **يَضاعَفُ لَهُمُ العَذابُ** ﴾ يضاعف لهم عذاب الأبد ضعفين ﴿ **ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ** ﴾ النافع ﴿ **وما كَانُوا يُبْصِرونَ** ﴾ الحق والآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق ﴿ **أولَئِكَ الَّذِينَ خَسِروا أنفسهم** ﴾ باشتراء عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى ﴿ **وَضَلَّ** ﴾ بطل وضاع﴿ **عنْهُمْ ما كَانُوا يفْتَرونَ** ﴾ من إلهية الآلهة وشفاعتها ﴿ **لا جَرَمَ** ﴾ لا نافية لما سبق ، وجَرَم فعل بمعنى حقَّ والمعنى لا ينفعهم ذلك الفعل حقاً ﴿ **أَنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُوْنَ** ﴾ وهذا مذهب سيبويه ، وقيل : أن « لا جَرَم » بمعنى لابد أنهم في الآخرة هم الأخسرون ، وأيّاً ما كان فمعناه أنهم أخسر من كل خاسر ، وفي الحديث (بادروا بالأعمال فإن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في المسند من حديث ابن عمر مرفوعاً .

(٢) الحديث أخرجه مسلم وأحمد ، وتتمته ﴿ ومَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بهِ ﴾ وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٠٠ .

بين أيديكم فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويُمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا)[1] .

﴿ **إنّ الذّينَ آمنوا** ﴾ إي بكل ما يجب أن يؤمن به ﴿ **وَعَمِلوا الصّالِحاتِ** ﴾ فيما بينهم وبين ربهم ﴿ **وَأَخْبتُوا إلىٰ رَبّهِمْ** ﴾ الإخباتُ : الخضوع والخشوع ، ويستعمل باللام يقال أخبت لله ، واستعماله بإلى في الآية لتضمينه معنى الاطمئنان والانقطاع ، والمعنى اطمأنوا وسكنوا إليه ، وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع ﴿ **أُولئِكَ** ﴾ المنعوتون بتلك النعوت ﴿ **أَصْحابُ الجنّةِ هُمْ فيها خَالِدونَ** ﴾ دائمون والمؤمن وإن لم يعمل الصالحات مآله الخلود في الجنة ﴿ **مَثَلُ الفَريقَيْنِ** ﴾ الكافر والمؤمن أي حالهما العجيب ، لأن المثل لا يطلق إلا على ما فيه غرابة من الأحوال والصفات ﴿ **كالأَعْمىٰ والأَصَمِّ والبَصيرِ والسّميعِ** ﴾ أي كهؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم ، فالأعمى والأصم هم الكافرون ، والبصير والسميعُ هم المؤمنون ، شبَّه الكافر بالذي جمع بين العمى والصمم كالموتى ، وذلك أن الكفرة حين لاينظرون إلى ما خلق الله نظر اعتبار ، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر ، كأنَّ بصرهم كلا بصر ، وسماعهم كلا سماع ، والأعمى إذا سمع شيأ يهتدي إلى الطريق ، والأصم ربما ينتفع بالإشارة ، ومن جمع بينهما فلا حيلة له ﴿ **هَلْ يَسْتَوِيانِ** ﴾ يعني الفريقين المذكورين ﴿ **مَثَلاً** ﴾ أي حالاً وصفة ﴿ **أَفَلا تَذَكَّرونَ** ﴾ أتغفلون عنه فلا تتذكرون بالتأمل فيما ضرب لكم من المثل ؟ ﴿ **وَلَقدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قوْمِهِ** ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي بالله لقد بعثنا نوحاً وهو أول نبي بعث بعد إدريس قال ابن عباس رضي الله عنهما بعث نوح على رأس أربعين من عمره ، ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة ، وقيل ولد نوح بعد ألف وستمائة واثنتين وأربعين سنة من هبوط آدم عليه السلام ، وكانت دمشق داره ودفن في الكوفة ﴿ **إنّي** ﴾ أي فقال لقومه إني ﴿ **لَكُمْ نَذيرٌ** ﴾ مخوف ﴿ **مُبينٌ** ﴾ مظهر أبيِّن لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص منه بياناً ظاهراً لا شبهة فيه ، ولم يقل وبشير لأن البشارة إنما تكون لمن آمن ، ولم يكن أحد آمن ﴿ **أنْ لا تَعْبُدوا إلا اللهَ** ﴾ أي بأن لا تعبدوا على أن « أنْ » مصدرية أي أرسلناه ملتبساً بنهيهم عن الشرك ﴿ **إنّي أَخافُ عَليْكُمْ عَذابَ يوْمٍ أليمٍ** ﴾ يوم القيامة أو يوم الطوفان ، وأليم يجوز أن يكون صفة يوم ، وصفة عذاب ووصفه بالأليم على الإسناد المجازي للمبالغة ، كقولك نهاره صائم ، فالأليم بمعنى المؤلم من الإيلام ، روي أن الله تعالى أرسل نوحاً إلى قومه فجاءهم يوم عيد لهم ، وكانوا يعبدون الأصنام

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان / ١١٨ / والترمذي في الفتن / ٢١٩٦ / بلفظ « بادروا بالأعمال فِتَناً كقطع الليل المظلم .. » الحديث ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٣٠ .

ويشربون الخمور ، ويواقعون النساء كالبهائم من غير ستر ، فناداهم بصوت عال ، ودعاهم إلى التوحيد ففزعوا ، ثم نسبوه إلى الجنون وضربوه وكذبوه ، كما قال تعالى ﴿ **قَالَ الملأُ الذينَ كَفَروا مِنْ قَوْمِهِ** ﴾ أي الأشراف منهم ﴿ **ما نريكَ إلاّ بشَراً مِثْلَنا** ﴾ لا مزية لك علينا تخصُّك بالنبوة ﴿ **وَمَا نَرِيكَ اتّبَعكَ** ﴾ الرؤية إن كانت بصرية يكون اتبعك حالا من المفعول بتقدير قد وإن كانت قلبية يكون مفعولاً ثانياً ﴿ **إلاّ الذّينَ هُمْ أراذِلُنا باديَ الرّأْي** ﴾ أخساؤنا وأدانينا كالحاكة والأساكفة وأهل الصنائع الخسيسة ، ولو كنت صادقاً لاتّبعك الأشراف من الناس ومعنى « باديَ الرأي » أي في أول الوهلة ، من غير تعمق وتدقيق تفكر ، وما أعجب شأن أهل الضلال ، لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر وعبادته ﴿ **وَمَا نرىٰ لَكُمْ** ﴾ أي لك ولتبعيك ، فغلَّب المخاطب على الغائبين ﴿ **عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ** ﴾ من زيادة شرف في الملك والمال تؤهلكم للنبوة ، وما نرى لكم علينا من فضل لأنكم بشر تأكلون وتشربون مثلنا ﴿ **بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبينَ** ﴾ جميعاً لكون كلامكم واحداً ودعواكم واحدة ﴿ **قَالَ** ﴾ نوح ﴿ **يا قَومِ أَرَأَيْتُمْ** ﴾ أي أخبروني فإن الرؤية سبب للإخبار ﴿ **إنْ كُنْتُ عَلىٰ بيّنَةٍ** ﴾ برهان ظاهر ﴿ **مِنْ رَبّي** ﴾ وشاهد يشهد بصحة دعواي ﴿ **وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ** ﴾ هي النبوة ﴿ **فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي أخفيت تلك البينة عليكم ﴿ **أَنُلْزِمُكُموها** ﴾ أي أنلزمكم قبول تلك البينة ونوجبها عليكم ، ونجبركم على الاهتداء بها ؟ وهذا استفهام معناه الإنكار ، يقول : لا نقدر أن نلزمكم من ذات أنفسنا ﴿ **وَأَنْتُم لَها كارِهونَ** ﴾ والحال أنكم لا تختارونها ولا تتأملون فيها ، ومحصول الجواب أخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة الدعوى ، إلا أنها خافية عليكم غير مسلمة عندكم ، أيمكننا أن نكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين فيها ؟ لا يكون ذلك ﴿ **وَيَاقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ **مَالاً** ﴾ تؤدونه إليَّ بعد إيمانكم واتباعكم لي ، فيكون ذلك أجراً لي في مقابلة اهتدائكم ﴿ **إنْ أَجْرِيَ إلاّ عَلى اللهِ** ﴾ أي ما بلغتكم من رسالة الله إلا لوجه الله ، لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿ **وَمَا أَنا بطارِدِ الّذِينَ آمنُوا** ﴾ لأنهم طلبوا منه أن يطرد من عنده من الفقراء والضعفاء حتى يجالسوه ، كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ طرد فقراء المؤمنين ، استنكافاً منهم أن ينتظموا معهم في سلك واحد ، قيل : إن الله تعالى اختار الفقر لرسول الله ﷺ نظراً لقلوب الفقراء ، حتى يتسلى الفقير بفقره ، وليدل على هوان الدنيا عند الله تعالى ﴿ **إنّهُمْ ملاقُوا رَبِّهِمْ** ﴾ يوم القيامة فيقتص لهم ممن ظلمهم ، أو إنهم فائزون في الآخرة بلقاء الله تعالى وحسن جزائه ، كأنه قيل : لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسي ، لأنهم مقربون في حضرة القدس ، وكيف أذل من أعزه الله تعالى ؟ ﴿**وَلكِنّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ**﴾ ما أمرتكم به وما جئتكم به .

﴿ ويَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ ﴾ يدفع عني غضب الله تعالى ، ويمنعني من انتقامه ﴿ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ﴾ وهم بتلك الصفة والمثابة من الكرامة والزلفى ﴿ أَفَلا تَذكّرونَ ﴾ أي أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل فلا تتذكرون ، حتى تعرفوا أن ما تأتون بمعزل من الصواب ؟ ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدي خَزائنُ اللهِ ﴾ أي عندي رزق الله وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم « وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » فإن النبوة أعز من أن تنال بأسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه * قال سعدي المفتي يعني لا أدّعي وجوب اتباعي بكثرة المال والجاه الدنيوي حتى تنكروا فضلي وإنما أدّعي وجوبه لأنّي رسول من الله وقد جئت ببينة على ذلك ﴿ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ ﴾ أي لا أدّعي العلم بالغيب حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد ، والظاهر أنهم حين ادعى النبوة سألوه عن المغيبات ، وقالوا إن كنت صادقاً في دعواك فأخبرنا عن كذا وكذا ، فقال أنا أدعي النبوة ولا أعلم الغيب إلا بإعلامه ﴿ وَلا أَقُولُ ﴾ لكم ﴿ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا ، فإن البشرية ليست من موانع النبوة ، يعني أنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي والحال أني لا أدعي شيأ من ذلك ، ولا الذي أدعيه يتعلق بشيء منها ، وإنما يتعلق بالفضائل النَّفسانيَّة ، التي بها تتفاوت مقادير البشر ﴿ وَلاَ أَقُولُ ﴾ مساعدة لكم ﴿ لِلَّذِينَ تزْدَري أَعْيُنُكُمْ ﴾ زراه إذا عابه واستصغره ، أي لأجل المؤمنين الذي تزدريهم أعينكم لفقرهم ﴿ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً ﴾ في الدنيا أو في الآخرة ، فعسى الله أن يؤتيهم خير الدارين ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بما في أَنفُسِهِمْ ﴾ من الإيمان والمعرفة ﴿ إِنّي إِذاً لَمِنَ الظالِمِينَ ﴾ لهم بحطّ مرتبتهم ونقص حقوقهم ، أو من الظالمين لأنفسهم بذلك فإن وباله راجع إلى أنفسهم .

﴿ قَالُوا يا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾ خاصمتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا ﴾ أي أطلته ، والمجادلة قصد أحد الخصمين إسقاط كلام صاحبه ، وهو من الجَدْل وهو شدة الفتل ﴿ فأْتِنَا بما تَعِدُنَا ﴾ أي من العذاب المعجل ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ ﴾ في الدعوى والوعيد ﴿ قَالَ إِنّما يأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ ﴾ عاجلاً أو آجلاً ، وليس موكولاً إليّ ، ولا مما يدخل تحت قدرتي ﴿ وما أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بالهرب أو بالمدافعة كما تدافعون في الكلام ﴿ ولا يَنْفَعُكُمْ نُصْحي ﴾ النصح كلمة جامعةٌ لكل الخير من فعل أو قول ، ونقيضه الغش ﴿ إِنْ أَردْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه ، والتقدير إن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي ﴿ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ والتقدير إن كان الله يريد ضلالتكم فإن أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحي ، وفيه إشارة إلى أن نصح الأنبياء ، لا تفيد الهداية مع إرادة الله الغواية ، والكل بيد الله تعالى ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ خالقكم والمتصرف فيكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم لا محالة ﴿ أَمْ يقُولونَ ﴾ قوم نوح ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ الضمير للوحي

الذي بلَّغه إليهم ﴿ **قُلْ** ﴾ يا نوح ﴿ **إن افْتَريتُهُ** ﴾ بالفرض البحت ﴿**فَعليَّ إجْرامي** ﴾ أي وبال إجرامي ﴿ **وأنا بَرِيءٌ ممّا تُجْرِمونَ** ﴾ أي من إجرامكم فلا وجه لإعراضكم عني ومعاداتكم لي ، فالجهل يكدر الروح ، والميل إلى ما سوى الله تعالى يكدر القلب ، والهوى يكدر النفس ، وهو **إما حيواني** وهم الذين غلبت عليهم أوصاف الطبيعة والشهوة ، **وإما شيطاني** وهم الذين غلبت عليهم أوصاف النفس وأحوال الشيطنة ، **وإما ملكي** وهم الذين غلبت عليهم أوصاف الروح الملكية ، **وإما رحماني** وهم الذين غلبت عليهم أوصاف السر وحاله ، قال يحيى بن معاذ : الناس ثلاثة أصناف : رجل شغله معاده عن معاشه ، ورجل شغله معاشه عن معاده ، ورجل مشتغل بهما جميعاً ، فالأول درجة الفائزين ، والثاني درجة الهالكين ، والثالث دركة المخاطرين ﴿ **وَأُوحي إلىٰ نوح أنّهُ لَنْ يؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ** ﴾ أي المصرين على الكفر ، وهو إقناط له عليه السلام من إيمانهم ، وإعلام لكونه كالمحال الذي لا يصح توقعه ﴿ **إلاّ مَنْ قدْ آمنَ** ﴾ إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه ﴿ **فلا تَبْتَئِسْ بما كَانُوا يَفْعَلونَ** ﴾ أي لا تحزن حزن بائس مستكين ، ولا تغتمَّ بما كانوا يتعاطون من التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة ، فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم ، روي أن نوحا كان إذا جادل قومه ضربوه حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون ، ولما جاء هذا الوحي من عند الله تعالى دعا عليهم فقال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) ﴿ **واصْنَع الفُلْكَ بأَعْيُنِنا** ﴾ العين ليست من الآلات التي يستعان بها على مباشرة العمل ، بل هي سبب لحفظ الشيء ، فعبر بها عنه مجازاً أي في حفظنا وحمايتنا ، بحيث نراقبك ونكلؤك ﴿ **وَوحْينا** ﴾ إليك كيف تصنعها وتعلمنا وإلهامنا ، أي موحى إليك كيفية صنعتها قال ابن عباس : لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن يضعها مثل جؤجؤ الطائر فأخذ القدوم وجعل يضرب ولا يخطىء ونحتها في سنتين واستأجر أجراء ينحتون معه وكان طول السفينة ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسين ذراعاً ، وسمكها أي ارتفاعها في الهواء ثلاثين ذراعاً ﴿ **ولا تُخاطِبْني في الذّينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي لا تراجعني فيهم ، ولا تدعني في استدفاع العذاب عنهم ﴿ **إنّهُمْ مُغْرَقونَ** ﴾ محكوم عليهم بالإغراق ، قد مضى به القضاء ، وجفَّ القلم ، فلا سبيل إلى كفه ، ولزمتهم الحجة فلم يبق إلا أن يُجْعلوا عبرة للمعتبرين ، ومثلاً للآخرين ﴿ **وَيصْنَعُ الفُلْكَ** ﴾ أي ينجرها ، وهي حكاية حال ماضية ، لاستحضار صورتها العجيبة ﴿ **وَكلّما** ﴾ أي والحال أنه كلما ﴿ **مرَّ عليْهِ مَلأٌ** ﴾ أشراف ورؤساء ﴿ **مِنْ قوْمِهِ سَخِروا مِنْهُ** ﴾ استهزاء به لعمله السفينة وقالوا يا نوح ما تصنع ؟ قال أصنع بيتاً يمشي على الماء ، فتعجبوا من قوله وكانوا يتضاحكون ويقولون : يا نوح صرت نجاراً ، بعدما كنت نبياً ؟ ﴿ **قَالَ إنْ تَسْخَروا مِنّا فإنّا نسْخَرُ منْكُمْ كما تَسْخَرونَ** ﴾ سخرية مثل سخريتكم ، إذا وقع عليكم الغرق ، قال المولى أبو السعود : أي نعاملكم معاملة من يفعل

ذلك ، لأن نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ، والمقصود من هذه السخرية إصابة جزاء السخرية ، وكل أحد إنما يُجَازى من جنس عمله ، لا من خلاف جنسه ، ألا ترى إلى قوله تعالى في حق الصائمين (**كُلُوا واشْربوا هَنيئاً بِمَا أسْلَفتُمْ في الأيّامِ الخَاليةِ**) فإنه يقال لهم يوم القيامة كلوا يا من جوّعوا بطونهم ، واشربوا يا من عطّشوا أكبادهم ، ولا يقال : كلوا يا من قطعوا الليل ، واشربوا يا من ثبتوا يوم الزّحف ، إذ ليس فيه المناسبة بين العمل وجزائه ، فالآية نظير قوله تعالى (**إنّ الذّينَ أجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الذّينَ آمنُوا يَضْحَكُوْنَ**) ألا ترى إلى ما قال في الجزاء (**فاليَوْمَ الذّينَ آمنُوا مِنَ الكُفّارِ يَضْحَكونَ**) ثم تم بقوله ﴿ **هل ثُوِّبَ الكُفّارُ ما كَانوا يفْعلونَ** ﴾ ﴿ **فَسَوْفَ تعلَمونَ مَنْ يأتيهِ عَذابٌ** ﴾ وهو عذاب الغرق ﴿ **يُخزيهِ** ﴾ يهينه ويذله ، وصف العذاب بالإخزاء ، لما في الاستهزاء والسخرية ، من لحوق الخزي والعار عادة ﴿ **وَيَحِلُّ عَليْهِ عَذابٌ مُقيمٌ** ﴾ دائم لا ينقطع هو عذاب النار ﴿ **حَتّى إذا جَاءَ أمْرُنا** ﴾ للتنور بالفوران وجاء وقت الطوفان ﴿ **وَفارَ التّنّورُ** ﴾ أي نبع منه الماء وارتفع بشدة ، كما يفور القدر بغليانها ، والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور وقيل : التنور وجه الأرض ﴿ **قُلْنا** ﴾ جواب إذا ﴿ **احْمِلْ فيها** ﴾ الضمير راجع إلى الفلك ﴿ **مِنْ كُلّ** ﴾ أي من كل نوع من الحيوانات لابدّ منه في الأرض ﴿ **زوْجَينِ اثْنينِ** ﴾ الزوجان عبارة عن كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر ، والزوج ماله مشاكل من نوعه ، فالذكر زوجٌ للأنثى ، كما هي زوج له ، وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ، ولإزالة ذلك الاحتمال قيل اثنين ، كل منهما زوج الآخر قال الحسن : لم يحمل في السفينة إلا ما يلد ويبيض ، وأما ما يتولد من التراب كالحشرات والبق والبعوض فلم يحمل منه شيأ ﴿ **وَأهْلَكَ** ﴾ عطف على زوجين والمراد بنوه ونساؤهم ﴿ **إلاّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ** ﴾ بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم ، والمراد به ابنه كنعان ﴿ **ومَنْ آمنَ** ﴾ أي واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم ﴿ **وما آمنَ مَعَهُ إلاّ قليلٌ** ﴾ وكانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة ، وأولاد نوح ونساؤهم ، فالجميع ثمانية وسبعون ، نصفهم رجال ونصفهم نساء ، وعن ابن عباس كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً وامرأة ﴿ **وَقَالَ** ﴾ أي نوح لمن معه من المؤمنين ﴿ **ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ** ﴾ أي اركبوا قائلين بسم الله ﴿ **مجْرِيها** ﴾ أي وقت جريها ﴿ **ومُرْسَيها** ﴾ أي وقت إرسائها وحبسها وثبوتها ، وقال في الكواشي : أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها ، فكان عليه السلام إذا أراد أن تجري قال بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال بسم الله فرست ﴿ **إنّ رَبّي لَغَفُورٌ** ﴾ للذنوب والخطايا ﴿ **رَحِيمٌ** ﴾ لعباده ولهذا نجاكم من هذه الداهية حكي أن عجوزاً مرّتْ على نوح وهو يصنع السفينة وكانت مؤمنة به ، فسألته عما يصنعه ، فقال إن الله تعالى سيهلك الكفار بالطوفان ، وينجي المؤمنين بهذه السفينة ، فأوصت أن يخبرها نوح إذا جاء وقتها لتركب في السفينة مع المؤمنين ، فلما جاء ذلك الوقت اشتغل نوح بحمل الخلق فيها ، ونسي وصية

العجوز ، وكانت بعيدة منه ، ثم لما وقع من إهلاك الكفار ونجاة المؤمنين وخرجوا من السفينة ، جاءت إليه تلك العجوز فقالت يا نوح : إنك قلت لي سيقع الطوفان ألم يأن أن يقع ؟ قال قد وقع وكان أمر الله مفعولاً ، وتعجب من أمر العجوز فإن الله تعالى قد أنجاها في بيتها من غير ركوب السفينة ، ولم تر الطوفان قط ، وهكذا حماية الله تعالى لعباده المؤمنين ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ** ﴾ أي وهم فيها أي ملتبسة بهم ﴿ **فِي** ﴾ خلال ﴿ **مَوْجٍ** ﴾ يعني موج الطوفان ، والموجُ : جمع موجة وهو ما ارتفع من الماء إذا اشتد عليه الريح ﴿ **كَالْجِبَالِ** ﴾ شبه كل موجة من ذلك في عظمها وارتفاعها ، والمراد أن الأمواج لما أحاطت بالسفينة من الجوانب ، شبّهت بالتي تجري في داخل الأمواج ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ** ﴾ اسم ابنه كنعان وذهب جمهور العلماء إلى أنه ابنه الصلبيُّ لقوله تعالى ﴿ **ابْنَهُ** ﴾ وقول نوح (**يَا بُنَيَّ** ﴾ وأما قول البعض ولد الرسول يستبعد أن يكون كافراً ، فنقوض بابن آدم وهو قابيل ، والله تعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وعلى هذا تدور حكمته في مظاهر جلاله وجماله ، وإذا ثبت أن والد إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانَ كافراً ، فكيف يبعد أن يكون ولد نوح كافراً ؟!

﴿ **وكَانَ** ﴾ ابنه ﴿ **فِي مَعْزِلٍ** ﴾ مكان منقطع عن نوح وعن دينه لكونه كافراً ﴿ **يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا** ﴾ الفلك ﴿ **وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ** ﴾ فتهلك مثلهم أي لا تكن معهم في المكان وهو وجه الأرض خارج الفلك ، ﴿ **قَالَ** ﴾ ابنه ﴿ **سَآوِي** ﴾ سأحتمي وألتجيء ﴿ **إِلَىٰ جَبَلٍ** ﴾ من الجبال ﴿ **يَعْصِمُنِي** ﴾ ينعني بارتفاعه ﴿ **مِنَ الْمَاءِ** ﴾ فلا أغرق ، زعماً منه أن ذلك كسائر المياه المعتادة التي يتقي منها بالصعود إلى الربى ﴿ **قَالَ** ﴾ نوح ﴿ **لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ** ﴾ زاد اليوم تنبيهاً على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع ﴿ **مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ أي عذابه الذي هو الطوفان ، ﴿ **إِلَّا مَنْ رَحِمَ** ﴾ أي إلا المعصوم ، ولا معصوم من عذاب الله إلا من رحمه الله ، ﴿ **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ** ﴾ أي بين نوح وبين ابنه ، فانقطع ما بينهما من المجاوبة ﴿ **فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴾ من المهلكين بالماء ، روي عن ابن عباس أنه قال : أمطرت السماء أربعين يوماً وليلة ، وخرج ماء الأرض كذلك وذلك قوله تعالى (**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ**) فارتفع الماء على أطول جبل في الأرض بخمسة عشر ذراعاً وطافت بهم السفينة الأرض كلها في خمسة أشهر ، لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت حول الحرم أسبوعاً ، وقد أعتق الله البيت من الغرق كما في بحر العلوم ﴿ **وَقِيلَ** ﴾ بني على المفعول لتعين الفاعل وهو الله تعالى ، إذ لا يقدر أحد غيره على مثل هذا القول البديع ، والفعل العجيب ، أي قال الله تعالى بعد مدة الطوفان ﴿ **يَا أَرْضُ** ﴾ قدم أمر الأرض على أمر السماء لابتداء الطوفان منها ﴿ **ابْلَعِي** ﴾ أي ابتلعي ماءك فإن البلع حقيقة إدخال الطعام في الحلق بعمل الجاذبة ، فهو استعارة لغور الماء في الأرض ﴿ **مَاءَكِ** ﴾ أي ما على وجهك من ماء

الطوفان ، دون المياه المعهودة فيها من العيون والأنهار ، ﴿ **ويَا سَمَاءُ أَقْلِعي** ﴾ أي أمسكي عن إرسال المطر ، روي أنه لا ينزل من السماء قطرة من ماء ، إلا بكيل معلوم ، ووزن معلوم ، إلا ما كان يوم الطوفان ، فأنزل بغير كيل ووزن ، وأصل الكلام : قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ماءها ، ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء ، فأقلعت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء فغاض ، وترك ذكره لظهور انفهامه من الكلام ﴿ **وَغِيضَ الماءُ** ﴾ أي نقص ما بين السماء والأرض من الماء فظهرت الجبال والأرض ﴿ **وَقُضِيَ الأمْرُ** ﴾ أي أنجز الموعود من إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين ، ﴿ **واسْتَوتْ** ﴾ واستقرت الفلك واختير استوت على سُوِّيت أي قرَّت مع كونه أنسب بإخواته المبنية للمفعول اعتباراً لكون الفعل المقابل للاستقرار أعني الجريان منسوباً إلى السفينة على صيغة المبني للفاعل في قوله (وهي تجري بهم) لا أن استوت أخصر من سويت ﴿ **عَلى الجُودِيِّ** ﴾ هو جبل بالجزيرة بقرب الموصل ﴿ **وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظّالِمينَ** ﴾ بعداً مصدر مؤكد لفعله أي بعدوا بعداً أي هلكوا ، دعاءٌ عليهم بذلك ، وهو تعليم من الله تعالى لعباده أن يدعوا على الظالمين به أي ليبعد القوم بعداً وليهلكوا ، وعن أبي العالية قال : لما رست سفينة نوح عليه السلام إذا هو بإبليس على كوثل السفينة أي مؤخرها ، فقال له نوح : ويلك قد غرق أهل الأرض من أجلك ، قال له إبليس : فما أصنع ؟ قال تتوب ، قال فسل ربك هل لي من توبة ، فدعا نوح ربه فأوحى الله تعالى إليه أن توبته أن يسجد لقبر آدم عليه السلام ، فقال له نوح : قد جُعِلتْ لك ، قال وما هي ؟ قال تسجد لقبر آدم ، قال : وعزَّة ربي لا أستجيب ، تركته حياً ، وأسجد له ميتاً ؟

﴿ **ونادىٰ نوحٌ ربّهُ فَقالَ** ﴾ الفاء لتفصيل ما في النداء من الإجمال ﴿ **رَبِّ إنّ ابْني** ﴾ كنعان ﴿ **مِنْ أهْلي** ﴾ وقد وعدتني إنجاءهم في ضمن الأمر بحملهم في الفلك ﴿ **وَإنّ وَعْدكَ الحقُّ** ﴾ الثابت الذي لا يتطرق إليه الخُلْفُ ، ولا يشك في إنجازه والوفاء به ، والظاهر أن هذا النداء كان قبل غرق ابنه ، فإن الواو لا تدل على الترتيب ، والمقصود منه طلب نجاته لا طلب الحكمة في عدم نجاته ﴿ **وأَنْتَ أحْكَمُ الحاكِمينَ** ﴾ أي أعلم الحكام وأعدلهم ، إذ لا فضل لحاكمٍ على غيره إلا بالعلم والعدل ، ورب جاهل ظالم من متقلدي الحكومة في زمانك ، لقد لُقِّب « أقضى القضاة » ومعناه أحكم الحاكمين ، فاعتبر واستعبر قال جار الله :

قُضَاةُ زَمَانِنَا أَضْحَوْا لُصُوصَا * عُمُومَاً فِي البَرِيَّةِ لاَ خُصُوصَا
أبَاحُوا أكلَ أمْوَالِ اليتَامى * كَأَنَّهُمُ رَأَوْا فِي ذَا نُصُوصَا
ونَخْشَى إنْ هُمُ لَوْ صَافَحُونَا * يَسُلُّوا مِنْ أَيَادِينَا الفُصُوصَا

وفي الحديث (القضاة ثلاثة : واحد في الجنة واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، وأما الآخران فرجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)[1] أي لا يعرف الحق فيخلط الحلال بالحرام ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **يا نُوحُ إنّه** ﴾ أي ابنك ﴿ **لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ** ﴾ الذين عمهم الوعد بالإنجاء لخروجه منهم ، ولا علاقة بين المؤمن والكافر ، فظهر أن لا فائدة في نسب من غير علم وعمل ، وفي فخر بمجرد الآباء كما وَرَدَ في الحديث (يابني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم) والغرض تقبيح الافتخار لديه عليه السلام بالأنساب حتى يأتي الناس بالأعمال ، وما أحسن قول القائل .

وَمَا يَنْفَعُ الأَصْلُ مِن هَاشِمٍ * إذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَه

وهي قبيلة معروفة بالدناءة لأنهم كانوا يأكلون نفاية عظام الميتة ﴿ **إنّهُ عَملٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾ أي إنه ذو عمل غير صالح ، ولم يقل عمل فاسد مع أنها متلازمان ، للإيذان بأن النجاة إنما كانت بسبب الصلاح .

﴿ **فلا تَسْأَلْنِ** ﴾ أي فلا تطلب مني ﴿ **ما لَيْسَ لكَ به عِلْمٌ** ﴾ أي مطلباً لا تعلم يقيناً أن حصوله صواب ، وموافق للحكمة ﴿ **إنّى أَعِظُكَ أَنْ تَكونَ** ﴾ أي كراهة أن تكون ﴿ **مِنَ الجَاهِلِينَ** ﴾ عبر عن ترك الأولى بالجهل ، لأنه أشغله حب الولد عنه ، حتى اشتبه الأمر عليه فعوتب ﴿ **قَالَ رَبِّ إني أَعوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ** ﴾ أي من أن أطلب منك من بعد ﴿ **ما لَيْسَ لي بهِ عِلْمٌ** ﴾ أي مطلوباً لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، يعني احفظني بعد اليوم من المعاودة إلى مثل السؤال ﴿ **وَإلاّ** ﴾ مركب من إنْ ولا ، ثم أدغم أحدهما في الآخر ﴿ **تغْفر لي** ﴾ أي وإن لم تغفر لي ما صدر مني من السؤال المذكور ﴿ **وترْحَمني** ﴾ بقبول توبتي ﴿ **أَكُنْ مِنَ الخاسِرِينَ** ﴾ فإن الذهول عن شكر الله لا سيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة ، التي هي النجاة وهلاك الأعداء ، والاشتغال بمالا يعني خصوصاً بمبادي خلاص من قيل في شأنه « إنه عمل غير صالح » والتضرع إلى الله تعالى في أمره ، معاملة غير رابحة وخسران مبين ﴿ **قيل** ﴾ القائل هو الله تعالى ﴿ **يا نُوحُ اهْبِطْ** ﴾ أي انزل من الفلك إلى جبل الجودي إلى الأرض المستوية ﴿ **بِسَلامٍ** ﴾ بسلامة من المكاره كائنة ﴿ **مِنّا** ﴾ فسلام بمعنى السلامة أو بسلام وتحية منا عليك كما قال (**سَلامٌ عَلىٰ نُوحٍ في العالَمينَ**) فالسلام بمعنى التسليم ، والأول أوجه لأن المقام مقام النجاة من

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأقضية ، والترمذي في الأحكام رقم / ١٣٢٥ / وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٦٦ .

الغرق ﴿ وَبَرَكاتٍ عليكَ ﴾ أي خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق ﴿ وَعلىٰ أُمَمٍ ﴾ ناشئة ﴿ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ متشعبة منهم والمراد الأمم المؤمنة المتناسلة ممن معه من أولاده إلى يوم القيامة ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ أي ليس جميع من تشعب منهم مسلماً ومباركا عليهم ، بل منهم أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ منّا عَذابٌ أليمٌ ﴾ في الآخرة وهم الكفار وأهل الشقاوة ، يشير سبحانه وتعالى إلى أن كون كل الناس سعداء أو أشقياء مخالف لحكمته ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام ﴿ مِنْ أَنْباءِ الغيب ﴾ أي بعض أخباره ، فإنه لتقادم عهده لم يبق علمه إلا عند الله تعالى ﴿ نوحِيها ﴾ أي تلك القصة بواسطة جبريل ﴿ إِلَيْكَ ﴾ ليكون لك هداية ، وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء ﴿ ما كُنْتَ تَعلَمُها أنْتَ ولا قَوْمُكَ ﴾ أي مجهولة عندك وعند قومك ﴿ مِنْ قبْلِ هَذا ﴾ أي من قبل إيحائنا إليك وإخبارنا بها ، ﴿ فاصْبِرْ ﴾ أي فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك وتكذيبهم ، كما صبر نوح في هذه المدة المتطاولة ﴿ إنّ العَاقِبةَ ﴾ أي آخر الأمر بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة ﴿ للمُتّقينَ ﴾ أي المؤمنين الموحدين الصابرين ، كما شاهدته في نوح وقومه ، ولك فيه أسوة حسنة ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ﴿ وإلى عَادٍ ﴾ قبيلة من العرب بناحية اليمن أرسلنا ﴿ أخَاهُمْ ﴾ والمعنى وأرسلنا إلى عاد أخاهم أي واحداً منهم في النسب ﴿ هُوداً ﴾ وكان عليه السلام من جملتهم ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل ماذا قال لهم ؟ فقيل قال ﴿ يا قَوْمِ اعْبُدوا اللهَ ﴾ وحده لأنه ﴿ مَالكُمْ مِنْ إلهٍ غيْرهُ ﴾ فخصوه بالعبادة ولاتشركوا به شيأ ﴿ إنْ أَنْتُمْ إلاّ مُفْتَرونَ ﴾ أي ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء ، إلا مفترون على الله الكذب ﴿ يا قَوْمِ لا أسْألُكُمْ عَليْهِ ﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿ أَجْراً ﴾ يعني جُعْلاً ورشوة ، ومعناه لست بطامع في أموالكم ﴿ إنْ أجْريَ إلاّ على الذي فَطَرني ﴾ خلقني ﴿ أَفَلا تَعْقِلونَ ﴾ أي أتغفلون عن هذه القصة فلا تعقلونها ؟ واعلم أن المال والجاه وثناء الخلق من مشارب النفس ، ولذا قالوا ما من رسول إلا خاطب قومه بهذا القول ، إزاحة للتهمة ، وتمحيصاً للنصيحة ، فإنها لا تنجع ولا تنفع إلا إذا كانت خالصة ، غير مشوبة بشيء من المطامع ، كما روي عن بعض المشايخ إنه كان له هرة ، وكان يأخذ من قصاب في جواره شيأ من الغدد لهرّته ، فرأى على القصاب منكراً ، فدخل الدار فأخرج الهرة أولاً ، ثم جاء واحتسب على القصاب ، فقال له القصاب : لا أعطيك بعد اليوم لهرتك شيأ ، فقال ما احتسب عليك إلا بعد إخراج الهرة ، وقطع الطمع منك ﴿ ويَا قَوْمِ اسْتَغفِروا رَبّكُمْ ﴾ آمنوا به ﴿ ثُمّ تُوبُوا إليْهِ ﴾ من عبادة غيره والمعنى اطلبوا مغفرة الله تعالى لذنوبكم السالفة من الشرك والمعاصي ، بأن تؤمنوا به ، فإن الإيمان يجبُّ ما قبله أي يقطع ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿ يُرْسِلِ السَّماءَ عَليْكُمْ ﴾ أي المطر ﴿ مِدْرارً ﴾ من أبنية المبالغة يقال سحاب مدرار ومطر مدرار إذا تتابع منه المطر ، والمعنى حال كونه متتابعاً دائماً

﴿ وَيزِدْكُمْ قُوَّةً ﴾ مضافة منضمة ﴿ إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ أي يضاعفها لكم ، وإنما رغبهم في الإيمان بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراصاً عليها أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء ، وكانوا مدلين بما أوتوا من شدة القوة والبطش ممنوعين بها من العدو . عن الحسن بن علي أنه وفد على معاوية ، فلما خرج تبعه بعض حُجَّابه ، فقال إني رجل ذو مال ، ولا يولد لي ، فعلمني شيأً لعل الله يرزقني ولداً ؟ فقال عليك بالاستغفار ، فكان يكثر الاستغفار فولد له عشرة بنين ، فبلغ ذلك معاوية فقال هلاَّ سألته مم قال ذلك ؟ فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل فقال ألم تسمع قول هود ﴿ وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ﴾ وقول نوح (وَيُمدِدْكُم بأمْوالٍ وَبَنِينَ) ؟ ﴿ ولا تَتَوَلّوا ﴾ ولا تعرضوا عما أدعوكم إليه وأُرَغِّبكم فيه ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ أي حال كونكم مصّرين على الإجرام والآثام ﴿ قَالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِنَةٍ ﴾ أي بحجة تدل على صحة دعواك ، وإنما قالوه لفرط عنادهم كما قالت قريش لرسول الله ﷺ « لولا أنزل عليه آية من ربه » مع فوات آياته الحصر ﴿ وَما نَحْنُ بتَارِكِي آلِهَتِنا ﴾ أي بتاركي عبادتهم ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ أي بقولك المجرد عن حجة ﴿ وما نَحْنُ لَكَ بِمؤْمِنِينَ ﴾ أي بمصدقين فيما تدعونا إليه من التوحيد ، وترك عبادة الآلهة ﴿ إنْ نَقولُ إلاّ اعْتَرِيكَ ﴾ أي ما نقول في شأنك إلا قولنا أصابك ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ ﴾ أي بجنون لسبك إياها ، وصدّك عنها ، فمن ثَمَّ تتكلم بكلام المجانين ﴿ قَالَ ﴾ هود ﴿ إني أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدوا ﴾ أي وأقول اشهدوا ﴿ أَنّي بَرِيءٌ ﴾ أي على أني بريء ﴿ مِمّا تُشْرِكونَ ﴾ أي من إشراككم ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ واشهادهم استهزاء بهم واستهانة ، إذ لا يقول أحد لمن يعاديه أشهدك على أني بريءٌ منك ، إلا وهو يريد عدم المبالاة بعداوته ﴿ فَكِيدُوني ﴾ أي إن صح ماتفوهتم به من كون آلهتكم تقدر على إضرار من سيسبها ويصد عن عبادتها ، فإني بريء منها فكونوا أنتم وآلهتكم ﴿ جَمِيعَاً ﴾ على قصد اهلاكي بكل طريق ﴿ ثُمّ لا تُنْظِرون ﴾ لا تمهلوني ولا تساعدوني في ذلك ﴿ إنّي تَوكّلْتُ عَلى اللهِ رَبّي وَرَبِّكُمْ ﴾ يعني إنكم وآلهتكم لا تقدرون على ضرري ، فإني متوكل على الله القادر القوي ، وهو مالكي ومالك كل شيء ﴿ ما مِنْ دَآبةٍ ﴾ نسمة تدب على الأرض ﴿ إلاّ هُوَ ﴾ أي ربي تعالى ﴿ آخِذٌ بِناصِيَتِها ﴾ الأخذ بناصية الإنسان عبارة عن قهره والغلبة عليه ، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا ما ناصيته إلا بيد فلان ، أي أنه مطيع له لأن كل من أخذت بناصيته فقد قهرته ، وأخذ الله بناصية الخلائق استعارة تمثيلية والمعنى إلا وهو مالك لها قادر عليها ، يصرّفها على ما يريد بها ، والغرض من هذا الكلام الدلالة على عظمته وجلالة شأنه ، وكبرياء سلطانه ﴿ إنّ رَبّي عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ يعني إنه على الحق في ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به ﴿ فَإنْ تَولّوْا ﴾ فإن تتولوا بحذف إحدى التاءين أي وإن تستمروا على التولي والإعراض فلا تفريط مني ﴿ فَقَدْ أبلَغتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ

﴿ إليْكُمْ ﴾ أي لأني قد أديت ما عليّ من الإبلاغ وإلزام الحجة ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبي قوماً غيْرَكُمْ ﴾ أي ويهلككم الله ، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ ولا تَضُرّونَهُ ﴾ بتوليكم وإعراضكم ﴿ شَيْئاً ﴾ من ضرر قط وإنما تضرون أنفسكم ﴿ إنّ رَبّي على كُلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ رقيب فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مجازاتكم ، واعلم أن بين وجوب التوكل على الله ، وكونه حفيظاً حصيناً بيانٌ بأن ربوبيته عامةٌ لكل أحد ، ومن يدبر أمر المربوب ويحفظه فلا يحتاج إلى حفظ الغير ، وثانياً بأن كل ذي نفس تحت قهره أسير عاجز عن الفعل ، والتأثير في غيره ، فلا حاجة إلى الاحتراز منه ، وثالثاً بأنه على طريق العدل في عالم الكثرة الذي هو ظل وحدته فلا يسلط أحداً على أحد إلا عن استحقاق بسبب ذنب وجرم ، ولا يعاقب أحداً من غير زلة ، حكي أنه كان رجل سقاء بمدينة بخارى ، يحمل الماء إلى دار صائغ مدة ثلاثين سنة ، وكان لذلك الصائغ زوجة صالحة في نهاية الحسن والبهاء ، فجاء السقاء على عادته يوماً وأخذ بيدها وعصرها ، فلما جاء زوجها من السوق قالت ما فعلت اليوم خلاف أمر الله تعالى ؟ فقال ما صنعت شيئاً ، فألحّت فقال جاءت امرأة إلى دكاني ، وكان عندي سوار فوضعته في ساعدها ، فأعجبني بياض يدها فعصرتها ، فقالت الله أكبر هذه حكمة خيانة السقاء اليوم ، فقال الصائغ أيتها المرأة إني تبت فاجعليني في حِلٍّ ، فلما كان من الغد جاء السقاء وتاب وقال يا صاحبة المنزل اجعليني في حِلٍّ ، فإن الشيطان قد أضلني ، فقالت امض فإن الخطأ لم يكن إلا من الشيخ الذي في الدكان ، فاقتص الله منه في الدنيا ، وأمثال ذلك من عدل الله تعالى ، فليكن العباد على العدالة ، خصوصاً الحكام والسلاطين ، فإن العدل ينفع في الدنيا والآخرة ، حكي أن ذا القرنين سأل من ارستطاليس أي شيء أفضل للملوك الشجاعة أم العدل ؟ فقال : إذا عدل السلطان لم يحتج إلى الشجاعة ، فمن آمن بالملك الديان ، احترز عن الظلم والطغيان ، وفاز بالدرجات في أعلى الجنان ، وإلا فقد عرَّض نفسه لعذاب النيران بل ولعذاب الدنيا أيضاً على أشد ما كان ، ألا ترى إلى قوله تعالى حكاية (وَيَسْتَخْلِفُ رَبّي قَوْماً غيْرَكُمْ) مع ماله من أنواع العذاب!! ﴿ وَلَمّا جَاء أمْرُنا ﴾ أي عذابنا ﴿ نَجّيْنَا هُوداً والذّينَ آمنوا مَعَهُ ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿ بِرَحْمةٍ ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنّا ﴾ أي نجيناهم بمجرد رحمة وفضل ، لا بأعمالهم ﴿وَنَجّيْنَاهُمْ مِنْ عَذابٍ غَليظٍ ﴾ شديد أي كانت تلك التنجية تنجيةً من عذاب غليظ ، وهي السموم التي كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم إرباً إرباً ، روي أن الله تعالى لما أهلك عاداً ونجّى هوداً والمؤمنين معه ، أتوا مكة وعبدوا الله تعالى فيها حتى ماتوا ﴿ وَتِلْكَ ﴾ القبيلة يا أمة محمد ﴿ عَادٌ ﴾ أشار إليها وجعلها خبراً للمبتدأ لمزيد الإبهام ، فيحسن التفسير بقوله ﴿ جَحَدوا بآياتِ رَبّهِمْ ﴾ كلّ الحسن ، لمزيد الإجمال والتفصيل ، ويجوز أن تكون إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ﴿ وَعَصَوا رُسُلَهُ ﴾ لأنهم عصوا رسولهم ومن عصى رسوله فقد عصى الكل ،

لاتفاق كلمتهم على التوحيد وأصول الشرائع ، ﴿ **واتّبَعُوا** ﴾ أي الأسافل ﴿ **أَمْرَ كلّ جَبّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على العباد ، والعنيد الذي لا يقول الحق ولا يقبله ، وقال القاضي أي من كبرائهم الطاغين ﴿ **وأُتبِعُوا** ﴾ أي التابعون والرؤساء ﴿ **في هذه الدُّنْيا لَعنَةً** ﴾ أي إبعاداً عن الرحمة وعن كل خير ، أي جعلت تابعة لهم ولازمة ، تكبهم في العذاب ، كمن يأتي خلف شخص فيدفعه من خلف فيكبه ﴿ **وَيَوْمَ القِيَمةِ** ﴾ أي أتبعوا في يوم القيامة أيضا لعنة ، وهي عذاب النار المخلد ، حذفت لدلالة الأولى عليها ﴿ **أَلاَ إنَّ عاداً كَفَروا رَبَّهُمْ** ﴾ جحدوه كأنهم كانوا من الدهرية وهم الذين ينسبون كل حادث إلى الدهر ﴿ **أَلاَ بُعْداً لِعادٍ** ﴾ أي أبعدهم الله فبعدوا بعداً ﴿ **قَوْمِ هُودٍ** ﴾ عطف بيان لعاد وإنما كرر « ألا » ودعاءه عليهم ، وإعاد ذكرهم تهويلاً لأمرهم وتفظيعاً له ، وحثاً على الاعتبار والحذر من مثل حالهم ، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم ، بسبب ما حكي عنهم ، وفي الكفاية : اللَّعنُ على ضربين : أحدهما الطرد من رحمة الله تعالى وذلك لا يكون إلا للكافر ، والثاني الإبعاد عن درجة الأبرار ومقام الصالحين ، وهو المراد بقوله عليه السلام (المحتكر ملعون) لأن أهل السنة والجماعة لا يخرجون أحداً من الإيمان بارتكاب الكبيرة وجاء في اللعن العامِّ (لعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غيَّر منار الأرض)[1] وفي الحديث (لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه)[2] ﴿ **وَإلى ثَمُودَ** ﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود وهي قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر « ثمود بن عاد » ﴿ **أَخاهُمْ** ﴾ أي واحداً منهم في النسب ﴿ **صَالِحاً** ﴾ عطف بيان وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ثمود ﴿ **قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدوا اللهَ** ﴾ وحده لأنه ﴿ **ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيْرُهُ** ﴾ لا معبود لكم غيره ﴿ **هُوَ** ﴾ لا غيره ﴿ **أَنشَأَكُمْ** ﴾ كوَّنكم وخلقكم ﴿ **مِنَ الأَرْضِ** ﴾ أي ابتداء إنشاءكم منها فإنه خلق آدم من التراب ، وهو أنموذج منطو على جميع ذرياته إلى يوم القيامة ﴿ **واسْتَعْمَرَكُمْ فِيها** ﴾ المعنى عمَّركم واستبقاكم في الأرض ﴿ **فاسْتَغْفِروُهُ** ﴾ فاطلبوا مغفرة الله بالإيمان ﴿ **ثُمّ تُوبوا إليْهِ** ﴾ من عبادة غيره لأن التوبة لا تصح إلا بعد الإيمان ﴿ **إنّ رَبّي قَريبٌ** ﴾ أي قريب الرحمة ﴿ **مُجيبٌ** ﴾ لمن دعاه وسأله ، وحظ العبد من الاسم المجيب ، أن يجيب ربه فيما أمره ونهاه ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي قوم صالح بعد دعوتهم إلى الله تعالى وعبادته﴿ **يا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا** ﴾ فيما بيننا ﴿ **مَرْجُوّاً** ﴾ مأمولاً ﴿ **قَبْلَ هَذا** ﴾ الوقت كانت تلوح فيك مخايل الخير ، وأمارات الرشد والسداد ، فكنا نرجوك أن تكون لنا سيداً ننتفع بك ، ومستشاراً في الأمور فلما سمعنا منك هذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أن لا خير فيك

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأحمد والنسائي ، الفتح الكبير ٣ / ١٥ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي ، الفتح الكبير ٣ / ١٣ .

﴿ أَتَنْهَىٰنا ﴾ أي أتمنعنا من ﴿ أن نَعْبُدَ ما يعْبُدُ آباؤنَا ﴾ أي ما عبدوه والعدل إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ وَإِنّنا لفي شَكٍ مّما تَدْعُوْنا إليْهِ ﴾ من التوحيد وترك عبادة الأوثان ﴿ مُريب ﴾ موقع في الريبة أي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ﴿ قَالَ ﴾ صالح ﴿ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إنْ كُنْتُ ﴾ في الحقيقة ﴿ عَلى بيّنَةٍ ﴾ حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة ﴿ مِنْ رَبيّ ﴾ مالكي ومتولي أمري ﴿ وَآتَاني مِنْهُ ﴾ من جهته ﴿ رَحْمَةً ﴾ نبوة ﴿ فمنْ ينْصُرُني مِنَ اللهِ ﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله ﴿ إن عَصَيْتُهُ ﴾ في تبليغ رسالته والنهي عن الإشراك به ﴿ فما تزيدُونَني ﴾ أي لا تفيدونني ﴿ غيرَ تَخْسيرٍ ﴾ أي غير أن تجعلوني خاسراً بإبطال أعمالي ، وتعريضي لسخط الله تعالى ﴿ وَيَا قَوْمِ ﴾ روي أن صالحاً لما دعا قومه إلى الله تعالى سألوه آية ، فقال أية آية تريدون ؟ فأشار سيدهم جندع بن عمر إلى صخرة منفردة وقال له اخرج من هذه الصخرة ناقة واسعة الجوف ، كثيرة الوبر ، عشراء أي أتت عليها من يوم أرسل الفحل عليها عشرة أشهر ، فإن فعلت صدقناك ، فأخذ عليهم مواثيقهم لئن فعلتُ ذلك لتؤمنن ، فقالوا نعم ، فصلّى ودعا ربه ، فتمخضت الصخرة فانشقت عن ناقة عشراء ، كما وصفوا فقال يا قوم ﴿ هَذهِ نَاقَةُ اللهِ ﴾ الإضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها ، لأن الله تعالى خلقها من الصخرة من غير ولادة ، وكانت عظيمة الجُثَّة جداً ﴿ لَكُمْ آيةً ﴾ معجزة دالة على صدق نبوتي ، ﴿ فَذرُوها ﴾ أي خلّوها وشأنها ﴿ تَأْكُلْ في أرْضِ اللهِ ﴾ ترعَ نباتها وتشرب ماءها ، والمراد أنه عليه السلام رفع عن القوم مؤونتها كما روي أنها كانت ترعى الشجر وتشرب الماء ، ثم تفرج بين رجليها فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلىء أوانيهم فيشربون ويدخرون ﴿ ولا تَمسُّوها بِسُوءٍ ﴾ بولغ في النهي عن التعرض لها بما يضرها ، ونكّر السوء ليشمل جميع أنواع الأذى أي لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشيء من الأذى ، فضلاً عن عقرها وقتلها ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَريبٌ ﴾ أي قريب النزول ﴿ فَعَقَرُوها ﴾ عقرها « قُدَارُ » بأمرهم ورضاهم ، وقسموا لحمها على جميع القرية وهو قدار بن سالف ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم صالح ﴿ تَمتّعُوا ﴾ أي عيشوا ﴿ في دارِكُمْ ﴾ في بلدكم ومنازلكم ﴿ ثلاثةَ أيّامٍ ﴾ عقروها ليلة الأربعاء وأهلكوا صبيحة يوم السبت ، وكان قال لهم تصبح وجوهكم غداً مصفرة ، وبعد غد محمرة ، واليوم الثالث مسودة ، ثم يُصبّحكم العذاب وكان كما قال ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى نزول العذاب عقيبها ﴿ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير كذب أو غير مكذوب فيه ﴿ فَلَمّا جَاءَ أَمْرُنا نَجّيْنَا صَالِحاً والذّينَ آمنُوا مَعَهُ ﴾ متعلق بنجينا أو بآمنوا وهو الأظهر ، إذ المراد آمنوا كما آمن صالح واتبعوه في ذلك ﴿ بِرَحمَةٍ ﴾ أي ملتبسين بمجرد رحمة عظيمة ﴿ مِنّا ﴾ وفضل لا بأعمالهم كما هو مذهب أهل السنة ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَومِئِذٍ ﴾ أي ونجيناهم من خزي يومئذ أي من ذِلّته ومهانته وفضيحته ، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ هُوَ القَوِيُّ ﴾ القادر على كل شيء ﴿ العزيزُ ﴾ الغالب عليه لا غيره ثم أخبر بهلاك الأعداء فقال ﴿ وَأَخَذَ الذّينَ ظَلَموا الصَّيْحةُ ﴾أي صيحة جبرائيل عليه السلام والصيحة من الصياح وهو الصوت الشديد أي صوت بقوة ﴿ فأَصْبَحوا ﴾ أي صاروا ﴿ في دِيَارِهِمْ ﴾ في بلادهم أو في مساكنهم ﴿ جَاثِمينَ ﴾ خامدين ميتين لا يتحركون ، ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته ، وجثومُهم : سقوطهم على وجوههم ، والعرب أطلقوا هذا اللفظ على مالا يتحرك من الموت ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها ﴾ أي كأنهم لم يقيموا في ديارهم ، ولم يكونوا أحياء مترددين متصرفين والمغْنى : المنزلُ والمقامُ الذي يقيم الحي به ﴿ أَلا إنّ ثَمودَ كَفَرُوا ربهم ﴾ جحدوا بوحدانية الله تعالى ، فهذا تنبيه وتخويف لمن بعدهم ﴿ ألا بُعداً لثمودَ ﴾ بعداً مصدر وضع موضع فعله ، فإن معناه بعدوا أي هلكوا وفائدة الدعاء عليهم بعد هلاكهم ، الدلالة على استحقاقهم عذاب الاستئصال بسبب كفرهم وتكذيبهم وعقرهم ناقة الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنا إبراهيمَ ﴾ أي وبالله لقد جاء جبريل وجمع من الملائكة معه ، في صورة الغلمان في غاية الحسن والبهاء والجمال ، إلى إبراهيم عليه السلام ﴿ بالبُشْرىٰ ﴾ أي ملتبسين بالبشارة بالولد من سارة بدليل ذكره في سور أخرى ، ولأنه أطلق البشرى هنا وقيَّدها في قوله ﴿ فبشرناها بإسحق ﴾ والمطلق محمول على المقيد ﴿ قَالُوا ﴾ استئناف بياني ﴿ سَلاماً ﴾ أي سلمنا عليك سلاماً ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليكم ﴿ سَلامٌ ﴾ حياهم بأحسن من تحيتهم ، لأن الجملة الفعلية دالة على التجدد والحدوث ، والإسمية دالة على الثبات والاستمرار ﴿ فَما لَبِثَ ﴾ مكث إبراهيم ﴿ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ ﴾ ولد البقرة ﴿ حَنيذٍ ﴾ الحنيذ هو المشوي في حفرة من الأرض بالحجارة المحماة بغير تنور ، كفعل أهل البادية فإنهم يشوون في الأخدود بالحجارةالمحماة ، وفي الكواشي « حنيذ » مشوي في حفيرة يقطر دسماً * قال مقاتل : إنما جاءهم بالعجل لأنه كان أكثر ماله البقر ، فلما قرب إليهم ووضع بين أيديهم كفُّوا عنه ﴿ فلمّا رأى أيديَهُمْ لا تَصِلُ إليهِ ﴾ لا يمدون إلى العجل أيديهم للأكل ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أنكر ذلك منهم ، ولم يعرف سبب امتناعهم عنه ﴿ وأَوْجَسَ ﴾ أي أحسَّ وأدرك ﴿ منْهُمْ ﴾ من جهتهم ﴿ خِيفَةً ﴾ لما وقع في نفسه أنهم ملائكة ، وأن نزولهم لأمر أنكره الله عليه ، أو لتعذيب قومه ، قال في التأويلات النجمية : ما كان خوف إبراهيم خوف البشرية بأن خاف على نفسه ، فإنه حين رمي بالمنجنيق إلى النار ما خاف على نفسه ، وقال أسلمت لرب العالمين ، وإنما كان خوفه خوف الرحمة والشفقة على قومه يدل عليه ﴿ قَالُوا لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا ﴾ بالعذاب ﴿ إلى قوْمِ لوطٍ ﴾ خاصة وما أرسلنا إلى قومك فكن طيِّب النفس ، وكان لوط ابن أخي إبراهيم عليهما السلام ﴿ وامْرأَتُهُ ﴾ سارة بنت هاران ﴿ قائمَةٌ ﴾ وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم وكانت عجوزاً ﴿ فَضَحِكتْ ﴾ سروراً بزوال الخوف ﴿ فَبشّرناها بإسْحٰقَ ﴾ أي عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا ﴿ ومِنْ ورَاءِ

﴿ إِسْحٰقَ ﴾ الوراء بمعنى الخلف والمعنى وهبنا لها بعد إسحاق ﴿ يعقوبَ ﴾ فهو من عطف جملة على جملة ، أي بشروها بأنها تلد إسحاق ، وأنها تعيش إلى أن ترى ولد الولد ، وهو يعقوب بن إسحاق ، وتوجيه البشارة إليها لا إليه مع أنه الأصل في ذلك ، للدلالة على أن الولد المبشر به يكون منها ، ولأنها كانت عقيمة حريصة على الولد ، وكان لإبراهيم ولده إسماعيل من هاجر ، لأن المرأة أشد فرحاً بالولد ، وقال ابن عباس : فضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها ، وعلى هذا تكون الآية من التقديم والتأخير تقديره وامرأته قائمة فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَا ﴾ أي يا عجبا أصله يا ويلتي فأبدل من الباء الألف وأُطلق في كل أمر عجب ، كقولك يا سبحان الله وهو المراد هنا ﴿ أَأَلِدُ وَأَنا عَجوزٌ ﴾ بنت تسعٍ وتسعين لم ألد قط ﴿ وهٰذا ﴾ الذي تشاهدونه ﴿ بعْلي ﴾ أي زوجي ﴿ شَيْخاً ﴾ ابن مائة وعشرين سنة ﴿ إنّ هذا ﴾ أي حصول الولد من هرمين مثلنا ﴿ لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ بالنسبة إلى سنة الله المسلوكة فيما بين عباده ، ومقصدها استعظام نعمة الله عليها ، في ضمن الاستعجاب العادي ، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ﴿ قَالُوا ﴾ منكرين عليها ﴿ أَتعجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ أي من شأن الله تعالى بإيجاد الولد من كبيرين ؟ قال سعدي المفتي : أخذ جبريل عوداً من الأرض يابساً ، فدلكه بين اصبعيه فإذا هي شجرة تهتز ، فعرفت أنه من الله تعالى .

﴿ رَحْمَةُ اللهِ ﴾ التي وسعت كل شيء ﴿ وبَرَكاتُهُ ﴾ خيراته النامية المتكاثرة حالّتان ﴿ عليْكُمْ ﴾ لازمتان لكم لا تفارقانكم يا ﴿ أَهْلَ البيْتِ ﴾ أرادوا أن هذه وأمثالها ، مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب ﴿ إنّهُ ﴾ أي الله تعالى ﴿ حَميدٌ ﴾ فاعل ما يستوجب به الحمد من عباده ﴿ مَجيدٌ ﴾ كثير الخير والإحسان إلى عباده ، خصوصاً في أن جعل بيتها مهبط البركات قال الإمام الغزالي : المجيد الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ونواله ، فكان شريف الذات إذا قاربه حسن الفعال سمى مجيدا ﴿ فَلَمَّا ذهَب عَنْ إبْراهيمَ الرَّوْعُ ﴾ أي زال الخوف والفزع الذي أصابه لما لم يأكلوا من العجل ، واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم ﴿ وَجاءتْهُ البُشْرىٰ ﴾ بنجاة قومه ﴿ يُجَادِلُنا ﴾ أي جادل وخاصم رسلنا ﴿ في قوْمِ لوطٍ ﴾ في شأنهم وحقهم لرفع العذاب وكان لوط ابن أخيه فطفق إبراهيم يجادل الرسل ، حين قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية فقال : أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها ؟ قالوا لا ، قال فأربعون قالوا لا ، قال فثلاثون ، قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا ، قال أرأيتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا لا فعندذلك قال « فإن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله » ﴿ إنّ إبراهيم لَحَلِيمٌ ﴾ غير عجول على الانتقام ممن أساء إليه ﴿ أوّاه ﴾ كثير التأوه على الذنوب ، والتأسف على الناس ﴿ مُنيبٌ ﴾

راجع إلى الله تعالى بما يحبُّ ويرضى ، أي كان جداله بحلم وتأوه عليهم ﴿ **يا إبراهيمُ** ﴾ أي قالت الملائكة يا إبراهيم ﴿ **أعْرِضْ عنْ هَذا** ﴾ الجدال بالحلم والرحمة على غير أهل الرحمة ﴿ **إنّه** ﴾ أي الشأن ﴿ **قدْ جَاء أمْرُ رَبِّكَ** ﴾ قدره بمقتضى قضائه الأزلي بعذابهم ، وهو أعلم بحالهم ، والقضاء هو الإرادة الأزلية ، والقدر تعلق الإرادة بالأشياء في أوقاتها ﴿ **وَإنّهم آتيهِمْ عَذابٌ غيرُ مَرْدُودٍ** ﴾ غير مصروف عنهم بجدال ولا بدعاء والظاهر أن إتيان العذاب الغير المردود ، لإصرارهم على الكفر والتكذيب ، بعد استبانة الحق لهم ، رُوي أن الرسل الذين بشروا إبراهيم خرجوا بعد هذه المجادلة من عنده ، وانطلقوا إلى قرية لوط « سدوم » وما بين القريتين أربعة فراسخ فانتهوا إليها نصف النهار فإذا هم بجوار يستقين من الماء فأبصرتهم ابنة لوط وهي تستقي الماء فقالت لهم ما شأنكم ؟ وأين تريدون قالوا أقبلنا من مكان كذا ونريد كذا فأخبرتهم عن حال أهل المدينة وخبثهم فأظهروا الغم من أنفسهم فقالوا هل أحد يضيفنا في هذه القرية ؟ قالت ليس فيها أحد يضيفكم إلا ذاك الشيخ فأشارت إلى أبيها لوط وهو قائم على بابه فأتوا إليه ، فلما رآهم وهيئتهم ساءه ذلك وهو قوله تعالى ﴿ **وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلنا لوطاً سيء بِهِمْ** ﴾ أي حصل له سوء وحزن وغم والمعنى ساءه مجيئهم لأنهم جاؤا في صورة غلمان حسان الوجوه ، فحسب أنهم أناس فخاف عليهم أن يقصدهم قومه بسوء فيعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم ، روي أن الله تعالى قال لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما أتوا إليه قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا وما أمرها ؟ قال أشهد بالله إنها لشرّ قرية في الأرض عملاً ، يقول ذلك أربع مرات ﴿ **وضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً** ﴾ أي ضاق بمكانهم صدره أو قلبه ﴿ **وقالَ هَذا يومٌ عَصيبٌ** ﴾ أي شديد عليّ ثم قال لوط لامرأته ويحك قومي اخبزي ولا تعلمي أحداً ، وكانت امرأته كافرة منافقة ، فانطلقت لطلب بعض حاجتها فجعلت لا تدخل على أحد إلا أخبرته وقالت إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت أحسنَ وجوهاً منهم ، ولا أنظف ثياباً ، ولا أطيب رائحة ، فلما علموا بذلك جاؤا إلى باب لوط مسرعين ، فذلك قوله تعالى ﴿ **وجَاءَهُ قوْمُه يُهْرَعونَ إليْهِ** ﴾ يسرعون إليه كأنما يدفعون دفعاً ، طلباً للفاحشة من أضيافه ، والإهراع : الإسراع ﴿ **ومِنْ قبْلُ كَانُوا يعمَلونَ السَّيئَاتِ** ﴾ أي جاؤا مسرعين والحال أنهم كانوا من قبل هذا الوقت وهو وقت مجيئهم إلى لوط ، منهمكين في عمل الفواحش تعودوا عليها واستمروا ، حتى لم يخجلوا من قباحتها ، ولم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين ، ودل ما ذكر على أن جهار الفسق فوق إخفائه ، ولذا رد شهادة الفاسق المعلن ، وفي الحديث (كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين)[1] ﴿ **قال يا قَوْمِ هؤلاء بنَاتي** ﴾ فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ، وقيل كان

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان والطبراني في الأوسط ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٣٢٣ .

لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه ، وأياً ما كان فقد أراد به وقاية ضيفه ، وذلك غاية في الكرم ﴿ **هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾ هذا لا يدل على إن إتيان الذكور كان طاهراً ، كما لا يدل قولك النكاح أطهر من الزنى على كون الزنى طاهراً ، لأنه خبث ليس فيه شيء من الطهارة ، لكن هؤلاء القوم اعتقدوا ذلك طهارة ، فبنى ذلك على زعمهم الفاسد واعتقادهم الباطل ، يقول الفقير : عرضَ عليهم أولاً بناته لكي يرغبوا فيهن فينسد باب الفتنة ، ففيه حسن دفع لهم من أول الأمر ، وبناته وإن لم تف للجمع الكثير ، لأنه على ما روي كان له بنتان ، لكنه إذا رضي بهن البعض ممن كان مطاعا انقطع عرق النزاع من الأتباع ، ولئن سُلِّم أنه لم يكن فيهم مُطاع ، فلقد شاهدنا اندفاع شر كثير بخير يسير ، ثم حكم بكونهن أطهر وهو للزيادة المطلقة ، على ما ذهب إليه الرازي في الكبير ، تأكيداً للترغيب وتقبيحاً لحالهم في استطابة الخبائث ، لينزجروا ويتركوا ما هم عليه من اللواطة ﴿ **فاتقوا اللهَ** ﴾ بترك الفواحش ﴿ **ولا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي** ﴾ في حقهم وشأنهم فإن إخزآء ضيف الرجل إخزاؤه ، كما أن إكرام من يتصل به إكرامه ، والضيف مصدر في الأصل يكون للقليل والكثير ﴿ **أليْسَ مِنكُمْ رجُلٌ رشيدٌ** ﴾ رجل واحد يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح ؟

﴿ **قَالُوا لقدْ عَلِمْتَ ما لنا في بناتِكَ مِنْ حَقٍّ** ﴾ من حاجة أي لا رغبة لنا فيهن فلا ننكحهن ، ومقصودهم أن نكاح الإناث ليس من عادتنا ومذهبنا ، ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ** ﴾ وهو إتيان الذكور ولَّما يئس من ارعوائهم عماهم عليه من الغي ﴿ **قال لَوْ أنّ لي بِكُمْ قوّةً** ﴾ لو للتمني وهو الأنسب بمثل هذا المقام فلا يحتاج إلى الجواب أي بطشاً ﴿ **أو آوي إلىٰ رُكْنٍ شَديدٍ** ﴾ أي لو قويت على دفعكم ومقاومتكم بنفسي ، أو التجأت إلى ناصر عزيز قوي أستند إليه فيحميني منكم ، وكان لوط رجلاً غريباً فيهم ليس له عشيرة وقبيلة يلتجىء إليهم في الأمور الملمة وفي الحديث (رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد)[1] وهو نصر الله ومعونته وفي قوله (رحم الله) إشارة إلى إن هذا الكلام من لوط ليس مما ينبغي من حيث إنه يدل على قنوط ويأس شديد من أن يكون له ناصر ينصره ، والحال إنه لا ركن أشدُّ من الركن الذي كان يأوي إليه « أليس الله بكاف عبده » انتهى ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « ما بعث الله نبياً بعد لوط إلا في عز من قومه » يعني استجيبت دعوته روي أن لوطاً أغلق بابه دون أضيافه حين جاؤا ، وأخذ يحاولهم من وراء الباب ، فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما بلوط من الكرب ﴿ **قَالُوا يَا لُوطُ إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لنْ يَصِلوا إليْكَ** ﴾ بضرر ولا مكروه ، ولن

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة مرفوعاً وتتمته (وما بعث الله بعده نبياً إلا وهو في ثروة من قومه) وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٣٤ .

يخزوك فينا وإن ركنك شديد ، فافتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فدخلوا ، فاستأذن جبرائيل ربه تعالى في عقوبتهم فأذن له ، فقام فنشر جناحه فضرب به وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال تعالى (**فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ**) فصاروا لا يعرفون الطريق ، فخرجوا وهو يقولون النجاء النجاء ، فإن في بيت لوط سحرة ، وهددوا لوطاً وقالوا مكانك حتى نصبح ﴿ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ** ﴾ القطعُ : آخر الليل ، وقال ابن عباس : بطائفة من الليل ، أي اخرجوا ليلاً لتستبقوا نزول العذاب ، الذي موعده الصبح ﴿ **وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ** ﴾ منك ومن أهلك أي لا ينظر إلى ورائه ، وإنما نهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقّوا لهم ﴿ **إِلاَّ امْرَأَتَكَ** ﴾ استثناء من قوله تعالى ﴿ **فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ** ﴾ ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي الشأن ﴿ **مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ** ﴾ من العذاب ، والمراد أنها مع تشرفها بالانتساب إلى بيت النبوة ، لما اتصلت بأهل الضلالة صارت ضالة ، وأدّى ضلالها وكفرها إلى الهلاك معهم ﴿ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ** ﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم ، روي أنه قال للملائكة متى موعدهم ؟ قالوا الصبح ، فقال : أريد أسرع من ذلك ، فقالوا ﴿ **أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾ وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح ، لأنه وقت الدعة والراحة ، فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، لأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين .

﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** ﴾ أي وقت عذابنا وموعده وهو الصبح ﴿ **جَعَلْنَا** ﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿ **عَالِيَهَا** ﴾ أي عالي قرى قوم لوط ، وهي التي عبر عنها بالمؤتفكات ، وهي أربع مدائن فيها أربعمائة ألف يسكنونها ويعمرونها ، وكانت على مسيرة ثلاثة أيام من بيت المقدس ﴿ **سَافِلَهَا** ﴾ أي قلبناها على تلك الهيآت ، روي أن جبريل جعل جناحه في أسفلها فاقتلعها ثم رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ، ولم يُكْفأ لهم إناء ولم ينتبه نائم ، ثم قلبها عليهم ، فأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا** ﴾ على أهل المدائن من فوقهم ﴿ **حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ** ﴾ من طين متحجر ﴿ **مَنْضُودٍ** ﴾ نضد في الإرسال ، يتتابع بعضه بعضاً كقطر المطر ، والنضدُ : وضع الشيء بعضه على بعض ﴿ **مُسَوَّمَةً** ﴾ أي معلّمة لا تشبه حجارة الدنيا أو باسم صاحبها الذي تصيبه ويرمى بها ﴿ **عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ أي جاءت من عند ربك يقول الفقير : لعل الإمطار على تلك القرى بعد القلب ، إنما هو لتكميل العقوبة ، كالرجفة الواقعة بعد الصيحة لقوم صالح ، ولتحصيل الهلاك لمسافريهم الخارجين من بلادهم لمصالحهم والله أعلم ﴿ **وَمَا هِيَ** ﴾ أي الحجارة الموصوفة ﴿ **مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ من كل ظالم ﴿ **بِبَعِيدٍ** ﴾ وفيه وعيد لأهل الظلم كافة ، فلا تظن الظالمين يتخلصون ويسلمون من هذه الحجارة، روي أن رسول الله ﷺ كان قاعداً مع أصحابه في المسجد ، فسمعوا هدّة عظيمة وهي صوت انهدام الحائط ، فارتاعوا أي خافوا وفزعوا ، فقال عليه السلام (أتعرفون ما هذه الهدة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال :

هذا حجر ألقي من أعلى جهنم منذ سبعين سنة ، الآن وصل إلى قعرها)[1] فما فرغ من كلامه إلا والصراخ في دار منافق من المنافقين قدمات ، وكان عمره سبعين سنة ، فلما مات حصل في قعرها قال الله تعالى (**إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار**) فكان سماعهم تلك المدة التي أسمعهم الله ليعتبروا ﴿ **وإلى مَدْيَنَ** ﴾ وهو اسم لمدينة بناها مدين فسميت باسمه أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين ﴿ **أَخَاهُمْ** ﴾ أي واحداً منهم في النسب ﴿ **شُعَيْبَاً** ﴾ هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين ﴿ **قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدوا اللهَ** ﴾ وحده ولا تشركوا به شيأ من الأصنام ﴿ **ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيْرُهُ** ﴾ أي ليس لكم إله سوى الله تعالى ، وكانت كلمة جميع الأنبياء في التوحيد واحدة ، فدعوا إلى الله الواحد وعبادته ، فأمرهم شعيب بالتوحيد أولاً ، لأنه ملاك الأمر وقوامه ، ثم نهاهم عما اعتادوه من النقص في الكيل والوزن ، لأنه يورث الهلاك فقال ﴿ **ولا تَنْقُصوا المِكيالَ والميزانَ** ﴾ أي آلة الوزن والكيل ، وكان لهم مكيالان وميزانان أحدهما أكبر من الآخر ، فإذا اكتالوا على الناس يستوفون بالأكبر ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون بالأصغر ، والمراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود لتتوسلوا بذلك إلى بخس حقوق الناس ﴿ **إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ** ﴾ أي متنعِّمين بثروة وسعة تغنيكم عن التطفيف ﴿ **وإنّي أخافُ عليْكُمْ** ﴾ إن لم ترجعوا عن ذلك النقص ﴿**عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ** ﴾ لا يشذ منه أحد منكم ، والمراد منه عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ﴿ **ويَا قَوْمِ أَوْفوا المكيالَ والميزانَ** ﴾ ايفاء الحق : إعطاؤه تاماً كاملاً أي اسعوا في إعطاء الحق على وجه التام والكمال ﴿ **بالقِسْطِ** ﴾ أي ملتبسين بالعدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿ **ولا تبْخَسُوا الناسَ أشياءَهُمْ** ﴾ مطلقا أي سواء كانت من جنس المكيل والموزون أو من غيره ، وسواء كانت جليلة أو حقيرة ، وكانوا ينقصون من أثمان ما يشترون ﴿ **ولا تعْثَوا في الأرض مُفْسِدينَ** ﴾ أي ولا تتمادوا في الفساد ، ومن الفساد نقص الحقوق وترويج الزيوف ﴿ **بقيّتُ اللهِ** ﴾ أي ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد ترك الحرام ﴿ **خَيْرٌ لكُمْ** ﴾ مما تجمعون بالبخس والتطفيف ، فإن ذلك هباء منثور ، بل شر محض وإن زعمتم أن فيه خيراً ، كما قال تعالى (**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ويُرْبِي الصدقات**) ولا يخون أحد في مبايعته بالحيل والتلبيس ، فإن الرزق لا يزيد بذلك بل تزول بركته ، فمن جمع المال بالحيل حبة حبة يهلكه الله جملة ويبقى عليه وزره ، كرجل كان يخلط اللبن بالماء ليرى كثيراً ، فجاء السيل وقتل بقرته ، فقالت ابنته : يا أبت قد اجتمعت المياه التي جعلتها في اللبن وقتلت البقرة ﴿ **إنْ كُنْتُمْ مؤْمِنينَ** ﴾ بشرط أن تؤمنوا ، وإنما شرط الإيمان لأن فائدته إنما تظهر مع الإيمان فإن الكافر مخلد في عذاب النيران ، أي إن كنتم مصدقين لي في مقالتي لكم ﴿ **ومَا أنا عَلَيْكُمْ بحفيظٍ** ﴾ أي ما بعثت

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، ومسلم بنحوه وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٨٢ .

لأحفظكم عن المعاصي والقبائح ، وإنما بعثت مبلغاً وناصحاً وقد بلغت ﴿ **قَالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ** ﴾ اسندوا الأمر إلى صلاته قصداً إلى الاستهزاء ، فمرادهم السخرية لا حقيقة الاستفهام ، والمعنى أصلاتك تدعوك إلى أمرنا ؟ ﴿ **أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا** ﴾ من الأوثان وقد توارثنا عبادتها أباً عن جد ، أجابوا بذلك أمره عليه السلام إياهم بعبادة الله وحده المتضمن لنهيهم عن عبادة الأوثان ﴿ **أَوْ أَنْ نَفْعَلَ في أَموالِنا ما نَشاءُ** ﴾ جواب عن أمره بإيفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص ، والمعنى أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من التصرفات ، وقال بعضهم كان ينهاهم عن تقطيع أطراف الدراهم والدنانير وقصها فأرادوا به ذلك ، والمعنى ما نشاء من تقطيعها * واعلم أن أول من استخرج الحديد والفضة والذهب من الأرض « هوشنك » في عصر ادريس عليه السلام وكان ملكاً صالحاً داعياً إلى الإسلام . وأول من وضع السكة على النقدين الضحاك ، وإفساد السكة إفسادٌ في الأرض ﴿ **إِنَّكَ لأَنْتَ الحَليمُ الرَّشيدُ** ﴾ تتعاطى الحلم والرشد ولست كذلك ؟ أي ما أنت بحليم ولا رشيد فيما تأمرنا وترشدنا إليه ، تهكموا به كما يتهكم بالشحيح فيقال : لو أبصرك حاتم لتعلَّم منك الجود ، وبالمستجهل والمستخف فيقال يا عالم يا حليم ﴿ **قَالَ** ﴾ شعيب ﴿ **يا قَوْمِ أَرأَيتُمْ** ﴾ أخبروني ﴿ **إِنْ كُنْتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي** ﴾ أي حجة واضحة وبرهان نير من مالك أمري ﴿ **وَرَزَقَني مِنْهُ** ﴾ أي من لدنه ﴿ **رِزْقاً حَسَناً** ﴾ هو النبوة والحكمة والمعنى أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، ويقين من ربي ، وكنت نبياً على الحقيقة فهل يصح لي أن أتبعكم وأشوب الحلال بالحرام ، ولا آمركم بتوحيد الله وترك عبادة الأصنام والكف عن المعاصي والقيام بالقسط ، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك ؟ ﴿ **وما أُريدُ** ﴾ بنهي إياكم عن التطفيف ﴿ **أَنْ أُخالِفَكُمْ** ﴾ مخالفتكم حال كوني مائلاً ﴿ **إِلىٰ ما أَنْهيكُمْ عَنْهُ** ﴾ أي لا أنهى عن شيء وارتكبه ، بل أختار لكم ما أختار لنفسي ، فإنه ليس بواعظ من يعظ الناس بلسانه دون عمله ، قال في الإحياء : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظْ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني .

﴿ **إِنْ أُريدُ** ﴾ أي ما أريد ﴿ **إِلاَّ الإِصلاحَ** ﴾ إلا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة ﴿ **ما اسْتَطَعتُ** ﴾ أي مقدار ما استطعته من الإصلاح ﴿ **وما توفيقي** ﴾ أي كوني موفقا لتحقيق ما أقصده من إصلاحكم ﴿ **إِلاَّ باللهِ** ﴾ إلا بتأييده ومعونته ، والتوفيق : اختصاص العبد بعناية أزلية ، ورعاية أبدية ﴿ **عليهِ تَوكَّلتُ** ﴾ اعتمدت فإنه القادر على كل مقدور ﴿ **وَإِليهِ أُنيبُ** ﴾ أي أرجع فيما أنا بصدده في جميع أموري ﴿ **ويَا قَوْمِ لايَجْرِمَنَّكُمْ** ﴾ يقال جرم زيد ذنباً أي كسبه ، وجرمته ذنباً أي أكسبته إياه والمعنى لا يكسبنكم ﴿ **شِقاقي** ﴾ فاعل أي شقاقكم وعداوتكم إياي ﴿ **أَنْ يُصيبَكُمْ** ﴾ أي ينالكم والمعنى لا يحملنكم بغضكم إياي على أن يصيبكم ﴿ **مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ** ﴾ من الغرق ﴿ **أَو قَوْمَ**

﴿ هُودٍ ﴾ من الريح ﴿ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ من الصيحة ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ يعني أنهم أهلكوا بسبب الكفر والمعاصي ، في عهد قريب من عهدكم ، فهم أقرب الهالكين منكم ، فإن لم تعتبروا بمن قبلهم من الأمم المعدودة ، فاعتبروا بهم ولا تكونوا مثلهم كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم ، ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ بالإيمان ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ مما أنتم عليه من المعاصي وعبادة الأوثان ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ عظيم الرحمة للمؤمنين والتائبين ﴿ وَدُودٌ ﴾ فاعل بهم من اللطف والإحسان ، وقيل : المحب لأوليائه * واعلم أن الله تعالى لو لم يكن ودوداً لما هدى عباده ، ولما فرح بتوبة عبده المؤمن ، كما قال ﷺ (للهُ أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلة ، عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها حتى اشتد عليه الحر والعطش ، قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فللَّهُ أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن ، من هذا براحلته)[1] ثم اعلم أن التوبة على مراتب أعلاها الرجوع عن جميع ما سوى الله تعالى إلى الله سبحانه ، والله تعالى تواب يقبل التوبة إلا أن يكون العبد كذوباً ، يحكى أن مالك ابن دينار مرَّ بشابين يلهوان ، فوعظهما فقال أحدهما أنا أسد من الأسود ، فقال مالك : سيأتيك أسد تكون عنده ثعلباً ، فمرض الشاب وعاده مالك فبكى الشاب ، وقال قد جاء الأسد الذي صرت عنده ثعلباً ، فقال مالك : تب إلى الله تعالى فإنه تواب ، فنودي من زاوية البيت جربناه مراراً فوجدناه كذوباً ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ أي لا نعرف ولا نفهم ﴿ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ﴾ أي كلَّ ما تقول من التوحيد ، ومن إيفاء الكيل والوزن وغير ذلك ، قالوا استهزاء بكلامه واحتقاراً به ، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه : ما ندري ما تقول ؟ وإلا فشعيب كان يخاطبهم بلسانهم وهم يفهمون كلامه ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ﴾ أي فيما بيننا ﴿ ضَعِيفاً ﴾ أيْ لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءاً ، أو مهيناً لا عزَّ لك ، وهو الظاهر لأن الكفرة كانوا يزدرون بالأنبياء وبأتباعهم المؤمنين ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ ولولا حرمة قومك ومراعاة جانبهم ، وقالوا ذلك كرامة لقومه لأنهم كانوا على دينهم لا خوفاً منهم ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك برمي الحجارة وقد يوضع الرجم موضع القتل وإن لم يكن بالحجارة من حيث إنه سببه ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ مكرم محترم حتى تمنعنا عزتك من رجمك ، بل رهطك هم الأعزة علينا لكونهم من أهل ديننا ، فإنما نكف عنك للمحافظة على حرمتهم ، وهذا ديدن السفيه المحجوج ، يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد ﴿ قَالَ ﴾ شعيب في جوابهم ﴿ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي ﴾ همزة الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ ﴾ كان الظاهر أن يقال

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤ .

مني ، إلا أنه قيل « من الله » للإيذان بأن تهاونهم به وهو نبي الله تهاونٌ بالله تعالى والمعنى أرهطي أعز عليكم من الله تعالى ، فإنه مما لا يكاد يصح ، والحال أنكم لم تجعلوا له حظّاً من العزة أصلاً ﴿ **واتّخذتُموهُ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **وراءَكُمْ ظِهْرِيّاً** ﴾ أي شيأ منبوذاً وراء الظهر ، منسيّاً لا يُبَالى به فكأنكم زعمتم أن القوم أعز من الله ، حيث تزعمون أنكم تركتم قتلي إكراماً لرهطي ، والله أولى بأن يتبع أمره والعرب تقول لكل مالا يعبأ بأمره قد جعل فلان هذا الأمر بظهره ﴿ **إنّ ربّي بما تَعْمَلونَ** ﴾ من الأعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه ﴿ **مُحيطٌ** ﴾ لا يخفى عليه منها خافية فيجازيكم عليها ، والإحاطة إدراك الشيء بكماله ﴿ **وياقَوْمِ اعْمَلوا على مكانَتِكُمْ** ﴾ مصدر من مكن مكانة فهو مكين والمعنى اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة كل ما في وسعكم وطاقتكم ، من إيصال الشرور إليّ ، أو بمعنى المكان كمقام ومقامة والمعنى على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من الشرك والعداوة لي ﴿ **إنّي عَامِلٌ** ﴾ على مكانتي فحذف للاختصار أي عامل بقدر ما آتاني من القدرة وعلى حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ﴿ **سَوْفَ تعْلَمونَ مَنْ** ﴾ أي تعرفون الذي ﴿ **يأتيهِ عَذابٌ يُخْزيهِ** ﴾ يذله ويهينه ﴿ **ومنْ هُوَ كَاذِبٌ** ﴾ سوف تعلمون من المعذّب والكاذب مني ومنكم ؟ وأينا الجاني على نفسه والمخطىء في فعله ؟ يريد أن المعذب والكاذب أنتم لا أنا ﴿ **وارْتَقِبوا** ﴾ أي انتظروا مآل ما أقول لكم ﴿ **إنّي مَعَكُمْ رَقيبٌ** ﴾ منتظر فعيل بمعنى الراقب ، وكان شعيب عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء لحسن محاورته مع قومه ، وكمال اقتداره في مراجعته جوابهم ، وكان كثير البكاء حتى عمي ثم رد الله عليه بصره ، وهذه حال المقربين ، فإنهم جعلوا الله تعالى بين أعينهم ، وجعلوا الخلق وراء ظهورهم ، فلم يلتفتوا إلى شيء من الكونين ، حباً لله تعالى وقصراً للنظر عليه ، وهم العبيد الأحرار ، والناس في حقهم على طبقات ، فأما أهل الشقاء فلم يعرفوهم من هم لانطماس بصيرتهم ، وعدم استعدادهم لهذا الإنكشاف ، ألا ترى إلى قوم شعيب كيف حجبهم كونه أعمى عن رؤية جمال نبوته ، وظنوا أن لهم أبصاراً ولا بصر له ، ولذا عدوه ضعيفاً ولم يعرفوا أنهم عميٌ في الحقيقة ، وأن أبصارهم الظاهرة لا تستجلب لهم شرفاً ، وأن الحق مع أهل الحق والله تعالى أرسل الأنبياء عليهم السلام إلى الناس الغافلين ، ليفتحوا عيون بواطنهم من نوم الغفلة ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، فمن كان له منهم استعداد لهذا الانفتاح ، رضي بالتربية والإرشاد ، وقام في طريق الحق بالسعي والاجتهاد ، ومن لم يكن له منهم ذلك أبى واستكبر عن أخذ التلقين ، وامتنع عن الوصول إلى حدّ اليقين ﴿ **وَلَمّا جَاءَ أمْرُنا** ﴾ الذي قدرناه في الأزل ، من العذاب والهلاك لقوم شعيب ﴿ **نجّينا شُعَيْباً** ﴾ قدّم تنجيته إيذاناً بسبق الرحمة على الغضب ﴿ **والذّين آمنُوا مَعَهُ** ﴾ أي ونجينا الذي اتبعوا شعيباً في الإيمان ، وآمنوا كما آمن هو ﴿ **بِرحْمةٍ مِنّا** ﴾ في حقهم ، ومجرد فضل لا بسبب أعمالهم لأنه لما كان الإيمان والعمل الصالح أمراً موقوفاً على

التوفيق ، كان مجرد فضل ورحمة ﴿ **وَأَخَذَتِ الذّينَ ظَلَموا** ﴾ أنفسهم بالإباء والاستكبار عن قبول دعوة شعيب ﴿ **الصَّيْحةُ** ﴾ المراد صيحة جبرائيل عليه السلام وفي الأعراف (**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**) أي الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما لم يعذب الله أمتين بعذاب واحد ، إلا قوم شعيب وصالح ، وذلك أنه أصابهم حر شديد فخرجوا إلى غيضةٍ لهم فدخلوا فيها ، فظهرت لهم سحابة كهيئة الظلة ، فأحدقت بالأشجار وأخذت فيها النار ، وصاح بهم جبريل ورجفت بهم الأرض ، فماتوا كلهم واحترقوا فذلك قوله تعالى ﴿ **فَأَصْبَحوا** ﴾ أي صاروا ﴿ **في ديارِهِمْ** ﴾ بلادهم أو مساكنهم ﴿ **جَاثِمينَ** ﴾ ميتين لازمين لأماكنهم ، لا بَرَاح لهم منها أي لا زوال ﴿ **كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها** ﴾ أي لم يقيموا في ديارهم ﴿ **أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ** ﴾ أي هلاكاً لأهل مدين ﴿ **كَما بَعِدتْ ثَمودُ** ﴾ أي هلكت ، شبه هلاكهم بهلاكهم لأنها أُهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة ، فعلى الصالحين أن يعتبروا بأحوال الطّالحين ، فإنهم قد أخذوا الدنيا وآثروها على الآخرة ، ثم سلبهم الله أموالهم وديارهم ، كأن لم ينتفعوا بشيء ولم يقيموا في دار ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنا** ﴾ أي وبالله لقد أرسلنا ﴿ **مُوسىٰ** ﴾ حال كونه ملتبسا ﴿ **بِآياتِنا** ﴾ التسع التي هي « العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، ونقص الأموال والأنفس » ﴿ **وَسُلْطانٍ** ﴾ برهان ﴿ **مُبينٍ** ﴾ واضح على صدق نبوته ﴿ **إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ** ﴾ أي أشراف قومه ورؤسائه ﴿ **فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَونَ** ﴾ أي أمره بالكفر ، وأطاعوا قوله حين قال لهم » ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري » وخالفوا أمر موسى بالتوحيد وقبول الحق ﴿ **وَمَا أَمْرُ فِرعونَ بِرَشِيدٍ** ﴾ الرشيد بمعنى المرشد والمعنى وما هو مرشد إلى خير وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم ، لا من يضلهم ويغويهم ، وفيه تجهيلٌ لمتّبعيه ﴿ **يَقْدُمُ** ﴾ أي يتقدم ﴿ **قَوْمَهُ** ﴾ جميعاً من الأشراف وغيرهم ﴿ **يَوْمَ القِيمَةِ** ﴾ أي يتقدمهم يوم الآخرة إلى النار وهم خلفه ، ويقودهم إلى النار ، كما كانوا يتبعونه في الدنيا ويقودهم إلى الضلال ﴿ **فَأَوْرَدَهُمُ النارَ** ﴾ أي يوردهم ويدخلهم فيها ، وأصل الورود : المجيء إلى الماء ، والمورد الماء ، فشبَّه فرعون بالفارط الذي يتقدم الواردين إلى الماء ، وأتباعه بالواردة ، والنار بالماء الذي يردونه ثم قال ﴿ **وَبِئْسَ الوِرْدُ المورُودُ** ﴾ أي بئس المورد الذي يردونه النار ، لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد ، والنار على ضدّ ذلك ﴿ **وَأُتبِعُوا** ﴾ أي الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون ﴿ **في هذه** ﴾ أي في الدنيا ﴿ **لَعْنَةً** ﴾ لعنة عظيمة حيث لعنهم من بعدهم من الأمم ﴿ **وَيَوْمَ القِيمَةِ** ﴾ أي حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة ، فهي تابعة لهم حيثما ساروا دائرة معهم أينما داروا ، فكما اتبعوا أمر فرعون اتبعتهم اللعنة في الدارين جزاء وفاقاً ، وإذا كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم في هذا الضلال البعيد ؟ ﴿ **بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ** ﴾ الرِّفْد : العونُ قال الزجاج كل شيء جعلته عوناً لشيء وأسندت به شيأ فقد رفدته ، والمعنى بئس العون المعان رفدهم وهي اللعنة في الدارين ، وذلك

أن اللعنة في الدنيا رِفْد للعذاب ومَددٌ له ، وقد رُفدت باللعنة في الآخرة ، وفي الآية بيان شقاء فرعون ، وأنه لم ينفعه إيمانه حين الغرق ، ولو نفعه لما كان قائد قومه إلى النار ، وقد قال بعض المفسرين : المجرمون أربع طوائف كلها في النار لا يخرجون منها ، وهم المتكبرون على الله تعالى كفرعون وأمثاله ممن ادعى الربوبية لنفسه ونفاها عن الله تعالى فقال ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ وقال ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى** ﴾ إلخ ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الخبر السابق يا محمد ﴿ **مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى** ﴾ بعض أنباء القرى المهلكة بما جنت أيدي أهلها ﴿ **نَقُصُّهُ عَلَيْكَ** ﴾ أي مقصوص عليك ليكون فيه دلائل نبوتك ﴿ **مِنْهَا** ﴾ أي من تلك القرى ﴿ **قَائِمٌ** ﴾ باقٍ أثره وجدرانه ، مثل ديار عاد وثمود ﴿ **وَحَصِيدٌ** ﴾ أي ومنها عافى الأثر كالزرع المحصود ، مثل بلاد قوم نوح ولوط ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ** ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ **وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ بارتكاب ما يوجب الهلاك من الشرك وغيره ، فإنهم أكلوا الرزق وعبدوا غيره ، وكذبوا رسله ﴿ **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ** ﴾ أي فما نفعتهم ولا قدرت أن ترد بأس الله عنهم ﴿ **آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ** ﴾ أي يعبدون ﴿ **مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ أي حال كونهم متجاوزين عبادة الله ﴿ **مِنْ شَيْءٍ** ﴾ أي شيأ من الإغناء وهو القليل منه ﴿ **لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ** ﴾ أي حين مجيء عذابه ونقمته ﴿ **وَمَا زَادُوهُمْ** ﴾ عبَّر عن الأصنام بواو العقلاء لأنهم نزلوها منزلة العقلاء في عبادتهم إياها ، واعتقادهم أنها تنفع ﴿ **غَيْرَ تَتْبِيبٍ** ﴾ أي غير إهلاك وتخسير ، فإنهم إنما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها ، وكانوا يعتقدون في الأصنام جلب المنافع ودفع المضار ، فزال عنهم بسبب ذلك الاعتقاد منافع الدنيا والآخرة وذلك من أعظم الهلاك وأشد الخسران ﴿ **وَكَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الأخذ الذي مر بيانه ﴿ **أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى** ﴾ أي أهلها ﴿ **وَهِيَ ظَالِمَةٌ** ﴾ وفائدتها الإشعار بأنهم أخذوا بظلمهم وكفرهم ليكون ذلك عبرة لكل ظالم ﴿ **إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ أي عقوبته مؤلمة شديدة صعبة على المأخوذ والمعاقب لا يرجى منها الخلاص ، وعن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ وكذلك أخذ ربك)[1] الآية ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ أي إن فيما قصَّه الله من قصصهم ﴿ **لآيَةً** ﴾ لعبرة بينة وموعظة بالغة ﴿ **لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ** ﴾ أي أقرَّبه وآمن فإنه يعتبر ، وأمَّا من أنكر الآخرة ، فهو بمعزل من هذا الاعتبار ﴿ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ** ﴾ أي يجمع له الأولون والآخرون للمحاسبة والجزاء ﴿ **وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ** ﴾ أي مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والأرضين للموقف ، لا يغيب عنه أحد كما يصح أن يوصف بأنه مشهود فيه ، بمعنى يشهد فيه الخلائق من كل ناحية ، لأمر له شأن أو لخطب ﴿ **وَمَا نُؤَخِّرُهُ** ﴾ أي وما نؤخر ذلك اليوم الملحوظ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعاً .

﴿ إلاّ لأجَلٍ معْدودٍ ﴾ إلا لانقضاء مدة قليلة حسبما تقتضيه الحكمة ، وفي الآيات تهديد وتخويف من الله ، وحثٌّ على تصحيح الحال ، وتصفية البال ، وتزكية الأعمال ، ومحاسبة النفوس قبل بلوغ الآجال ، فإن العبد لا يحصد إلا ما يزرع ، ولا يشرب إلا بالكأس التي يسقي بها وفي الحديث القدسي (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها يوم القيامة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه)[1] فعلى العاقل أن يتدارك ما فات ولا يضيع الأوقات ﴿ يوْمَ يَأْتِ ﴾ أي حين يأتي ذلك اليوم المؤخر وهو يوم القيامة ﴿ لا تَكَلّمُ نفْسٌ ﴾ لا تتكلم بما ينفع وينجي ، من جواب أو شفاعة ﴿ إلاّ بإذْنِهِ ﴾ أي بإذن الله تعالى كقوله تعالى (لا يَتَكَلَّمُونَ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرّحمنُ وقَالَ صَواباً) .

﴿ فَمنْهُمْ ﴾ أي من الناس ﴿ شَقِيٌّ ﴾ وجبت له النار بموجب الوعيد ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ أي ومنهم سعيد وجبت له الجنة بمقتضى الوعد ، وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام التحذير والإنذار ، قال في التبيان علامة الشقاوة خمسة أشياء : قساوة القلب ، وجمود العين ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل ، وقلة الحياء ، وعلامةُ السعادة خمسة أشياء لين القلب ، وكثرة البكاء ، والزهد في الدنيا ، وقصر الأمل ، وكثرة الحياء ﴿ فأما الذّينَ شَقُوا ﴾ أي سبقت لهم الشقاوة وقضي لهم بالنار ﴿ ففي النّارِ ﴾ أي مستقرون في جهنم ﴿ لَهُمْ فيها زَفيرٌ وَشَهيقٌ ﴾ الزفير : إخراج النفس بقوة وشدة ، والشهيق رده واستعمالها في أول ما ينهق الحمار ، وآخر ما يفرغ من نهيقه ، فإن المراد تشبيه صراخهم بأصوات الحمير ، فكما أن الحمير لها أصوات منكرة كذلك الأشقياء لهم أصوات منكرة في جهنم ﴿ خَالدينَ فيها ﴾ مقيمين دائمين في النار ﴿ ما دَامتِ السّمواتُ والأرْضُ ﴾ ما مصدرية والمعنى مدة دوامهما وهو عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع ، على عادة العرب ، وذلك أنهم إذا وصفوا شيأ بالأبد والخلود ، قالوا ما دامت السموات والأرض لأنها باقيتان أبد الآباد على زعمهم فمثلوا ما قصد تأبيده بها في عدم الزوال ، فورد القرآن على هذا المنهاج ، وإن أريد تعليق قرارهم فيها بدوام السموات والأرض فالمراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلدة ويدل عليه قوله (يومَ تُبَدَّلُ الأرْضُ غَيْرَ الأرْضِ والسّمواتُ) وقوله (وأوْرَثَنَا الأرضَ نَتَبوأ مِنَ الجنّةِ حَيْثُ نَشاءُ) وأن أهل الآخرة لابد لهم من مظل ومقل إما سماء يخلقها الله فتظلهم أو يظلهم العرش وكل ما علاك فأظلك فهو سماء ، وما استقرت عليه قدمك فهو أرض ﴿ إلاّ ما شاءَ رَبُّكَ ﴾ استثناء من الخلود في النار ، لأن بعض أهل النار وهم فساق الموحدين يخرجون منها

(١) هذا جزء من حديث طويل مشهور من الأحاديث القدسية ، أخرجه مسلم والترمذي ، وانظر كال الحديث وروايته في جامع الأصول ١١ / ٣ .

وقيل : أهل الشقاوة على قسمين : شقيٌّ ، وأشقى فيكون من أهل التوحيد شقي بالمعاصي سعيد بالتوحيد ، فالمعاصي تدخله النار والتوحيد يخرجه منها ، ويكون من أهل الكفر والبدعة أشقى ، يصليه كفره وتكذيبه النار ، فيبقى خالداً مخلداً ﴿ **إنّ ربّكَ فَعّالٌ لما يُريدُ** ﴾ من تخليد البعض كالكفار ، وإخراج البعض كالفساق ، من غير اعتراض عليه ، وإنما قيل « فَعّالٌ » لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة ، وقال أبو السعود : ﴿ **إلاّ ما شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى (**لاَيَذُوْقُوْنَ فيها الموتَ إلاّ الموتةَ الأُولىَ**) وقوله (**ما نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِساء إلاّ ما قدْ سلفَ**) يعني أنهم مستقرون في النار في جميع الأزمنة ، إلا في زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها ، وإذ لا إمكان لتلك المشيئة بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود ، فلا إمكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ﴿ **وأمّا الذّينَ سُعِدُوا** ﴾ أي قدر لهم السعادة وخلقوا لها ﴿ **ففي الجنةِ خَالدينَ فيها ما دامَتِ السّمواتُ والأَرضُ إلا ما شَاءَ ربُّكَ** ﴾ قال قتادة الله أعلم بثنياه ، وقال الضحاك : إلا ما مكثوا في النور حتى أُدخلوا الجنة ، فإن التأبيد من مبدأ معين وقال المولى أبو السعود في تفسيره أن حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله ﴿ **عَطاءً غَيْرَ مَجْذوذٍ** ﴾ أي إعطاء وإنعاما غير مقطوع ، بل ممتداً لا إلى نهاية ﴿ **فَلا تَكُ** ﴾ أصله لا تكن ، حذفت النون لكثرة الاستعمال ﴿ **في مِرْيَةٍ** ﴾ أي في شك ﴿ **ممّا يعْبُدُ هَؤلاءِ** ﴾ أي من جهة عبادة هؤلاء الحاضرين من المشركين ، وكن على يقين في أنها ضلال سيء العاقبة ﴿ **ما يَعْبُدونَ إلاّ كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِن قبْلُ** ﴾ أي حالهم كحال آبائهم من غير تفاوت ، فهم على الباطل والتقليد لا على الحق والتحقيق ﴿ **وإنّا لموَفّوهُمْ** ﴾ توفية الشيء تأديته وإعطاؤه على وجه التمام ﴿ **نَصيبَهُمْ** ﴾ أي حظهم المتعين لهم من العذاب ، كما وفينا آباءهم حسب جرائمهم ، فسيلحقهم مثل ما لحق بآبائهم ﴿ **غيْرَ منْقُوصٍ** ﴾ أي جعله مقرراً ثابتا لا يظن أنه غيره ، وفي الآية ذم للتقليد وهو قبول قول الغير بلا دليل وهو جائز في الفروع والعمليات ولا يجوز في أصول الدين والاعتقاديات ، بل لابُدَّ من النظر والاستدلال لكن إيمان المقلد صحيح عند الحنفية والظاهرية وهو الذي اعتقد جميع ما وجب عليه من حدوث العالم ووجود الصانع وصفاته وإرسال الرسل وما جاؤا به حقاً من غير دليل ، لأن النبي ﷺ قَبِل إيمان الأعراب والصبيان والنسوان والعبيد والإماء من غير تعليم الدليل ، ولكنه يأثم بترك النظر والاستدلال لوجوبه عليه ولا يحصل اليقين إلا بترك التقليد وبالوصول إلى عين التوحيد ﴿ **وَلَقدْ** ﴾ أي وبالله لقد ﴿ **آتينا مُوسىٰ الكِتابَ** ﴾ أي التوراة وهو أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع ، وأما ما قبله من الكتب فإنما كانت مشتملة على الإيمان بالله وتوحيده ﴿ **فاخْتُلِفَ فيهِ** ﴾ أي في شأنه وكونه من عند الله ، وآمن به قوم وكفر به آخرون ، فلا تبال يا محمد باختلاف قومك فيما آتيناك من القرآن ، واصبر على تكذيبهم كما صبر موسى على تكذيب قومه ، وفيه

تسلية له ﷺ ﴿ **ولوْلاَ كلمةٌ سبقَتْ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ هي كلمة القضاء بإنظارهم إلى يوم القيامة ﴿ **لَقُضِيَ بيْنَهُمْ** ﴾ أي لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك ، بإنزال العذاب الذي يستحقه المبطلون ﴿ **وَإِنَّهُمْ** ﴾ أي وإن كفار مكة ﴿ **لفي شَكٍّ مِنْهُ** ﴾ أي من القرآن ﴿ **مُرِيبٍ** ﴾ وصف لشك ، يقال أرابه أوقعه في الريبة ﴿ **وإنّ كُلاّ** ﴾ التنوين عوض عن المضاف إليه أي وإن كل المختلفين فيه ، المؤمنين منهم والكافرين ﴿ **لَمَّا ليُوفيَنَّهُمْ ربُّكَ أعمَالَهُمْ** ﴾ ليعطينهم ويؤدينهم جزاء أعمالهم ، خيراً أو شراً ، تاماً وافياً كاملا ﴿ **إنّه** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **بما يَعْملونَ** ﴾ أي بما يعمله كل فرد ﴿ **خبيرٌ** ﴾ بحيث لا يخفى عليه شيء فيجازي كلاً بحسب عمله ﴿ **فاسْتقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ أي إذا تبين عندك يا محمد أحوال إخوانك الأنبياء وما تحملوا من قومهم من الأذى ، فدم أنت أيضاً على الاستقامة على التوحيد والدعوة إليه كما أمرك الله تعالى ﴿ **ومنْ تابَ مَعكَ** ﴾ أي ومن تاب من الشرك وشاركك في الإيمان ﴿ **ولا تَطْغَوْا** ﴾ أي ولا تنحرفوا عما حُدَّ لكم بإفراط أو تفريط . وإنما سمى ذلك طغياناً تغليظاً ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **بما تَعْملونَ بَصيرٌ** ﴾ عالم لا يخفى عليه شيء فيجازيكم على ذلك ، فاتقوه في المحافظة على حدوده ، وهو في معنى التعليل للأمر والنهي .

* وقال أبو علي الجرجاني : كن طالب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، ويطلب منك الاستقامة ، فالكرامة الكبرى الاستقامة في خدمة الخالق ، لا بإظهار الخوارق فمراعاة تلك الأمور في غاية الصعوبة ، ولذلك قال عليه السلام (شيبتني سورة هود)[1] ﴿ **ولا تَرْكَنوا** ﴾ الركون هو الميل اليسير ، والخطاب لرسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ، أي ولا تميلوا أدنى ميل ﴿ **إلى الذّين ظَلَموا** ﴾ أي إلى الذين وجد منهم الظلم في الجملة ﴿ **فتَمَسّكُمُ** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **النَّارُ** ﴾ نار جهنم ، وإذا كان الركون إلى من صدر منه ظلم مرة يفضي إلى النار ، فما ظنك بالركون إلى من رسخوا فيه ، ثم بالميل إليهم كل الميل ؟ ﴿ **ومَا لَكُمْ مِنْ دونِ اللهِ مِنْ أوْليَاءَ** ﴾ أي من أنصار ينقذونكم من النار ﴿ **ثُمّ لا تُنْصَرُوْنَ** ﴾ كلمة ثُمَّ لاستبعاد نصرة الله تعالى إياهم ، مع استحقاقهم العذاب بسبب ركونهم ، ثم لا ينصركم الله إذ سبق حكمه أن يعذبكم ، والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم ، والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ويرون ما فيها ثم لا يرتدعون عن الظلم والميل إلى أهله ، ولا يتدبرون أنهم مؤاخذون غير منصورين !؟ وإذا قرأ الرجل القرآن وتفقه في الدين ، ثم أتى باب السلطان تملقاً إليه وطمعاً لما في يديه ، خاض بقدر خطاه في نار جهنم ، روي أن الله تعالى أوحى إلى « يوشع بن

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي والحاكم بلفظ (شيبتني هودٌ ، والواقعة ، والمرسلات ..) وأخرجه ابن مردويه والطبراني بألفاظ متقاربة ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٧٩ .

نون » إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ، وستين ألفاً من شرارهم ، فقال ما بال الأخيار ؟ فقال : إنهم لم يغضبوا لغضبي ، فكانوا يواكلونهم ويشاربونهم ، وبهذا تبين أن بغض الظلمة والغضب عليهم لله واجب ، وإنما ظهر الفساد في الرعايا وجميع أقطار الأرض ، براً وبحراً ، بفساد الملوك وذلك بفساد العلماء أولاً إذ لولا القضاة السوء ، والعلماء السوء لقلَّ فساد الملوك ، بل لو اتفق العلماء في كل عصر على الحق ومنع الظلم ، مجتهدين في ذلك مستفرغين مجهودهم ، لما اجترأ الملوك على الفساد ، ولا ضمحل الظلم من بينهم رأساً وبالكلية ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ** ﴾جاء الأمر موحَّداً موجَّهاً إلى رسول الله ﷺ ، وإن كان المأمور به من حيث المعنى عاماً ، وفي النهي عن المحظورات موجهاً إلى غير الرسول مخاطباً به أمته ، فهذا من جليل البلاغة القرآنية ، والمراد بإقامة الصلاة أداؤها ، وإنما عبر عنه بها إشارة إلى أن الصلاة عماد الدين ﴿ **طَرَفَيْ النَّهار** ﴾ أي غدوةً وعشيةً ﴿ **وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ** ﴾ أي ساعات من الليل وهي الساعات القريبة من النهار ، فإنه من أزلفه إذا قربه ﴿ **إِنَّ الحَسنات** ﴾ على الإطلاق لا سيما الصلوات الخمس ﴿ **يُذْهِبْنَ السَّيِّآتِ** ﴾ أي يكفرن الصغائر ، يعني لا أنها تذهب السيآت نفسها ، إذ هي قد وجدت بل ما كان يترتب عليها ، وفي الحديث (الصلوات الخمسُ ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر)[1] ويمنعن من اقترافها كقوله تعالى (**إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنْهىٰ عَنِ الفَحْشاء والمنْكَرِ**) روي في سبب النزول أن أبا اليسر الأنصاري كان يبيع التمر ، فأتته امرأة فأعجبته فقال لها إن في البيت أجود من هذا التمر ، فذهب بها إلى نحو بيته فضمَّها إلى نفسه وقبَّلها ، وفعل بها كل شيء إلا الجماع ، فقالت له : اتق الله فتركها وندم ، فأتى أبا بكر رضي الله عنه فأخبره ، فقال استر على نفسك ، وتب إلى الله تعالى فلم يصبر ، فأتى عمر رضي الله عنه فقال له مثل ذلك فلم يصبر ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما فعل فقال : أنتظر أمر ربي فاستر على نفسك ، فلما صلى صلاة العصر نزلت هذه الآية ، فقال عليه السلام : صليت العصر معنا ؟ قال نعم ، قال : اذهب فإنها كفارة لما فعلت ، فقال أحد الصحابة : هذا له خاصة أم للناس عامة ؟ قال بل للناس كافة)[2] وفي الحديث (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من دَرَنه شيء ؟ قالوا لا قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا)[3] *واعلم أن الذنوب كلها نجاسات ، والطاعات مطهرات ، وبماء أعضاء الوضوء تتساقط الأوزار ، وأحسن الحسنات وأفضل الطاعات ، العلم بالله ،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٠٥ .

(٢) انظر سبب النزول للواحدي وتفسير ابن عطية ٧ / ٤١٨ والحديث رواه الترمذي وحسَّنه .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد في المسند ١ / ١٧٧ .

وطريقةُ التوحيد وخلافُ هوى النفس ، فبذكر الله يتخلص العبد من الذنوب ، وبه يحصل تزكية النفوس ، وتصفية القلوب ، وفي الآية إشارة إلى إدامة الذكر والطاعة والعبادة في الليل والنهار ، إلا أن يكون له ضرورة فيصرف بعض الأوقات إليها ، كطلب المعاش في النهار ، والاستراحة في الليل ، فإنه يحصل للقوى البشرية والحواس كلال ، فيلزم دفعه بالمنام ليقوم في أثناء الليل نشيطاً للذكر والطاعة ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي المذكور من الاستقامة والإقامة ﴿ **ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ أي موعظة للمتعظين ، فمن امتثل أمر الله تعالى فاستقام وأقام فقد تحقق بحقيقة الحال والمقام ، قال بعض الحكماء : علامةُ الذي استقام أن يكون مثله كمثل الجبل ، لأن الجبل له أربع علامات : إحداها أن لايذيبه الحر . والثانية أن لا يجمده البرد . والثالثة أن لا تحركه الريح . والرابعة أن لا يذهب به السيل فكذا المستقيم ﴿ **وَاصْبِرْ** ﴾ يا محمد على مشاق الأوامر ويدخل فيه الأمة بالتبعية ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ في أعمالهم صلاةً كانت وغيرها من فرائض الإسلام أي يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخسٍ أصلاً وكان أهل الخير يكتب بعضهم إلى بعض بثلاث كلمات : من عمل لآخرته كفاه الله أمر دينا ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس ، واعلم أن الله تعالى أمر ونهى ومراده إطاعة عباده له ، فإن فلاحهم في ذلك ، ولا يرضى الله منهم إلا بالطاعة والتسليم ﴿ **فَلَوْلاَ كَانَ** ﴾ لولا بمعنى هلا وكان بمعنى وُجد ﴿ **مِنَ الْقُرُونِ** ﴾ الهالكة الكائنة ﴿ **مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾ من قبلكم في الزمان ﴿ **أُولُوا بَقِيَّةٍ** ﴾ أصحاب فضل وخير ، وسمي الفضل والجودة بقية لأن الرجل إنما يستبقى أجود الشيء وأفضله ، فصار مثلاً في الجودة والفضل ، يقال فلان من بقية القوم أي من خيارهم ﴿ **يَنْهَوْنَ** ﴾ المفسدين ﴿ **عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ** ﴾ الواقع منهم أي لم يكن فيهم أولوا بقية ينهون حتى لا ينزل العذاب بهم ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ** ﴾ استثناء منقطع أي لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد وهم أتباع الأنبياء ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي لم ينهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا بمباشرة الفساد وترك النهي عنه ﴿ **مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** ﴾ أي انعموا فيه من الشهوات واللذات ، وآثروها على أمر الآخرة ﴿ **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ بيان لسبب استئصال الأمم المهلكة ، وهو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واتباع الشهوات وفي الحديث (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكرون ، فإذا فعلوا ذلك عذّب الله العامة والخاصة) .

﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ** ﴾ أي مريداً لإهلاك أهل القرى ﴿ **بِظُلْمٍ** ﴾ أي ظالماً لها بغير ذنب واستحقاق للهلاك ، بل استحال ذلك في الحكمة ﴿ **وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** ﴾ غير ظالمين ، والمراد تنزيه الله تعالى عن الظلم بالكلية ، ما يستحيل صدوره عنه تعالى وإلا فلا ظلم فيما فعل الله بعباده كائناً ما

كان ، والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر ، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا خانوا في المعاملات ، وسعوا في أذى الخلق وظلمهم ، وإنما لم يهلكهم بمجرد شركهم ، لأن مكافأة الشرك النار لا ما دونها ، وإنما يهلكهم بمعاصيهم زيادة على شركهم ، مثل قوم صالح بعقر الناقة ، وقوم لوط بالأفعال الخبيثة ، وقوم شعيب بنقصان الكيل والوزن ، وقوم فرعون بإيذائهم موسى وبني إسرائيل ، قال بعضهم : الملك يبقى مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم ﴿ **ولوْ شَاءَ رَبُّكَ** ﴾ مشيئة قسر ﴿ **لجَعلَ الناسَ أُمّةً واحدةً** ﴾ متفقة على الحق ودين الإسلام ، بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ﴿ **ولا يَزالُونَ** ﴾ أي الناس ﴿ **مُخْتَلِفينَ** ﴾ في الحق ودين الإسلام أي مخالفين له ، وفي الآية إثبات الاختيار للعبد كما هو مذهب أهل السنة ، والقدرية يزعمون أن كل عبد خالق لفعله ، لا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى ، ونحن معاشر أهل السنة نقول العبد كاسب ، والله خالق ، أي فعل العبد حاصل بخلق الله ، ومقدورُ العبد من جهة الكسب ﴿ **إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** ﴾ أي إلا قوماً هداهم الله بفضله إلى الحق ، فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه ﴿ **وَلذلِكَ** ﴾ أي وللرحمة بتأويل أن مع الفعل ﴿ **خَلَقَهُمْ** ﴾ أي خلق أهل الرحمة للرحمة ، كما خلق أهل الاختلاف للاختلاف ﴿ **وتَمّتْ كلمةُ رَبِكَ** ﴾ أي وجب قول ربك للملائكة أو حكمه وهو ﴿ **لأَمْلأَنَّ جَهنّمَ من الجِنّةِ والنّاسِ أجْمعينَ** ﴾ أي من عصاتها أجمعين أو منهما أجمعين ﴿ **وَكُلاً** ﴾ أي كل نبأ وخبر ﴿ **نَقُصُّ عليْكَ** ﴾ نخبرك به ﴿ **منْ أنْباءِ الرُّسُلِ** ﴾ من قصصهم وأخبارهم ﴿ **ما نُثَبّتُ بهِ فُؤادَكَ** ﴾ أي ما نشدُّ به قلبك ، حتى يزيد يقينك ، وتطيب به نفسك ، فالإنسان إذا ابتلي بمحنة وبلية ، فرأى جماعة يشاركونه فيها ، خفتَّ على قلبه بليته ، كما يقال البلية إذا عمت خفت وطابت ﴿ **وَجَاءَكَ في هذهِ** ﴾ السورة ﴿ **الحقُّ** ﴾ ما هو حق وبيان صدق ﴿ **وموعظةٌ** ﴾ ونصيحة عظيمة ﴿ **وَذِكرىٰ** ﴾ وتذكرة ﴿ **للمُؤْمِنينَ** ﴾ لأنهم هم المنتفعون بالموعظة ، بالتذكير بأيام الله وعقوبته ﴿ **وَقُلْ للذّينَ لا يُؤمِنونَ** ﴾ بهذا الحق ولا يتعظون به من أهل مكة وغيرهم ﴿ **اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ** ﴾ أي حالكم وجهتكم التي هي عدم الإيمان ﴿ **إنّا عاملونَ** ﴾ على حالنا وهو الإيمان به ، والاتعاظ والتذكير به ﴿ **وانْتَظِرُوا** ﴾ بنا الدوائر والنوائب على ما يعدكم الشيطان ﴿ **إنّا مُنْتَظِرونَ** ﴾ أن ينزل بكم ما نزل بأمثالكم من الكفرة فهذا تهديد لهم ، لأن الآية منسوخة بآية السيف ﴿ **وَللهِ** ﴾ اللام للاختصاص ﴿ **غيْبُ السّمواتِ والأَرضِ** ﴾ أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد ، وخفي عليهم علمه ، فكيف يخفى عليه أعمالكم ؟ ﴿ **وإليهِ** ﴾ تعالى وحده ﴿ **يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ** ﴾ بمعنى يعود عواقب الأمور كلها يوم القيامة ، فيرجع أمرك يا محمد وأمر الكفار إليه ، فينتقم لك منهم ﴿ **فاعْبُدْهُ** ﴾ أي أطعه واستقم على التوحيد ﴿ **وَتوكّلْ عَليْهِ** ﴾ فوّضْ إليه جميع أمورك ، فإنه كافيك وعاصمك من شرهم ، فعليك تبليغ ما أوحينا إليك ﴿ **ومَا رَبُّكَ بِغافِلٍ عمّا**

﴿ تَعْمَلونَ ﴾ لأن الغفلة والسهو لا يجوزان على من لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض ، واعلم أن علم الغيوب مختص بالله تعالى ، وأما أخبار الأنبياء والأولياء صلوات الله عليهم أجمعين فبواسطة الوحي والإلهام ، وتعليم الله تعالى ، ومن هذا القبيل إخباره عليه السلام عن حال العشرة المبشرين بالجنة ، وكذا إخباره عن أشراط الساعة ، وما يظهر في آخر الزمان من غلبة البدع والهوى ، وإماتة الصلاة واتباع الشهوات ، وعن الإمام الصالح جنيد البغدادي رحمه الله ، قال لي خالي « سري السقطي » تكلم على الناس ، وكنت أتَّهم نفسي في استحقاق ذلك ، ورأيت النبي عليه السلام وكان ليلة الجمعة فقال قم وعظ الناس ، فانتبهت وأتيت بابه فقال لم تصدقنا حتى قيل لك ؟ فقعدتُ من غد للناس أي بطريق العظة والتذكير ، فأتاني غلام نصراني متنكراً ، وقال أيها الشيخ : ما معنى قوله عليه السلام (اتقوا فِرَاسةَ المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ؟ قال : فأطرقت رأسي ورفعت ، فقلت أسلمْ فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام ، فمثل هذا العلم ، والوقوف على أحوال الناس ، لا يحصل إلا بإكرام الله تعالى .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة هود





بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر الله تعالى في هذه السورة قصة يوسف لأن يوسف عليه السلام ابتلي بحسد الإخوان وشدائد البئر والسجن ، فأرسل الله تعالى جبرائيل فسلاه وهوَّن عليه تلك الشدائد ، بإيصاله إلى مقام الإنس والحضور ، ثم أعطاه القوة والعزة والسلطنة ، فآل أمره إلى الصفاء بعد أنواع الجفاء ، فمن حافظ على تلاوة سورة يوسف ، وتدبر في معانيها وصل إلى ما وصل يوسف من أنواع السرور ، كما قال ابن عطاء : لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح ، روي أن أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمداً لماذا انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ، وعن قصة يوسف ؟ ففعلوا ذلك ، فنزلت هذه السورة ﴿ **الر** ﴾ أي أنا الله أرى وأسمع سؤالهم عن هذه القصة ، ويقال أنا الله أرى صنيع إخوة يوسف ومعاملتهم معه ، ويقال « الر » تعديد للحروف على سبيل التحدي ﴿ **تِلكَ** ﴾ السورة ﴿ **آياتُ الكتابِ** ﴾ أي القرآن ﴿ **المبينِ** ﴾ أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى ، وفي إعجازه ، أو المبين لما فيه من الأحكام والشرائع ، وخفايا الملك والملكوت ، وأسرار النشأتين ، وغير ذلك من الحِكَم والمعارف والقصص ﴿ **إنا أَنْزلناه** ﴾ أي الكتاب المتضمن لقصة يوسف وغيرها ﴿ **قُرْآنا عربيّاً** ﴾ بلغتكم يا معشر العرب ﴿ **لعلّكُمْ تَعْقلونَ** ﴾ أي لكي تفهموا معانيه ، وتحيطوا بما فيه ، وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر ﴿ **نحنُ نَقُصُّ عليْكَ** ﴾ نخبرك ونحدثك ﴿ **أَحْسنَ القَصَصِ** ﴾ أي نبين لك أحسن ما يُقصُّ من الأنباء والأحاديث ، وهو قصة آل يعقوب ، قال محيي السنة : سمى الله قصة يوسف أحسن القصص ، لما فيها من العبر والحكم ، والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا ، من سير الملوك والمماليك ، ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، والتجاوز عنهم بعد الاقتدار وغير ذلك من الفوائد ، واجتمع في يوسف مع كونه ابن ثلاثة أنبياء : شرف النبوة ، وحسن الصورة ، وعلم الرؤيا ، ورياسة الدنيا ، فأي رجلٍ أكرم من هذا ؟ ﴿ **بما أَوْحَيْنا** ﴾ أي بإيحائنا ﴿ **إليْكَ هذا القرآن وإنْ** ﴾ مخففة من الثقيلة أي وإن الشأن ﴿ **كُنْتَ مِنْ قبْلِهِ** ﴾ أي من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن ﴿ **لَمِنَ الغَافِلِينَ** ﴾ أي لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط ، وهو تعليل لكونه موحى ﴿ **إذ قالَ يوسفُ** ﴾ أي اذكر يا محمد وقت قول يوسف ﴿ **لأَبيهِ** ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ **يا أَبتِ** ﴾ أصله ياأبي فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبها ، أو لأن التاء تدل في بعض المواضع على التفخيم كما في علاَّمة ونسَّابة ﴿ **إنّي رأيتُ** ﴾ في المنام فهو من الرؤيا لا من الرؤية * قال في الكواشي : الرؤيا في المنام ، والرؤية في

العين ، والرأيُ في القلب ﴿ **أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبَاً والشَّمْسَ والقمرَ** ﴾ عطف الشمس والقمر على « كوكباً » لإظهار شرفهما على سائر الطوالع ، كعطف الروح على الملائكة ، ثم استأنف فقال ﴿ **رأيتهُمْ لي ساجِدينَ** ﴾ أي سجود تحية ، لا سجود عبادة ، قال ابن الشيخ : لفظ السجود يطلق على وضع الجبهة على الأرض ، سواء كان على وجه التعظيم والإكرام ، أو على وجه العبادة ، ويطلق أيضا على التواضع والخضوع ، وإنما أجريت مجرى العقلاء في الضمير لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود . واعلم أن يوسف رأى إخوته في صورة الكواكب ، لأنه يستضاء بالإخوة ويُهْتَدى بهم كما يُهْتَدى بالكواكب ، ورأى أباه وخالته في صورة الشمس والقمر ، وإنما قلنا خالته لأن أمه ماتت في نفاس بنيامين ، والرؤيا ثلاثة : أحدها حديث النفس كمن يكون في أمر أو حرفة ، يرى نفسه في ذلك الأمر ، وكالعاشق يرى معشوقه ونحو ذلك ، وثانيها تخويف الشيطان بأن يلعب بالإنسان فيريه ما يحزنه ، ومن لعبه به الاحتلام الموجب للغسل ، وهذان لا تأويل لهما ، وثالثها بشرى من الله تعالى ، بأن يأتيك ملك الرؤيا من نسخة أم الكتاب ـ اللوح المحفوظ ـ وما سوى ذلك أضغاث أحلام ﴿ **قالَ** ﴾ قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ﴿ **يا بُنَيَّ** ﴾ تصغير ابن صغَّره للشفقة والمحبة وصغر السن ، فإنه كان ابن ثنتي عشرة سنة ، ولما عرف يعقوب من هذه الرؤيا ، أن يوسف يبلغه تعالى مبلغاً جليلاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، كما فعل بآبائه الكرام ، خاف عليه حسد الإخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة الأحزان ، وإن كان واثقاً من الله تعالى بأن سيتحقق ذلك لا محالة ، وطمعاً في حصوله بلا مشقة ﴿ **لا تَقْصُصْ رُؤيـاكَ على إخْوتِكَ** ﴾ وهم إخوته بنو علاته العشرة أي لا تخبرهم بهذه الرؤيا ﴿ **فيكيدُوا** ﴾ أي فيفعلوا ﴿ **لَكَ** ﴾ أي لأجلك ولإهلاكك ﴿ **كَيْداً** ﴾ خفيًا عن فهمك ، لا تقدر على مدافعته ، وهذا أوفق بمقام التحذير ، والكيدُ : الاحتيال وطلبُ إيصال الشر بالغير ﴿ **إنَّ الشَّيْطَانَ للإنْسانِ عَدُوٌّ مُبينٌ** ﴾ إن الشيطان ظاهر العداوة للإنسان ، قد بانت عداوته لك ولأبناء جنسك إذ أخرج أبويكم آدم وحواء من الجنة ﴿ **وَكَذلِكَ** ﴾ أي مثل اصطفائك واختيارك من بين إخوتك ، لمثل هذه الرؤيا العظيمة ، الدالة على شرف وعز وكبرياء شأنك ﴿ **يجْتَبِيكَ ربُّكَ** ﴾ يختارك ويصطفيك لما هو أعظم منها كالنبوة ﴿ **ويُعلِّمكَ منْ تأويلِ الأحاديثِ** ﴾ أي ذلك الجنس من العلوم ، فتطلع على حقيقة ما أقول ، فإن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها ، والمراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤى جمع الرؤيا ﴿ **ويُتمُّ نعْمتَهُ عليْكَ** ﴾ يا يوسف يجوز أن يتعلق بقوله بيتمُّ وإن يتعلق بنعمته أي بأن يضم إلى النبوة المستفادة من الاجتباء المُلْك ، ويجعله تتمة لها وتوسيط التعليم لرعاية الوجود الخارجي ﴿ **وَعَلى آلِ**

﴿ يعْقوبَ ﴾ الآل وإن كان أصله الأهل ، إلا أنه لا يستعمل إلا في الأشراف ، ورؤيتهم على صور الكواكب ، مجرد كونهم هادين للناس ، ولا يلزم أن يكون ذلك بالنبوة ﴿ كما أتَمَّهَا على أَبَوَيْكَ ﴾ أي ويتم نعمته عليك إتماماً كائناً كإتمام نعمته على أبويك ، وهي نعمة الرسالة والنبوة ﴿ من قبْلُ ﴾ أي من قبل هذا الوقت ﴿ إبْراهِيم وإسحٰقَ ﴾ * أما إتمامها على إبراهيم فباتخاذه خليلاً ، وبإنجائه من النار ، ومن ذبح الولد ، وأما على اسحاق فبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه ، وكل ذلك نِعَمٌ جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة .

﴿ إنّ ربّكَ عَليمٌ حكيمٌ ﴾ أي واسع العلم ، باهر الحكمة ، يعلم من يحق له الاجتباء ولا يتم نعمته إلا على من يستحقها ، أو يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب ﴿ لقدْ كانَ في يوسُفَ وإخْوتهِ ﴾ أي بالله قد كان في قصة يوسف ، وحكاية إخوته الأحد عشر ﴿ آياتٌ ﴾ علامات عظيمة الشأن ، دالة على قدرة الله القاهرة ، ﴿ للسائلينَ ﴾ لكل من سأل عن قصتهم وعرفها ، فإن كبار أولاد يعقوب بعد ما اتفقوا على إذلال أصغر أولاده يوسف ، وفعلوا به ما فعلوا ، قد اصطفاه الله للنبوة والملك ، وجعلهم خاضعين له منقادين لحكمه ، وأن وبال حسدهم قد انقلب عليهم ، وهذا من أجلّ الدلائل على قدرة الله القاهرة ، وحكمته الباهرة ﴿ إذ قَالُوا لَيُوسُفُ وأَخوهُ ﴾ أي شقيقه بنيامين ، والشقيق الأخ من الأب والأم ، كأنه شُقَّ نسبه من نسبه ﴿ أحبُّ إلى أبينا مِنّا ﴾ أحبُّ أفعل تفضيل مبني من المفعول * قال بعض العارفين : مال يعقوب إلى يوسف لظهور كمال استعداده في رؤياه حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ، فعلم أبوه من رؤياه أنه يرث أباه وجده ، ويجمع استعدادات إخوته ، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه ، فتبالغ حسدهم حتى حملهم على التعرض له ، وقيل لأن الله تعالى أراد ابتلاءه بمحبته إليه في قلبه ، ثم غيَّبه عنه ليكون البلاء أشد عليه ﴿ ونحن عُصْبةٌ ﴾ أي والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد ، أحقاء بالمحبة ، وما معنى اختيار صغيرين ضعيفين على العشرة الأقوياء ؟ ﴿ إنّ أبانا ﴾ في ترجيحها علينا في المحبة ﴿ لفي ضَلالٍ ﴾ أي ذهاب عن طريق العدل ﴿ مُبينٍ ﴾ ظاهر الحال ﴿ اقْتلُوا يُوسُفَ ﴾ فإن قلت : الحسد من أمهات الكبائر ، لا سيا وقد أقدموا بسبب ذلك على القتل ونحوه ، وكل ذلك ينافي العصمة والنبوة ؟ قلت : المعتبر عصمة الأنبياء في وقت حصول النبوة ، فأما ما قبلها فذلك غير واجب كذا أجاب الإمام[1] ﴿ أو اطْرحُوْهُ أرْضاً ﴾ صحراء مجهولة بعيدة من العمران ليهلك فيها أو يأكله السباع ، وهو معنى تنكيرها وإبهامها لا أن معناه أي أرض كانت ﴿ يخْلُ ﴾ أي يخلص ﴿ لكُمْ وجْهُ أبيكُمْ ﴾ فيقبل عليكم بكليته ،

(١) الصحيح أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، فلا حاجة إلى اقتناص عذر لهم في الحسد ، والكذب ، وإرادة التخلص من يوسف بالقتل ، وانظر كتابنا صفوة التفاسير وكلام الحافظ ابن كثير .

ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ﴿ **وتكونُوا منْ بعْدِهِ** ﴾ أي من بعد الفراغ من أمره ﴿ **قوماً صَالحين** ﴾ صلحت حالكم عند أبيكم ، أو تائبين إلى الله تعالى مما جئتم ﴿ **قالَ قائِلٌ منْهُمْ** ﴾ وهو يهودا وكان أحسنهم فيه رأياً ، حيث جوزوا قتله ولم يساعدهم عليه ﴿ **لا تَقتُلوا يوسُفَ** ﴾ فإن قتله عظيم لكونه من غير جرم ، ولا تطرحوه أرضاً لكونه في حكم القتل ﴿ **وألقوه** ﴾ يعني بدل الطرح ﴿ **في غَيَابَةِ الجُبِّ** ﴾ في قعره وغوره وما أظلم منه من أسفله ﴿ **يلتقِطْهُ** ﴾ يأخذه على وجه الصيانة من الضياع والتلف ﴿ **بعْضُ السيّارةِ** ﴾ جمع سيار وهو بناء المبالغة أي بعض طائفة تسير في الأرض ﴿ **إنْ كُنْتُمْ فاعِلينَ** ﴾ بمشورتي ، عرض ذلك عليهم تأليفاً لقلبهم ، وتوجيهاً لهم إلى رأيه ، وحذراً من نسبتهم له إلى التهكم ، وإنما قال ذلك لكونه أوجه مما ذكروه في التدبير ، فإن من التقطه من السيارة يحمله إلى موضع بعيد ، ويحصل المقصود بلا احتياج إلى الحركة بأنفسهم ، فانظر إلى هؤلاء الإخوة ، الذين أرحمهم له لا يرضى إلا بإلقاء يوسف في أسفل الجب ، وهكذا إخوان الزمان ﴿ **قَالُوا يا أبانا** ﴾ خاطبوه بذلك تحريكاً لسلسلة النسب ، وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف ، ليتسببوا بذلك إلى استنزاله عن رأيه في حفظه منهم ، لَمّا أحس منهم بأمارات الحسد والبغي ، فكأنهم قالوا ﴿ **مالَكَ لا تَأْمَنَّا** ﴾ أيْ أيُّ عذر لك في ترك الأمن أي في الخوف ﴿ **على يُوسُفَ** ﴾ مع أنك أبونا ونحن بنوك ، وهو أخونا ؟ ﴿ **وإنّا له لناصِحونَ** ﴾ الواو للحال أي والحال إنا لمريدون له الخير ، ومشفقون عليه ، ليس فينا ما يخل بالنصيحة والثقة ﴿ **أرْسِلْهُ مَعَنا غداً** ﴾ إلى الصحراء ﴿ **يَرتَع** ﴾ أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها ، فإن الرتع هنا الاتساع في الملاذ ﴿ **وَيَلْعَبْ** ﴾ بالاستباق والتناضل ونحوهما مما يكون الغرض منه تعلم المحاربة مع الكفار ، وإنما سموه لعباً لأنه في صورته ﴿ **وإنّا لهُ لحافظونَ** ﴾ من أن يناله مكروه ﴿ **قَال إني لَيَحْزُنُنِي أنْ تَذْهَبُوا بهِ** ﴾ وذلك لشدة مفارقته عليّ وقلة صبري عنه ﴿ **و** ﴾ مع ذلك ﴿ **أخافُ أن يأكُلَه الذئْبُ** ﴾ الخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ، روي أنه رأى في المنام كأنه على رأس جبل ، ويوسف في صحراء ، فهجم عليه أحد عشر ذئباً فغاب يوسف بينهن ، ولذا حذَّرهم من أكل الذئب ﴿ **وأنْتُم عنهُ غافِلونَ** ﴾ أي في حين غفلتكم عنه .

﴿ **قالُوا** ﴾ والله ﴿ **لئن أكَلَهُ الذِّئْبُ ونحْنُ عُصْبَةٌ** ﴾ أي لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء ﴿ **إنّا إذاً لخاسِرونَ** ﴾ من الخسار أي لهالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً ، وإنما اقتصروا على جواب خوف يوسف من أكل الذئب ، ولم يجيبوا عن الاعتذار الأول لأنه السبب القوي في المنع ، دون الحزن لقصر مدته ، بناء على أنهم يأتون به عن قريب ، وعن بعض الصحابة أنه قال لا ينبغي للرجل أن يُلقِّنَ الخصم الحجة ، لأن إخوة يوسف كانوا لا يعلمون أن الذئب يأكل الناس ، إلى أن قال ذلك يعقوب ولقنهم حُجَّةً في كيد يوسف ، وفي المَثَل (البلاء موكَّل بالمنطق) يحكى أن ابن السكيت من أئمة اللغة جلس مع

المتوكل يوماً ، فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكل ، فقال أيما أحب إليك ابناي أم الحسن والحسين ؟ قال : والله إن قنبر خادم علي رضي الله عنه خير منك ومن ابنيك ، فقال : سُلُّوا لسانه من قفاه ، ففعلوا فمات في تلك الليلة ، ومن العجب أنه أنشد قبل ذلك إلى المعتز والمؤيد وكان يُعلِّمهما فقال :

يُصابُ الفَتَى من عَثْرةٍ بلسانه * وليس يُصَاب المَرْءُ من عَثْرةِ الرِّجْلِ
فَعثرتُهُ في القَوْلِ تُذْهِبُ رَأسَهُ * وعَثْرتُهُ في الرِّجْلِ تَبرأ على مَهْلِ

﴿ **فلما ذَهَبوا به** ﴾ متصل بمحذوف أي فأذن له وأرسله معهم ، فلما ذهبوا به فعلوا به من الأذية ما فعلوا ، وتفصيل المقام أن يعقوب عليه السلام ، لما رأى إلحاح إخوة يوسف في خروجه معهم إلى الصحراء ، ومبالغتهم بالعهد واليمين ، ورأى أيضاً ميل يوسف إلى التفرج والتنزه ، رضي بالقضاء فأذن لهم أن يصحبوه ، فلما بعدوا له عن العيون تركوا وصايا أبيهم ، فألقوه على الأرض وقالوا : يا صاحب الرؤيا الكاذبة ، أين الكواكب التي رأيتهم لك ساجدين ، حتى يُخلِّصوك من أيدينا اليوم ؟ فجعلوا يؤذونه ويضربونه ، وكلما لجأ إلى واحد منهم ضربه ، ولا يزدادون عليه إلا غلظة وحنقاً ، وجعل يبكي بكاءً شديداً وينادي يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك ، وضيَّعوا وصيتك ، لو تعلم ما يصنع بابنك أولاد الإماء ، فنادى فقال لهم يهودا : ألستم قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه ؟ قالوا بلى قال أدلكم على ما هو خيرٌ لكم من القتل ؟ ألقوه في الجبّ ، فسكن غضبهم وقالوا نفعل ﴿ **وأَجْمَعُوا أنْ يجعلوهُ في غيابة الجُبِّ** ﴾ وعزموا على إلقاء يوسف في قعر الجب ، وكان أعلاه ضيقاً وأسفله واسعاً ، فدلوه فيها بحبل مربوط على وسطه فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ، ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم الكذب احتيالاً لأبيه فقال يا إخوتاه : ردُّوا عليَّ قميصي أتوارى به في حياتي ويكون كفناً بعد مماتي ، فلم يفعلوا فلما بلغ نصفها قطعوا الحبل وألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة بجانب البئر ، فقام عليها وهو يبكي ، قال الحسن : أُلقي يوسف في الجب وهو ابن ثنتي عشرة سنة ، ولقي أباه بعد أربعين سنة[1] ، وقيل : كان يوسف ابن سبع عشرة سنة ، ولَمَّا أُلقي في الجب قال : ياشاهداً غير غائب، ويا قريباً غير بعيد ، ويا غالباً غير مغلوب ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً ، وروي اجعل لي فرجاً مما أنا فيه قال الكواشي : لبث في البئر ثلاثة أيام ، وعلَّم جبريل يوسف هذا الدعاء في البئر (اللهم يا كاشف كل كربة ، ويا مجيب كل دعوة ، ويا جابر كل كسير ، ويا مؤنس كل وحيد ، لا إله إلا أنت

---

(١) قال محمد بن إسحق : ذكروا أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثماني عشرة سنة ، وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين . ا هـ مختصر ابن كثير ٢ / ٢٦٢ .

سبحانك ، أسألك أن تجعل لي فرجاً ومخرجاً ، وأن تقذف حبك في قلبي ، وأن تحفظني وترحمني يا أرحم الراحمين) ﴿ **وأوْحَيْنا إليه** ﴾ تبشيراً وإيناساً له ، وكان وحي نبوة ورسالة ﴿ **لَتُنَبِّئَنَّهُمْ** ﴾ لتحدثنّ إخوتك فيما يستقبل ﴿ **بأمْرِهِمْ هذا** ﴾ بما فعلوا لك ﴿ **وهُمْ لا يشْعُرونَ** ﴾ بأنك يوسف لعلو شأنك وكبرياءِ سلطانك ، وبعد حالك عن أوهامهم ﴿ **وَجَاؤا أباهُمْ عِشاءً** ﴾ أي في آخر النهار فإن العشاء آخر النهار إلى نصف الليل ، وإنما جاؤا عشاءً ليقدموا على المبالغة في الاعتذار ﴿ **يَبْكونَ** ﴾ أي متباكين روي أن امرأة خاصمت زوجها إلى شريح فبكت ، فقال له الشعبي : يا أبا أمية أظنها مظلومة أما تراها تبكي ؟ فقال شريح : قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة ، ولا ينبغي أن يقضي القاضي إلا بما أُمر به من السنة المرضية ﴿ **قَالُوا يا أَبَانَا إنّا ذهَبنا نَسْتَبِقُ** ﴾ متسابقين في العدو ﴿ **وَتركْنا يُوسُفَ عنْدَ متاعِنا** ﴾ أي ما نتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما ﴿ **فأكلهُ الذئْبُ** ﴾ عقيب ذلك ﴿ **وما أنت بمُؤمِنٍ لنا** ﴾ بمصّدقٍ لنا في مقالتنا ﴿ **ولو كُنّا صادِقِينَ** ﴾ موصوفين بالصدق والثقة ، لفرط محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيِّء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ؟ ﴿ **وَجاؤا على قَميصِهِ بدَمٍ** ﴾ أي جاؤا فوق قميصه بدمٍ ﴿ **كَذِبٍ** ﴾ مصدر وصف به الدم مبالغة ، كأنّ مجيئهم به من الكذب نفسه ، كما يقال للكذاب : هو الكذب بعينه والزور بذاته ، روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها ، وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف ، صاح بأعلى صوته فقال : أين القميص ؟ فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص ، قال تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا ، أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه ؟ ﴿ **قَالَ بل سوَّلتْ لكُمْ أنفسُكُمْ** ﴾ أي زيَّنت وسهَّلت ﴿ **أمْراً** ﴾ منكراً لا يوصف ولا يعرف ، فصنعتموه بيوسف ، استدل يعقوب على أنهم فعلوا بيوسف ما أرادوا ، وأنهم كاذبون بشيئين : بما عرف من حسدهم الشديد ، وبسلامة القميص حيث لم يكن فيه خرق ولا أثر ناب ، فقوله « بل سَوَّلتْ » ردٌّ لقولهم أكله الذئب ﴿ **فصبرٌ جميلٌ** ﴾ أي فأمري صبرٌ جميل ، وهو الذي لا شكوى فيه إلى الخلق ، واعلم أن الصبر إذا لم يكن فيه شكوى إلى الخلق يكون جميلاً ، وإذا كان فيه شكوى إلى الخالق يكون أجمل ، لما فيه من رعاية حق العبودية فلا يرى التأثير إلا من الله تعالى في كل باب ، مع أن التغافل من أخلاق الكرام ، والعفو والصفح وقبول العذر من ديدن الأخيار .

إقْبَلْ معاذيرَ من يأتيكَ مُعْتذراً * إن برَّ عندَكَ فيما قَالَ أو فَجَرا

﴿ **والله المستعانُ** ﴾ أي المطلوب منه العون ﴿ **على ما تَصِفونَ** ﴾ من شأن يوسف وبيان كونه كذباً قال البيضاوي : هذه الجريمة كانت قبل استنبائهم إن صح انتهى ، قوله إن صحَّ يدل على الشك في صحة استنبائهم ، وأصاب في ذلك لأن الأنبياء محفوظون قبل نبوتهم كما أنهم معصومون بعدها من الأمور

الموجبة للنفرة ، الغير اللائقة بشأنهم .

وأما قوله تعالى (**ويُتمُّ نِعْمَتَهُ عليك وعلى آل يعقوب**) فلا يدل على نبوة غيره من الإخوان الموجودين ، إذ يكفي في إتمام النعمة على آل يعقوب أن لا تنقطع سلسلة النبوة من أعقابهم ، كما قال تعالى في كلمة التوحيد « وَجَعَلَها كلمةً باقيةً في عَقِبِهِ » فإنه لا ينافي وجود الشرك من بعض الأحفاد كما لا يخفى ﴿ **وجَاءتْ سيّارَةٌ** ﴾ جماعة يسيرون من جهة مدين إلى مصر ، فنزلوا قريباً من جب يوسف وكان ذلك بعد ثلاثة أيام من إلقائه فيه ﴿ **فأرْسَلوا** ﴾ أي إلى الجب ﴿ **وَارِدَهُمْ** ﴾ أي الذي يرد الماء ليستقي لهم ﴿ **فأدْلى دَلْوَهُ** ﴾ أي أرسلها إلى الجب ليملأها ، فأُوحي إلى يوسف بالتعلق بالحبل فلما خرج يوسف إذا هو بغلام أحسن ما يكون ، وقد كان أعطي شطر الحسن ، فلما رآه ﴿ **قالَ** ﴾ مبشراً نفسه وأصحابه ﴿ **يا بُشْرىٰ هذا غلامٌ** ﴾ حيث فاز بنعمة نادرة ﴿ **وأسَرُّوهُ** ﴾ أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة ، لئلا يطالبوا بالشركة فيه ﴿ **بضاعةً** ﴾ أي متاعاً للتجارة ﴿ **واللهُ عليمٌ بما يَعْمَلُونَ** ﴾ لم يخف عليه إسرارهم ﴿ **وشرَوْهُ** ﴾ أي باعوه وهو من الأضداد ، والضمير للوارد وأصحابه ، جعلوه عرضة للابتذال بالبيع والشراء ، لأنهم لم يعرفوا حاله ، إما لأن الله تعالى أغفلهم عن السؤال ، ليقضي أمراً كان مفعولاً ، أو لأنهم سألوا عن حاله ولم يفهموا لغته لكونها عبرية ﴿ **بثمنٍ بخسٍ** ﴾ زيف ناقص العيار وهو بمعنى المبخوس ، إما لردائه وغشه ، أو لنقصان وزنه ﴿ **دراهمَ** ﴾ أي لا دنانير ﴿ **معْدودةٍ** ﴾ أي غير موزونة ، فهو بيان لقلته ونقصانه ، عن ابن عباس أنها كانت عشرين درهما ، وعن السدي اثنين وعشرين درهماً ﴿ **وَكَانُوا** ﴾ أي البائعون ﴿ **فيهِ** ﴾ في يوسف ﴿ **مِنَ الزاهِدينَ** ﴾ الزهد والزهادة : قلة الرغبة في الشيء ، أي من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم ، فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس ، وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه ، فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ﴿ **وَقال الَّذِي اشْتَرٰيه مِنْ مِصرَ** ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، وصاحب جنود الملك واسمه « قطفير » وكان يقال له العزيز وكان سن يوسف إذ ذاك سبع عشرة سنة ، وأقام في منزل العزيز مع ما مر عليه من مدة لبثه في السجن ثلاث عشرة سنة ، واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين ، وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة ، وهو أول من عمل القراطيس ﴿ **لامْرأتِهِ** ﴾ أي قال لامرأته « راعيل » قاله ابن عباس، ولقبها زليخا ﴿ **أكرمي مثْوٰيه** ﴾ اجعلي محل إقامته كريماً حسناً مرضياً ، والمعنى أحسني تعهده في المطعم والمشرب وغيرهما ، فهو كناية عن إكرام نفسه وإحسان تعهده ، كما يقال : « المقامُ العالي » ويكنى به عن السلطان ﴿ **عسىٰ أنْ ينْفَعَنا** ﴾ فيما نحتاج إليه ويكفينا بعض المهمات ﴿ **أو نتّخذَهُ ولَداً** ﴾ أي

نتبناه ونقيمه مقام الولد ، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك ، ولذلك قيل : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر ، وابنة شعيب التي قالت (**يا أبتِ استأجِرْهُ**) وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنه ، إذْ تفرس في عمر وولاَّه من بعده ﴿ **وكذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ في الأرض** ﴾ أي جعلنا له فيها مكاناً ، والمراد أرض مصر أي مثل ذلك التمكين البديع مكنا ليوسف في الأرض ، وجعلناه محبوباً في قلب العزيز ، ومكرَّماً في منزله ليترتب عليه ما ترتب بما جرى بينه وبين امرأة العزيز ﴿ **وَلِنُعَلِّمَهُ منْ تأويلِ الأحاديثِ** ﴾ أي نوفقه لتعبير بعض المنامات وغير ذلك من العلوم ﴿ **والله غالبٌ علىٰ أمْرِهِ** ﴾ لا يرده شيء ولا ينازعه أحد ، بل إنما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون ﴿ **ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعْلمونَ** ﴾ أن الأمر كذلك ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ** ﴾ يوسف ﴿ **أشُدّهُ** ﴾ أي قوته ومنتهى اشتداد جسمه ، واستحكام عقله وتمييزه ، وهو سن كمال الرشد ما بين الثلاثين إلى الأربعين ﴿ **آتيناه حُكماً** ﴾ كمالاً في العلم والعمل ، استعدَّ به للحكم بين الناس بالحق ورياستهم ، قال الحسن : كان نبياً من الوقت الذي ألقى فيه في غيابة الجب ، لقوله تعالى ﴿ **ولما بلغَ أشُدّه آتيناهُ** ﴾ ولذا لم يقل ههنا « ولما بلغ أَشُدَّهُ واستوى » كما قال في قصة موسى ، لأن موسى أوحي إليه عند منتهى الأشد والاستواء وهو أربعون سنة ، وأوحي إلى يوسف عند أوله وهو ثمان عشرة سنة ﴿ **وَعِلماً** ﴾ المراد من الحكم الحكمة العملية ، ومن العلم الحكمة النظرية ، لأنه صبر على المكاره والبلاء والمحن ، ففتح الله له أبواب المكاشافات ﴿ **وَكذلكَ** ﴾ أي مثل الجزاء العجيب الذي جزينا يوسف ﴿ **نجْزي المحْسنينَ** ﴾ كل من يحسن في عمله ، وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له ، وتنبيه على أنه سبحانه إنما آتاه الحكم والعلم ، لكونه محسناً في أعماله ، مُتَّقياً في عنفوان شبابه (**والله يُحِبُّ المحْسنين**) فمن أحبه الله نال سعادة الدارين ، وفي الحديث (إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، فينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض)[1] ﴿ **وراودتهُ التي هو في بيتها عن نفسه** ﴾ المراودةُ : المطالبة ، من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ، وجيء بصيغة المفاعلة وتعديتها بعن لتضمنها معنى المخادعة ، فالمعنى خادعت زليخا يوسف عن نفسه لتنال غرضها أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شيء لا يريد إخراجه عن يده ، وهو يحتال أن يأخذه منه بحيلة وتكلف ، ولإظهار كمال نزاهته فإن عدم ميله إليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها وامتناعه منها مع كونه تحت مملكتها ، ينادي بكونه في أعلى معارج العفة والنزاهة ﴿ **وغلَّقت الأبوابَ** ﴾ عليها وكانت سبعة

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، ورواه الشيخان بنحوه .

أبواب ، ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل الدالة على التكثير ﴿ **وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ** ﴾ اسم فعل معناه أقبلْ وبادر .

روي أن زليخا قالت يا يوسف : ما أحسن عينيك ؟ قال هما أول شيء يسيلان إلى الأرض من جسدي ، قالت ما أحسن وجهك ؟ قال هو للتراب يأكله ، قالت ما أحسن شعرك ؟ قال هو أول ما ينتثر من جسدي ، قالت إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتي ، قال إذاً يذهب نصيبي من الجنة ، قالت إن طرفي سكران من محبتك فارفع طرفك إلى حسني وجمالي ، قال صاحبك أحق بحسنك وجمالك مني ﴿ **قالَ معاذَ اللهِ** ﴾ هو من جملة المصادر التي ينصبها العرب أي أعوذ بالله معاذاً مما تَدْعِينني إليه من العصيان والخيانة ، ثم علَّل الامتناع بقوله ﴿ **إنّه** ﴾ أي الشأن الخطير هذا وهو ﴿ **ربّي** ﴾ أي سيدي العزيز الذي اشتراني ﴿ **أحسنَ مثْوايَ** ﴾ أي أحسن تعهدي ورعايتي حيث أمرك بإكرامي ، فما جزاؤه أن أسيء إليه بالخيانة في أهله ، وفيه إرشاد لها إلى رعاية حق العزيز بألطف وجه ﴿ **إنه لا يُفلحُ الظّالمونَ** ﴾ أي لا يدخل في دائرة الفلاح والظفر ، كل ظالم كائناً من كان ، وفي الآية دليل على أن معرفة الإحسان واجب ، لأن يوسف امتنع لأجل شيئين : لأجل المعصية والظلم ، ولأجل إحسان الزوج إليه ﴿ **ولقَد همّتْ بهِ** ﴾ الهمُّ : عقد القلب على فعل شيء وهو القصد ، والمراد همَّت بمخالطته ومجامعته إذِ الهمُّ لا يتعلق بالأعيان أي قصدتها وعزمت عليها عزما جازماً ، بعد ما باشرت مباديها ، وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى نفسها بقولها هيت لك ، ولعلها تصدت هنالك لأفعال أخر ، من بسط يدها إليه ، وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره إلى الهرب نحو الباب ﴿ **وهمَّ بِها** ﴾ بمخالطتها أي مال إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب ، ميلاً جبلّياً لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لا قصداً اختيارياً ، لأنه بريء من ارتكاب نفس الفاحشة ، وكذلك برىء من الهمِّ المحرم ، وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همّها في الذكر ، بطريق المشاكلة لا لشبهه به ، ولقد أشير إلى تباينهما بأنه لم يقل ولقد همَّا بالمخالطة ، أو همَّ كل منهما بالآخر ﴿ **لَوْلاَ أنْ رَأىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ أي حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى ، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين ، التي تتجلى هناك حقائق الأشياء بصورها الحقيقية على ما نطق به قوله عليه السلام (حُفَّتِ الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات)[1] وكأنه قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون . وجواب « لولا » محذوف يدل عليه الكلام أي لولا

(١) أخرجه مسلم والترمذي عن أنس بن مالك مرفوعاً ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٢١ .

مشاهدته برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميله الجبلي لعدم المانع الظاهر ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما جرى ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ خيانة السيد ﴿ والفَحْشَاءَ ﴾ والزنى لأنه مفرط في القبح ، وفيه آية بينة وحجة قاطعة ، على أنه لم يقع منه همٌّ بالمعصية ، ولا توجَّه إليها قط ، وإلا لقيل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، وإنما توجه إليه ذلك من خارج فصرفه تعالى عنه ﴿ إِنَّه مِنْ عِبادِنا المخلَصِينَ ﴾ الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم مما هو قادح فيها ، وفيه دليل على أن الشيطان لم يجد إلى إغوائه سبيلاً ، ألا يرى إلى قوله (**فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المُخْلَصين** ﴾ ؟ قال في بحر العلوم : واعلم أنه تعالى شهد ببراءته من الذنب ، ومدحه بأنه من المحسنين ، وأنه من عباده المخلصين ، فوجب على كل أحد أن لا يتوقف في نزاهته ، وطهارة ذيله وعفته ، وتثبيته في مواقع العثار ، قال الحسن : لم يقصَّ الله عليكم ما حكى من أخبار الأنبياء لتحزنوا لهم ، لكنْ لئلا تقنطوا من رحمته ، لأن الحجة للأنبياء ألزم ، فإذا قبلت توبتهم كان قبولها من غيرهم أسرع ، وعدم ذكر توبة يوسف دليل على عدم معصيته ، لأنه تعالى ما ذكر معصية عن الأنبياء وإن صغرت إلا وذكر توبتهم واستغفارهم منها ، كآدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وسليمان عليهم السلام ﴿ واستبقا البابَ ﴾ أي تسابقا إلى الباب الذي هو المخرج من الدار ، أما يوسف فللفرار منها ، وأما هي فلتصدَّه عن الخروج ﴿ وقدّت قميصَهُ من دُبُرٍ ﴾ أي اجتذبته من ورائه وخلفه فانشق طولاً نصفين ﴿ وألفَيا ﴾ وجدا وصادفا ﴿ سَيِّدها ﴾ زوجها وهو قطفير ﴿ لدىَ البابِ ﴾ أي عند الباب مقبلاً ليدخل ﴿ قالتْ ما جزاءُ منْ أرادَ بأَهْلِكَ سُوءاً ﴾ من الزنى ونحوه ، وما نافية أي ليس جزاؤه ﴿ إلاّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عذابٌ أليمٌ ﴾ إلا السجن أو العذاب الأليم مثل الضرب بالسوط ونحوه ، قالت زليخا : كنت نائمة في الفراش ، فجاء هذا الغلام العبراني وكشف عن ثيابي ، وروادني عن نفسي ، فالتفت العزيز إليه ، قال يا غلام : هذا جزائي منك ، حيث أحسنت إليك وأنت تخونني ؟ ﴿ قَالَ ﴾ دفعاً عن نفسه وتنزيهاً لعرضه ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ طالبتني للمواقعة ، لا أني أردت بها سوأ ﴿ وشَهِد شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها ﴾ أي ابن خالها الذي كان صبياً في المهد ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ، ليكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه ، واعلم أنه تكلم في المهد جماعة منهم شاهد يوسف هذا ، ومنهم عيسى عليه السلام ، ويأتي تكلُّمه في سورة مريم ، ومنهم الطفل لدى الأخدود ، ومنهم ابن ماشطة بنت فرعون ، ومنهم صاحب جريج الراهب ، وقصته أن جريجاً كان يتعبد في صومعة فقالت بَغِيَّةٌ من بني إسرائيل لأفتننَّه ، فعرضت له نفسها فلم يلتفت إليها ، فمكَّنت نفسها من راعي غنم كان يأوي بغنمه إلى أصل صومعته ، فولدت غلاماً وقالت إنه من جريج ، فضربوه وهدموا

صومعته فصلى جريج وانصرف إلى الغلام ووضع يده على رأسه فقال : بحق الذي خلقك أن تخبرني من أبوك ؟ فتكلم بإذن الله تعالى وقال إن أبي فلان الراعي ، فاعتذروا إلى جُرَيج وبنوا صومعته[1] ﴿ **إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ** ﴾ أي شُقَّ من قُدَّام ﴿ **فَصَدَقَتْ** ﴾ أي فقد صدقت زليخا في قولها ﴿ **وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ** ﴾ في قوله ، لأنه إذا طلبها دفعته عن نفسها فشقت قميصه من قدام ﴿ **وإن كانَ قميصُهُ قُدَّ دُبُرٍ** ﴾ من خلف ﴿ **فكذَبَتْ** ﴾ في قولها ﴿ **وهُوَ مِنَ الصَادِقِينَ** ﴾ لأنه يدل على أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدَّته ﴿ **فلما رأىَ** ﴾ العزيز ﴿ **قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ** ﴾ وعلم براءة يوسف وصدقه ﴿ **قَالَ إِنَّهُ** ﴾ أي الأمر الذي وقع فيه التشاجر ﴿ **منْ كَيْدِكُنَّ** ﴾ من جنس حيلتكن ومكركن أيتها النساء ، لا من غيركن فخجلت زليخا ، وتعميم الخطاب للتنبيه على أن ذلك خُلُق لهن عريق ﴿ **إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ فإنه ألصق وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً في النفس أي من كيد الرجال ، فعظم كيد النساء على هذا بالنسبة إلى كيد الرجال ، ولأن الشيطان يوسوس مسارقةً ، وهنَّ يواجهن به الرجال ، فالعظم بالنسبة إلى كيد الشيطان ، وعن بعض العلماء أنا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان فإنه تعالى يقول (**إن كيدَ الشَّيْطَانِ كانَ ضعيفاً**) وقال للنساء (**إن كيدَكُنَّ عَظِيمٌ**) .

﴿ **يُوسفُ** ﴾ أي قال العزيز يا يوسف ﴿ **أَعْرِضْ عَنْ هذا** ﴾ الأمر وعن التحديث به ، واكتمه حتى لا يشيع فيعيروني ﴿ **واستغفري** ﴾ أنت يا زليخا ﴿ **لِذَنْبِكِ** ﴾ الذي صدر عنك ﴿ **إِنكِ كُنْتِ** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **من الخاطئين** ﴾ من جملة القوم الذين تعمدوا للخطيئة والذنب ، يقال خطىء إذا أذنب عمداً ، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث وفي الحديث (كل بَنِي آدم خطاء ، وخيرُ الخطائين التوابون)[2] . وكان العزيز رجلاً حليماً فاكتفى بهذا القدر في مؤاخذتها ، وقيل : كان قليل الغيرة ، وروي أنه حلف أن لا يدخل عليها إلى أربعين يوماً ، وأخرج يوسف من عندها ، وشغله في خدمته ، وبقيت زليخا لا ترى يوسف ﴿ **وقالَ نِسْوَةٌ** ﴾ أي جماعة من النساء وكن خمساً امرأة الخباز ، وامرأة الساقي ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب ﴿ **في المدينةِ** ﴾ ظرف لقال أي أَشَعْن الأمر في مصر أو صفة للنسوة ﴿ **امرأةُ العزيزِ** ﴾ العزيز بلسان العرب : المَلِكُ ، والمراد به قطفير ، صرحن بإضافتها إلى العزيز مبالغة للتشنيع ، لأن النفوس أقبل إلى سماع أخبار ذوي الأخطار وما يجري لهم ﴿ **تُرَاوِدُ فتيها** ﴾ أي تطالب غلامها بمواقعته لها ، وتحتال في ذلك عليه وتخادعه ﴿ **عنْ نفسِهِ** ﴾ والفتى من الناس الشاب ﴿ **قدْ شَغَفَها حُبّاً** ﴾ أي شقَّ حبه شَغَاف قلبها حتى وصل إلى فؤادها ، والشَّغاف :

---

(١) الحديث ذكره الشيخ بالمعنى وهو جزء من حديث طويل أخرجه الشيخان .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه ، كذا في الفتح الكبير ٢ / ٣٢٣ .

حجابُ القلب ﴿ إنّا لنرٰيها ﴾ أي نعلمها علماً مضاهياً للمشاهدة ﴿ في ضلالٍ ﴾ في خطأ وبعد عن طريق الرشد والصواب ﴿ مُبينٍ ﴾ واضح لا يخفى كونه ضلالاً على أحد ﴿ فلما سَمِعتْ بمكْرِهِنّ ﴾ باغتيابهن وسوء قولهن ، وقولهن : امرأةُ العزيز عشقت عبدها الكنعاني ، وتسميته مكراً لكونه خفية منها كمكر الماكر ﴿ أَرْسَلتْ إليهِنّ ﴾ تدعوهن للضيافة إكراماً لهن ، ومكراً بهن ، ولتعذر في يوسف لعلمها أنهن إذا رأينه دهشن وافتتن به ، قيل : دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿ وأعتَدَتْ ﴾ أي أحضرت وهيأت ﴿ لَهُنّ متّكأً ﴾ أي ما يتكئن عليه من النارق والوسائد عند الطعام والشراب ، كعادة المترفهين ﴿ وآتتْ كُلّ واحدةٍ منْهُنّ ﴾ بعد الجلوس على المتكأ ﴿ سِكّيناً ﴾ لتستعمله في قطع ما يعهد فيما قدّم بين أيديهن من اللحوم والفواكه ونحوها ، وقصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن ، أن يدهشن ويبهتن عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن فيقطعنها ﴿ وَقالَتْ ﴾ ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وأعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها ﴿ اخرُجْ ﴾ يا يوسف ﴿ عَليْهِنّ ﴾ أي ابرز لهن ﴿ فَلمّا رأينَهُ ﴾ عطف على مقدر فخرج عليهن فرأينه ، فلما رأينه ﴿ أكْبرنَهُ ﴾ عظمنَّه ، وهبن حسنه الفائق ، وجماله الرائق ﴿ وَقطّعْنَ أيديَهُنّ ﴾ أي جرحنها بالسكاكين لفرط دهشتهن ، حتى لم يعلمن ما فعلن ، قال القاشاني : خرج يوسف بغتة على النسوة فقطعن أيديهن ، لما أصابهن من الحيرة لشهود جماله ، والغيبة عن أوصافهن ﴿ وَقُلْنَ حاش للهِ ﴾ أصله حاشا حذفت الألف الأخيرة تخفيفاً ، وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء ، تقول أساء القوم حاشا زيد ، فوضع موضع التنزيه والبراءة ، فمعناه تنزيه الله وبراءة الله ﴿ ما هذا بَشَراً ﴾ أي آدمياً مثلنا لأن هذا الجمال غير معهود للبشر ﴿ إنْ ﴾ نافية بمعنى ما ﴿ هذا إلاّ ملَكٌ كريمٌ ﴾ قصرنه على الملكية مع علمهن أنه بشر ، لأنه ثبت في النفوس أنه لا أكمل ولا أحسن خلقاً من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه في الحسن والقبح ، وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال ، قال بعضهم : إنّ من لطف الله بنا عدم رؤيتنا للملائكة على الصورة التي خلقوا عليها ، لأنهم خلقوا على أحسن صورة ، فلو كنا نراهم لطارت أعيننا وأرواحنا لحسن صورهم ، ولذا ابتدىء رسول الله بالرؤيا تأنيساً له ، إذِ القُوى البشرية لا تتحمل رؤية الملك فجأة ، وقد رأى جبريل في أوائل البعثة على صورته الأصلية فخرَّ مغشياً عليه ﴿ قالتْ فذلكُنّ ﴾ كنَّ للنسوة ، وذا ليوسف ، ولم تقل فهذا مع أنه حاضر رفعاً لمنزلته في الحسن ﴿ الذّي لُمْتُنَّني فيهِ ﴾ في شأنه فالآن علمتنَّ من هو ثم بعدما أقامت عليهنَّ الحجة ، وأوضحت لديهن عذرها ، وقد أصابهن من قِبَله ما أصابها ، باحت لهنَّ ببقية سرها ، لأن شأن العُشَّاق ، أن يُظْهر بعضهم لبعض ما في قلوبهم ، غير خائف لومة لائم ، ولا مبال بزجر

وسفاهة من جهل ﴿ **ولقدْ راودْتُهُ عنْ نفْسِهِ** ﴾ طلبت منه أن يمكّنني من نفسه ، حسبما قلتنَّ وسمعتنَّ ﴿ **فاسْتعْصَمَ** ﴾ أي طلب العصمة من الله ، مبالغاً في الامتناع ، لأن اللفظ يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، وفيه برهان نيِّر على أنه لم يصدر عنه شيء مخل باستعصامه من الهمِّ وغيره ﴿ **وَلَئِنْ لَمْ يفْعل ما آمرُهُ** ﴾ أي ما آمر به من موافقتي ﴿ **لَيُسْجَنَنَّ** ﴾ بالنون الثقيلة ﴿ **وَلَيكُوناً** ﴾ بالنون الخفيفة ، وإنما كتبت بالألف اتباعاً لخط المصحف ﴿ **من الصّاغِرينَ** ﴾ أي الأذلاء في السجن ﴿ **قالَ** ﴾ مناجياً لربه ﴿ **رَبّ السِجْنُ أحبُّ إليَّ ممّا يدْعونني إليهِ** ﴾ أي آثر عندي من موافقتها ، لأن للأول حسن العاقبة دون الثاني .

وإسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهنَّ نصحن له وخوَّفنه من مخالفتها قال بعض الحكماء : لو قال رب العافية أحب إليّ ، لعافاه الله ، ولكن لما نجا بدينه لم يبال ما أصابه في الله ، والبلاء موكَّلٌ بالمنطق ﴿ **وإلاّ** ﴾ وإن لم ﴿ **تَصْرِفْ عنّي كيدَهُنّ** ﴾ مكرهن ﴿ **أصْبُ إليهِنَّ** ﴾ أمل إلى جانبهن ، بحكم القوة الشهوية ، والصبوةُ : الميلُ إلى الهوى وهذا فَزَعٌ منه إلى ألطاف الله كقول المستغيث : أدركني وإلا هلكت ، لأنه يطلب العصمة والعفة ، وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن ﴿ **وَأكُنْ مِنَ الجاهِلينَ** ﴾ أي من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه ﴿ **فاسْتجابَ لَه ربّهُ** ﴾ دعاءه ﴿ **فَصرفَ عنهُ كيْدَهُنّ** ﴾ حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة ، حتى وطَّن نفسه على مقاساة السجن ومحنته ، واختارها على اللذة المتضمنة للمعصية ﴿ **إنّهُ هُو السّميعُ** ﴾ لدعاء المتضرعين إليه ﴿ **العَليمُ** ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم ، وعن الشيخ أبي بكر الدقاق قال : بقيت بمكة عشرين سنة وكنت أشتهي اللبن ، فغلبتني نفسي فخرجت إلى عسفان فاستضفت حياً من أحياء العرب ، فوقعت عيني على جارية حسناء ، أخذت بقلبي ، فقالت يا شيخ : لو كنت صادقاً لذهبتْ عنك شهوة اللبن ، فرجعت إلى مكة وطفت بالبيت ، فأريت في منامي يوسف الصديق عليه السلام ، فقلت له يا نبي الله : أقرَّ الله عينك بسلامتك من زليخا ، فقال يا مبارك : بل أقر الله عينك بسلامتك من العسفانية ، ثم تلا يوسف (**ولمنْ خافَ مقامَ ربهِ جَنّتانِ**) وأنشدوا .

وأنت إذا أرسلْت طَرْفَك رائداً * لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلَّه أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

﴿ **ثمّ بدا لَهُمْ** ﴾ أي ظهر للعزيز وأصحابه ﴿ **مِنْ بعْدِ ما رأوُا الآياتِ** ﴾ أي الشواهد على براءة يوسف ، كشهادة الصبي ، وقدِّ القميص وغيرهما ﴿ **ليسْجُنُنَّهُ** ﴾ أي قائلين والله ليسجننه ﴿ **حتّى**

﴿ حينٍ ﴾ أي إلى حين انقطاع مقال الناس ، وهذا عند العزيز وخواصه ، وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ، ويحسب الناس أنه المجرم ، فلبث في السجن خمس سنين أو سبع سنين ، وفي الآية محذوف والتقدير لما تغيَّر رأيهم في حقه ، ورأوا حبسه حبسوه ، وذلك أن زوج المرأة قد ظهر له براءة يوسف ، فلم يتعرض له ، واحتالت المرأة في طريق آخر ، فقالت لزوجها : هذا العبد العبراني فضحني في الناس .

كما قال « هي راودتني عن نفسي » وأنا لا أقدر على إظهار عذري ، فأرى أن الأصلح أن تحبسه لينقطع عن الناس ذكر هذا الحديث ، وكان العزيز مطيعاً لها ، وجملاً ذلولاً ، زمامُه في يدها ، فاغتر بقولها ونسي ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها وإلحاق الصَّغَار به ﴿ **ودخَلَ مَعَهُ السجنَ فَتيانِ** ﴾ أي أدخل يوسف السجن ، واتفق أن أدخل حينئذ آخران من عبيد الملك أحدهما ساقيه والآخر خبَّازُه ، حكي أنهما عزما أن يسمَّا الملك في طعامه وشرابه ، ثم إن الساقي نكل عن ذلك ، فلما حضر الطعام قال الساقي : لا تأكل أيها الملك فإن الخبز مسموم ، وقال الخباز : لا تشرب أيها الملك فإن الشراب مسموم فقال الملك للساقي : اشربه فشربه فلم يضره ، وقال للخباز : كُلْه فأبى فجربه بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أُدخِلاه معه ﴿ **قال أحدُهُما** ﴾ وهو السَّاقي ﴿ **إني أَرَانِي** ﴾ في المنام كأني في بستان فيه عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه وذلك قوله تعالى ﴿ **أَعْصِرُ خمراً** ﴾ أي عنباً سماه بما يؤول إليه ﴿ **وقالَ الآخَرُ** ﴾ وهو الخباز ﴿ **إني أَرَانِي** ﴾ كأني في مطبخ الملك ﴿ **أَحْمِلُ فوقَ رأسي خُبْزاً** ﴾ أي على رأسي ﴿ **تأكُلُ الطيرُ منْهُ** ﴾ يعني كأن فوق رأسي سلال فيها خبز وألوان الأطعمة ، وأرى سباع الطير يأكلن من السلة ﴿ **نبِّئنا بتأْويلِهِ** ﴾ أي أخبرنا بتفسير ما ذكر من الرؤيين ﴿ **إنّا نَرٰيكَ مِنَ المحْسِنينَ** ﴾ الذين يجيدون عبارة الرؤيا ، لَمَّا رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلاً حسناً ، ويقع الأمر على ما عبر به .

﴿ **قَالَ** ﴾ يوسف ، أراد أن يدعو الفتيين إلى التوحيد ، ويرشدهما إلى الإيمان ويزينه لهما ، قبل أن يسعفهما بذلك ، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد ، والشفقة على الخلق ، فقدَّم ما هو معجزة من الإخبار بالغيب ، ليدلهما على صدقه في الدعوة والتعبير ﴿ **لا يأْتيكُما طعامٌ تُرْزَقانِهِ** ﴾ تطعمانه في مقامكما هذا ﴿ **إلاّ نبأتُكُما بتأويلِهِ** ﴾ أي لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال ، إلا حال ما أخبركما به ، بأن أُبيِّن لكما ماهيَّته ، وكيفيته ، من اللون والطعم وسائر أحواله ﴿ **قبْلَ أنْ يأْتِيَكُما** ﴾ قبل أن يصل إليكما وكان يخبر بما غاب مثلَ عيسى عليه السلام ﴿ **ذلِكُما** ﴾ أي ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ **مِمّا عَلَّمني رَبي** ﴾ بالوحي والإلهام ، وليس من قبيل التكهن والتَّنجيم ، وذلك أنه لما نبأهما بما يُحمل إليهما من الطعام في السجن ، قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ، قالا هذا من فعل العرافين والكهان ، فقال ما

أنا بكاهن وإنما ذلك العلم مما علمني ربي ﴿ **إني** ﴾ أي لأني ﴿ **تركْتُ** ﴾ رفضت ﴿ **ملّة قَومٍ لا يؤمِنونَ باللهِ** ﴾ والمراد بتركها الامتناع عنها رأساً ، لا تركها بعد ملابستها ﴿ **وَهُمْ بالآخِرَةِ** ﴾ وما فيها من الجزاء ﴿ **هُمْ كَافِرونَ** ﴾ على الخصوص لإفراطهم في الكفر ﴿ **واتّبعْتُ ملّةَ آبائي إبْراهيمَ وإسْحقَ ويعْقوبَ** ﴾ عرَّف شرف نسبه وأنه من أهل بيت النبوة ، لتتقوى رغبتها في الاستماع منه والوثوق عليه ﴿ **ما كَانَ** ﴾ أي ما صح وما استقام فضلاً عن الوقوع ﴿ **لنَا** ﴾ معاشر الأنبياء ﴿ **أن نُشرِكَ باللهِ منْ شيءٍ** ﴾ أيَّ شيء كان من مَلَك أو جني أو أنسي ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ التوحيد ﴿ **منْ فضْلِ اللهِ عَلَيْنا** ﴾ بالوحي ﴿ **وَعَلى الناسِ** ﴾ كافة بواسطتنا وإرسالنا لإرشادهم ﴿ **ولَكِنّ أكثَرَ الناسِ** ﴾ المبعوث إليهم ﴿ **لا يشْكُرونَ** ﴾ هذا فيعرضون عنه ولا ينتهون ، ولما كان الأنبياء وسائط بين الله وخلقه ، لزم شكرهم تأكيداً للعبودية وقياماً بحق الحكمة ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ** ﴾ الإضافة بمعنى في أي يا صاحبيَّ في السجن ، لما ذكر ما هو عليه من الدين القويم تلطف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة الأصنام ، فناداهما باسم الصحبة في المكان الشاق الذي يخلص فيه المودة ويتمحض فيه النصيحة ﴿ **ءأرْبابٌ مُتَفرِّقونَ** ﴾ الاستفهام إنكاري ﴿ **خيْرٌ** ﴾ لكما ﴿ **أمِ اللهُ** ﴾ المعبود بالحق ﴿ **الواحدُ** ﴾ المنفرد بالألوهية ﴿ **القَهّارُ** ﴾ الغالب الذي لا يغالبه أحد ﴿ **ما تعْبُدونَ** ﴾ الخطاب لهما ولمن على دينهما ﴿ **منْ دونِهِ** ﴾ أي من دون الله شيأ ﴿ **إلا أسماءً** ﴾ مجردة لا مطابق لها في الخارج ﴿ **سَمّيتُموها** ﴾ جعلتموها أسماء ﴿ **أنتُم وآباؤكُمْ** ﴾ بمحض جهلكم وضلالتكم ﴿ **ما أنْزَلَ اللهُ بِها** ﴾ أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة ﴿ **منْ سُلْطانٍ** ﴾ من حجة تدل على صحتها ﴿ **إنِ الحُكْمُ** ﴾ في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية ﴿ **إلا للهِ** ﴾ لأنه المستحق لها بالذات ، الموجد للكل ، والمالك لأمره ﴿ **أمَرَ** ﴾ على ألسنة الأنبياء ﴿ **أنْ لا تعْبُدوا** ﴾ أي بأن لا تعبدوا ﴿ **إلاّ إيّاهُ** ﴾ الذي دلت عليه الحجج ﴿ **ذٰلكَ** ﴾ تخصيصه تعالى بالعبادة ﴿ **الدِّينُ القَيِّمُ** ﴾ أي الثابت أو المستقيم وهو دين الإسلام الذي لا عوج فيه ﴿ **ولكنّ أكثَرَ الناسِ لا يعْلَمونَ** ﴾ فيخبطون في جهالتهم ، واعلم أن ما سوى الله تعالى ظل زائل ، والعاقل لا يتبع الظلَّ ، بل يتبع من خلق الظل ، وهو الله تعالى ، واتباعه به هو تدينه بما أمر به ، ومن جملته قصر العبادة له بالاجتناب عن الشرك الجلي والخفي ، وهو الإخلاص التام الموصل إلى الله الملك العلاَّم ﴿ **يا صاحِبي السِجنِ** ﴾ الإضافة بمعنى « في » كما سبق ﴿ **أمّا أحدُكما** ﴾ وهو السَّاقي ولم يُعَيِّنه لدلالة التعبير عليه ﴿ **فيَسقِي رَبَّهُ** ﴾ سيده ﴿ **خَمْراً** ﴾ كما كان يسقيه قبل ، روي أنه قال له : أمَّا ما رأيت من الكرمة وحسنها ، فهو الملك وحسن حالك عنده ﴿ **وأما الآخَرُ** ﴾ وهو الخباز ﴿ **فيُصْلَبُ فتأكُلُ الطيرُ منْ رأْسِهِ** ﴾ أي قال له : بئس ما رأيت ، أما

خروجك من المطبخ فخروجك من عملك ، وأما السِّلال الثلاث فثلاثة أيام تمرُّ ، ثم يوجه الملك اليك عند انقضائهن فيصلبك ، فتأكل الطير من رأسك ﴿ **قُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ فُرغ منه وأُتمَّ وأُحكِم ، وهو ما رأياه من الرؤيين ﴿ **الذّي فيه تستفْتِيَانِ** ﴾ تطلبان فتواه وتأويله ، روي أنه لما عبر رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيأ ، فأخبر أن ذلك كائن صدقتما أو كذبتما ، ولعل الجحود من الخباز إذ لا داعي إلى جحود الساقي ، إلا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه ، فكان كما عبر يوسف حيث أخرج الملك صاحب الشراب ورده إلى مكانه ، وخلع عليه وأحسن إليه لما تبين عنده حاله في الأمانة ، وأخرج الخباز ونزع ثيابه وجلده بالسياط حتى مات ، لما ظهر عنده خيانته وصلبه على قارعة الطريق ، وأقبلت طيور سود فأكلت من رأسه وهو أول من استعمل الصلب ، ثم استعمله فرعون موسى كما حكى عنه من قوله (**وَلأصلبنكم في جذوع النخل**) وروي أن النبي ﷺ لما رجع من غزوة بدر إلى المدينة ومر بعرق الظبية وهي شجرة يستظل بها أمر فصلب « عُقْبة بن أبي مُعَيْط » من الأسارى وهو أول مصلوب من الكفار في الإسلام ، وكان يفتري على رسول الله في مكة وبَصَق مرة في وجهه ، والصلب أصعب أنواع أسباب الهلاك لانحباس النفس في البدن ، ويفعله الحاكم بحسب ما رأى في بعض المجرمين تشديداً للجزاء وليكون عبرة للناس ﴿ **وقالَ** ﴾ يوسف ﴿ **لِلَّذِي ظَنَّ أنهُ ناجٍ مِنْهُمَا** ﴾ أي وثق وعلم ، لأن الظن من الأضداد ، يكون شكاً ويقيناً ﴿ **اذْكُرني عنْد رَبّكَ** ﴾ أي سيدك وقل له في السجن غلام محبوس ظلماً طال حبسه ، لعلّه يرحمني ويخلصني من هذه الورطة ﴿ **فأنْسيهُ الشيّطانُ** ﴾ أي أنسى الشرابي بوسوسته وإلقائه في قلبه أشغالاً تعوقه عن الذكر ﴿ **ذكْرَ رَبّهِ** ﴾ أي ذكر الساقي له عليه السلام عند الملك ﴿ **فَلَبِثَ** ﴾ يوسف بسبب ذلك الإنساء ﴿ **في السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ** ﴾ أي سبع سنين قال في الفتح : لبث يوسف في السجن اثنتي عشرة سنة ، وفي بحر العلوم : والاستعانة بغير الله في كشف الشدائد ـ وإن كانت محمودة في الجملة ـ ولكنها لا تليق بمنصب الأنبياء ، الذين هم أفضل الخلق وأهل الترقي ، فهي تنزل من باب ترك الأولى والأفضل ، ولا شك أن الأنبياء يُعَاتبون على الصغائر معاتبة غيرهم على الكبائر ، وكان الواجب عليه أن يقتدي بجده إبراهيم ، في ترك الاستعانة بالغير ، كما روي أنه قال له جبريل حين رمي به في النار هل لك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، قال فسل ربك ، قال حسبي من سؤالي علمه بحالي ، وعن مالك بن دينار لما قال يوسف للشرابي : اذكرني عند ربك ، قال الله تعالى يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً ، لأطيلن حسبك ، فبكى يوسف وقال يارب : أقسى قلبي كثرة الأحزان والبلوى ، فقلت كلمة ولا أعود ، وعن الحسن : أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس ﴿ **وقالَ الملِكُ** ﴾ أي ملك مصر وهو الريان بن الوليد ﴿ **إنّي أرىٰ** ﴾ في المنام ﴿ **سبْعَ بقَراتٍ**

﴿ سِمانٍ ﴾ جمع سمينة نعت لبقرات ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ ﴾ أي سبع بقرات عجاف جمع عجفاء ، والقياس عُجُف ، لأن أفعل وفعلاء لا يجمع على فِعَال لكنه حمل على نقيضه وهو سمان ، والعجف الهزال والأعجف المهزول ، روي أنه لما قرب خروج يوسف من السجن ، جعل الله لذلك سبباً لا يخطر بالبال ، وذلك أن الملك كان يتخذ في كل سنة عيداً على شاطىء النيل ، ويحشر الناس إليه فيطعمهم أطيب الطعام ، ويسقيهم ألذ الشراب ، وهو جالس على سريره ينظر إليهم ، فرأى ليلة الجمعة في منامه سبع بقرات سمان ،. خرجن من نهر يابس أو من البحر وخرج عقيبهن سبع بقرات مهازيل في غاية الهزال ، فابتعلت العجاف السمان فدخلن في بطونهن ، فلم ير منهن شيء ﴿ وَسَبْعَ ﴾ أي وأرى سبع ﴿ سُنْبُلاتٍ ﴾ جمع سنبلة ﴿ خُضْرٍ ﴾ جمع خضراء نعت لسنبلات ﴿ وَأُخَرَ ﴾ أي سبعاً أُخَر ﴿ يابِساتٍ ﴾ قد أدركت الحصاد والتوت على الخضر حتى غلبن عليها ، فلما استيقظ من منامه اضطرب بسبب أنه شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي ، فشهدت فطرته بأن هذه الرؤيا صورة شر عظيم يقع في المملكة ، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه فاشتاق ورغب في تحصيل المعرفة بتعبير رؤياه ، فجمع أعيان مملكته من العلماء والحكماء فقال لهم ﴿ يا أَيُّها الملأُ ﴾ فهو خطاب للأشراف من العلماء والحكماء أو للسحرة والكهنة والمنجمين وغيرهم ﴿ أفتوني في رُؤْيايَ ﴾ هذه أي عبروها وبينوا حكمها وما يؤول إليه من العاقبة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ للرؤيا تَعْبُرُونَ ﴾ أي تعلمون تفسير جنس الرؤيا . واعلم أن الرؤيا تطلب التعبير ، لأن المعاني تظهر في الصور الحسية منزلة على المرتبة الخيالية ، وأما إبراهيم عليه السلام فقد جرى على ظاهر ما أُري في ذبح ابنه ، لأن شأن مثله أن يعمل بالعزيمة دون الرخصة ، ولو لم يفعل ذلك لما ظهر للناس تسلمُه وتسليمُ ابنه لأمر الحق تعالى .

حكي أن رجلاً من الصلحاء رأى في المنام كأنه لطم النبي عليه السلام ، فانتبه فزعاً وهاله ما رأى ، فأتى بعض الشيوخ فعرض عليه رؤياه فقال له الشيخ : قد أخللت بحكم من أحكامه ، وكون اللطم في الوجه يدل على أنك ارتكبت أمراً محرماً من الكبائر ، فافتكر الرجل في نفسه فلم يذكر أنه أقدم على محرم من الكبائر ، وكان من أهل الدين ، فرجع إلى بيته حزيناً ، فسألته زوجته عن سبب حزنه فأخبرها برؤياه وتعبير الشيخ ، فتعجبت الزوجة وأظهرت التوبة وقالت : أنا أصدقك ، كنتَ حلفت أني إن دخلت دار فلان أحد معارفك فإني طالق ، فعبرت على بابهم فحلفوا عليّ فاستحييتُ من إلحاحهم فدخلت إليهم ، وخشيت أن أذكر لك ما جرى فكتمت الحال ، فتاب الرجل واستغفر وتضرع إلى الحق ، وتابت المرأة ثم جدَّد العقد عليها ﴿ قَالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ﴾ تخاليطها أي أباطيلها وأكاذيبها ، من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، والأضغاثُ : جمع ضغث ، والضغث بالكسر قبضة حشيش مختلطة

الرطب باليابس ، وأضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها انتهى ، والأحلام : جمع حلُم بضم اللام وسكونها ، وهي الرؤيا الكاذبة لا حقيقة لها ، لقوله عليه السلام « الرؤيا من الله ، والحُلُمُ من الشيطان[1] » ﴿ **وما نحْنُ بتأويلِ الأحْلامِ** ﴾ أي المنامات الباطلة التي لا أصل لها ﴿ **بعالِمينَ** ﴾ لأنه لا تأويل لها وإنما التأويل للمنامات الصادقة ﴿ **وقالَ الَّذي نجا مِنْهُما** ﴾ أي من صاحبي يوسف وهو الساقي ﴿ **وادَّكر** ﴾ أصله اذتكر فقلبت التاء دالا والذال دالا وأدغمت ، والمعنى تذكر يوسف وما قاله ﴿ **بعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ أي مدة طويلة ﴿ **أنا أُنَبِّئُكُمْ بتأْويلِهِ** ﴾ أي أخبركم به ، خاطبه بلفظ الجماعة تعظيماً ﴿ **فأَرْسِلونِ** ﴾ فابعثون إلى السجن ، فإن فيه رجلاً حكيماً من آل يعقوب يقال له يوسف ، يعرف تعبير الرؤيا قد عبر لنا قبل ذلك ، فأرسلوه إلى يوسف ، فأتاه فاعتذر إليه وقال يا ﴿ **يُوسُفُ أَيُّها الصِدِّيقُ** ﴾ البليغ في الصدق وإنما وصفه بذلك ، لأنه جرَّب أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ﴿ **أفْتِنا في سبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يأكُلُهُنّ سبْعٌ عجافٌ وسبْعِ سنْبُلاتٍ خضْرٍ وأُخَرَ يابِساتٍ** ﴾ أي في رؤيا ذلك فإن الملك قد رأى هذه الرؤيا ﴿ **لَعلّي أَرْجعُ إلى الناسِ لَعلّهُمْ يَعْلَمُوْنَ** ﴾ تأويلها ﴿ **قالَ تزْرعُون سبْعَ سِنينَ دَأَباً** ﴾ مصدر دأب في العمل إذا جدّ فيه وتعب أي مستمرين على الزراعة على عادتكم بجد واجتهاد ، أخبرهم أنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ، ويبالغون فيها إذ بذلك يتحقق الخصب الذي هو مصداق البقرات السمان ﴿ **فما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ في سُنْبُلِهِ** ﴾ أي اتركوه فيه كيلا يأكله السوس ﴿ **إلاّ قليلاً ممّا تأْكُلُوْنَ** ﴾ في تلك السنين فأنتم تدرسون وقت حاجتكم إليه، وفيه إرشاد منه عليه السلام لهم إلى التقليل في الأكل ﴿ **ثمّ يأتي منْ بعد ذلكَ** ﴾ أي من بعد السنين المذكورات ﴿ **سبْعٌ شِدادٌ** ﴾ جمع شَديدة أي سبع سنين صعاب على الناس ، لأن الجوع أشد من الأسر والقتل ﴿ **يأكُلْنَ مَا قَدّمتُمْ لَهُنّ** ﴾ أي يأكل أهلهن ما ادخرتم من الحبوب المتروكة في سنابلها ﴿ **إلاّ قليلاً مِمَّا تُحْصِنونَ** ﴾ تحرزون وتدخرون للبذر ﴿ **ثمّ يأتي منْ بعدِ ذلكَ** ﴾ أي من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة ﴿ **عامٌ فيهِ يُغاثُ النّاسُ** ﴾ أي يمطرون فيكون بناؤه من ثلاثي وألفه مقلوبة من الياء ، يقال : غاثنا الله من الغيث وبابه باع ويجوز أن يكون من الغوث أي يُنقذون من الشدة فيكون بناؤه من رباعي تقول أغاثنا من الغوث فالألف مقلوبة من الواو ﴿ **وفيه يعْصِرونَ** ﴾ أي ما شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها ، أوّل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، وابتلاع العجاف للسمان بأكل ما جمع في السنين المخصبة في السنين المجدبة ، ﴿ **وقَالَ المَلِكُ** ﴾ أي ملك مصر وهو الريان ﴿ **ائتُوني بهِ** ﴾ أي بيوسف وذلك أن الساقي لما رجع بتعبير الواقعة من عند يوسف إلى الملك ، وفي حضرة الأشراف

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي بلفظ (الرؤيا الصالحة من الله ، والحُلم من الشيطان) الفتح الكبير ٢ / ١٣٩ .

أعجبه تعبيره ، وعلم أن له علماً وفضلاً ، فأراد أن يكرمه ويقرّبه ويستمع التعبير المذكور من فمه بالذات ، ولذا قال ائتوني به ، فعاد الساقي ﴿ **فلّما جَاءَهُ الرّسُولُ** ﴾ وهو الساقي ليخرجه أبى أن يخرج معه ﴿ **قالَ** ﴾ للرسول ﴿ **ارْجِعْ إلى رَبِّكَ** ﴾ أي سيدك ﴿ **فاسْألهُ** ﴾ ليسأل ويتفحص ﴿ **ما بالُ النسوةِ اللاتي قطّعْنَ أيدِيَهُنّ** ﴾ في مجلس زليخا كما سبق مفصلاً ، ولم يذكر سيدته تأدباً ومراعاة لحقها وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، قال العلماء : إنما أبى يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن إلا بعد أن يتفحص الملك عن حاله مع النسوة ، لتنكشف حقيقة الحال عنده ، لا سيما عند العزيز ، ويعلم أنه سجن ظلماً ، فلا يقدر الحاسد إلى تقبيح أمره ، وليظهر كمال عقله وصبره ووقاره ، فإن من بقي في السجن ثنتي عشرة سنة إذا طلبه الملك وأمر بإخراجه ولم يبادر إلى الخروج وصبر إلى أن تتبين براءته من الخيانة في حق العزيز وأهله ، دلّ ذلك على براءته من جميع أنواع التهم ، وعلى أن كل ما قيل فيه كان كذباً وبهتاناً وفيه دليل على أنه ينبغي أن يجتهد في نفي التهمة ويتقي مواضعها وفي الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم) وروي عن النبي علسه السلام أنه استحسن حزم يوسف وصبره فقال عليه السلام (لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث ، لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب ، وما ابتغيت العذر ، إنه كان حليماً ذا أناةٍ) قال الطيبيُّ : هذا من رسول الله ﷺ على سبيل التواضع، لا أنه كان مستعجلاً في الأمور غير متأنٍّ ، والتواضع لا يصغّر كبيراً ولا يضع رفيعاً ، بل يوجب لصاحبه فضلاً ، ويورثه جلالاً وقدراً ﴿ **إنّ ربّي** ﴾ أن الله ﴿ **بكيدِهِنّ** ﴾ بمكرهنّ واحتيالهنّ ﴿ **عليمٌ** ﴾ حين قلن لي أطعْ مولاتك ، وفيه استشهاد بعلم الله علي أنهن كدنه وأنه بريء من التهمة ، فلما حضرن ﴿ **قَالَ** ﴾ الملك لهن ﴿ **ما خطبُكُنّ** ﴾ أي ما شأنكنّ العظيم ﴿ **إذْ راودْتُنّ** ﴾ ظاهر الآية يدل على أنهن جميعا قد راودنه ، لا امرأة العزيز فقط ، والمراودة المطالبة بالفاحشة ﴿ **يُوسُفَ** ﴾ وخادعتُنّه ﴿ **عن نفْسِهِ** ﴾ هل وجدتنّ منه ميلاً إليكن ؟ ﴿ **قُلْنَ** ﴾ أي جماعة من النساء مجيبة للملك ﴿ **حَاشَ للهِ** ﴾ أصله حاشا بالألف فحذفت للتخفيف أي التنزيه لله فهو تنزيه له ، وتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ **ما عِلْمْنا عليه مِن سُوءٍ** ﴾ من ذنب وخيانة ﴿ **قَالتِ امرأةُ العزيزِ** ﴾ أي زليخا وكانت حاضرة في المجلس ﴿ **الآنَ** ﴾ أرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام ﴿ **حَصْحَصَ الحقُّ** ﴾ أي وضح وانكشف وتمكن في القلوب والنفوس ﴿ **أنا راودْتُهُ عن نفْسِهِ** ﴾ لا أنه راودني عن نفسي ﴿ **وإنهُ لمِنَ الصّادِقِينَ** ﴾ أي في قوله هي راودتني عن نفسي ﴿ **ذلِكَ** ﴾ من كلام يوسف أي طلب البراءة ﴿ **ليعْلَم** ﴾ أي العزيز ﴿ **أني لم أخُنْهُ** ﴾ في حرمه لأن المعصية خيانة ﴿ **بالغيْبِ** ﴾ بظهر الغيب أي لم أخنه وهو غائب عني خفيّ

عن عيني ﴿ **وأنّ اللهَ** ﴾ أي وليعلم أن الله ﴿ **لا يَهْدي كيْدَ الخائِنينَ** ﴾ أي لا ينفذه ولا يسدده ، بل يبطله ويزهقه ، وفيه تعريض بامرأة العزيز في خيانتها أمانته ، وبنفس العزيز في خيانة أمانة الله حين ساعدها على حبس يوسف ، بعد ما رأوا آيات نزاهته ، ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله أمره وأحسن عاقبته ﴿ **وما أُبرِّئُ نفْسِي** ﴾ من كلام يوسف عليه السلام أي لا أنزهها عن السوء ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، قاله تواضعاً لله تعالى وهضماً لنفسه الكريمة ، لا تزكية لها وعجباً بحاله ومن هذا القبيل قوله عليه السلام (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)[1] أو تحديثاً بنعمة الله تعالى عليه في توفيقه وعصمته أي لا أنزهها عن السوء من حيث هي ، ولا اسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها ﴿ **إنّ النّفْسَ** ﴾ اللام للجنس أي جميع النفوس التي من جملتها نفسي ﴿ **لأمّارَةٌ بالسُّوءِ** ﴾ تأمر بالقبائح والمعاصي لأنها أشد استلذاذاً بالباطل والشهوات ، وأميل إلى أنواع المنكرات ﴿ **إلاّ ما رَحِمَ ربيّ** ﴾ من النفوس التي يعصمها من الوقوع في المهالك ﴿ **إنّ ربيّ غَفورٌ** ﴾ عظيم المغفرة لما يعتري النفوس ﴿ **رحيمٌ** ﴾ مبالغ في الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك ﴿ **وقَال الملِكُ** ﴾ ملك مصر ﴿ **ائْتُوْنِي بِهِ أستَخْلِصْهُ** ﴾ اجعله خالصاً ﴿ **لِنفسي** ﴾ وخاصاً بي ، كان استدعاء الملك ليوسف أولاً بسبب علم الرؤيا ، فلذلك قال « أئتوني به » فقط ، فلما ظهرت أمانته وصبره وجودة نظره وتأنيه في عدم التسرع إليه عظمت منزلته عنده ، وطلبه ثانياً بقوله « ائتوني به أستخلصه لنفسي » ﴿ **فلما كلّمهُ** ﴾ أي فأتوا به فلما كلمه يوسف وشاهد منه ما شاهد من الرشد والدهاء ، وجودة الرأى ﴿ **قالَ** ﴾ له أيها الصدِّيق ﴿ **إنّكَ اليومَ لَدَيْنَا** ﴾ عندنا وبحضرتنا ﴿ **مَكينٌ** ﴾ ذو مكانة ومنزلة رفيعة ﴿ **أمينٌ** ﴾ مؤتمن على كل شيء ﴿ **قَالَ** ﴾ يوسف ﴿ **اجْعلْني على خَزائنِ الأرْضِ** ﴾ أي أرض مصر أي ولّني أمرها من الإيراد والصرف ﴿ **إني حَفيظٌ** ﴾ لها عمن لا يستحقها ﴿ **عَليمٌ** ﴾ بوجوه التصرف فيها ، وذلك لأنه علم في الرؤيا التي رآها الملك أن الناس يصيبهم القحط ، فخاف عليهم القحط والتلف ، فأحب أن تكون يداه على الخزانة ليعينهم وقت الحاجة ، شفقة على عباد الله ، وفي الآية دليل على جواز طلب الولاية ، إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة ، وفي الآية دلالة أيضاً على جواز التقلد من يد الكافر ، والسلطان الجائر ، إذا علم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الباطل إلا بالاستظهار به وتمكينه ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ، وحكى الشيخ العلامة ابن الشحنة ، أن « تيمور لنك » ذكروا عنه أنه كان يتعنت على العلماء في الأسئلة ، ويجعل ذلك

(١) هذاء جزء من حديث صحيح أخرجه الترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٨٢ .

سبباً لقتلهم وتعذيبهم ، فلما دخل حلب فتحها عنوة ، وقتل وأسر كثيراً من المسلمين ، وصعد نواب المملكة وسائر الخواص إلى القلعة ، وطلب علماءها وقضاتها فحضرنا إليه وأوقفنا ساعة بين يديه ، ثم أمرنا بالجلوس ، فقال لمقدم أهل العلم عنده قل لهم : إني سائلهم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التي افتتحتها ولم يفصحوا عن الجواب ، فلا تكونوا مثلهم ولا يجاوبني إلا أعلمكم وأفضلكم ، وليعرف ما يتكلم به ، فقال لي عبد الجبار : سلطاننا يقول : بالأمس قُتل منا ومنكم ، فمن الشهيد ؟ قتيلنا أم قتيلكم ؟ ففتح الله عليّ بجواب حسن بديع ، فقلت جاء أعرابي إلى النبي عليه السلام ؛ فقال : الرجل يقاتلُ للذِّكْرِ ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه فمن يكون في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، فمن قتل منا ومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد ، فقال تيور لنك « خوب ، خوب : وقال عبد الجبار : ما أحسن ما قلت ! وانفتح باب المؤانسة فتكررت الأسئلة والأجوبة ، وكان آخر ما سأل عنه ، ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد ؟ فقلت : لا شك أن الحق كان مع علي ، وليس معاوية من الخلفاء ، فقال : قل عليٌّ على الحق ، ومعاوية ظالم ، ويزيد فاسق قلت قال صاحبُ الهداية : يجوز تقلُّدُ القضاء من ولاة الجور ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين تقلَّدوا القضاء من معاوية ، وكان الحق مع علي في توليته ، فسر لذلك وأحسن إلينا وإلى من يتعلق بنا في البلدة ﴿ **وكذلِكَ مكّنا ليُوسُفَ** ﴾ أي جعلنا له مكاناً ﴿ **في الأرْضِ** ﴾ أي أرض مصر ، مكَّنه في الأرض : بوَّأه إياها ﴿ **يَتَبَوَّأُ مِنْها** ﴾ أي ينزل من بلادها ﴿ **حيثُ يَشاءُ** ﴾ ويتخذه مباءة ومنزلاً ، وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ، ودخولها تحت سلطانه ، فكأنها منزله يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة ، وأقام العدل في مصر ، وأحبته الرجال والنساء ، وأمر أهل كل قرية وبلدة بالاشتغال بالزرع ، فلم يدعوا مكاناً إلا زرعوه حتى بطون الأودية ، ورؤس الجبال مدة سبع سنين ، وهو يأمرهم أن يدعوه في سنبله ثم أقبلت السنون المجدبة فحبس الله عنهم القطر من السماء ، والنبات من الأرض وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير ، تقسيطا بين الناس وكان لم يشبع مدة القحط مخافة نسيان الجياع ﴿ **نُصيبُ بِرَحمتِنا من نَشاءُ** ﴾ كلٌّ من نريد له ذلك ، لا يمنعنا منه شيء ﴿ **ولا نُضيعُ أجْرَ المحْسِنينَ** ﴾ عملهم بل نوفيه بكماله في الدنيا والآخرة ، روي عن سفيان بن عيينة أنه قال : المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة ، والفاجر يُعجَّل له الخير في الدنيا ، وماله في الآخرة من خلاق وتلا هذه الآية ، والإحسان وإن كان يعم أموراً كثيرة ، ولكن حقيقته المشاهدة والعيان ، وكمال الإعراض عما سوى الله تعالى بحيث لا يكون في لسانه وقلبه وهمّه غير الله تعالى ، كما أشار إليها بعض العارفين بقوله :

خيـــالـــك في عيني وذكرك في فمي * وحبـــك في قلبي فـــأين تغيب ؟

﴿ **ولأَجْرُ الآخرةِ** ﴾ أي أجرهم في الآخرة ، وهو النعيم المقيم الذي لا نفاذ له ﴿ **خيْرٌ** ﴾ لأنه أفضل في نفسه وأعظم وأدوم ﴿ **للذّينَ آمنُوا وكانُوا يتّقونَ** ﴾ الكفر والفواحش ، وفي الآية إشارة إلى أن غير المؤمن المتقي ، لا نصيب له في الآخرة ، قال بعض العارفين : لو كانت الدنيا ذهباً فانياً ، والآخرة خزفاً باقياً ، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا ، فكيف والدنيا خذف فانٍ ، والآخرة ذهب باق ؟ وعن أبي هريرة قال قلنا يا رسول الله ممَّ خلقت الجنة ؟ قال (لَبِنةٌ من فضة ، ولبنة من ذهب ، وملاطها المسك الأذفر ، وترابها الزعفران ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، من يدخلها يَنْعم فلا يبأس ، ويخلُد فلا يموت ، ولا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه)[1] .

حكي أن إبراهيم بن أدهم أراد أن يدخل الحمَّام ، فمنعه الحمامي أن يدخله بدون الأجرة ، فبكى إبراهيم وقال : إذا لم يؤذن أن أدخل في بيت الشيطان مجاناً ؟ فكيف لي بالدخول في بيت النبيين والصديقين بلا زادٍ ولا عمل ؟ يريد كيف بدخول الجنة ، دار الأنبياء والصدِّيقين ؟ ﴿ **وجاءَ إخوةُ يُوسفَ** ﴾ لَمَّا أجدبت بلاد الشام ، وغلت أسعارها ، جمع يعقوب بنيه وقال لهم : يَابَنِيَّ أما ترون ما نحن فيه من القحط ؟ فقالوا يا أبانا وما حيلتنا ؟ قال اذهبوا إلى مصر واشتروا منها طعاماً من العزيز ، قالوا يا نبي الله كيف يطيب قلبك ، ترسلنا إلى فراعنة الأرض ؟ وأنت تعلم عداوتهم لنا ، ولا نأمن أن ينالنا منهم شر ؟ وكانت تسمى أرض مصر بأرض الجبابرة ، لزيادة الظلم والجور ، فقال لهم يا بَنِيَّ قد بلغني أنه ولي أهل مصر ملك عادل ، فاذهبوا إليه واقرئوه مني السلام فإنه يقضي حاجتكم ، ثم جهز أولاده العشرة وأرسلهم ، فذلك قوله تعالى ﴿ **وجاءَ إخوةُ يُوسُفَ** ﴾ أي ممتارين ﴿ **فدَخلُوا عليْهِ** ﴾ أي على يوسف وهو في زينة واحتشام ﴿ **فَعرفَهُمْ** ﴾ في بادىء الرأي ، لمفارقته إياهم وهم رجال ، وتشابه هيآتهم وزيهم في الحالين ، ﴿ **وهُمْ لهُ مُنْكِرونَ** ﴾ أي منكرون ليوسف لطول العهد ، قال ابن عباس : إنه كان بين أن قذفوه في البئر ، وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة ﴿ **وَلَمَّا جهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ** ﴾ أي أصلحهم بعدتهم من الزاد ، وما يحتاج إليه المسافر ، وأوقر ركائبهم أي أثقل بما جاؤا لأجله من الميرة ﴿ **قَالَ ائتُوني بأخٍ لكُمْ مِنْ أبيكُمْ** ﴾ روي أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية ، قال لهم : أخبروني من أنتم وما شأنكم ؟ فإني أنكركم ، قالوا : نحن قوم من أهل الشام ، أصابنا الجهد فجئنا نمتار ، فقال : لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي ؟ قالوا : معاذ الله نحن أخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صدِّيق نبي من

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند .

الأنبياء اسمه يعقوب ، قال كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، فهلك منا واحد ، قال فكم أنتم ههنا قالوا عشرة ؟ قال فأين الآخر ؟ قالوا عند أبيه ليتسلى به عن الهالك ، قال فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأن الذي تقولون حق قالوا إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا ، قال : فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم ، فاقترعوا بينهم فأصابت القرعة شمعون فخلّفوه عنده ﴿ **ألا تَرَوْنَ أنّي أوفي الكيْلَ** ﴾ أتمه لكم ﴿ **وَأَنَا خيرُ المنْزِلينَ** ﴾ في غاية الإحسان في إنزالكم وضيافتكم ؟ ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان ، بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به ﴿ **فإن لَمْ تأتُوني بهِ فلا كيْلَ لَكُمْ عنْدي** ﴾ أي في المستقبل ﴿ **ولا تقربونِ** ﴾ بدخول بلادي ، فضلاً عن الإحسان في الإنزال والضيافة ﴿ **قَالُوا سَنُرَاوِدُ عنْهُ أباهُ** ﴾ سنخادعه عنه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في ذلك ، وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة مناله ﴿ **وإنّا لفَاعِلونَ** ﴾ ذلك غير مفرطين ولا متوانين ﴿ **وقَالَ** ﴾ يوسف ﴿ **لِفتيانِهِ** ﴾ غلمانه الكيالين أي الموكلين على خدمة الكيل ، جمع فتى وهو المملوك شاباً كان أو شيخاً ﴿ **اجْعَلوا بضاعَتَهُمْ في رِحالِهِمْ** ﴾ دسوها في جواليقهم والرحل : الوعاء ، ويقال لمنزل الإنسان ومأواه : رحلٌ أيضاً ، وإنما فعله عليه السلام تفضلاً عليهم وخوفاً من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى ﴿ **لعَلّهُمْ يعْرِفونَها** ﴾ أي يعرفون حق ردها ﴿ **إذا انْقَلبُوا** ﴾ أي رجعوا ﴿ **إلى أهْلِهِمْ** ﴾ وفتحوا أوعيتهم ﴿ **لعلّهُمْ يرجعونَ** ﴾ لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا مرة أخرى بأخيهم بنيامين ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعي إلى الرجوع ﴿ **فلما رجَعُوا** ﴾ من مصر ﴿ **إلى أبيهِمْ** ﴾ في أرض كنعان ﴿ **قَالُوا** ﴾ قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع ﴿ **يا أبانا مُنِعَ منا الكيْلُ** ﴾ الطعام أي منع ذلك فيما بعد في المستقبل ﴿ **فأرسِلْ مَعنا أخانا** ﴾ بنيامين إلى مصر ﴿ **نَكْتلْ** ﴾ بسببه ما نشاء من الطعام ﴿ **وإنّا لَهُ لَحافِظونَ** ﴾ من أن يصيبه مكروه ، ضامنون برده ﴿ **قَالَ** ﴾ يعقوب ﴿ **هلْ آمنكُمْ عليهِ** ﴾ استفهام في معنى النفي ﴿ **إلاّ كما أَمِنْتُكُمْ على أخيهِ** ﴾ أي إلا أمناً كأمني إياكم على أخيه يوسف ﴿ **منْ قبْلُ** ﴾ وقد قلتم في حقه ما قلتم ، ثم فعلتم به ما فعلتم ، فلا أثق بكم ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله تعالى ﴿ **فاللهُ خيْرٌ** ﴾ مني ومنكم ﴿ **حافِظاً** ﴾ تمييز أو حال مثلُ : للهِ دَرُّه فارساً ﴿ **وهُوَ أرْحمُ الراحمينَ** ﴾ من أهل السموات والأرضين ، فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع عليّ مصيبتين قال كعب : لَمّا قال يعقوب فالله خير حافظاً ، قال الله تعالى : وعزتي لأردّن عليك كليهما ، بعد ما توكلت عليّ ، فينبغي أن يتوكل على الله ويعتمد على حفظه دون حفظ ما سواه ، فإن ما سواه محتاج في حفظه إلى الأسباب والآلات ، والله تعالى غني بالذات مستغن عن الوسائط في كل الأمور وفي جميع الحالات ﴿ **ولما فَتَحُوا متَاعَهُمْ** ﴾ الذي حملوه من مصر والمراد به هنا أوعية الطعام ﴿ **وَجَدُوا بضاعَتَهُمْ رُدّتْ إليهِمْ** ﴾ تفضلاً وقد علموا ذلك بدلالة

الحال ﴿ **قَالُوا** ﴾ لأبيهم بعد أن فتحوها بين يديه فرأوا بضاعتهم في رؤس أحمالهم ﴿ **يا أبانا ما نَبْغي** ﴾ ما استفهامية أيْ أيَّ شيء نطلب وراء هذا من الإحسان ؟ ﴿ **هذه بضاعَتُنا رُدَّتْ إلينا** ﴾ أي مردودة إلينا تفضلاً من حيث لا ندري ﴿ **ونَميرُ أهلنا** ﴾ أي نجلب إليهم الطعام من عند الملك ﴿ **ونحفَظُ أخانا** ﴾ من الجوع والعطش وسائر المكاره ﴿ **وَنَزْدَادُ كيْلَ بعيرٍ** ﴾ أي حمل بعير يكال لنا من أجل أخينا ، لأنه كان يعطى باسم كل رجل حمل بعير ﴿ **ذلكَ كيْلٌ يسيرٌ** ﴾ أي مكيل قليل لا يقوم بأودنا أي قوتنا ﴿ **قالَ** ﴾ أبوهم ﴿ **لنْ أُرسِلَهُ معَكُمْ** ﴾ بعد ما عاينت ﴿ **حتّى تؤتونِ مَوثِقاً منَ اللهِ** ﴾ أي عهداً موثوقا به أي معتمداً مؤكداً بالحلف ﴿ **لَتَأْتُنَّني بهِ** ﴾ جواب القسم إذ المعنى حتى تحلفوا بالله ، لتأتنني به في كل الأوقات ﴿ **إلاّ أن يُحاطَ بكُمْ** ﴾ إلا وقت الإحاطة بكم ، وهو كناية عن هلاكهم وموتهم جميعاً وفي الأمثال « البلاءُ موكَّلٌ بالمنْطِق » فإنَّ يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف (**وَأخافُ أن يأكُلَهُ الذئْبُ**) فابتلي من ناحية هذا القول حيث قالوا أكله الذئب ، وقال ههنا ﴿ **لَتَأْتُنَّني بهِ إلاّ أن يُحاطَ بِكُمْ** ﴾ فابتلي أيضا بذلك وأحيط بهم وغُلبوا عليه ﴿ **فلَمّا آتَوْه موثِقَهُمْ** ﴾ عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب ﴿ **قالَ اللهُ على ما نَقولُ وَكيلٌ** ﴾ أي علي ما قلنا مطَّلع رقيب ، يريد به عرض ثقته بالله وحثهم على مراعاة ميثاقهم ﴿ **وقالَ** ﴾ يعقوب ناصحاً لبنيه ﴿ **يا بَنِيَّ لا تَدْخُلوا** ﴾ مصر ﴿ **من بابٍ واحدٍ** ﴾ وكان لها أربعة أبواب ﴿ **وادْخُلوا من أبوابٍ متفرّقةٍ** ﴾ أي من طرق شتَّى وسكك مختلفة ، مخافة العين فإن العين حق أي كائن أثرها في المعين ، وصَّاهم بذلك لأنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ، فخاف عليهم إن دخلوا جماعة واحدة أن يُصابوا بالعين ﴿ **وما أُغني عنْكُمْ** ﴾ أي لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ وقضائه ﴿ **مِنْ** ﴾ من زائدة لتأكيد النفي ﴿ **شَيْءٍ** ﴾ أي شيأ فإن الحذر لا يمنع القدر ﴿ **إنِ الحُكْمُ** ﴾ أي ما الحكم مطلقاً ﴿ **إلاّ للهِ** ﴾ لا يشاركه أحد ولا يمانعه شيء ﴿ **عليهِ توكَّلتُ** ﴾ في كل ما آتي وأذر ﴿ **وعليْهِ** ﴾ دون غيره ﴿ **فليتوَكّلِ المتوكّلونَ** ﴾ فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدي بهم وفي الحديث (إن العين حقٌّ تدخل الرجل القبر والجمل القدر)[1] قال بعضهم : وجه إصابة العين إن الناظر إذا نظر إلى شيء واستحسنه ، ولم يرجع إلى الله وإلى رؤية صنعه ، قد يحدث الله في المنظور علة بجناية نظره ابتلاء من الله لعباده ، وروي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار ، فرأيته شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار فرأيته معافى فقال (إن جبريل عليه السلام أتاني فرقاني ، وقال : بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن كل عين حاسد الله يشفيك » هذا إذا كانت الرقى

(١) الحديث أخرجه ابن عدي في الكامل ، وأبو نعيم في الحلية ، وهو في الصحيحين بلفظ (العين حقٌّ) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٥٣ .

من القرآن أو الأذكار المعروفة فإنها جائزة ، أما الرقى التي لا يُعرف معناها فمكروهة أو حرام .

وكان عليه السلام يعوِّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول (أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامَّة ، ومن كل عين لامَّة ، فعوِّذوا بها أولادكم فإن إبراهيم كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق) رواه البخاري في صحيحه ﴿ **ولمّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أمَرهُمْ أبُوهُمْ** ﴾ من الأبواب المتفرقة أي دخلوا متفرقين ﴿ **ما كانَ يُغني عنْهُمْ** ﴾ رأي يعقوب ودخولهم متفرقين ﴿ **مِن اللهِ** ﴾ من جهته تعالى ﴿ **منْ شَيْءٍ** ﴾ أي شيأ مما قضاه عليهم ﴿ **إلاّ حاجةً في نفسِ يعْقوبَ قضيها** ﴾ بمعنى لكنْ والمعنى ، إنَّ رأي يعقوب في حق بنيه وهو أن يدخلوا من الأبواب المتفرقة ، واتباع بنيه له في ذلك الرأي ، ما كان يدفع عنهم شيأ مما قضاه الله عليهم ، ولكنْ يعقوب أظهر بذلك الرأي ما في نفسه من الشفقة ، والاحتراز من أن يصابوا بالعين ﴿ **وإنّه** ﴾ أي يعقوب ﴿ **لذو علْم** ﴾ جليل ﴿ **لِما علّمنَاهُ** ﴾ بالوحي ونصب الأدلة ولذلك قال ﴿ **وما أغني عنكم مِنَ اللهِ منْ شيءٍ** ﴾ لأن العين لو قدر أن تصيبهم ، أصابتهم وهم متفرقون ، كما تصيبهم وهم مجتمعون ﴿ **ولكنّ أكثرَ النـاسِ لا يعْلَمونَ** ﴾ أسرار القدر ويزعمون أنه يغني الحذر ﴿ **ولما دَخَلُوا على يُوسُفَ آوى إليهِ** ﴾ في الطعام ﴿ **أخَاهُ** ﴾ بنيامين وكذا في المنزل والمبيت ، وأنزل كلَّ اثنين منهم بيتاً ثم قال أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وتعرفَّ إليه وعند ذلك ﴿ **قالَ إنِّيَ أنا أخوك** ﴾ يوسف ﴿ **فلا تَبْتَئِسْ** ﴾ فلا تحزن ﴿ **بما كانُوا يعْملونَ** ﴾ بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير ، وأمره أن لا يخبرهم بل يخفي الحال عنهم ، وفيه تنبيه على أن إخفاء المرام وكتمه ، مما يستحب في بعض المكان ويعين على تحصيل المقاصد ولذلك ورد في الأثر (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) ﴿ **فلمَّا جَهَّزهُمْ بِجَهَازِهِمْ** ﴾ الجَهَاز : المتاع وهو كل ما ينتفع به ، أي كال كيلهم وأعطى كل واحد منهم حِمْلَ بعير بِعِدَّتهم ﴿ **جَعلَ السِّقايةَ** ﴾ إناء يشرب منه ، وجعلت صواعاً يكال به ، وكانت من فضة وقيل : كانت من ذهب مرصعة بالجواهر ، كال بها لإخوته إكراماً لهم ﴿ **في رَحْلِ أخيهِ** ﴾ بنيامين ولما انفصلوا نحو الشام ، أرسل يوسف من استوقفهم فوقفوا ﴿ **ثم أذّنَ مُؤذِّنٌ** ﴾ أي نادى مناد من فتيان يوسف ﴿ **أيّتُها العِيرُ** ﴾ وهي الإبل التي عليها الأحمال والمراد أصحاب الإبل ﴿ **إنّكُمْ لسَارِقونَ** ﴾ قال بعضهم هذا الخطاب بأمر يوسف ، وقيل : إن أصحاب يوسف لما طلبوا السقاية وما وجدوها ، غلب على ظنّهم أنهم هم الذين أخذوها ، فنادى المنادي من بينهم على حسب ظنه « إنَّكُمْ لَسَارِقُوْنَ » ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الإخوة ﴿ **وأقْبلُوا عليْهِمْ** ﴾ أي وقد أقبلوا على طالبي السقاية ﴿ **ماذا تفقِدونَ** ﴾ أي ما الذي ضاع منكم ؟ ﴿ **قَالُوا** ﴾ في جوابهم ﴿ **نفقِدُ صُوَاعَ**

﴿ المَلِكِ ﴾ وصيغة المضارع في كلا المحلين لاستحضار الصورة ، ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم ، وإراءة لاعتقاد أنه إنما بقى في رحلهم اتفاقاً ﴿ ولمنْ جَاء بهِ ﴾من عِند نفسه مظهراً له قبل التفتيش ﴿ حِمْلُ بعيرٍ ﴾ من البر ﴿ وأنا به زَعيمٌ ﴾ كفيل أؤدّيه إلى من جاء به ﴿ قَالُوا تاللهِ لقدْ عَلِمْتُم ما جِئْنا لنُفْسِدَ في الأرْضِ ﴾ قسم فيه معنى التعجب والمعنى : ما أعجب حالكم ؟ أنتم تعلمون علماً جلياً من ديانتنا أننا بريئون مما تنسبون إلينا ؟ فكيف تقولون لنا إنكم لسارقون ؟ وقوله لنفسد أي لنسرق فإنه من أعظم أنواع الفساد ﴿ وما كُنّا سَارقينَ ﴾ أي ما كنا نوصف بالسرقة قط ﴿ قَالُوا ﴾ أي أصحاب يوسف ﴿ فما جَزاؤهُ ﴾ أي فما جزاء سرقة الصواع عندكم وفي شريعتكم ؟ ﴿ إنْ كُنْتُمْ كَاذبينَ ﴾ في جحودكم كون الصواع فيكم ﴿ قَالُوا جَزاؤُهُ من وُجِدَ ﴾ أي أخْذُ من وُجد الصواع ﴿ في رَحْلِهِ ﴾ واسترقاقه ، وكان حكم السارق في شرع يعقوب أن يُسْتَرقَّ سنة بدل القطع في شريعتنا ﴿ فهو جَزاؤُهُ ﴾ تقرير لذلك الحكم أي فأخذه جزاؤه ﴿ كَذلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأدنى ﴿ نجزي الظّالمينَ ﴾ بالسرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم منها ، وهم عما فُعل بهم غافلون ﴿ فبَدأَ ﴾ يوسف بعد ما رجعوا إليه التفتيش ﴿ بأوْعِيتهِمْ ﴾ بأوعية الإخوة العشرة أي بتفتيشها ﴿ قبْلَ ﴾ تفتيش ﴿ وعاءِ أخيهِ ﴾ بنيامين لنفي التهمة ، روي أن أصحاب يوسف قالوا أنيخُوْا نفتش رحالكم فأناخوا واثقين ببراءتهم ، ففتشوا رحل الأخ الأكبر ثم الذي يليه إلى أن بلغت النوبة إلى رحل بنيامين فقال يوسف ما أظن أخذ هذا شيأ فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه وذلك قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا ﴾ أي الصواع ﴿ مِنْ وعاءِ أخيهِ ﴾ فلما وجد الصاع مدسوساً في رحل « بنيامين » واستخرج منه ، نكّسوا رؤسهم وانقطعت ألسنتهم ، فأخذوا يشتمونه بالعبرانية وقالوا له : يا لصٌ ، ما حملك على سرقة صاع الملك ؟ ولا يزال ينالنا منك بلاء كما لقينا من ابن راحيل ﴿ كذلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الكيد العجيب ﴿ كِدنا ليُوسُفَ ﴾ صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه ، والكيد في الأصل عبارة عن المكر والخديعة ، وهو أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه ﴿ ما كَانَ ﴾ يوسف ﴿ ليأْخُذَ أخَاهُ في دينِ الملِكِ ﴾ لم يكن ليأخذ أخاه بما فعل في دين ملك مصر في أمر السارق أي في حكمه وقضائه إلا به ، لأن جزاء السارق في دينه إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ ، دون الاسترقاق والاستعباد ، كما هو شريعة يعقوب ، فلم يكن يتمكن من أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه ﴿ إلا أنْ يشاءَ اللهُ ﴾ أي إلا حال مشيئته التي هي عبارة عن إرادته لذلك الكيد ، وإلاّ حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه ، قال في بحر العلوم : وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية كقوله لأيوب (وخُذْ بيدِكَ ضِغْثاً ﴾ ليتخلص من جلدها ولا يحنث وكقول إبراهيم « هي أختي » لتسلم من يد الكافر ، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع

في المفاسد ، وقد علم الله في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سُلَّما وذريعة إليها ، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح ﴿ **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ** ﴾ أي رتباً كثيرة عالية من العلم ﴿ **مَنْ نَشَاءُ** ﴾ أي نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ** ﴾ من الخلق ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ أرفع درجة منه في العلم ، يعني ليس من عالم إلا وفوقه أعلم منه ، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى ﴿ **قَالُوا** ﴾ افتضح الإخوة ونكسوا رؤسهم حياء فقالوا تبرئة لساحتهم ﴿ **إِنْ يَسْرِقْ** ﴾ بنيامين فلا عجب ﴿ **فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ** ﴾ يريدون به يوسف ، قيل : كان أخذ في صباه صناً كان لجده أبي أمه ، لأنه كان يعبد الأصنام فقالت راحيل لابنها يوسف : خذ الصنم واكسره : لعله يترك عبادة الصنم ، فأخذه يوسف وكسره وألقاه بين الجيف ﴿ **فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ** ﴾ أي أكنَّ الحزازة الحاصلة مما قالوا ، وقال في الكواشي : فأسرَّها أي كلمتهم إنه سرق ﴿ **فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ** ﴾ أي لم يُظْهرها لهم ، لا قولاً ولا فعلاً ، صفحاً عنهم وحلماً ﴿ **قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَكَاناً** ﴾ أي منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء قال المفسرون : هذه هي المقالة التي أسَّرها في نفسه وهي قوله « أنتم شرٌّ مكاناً » قالها في نفسه ولم يخاطبهم بها لئلا يخدش كرامتهم ، ولئلا يفتضح الأمر ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ** ﴾ أي عالم علماً بالغاً بأن الأمر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا ، بل إنما هو افتراء علينا ﴿ **قَالُوا** ﴾ مستعطفين ﴿ **يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً** ﴾ في السن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿ **فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ** ﴾ بدله على وجه الاسترهان أو الاسترقاق ، فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿ **إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ إلينا في الكيل والضيافة فأتم إحسانك بهذه النعمة ﴿ **قَالَ** ﴾ يوسف ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ** ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من ﴿ **أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ** ﴾ أي أن نأخذ غير من وجد الصواع في رحله لأن أخذنا له إنما هو بقضية فتواكم فليس لنا الإخلال بموجبها ﴿ **إِنَّا إِذاً** ﴾ أي إذا أخذنا غير من وجد متاعنا عنده ولو برضاه ﴿ **لَظَالِمُونَ** ﴾ في مذهبكم ومالنا ذلك ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ** ﴾ يئسوا غاية اليأس بدلالة صيغة الاستفعال ﴿ **خَلَصُوا** ﴾ اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم غيرهم ﴿ **نَجِيّاً** ﴾ متناجين في تدبير أمرهم على أي صفة يذهبون ؟ وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ؟ ﴿ **قَالَ كَبِيرُهُمْ** ﴾ في السن وهو روبيل ، أو في العقل وهو يهودا ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمُوا** ﴾ أي قد علمتم يقيناً ﴿ **أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ** ﴾ عهداً وثيقاً وهو حلفهم بالله وكونه من الله لإذنه فيه ﴿ **وَمِن قَبْلُ** ﴾ أي من قبل هذا ﴿ **مَا** ﴾ مزيدة ﴿ **فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ** ﴾ أي قصَّرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم « وإنا له لناصحون » وإنا له لحافظون ، فنحن متهمون بواقعة يوسف ، فليس لنا مخلص من هذه الورطة ﴿ **فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ** ﴾ أي لن أفارق أرض مصر ذاهباً منها ﴿ **حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي** ﴾ في العود إليه ﴿ **أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي** ﴾

بخلاص أخي بسبب من الأسباب ﴿ **وهو خيْرُ الحاكِمِينَ** ﴾ إذ لا يحكم إلا بالحق والعدل ﴿ **ارْجِعوا** ﴾ أنتم ﴿ **إلى أبيكم فَقُولوا ياأبانا إن ابْنكَ سَرَق** ﴾ على ظاهر الحال ﴿ **وما شَهِدْنا** ﴾ عليه بالسرقة ﴿ **إلا بمَا علِمنَا** ﴾ وشاهدنا أن الصواع استخرج من وعائه ﴿ **وما كنّا للغيْبِ** ﴾ أي باطن الحال ﴿ **حافِظِينَ** ﴾ فما ندري أحقيقة الأمر كما شاهدنا أم هي بخلافه ؟

﴿ **واسْأَلِ القَرية التي كُنّا فيها** ﴾ أي وقولوا لأبيكم أرسل إلى أهل مصر واسألهم عن كنه القصة ليتبيَّنَ له صدقنا ﴿ **وَالعيرَ التي أقبلْنا فيها** ﴾ العير : الإبل التي عليها الأحمال أي أصحاب العير التي توجهنا وكنا معهم ، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب ﴿ **وإنّا لصادِقونَ** ﴾ ثم رجع كبيرهم فدخل على يوسف ، فقال له : اتخذت أخي رهينة فخذني معه ، فجعله عند أخيه وأحسن إليهما ﴿ **قَالَ** ﴾ يعقوب عندما رجعوا إليه ، فقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿ **بلْ** ﴾ اضراب عما يتضمن كلامهم كأنه قيل : لم يكن الأمر كذلك بل ﴿ **سَوَّلَتْ لَكُمْ** ﴾ زينت وسهلت ﴿ **أنْفُسُكُمْ أمْراً** ﴾ من الأمور أردتموه ففعلتموه ، وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته ؟ لأن ذلك إنما هو من دين يعقوب لا من دين الملك ﴿ **فصبْرٌ جَميلٌ** ﴾ أي فأمري صبر جميل ، وهو أن لا يكون فيه شكوى إلى الخلق ، ويُحكى عن أبي الحسن قال خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام فبينا أن أطوف وإذا بإمرأة قد أضاء حسن وجهها فقلت : والله ما رأيت إلى اليوم قط نضارة وحسناً مثل هذه المرأة ، وماذاك إلا لقلة الهم والحزن فسمعتْ ذلك القول مني ، فقالت كيف قلت يا هذا الرجل ؟ والله إني لوثيقة بالأحزان مكلومة الفؤاد بالهموم والأشجان ، فقلت وكيف ذلك ؟ قالت : ذبح زوجي شاة ضحَّينا بها ، ولي ولدان صغيران يلعبان، وعلى يدي طفل يرضع ، فقمت لأصنع لهم طعاماً إذ قال ابني الكبير للصغير ألا أريك كيف صنع أبي بالشاة ؟ قال بلى فاضطجعه وذبحه ، وخرج هارباً نحو الجبل فأكله ذئب ، فانطلق أبوه في طلبه فأدركه العطش فمات ، فوضعت الطفل وخرجت إلى الباب أنظر ما فعل أبوهم ، فدبَّ الطفل إلى البرمة وهي على النار فألقى يده فيها وصبها على نفسه وهي تغلي فانتشر لحمه عن عظمه ، فبلغ ذلك ابنة لي كانت عند زوجها فرمت بنفسها إلى الأرض فوافقت أجلها ، فأفردني الدهر من بينهم ، فقلت لها : فكيف صبرك على هذه المصائب العظيمة ؟ فقالت : ما من أحد ميَّز الصبر والجزع ، إلا وجد بينها منهاجاً متفاوتاً ، فأما الصبر بحسن العلانية فمحمود العاقبة ، وأما الجزع فصاحبه غير معوض ثم أعرضت وهي تنشدني :

صبرت وكان الصبر خير مُعَـــوَّلٍ * وهل جزع يُجدي عليّ فأجزع
ملكت دموع العين حتى رددتهـــا * إلى ناظري فالعين في القلب تدمع

﴿ عسى اللهُ أن يأْتيَني بهِمْ جَميعاً ﴾ أي بيوسف وأخيه بنيامين والمتوقف بمصر ، فلما بلغ الغائبون ثلاثة أورد بصيغة الجمع ﴿ إنّهُ هُوَ العليمُ ﴾ بحالي في الحزن والأسف ﴿ الحَكيمُ ﴾ الذي لم يبتلني إلا لحكمة بالغة ، واعلم أن البلاء على ثلاثة أضرب : منها تعجيل عقوبة للعبد ، ومنها امتحان ليبرز ما في ضميره فيظهر لخلقه درجته أين هو من ربه ؟ ومنها كرامة ليزداد عنده قربة وكرامة ﴿ وتوَلّى عنْهُمْ ﴾ أعرض يعقوب عنهم كراهة لما سمع منهم ورأى ﴿ وقال يا أسَفى على يُوسُفَ ﴾ الأسف : أشدُّ الحزن والحسرة ، وأصله يا أسفي بإضافة الأسف إلى ياء المتكلم ، وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث لأخويه « بنيامين والمحتبس » لأن مصيبته في يوسف كانت قاعدة المصيبات، ولأنه كان واثقاً بحياتهما طامعاً في إيابهما ، وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه ، سوى رحمة الله وفضله ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ ﴾ أي فقد بصره وعمي ، من شدة حزنه على يوسف .

روي أنه ما جفَّت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف ، إلى حين لقائه أربعين سنة ، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب ، فإن قلت : لم ذهب بصر يعقوب بفراقه واشتياقه إلى يوسف ؟ قلت : لئلا يزيد حزنه النظر إلى أولاده ، ولسر شهود الجمال ، لما ورد في الخبر يرويه عن جبريل عن ربه قال (يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه ؟[1] - يعني عينيه - قال : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ؟ قال : جزاؤه الخلود في داري ، والنظر إلى وجهي) وفي الخبر « أول من ينظر إلى وجه الربِّ تعالى الأعمى » واستدل بالآية على جواز التأسف والبكاء عند النوائب ، فإن الكفَّ عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف ، فإنه قلَّ من يملك نفسه عند الشدائد ، قال أنس رضي الله عنه : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين ، وكان ظئراً لإبراهيم ولده عليه السلام ، فأخذ رسول الله إبراهيم فقبَّله وشمَّه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلتْ عينا رسول الله تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ قال (يا ابن عوف إنها رحمة ، ثم أتْبعها أخرى أي دمعة أخرى فقال : إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وأنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[2] * قال في الروضة : وإبراهيم مات في المدينة وهو ابن ثمانية عشر شهراً انتهى ، وإنما الذي لا يجوز ما يفعله الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم الخدود والصدور ، وشق الجيوب ، وتمزيق الثياب ، وعنه عليه السلام أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه ، فقيل يا رسول الله : تبكي وقد نهيتنا عن البكاء ؟ فقال (ما

---

(١) في الحديث القدسي الصحيح (من ابتليته بحبيبَتَيْهِ - يعني عينيه - فصبر عوضته الجنة) أخرجه البخاري والترمذي .

(٢) الحديث رواه البخاري ، وروى بعضه مسلم ، وله شواهد كثيرة في الصحيح .

نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح)[1] والعميان من الأنبياء « إسحاق ، ويعقوب ، وشعيب » ومن الصحابة « البراء بن عازب ، وجابر بن عبد الله ، وحسان ابن ثابت ، وسعد بن أبي وقاص ، والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الأرقم ، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمير ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وعتبان بن مالك ، وعتبة بن مسعود الهذلي ، وعثمان بن عامر ، وعقيل بن أبي طالب ، وعمرو بن أم مكتوم المؤذن ، وقتادة بن النعمان ﴿ **فهُوَ كَظِيمٌ** ﴾ مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه ﴿ **قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا** ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال وحذفت « لا » لعدم الالتباس ﴿ **تَذْكُرُ يُوسُفَ** ﴾ تفجعاً عليه ﴿ **حتّى تكونَ حَرَضاً** ﴾ مشرفاً على الهلاك ﴿ **أو تكونَ من الهالكينَ** ﴾ أي الميتين ﴿ **قَالَ إنّما أشكُو بثّي** ﴾ البث : الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس أي ينشره ، فكأنهم قالوا له ما قالوا بطريق التسلية والإشكاء ، فقال لهم إني لا أشكو ما بي إليكم أو إلى غيركم حتى تتصدوا للتسلي ، وإنما أشكو همي ﴿ **وَحُزْنِي إلى اللهِ** ﴾ أي ملتجئاً إلى جنابه تضرعاً لدى بابه في دفعه ، والحزن أعم من البث فيكون المعنى لا أذكر الحزن العظيم ، والحزن القليل إلا مع الله ، فإن قيل : لم قال يعقوب « **فصبرٌ جَميلٌ** » ثم قال « **يا أسَفا على يُوسُفَ** » وقال « إنما أشكو بثي وحُزني إلى الله » فكيف يكون الصبر مع الشكوى ؟ قيل ليس هذا إلا شكاية من النفس إلى خالقها وهو جائز ، ألا ترى أن أيوب عليه السلام قال (**ربّ إني مَسّنِيَ الضُرُّ وأنتَ أرْحَمُ الرّاحمين** ﴾ وقال تعالى مع شكواه إلى ربه في حقه (**إنّا وَجَدْنَاهُ صَابراً نِعْمَ العبْدُ** ﴾ لأنه شكا منه إليه ، وبكى منه عليه ، فهو المعذور لديه ، لأن حقيقة الصبر ومعناه الحقيقي : حبس النفس ومنعها عن الشكوى إلى الغير ، وترك الركون إلى الغير لصدوره من قضائه وقدره ، كما قيل بلسان أهل الوجدان :

كل شيء من المليح مليح * لَكِنِ الصَّبْرُ عنه غير مليح

وكما قيل أيضاً :

والصبر عنك فمذموم عواقبه * والصبر في سائر الأشياء محمود

وذلك لأن المحب لا يصبر عن حضرة المحبوب ، فلا يزال يعرض حاله وافتقاره إلى حضرته ، ولسان العشق لسان التضرع والحكاية ، لا لسان الجزع والشكاية ﴿ **وأعْلَمُ مِنَ اللهِ** ﴾ من لطفه ورحمته ﴿ **مالا تعْلَمونَ** ﴾ فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ، ولا يخيب رجائي ، أو أعلم من الله بنوع من الإلهام ، مالا تعلمون من حياة يوسف ، روي أن يوسف قال لجبريل : أيها الروح الأمين، هل لك علم بيعقوب ؟ قال

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الجنائز .

نعم وهب الله له الصبر الجميل ، وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم ، قال فما قدر حزنه ؟ قال حزن سبعين ثكلى ، قال فماله من الأجر ؟ قال أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنُّه بالله ساعة قط ، وقال السدي : لما أخبره أولاده بسيرة الملك ، أحست نفسه فطمع ، وقال : لعله يوسف فقال ﴿ **يا بنيَّ اذْهَبُوا** ﴾ إلى مصر ﴿ **فَتَحسَّسُوا من يُوسُفَ وأخيهِ** ﴾ أي تعرَّفوا من خبرهما بحواسكم ، فإن التحسس طلب الشيء بالحاسة والمراد بأخيه بنيامين ، ولم يذكر الثالث وهو الذي قال « فلن أبرح الأرض » واحتبس بمصر ، لأن غيبته اختيارية لا يعسر إزالتها ﴿ **ولا تيْأَسُوا منْ رَوْحِ اللهِ** ﴾ لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه ، واليأس والقنوط : انقطاع الرجاء ، وعن الأصمعي أن الروح ما يجد الإنسان من نسيم الهواء فيسكن إليه ، وتركيب الراء ، والواو ، والحاء يفيد الحركة والاهتزاز ، فكل ما يلتذ الإنسان ويهتز بوجوده فهو روح ، قال في الكواشي : أصله استراحة القلب من غمه ، والمعنى لا تقنطوا من راحة تأتيكم من الله ﴿ **إنّه لا يَيْأَسُ مِنْ روْحِ اللهِ إلا القوْمُ الكافِرونَ** ﴾ لعدم علمهم بالله وصفاته ، فإن العارف لا يقنط في حال من الأحوال أي في الضراء والسراء ويلاحظ قوله تعالى (**إنّ معَ العُسْرِ يُسْراً** ﴾ فصنع الله عجيب ، وفرج الله قريب ، والفاجر الراجي أقرب إلى الله من العابد القانط ، فعلى العاقل أن لا يقنط من رحمة ربه ، فإنه تعالى يكشف الشدائد في الدنيا والآخرة ، حكي أن رجلاً بقي في جزيرة بلا زاد ، فقال بطريق اليأس :

إذا شـــــابَ الغرابُ أتيت أهلي * وصـــار القَـــارُ كاللبن الحليب

فسمع قائلاً يقول :

عسى الكربُ الــذي أمسيت فيــه * يكـــــــون وراءه فرجٌ قريب

فلما نظر رأى سفينة تقترب منه ، فوصل بها إلى أهله ﴿ **فلمّا دَخَلُوا علَيهِ** ﴾ روي أن يعقوب أمر بعض أولاده فكتب « بسم الله الرحمن الرحيم ، من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله ، إلى عزيز مصر ، أما بعد فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدي إبراهيم فإنه ابتلي بنار النمرود فصبر ، وجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وأما أبي إسحاق فابتلي بالذبح فصبر ففداه الله بذبح عظيم ، وأما أنا فابتلاني الله بفقد ولدي يوسف ، فبكيت عليه حتى ذهب بصري ، ونحل جسمي ، وقد كنت أتسلى بهذا الغلام الذي أمسكته عندك ، وزعمت أنه سارق ، وإنا أهل بيت لا نسرق ولانلد سارقاً ، فإن رددته عليّ وإلاّ دعوت عليك والسلام ﴿ **قَالُوا يا أيُّها العَزيزُ** ﴾ أي الملك القادر الغالب ﴿ **مَسَّنَا** ﴾ أصابنا ﴿ **وأهْلَنَا** ﴾ وهم من خلفوهم ﴿ **الضُرُّ** ﴾ الفقر والحاجة ، وكثرة العيال ، وقلة الطعام ﴿ **وَجئنا ببضَاعةٍ مُزْجَاةٍ** ﴾ أي مردودةٍ مدفوعة ، يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها ،

وكانت بضاعتهم صوفاً وسمناً ، وقيل : هي الصنوبر والحبة الخضراء ﴿ **فأَوْفِ لَنا الكيْلَ** ﴾ فأتمَّ لنا الكيل الذي هو حقنا ﴿ **وتَصَدَّقْ عَلَيْنَا** ﴾ تفضل بالمسامحة وقبول المزجاة ، فإن التصدق التفضل مطلقاً ، واختص عرفاً بما ينبغي به ثواب الله ، ولذا لا يقال في العرف اللهم تصدق عليّ لأنه لا يطلب الثواب من العبد بل يقال أعطني أو تفضل عليّ وارحمني ﴿ **إنَّ اللهَ يَجْزي المُتَصَدِّقينَ** ﴾ يثيب المتفضلين أحسن الجزاء والثواب ، قال الضحاك : لم يقولوا إن الله يجزيك ، لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن ، ثم إن الصدقة لا تختص بالمال ، بل كل معروف صدقة ، ومنها العدالة بين الاثنين ، والإعانة ، والكلمة الطيبة ، والمشي إلى الصلاة ، وإماطة الأذى عن الطريق ونحوها ، وكذا النوافل لا تختص بالصلوات بل تعمُّ كل خير زائد ، وفي الحديث القدسي (لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره)[1] فعلى العاقل الاشتغال بنوافل الخيرات من الصدقات وغيرها ﴿ **قَالَ** ﴾ لما رأى يوسف تَمسْكُن إخوته رقَّ لهم ، فلم يتمالك أن عرَّفهم نفسه فقال ﴿ **هَلْ عَلِمتم ما فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وأَخيهِ** ﴾ أي هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه ؟ فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه ، وفعلهم بأخيه بنيامين إفراده عن يوسف ، وأذاه بأنواع الأذى ، وإذلاله حتى كان لا يقدر أن يكلمهم إلا بعجز وذلة ﴿ **إذْ أنتُمْ جَاهِلونَ** ﴾ جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف ، وإنما كان كلامه هذا شفقة عليهم ، وتنصحاً لهم في الدين ، وتحريضاً على التوبة ، لا معاتبة وتثريباً ، إيثاراً لحقّ الله على حق نفسه ، روي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب إليه (بسم الله الرحمن الرحيم إلى يعقوب إسرائيل الله ، من ملك مصر أما بعد : أيها الشيخ فقد بلغني كتابك وقرأته ، وأحطت به علماً ، وذكرتَ فيه آباءك الصالحين وذكرتَ أنهم كانوا أصحاب البلايا ، فإنهم إن ابتلوا وصبروا ظفروا ، فاصبر كما صبروا والسلام ، فلما قرأ يعقوب الكتاب قال : والله ما هذا كتاب الملوك ، ولكنه كتاب الأنبياء ، ولعلَّ صاحب الكتاب هو يوسف) ﴿ **قَالُوْا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوْسُفُ** ﴾ استفهام تقريري أي هل أنت يوسف حقاً ؟ ﴿ **قَالَ أنا يُوسُفُ وهذا أخي** ﴾ من أبي وأمي ، ذكره مبالغة في تعريف نفسه ، وتفخيماً لشأن أخيه ﴿ **قد مَنَّ اللهُ علينا** ﴾ قد أنعم الله علينا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرقة ، والأنس بعد الوحشة ﴿ **إنَّهُ** ﴾ أي الشأن ﴿ **مَنْ يتَّقِ** ﴾ أي يفعل التقوى في جميع أحواله ، ويقي نفسه عما يوجب سخط الله وعذابه ﴿ **ويَصْبِرْ** ﴾ على المحن كمفارقة الأوطان والأهل والعشائر ، والسجن ونحوها أو عن المعاصي التي تستلذها النفس ﴿ **فإنّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المحْسِنينَ** ﴾ أي أجرهم وإنما وضع المظهر موضع المضمر ، للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر ﴿ **قَالُوا تالله لقدْ آثرَكَ اللهُ علينا** ﴾ اختارك

---

(١) الحديث الشريف أصله في الصحيحين .

وفضَّلك علينا بالجمال والكمال ، والجاه والمال ﴿ وَإِنْ ﴾ أي وإن شأننا وحالنا ﴿ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ يقال : خَطِىء فعل الإثم عمداً ، وأخطأ فعله غير عَمد ، أي لمتعمدين للذَّنب ، إذ فعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أعزَّكَ الله وأذَّلنا ، وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك ﴿ قَالَ لا تثريبَ عليكُمُ اليومَ ﴾ سمي التقريع تثريباً تشبيهاً له بالتثريب في اشتمال كل منهما على معنى التمزيق ، فإن التقريع يمزّق العرض ويذهب ماء الوجه ثم ابتدأ فقال ﴿ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم ، روي أن رسول الله ﷺ أخذ عضادتي باب الكعبة يوم الفتح فقال لقريش : (ما ترونني فاعلاً بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم ، وابن اخ كريم فقال : أقول ما قال أخي يوسف « لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » ﴿ وهو أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ ﴾ لأن رحمة الراحمين أيضاً برحمته ، أو لأن رحمتهم جزء من مائة جزء من رحمته تعالى * قال في بحر العلوم : الذنب للمؤمن سببٌ للوصلة والقرب من الله ، فإنه سبب لتوبته وإقباله على الله ، حكي أنه اعتقل لسان فتى عن الشهادة حين أشرف على الموت ، فأخبروا النبي ﷺ فدخل عليه وعرض الشهادة فاضطرب ، ولم ينطق لسانه فقال عليه السلام : أما كان يصلي ؟ أما كان يزكي ؟ أما كان يصوم ؟ قالوا بلى قال : فهل عقَّ والديه ؟ قالوا نعم قال هاتوا بأمه ، فجاءت وهي عجوز عوراء فقيل لها : هلاَّ عفوت عنه ؟ أللنار حملتِهِ تسعة أشهر ؟ أللنار أرضعتِهِ سنتين ؟ فأين رحمة الأم ؟ فعفت عنه ، فعند ذلك انطلق لسانه بالكلمة » والنكتة أنها كانت رحيمة فللقليل من رحمتها ما جوَّزت إحراقه بالنار ، فكيف بأرحم الراحمين ؟ .

﴿ اذْهَبُوا ﴾ لَمَّا عرَّفهم يوسف نفسه وعرفوه ، سألهم عن أبيه فقال ما فعل أبي بعدي ؟ قالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه وقال اذهبوا ﴿ بِقَمِيصِي هَذا ﴾ وهو القميص المتوارث كما روي عن أنس ابن مالك أن نمرود الجبار لما ألقى إبراهيم في النار ، نزَّل الله جبريل بقميص من الجنة فألبسه القميص ، فكسا إبراهيم ذلك القميص إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، وكساه يعقوب يوسف وكان فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى أو سقيم إلاّ صحَّ وعُوفي ﴿ فَأَلْقُوهُ على وجْهِ أَبِي يأتِ بَصِيراً ﴾ يصير بصيراً ذاهباً بياض عينه ، وراجعاً إليها الضوء ﴿ وائْتُوْنِي ﴾ أي أنتم وأبي ففيه تغليب المخاطبين ﴿ بِأَهْلِكُمْ أَجْمعينَ ﴾ بنسائكم وذراريكم ومواليكم ، فإن الأهل يفسر بالأزواج والأولاد ، وبالعبيد والإماء ، وبالأقارب وبالأصحاب وبالمجموع ، روي أن « يهوذا » حمل القميص وقال : أنا أحزنته بحمل القميص الملطخ بالدم إليه ، فأفرحه كما أحزنته فحمله وهو حاف حاسر من مصر إلى كنعان ، ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتاه ، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً ﴿ ولما فَصلَتِ العيرُ ﴾ يقال فصل من البلد فصولاً إذا انفصل منه وجاوز حيطانه وعمرانه ﴿ قَالَ أَبوهُمْ ﴾ يعقوب لمن عنده من ولد ولده وغيرهم

﴿ إني لأجِدُ ريحَ يُوسُفَ ﴾ أجد ريح ما عبق أي لزق ولصق من ريح يوسف ، من ثمانين فرسخاً حين أقبل به يهودا ﴿ لولا أنْ تُفَنِّدونِ ﴾ أي تنسبوني إلى الفند ، وهو الخرف ونقصان العقل ، وجواب لولا محذوف تقديره لولا تفنيدكم لصدقتموني ﴿ قَالُوا ﴾ أي الحاضرون عنده ﴿ تالله إنكَ لفي ضَلالِكَ القديمِ ﴾ أي لا تزال في خطأك القديم ، لأنه عندهم قدمات[1] ﴿ فَلَمّا أنْ ﴾ أن صلة أي زائدة لتأكيد الفعلين واتصالهما حتى كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان من غير وقت ﴿ جَاءَ البَشيرُ ﴾ وهو يهودا ﴿ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿ فارْتَدَّ ﴾ أي عاد ورجع ﴿ بَصيراً ﴾ بعدما كان قد عمي ، ورجعت قوته وسروره بعد الضعف والحزن ﴿ قَالَ ألم أقُلْ لَكُمْ إني أعلَمُ مِنَ اللهِ مالا تعلَمونَ ﴾ أي ألم أقل لكم يا بني حين أرسلتكم إلى مصر ، وأمرتكم بالتجسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله ، إني أعلم من الله مالا تعلمون من حياة يوسف وإنزال الفرج ، روي أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو مَلِكُ مصر ، قال : ما أصنع بالملك ؟ على أيّ دينٍ تركته ؟ قال على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة ﴿ قالوا يا أبانا اسْتَغفِر لنا ذنُوبَنا إنّا كُنّا خَاطئِينَ ﴾ متعمدين للخطيئة والإثم ، مذنبين بما فعلنا بك وبيوسف وبنيامين ﴿ قالَ سوْفَ أسْتَغْفِر لكُمْ رَبي إنهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ ﴾ « سوف » و « عسى » و « لعلَّ » في وعد الأكابر والعظماء ، يدل على صدق الأمر وجِدِّه ، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وترك استعجالهم، فعلى ذلك جرى وعد يعقوب ، كأنه قال : إني أستغفر لكم لا محالة وإن تأخر ، وقيل : أخَّر ذلك لأن عفو المظلوم شرط للمغفرة ، فأخَّر الاستغفار إلى وقت الاجتماع بيوسف ، فلما قدموا عليه في مصر ، قام إلى الصلاة في السحر ليلة الجمعة ، وكانت ليلة عاشوراء ، فلما فرغ رفع يديه وقال : اللهم اغفر جزعي على يوسف ، وقلّة صبري عنه ، واغفر لأبنائي ما أتوا به أخاهم ، وقام يوسف خلفه يؤمّن ، وقام إخوته خلفهما أذلة خاشعين ، فأوحى الله إليه إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين ﴿ فلَمّا دَخَلُوْا عَلى يُوسُفَ ﴾ - روي - أن يوسف وجه إلى أبيه جهازاً كثيراً ومائتي راحلة ، وسأله أن يأتيه بأهله أجمعين ، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر فتوجه مع أولاده وأهاليهم إلى مصر على رواحلهم فلما قربوا من مصر أخبر بذلك يوسف فاستقبله يوسف والملك الريان في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتعانقا وبكيا سروراً ، وبكت ملائكة السموات ، وماج الفرسان بعضهم في بعض فقال يوسف : يا أبت بكيت عليّ حتى ذهب بصرك ، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ فقال : بلى ولكنْ خشيتُ أن يُسلب دينك ، فيحال بيني

(١) لم يريدوا بالضلال الذي يقابل الإيمان والهدى ، إذ لو قصدوه لكفروا ، ولكنهم أرادوا بالضلال الخطأ في الرأي والمعنى : إنا لنراك في خطأك ومعتقدك القديم .

وبينك ﴿ آوىٰ إليْهِ أبَوَيْهِ ﴾ الجمهور على أن المراد بأبويه أبوه وخالته ليًا ، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت في ولادة بنيامين ، والمعنى ضمها إلى نفسه فاعتنقها وكأنه عليه السلام حين استقبلهم نزَّلهم في خيمة أو بيت كان له هنالك ، فدخلوا عليه في ذلك البيت أو الخيمة وضمها إليه ﴿ وقَالَ ﴾ لهم قبل أن يدخلوا مصر ﴿ ادخُلوا مِصر إن شَاء اللهُ آمنينَ ﴾ من الجوع والخوف وسائر المكاره قاطبة ، لأنهم كانوا قبل ولاية يوسف يخافون ملوك مصر لكونهم جبابرة ﴿ ورَفَعَ أبَوَيْهِ ﴾ عند نزولهم بمصر وكانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة ، وكانوا حين خرجوا منها مع موسى عليه السلام ستمائة ألف وخمسمائة رجلاً سوى الذرية ﴿ على العَرْشِ ﴾ وهو السرير الرفيع الذي كان يجلس عليه يوسف أي أجلسها معه على سرير الملك ، تكرمة لهما ﴿ وَخَرّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ أي حال كونهم ساجدين تحية وتكرمة له ، فإنه كان السجود عندهم جارياً مجرى التحية والتكرمة ، كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها ، من عادات الناس الناشئة في التعظيم والتوقير ﴿ وقال يا أبَتِ هَذا تَأْويلُ رُؤْيَايَ ﴾ التي رأيتها وقصصتها عليك ﴿ من قبْلُ ﴾ في زمن الصبى يريد قوله (إني رأيتُ أحَدَ عَشرَ كوْكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي سَاجدينَ) ﴿ قد جَعلَها ربي حَقّاً ﴾ صدقاً في اليقظة واقعاً بعينها * قال بعضهم : وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة ، وإليها ينتهي الرؤيا فيكون القول بأن الاجتماع كان بعد ثمانين سنة مرجوحاً ﴿ وقد أحْسَنَ بي ﴾ أحسن بي صنعه ، والمشهور استعمال الإحسان بإلى ، وقد يُستعمل بالباء أيضا كما في قوله (وبالوالدينِ إحْساناً) ﴿ إذْ أخرجني من السجن ﴾ ولم يذكر الجب لئلا يستحيي إخوته ، ومن تمام الصفح والعفو أن لا يذكر ما تقدم من الذنب ، ولأنه كان في السجن مع الكفار وفي الجب مع جبريل ﴿ وَجاءَ بِكُمْ من البَدْوِ ﴾ البدو والبادية خلاف الحضر ، لكون الصحراء بادية على العين أي ظاهرة سميت بها وكانوا أصحاب المواشي ينتقلون في الماء والمرعى ﴿ مِنْ بَعْدِ أنْ نَزغَ الشيْطانُ بيني وبينَ إخْوتي ﴾ أي أفسد بيننا وحرَّش وأغرى ، ولقد بالغ في الإحسان حيث نسب ذلك إلى الشيطان ، والأدب أن يسند الشر إلى النفس والشيطان لأنها معدنه ومنشأه ، وإن كان الكل بخلق الله تعالى ﴿ إنّ ربّي لطيفٌ لّمَا يشاءُ ﴾ أي لطيف التدبير لأجله ، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ، وقال في الكواشي : ذو لطف بمن يشاء ، واللطفُ : الإحسان الخفي ، قال الإمام الغزالي رحمه الله إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها ، وما دقَّ منها وما لطف ، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف ، وإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك ، تمَّ معنى اللطف ، ولا يتصور كمال ذلك إلا لله تعالى ﴿ إنّهُ هُوَ العَلِيمُ ﴾ بليغ العلم بوجوه المصالح والتدابير ﴿ الحكيمُ ﴾ الذي يفعل كل شيء على وجه الحكمة ، روي أن يوسف أخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه ، فأدخله في خزائن الوَرِقِ والذهب وخزائن الحلي ، وخزائن الثياب ، وخزائن السلاحِ وغير ذلك ، فلما أدخله

خزائن القراطيس ، قال يا بني : ما أعقّك ؟ هذه القراطيس وما كتبت إليّ على ثماني مراحل ؟

قال السهيلي : كانت مساكن نبينا ﷺ مبنية من جريد النخل ، عليها طين ، وبعضها من حجارة مرصوصة ،وسقفها كلها من جريد ، فكان ﷺ زاهداً في الدنيا وفي نعيمها الفاني .

وعن الحسن البصري كنت وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبي عليه السلام في خلافة عثمان رضي الله عنه ، فأتناول سقفها بيدي ، وهدمها عمر بن عبد العزيز بعد موت أزواجه عليه السلام وأدخلها في المسجد ، قال بعضهم ما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم ، وليتها تركت ولم تهدم حتى يقصّر الناس عن البناء ، ويرضون بما رضي الله لنبيه عليه السلام ، ومفاتيح خزائن الأرض بيده عليه السلام ، فإن ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر في البنيان * وكتب بهلول على حائط من حيطان قصر عظيم ، بناه أخوه الخليفة هارون ، يا هارون رفعت الطين ووضعت الدين ، رفعت الجص ووضعت النص ، إن كان من مالك فقد أسرفت وإنّ الله لا يحب المسرفين ، وإن كان من مال غيرك فقد ظلمت ، وإن الله لا يحب الظالمين ﴿ **رَبِّ** ﴾ روي أن يعقوب أقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة ، وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحاق ، فنقله يوسف بنفسه في تابوت من ساج وكان عمره مائة وسبعاً وأربعين سنة كما في تفسير أبي الليث ، ثم عاد إلى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، وكان عمره مائة وعشرين سنة ، فلما جمع الله شمله وانتظمت أسبابه ، واطردت أحواله ، ورأى أمره على الكمال ، علم أنه أشرف على الزوال ، وأن نعيم الدنيا لا يدوم على كل حال ، فسأل الله الموت بحسن العاقبة ﴿ **قَدْ آتيتني مِنْ الْمُلْكِ** ﴾ أي أعطيتني بعضاً منه عظيماً وهو ملك مصر ، إذ لم يكن له ملك كل الدنيا ﴿ **وَعلّمتَني من تأويلِ الأحاديثِ** ﴾ المراد بالأحاديث الرُّؤَىٰ جمع الرؤيا ، وتأويلها بيان ما تؤول هي إليه في الخارج ، وعلم التعبير من العلوم الجليلة لكنه ليس من لوازم النبوة والولاية ، فقد يعطيه الله بعض خواصه على التفصيل ، وبعضهم على الإجمال ﴿ **فاطِرَ السّمواتِ والأَرْضِ** ﴾ أي خالقهما وموجدهما من العدم إلى الوجود ﴿ **أنتَ وليِّي** ﴾ القائم بأمري ﴿ **في الدُّنيا والآخرة** ﴾ واعلم أن من عرض له حاجة فأراد أن يدعو فعليه أن يقدم الثناء على الله تعالى ، ولذا قدم عليه السلام الثناء ثم قال داعياً ﴿ **تَوَفّني مُسْلِماً** ﴾ وهو طلب للوفاة على حال الإسلام لأنها تمام النعمة ونحوه (**ولا تموتُنّ إلاّ وأنتُمْ مسْلمونَ**) ويجوز أن يكون تمنياً للموت أي اقبضني إليك مخلصاً بتوحيدك ، قيل : ما تمنى الموتَ نبيٌّ قبله ولا بعده إلا هو ، وكما قيل : (الموت تحفة المؤمن) لأن الدنيا سجنه لا يزال منها في عناء ، بمقاساة نفسه ورياضتها في شهواتها ، ومدافعة شيطانه ، فالموت اطلاقه واستراحته كما قيل موت الأمراء فتنة ، وموت العلماء مصيبة ، وموت الأغنياء محنة ، وموت الفقراء راحة ، وفي الحديث (من أحب لقاء الله

أحبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قالوا يا رسول الله : كلنا نكره الموت قال : ليس ذلك بكراهة للموت ، ولكن المؤمن ، إذا احتضر ، جاء البشير من الله بما يرجع إليه فليس شيء أحبَّ إليه من لقاء الله ، فأحب الله لقاءه ، وإن الفاجر أو الكافر إذا احتضر ، جاءه النذير بما هو صائر إليه من الشر ، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه)[1] وإنما دعا يوسف بهذا الدعاء ، وهو التوفي مسلماً ليقتدي به قومه ومن بعده ممن ليس بآمنٍ على خاتمته ، فلا يترك الدعاء امتثالاً له ، لأن ظواهر الأنبياء عليهم السلام كانت لنظر الأمم إليهم ، ليعلموا موضع الشكر من موضع الاستغفار ﴿ **وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ** ﴾ أي بآبائي المرسلين في الجنة ، أو بعامة الصالحين في النعمة والكرامة ، وكان بين دخول يوسف مصر إلى يوم خروج موسى منها أربعمائة سنة ، وهو أي يوسف أول نبي من بني إسرائيل ، قال في بحر العلوم : ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده مصر ، ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه ، إلى أن بعث الله موسى فنجاهم من الفراعنة بعونه وتيسيره ، وعن عمر بن عبد العزيز أن ميمون بن مهران بات عنده ، فرآه كثير البكاء والمسألة للموت ، فقال : صنع الله على يديك خيراً كثيراً ، أحييت سنناً وأمتَّ بدعاً ، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين ، فقال أفلا أكون كالعبد الصالح ، لما أقرَّ الله عينه وجمع له أمره قال « توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » ؟

﴿ **ذلكَ** ﴾ المذكور من نبأ يوسف يا محمد ﴿ **مِنْ أنباءِ الغيْبِ** ﴾ من الأخبار التي غاب عنك علمها ﴿ **نُوحيهِ إليكَ** ﴾ على لسان جبريل ﴿ **وما كُنْتَ** ﴾ حاضراً ﴿ **لَدَيْهِمْ** ﴾ أي عند إخوة يوسف ﴿ **إذْ أَجْمَعُوا أمْرَهُمْ** ﴾ حين عزموا على إلقائه في غيابة الجب ﴿ **وهُمْ يمْكُرونَ** ﴾ به وبأبيه ليرسله معهم ، وإنما نفى الحضور تهكماً بالمنكرين للوحي ، لأنه كان معلوماً عند المكذبين أنه عليه السلام ما قرأ على أحد ، ولا سمع منه ، وليس من علم قومه ، فإذا أخبر به لم يبق شبهة في أنه من جهة الوحي لا من عنده روي أن كفار قريش وجماعة من اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصَّة يوسف على سبيل التعنت فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا فحزن النبي عليه السلام فعزاه الله بقوله ﴿ **وما أكثرُ الناسِ** ﴾ عام لأهل مكة وغيرهم ﴿ **ولو حَرصْتَ** ﴾ على إيمانهم وبالغتَ في إظهار الآيات لهم ﴿ **بمؤْمِنينَ** ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر ، وهذا في الحقيقة من أسرار القدر ، فإن قلت : لم كان الكفرة أكثر مع أن الله تعالى خلق الخلق للعبادة ؟ قلتُ : المقصود ظهور الإنسان الكامل ، وهو واحد كألفٍ ﴿ **وما تَسْأَلُهُمْ عليهِ** ﴾ أي على الإرشاد بالقرآن ﴿ **منْ أجْرٍ** ﴾ مال يعطونك كما يفعله حملة الأخبار ﴿ **إنْ هُوَ** ﴾ أي ما القرآن

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤٩ .

﴿ **إلا ذكرٌ** ﴾ عظة من الله وإنذار ﴿ **للعَالَمينَ** ﴾ عامة بعثاً لهم على طلب النجاة ، وفيه إشارة إلى أن الدعوة والإرشاد وسائر أفعال الخير ، لا يطلب فيها المنفعة من الناس ، فإنها لله تعالى ، وما كان لله لا يجوز أن يشوبه شيء من أعراض الدنيا والآخرة ﴿ **وَكَأيّنْ** ﴾ بمعنى كم الخبرية ﴿ **مِنْ آيةٍ** ﴾ أي كثير من الآيات الدالة على وجود الصانع ، وتوحيده وصفاته ﴿ **في السّمواتِ والأرْضِ** ﴾ كالشمس والقمر ، والنجوم والمطر ، والدواب والبحار والأنهار ﴿ **يَمُرُّونَ عَليْها** ﴾ أي يمرون على الآيات ويشاهدونها ﴿ **وهُمْ عنْها معْرِضُونَ** ﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ﴿ **وما يُؤْمِنُ أكثرُهُمْ بالله إلاّ وهُمْ مشْرِكونَ** ﴾ حيث يثبت له شريكاً في المعبودية تقول العرب في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، ويقول أهل مكة : الله ربنا وحده لا شريك له ، والملائكة بناته ، فلم يوحدوه بل أشركوا ، ويقول عبدة الأصنام : الله ربنا وحده والأصنام شركاؤه في استحقاق العبادة ، وقالت اليهود : ربنا الله وحده وعزير ابن الله ، وقالت النصارى : ربنا الله وحده والمسيح ابنه ﴿ **أفأمنوا** ﴾ يعني المشركون ﴿ **أنْ تأْتِيَهُمْ غَاشِيةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ** ﴾ عقوبة تغشاهم وتشملهم ﴿ **أو تأْتِيَهُمْ السّاعَةُ بغتْةً** ﴾ أي فجأة من غير سابقة علامة ﴿ **وهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ بإتيانها غير مستعدين لها ، وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم وفي الحديث (موت الفُجْأة أخذةُ أسيف)[1] بكسر السين أي غضبان ، يعني موت الفجأة أثر غضب الله على العبد ، والفُجَاءة بالمد مع الضم وبالقصر مع فتح الفاء ، هي البغتة دون تقدم مرض ولا سبب ، وإنما كره لئلا يلقى المؤمن ربه على غفلة ، من غير أن يقدم لنفسه عذراً ، ويجدّد توبة ، ويرد مظالمه ، وروي أن إبراهيم وداود وسليمان عليهم السلام ماتوا فجأة ، ويقال إنه موت الصالحين ، وحمل الجمهور الأول على من له تعلقات يحتاج إلى الإيصاء ، أما المنقطعون المستعدون فإنه تخفيف ورفق بهم كذا في الفتح القريب ﴿ **قُلْ هذه سَبيلي** ﴾ أي هذه السبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيلي أي طريقي ثم فسرها بقوله ﴿ **أدْعُو إلى اللهِ** ﴾ إلى دينه وطاعته وثوابه الموعود يوم البعث ﴿ **على بَصيرةٍ** ﴾ بيان وحجة واضحة ، مرشدة إلى المطلوب ، فإن الدليل إذا كان بصيراً يتمكن من الإرشاد والهداية ، بخلاف ما إذا كان أعمى ﴿ **أنَا** ﴾ تأكيد للمستتر في أدعو ﴿ **ومَنِ اتّبَعني** ﴾ أي أدعو إليه أنا ويدعو إليه من اتبعني ﴿ **وسُبْحانَ اللهِ** ﴾ أي أسبح الله تسبيحاً أي أنزّهه تنزيهاً من الشركاء ﴿ **وَما أنا مِنَ المشْرِكينَ** ﴾ عطف على وسبحان الله عطف الجملة على الجملة ، قال

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود بلفظ (موت الفجاءةِ أخذةُ أسفٍ للكافر ، ورحمةٌ للمؤمن) ورواه الترمذي وأحمد وابن ماجه ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٨٧ .

بعضهم : الداعي إلى الله يدعو الخلق به ، والداعي إلى سبيله يدعوهم بنفسه ، ولذلك كثرت الإجابة إلى الثاني لمشاركته الطبع ، حُكي أن فقيهاً قصد إلى زيارة أبي مسلم المغربي فسمعه يلحن في القراءة ، فقال في نفسه : قد ضاع سعيي ، ثم سُلِّط أسدان ، على الفقيه حين خرج للوضوء وقت التهجد ، فهرب وصاح ، ودفعهما أبو مسلم ، ثم قال للفقيه : إن كنتُ لحنتُ في القراءة فقد لحنتَ في الإيمان ، فنحن نسعى في تصحيح الباطن فيخاف منا المخلوق ، وأنتم تسعون في الظاهر فتخافون الخلق ، واعلم أن اتباع الرسول ﷺ باب النجاة وطريق السعادة العظمى ، قال سهل : محب الله على الحقيقة يكون اقتداؤه في أحواله ، وأقواله ، وأفعاله بالنبي عليه السلام ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً** ﴾ لا ملائكة ، فهو رد لقولهم « لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » ولو أُرسل ملك لكان في صورة البشر ، كما قال تعالى (**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجعلْنَاهُ رَجُلاً**) وقس عليه الجن فلا يكون من الجن رسول إلى البشر ، وفي عبارة « الرجال » دلالة على أن الله تعالى ما بعث رسولاً إلى الخلق من النساء ، لأن مبنى حالهنَّ على التستر ، ومنتهى كمالهنَّ هي الصديقية لا النبوة ، فمنها آسية ، ومريم ، وخديجة ، وفاطمة ، وعائشة رضي الله عنهن أجمعين ﴿ **نُوحِي إِلَيهِمْ** ﴾ على لسان المَلَك كما نوحي إليك ﴿ **مِنْ أَهْلِ القُرىٰ** ﴾ من أهل الأمصار دون أهل البوادي ، لغلبة الجهل والقسوة والجفاء عليهم ، والمراد بالقرية الحضر خلاف البادية فتشمل المصر الجامع وغيره ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ** ﴾ للعظة والاعتبار ﴿ **فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ من المشركين المكذبين ، الذين أهلكوا بشؤم إشراكهم وتكذيبهم ، فيحذروهم وينتهوا عنهم ؟ لئلاَّ يحيق بهم مثل ما حاق بهم ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ** ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته ، وأصله وللدار الآخرة ﴿ **خَيرٌ** ﴾ من الدار الفانية ﴿ **لِلَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ الشرك والمعاصي ﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ تستعملون عقولكم لتعرفوا أنها خير ؟

روي أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قالوا ومن الموتى ؟ قال الراغبون في الدنيا والمحبون لها ، وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم لصدر التابعين : إنكم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم كانوا خيراً منكم ، قيل ولم ذاك ؟ قال كانوا أزهد منكم في الدنيا ، وأرغب في الآخرة ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ** ﴾ أي لا يغررهم تمادي أيامهم ، فإن مَنْ قَبْلهم أمهلوا حتى أيس الرسل من النصر عليهم في الدنيا ﴿ **وَظَنّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوْا** ﴾ بتخفيف الدَّال وبناء الفعل للمفعول ، والمعنى وظنوا أنهم قد كذبتهم أنفسهم ، حين حدثتهم بأنهم ينصرون ، وعن ابن عباس وظنوا أنهم قد أُخْلِفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشراً وتلا قوله (**وَزُلزِلُوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ**) ﴿ **جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ فجأة من غير احتساب ،

والمعنى إن زمان الإمهال قد تطاول عليهم ، حتى توهموا أن لا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا بغتة بغير سبق علامة ﴿ **فَنُجِّيَ** ﴾ بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء ﴿ **مَنْ نَشاءُ** ﴾ وهو الأنبياء والمؤمنون التابعون لهم ﴿ **ولا يُرَدُّ بَأْسُنَا** ﴾ عذابنا ﴿ **عَنِ القَوْمِ المجرِمينَ** ﴾ إذا نزل بهم ﴿ **لقَدْ كانَ في قَصَصِهِمْ** ﴾ الضمير للرسل وأممهم أي أخبارهم ﴿ **عِبْرَةٌ** ﴾ اسم من الاعتبار وهو الإتعاظ حقيقته تتبع الشيء بالتأمل ﴿ **لأُولي الألبابِ** ﴾ لذوي العقول المبرأة من شوائب الركون إلى الحسّ ، قال في بحر العلوم : أي عظة يتعظ بها ذوو العقول بعدهم ، فلا يجترئون على نحو ما أخبر عن هؤلاء من أسباب بأس الله والإهلاك ، بل يجتنبون عن مثلها ، لأنهم إن أتوا بمثلها يترتب على فعلهم مثل ذلك الجزاء ، والحاصل أن في قصص إخوة يوسف فكرة وتدبراً لأولي الألباب ، وذلك أن من قدرَ على إعزاز يوسف ، وتمليكه مصر بعد ما كان عبداً لبعض أهلها ، قادر على أن يعز محمداً وينصره ﴿ **ما كانَ** ﴾ القرآن وما ذكر فيه ﴿ **حَديثاً يُفْترىٰ** ﴾ يتقوّله بشر ﴿ **ولكنْ تصديقَ الَّذي بينَ يَدَيْهِ** ﴾ أي ولكن كان تصديق ما تقدمه من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ودليل صحتها ، لأنه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهي مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها افتقار المجتمع عليه إلى شهادة الحجة ﴿ **وتفْصِيلَ كلّ شيءٍ** ﴾ وتبيين كل شيء من أمور الدين ﴿ **وهدىً** ﴾ من الضلالة ﴿ **ورحمةً** ﴾ من العذاب ﴿ **لِقَوْمٍ يؤمِنونَ** ﴾ أي لمن آمن وأيقن به ، واعلم أن القرآن جامع لجميع المراتب ففيه تفصيل ظاهر الدين وباطنه ، فعلى العاقل أن يتعظ بمواعظ القرآن ، ويهتدي إلى حقائقه ، ويتخلق بأخلاقه ، ولا يقتصر على تلاوة نظمه .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة يوسف

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **المر** ﴾ قال ابن عباس : معناه أنا الله أعلم وأرى ، مالا يعلم الخلق ، وما لا يُرَى من فوق العرش إلى ما تحت الثرى ﴿ **تِلكَ** ﴾ أي آيات هذه السورة ﴿ **آياتُ الكِتابِ** ﴾ أي القرآن ﴿ **وَالَّذِي أُنْزِلَ إليكَ منْ ربّكَ** ﴾ أي القرآن وهو مبتدأ خبره قوله ﴿ **الحقُّ** ﴾ ليس كما يقول المشركون إنك تأتي به من قبل نفسك ﴿ **ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يؤمِنونَ** ﴾ بالقرآن ويجحدون بحقيته ، لإفراطهم في العناد ، وخروجهم عن طريق السداد ، وعدم تفكرهم في معانيه ، وكفرُهم به لا ينافي كونه حقاً منزلاً من عند الله تعالى ، فإن الشمس شمس وإن لم يرها الضرير ، ثم بيَّن دلائل ربوبيته وأحديته بقوله ﴿ **اللهُ الذّي رَفَعَ السّمواتِ** ﴾ خلقها مرفوعة بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة عام ﴿ **بغيرِ عَمَدٍ** ﴾ بالفتح جمع عماد أو عمود أي رفعها خالية من عُمُدٍ وأساطين ﴿ **ترونَها** ﴾ أي خالية من عمد ترونها غير معمودة ﴿ **ثُمّ استوىٰ على العرْشِ** ﴾ العرش سرير الملك وهو هنا مخلوق عظيم موجود هو أعظم المخلوقات وتحته الماء العذب كما قال تعالى (**وكانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**) ﴿ **وسخّر الشّمْسَ والقمَرَ** ﴾ ذللّها لما يراد منها وهو انتفاع الخلق بها حيث يعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر ، وينوران لهم في الليل والنهار ، ويصلحان الأرض والأبدان والأشجار والنباتات ﴿ **كُلٌّ** ﴾ منها ﴿ **يَجْري لِأَجَلٍ مُسَمّىً** ﴾ أي إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا ، أو تمام دوره ، وللشمس والقمر منازل كل منهما يغرب في كل ليلة في منزل ويطلع في منزل حتى ينتهي إلى أقصى المنازل ﴿ **يُدَبّرُ الأَمْرَ** ﴾ يقضي ويدبر أمر ملكوته من الإعطاء والمنع ، والإحياء والإماتة ، ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب ، ورفع قوم ووضع آخرين ، وغير ذلك ﴿ **يُفصِّلُ الآياتِ** ﴾ يبين البراهين الدالة على التوحيد والبعث ، وكمال القدرة والحكمة ﴿ **لعَلكُمْ بلقاء ربكم تُوقِنونَ** ﴾ أي يفصل الآيات إرادة أن تتأملوا فيها وتنظروا فتستدلوا بها عليه ، وعلى وحدته وقدرته وحكمته ، وتتيقنوا أنَّ من قدر على خلق السموات والعرش ، وتسخير الشمس والقمر مع عظمها ، وتدبير الأمور كلها ، كان على خلق الإنسان ـ مع مهانته ـ وعلى إعادته وجزائه أقدر ﴿ **وَهُوَ الَّذِي مَدّ الأَرْضَ** ﴾ بسطها طولاً وعرضاً ، ووسعها لتثبت عليها الأقدام ويتقلب الحيوان، أي أنشأها ممدودة لا أنها كانت مجموعة في مكان فبسطها ، وكونُها بسيطة لا ينافي كرويتها لأن جميع الأرض جسم عظيم ، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها يشاهد كالسطح ﴿ **وَجعلَ فيها رَواسيَ** ﴾ من رسا الشيء إذا ثبت والمعنى وجعل فيها جبالاً ثابتة أوتاداً للأرض ، لئلا تضطرب ،

لتستقرَّ ويستقرَّ من عليها ﴿ **وَأَنْهاراً** ﴾ جارية ضمها إلى الجبال وعلَّق بها فعلاً واحداً ، من حيث إن الجبال أسباب لتولدها ، فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ، تتزاحم وتتضاعف حتى تحصل بسبب الجبل مياه عظيمة ، ثم إنها لكثرتها وقوتها تنقب الجبل وتخرج وتسيل على وجه الأرض ﴿ **وَمِنْ كُلِّ الثَّمراتِ جَعَل فيها زَوْجَيْنِ اثْنينِ** ﴾ اثنين تأكيد للزوجين كما هو دأب العرب في كلامهم أي وخلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين ، كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والأصفر والأحمر ، والصغير والكبير ﴿ **يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ** ﴾ أي يجعل الليل غاشياً يغشى النهار بظلمته ، فيذهب بنور النهار ، فيصير الجوّ مظلماً بعد ما كان مضيئاً ، والإغشاءُ : إلباس الشيء الشيء ، ﴿ **إنَّ في ذلكَ** ﴾ أي في كل من الأرض والجبال ، والأنهار والثمار ﴿ **لآياتٍ** ﴾ تدل على الصانع وقدرته ، وحكمته وتدبيره ، أما في الأرض فمن حيث هي ممدودة كالبساط لما فوقها ، وفيها المسالك والفجاج ، والعيون والمعادن والدواب ، وأما الجبال فمن جهة رُسُوِّها وعلوها وصلابتها وثقلها ، وقد أرسيت الأرض بها كما يرسى البيت بالأوتاد ، وأما الأنهار فحصولها في بعض جوانب الجبال دون بعض لابد أن يستند إلى الفاعل المختار الحكيم ، وأما الثمار فالحبة إذا وقعت في الأرض وأثَّرت فيها نداوة الأرض رَبَتْ وكبرت ، وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها ، فتخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة ، وتخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة في أسفل الأرض ، وهذا من العجائب ، لأن طبيعة تلك الحبة واحدة ، وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد ، ثم إنه خرج من أحد جانبي تلك الحبة جرمٌ ، صاعد إلى الهواء ، ومن الجانب الآخر منها جرم غائص في الأرض ، ومن المحال أن يتولد من طبيعة واحدة طبيعتان متضادتان ، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم ، ثم إن الشجرة النابتة من تلك الحبة ، بعضُها يكون خشباً ،وبعضُها يكون نواةً ، وبعضها يكون ثمرة ، فسبحان المبدع الحكيم !! ﴿ **لِقَوْمٍ يَتَفكّرونَ** ﴾ فيستدلون على قدرة الخالق ، والتفكر : تصرف القلب في طلب معاني الأشياء ، وكما أن في العالم الكبير أرضاً ، وجبالاً ، ومعادن ، وبحاراً ، وأنهاراً ، وجداول وسواقي ، فكذلك في الإنسان الذي هو العالم الصغير مثله ، فجسده كالأرض ، وعظامه كالجبال ، ومخُّه كالمعادن ، وجوفه كالبحر ، وأمعاؤه كالأنهار ، وعروقه كالجداول ، وشعره كالنبات ، وتنفسه كالرياح ، وكلامه كالرعد ، وبكاؤه كالمطر ، وسروره كضوء النهار ، وحزنه كظلمة الليل ، ونومه كالموت ، ويقظته كالحياة ﴿ **وفي الأرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِراتٌ** ﴾ أي بقاع متلاصقات ، بعضها طيبة تنبت شيأ ، وبعضها سبخة لا تنبت ، وبعضها قليلة الريع وبعضها صلبة ، وبعضها رخوة ، وبعضها يصلح للزرع دون الشجر وبعضها بالعكس ﴿ **وجَنّاتٌ** ﴾ أي بساتين ﴿ **مِنْ أعناب** ﴾ جمع عنب ، وسمَّت العرب العنب الكرم ،لكرم ثمرته وكثرة حمله ، وتذلله للقطف ، ليس بذي شوك ، ويؤكل غضاً ويابساً ، واعلم أن قلب المؤمن لما فيه من نور الإيمان أولى بهذا الاسم ،

ولذا قال عليه السلام (لا يقولن أحدكم الكرم فإنما الكرم قلب المؤمن)[1] وسبب النهي أن العرب كانوا يسمون العنب وشجرته كَرْماً ، لأن الخمر المتخذة منه تحمل شاربها على الكَرَمِ ، فكره النبي ﷺ هذه التسمية لئلا يدعوهم حسن الإسم إلى شربها ، وجعل المؤمن وقلبه أحق أن يتصف به لطيبه وذكائه ﴿ **وَزَرْعٌ** ﴾ بالرفع عطف على جنات ﴿ **وَنَخِيلٌ** ﴾ النخل والنخيل بمعنى واحد ﴿ **صِنْوَانٌ** ﴾ جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد أي نخلات يجمعهن أصل واحد .

﴿ **وَغَيْرُ صِنْوَانٍ** ﴾ ومتفرقات مختلفة الأصول ﴿ **يُسقَى** ﴾ المذكور ، الجنات والزرع والنخيل ﴿ **بماءٍ واحدٍ** ﴾ والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام ﴿ **وَنُفضّلُ** ﴾ أي ونحن نفضّل ﴿ **بعْضَها على بعْضٍ في الأُكُلِ** ﴾ في الثمر شكلاً ، وقدراً ، وطعماً ، ورائحة ، فمنها بياض وسواد ، وصغير وكبير ، وحلو ومر ، وجيد ورديء ، وذلك أيضا مما يدل على الصانع الحكيم وقدرته ، فإن إنبات الأشجار المختلفة الأصناف والأشكال والألوان والطعوم والروائح مع اتحاد الأصول والأسباب لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار ، لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب ، لوجب في القياس أن لا تختلف الألوان والطعوم ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد بماء واحد ﴿ **إنّ في ذلِكَ** ﴾ المذكور ﴿ **لآياتٍ** ﴾ لدلالات واضحة ﴿ **لِقَومٍ يعْقلونَ** ﴾ يعملون على قضية عقولهم ، وأن من قدر على خلق الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح وقدر على إحياء الأرض بالماء ، وجعلها حدائق ذات بهجة ، قدر على إعادة الإنسان ، بل هذا أدخل في القدرة من ذلك وأهون في القياس ﴿ **وإنْ تعْجَبْ** ﴾ أي إن تعجبت من شيء يا محمد أو أيها السامع ﴿ **فعَجبٌ قَوْلُهُمْ** ﴾ أي فليكن ذلك العجب من قول المشركين ﴿ **أَئِذَا كُنّا تُراباً** ﴾ منصوبة المحل على أنها محكية بالقول وإذا ظرف محض ليس فيها معنى الشرط والعامل محذوف دل عليه قوله ﴿ **أَئِنّا لفي خَلْقٍ جَديدٍ** ﴾ والتقدير : أَئِذَا كنا تراباً أنبعث ونخلق ؟ ومعنى الآية أنهم لايتعجبون من قدرة الله ـ وهو الذي خلقهم من لا شيء في البداية ، إذ لم تكن الأرواح والأجساد ولا التراب ـ فالأمر أهون عليه أن يخلقهم من شيء وهو التراب ، ولكن العجب تعجبهم أن يخلقهم مرة أخرى ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَروا بِرَبِّهِمْ** ﴾ لأنهم كفروا بقدرته على البعث ﴿ **وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ في أَعْنَاقِهِمْ** ﴾ أي مقيدون بالكفر والضلال ، لا يرجى خلاصهم ، والغُلُّ طوق يقيد به اليد إلى العنق ، والمراد بها أغلال الشقاوة التي جعلها الله في أعناقهم ﴿ **وَأُولَئِكَ أصحابُ النّار هُمْ فيها خَالدونَ** ﴾ أي هم الموصوفون بالخلود في النار لا غيرهم ، فالمرء أسير في يد نفسه ، والهوى كالغل في عنقه ، وهذا الغل الملازم له في دنياه معنوي ، وسيصير إلى الحس يوم القيامة ، إذِ الباطنُ يصير هناك

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود والدارمي وأحمد في المسند ٢ / ٢٣٩ .

ظاهراً ، كما حكي عن بعض العصاة أنه مات ، فلما حفروا له قبراً وجدوا فيه حية عظيمة ، فحفروا له قبراً آخر فوجدوها فيه ، فلما رأوا أنه لا يهرب من الله هارب ، ولا يغلب الله غالب دفنوه معها ، وهذه الحية هي عمله ﴿ **وَيسْتعجِلونَكَ** ﴾ أي يطلب مشركو مكة منك العجلة ﴿ **بالسّيئَةِ** ﴾ بإتيان العقوبة المهلكة وسميت العقوبة سيئة لأنها تسوؤهم ﴿ **قبْلَ الحَسنةِ** ﴾ أي قبل العافية والإحسان إليهم بالإمهال ، وذلك أنه عليه السلام كان يهدد مشركي مكة تارة بعذاب القيامة ، وتارة بعذاب الدنيا ، وكلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث ، وكلما هددهم بعذاب الدنيا استعجلوه وقالوا متى تجيئنا ؟ فطلبوا العقوبة والعذاب والشر ، بدل العافية والرحمة والخير ، استهزاء منهم ، وإظهاراً أن الذي يقوله لا أصل له ، لذا قالوا (**اللهمَّ إنْ كانَ هَذَا هُوَ الحقَّ مِنْ عِنْدكَ فأمطِرْ علينَا حِجَارةً من السَماءِ أو ائتنا بعذاب أَليمٍ**) ﴿ **وقدْ خَلتْ** ﴾ أي مضت ﴿ **من قَبْلِهِمُ المَثُلاَتُ** ﴾ أي عقوبات أمثالهم من المكذبين ، كالخسف والمسخ والرجفة ، فمالهم لم يعتبروا بها ؟ جمع مثلة بفتح الثاء وضمها وهي العقوبة ، لأنها مثل المعاقب عليه وهو الجريمة ﴿ **وإنّ ربّكَ لذو مغْفِرةٍ** ﴾ ستر وتجاوز ﴿ **للنّاسِ على ظُلْمِهِمْ** ﴾ أي مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب ، وإلاّ لما ترك على ظهر الأرض من دابة .

﴿ **وإنّ ربّكَ لشدِيدُ العِقاب** ﴾ لمن شاء من العصاة ونظير الآية قوله تعالى (**نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفُورُ الرّحِيمُ . وأنَّ عذابي هُوَ العَذابُ الأَلِيمُ**) وإذا كان الرجل صحيحاً كان الخوف أفضل ، حتى يجتهد في الطاعات ويجتنب المعاصي ، فإذا مرض وعجز عن العمل كان الرجاء له أفضل ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود بشِّر المذنبين وأنذر الصدّيقين ، قال يارب كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين ؟ قال بشر المذنبين أني لا يتعاظمني ذنب إلا أغفره ، وأنذر الصدّيقين أن لا يُعجبوا بأعمالهم فإني لا أضع عدلي وحسابي على أحد إلا هلك ﴿ **ويقولُ الّذِينَ كَفَروا لوْلا أُنزِلَ** ﴾ لولا حرف تحضيض ﴿ **عليْهِ** ﴾ على محمد ﴿ **آيَةٌ منْ ربّهِ** ﴾ أي آية جلية وعلامة ظاهرة يستدل بها على صحة نبوته ، وذلك لعدم اعتدادهم بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ فاقترحوا عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً ، وإلا لأجيبوا إلى مقترحهم ، وذلك مثل انقلاب العصاحية ، وإحياء الموتى ، وخروج الناقة من الصخرة ، فقيل لرسول الله ﴿ **إنّما أنْتَ منْذِرٌ** ﴾ مرسل للإنذار والتخويف لهم من سوء العاقبة ، وما عليك إلاّ الإتيان بما تصح به نبوتك لا بما يقترح عليك ، لأنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر فطلب منه معجزة أخرى ، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء ﴿ **وَلِكُلِّ قوْمٍ هادٍ** ﴾ أي ولكل قوم نبيٌ مخصوص بمعجزة من جنس ما هو الغالب عليهم ، يهديهم إلى الحق ويدعوهم إلى الصواب ، ولما كان الغالب في زمان موسى هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقهم ، ولما كان الغالب في أيام عيسى الطب جعل معجزته

ما يناسب الطب وهو إحياء الموتى وإبراء الأبرص والأكمه ، ولما كان الغالب في زمان نبينا ﷺ الفصاحة والبلاغة ، جعل معجزته فصاحة القرآن وبلوغه في باب البلاغة إلى حد خارج عن قدرة الإنسان ، فلما لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع أنها أقرب إلى طريقهم وأليق بطباعهم ، فأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى ﴿ **الله** ﴾ وحده ﴿ **يعْلَمُ ما تَحمِلُ كُلُّ أُنثىٰ** ﴾ أي ما تحمله من الولدان ذكرٌ أو أنثى ، تامٌّ أو ناقص ، حسنٌ أو قبيح ، طويل أو قصير ، سعيد أو شقي ، عاقل أو سفيه ، كريم أو لئيم إلى غير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة ﴿ **وما تَغيضُ الأرْحامُ وما تزْدادُ** ﴾ يقال : غاض الماء يغيض غيضاً إذا قلَّ ونضب ، والأرحام جمع رحم وهو مبيت الولد في البطن ووعاؤه ، واختلفوا فيما تغيضه الأرحام وما تزداده ، فقيل : هو جثة الولد فإنه قد يكون كبيراً وقد يكون صغيراً ، وقد يكون تام الأعضاء وقد يكون ناقصها ، وقيل هو مدة ولادته ، فإن أقلها ستة أشهر ، وقد تكون تسعة أشهر ، وأزيد عليها إلى سنتين ، وعن الحسن : الغيوضةُ أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك ، والازدياد أن تزيد على تسعة أشهر ، وعنه الغيض : الجنين الذي يكون سِقْطاً لغير تمام ، والازدياد ما ولد لتمام ﴿ **وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ** ﴾ تعالى ﴿ **بمِقْدارٍ** ﴾ مقدر مكتوب في اللوح معلوم ، وبحد لا يجاوزه من رزق وأجل ﴿ **عالِمُ الغيْبِ** ﴾ أي هو تعالى عالم كل ما يطلق عليه اسم الغيب ، وهو ما غاب عن الحِسِّ ، فيدخل فيه المعلومات والأسرار الخفية قال بعضهم : ما ورد في القرآن من إسناد علم الغيب إلى الله تعالى ، إنما هو بالنسبة إلينا ، إذ لا غيب بالنسبة إلى الله تعالى ﴿ **والشّهادَةِ** ﴾ أي كل ما حضر للحسِّ ، فيدخل فيه الموجودات المدركة والعلانية ﴿ **الكبيرُ** ﴾ العظيم الشأن الذي لا يخرج عن علمه شيء ﴿ **المتَعالِ** ﴾المستعلي على كل شيء بقدرته ﴿ **سواءٌ منكُمْ من أسَرَّ القَوْلَ ومَنْ جَهَر بِهِ** ﴾ من مبتدأ خبرُه سواء والمعنى : مستوٍ في علم الله تعالى من أضمر القول في نفسه ، ومن أظهره بلسانه منكم أيها الناس ﴿ **ومَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ باللّيْلِ وسَارِبٌ بالنّهار** ﴾ سواء منكم إنسان هو مستتر ومتوار في الظلمات ، وآخر ظاهر في الطرقات ، وسارب أي ذاهب في سربه ، بارز بالنهار يراه كل واحد ﴿ **لَهُ** ﴾ أي للإنسان ﴿ **مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بيْنِ يديهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** ﴾ جمع معقبة والتاء للمبالغة كما في علاَّمة والمعقِّباتُ : ملائكة الليل والنهار ، وقيل للملائكة معقبات ، لكثرة تعاقب بعضهم بعضاً في النزول إلى الأرض ، بعضهم بالليل وبعضهم بالنهار ، إذا مضى فريق ، خَلَفه فريق أي يعقب ملائكةُ الليل ملائكةَ النهار ، وملائكة النهار ملائكة الليل ، ويجتمعون في صلاة الفجر والعصر . والمعنى له ملائكة يتعاقب بعضهم بعضاً ، كائنون من أمام الإنسان ووراء ظهره أي يحيطون به من جوانبه ﴿ **يَحْفَظونَهُ مِنْ أمْرِ اللهِ** ﴾ من بأسه ونقمته إذا أذنب بدعائهم له أن يمهله رجاء أن يتوب من ذنبه ، أو يحفظونه من المضار

التي أمر الله بالحفظ منها ، قال مجاهد : ما من عبد إلاَّ له ملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته ، من الجن والإنس والهوام ، فما يأتيه منهم شيء يريده إلا قال وراءك ، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه ، وروي عن عمر بن أبي جندب قال : كنا جلوساً عند سعيد بن قيس بصفين فأقبل عليٌّ رضي الله عنه يتوكأ على عنزة له ، بعدما اختلط الظلام ، فقال سعيد أما تخاف أن يغتالك أحد ؟ قال : إنه ليس من أحد إلا ومعه من الله حفظة ، من أن يتردى في بئر أو يخرَّ من جبل ، أو يصيبه حجر ، أو تصيبه دابة ، فإذا جاء القدر خَلُّوا بينه وبين القدر ﴿ **إنّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ** ﴾ من العافية والنعمة ﴿ **حتّى يُغَيّروا ما بِأنفُسِهِمْ** ﴾ حتى يتركوا الشكر وينقلبوا من الأحوال الجميلة إلى القبيحة ﴿ **وإذا أرادَ اللهُ بقَوْمٍ سُوْءً** ﴾ عذاباً وهلاكاً ﴿ **فلا مردَّ لَهُ** ﴾ فلا ردَّ له ﴿ **وما لَهُمْ** ﴾ أي لمن أراد تعالى إهلاكه ﴿ **مِنْ دُونِهِ** ﴾ سوى الله تعالى ﴿ **منْ وَالٍ** ﴾ ممن يلي أمرهم ويدفع عنهم السوء ، فإنه المنفرد بتدبير الأشياء لا معقب لحكمه ﴿ **هُوَ** ﴾ تعالى وحده ﴿ **الَّذِي يُريكُمُ البَرْقَ** ﴾ الذي يلمع من السحاب ، من بَرِق الشيء بريقاً إذا لمع ﴿ **خَوْفاً** ﴾ أي إخافة من الصاعقة وخراب البيوت ﴿ **وَطَمعاً** ﴾ إطماعاً في الغيث ورجاء بركته ، والمطر يكون لبعض الأشياء ضرراً ، ولبعضها رحمة ، فيخاف منه المسافر ومن في خزينته التمر والزبيب ، ويطمع فيه المقيم وأهل الزرع والبساتين ﴿ **ويُنشِىءُ السَّحَابَ** ﴾ أي يبتدىء إنشاء السحاب أي خلقه ، والسَّحابُ اسم جنس والواحدة سحابة ولذا وصف بقوله ﴿ **الثِّقالَ** ﴾ بالماء جمع ، واختلف في أن الماء ينزل من السماء إلى السحاب ، أو يخلقه الله في السحاب فيمطر ، والتحقيق أن المردود هو إسناد الحوادث إلى الكون ، من غير ملاحظة تأثير الله تعالى فيها ، وأما إذا أسندت إلى الأسباب مع ملاحظة المسبّب فهو مقبول ، لأن هذا العالم عالم الأسباب والحكمة ، وما هو أدخل في القدرة الإلهية فهو أولى بالاعتبار ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ** ﴾ اختلف العلماء فيه ، والتحقيق أنه اسم ملك خُلق من نور الهيبة الجلالية ، والرعد صوته الشديد أيضا يسوق السحاب بصوته كما يسوق الحادي الإبل بحدائه[1] ﴿ **بِحَمْدِهِ** ﴾ أي حامدين له وملتبسين بحمده وكان عليه السلام إذا اشتد الرعد قال (اللهمَّ لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك) ﴿ **والملائِكةُ مِنْ خِيفَتِهِ** ﴾ أي ويسبح الملائكة من خوف الله وخشيته ، وهيبته وجلاله ، وذلك لأنه إذا سبح الرعد وتسبيحه ما يسمع من صوته ، لم يبق ملك إلا رفع صوته بالتسبيح ، فينزل القطر ، والملائكة خائفون من الله وليس خوفهم كخوف ابن آدم ، فإنه لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره ، ولا يشغله

(١) لا يستبعد أن يكون البرق والرعد بسبب التقاء السحاب الموجب مع السالب ذي الشحنة الكهربائية كما يقول علماء الطبيعة ، طالما أن ذلك بتقدير الحكيم العليم وتدبيره ، فلا تعارض والله أعلم .

عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء أصلاً ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما من سمع الرعدَ فقال : « سبحان الذي يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، وهو على كل شيء قدير ، فأصابته صاعقة فعليَّ ديته » ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ** ﴾ جمع صاعقة وهي نار لا دخان لها تسقط من السماء وتتولد في السحاب، وهي أقوى نيران هذا العالم ، فإنها إذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان تحت البحر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود سألت النبي عليه السلام عن الرعد ما هو فقال (ملك من الملائكة موكل بالسحاب ، معه مخاريق من نار ، يسوق بها السحاب حيث شاء الله)[1] والمخاريق جمع مخراق وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً ، والمراد به ههنا آلة يسوق بها الملك السحاب ﴿ **فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أصابته فيهلكه ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل ﴿ **يُجَادِلُوْنَ فِي اللهِ** ﴾ حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من العظمة والتوحيد والقدرة التامة ﴿ **وَهُوَ شَدِيدُ المِحالِ** ﴾ أي شديد المكر والكيد لأعدائه ، يهلكهم من حيث لا يحتسبون ، روي أن رسول الله عليه السلام بعث رجلاً إلى رجل من فراعنة العرب فقال : إذهب فادعه لي ، فقال يا رسول الله إنه أعتى من ذلك ، قال فاذهب فادعه لي ، قال فذهبت إليه فقلت يدعوك رسول الله ، فقال : وما الله ؟ أمن ذهب هو أو من فضة أو من نحاس ؟ قال الراوي وهو أنس ، فرجع إلى رسول الله فأخبره وقال قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، قال لي كذا وكذا قال فارجع إليه الثانية فادعه ، فرجع إليه فأعاد عليه مثل الكلام الأول ، ورجع إلى النبي عليه السلام فأخبره فقال : ارجع إليه ، فرجع إليه الثالثة فأعاد عليه مثل ذلك الكلام ، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله سحابة حيال رأسه فرعدت فوقع منها صاعقةٌ فذهبت بقحف رأسه ، فأنزل الله تعالى (**وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُوْنَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحالِ**)[2] ﴿ **لَهُ** ﴾ أي لله تعالى ﴿ **دَعْوَةُ الحَقِّ** ﴾ أي الدعاء الحق ، أوله الدعوة المجابة ، على أن يكون الحق بمعنى الثابت الغير الضائع ، فإنه الذي يجيب لمن دعاه دون غيره يعطي السائل الداعي سؤاله ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ** ﴾ أي والأصنام الذين يدعونهم الكفار ، متجاوزين الله في الدعاء إلى الأصنام ﴿ **لا يَسْتَجِيبُونَ** ﴾ أي لا يجيب الأصنام ، وضمير العقلاء لمعاملتهم إياها معاملة العقلاء ﴿ **لَهُمْ** ﴾ أي الكفار ﴿ **بِشَيْءٍ** ﴾ من مراداتهم ﴿ **إلاّ كباسِطِ كَفَّيهِ إلى الماءِ** ﴾ استثناء مفرغ أي إلا استجابة مثل استجابة مادٍّ يديه أي كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه ﴿ **ليبلُغَ فَاهُ** ﴾ أي يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده ليصل إلى فمه ﴿ **وما هُوَ** ﴾ أي الماء

---

(١) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي عن ابن عباس في قصة طويلة عن اليهود ، وانظر الدر المنثور ٤ / ٥٠ .

(٢) أخرجه الحافظ البزار وأبو يعلى الموصلي وابن جرير الطبري ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٢ / ٢٧٤ .

﴿ **بِبالِغِهِ** ﴾ ببالغ فمه لأنه جماد لا يشعر ببسط كفيه ، ولا بعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ، وكذا ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم ، والتشبيه من المركب التمثيلي ﴿ **وما دُعاءُ الكَافِرِينَ** ﴾ يعني لأصنامهم ﴿ **إلا في ضَلالٍ** ﴾ في ضياع وخسار وباطل ، لأن الآلهة لا تقدر على إجابتهم ، وأما دعاؤهم له تعالى فالمذهب جواز استجابته وقد أجاب الله دعاء إبليس وغيره ﴿ **ولله يَسْجُدُ مَنْ في السّمواتِ** ﴾ يعني الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء وأهل الدرجات من المؤمنين ﴿ **والأرْضِ** ﴾ من الملائكة والمؤمنين من الثقلين ﴿ **طَوْعاً** ﴾ أي طائعين حالتي الشدة والرخاء ﴿ **وَكَرْهاً** ﴾ أي كارهين حالة الشدة والضرورة ، وذلكَ من الكافرين والمنافقين وفي الحديث (عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل)[1] ﴿ **وَظِلالُهُمْ** ﴾ أي ويسجد ظلال أهل السموات والأرض تبعاً لذي الظل ، ويجوز أن يراد بالسجود معناه المجازي ، وهو انقيادهم لإحداث ما أراده الله فيهم شاؤا أو كرهوا ، وانقياد ظلالهم لتصريفه إياها بالمد ، والتقليص ، ونقلها من جانب إلى جانب ، فالكل مذلّلٌ ومسخر تحت الأحكام والتقدير ﴿ **بالغُدُوِّ والآصالِ** ﴾ الغدوُّ : جمع غداة وهي البكرة ، والآصال : جمع أصيل وهو العشي ، من حين زوال الشمس إلى غيوبتها كما في بحر العلوم ، وقال في الكواشي : الأصيل ما بين العصر وغروب الشمس والباء بمعنى في ظرف ليسجد أي يسجد في هذين الوقتين وقد سبق في آخر الأعراف ما يتعلق بسجدة التلاوة ، وأما سجدة الشكر وهي أن يكبر ويخر ساجداً مستقبل القبلة ، فيحمده تعالى ويشكره ويسبح ثم يكبر فيرفع رأسه ، فقد قال الشافعي يستحب سجود الشكر عند تجدد النعم ، كحدوث ولد أو نصر على الأعداء ونحوه ، وعند دفع نقمةٍ كنجاة من عدو أو غرق ونحو ذلك ، وعن أبي حنيفة ومالك أن سجود الشكر مكروه ، قال النووي : ومن هذا ما يفعله كثير من الجهلة الضالين من السجود بين يدي المشايخ ، فإن ذلك حرام قطعاً بكل حال ، سواء كان إلى القبلة أو لغيرها ، وسواء قصد السجود لله أو غفل ، وفي بعض صوره ما يقتضي الكفر ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد للمشركين ﴿ **مَنْ رَبُّ السّمواتِ والأرْضِ** ﴾ خالقهما ومالكهما ومتولي أمرهما ﴿ **قُلِ** ﴾ في الجواب ﴿ **اللهُ** ﴾ إذ لا جواب لهم سواه لاعترافهم به ﴿ **قُلْ** ﴾ إلزاماً لهم ﴿ **أفَاتّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أوْلِياءَ** ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للاستبعاد أي أبعد إقراركم هذا وعلمكم بأنه تعالى صانع العالم ومالكه ، اتخذتم من دونه تعالى أصناماً ؟ ﴿ **لا يَمْلِكُوْنَ** ﴾ أي تلك الأولياء ﴿ **لأنْفُسِهِمْ نفْعاً ولا ضَرّاً** ﴾ لا يستطيعون لأنفسهم جلب نفع إليها ، ولا دفع ضرر عنها ، وإذا عجزوا عن ذلك كانوا عن نفع الغير ودفع

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الجهاد ٦ / ١٠١ وأبو داود برقم / ٢٦٧٧ / وفي رواية للبخاري « عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل » انظر الجامع للأصول ٢ / ٦٢٢ .

الضر عنه أعجز ، ومن هو كذلك فكيف يُعْبدُ ويُتَّخذ ولياً ؟ وهذا تجهيل لهم ، وشهادة على غباوتهم وضلالتهم ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِيرُ** ﴾ أي فكما لا يستوي الأعمى والبصير في الحسن ، كذلك لا يستوي المشرك الجاهل عظمة الله وقدرته ، مع الموحِّد العالم بذلك ، فالأعمى من عمي بالحق وأبصر بالباطل ، والبصير من أبصر بالحق وعمي بالباطل ﴿ **أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ والنُّورُ** ﴾ أي فكما لا تستوي الظلمات والنور ، كذلك لا يستوي الشرك والإنكار ، والتوحيد والمعرفة ، وعبَّر عن الشرك بصيغة الجمع ، لأنه أنواع : شركُ النصارى ، وشرك اليهود ، وشرك عبدة الأوثان ، وشرك المجوس ، بخلاف التوحيد ﴿ **أَمْ جَعَلوا لله شُرَكَاءَ** ﴾ بل أجعلوا فأم منقطعة والهمزة للإنكار بمعنى لم يكن ﴿ **خَلَقوا كخلقِهِ** ﴾ يعني أنهم لم يتخذوا شركاء خالقين مثل خلق الله ﴿ **فتَشَابَهَ الخَلْقُ عليْهِمْ** ﴾ حتى يتشابه ويلتبس عليهم خلق الله وخلقهم ، فيقولوا هؤلاء قدروا على الخلق ، كما قدر الله عليه ، فاستحقوا العبادة كما استحقها ، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين ، لا يقدرون على ما يقدر عليه الخالق ﴿ **قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ من الأجسام والأعراض ، لا خالق غير الله فيشاركه في العبادة ﴿ **وَهُوَ الواحِدُ القَهّارُ** ﴾ أي المتوحد بالألوهيَّة ، الغالب على كل شيء ، فكيف يتوهم أن يكونوا له أولياء وشركاء ؟ ﴿ **أَنْزَلَ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **مِنَ السّماءِ ماءً** ﴾ أي مطراً ينحدر إلى السحاب ومنه إلى الأرض ، وهو ردٌّ لمن زعم أن المطر إنما يتحصل من ارتفاع أبخرة رطبة من الأرض إلى الهواء ، فينعقد هناك من شدة برد الهواء ثم ينزل مرة أخرى(١) ﴿ **فَسَالَتْ** ﴾ من ذلك الماء ﴿ **أَوْدِيَةٌ** ﴾ جمع واد كأندية جمع ناد ، وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة ، والمراد ههنا الأنهار ، بطريق ذكر المحل وإرادة الحال ﴿ **بِقَدَرِها** ﴾ أي بمقدارها الذي لا يتضرر الناس به وقد ضرب الله سبحانه المطر مثلاً للحقِّ الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله ، فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع ، خالياً من المضرة ، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجوارف ، ويجوز أن يكون الضمير راجعا إلى المعنى الحقيقي أي بمقدارها في الصغر والكبر ، أي إنْ صغُر الوادي قلَّ الماء ، وإن اتَّسع الوادي كثر الماء ﴿ **فاحْتَمَلَ السَّيْلُ** ﴾ أي حمل ورفع ﴿ **زَبَداً** ﴾ هو اسمٌ لكل ما علا وجه الماء ، من رغوة وغيرها ﴿ **رابِياً** ﴾ عاليا فوق الماء ﴿ **وَمِمّا يُوقِدونَ عليْهِ في النّارِ** ﴾ الإيقادُ : جعل النار تحت الشيء ليذوب أي ومن الذي يوقد الناس عليه من الفلزات والأجساد السبعة المعدنية التي تذاب ، وهي الذهبُ ، والفضةُ ، والحديدُ ، والنحاسُ ، والآنك ، والزئبق ، والصفر ﴿ **ابتِغَاءَ حِلْيةٍ** ﴾ أي طلب زينة فإن أكثر الزين من الذهب والفضة

---

(١) ليس في هذا القول الذي يقوله علماء الطبيعة ما يعارض الدين أو يصادمه فإن الماء يكون بقدرة الله تعالى من هذه الأبخرة الصاعدة من الأرض والله تعالى يقول ﴿ **أخرج منه ماءها ومرعاها** ﴾ فالماء بنص القرآن أصله من الأرض .

﴿ أو مَتاعٍ ﴾ وهو ما يتمتع به أي ينتفع به كالنحاس والحديد والرصاص ، يذاب فيتخذ منه الأواني وآلات الحروب والحرث ﴿ زَبَدٌ مِثْلُه ﴾ أي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء ، يعلو عليه إذا أذيب وهو الخبث ﴿ كذلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضرب والبيان والتمثيل ﴿ يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ والبَاطِلَ ﴾ أي يمثّلها فإنه تعالى مثّل الحق في الثبات والنفع بالماء النافع ، وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه ، واتخاذ الأمتعة المختلفة ، وشبّه الباطل في سرعة زواله وقلة نفعه بالزبد الضائع أي بزبد السيل الذي يرمى به ، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أُذيب ، فالزبد وإن علا الماء فهو يمحق ، وكذا الباطل وإن علا في بعض الأحوال ، فإن الله سيمحقه ويبطله ، والعاقبةُ للحق وأهله ، كما قيل : للحق دولةٌ وللباطلِ صولةٌ ﴿ فأما الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ الجفاءُ : كغراب الباطل أي باطلاً مرمياً به ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ كالماء وخلاصة الفلز ﴿ فيَمْكُثُ في الأرْضِ ﴾ أي يبقى ولا يذهب ، فينتفع به الناس ، أما الماء فيثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والآبار ، وأما الفلز فيبقى أزمنة متطاولة ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ ﴾ ويُبيِّنها لإيضاح المشتبهات ، والتمثيل أقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغافل ، وهو إظهارٌ للوحشيّ في صورة المألوف ﴿ لِلّذينَ اسْتَجابوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى ﴾ أي للمؤمنين الذين أجابوا في الدنيا إلى ما دعا الله إليه ، من التوحيد والطاعة ، المثوبة الحسنى في الآخرة ، وهي الجنة ، وسميت بذلك لأنها في نهاية الحسن ، لكونها من آثار الجمال الصفاتي الأزلي من ذاته لا من غيره ، فقد عُلم من هذا أن الداعي إلى الحسنى هو الله تعالى ، والمجيب إلى تلك الدعوة الإلهية هو المؤمنون ، والجنةُ ونعيمُها هي الضيافة العظمى ﴿ والّذينَ لَمْ يَسْتَجيبُوا لَهُ ﴾ وهم الكافرون بالله ، الخارجون عن الطاعة ﴿ لو أنّ لَهُمْ ما في الأرْضِ جَميعاً ﴾ من نقودها ، وأمتعتها ، وضياعها ﴿ ومِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ وضعفه معه ﴿ لافْتَدَوْا بِهِ ﴾ جعلوه فداء أنفسهم من العذاب ، ولو فادوا به لا يُقبل منهم ، سرُّ هذا أنهم بسبب الدنيا غفلوا عن الله تعالى ، وحين الانتباء بالموت والبعث صغرَ في أعينهم الدنيا وما فيها ، فلو قدروا لبذلوا الكل فقد قصَّروا في وقت القبول ، وتمنوا ما تمنوا حين لا درهم ولا دينار ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسابِ ﴾ هو المناقشة بأن يحاسب الرجل بذنبه ولا يغفر منه شيء ، وعن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله عليه السلام قال : (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، قلت : أو ليس يقول الله (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً) فقال : إنما ذلكِ العَرْضُ ، ولكن من نوقش الحساب يهلك)[1] ﴿ ومأويهُمْ ﴾ مرجعهم بعد المناقشة ﴿ جَهَنّمُ ﴾ فإن قلت : هلاَّ قيل مأواهم النار ؟ قلت : لأن في ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعاً ، ويحتمل أن يكون جهنم هي أبعد النار قعراً

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ (من حوسب عُذّب ، فقالت عائشة : أو ليس الله يقول ..) الحديث .

﴿ وَبِئْسَ المِهادُ ﴾ أي بئس موضع القرار جهنم ، وروي أن موسى عليه السلام ناجى ربه ، فقال يارب خلقت خلقاً وربيتهم بنعمتك ، ثم تجعلهم يوم القيامة في نارك ؟ فأوحى الله تعالى إليه أن يا موسى قم فازرع زرعاً ، فزرعه فسقاه وقام عليه وحصده ، فقال له : ما فعلت بزرعك؟ قال : جمعتُه وحصدتُه، قال فما تركت منه شيأ ؟ قال يارب : تركتُ مالا خير فيه ، قال يا موسى فإني أدخل النار مالا خير فيه ، وهو الذي يستنكف أن يقول لا إله إلا الله ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ ﴾ يعني يعلم أنَّ القرآن الذي أنزل الله تعالى هو الحق ، وهو حمزة أو عمار ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ قلبه فينكر القرآن وهو أبو جهل ، أي لا يستوي من يبصر الحق ويتَّبعه ، ومن لا يبصره ولا يتبعه ، وهذا عام فمن كان كذلك ﴿ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولو الألبابِ ﴾ أي لا يقبل نصح القرآن ، إلا ذوو العقول الصافية ، والتذكر لا يكون إلا لذي لبّ ، قد خلص من قشر غواشي النشأة قال تعالى (وما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ أُوْلو الألبابِ) والنسيان إنما يحصل بسبب الغواشي وقد أمر الله بأحكام الشريعة لإزالة هذه الغواشي ، وعدد الأعضاء المكلفة ثمانية وهي : العين ، والأذن ، واللسان ، واليد ، والبطن ، والفرج ، والرِّجْل ، والقلب ، فعلى كل واحد من هذه الأعضاء تكليف يخصه من أنواع الأحكام الشرعية ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ أي بما عقدوه على أنفسهم ، من الشهادة والاعتراف بربوبيته ، حين قالوا بلى شهدنا ﴿ ولا يَنْقُضُونَ الميثاقَ ﴾ أي ذلك العهد بينهم وبين الله ، وكذا عهودهم بينهم وبين الناس ، فهو تعميم بعد تخصيص ﴿ والذّينَ يَصِلونَ ما أَمرَ اللهُ بهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ما أمرهم الله بوصله ، وهذه الآية يندرج فيها أمور : الأول صلة الرحم وهو عام في كل ذي رحم ، محرماً كان أو غير محرم ، وارثاً كان أو غير وارث ، وهذا القول هو الصواب . واعلم أن قطع الرحم حرام ، والصلة واجبة ، ومعناها التفقد بالزيارة والإهداء ، والإعانة بالقول والفعل ، وعدم النسيان ، وأقله التسليم وإرسال السلام ، ولا توقيت فيها في الشرع ، بل العبرة بالعرف والعادة ، وصلة الرحم سبب لزيادة الرزق وزيادة العمر ، وهي أسرع أثراً كعقوق الوالدين فإن العاق لهما لا يمهل في الأغلب ، ولا تنزل الملائكة على قوم فيهم قاطع رحم ، والثاني الإيمان بكل الأنبياء عليهم السلام فقول بعض الضالين (نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ) قطعٌ لما أمر الله به أن يوصل ، والثالث موالاة المؤمنين فإنه يستحب استحباباً شديداً زيارة الإخوان والصالحين ، والجيران والأصدقاء ، والأقارب ، وإكرامهم وبرُّهم ، وصلتهم وذلك يختلف باختلاف أحوالهم ومراتبهم ، وينبغي للزائر أن تكون زيارته على وجه لا يكرهون ، فإن رأى أخاه يحب زيارته ويأنس به أكثر زيارته والجلوس عنده ، وإن رآه مشتغلاً بعبادة أو غيرها أو رآه يحب الخلوة يقل زيارته حتى لا يشغله عن عمله ، وكذا عائد المريض لا يطيل الجلوس عنده ، إلا أن يستأنس به المريض ، ومن تمام المواصلة المصافحة عند

الملاقاة ، ويستحب مع المصافحة البشاشة بالوجه والدعاء بالمغفرة وغيرها * والرابع مراعاة حقوق كافة الخلق حتى الهرة والدجاجة ، روي أن امرأة عذبت في هرة حبستها فلم تطعمها إلى أن ماتت ، وامرأة رحمها الله وغفر لها بسبب أن سقت كلباً عطشان بخفها ، وكان أويس القرني يقتات من المزابل ويكتسي منها فنبحه يوماً كلب على مزبلة ، فقال له أويس : كل مِمَّا يليك وأنا آكل مما يليني ، ولا تنبحني فإن جزتُ الصراط فأنا خير منك ، وإلا فأنت خير مني وكما قيل : (رب بهيمةٍ خيرٌ من راكبها) ﴿ **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾ أي وعيده عموماً ﴿ **وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ** ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يُحاسبوا ﴿ **والذين صَبَرُوا** ﴾ على ما تكرهه النفوس من أنواع المصائب ومخالفة الهوى من مشاق التكاليف ﴿ **ابتِغَاءَ وجْهِ رِبِّهِمْ** ﴾ طلباً لرضاه من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ، وفي الحديث القدسي (إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - أي العينين - فصبر عوضته منهما الجنة)[1] روي أن شقيق بن إبراهيم البلخي دخل على عبد الله بن المبارك متنكراً ، فقال له عبد الله من أين أتيت ؟ فقال من بلخ قال : وهل تعرف شقيقاً ؟ قال نعم ، قال كيف طريقة أصحابه ؟ فقال إذا مُنعوا صبروا ، وإذا أعطوا شكروا ، فقال عبد الله : طريقة كلابنا هكذا ، فقال : وكيف ينبغي أن يكون الأمر ؟ فقال الكاملون هم الذين إذا مُنعوا شكروا ، وإن أُعْطوا آثروا ﴿ **وَأَقَامُوا الصَّلٰوةَ** ﴾ المفروضة أي داموا على إقامتها ﴿ **وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** ﴾ أي بعضه الذي وجب عليهم إنفاقه فمن للتبعيض ، والمراد بالبعض المتصدَّق به « الزكاة » المفروضة ، لاقترانه بالصلاة التي هي أخت الزكاة وشقيقتها ﴿ **سِرّاً** ﴾ لأنها في السر أفضل ﴿ **وَعَلاَنِيَةً** ﴾ أي وقتي سر وعلانية أو إنفاق سر وعلانية ، وإسرار النوافل من الصدقات أفضلُ ، والإعلان بالفرائض ، ومن الإنفاق الواجب الإنفاق على الأبوين إذا كانا فقيرين .

واعلم أن الله تعالى أسند الإنفاق إليهم ، وإعطاء الرزق إلى ذاته تعالى ، تنبيهاً على أنهم أمناء الله فيما أعطاهم ووكلاؤه ، والوكيل دخيل في التصرف لا أصيل ، فينبغي له أن يلاحظ جانب الموكِّل لا جانب نفسه ولا جانب الخلق ، وقد قالوا : من طمع في شكر أو ثناء فهو بياع لا جواد ، فإنه اشترى المدح بماله ، والجود هو بذل الشيء من غير غرض ﴿ **وَيَدْرَءُونَ بالحَسنةِ السَّيِّئَةَ** ﴾ ويدفعونها بها فيجاوزون الإساءة بالإحسان ، والظلم بالعفو ، والحرمان بالعطاء ، أو المعنى : يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها ، وعن ابن كيسان : إذا أذنبوا تابوا ، فيكون المراد بالحسنة التوبة ، وبالسيئة المعصية ، قال عبد الله بن

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في المرض بلفظ : إن الله تعالى قال : (إذا ابتليتُ عبدي بحبيبَتَيْهِ ثم صبر عوضته منهما الجنة) يريد عينيه وانظر جامع الأصول ٦ / ٤٣٣ وأخرجه الترمذي أيضاً قريباً منه ، وقد تقدم الحديث .

المبارك : هذه ثمان خصال مسيرة إلى ثمانية أبواب الجنة ﴿ **أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدارِ** ﴾ عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ، وهي ﴿ **جَنّاتُ عَدْنٍ** ﴾ والعدن : الإقامة يقال عدن بالبلد يعدن أي أقام ﴿ **يَدْخُلونَها** ﴾ أي جنات يقيمون فيها ، ولا يخرجون منها بعد الدخول ﴿ **ومَنْ صلحَ مِنْ آبائِهِمْ** ﴾ المعنى أنه يلحق بهم الصلحاء من أبويهم ﴿ **وأَزْواجِهِمْ** ﴾ جمع زوج ويقال للمرأة الزوج والزوجة ، والزوج أفصح ﴿ **وذُرِيّاتِهِمْ** ﴾ أولادهم وإن لم يبلغوا مبلغ فضلهم تبعاً لهم ، وتعظيماً لشأنهم ، وتكميلاً لفرحهم ، ويقال من أعظم سرورهم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكروا الله على الخلاص منها ، والفوز بالجنة ﴿ **والملائِكَةُ يدْخُلونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ** ﴾ من أبواب المنازل فإنه يكون لمقامهم ومنازلهم أبواب فيدخلون عليهم من كل باب ملك ﴿ **سَلامٌ عليْكُمْ** ﴾ قائلين سلام عليكم ، يعني سلمكم الله من العذاب سلامة وما تخافون منه ، قال مقاتل : يدخلون عليهم ثلاث كرات معهم الهدايا والتحف من الله ، يقولون سلام عليكم بشارة لهم بدوام السلامة ﴿ **بما صَبَرْتُمْ** ﴾ أي هذه الكرامة العظمى بسبب صبركم في الدنيا على الفقر ، وملازمة الطاعة ، تعبتم ثمة فاسترحتم هنا ﴿ **فَنِعْمَ عُقْبى الدارِ** ﴾ أي فنعم عقبى الدار جنات عدن ، وقد وعدهم الله بثلاثة أمور : الأول الجنة ، والثاني أن يضم إليهم من آمن من أهلهم ولم يعملوا مثل عملهم ، والثالث دخول الملائكة عليهم من كل باب مبشرين لهم بدوام السلامة ، حكي عن الشيخ عبد الواحد بن زيد رحمه الله قال : كنت في مركب فطرحتنا الريح إلى جزيرة وإذا فيها رجل يعبد صنماً ، فقلنا له يا رجل من تعبد ؟ فأومأ إلى الصنم فقلنا له إن إلهك هذا مصنوع ، عندنا من يصنع مثله ، ما هذا يإله يعبد ، قال فأنتم من تعبدون ؟ قلنا نعبد الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض بطشه ، وفي الأحياء والأموات قضاؤه ، قال ومن أعلمكم بهذا ؟ قلنا وجَّه إلينا رسولاً كريماً فأخبرنا بذلك ، قال فما فعل الرسول فيكم ؟ قلنا لما أدى الرسالة قبضه الله إليه ، وترك عندنا كتاباً ، فأتيناه بالمصحف ، وقرأنا عليه سورة ، فلم يزل يبكي حتى ختمنا السورة ، فقال ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يُعصى ، ثم أسلم وعلمناه شرائع الدين وسوراً من القرآن ، فلما كان الليل صلينا العشاء ، وأخذنا مضاجعنا ، فقال يا قوم هذا الإله الذي دللتموني عليه ينام إذا جن الليل ؟ قلنا : لا قال : فبئس العبيد أنتم تنامون ، ومولاكم لا ينام ، فأعجبنا كلامه فلما قدمنا عبادان قلت لأصحابي هذا قريب عهد بالإسلام ، فجمعنا له دراهم وأعطيناه فقال : ما هذا ؟ قلنا دراهم تنفقها ، فقال لا إله إلا الله دللتموني على طريق لم تسلكوها ، أنا كنت في جزائر البحر أعبد صنماً من دونه ، فلم يضيعني وأنا لا أعرفه ، فكيف يضيعني الآن وأنا أعرفه ؟ فلما كان بعد ثلاثة أيام قيل لي إنه في الموت فأتيته فقلت له هل من حاجة ؟ قال قضى حوائجي من جاء بكم إلى الجزيرة ، قال عبد الواحد فغلبتني عيناي فنمت

عنده فرأيت روضة خضراء فيها قبة ، وفي القبة سرير ، وعلى السرير جارية حسناء لم ير أحسن منها ، وهي تقول بالله ألا ما عجلتم به إليّ فقد اشتد شوقي إليه ، فاستيقظت فإذا به قد فارق الدنيا ، فغسلته ، وكفنته ، وواريتُه ، فلما كان الليل رأيت في منامي تلك الروضة ، وفيها تلك القبة ، وفي القبة ذلك السرير ، وعلى السرير تلك الجارية ، وهو إلى جانبها وهو يقرأ هذه الآية (**والملائكَةُ يَدْخُلونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلّ بابٍ سلامٌ عليكُمْ بما صَبَرْتُمْ فنِعْمَ عُقبى الدار**) ﴿ **وَالَّذِينَ** ﴾ هم الكفار ﴿ **يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ** ﴾ المأخوذ عليهم بالطاعة والإيمان ﴿ **مِنْ بعْدِ ميثاقِهِ** ﴾ أي من بعد توكيد ذلك العهد بالإقرار والقبول ﴿ **ويَقْطَعونَ ما أمَرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ** ﴾ أي يقطعون الأرحام ، وموالاة المؤمنين ﴿ **ويُفْسِدونَ في الأرضِ** ﴾ بالظلم وتهييج الحروب ، والفتن ، وفي الحديث (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) وهي إيقاع الناس في الاضطراب والاختلال والاختلاف ، وذلك حرام لأنه فساد في الأرض وإضرار بالمسلمين وزيغ وإلحاد في الدين ﴿ **أُولئِكَ لَهُمُ اللّعْنَةُ** ﴾ في الآخرة ، واللعنةُ : الإبعادُ من الرحمة ، والطردُ من باب القرب ﴿ **وَلَهُمْ سَوءُ الدّارِ** ﴾ أي سوء عاقبة الدنيا وهي جهنم ، فاللعنة وسوء العاقبة لاصقان بهم ، وفيه تنفير للمسلمين عن هذه الخصال الثلاث ﴿ **اللهُ يَبْسُطُ الرِزْقَ** ﴾ يوسعه في الدنيا ﴿ **لمنْ يَشاءُ** ﴾ بسطه وتوسيعه ﴿ **وَيقْدِرُ** ﴾ أي يضيِّق الرزق لمن يشاء ويعطيه بقدر كفايته ، لا يَفضل عنه شيء ، وفتحُ باب الرزق في الدنيا لا تعلق له بالكفر والإيمان ، بل هو متعلق بمجرد مشيئة الله ، فقد يضيق على المؤمن امتحاناً لصبره ، وتكفيراً لذنوبه ، ورفعاً لدرجاته ، ويوسع على الكافرين استدراجاً ومنه ما وقع لأكثر كفار قريش من السعة ، ثم إن الله تعالى جعل الغنى لبعضهم صلاحاً ، وجعل الفقر لبعضهم صلاحاً ، وفي الكل حكمة ومصلحة ﴿ **وفَرِحُوا** ﴾ يعني مشركي مكة ، والفرح لذة في القلب لنيل المشتهى ﴿ **بالحيٰوةِ الدُّنْيَا** ﴾ بما بسط لهم في الدنيا ، فرح بطر وأشر ، لا فرح شكر وسرور بفضل الله وإنعامه عليهم ﴿ **وما الحيٰوةُ الدّنْيا في الآخِرَةِ** ﴾ أي وما الحياة القريبة كائنة في جنب حياة الآخرة ، أي بالقياس إليها ﴿ **إلا متاعٌ** ﴾ إلا شيء قليل يتمتع به كزاد الراعي وعجالة الراكب ، حكي أنه حمل إلى بعض الملوك قدح مرصع بالجوهر ، وفرح به الملك فرحاً شديداً ، فقال لمن عنده من الحكماء : كيف ترى هذا ؟ قال أراه فقراً حاضراً ، ومصيبة عاجلة ، قال وكيف ذلك ؟ قال : إن انكسر كان مصيبة لا جبر لها ، وإن سرق صرت فقيراً إليه ، وقد كنت قبل أن يُحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر ، فاتفق أنه انكسر القدح يوماً فعظمت المصيبة على الملك ، وقال صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا ﴿ **ويقولُ الّذِينَ كَفَروا** ﴾ ثبتوا واستمروا على كفرهم وعنادهم ، وهم كفار مكة ﴿ **لوْلا** ﴾ هلاّ ﴿ **أنزِل عليْهِ** ﴾ على محمد ﴿ **آيةٌ** ﴾ عظيمة كائنة ﴿ **مِنْ رَبّهِ** ﴾ مثل آيات موسى وعيسى عليهما السلام ، من العصا وإحياء الموتى ونحوهما ، لتكون دليلاً وعلامة على صدقه ﴿ **قُلْ**

﴿ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ﴾ إضلاله فلا تغني عنه كثرة المعجزات شيأ ، إذا لم يهده الله ﴿ وَيَهْدي إِلَيهِ مَنْ أَنابَ ﴾ من أقبل إلى الحق ، ورجع عن العناد ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي هم الذين آمنوا ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بِذِكرِ اللهِ ﴾ إذا سمعوا ذكر الله أحبوه واستأنسوا به ، والكفار يفرحون بالدنيا ويستبشرون بذكر غير الله كما قال تعالى (وَإِذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلوبُ الَّذِينَ لا يؤمِنونَ بِالآخِرَةِ وَإِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرون) ﴿ أَلا بِذكرِ اللهِ تطْمَئِنُّ القُلوبُ ﴾ قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين وفي الحديث الصحيح قال أبو معاوية : (خرج رسول الله يوماً على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ فقالوا : جلسنا نذكر الله ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ، قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا آللهِ ما أجلسنا إلا ذاك ، قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة ، ولكن أتاني جبرائيل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة)[1] ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالحاتِ ﴾ الذين جمعوا بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح بالجوارح ﴿ طُوبىٰ لَهُمْ ﴾ وهو مصدر من طاب ، كزلفى وبشرى أي غبطة وسرور لهم وفرح ﴿ وحُسْنُ مآبٍ ﴾ أي مرجع يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ، ينقلبون ويرجعون إليه في الآخرة وهو الجنة ﴿ كَذلِكَ ﴾ أي مثل إرسالنا الرسل إلى أممهم قبلك يا محمد ﴿ أَرْسلْناكَ في أُمّةٍ ﴾ بمعنى إلى كما في قوله تعالى (فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْواهِهِمْ) ﴿ قَد خَلَتْ ﴾ مضت وتقدمت ﴿ مِنْ قَبْلِها ﴾ عائد إلى أمة على لفظها ﴿ أُمَمٌ ﴾ أرسلوا إليهم ، فليس ببدع إرسالك إلى أمتك ﴿ لِتَتْلُوَ عَليهِمُ الذّي أوحينا إليْكَ ﴾ أي لتقرأ عليهم الكتاب العظيم ، الذي أوحيناه إليك وهو القرآن ، وما فيه من شرائع الإسلام فإن المقصود من نزول القرآن هو العمل بما فيه ، وتحصيل السيرة الحسنة ، لا التلاوة المحضة ، والاستماع المجرد ﴿ وَهُمْ يَكْفُرونَ بِالرّحْمٰنِ ﴾ أي وحالهم أنهم يكفرون بالله الواسع الرحمة ، ولا يعرفون قدر رحمته وإنعامه إليهم بإرسالك ، وإنزال القرآن العظيم عليهم ، روي أن أبا جهل سمع النبي عليه السلام وهو في الحِجْر يدعو : يا ألله يا رحمن ، فرجع إلى المشركين وقال إن محمداً يدعو إلهين ، يدعو الله ، ويدعو آخر يسمى الرحمن ، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، يعني به مسيلمة الكذاب ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ هُوَ ﴾ أي الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿ رَبّيْ ﴾ خالقي ومتولي أمري ﴿ لاإلهَ إلاّ هُوَ ﴾ أي لا مستحق للعبادة سواه ، المختص بالإلهية ﴿ عليْهِ تَوكّلْتُ ﴾ إليه أسندت أمري ﴿ وإليْهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ مَتابِ ﴾ متابي أي مرجعي ومرجعكم فيرحمني وينتقم لي منكم وفي قوله (وَهُمْ يكْفُرونَ بالرّحْمٰنِ) إشارة إلى أن الكفر والإنكار من أقبح القبائح ،

(١) الحديث أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ، والترمذي في الدعوات والنسائي في القضاة باب كيف يستخلف الحاكم ، انظر جامع الأصول ٤/٤٧٣.

كما أن الإيمان والإقرار من أحسن المحاسن ، ولحسن الظن ، والاعتقاد الحسن تأثيرٌ بليغ ، روي أن جماعة من السراق نزلوا على أهل رباط فسأل عنهم صاحب الرباط فاستحيوا منه ، وقالوا نحن الغزاة ، فهيأ لهم طعاماً وجاءت امرأةبطْستٍ ليغسلوا أيديهم قبل الطعام وقالت : إن لي بنتاً عمياء أغسلها تبركاً بغسالة الغزاة ، فغسلوا فغسلت المرأة وجه ابنتها بها فأصبحتْ سالمة من العمى وكانت سبباً لتوبتهم ﴿ **ولو أنّ قُرْآنا** ﴾ روي أن نفراً من مشركي مكة معهم أبو جهل ابن هشام وعبد الله بن أمية قالوا يا محمد إن سَّرك أن نتبعك ، فسيِّر لنا بقرآنك الجبال عن مكة ، فإنها ضيقة حتى تتسع لنا الأرض ، فنتخذ البساتين والمحارث ، وشقِّقْ الأرض ، وفجرّ لنا الأنهار والعيون كما في أرض الشام ، وأحي رجلين ممن مات من آبائنا ليكلمونا ونسألهم عن أمرك ، أحق ما تقول أم باطل ؟ فلما اقترحوا عليه ﷺ هذه الآيات نزل قوله (**ولو أنّ**) الخ ، وجواب الشرط محذوفٌ كما سيأتي ﴿ **سُيِّرتْ بهِ الجبالُ** ﴾ أي نقلت من أماكنها وأذهبت عن وجه الأرض ﴿ **أو قُطّعتْ بهِ الأرْضُ** ﴾ شققت فجعلت أنهاراً وعيونا ﴿ **أو كُلِّمَ بهِ** ﴾ أحيي ﴿ **الموْتى** ﴾ أي لكان هذا القرآن ، لكونه غاية في الإعجاز ونهاية في التذكير ، والمراد منه تعظيم شأن القرآن والرد على المشركين الذين كابروا في كون القرآن آية ، واقترحوا آية غيرها ، والتنبيه على أن ما ينفعهم في دينهم خير لهم مما ينفعهم في دنياهم كالزراعة ونحوها ﴿ **بَلْ للهِ الأَمْرُ** ﴾ أي أمر خلقه ﴿ **جَميعاً** ﴾ فله التصرف في كل شيء ، وله القدرة على ما أراد ، وهو قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك لعلمه بأنه لا تنفعهم الآيات ﴿ **أفلَم ييْأَسِ الّذِينَ آمنُوا** ﴾ اليأسُ : قطع الطمع عن الشيء والقنوط منه ، والاستفهام بمعنى الأمر ، روي أن طائفة من المؤمنين قالوا يا رسول الله أجب هؤلاء الكفار إلى ما اقترحوا من الآيات ، فعسى أن يؤمنوا فقال تعالى أفلم يقنط المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة ؟ بعد ما أرادوا ذلك ، وكثرة عنادهم بعد ما شاهدوا الآيات ؟ ﴿ **أنْ** ﴾ أي علماً منهم أنه ﴿ **لوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدىٰ النّاسَ جَميعاً** ﴾ فآمنوا ﴿ **ولاَ يزالُ الذّين كَفَروا** ﴾ بالرحمن وهم كفار مكة ﴿ **تُصِيبُهُمْ بما صَنَعُوا** ﴾ أي بسبب ما فعلوا من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿ **قارِعَةٌ** ﴾ داهية تقرعهم وتفجأهم ، من القتل والأسر والحرب والجدب ، وأصل القرع الضرب والصدع ﴿ **أو تَحُلُّ** ﴾ القارعة أي تنزل ﴿ **قَريباً مِنْ دَارِهِمْ** ﴾ أي مكة فيفزعون منها ويقلعون ، ويتطاير عليهم شررها ، ويجوز أن يكون « تحلُّ » خطاباً للنبي عليه السلام ، فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية فأغار على أموالهم ومواشيهم ﴿ **حَتّى يأتيَ وعْدُ اللهِ** ﴾ وهو موتهم أو يوم القيامة ﴿ **إنّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعَادَ** ﴾ لامتناع الخلف لكونه نقصاً منافياً للألوهية والميعاد بمعنى الوعد كالميلاد والميثاق ﴿ **وَلقَدِ اسْتُهْزِىءَ برُسُلٍ منْ قبْلِكَ** ﴾ كاستهزاء قومك بك ، والتنكير للتكثير أي بجميع الرسل من قبلك ، ومعنى الاستهزاء الاستحقار والاستهانة ﴿ **فأمْليتُ للذّين كَفَروا** ﴾ أي للمستهزئين

الذين كفروا ، والإملاءُ : الإمهالُ أي أطلت لهم المدة في أمن وسَعَة ليتمادوا في المعصية ﴿ **ثُمْ أَخذْتُهُمْ** ﴾ بالعقوبة بعد الإملاء والاستدارج ﴿ **فَكَيْفَ كانَ عِقَابِ** ﴾ عقابي إياهم أي كيف رأيت ما صنعتُ بمن استهزأ برسلي ؟ وهذا تعجيب من شدة أخذه لهم ﴿ **أَفَمَنْ** ﴾ أي أفالله الذي ﴿ **هُوَ قَائِمٌ** ﴾ رقيب ﴿ **عَلى كُلّ نفْسٍ** ﴾ صالحة أو طالحة ﴿ **بما كَسَبتْ** ﴾ من خير وشر ، يحفظه عليها فيجازيه بها كمن ليس بهذه الصفة من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ؟ أي لا يكون من هو قائم على كل نفس يعلم خيرها وشرها ويجازيها على حسب ذلك ، كمن ليس بقائم متناهٍ في العجز والضعف والجهل ﴿ **وَجَعلُوا للهِ شُرَكاءَ** ﴾ أي الأصنام يعني أن الكفار سوّوا بين الله وبين الأصنام ، واتخذوها شركاءَ له في العبادة ، فما أعجب كفرهم وإشراكهم وتسويتهم مع علمهم التفاوت بينهما ، أي تعجبوا من ذلك ﴿ **قُلْ سَمّوهُمْ** ﴾ بينوا شركاءكم بأسمائهم وصفوهم بصفاتهم ، فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة ؟ ﴿ **أَمْ تُنَبّئُونَهُ** ﴾ أي بل أتخبرون الله تعالى ﴿ **بما لا يَعْلَمُ في الأَرْضِ** ﴾ أي بما لا وجود له ، ولاعلم للهِ متعلقٌ بوجوده ، وهو الشركاء المستحقون للعبادة ؟ ﴿ **أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ القَوْلِ** ﴾ بل تسمونهم شركاء بكلام لا حقيقة له ﴿ **بَلْ زُيّنَ للّذينَ كَفَروا مَكْرُهُمْ** ﴾ زينت لهم أنفسهم بتخيلهم أباطيل ثم ظنهم إياها حقاً ، والمكرُ : صرف الغير عما يقصده بحيلة ، ﴿ **وَصُدُّوْا** ﴾ من الصدِّ وهو المنع ﴿ **عَنِ السّبيلِ** ﴾ سبيل الحق ﴿ **وَمنْ يُضْلِلِ اللهُ** ﴾ يخذله عن سبيله ﴿ **فما لَهُ مِنْ هادٍ** ﴾ فماله من أحد يقدر على هدايته ويوفقه لها ﴿ **لَهُمْ عَذابٌ في الحيٰوةِ الدُّنْيا** ﴾ بالقتل والأسر وسائر ما ينالهم من المصائب والمحن ﴿ **وَلَعذابُ الآخِرةِ أَشَقُّ** ﴾ أشد وأصعب لدوامه ، وهو عذاب النار ﴿ **وَما لَهُمْ مِن اللهِ** ﴾ أي من عذابه ﴿ **منْ وَاقٍ** ﴾ حافظ ومانع حتى لا يعذبوا ، وكان ابن مرثد لا تنقطع دموع عينيه ، ولا يزال باكياً ، فسئل عن ذلك فقال : لو أن الله أوعدني بأني لو أذنبتُ لحبسني في الحمام أبداً ، لكان حقيقاً عليَّ أنها لا تنقطع دموعي ، فكيف وقد أوعدني بأن يحبسني في نار قد أوقد عليها ثلاثة آلاف سنة ، أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم أخرى حتى ابيضت ، ثم اخرى حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم ﴿ **مَثَلُ الجنّةِ التّي وُعِدَ المتّقُونَ** ﴾ أي صفتها التي هي كالمثل السائر في الغرابة ﴿ **تَجْري مِنْ تحْتها الأَنهارُ** ﴾ أي وُعد بها المتقون مقدراً جريانُ أنهارها من تحت أشجارها ﴿ **أُكُلُها** ﴾ ما يؤكل فيها ﴿ **دَائِمٌ** ﴾ لا ينقطع ولا يمنع منه بخلاف ثمر الدنيا ﴿ **وَظِلُّها** ﴾ أي وظلها دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ، لأنه لا شمس في الجنة ، ولا حر ولا برد ، وفي الآية رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى ، وما أحسن قول لبيدٍ :

أَلا كُلُّ شيءٍ ما خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ * وكلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ

﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة التي بلغكَ وصفها وسمعتَ بذكرها ﴿ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ مآلهم وعاقبة أمرهم ﴿ وَعُقْبَى الكافِرِينَ النَّارُ ﴾ لا غيره ، فالتقوى طريق إلى الجنة ، والكفر طريق إلى النار ﴿ والَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ﴾ يريد المسلمين من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ، ومن النصارى ، ثمانون رجلا فالمراد بالكتاب التوراة والإنجيل ﴿ يَفْرحُون بما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ بجميعه وهو القرآن كله ، لأنه من فضل الله ورحمته على العباد ، ولا شك أن المؤمن الموقن يسرُّه ما جاء إليه من باب الفضل والإحسان ﴿ وَمِنَ الأحْزاب ﴾ ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأتباعه ﴿ مَنْ يُنكِرُ بعْضَهُ ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد في جواب المنكرين ﴿ إِنَّما أُمِرْتُ أن أعْبُدَ اللهَ ولا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أي إنما أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله وأوحّده ، وهو العمدة في الدين ، وأما ما تنكرونه لما يخالف شرائعكم ، فليس ببدع مخالفة الشرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام ، لأن الله الحكيم ينزل بحسب ما يقتضيه صلاح أهل العالم ، كالطبيب يعامل المريض بما يناسب مزاجه من التدبير والعلاج ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى الله ، وتوحيده لا إلى غيره ﴿ أُدْعُوا ﴾ أخصه بالدعاء إليه في جميع مهامي ﴿ وإِلَيْهِ مآبِ ﴾ أي مرجعي ومرجعكم للجزاء لا إلى غيره ﴿ وكذلِكَ ﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب على الأنبياء بلغة أممهم .

﴿ أنزلْناهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ حُكْماً ﴾ يحكم في كل شيء يحتاج إليه العباد على مقتضى الحكمة والصواب ، ويقال حُكْماً أي محكماً لا يقبل النسخ والتغيير ﴿ عَرَبِيّاً ﴾ مترجما بلسان العرب ، ليسهل لهم فهمه وحفظه روي أن المشركين كانوا يدعونه عليه السلام إلى اتباع ملة آبائهم المشركين ، وكان اليهود يدعونه إلى الصلاة إلى قبلتهم ، أي بيت المقدس بعد ما حُوّل عنها فقال تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أهْواءَهُمْ ﴾ التي يدعونك إليها من الدين الباطل والطريق الزائغ ، من غير سند مقبول ، ودليل معقول ، لكونه هوى محضاً ﴿ بَعْدَ ما جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ من الدين المعلوم صحته بالبراهين ﴿ مالَكَ مِنَ اللهِ ﴾ من عذابه ﴿ مِنْ وَلِيٍ ﴾ ينصرك ﴿ ولا واقٍ ﴾ يحفظك ويمنع عنك العذاب ، وهذا خطاب له عليه السلام والمراد تحريض أمته على التمسك بالدين ، وتحذيره من التزلزل ، فإنه إذا حذر من كان أرفع منزلة من الكل هذا التحذير ، كان غيره أولى بذلك ﴿ ولقدْ أرْسلنا رُسُلاً مِنْ قبْلِكَ ﴾ بشراً مثلك يا محمد ﴿ وَجعلنَا لَهُمْ أزْواجاً وَذُرِيَّةً ﴾ أي نساء وأولاداً كما هي لك ، وهو جواب لقول اليهود ما ترى لهذا الرجل همة إلا في النساء والنكاح ، ولو كان نبياً لاشتغل بالزهد والعبادة ، روي أنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة ، وثلاثمائة سرية ، ولابنه سليمان عليه السلام ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية ، فكيف يضر كثرة الأزواج لنبينا عليه السلام ؟ ﴿ ومَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ وما صح لواحد منهم ولم

يكن في وسعه ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ تقترح عليه ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي بأمره لا باختيار نفسه ورأيه ، فإنهم عبيد مربوبون منقادون ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ وقت ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي لكل شيء قضاه الله وقت مكتوب معلوم ، لا يزداد عليه ولا ينقص منه ، أو لا يتقدم ولا يتأخر عنه ﴿ يَمْحو اللهُ ما يَشاءُ ﴾ محوه ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ ما يشاء إثباته فينسخ ما يستصوب نسخه ، ويثبت بدله ما هو خير منه أو مثله ، ويترك ما يقتضيه حكمته غير منسوخ ، أو يمحو سيئآت التائب ويثبت الحسنات مكانها ، أو يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة ، وذلك لأنهم مأمورون بكتب جميع ما يقول الإنسان ويفعل فإذا كان يوم الاثنين والخميس يعارض ما كتبه الحفظة بما في اللوح المحفوظ فينفي من كتاب الحفظة مالا جزاء له من ثواب وعقاب ، ويثبت ماله جزاء من أحدهما ، أو يمحو ويثبت في السعادة والشقاوة ، والرزق والأجل ، روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول : « اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة ، فأثبتني فيها ، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة فامحني ، وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة ، لأنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب » وإن التغير والتبدل والمحو والإثبات، إنما هو بالنسبة إلى السعادة والشقاوة العارضتين فإنها تقبلان ذلك ، بخلاف الأصليتين كما روي أنه عليه السلام قال (إذا مضت على النطفة خمس وأربعون ليلة يدخل الملك على تلك النطفة ، فيقول يارب : أشقي أم سعيد ؟ فيقضي الله ويكتب الملك ، فيقول يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ويكتب الملك ، فيقول عمله ورزقه ؟ فيقضي الله ويكتب الملك ، ثم تُطْوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها)[1] وعلى هذا يحمل قول بعضهم إنَّ الله (يَمْحُو ما يَشاءُ ويُثْبِتُ) إلا الشقاوة والسعادة ، والموت والحياة ، والرزق والعمر ﴿ وَعِنْدَهُ ﴾ تعالى ﴿ أُمُّ الكِتابِ ﴾ أي أصله الذي لا يتغير منه شيء ، وهو ما كتبه في الأزل ، وهو العلم الأزلي الأبدي السرمدي ﴿ وَإِمّا نُرِيَنّكَ ﴾ في حياتك يا أفضل الرسل ، وأصله وإن وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ﴿ بَعْضَ الذّي نَعِدُهُمْ ﴾ أي مشركي مكة من العذاب والزلازل والمصائب ، والجواب محذوف أي فذاك شافيك من أعدائك ﴿ أَوْ نَتَوَفَيَنَّكَ ﴾ أي نقبض روحك الطاهرة قبل إرادة ذلك فلا تحزن ﴿ فَإِنّما عليْكَ البَلاغُ ﴾ أي تبليغ الرسالة وأداء الأمانة لا غير ﴿ وَعلَيْنا الحِسابُ ﴾ أي مجازاتهم يوم القيامة لا عليك ، فننتقم منهم أشد الانتقام ، فلا يهمنك إعراضهم ولا تستعجل بعذابهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّا نأْتي الأَرْضَ ﴾ أي يأتي أمرنا أرض الكفرة ﴿ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ﴾ أي نفتح ديار الشرك بمحمد والمؤمنين به فما زاد في بلاد الإسلام باستيلائهم عليها جبراً

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في القدر بلفظ (إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً فصورها ...) إلخ وانظر جامع الأصول ١٠ / ١١٥ .

وقهراً نقص من ديار الكفرة والله تعالى إذا قدر على جعل بعض ديار الكفرة للمسلمين فهو قادر على أن يجعل الكل لهم ، أفلا يعتبرون ؟ ﴿ **واللهُ يحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ** ﴾ أي يحكم نافذاً حكمه ، خالياً عن المعارض والمناقض ، والمعنى إنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس ، وذلك كائن لا يمكن تغييره ﴿ **وَهُوَ سَرِيعُ الحِسابِ** ﴾ فيحاسبهم عما قليل في الآخرة ، بعد عذاب الدنيا من القتل والإجلاء وقال بعضهم : نقصُ الأرض بموت العلماء والفقهاء والخيار ، وفي الحديث (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبضِ العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فأفتوا بغير علم ، فضلّوا وأضلّوا)[1] وقال ابن المبارك : ما جاء فساد هذه الأمة إلا من قبل الخواص ، وهم خمسة : العلماء ، والغزاة ، والزهاد ، والتجار ، والولاة ، أما العلماء فهم ورثة الأنبياء ، وأما الزهاد فعماد الأرض ، وأما الغزاة فجند الله في الأرض ، وأما التجار فأمناء الله في الأمة ، وأما الولاة فهم الرعاة ، فإذا كان العالم للدين واضعاً ، وللمال رافعاً ، فبمن يقتدي الجاهل ؟ وإذا كان الزاهد في الدنيا راغباً فبمن يقتدي التائب ؟ وإذا كان الغازي طامعاً فكيف يظفر بالعدو ؟ وإذا كان التاجر خائناً فكيف تحصل الأمانة ؟ وإذا كان الراعي ذئباً فكيف تحصل الرعاية ؟ ﴿ **وقَدْ مكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ أي مكر الذين قبل مشركي مكة بأنبيائهم والمؤمنين بهم ، كما مكر أهل مكة بمحمد عليه السلام ، ومكرهم ما أخفوه من تدبير القتل والإيذاء بهم ، مَكَر نمرودُ بإبراهيم عليه السلام ، ومَكَر فرعون بموسى عليه السلام ، واليهود بعيسى عليه السلام ، وثمود بصالح عليه السلام ، ومكر كفار مكة في دار الندوة حين أرادوا قتل النبي ﷺ ﴿ **فَلِلَّهِ المكْرُ جَميعاً** ﴾ مكرُ اللهِ : إهلاكهم من حيث لا يشعرون ، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة ، ثم بيَّن قوة مكره وكماله بقوله ﴿ **يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ من خير وشر فيعد جزاءها ﴿ **وَسَيَعْلَمُ الكُفّارُ لِمَنْ عُقبى الدَّارِ** ﴾ من الفريقين حينما يأتيهم العذاب المعدّ لهم ، وهم في غفلة منه ، واللام تدل على أن المراد بالعُقْبى : العاقبة المحمودة وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان ، وتلقّي الملائكة له بالبشرى عند الموت ودخول الجنة ﴿ **وَيقولُ الذّينَ كَفَروا** ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ **لَسْتَ** ﴾ يا محمد ﴿ **مُرْسَلاً** ﴾ كما قالت الفلاسفة إنه حكيم وليس برسول ﴿ **قُلْ كَفَى باللهِ** ﴾ الباء دخلت على الفاعل ﴿ **شَهيداً** ﴾ تمييز ﴿ **بَيْنِي وبَيْنَكُمْ** ﴾ والمراد بشهادة الله تعالى إظهار المعجزات الدالة على صدقه في دعوى الرسالة ﴿ **وَمَنْ عِنْدَهُ أمُّ الكِتابِ** ﴾ وهو الذي علمه الله القرآن ، وعلمه البيان وأراه آيات القرآن ومعجزاته ، فبذلك علم حقية رسالته ، وشهد بها وهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ومسلم والترمذي من حديث عبد الله بن عَمْرو بن العاص انظر جامع الأصول ٨ / ٣٣ .

المؤمنون ، فالمراد بالكتاب القرآن ، وعن عبد الله بن سلام : إن هذه الآية نزلت فيّ فالمراد به التوراة فإن عبد الله بن سلام وأصحابه وجدوا نعته عليه السلام في كتابهم ، فشهدوا بحقية رسالته ، وكانت شهادتهم أيضاً قاطعة لقول الخصوم .

تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر ﴾ يشير بالألف إلى القسم بآلائه ونعمائه ، وباللام إلى لطفه وكرمه ، وبالراء إلى القرآن يعني قسماً بآلائي ونعمائي ، إن صفة لطفي وكرمي ، اقتضت إنزال القرآن ، روي أن شخصاً رأى الإمام النسفي بعد موته في المنام ، فقال : كيف كان سؤال منكر ونكير ؟ فقال ردَّ الله إليَّ روحي فسألاني ، فقلت لهما : أخبركما في رد الجواب نظماً ، أو نثراً ؟ فقالا : قل نظماً ، فقلت :

ربّي اللهُ لا إلـــــهَ ســـــواهُ * ونبيٌّ محمـــــدٌ مصطفـــــاه
ديني الإســـــــلامُ وفعلي ذميمٌ * أســـــأل الله عفـــوه وعطـــاه

فانتبه ذلك الشخص من المنام وقد حفظ البيتين ﴿ **كتابٌ** ﴾ أي القرآن المشتمل على هذه السورة وغيرها كتاب ، فهو خبر مبتدأ محذوف ، ﴿ **أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ** ﴾ يا محمد بواسطة جبرائيل ، حال كونه حجة على رسالتك ، بإعجازه ، ثم بين المصلحة في إنزال الكتاب على رسول الله ﷺ بقوله ﴿ **لِتُخْرِجَ النَّاسَ** ﴾ كافة بدعائك وإرشادك إياهم إلى ما تضمنه الكتاب من العقائد الحقة ، والأحكام النافعة ﴿ **مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ أي من أنواع الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمة الكفر والنفاق ، إلى نور الإيمان والإخلاص ، ﴿ **بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** ﴾ أي بحوله وقوته ، وإنما قال « ربهم » لأنه تعالى مربيهم ، وما قال بإذن ربك ، ليعلم أن هذه التربية من الله لا من النبي عليه السلام ﴿ **إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ المراد دين الإسلام ، فإنه طريق موصل إلى الجنة والقربة ، والعزيزُ : الغالب الذي ينتقم لأهل دينه من أعدائهم ، والحميدُ : المحمودُ الذي يستوجب بذلك الحمد من عباده ﴿ **اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ من الموجودات من العقلاء وغيرهم ﴿ **وَوَيْلٌ** ﴾ الويل الهلاك ﴿ **لِلْكَافِرِينَ** ﴾ بالكتاب ﴿ **مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾ من لتبيين الجنس أي من عذاب شديد يضجُّون منه ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ** ﴾ أي يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الحياة الآخرة الأبدية ، قال ابن عباس : يأخذون ما تعجل فيها تهاوناً بأمر الآخرة ، وهذا من أوصاف الكافر الحقيقي ، فإنه يجدُّ ويجتهد في طلب الدنيا وشهواتها ، ويترك الآخرة بإهمال السعي في طلبها ، واحتمال الكُلفة والمشقة في مخالفة هوى النفس وموافقة الشرع ، ﴿ **وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي ويمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿ **وَيَبْغُونَهَا** ﴾ أي يطلبون لها ﴿ **عِوَجاً** ﴾ زيغاً واعوجاجاً أي يقولون لمن يريدون صده وإضلاله إنها سبيل زائغة غير مستقيمة ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بالقبائح المذكورة ﴿ **فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** ﴾

أي ضلوا عن طريق الحق ، وبعدوا عنه بمراحل ﴿ **وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسولٍ** ﴾ أي ما بعثنا رسولاً من الرسل ﴿ **إلاّ** ﴾ ملتبساً ﴿ **بلسانِ قَوْمِهِ** ﴾ أي بلغة قومه الذين هو منهم وبعث فيهم ، متكلماً بلغة من أرسل إليهم ﴿ **لِيُبَيِّنَ** ﴾ كل رسول ﴿ **لَهُمْ** ﴾ أي لقومه ما دعوا إليه وأمروا بقبوله ، فيفقهوه عنه بسهولة وسرعة ، ثم ينقلوه ويترجموه لغيرهم ، فإنهم أولى الناس بأن يدعوهم وأحق بأن ينذرهم ، ولذلك أمر النبي عليه السلام بإنذار عشيرته أولاً ﴿ **فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ** ﴾ إضلاله أي يخلق فيه الكفر والضلال ، لمباشرة الأسباب المؤدية إليه ﴿ **وَيَهْدِي مَنْ يشَاءُ** ﴾ هدايته أي يخلق فيه الإيمان والاهتداء لاستحقاقه لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق ﴿ **وَهُو العَزِيزُ** ﴾ الغالب على كل شيء فلا يغالب في مشيئته ﴿ **الحكيمُ** ﴾ الذي لا يفعل شيئاً من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغة ، وفيه أن ما فوض إلى الرسل إنما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والإرشاد إليه ، فذلك بيد الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ **ولقدْ أرْسَلْنا مُوسىٰ** ﴾ ملتبساً ﴿ **بآياتِنا** ﴾ يعني اليد والعصا وسائر معجزاته الدالة على صحة نبوته ﴿ **أنْ** ﴾ مفسرة لمفعول مقدر أي أرسلناه بأمر هو ﴿ **أَخْرِجْ قَومَكَ مِنَ الظُّلماتِ** ﴾ من أنواع الضلال التي كلها ظلمات محضة ، كالكفر والجهالة والشبهة ونحوها ﴿ **إلى النّورِ** ﴾ إلى الهدى كالإيمان والعلم واليقين وغيرها ، وقال أبو السعود : الآياتُ : معجزاته التي أظهرها لبني إسرائيل ، والمراد إخراجهم بعد مهلك فرعون من الكفر والجهالات إلى الإيمان بالله وتوحيده ﴿ **وَذَكِّرْهُمْ بأيّامِ اللهِ** ﴾ المرادُ التذكير بالوقائع التي وقعت على الأمم الماضية ، قبل قوم نوح وعاد وثمود ، والمعنى وعظهم وأنذرهم مما كان في أيام الله من الوقائع ، ليحذروا فيؤمنوا وأيام العرب ملاحمها وحروبها ، كيوم حنين ويوم بدر وغيرهما ، وقال بعضهم : ذكِّرْهم نعمائي ليؤمنوا بي ، كما روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن حبّبني إلى عبادي ، فقال يارب : كيف أحبِّبُك إلى عبادك والقلوب بيدك ؟ فأوحىٰ الله تعالى أن ذكرهم نعمائي ، ومن هنا حَسُن الكلام عند الإنسان بما يُرجِّح رجاءه ، فيقال له : لا تحزن فقد وفقك الله للحج ، أو للغزو ، أو لطلب العلم ، أو نحو ذلك من وجوه الخير ، ولو لم يرد بك خيراً لما فعله في حقك فهذا تذكير أيُّ تذكير ﴿ **إنّ في ذلكَ** ﴾ إشارة إلى أيام الله ﴿ **لآياتٍ** ﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وحدانية الله وقدرته ، وعلمه وحكمته ﴿ **لِكُلّ صَبّارٍ** ﴾ مبالغ في الصبر على طاعة الله وعلى البلايا ﴿ **شَكورٍ** ﴾ مبالغ في الشكر على النعم والعطايا ، كأنه قال لكل مؤمن كامل ، إذ الإيمان نصفان : نصفه صبر ، ونصفه شكر ﴿ **وَإذْ قالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ** ﴾ أي اذكر للناس وقت قول موسى لقومه وهم بنو إسرائيل ﴿ **اذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عليْكُمْ إذْ أنْجيٰكُمْ مِنْ آل فرْعونَ** ﴾أي إنعامه عليكم وقت إنجائه إياكم من فرعون وأتباعه وهم القبط ﴿ **يَسُومونَكُمْ سُوْءَ العَذابِ** ﴾ أي يذيقونكم شدة العذاب ويريدونكم عليه ، والمراد جنس العذاب السيء ، أو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة ، وغير ذلك مما لا يحصر ﴿ **وَيُذَبِّحُونَ أبْناءَكُمْ** ﴾

هذا من باب عطف الخاص على العام كأنَّ التذبيح لشدته وفظاعته ، وخروجه عن مرتبة العذاب المعتاد ، جنسٌ آخر ، ولو جاء بحذف الواو كما في البقرة والأعراف ، لكان تفسيراً للعذاب وبياناً له ، وإنما فعلوا لأن فرعون رأى في المنام أن ناراً أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت بيوت القبط دون بيوت بني إسرائيل ، فخوفه الكهنة وقالوا له إنه سيولد منهم ولد ، يكون على يده هلاكك وزوال ملكك ، فشمر عن ساق الاجتهاد وحسر عن ذراع العناد ، وأراد أن يدفع القضاء وظهوره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴿ **وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ** ﴾ أي يبقون نساءكم وبناتكم في الحياة ، للاسترقاق والاستخدام ، وكانوا يفردون النساء عن الأزواج ، وذلك من أعظم المضار والابتلاء ، إذ الهلاك أسهل من هذا ﴿ **وفي ذٰلِكُمْ** ﴾ أي فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة ﴿ **بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ أي محنة عظيمة لا تطاق ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ** ﴾ أي واذكروا حين تأذن ، وتأذن بمعنى آذن أي أعلم إعلاماً بليغاً ، لا يُبقي شائبة شبهة أصلاً وقيل : المعنى أوجب ربكم على نفسه ﴿ **لَئِنْ شَكَرتُمْ** ﴾ اللام لام التوطئة والمعنى وإذ تأذن ربكم فقال لئن شكرتم يا بني اسرائيل نعمة الإنجاء وإهلاك العدو ، وغير ذلك ، وقابلتموها بالثبات على الإيمان والعمل الصالح ﴿ **لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ نعمة إلى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ، ﴿ **وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ** ﴾ أي لم تشكروا نعمتي وقابلتموها بالنسيان والكفران ، أي لأعَذبَنّكم ، فيكون قوله ﴿ **إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ تعليلاً للجواب المحذوف ، ومن عادة الكرام التصريح بالوعد ، والتعريض بالوعيد ، فما ظنك بأكرم الأكرمين حيث لم يقل إن عذابي لكم ونظيره قوله تعالى (**نَبِّىءْ عِبادي أَنِّي أنا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وأَنَّ عَذابي هُوَ العَذابُ الأَلِيمُ**) ﴿ **وقَالَ مُوسىٰ إِنْ تَكْفُرُوا** ﴾ نعمه تعالى ولم تشكروها ﴿ **أَنْتُم** ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ **وَمَنْ فِي الأَرْضِ** ﴾ من الثقلين ﴿ **جَمِيعاً** ﴾حال من المعطوف والمعطوف عليه ﴿ **فَإِنَّ اللهَ** ﴾ تعليل للجواب المحذوف أي إن تكفروا لم يرجع وباله إلا عليكم فإن الله ﴿ **لَغَنِيٌّ** ﴾ عن شكركم وشكر غيركم ﴿ **حَمِيدٌ** ﴾ محمود في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا فائدة له بإيمان أحد ولا كفره ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ** ﴾ من كلام موسى ، استفهم على سبيل الإنكار فأفاد إثبات الإتيان ، فكأنه قيل أتاكم ﴿ **نَبَؤُا الَّذِينَ مِنَ قَبْلِكُمْ** ﴾ أي أخبارهم ﴿ **قَوْمِ نُوحٍ** ﴾ أغرقوا بالطوفان ، حيث كفروا ولم يشكروا نعم الله ﴿ **وَعَادٍ** ﴾ أهلكوا بالريح ﴿ **وَثَمُودَ** ﴾ أهلكوا بالصيحة ﴿ **وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ من بعد هؤلاء المذكورين ، من قوم إبراهيم ، وأصحاب مدين ، والمؤتفكات ﴿ **لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ** ﴾ إعتراض أي لا يعلم حالهم إلا الله تعالى ، فإنه انقطعت أخبارهم وَعَفت آثارهم ، وكان مالك يكره أن ينسب الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال : كذب النسَّابون ، يعني أنهم يدعون علم الأنساب وقد نفي علمها عن العباد ﴿ **جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ** ﴾ أي بالمعجزات الواضحة التي لا شبهة في حقيتها ﴿ **فَرَدُّوا أَيدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ** ﴾ أي أشاروا بها إلى ألسنتهم إقناطاً لهم من التصديق ، أوردوا

أيديهم في أفواه أنفسهم إشارة بذلك إلى الرسل أن انكفوا عن مثل هذا الكلام ، فإنكم كذبة ، وقال قتادة : كذَّبوا الرسل وردُّوا ما جاؤا به ، يقال : رددتُ قول فلان في فيه أي كذبته ﴿ **وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ** ﴾ على زعمكم من الكتب والرسالة ، وقال أبو السعود : هي البينات التي أظهروها حجة على رسالاتهم ومرادهم بالكفر بها الكُفر بدلالتها على صحة رسالاتهم ﴿ **وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ** ﴾ عظيم ﴿ **مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ** ﴾ من الإيمان بالله والتوحيد ﴿ **مُرِيبٍ** ﴾ موقع في الريبة وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ** ﴾ أي قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء ﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ** ﴾ أي أفي وجوده ووحدته شك ، وهو أظهر من كل ظاهر ؟ أي لا شك في الله ﴿ **فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي مبدعها وما فيهما من المصنوعات فهما تدلان على كون فاطر فطرهما ﴿ **يَدْعُوكُمْ** ﴾ إلى طاعته بالرسل والكتب ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ** ﴾ أي بعضها وهو ما عدا المظالم وحقوق العباد ﴿ **وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ إلى وقت سماه الله ، وجعله آخر أعماركم يبلغكموه إن آمنتم ، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت ﴿ **قَالُوا** ﴾ للرسل ﴿ **إِنْ أَنْتُمْ** ﴾ أي ما أنتم في الصورة والهيئآت ﴿ **إِلاَّ بَشَرٌ** ﴾ آدميون ﴿ **مِّثْلُنَا** ﴾ من غير فضل يؤهِّلكم لما تَدَّعون من النبوة ، فلم تخصون بالنبوة دوننا ؟ ﴿ **تُرِيدُونَ** ﴾ بدعوى النبوة ﴿ **أَن تَصُدُّونَا** ﴾ تصرفونا ﴿ **عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾ أي عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته ، وهو الأصنام من غير شيء يوجبه وإن لم يكن الأمر كما قلنا ، بل كنتم رسلاً من جهة الله ﴿ **فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ ببرهان ظاهر على صدقكم وفضلكم ، واستحقاقكم لتلك الرتبة ، لم يعتبروا ما جاءت به رسلهم من الحجج والبينات ، واقترحوا عليهم آية أخرى تعنتاً ولجاجاً ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ** ﴾ أي قالوا لهم معترفين بالبشرية ، ومشيرين إلى منَّة الله عليهم ﴿ **إِنْ** ﴾ ما ﴿ **نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ كما تقولون لا ننكره ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ** ﴾ ينعم بالنبوة والوحي ﴿ **عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ وفيه دلالة على أن النبوة عطائية كالوحي ، لا كسبية كالولاية والوزارة ﴿ **وَمَا كَانَ** ﴾ وما صح وما استقام ﴿ **لَنَا أَنْ نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ** ﴾ أي بحجة من الحجج ﴿ **إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ فإنه أمر يتعلق بمشيئة الله إنما نحن عبيد مربوبون ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ** ﴾ دون ما عداه ﴿ **فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله ﴿ **وَمَا لَنَا** ﴾ أيْ أيُّ عذر ثبت لنا ﴿ **أَنْ لا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ** ﴾ أي في أن لا نتوكل عليه ﴿ **وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا** ﴾ أي والحال أنه أرشدنا سبيله ومنهاجه الذي شرع له ، وأوجب سلوكه في الدين ، وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب الاضطراب القادح في التوكل ، قالوا على سبيل التوكيد ﴿ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا** ﴾ في أبداننا وأعراضنا ﴿ **وَعَلَى اللَّهِ** ﴾ خاصة ﴿ **فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ أي فليثبت المتوكلون فالأول لإحداث التوكل ،

والثاني للثابت عليه فلا تكرار ، والتوكل تفويض الأمر إلى من يملك الأمور كلها ، وقالوا : المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله ، فعلى هذا إذا وقع الإنسان في شدة ثم سأل غيره لم يخرج من حد التوكل ، لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ من مدينتنا وديارنا ﴿ **أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا** ﴾ أي لتصيرنّ في أهل ملتنا ، فإن الرسل لم يكونوا في ملتهم قط أو بمعنى رجع أي لتدخلن في ديننا وترجعن إلى ملتنا ، وهذا كله تعزية للنبي عليه السلام ، ليصبر على أذى المشركين ، كما صبر مَنْ قبلَه من الرسل ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ** ﴾ أي إلى الرسل ﴿ **رَبُّهُمْ** ﴾ مالك أمرهم وقال ﴿ **لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي المشركين ، فإن الشرك لظلم عظيم ﴿ **وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ** ﴾ أي أرض الظالمين وديارهم ﴿ **مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ أي من بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم لنخرجنكم من أرضنا وفي المثل (من آذى جاره ورّثه الله داره) قال الزمخشري ولقد عاينت هذه في مدة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية ويؤذيني فيه ، فمات ذلك العظيم ، وملكني الله ضيعته فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في داره ، ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول القائل (من آذى جاره ورّثه الله داره) وحدثتهم وسجدنا شكراً لله تعالى ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ أي ذلك الأمر والوعد محقق ثابت ﴿ **لِمَنْ خَافَ مَقَامِي** ﴾ موقفي وهو موقف الحساب ، لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة ، أما المؤمنون فيهوّن عليهم كما يهوّن عليهم الصلاة المكتوبة ، ويكون يوم القيامة عليهم ساعة من نهار ﴿ **وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ أي وعيدي بالعذاب وعقابي ، والمعنى أن ذلك حق لمن جمع بين الخوفين ﴿ **وَاسْتَفْتَحُوا** ﴾ أي استنصروا الله وسألوه الفتح والنصرة على أعدائهم أو الكفار ﴿ **وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ أي وخسر وهلك عند نزول العذاب قومهم المعاندون ﴿ **مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ** ﴾ أي بين يديه وقدامه ، فإنه واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها في الآخرة ﴿ **وَيُسْقَىٰ** ﴾ يُلقى فيها ويسقى ﴿ **مِنْ مَاءٍ** ﴾ مخصوص لا كالمياه المعهودة ﴿ **صَدِيدٍ** ﴾ هو القيح المختلط بالدم ، أو ما يسيل من أجساد أهل النار وفروج الزناة .

﴿ **يَتَجَرَّعُهُ** ﴾ وكلف نفسه إياها لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه ، يتكلف جرعه مرة بعد أخرى ، لا بمرة واحدة ، لمرارته ، وحرارته ، ورائحته المنتنة ﴿ **وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ** ﴾ أي لا يقارب أن يسيغه ويبتلعه فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش ، وأخرى بشربه على تلك الحال وفي الحديث (إنه يقرب إليه فيتكرهه ، فإذا أُدني منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قَطَّع أمعاءه ، حتى تخرج من دبره) ﴿ **وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ** ﴾ أي أسبابه من الشدائد والآلام ﴿ **مِنْ كُلِّ مَكَانٍ** ﴾ ويحيط به من الجهات الست ، فالمراد بالمكان : الجهةُ ، أو من كل مكان من جسده ﴿ **وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ** ﴾ أي والحال أنه

ليس بميت حقيقة فيستريح ﴿ وَمِنْ وَرائِهِ ﴾ من بين يديه أي بعد الصديد ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ لا يعرف كنهه أي يستقبل كل وقت عذاباً أشد وأشق وفي الحديث (يقال لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول نعم فيقال أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك بي شيئاً فما أردت إلا أن تشرك بي شيئاً)[1] ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ أي صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ أي حملته وأسرعت في الذهاب به ﴿ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ ﴾ ريحه أي شديد قوي ﴿ لا يَقْدِرونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ في الدنيا من أعمال الخير ﴿ على شَيْءٍ ﴾ أي لا يرون له أثراً من ثواب وتخفيف عذاب ، كما لا يرون أثراً من الرماد المطَيَّر في الريح ﴿ ذلِكَ ﴾ أي ما دل عليه التمثيل يعني كفرهم وأعمالهم المبنية عليه وعلى التفاخر والرياء ﴿ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ ﴾ صاحبه عن طريق الحق والصواب بمراحل ، شبَّه الله صنائع الكفار من الصدقة وصلة الرحم ونحو ذلك مما هو من باب المكارم في حبوطها وذهابها هباء منثوراً ـ لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به وكونها لوجهه ـ برماد طيَّرته الريح العاصف ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ والمراد أمته لقوله « يذهبكم » والأمة أمة الدعوة والرؤية رؤية القلب ، والاستفهام للتقرير أي قد رأيت ﴿ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ ﴾ آثار فعل الله في السماوات والأرض ، فقامت لك مقام المشاهدة ﴿ بِالحَقِّ ﴾ ملتبسة بالحكمة البالغة ، والوجه الصحيح الذي ينبغي أن يخلق عليه ، لا باطلاً ولا عبثاً ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ يعدمكم بالكلية أيها الناس ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي يخلق بدلكم خلقاً آخر ، خيراً منكم وأطوع لله ، رتَّب قدرته على خلق السماوات والأرض على هذا النمط البديع ، إرشاداً إلى طريق الاستدلال ، فإن من قدر على خلق الأجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر ، ولذلك قال ﴿ وَمَا ذَلِكَ ﴾ أي إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ﴿ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر أو متعسر ، بل هو هين عليه يسير إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ومن هذا شأنه حقيق بأن يُؤمن به ويُعبد ، ويرجى ثوابه ويُخشى عقابه ، والآية تدل على كمال قدرته تعالى ، وصبره حيث لا يؤاخذ العصاة على العجلة ، وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي موسى (لا أحد أصبرَ على أذى سمعه من الله ، إنه يُشرك به ويجعل له الولد ، ثم هو يعافيهم ويرزقهم)[2] ثم إن تأخير العقوبة يتضمن حِكَماً : منها رجوع التائب وانقطاع حجة المصر * ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أي برزوا من قبورهم وظهروا إلى أرض المحشر ، يخرجون عند النفخة الثانية حين تنتهي مدة لبثهم في بطن الأرض ،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بألفاظ تقارب هذا اللفظ من حديث أنس وفي رواية لهما : يجاء بالكافر يوم القيامة ... إلخ . انظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩١ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً . الفتح الكبير ٣ / ٥٧ .

كما قال الله تعالى (**ثُمّ نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**) ﴿ **للهِ** ﴾ أي لأمر الله ومحاسبته ﴿ **جَميعاً** ﴾ أي جميعهم من المؤمنين والكافرين اجتمعوا للحشر والحساب ، وهذا كقوله (**وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً**) ﴿ **فَقالَ الضُّعفاءُ** ﴾ الأتباع والعوام جمع ضعيف ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** ﴾ أي لرؤسائهم المستكبرين الخارجين عن طاعة الله ﴿ **إنّا كُنّا** ﴾ في الدنيا ﴿ **لَكُمْ تَبَعاً** ﴾ جمع تابع كخدم جمع خادم وهو المستنّ بآثار من يتبعه أي تابعين في تكذيب الرسل والإعراض عن نصائحهم مطيعين لكم فيما أمرتمونا به ﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ** ﴾ دافعون ﴿ **عَنّا مِنْ عَذابِ اللهِ مِنْ شَيءٍ** ﴾ أي بعض الشيء الذي هو عذاب الله والمراد التوبيخ والعتاب ﴿ **قالُوا** ﴾ أي المستكبرين جواباً عن معاتبة الأتباع واعتذاراً عما فعلوا بهم ياقوم ﴿ **لَوْ هَدانا اللهُ** ﴾ إلى الإيمان ووفقناله ﴿ **لَهَدَيْناكُمْ** ﴾ ولكن شقينا نحن وأنتم ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا** ﴾ في طلب النجاة من ورطة الهلاك والعذاب ، والجَزَعُ : عدمُ الصبر على البلاء ﴿ **أَمْ صَبَرْنا** ﴾ على ما لقينا انتظاراً للرحمة أي مستوٍ علينا الجزع والصبر في عدم الإنجاء ، ففيه إقناط الضعفاء ﴿ **ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ** ﴾ من منجى ومهرب من العذاب من الحيص وهو العدول على جهة الفرار ، يقال حاص الحمار إذا عدل بالفرار ﴿ **وَقالَ الشَّيْطانُ** ﴾ الذي أضلَّ الضعفاء والمستكبرين ﴿ **لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ أي أحكم وفرغ منه وهو الحساب ، ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ **إنّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ** ﴾ فوفّى لكم بما وعدكم ﴿ **وَوَعَدْتُكُمْ** ﴾ أي وعد الباطل ، وهو أن لا بعث ولا حساب ﴿ **فَأَخْلَفْتُكُمْ** ﴾ أي موعدي أي نقضته ، والإخلافُ عدم إنجاز من يقدر على إنجاز وعده ﴿ **وما كانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ** ﴾ أي تسلط وقهر فألجئكم إلى الكفر والمعاصي ﴿ **إلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ** ﴾ إلا دعائي إياكم إلى طاعتي بوسوسة وتزيين ﴿ **فاسْتَجَبْتُمْ لي** ﴾ أجبتم لي طوعاً واختياراً ﴿ **فلا تَلومُوني** ﴾ فيما وعدتكم بالباطل لأني خلقت لهذا ، ولأني عدوٌّ مبين لكم وقد حَذَّركم الله عداوتي ﴿ **وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ يعني باختياركم المعصية وحبكم لها ، صدقتموني فيما كذبتكم أي فأنتم أحقُّ باللوم مني ﴿ **ما أَنا بِمُصْرِخِكُمْ** ﴾ بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب ﴿ **وما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ** ﴾ مما أنا فيه ، يعني لا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ، والإصراخ الإغاثة ﴿ **إني كَفَرتُ** ﴾ اليوم ﴿ **بِما أَشْرَكتُمونِ** ﴾ بإشراككم إياي الله في الطاعة ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي قبل هذا اليوم أي في الدنيا ، بمعنى تبرأتُ منه واستنكرته ﴿ **إنّ الظّالِمينَ لَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ** ﴾ ابتداء كلام من الله تعالى ، والظالمون هم الشيطان ومتبعوه من الإنس ، ثم أخبر عن حال المؤمنين ومآلهم بقوله ﴿ **وَأُدْخِلَ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالِحَاتِ** ﴾ جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ **جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تحتِها الأَنهارُ خَالدينَ فِيها بِإذْنِ رَبِهِمْ** ﴾ أي بأمره أو بتوفيقه وهدايته ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ فيها سَلامٌ** ﴾ أي تحييهم الملائكة في الجنات بالسلام من الآفات ، أو يحيّي المؤمنون بعضهم بعضاً بالسلام ، والسلام تحية المؤمنين في الدنيا أيضاً ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ ألم تشاهد بنور

النبوة يا محمد ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ بيَّن شَبَهاً ووضعه في موضعه اللائق به ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ وهي كلمة التوحيد أي شهادة أن لا إله إلا الله ، ويدخل فيها كل كلمة حسنة ، كالقرآن والتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة إلى الإسلام ونحوها مما أعرب عن حق أو دعا إلى صلاح ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ أي حكم بأنها مثلها لا إنه تعالى صيرها مثلها ، قال عليه السلام (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآنَ مثل الأُترجَّة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة ، لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، ليس لها ريح وطعمها مرّ)[1] ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ أي أسفلها ذاهب بعروقه في الأرض متمكن فيها ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ أي أعلاها ورأسها ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ في جهة العلو ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا ﴾ تعطي ثمرها ﴿ كُلَّ حِينٍ ﴾ وقتّه الله لإثمارها وهي السنة الكاملة ، لأن النخلة تثمر في كل سنة مرة ، وقال بعضهم كل حين أي ينتفع بها على الأحيان كلها ، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاءً ، وفي كل ساعة أما تمراً أو رطباً أو بسراً ، كذلك عمل المؤمن يصعد أول النهار وآخره لا ينقطع أبداً كصعود هذه الشجرة ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادة خالقها وتيسيره وتكوينه ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتفطنون بضرب الأمثال ، لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير ، فإنه تصوير للمعاني بصور المحسوسات ، وفي الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال ، وهي في كلام الأنبياء والعلماء والحكماء كثيرة لا تحصى ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي كلمة الكفر ويدخل كل كلمة قبيحة من الدعاء إلى الكفر وتكذيب الحق ونحوهما ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ كمثل شجرة خبيثة أي صفتها كصفتها وهي الحنظل ، فالنفس الخبيثة كالشجرة الخبيثة تتولد منها الكلمة الخبيثة ، ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾ أي اقتلعت جثتها وأخذت بالكلية ﴿ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ لكون عروقها قريبة منها ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ استقرار عليها ، قالوا شبَّه الإيمان بالشجرة ، لأن الشجرة لابد لها من أصل ثابت ، وفرع قائم ، ورأس عال ، فكذا الإيمان لابد له من تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالأبدان ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ هو كلمة التوحيد لأنها راسخة في قلب المؤمن ﴿ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنيا ﴾ أي قبل الموت فإذا ابتلوا ثبتوا ولم يرجعوا عن دينهم ، ولو عُذِّبوا أنواع العذاب ، كمن تقدَّم ذكرهم من الأنبياء والصالحين والذين مشطت لحومهم بأمشاط الحديد ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أي يثبتهم في القبر عند سؤال منكر ونكير ، وفي سائر المواطن ، والقبر من الآخرة فإنه أول منزل من منازل الآخرة ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأصحاب السنن غير ابن ماجه من رواية أبي موسى الأشعري ، انظر جامع الأصول ٢ / ٤٥٣ .

يخلق الله في الكفرة الضلال كما ضلوا في الدنيا ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ ﴾ أي خلق ثبات وضلال ، من غير اعتراض عليه ، والآية دليل على حقية سؤال القبر وعلى تنعيم المؤمنين في القبر ، فإن تثبيت الله عبده في القبر بالقول الثابت هو النعمة كل النعمة ، قال الفقيه أبو الليث : قد تكلم العلماء في عذاب القبر ، قال بعضهم يجعل الروح في جسده كما كان في الدنيا ويُجْلس أي يأتيه ملكان أسودان أزرقان ، فظّان غليظان ، أعينهما كالبرق الخاطف ، وأصواتها كالرعد القاصف ، معهما مِرْزبَّةٌ فيقعدان الميت ويسألانه فيقولان له من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول المؤمن : اللهُ ربي ، والإسلام ديني ، ومحمد ﷺ نبيٌّ ، فذلك هوالثبات ، وأما الكافر والمنافق فيقول لا أدري ، فيضرب بتلك المرزبة ، فيصيح صيحة يسمعها ما بين الخافقين إلا الجن والإنس ، وقال بعضهم يكون الروح بين جسده وكفنه ، وفي كل ذلك قد جاءت الآثار ، والصحيح أن يقر الإنسان بعذاب القبر ، ولا يشتغل بكيفيته ، وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب بحج أو قراءة تصل إليه من بعض أقاربه وغيرهم كما في الفتح وفي الحديث (اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدجال ، وأعوذ بك من عذاب القبر)[1] وكان ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال (استغفروا لأخيكم وسَلُوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل)[2] ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ﴾ من رؤية البصر أي هل رأيت عجباً مثل هؤلاء ﴿ بَدَّلُوا ﴾ غيروا ﴿ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ أي شكر نعمته ﴿ كُفراً ﴾ بأن وضعوه مكانه كأهل مكة خلقهم الله تعالى ، وأسكنهمْ حرمه ، وفتح عليهم أبواب رزقه ، وشرَّفهم بمحمد ﷺ فكفروا ذلك ، فقحطوا سبع سنين ، وأسروا وقتلوا يوم بدر ، فصاروا أذلاء مسلوبي النعمة ﴿ وَأَحَلُّوا ﴾ أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ بإرشادهم إياهم إلى طريقة الشرك والضلال ﴿ دَارَ البَوارِ ﴾ أي الهلاك ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها ﴾ أي داخلين فيها مقاسين لحرّها ، يقال صَلِيَ النار صلياً : قاسى حرها ﴿ وَبِئْسَ القَرارُ ﴾ أي بئس المقر جهنم ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ أي وجعلوا في اعتقادهم الباطل وزعمهم الفاسد ﴿ للهِ ﴾ الفرد الأحد ، الذي لا شريك له ، في الأرض ولا في السماء ﴿ أَنْداداً ﴾ أشباهاً في التسمية حيث سموا الأصنام آلهة ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ قومهم حسبما ضلوا ﴿ عَنْ سَبيلِهِ ﴾ القويم الذي هو التوحيد ويوقعوهم في ورطة الكفر والضلال ﴿ قُلْ ﴾ تهديداً لأولئك الضالين المضلين ﴿ تَمتَّعُوا ﴾ انتفعوا بما أنتم عليه من الشهوات التي من جملتها كفران النعم العظام ﴿ فإنّ مَصيرَكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ إِلَى النَّارِ ﴾ ليس إلاّ ، ودلّت الآيتان على أمور : الأول أن الكفر سبب لزوال النعمة بالكلية ، كما أن الشكر سبب لزيادتها ، والثاني

---

(١) الحديث رواه مسلم بلفظ (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والهرم والبخل ..) إلخ .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٨٠ .

أن القرين السوء يجرّ المرء إلى النار ، ويحله دار البوار ، فينبغي للمؤمن أن يجتنب عن صحبة أهل النفاق والبدعة ، حتى لا يسرق طبعهُ من اعتقادهم السوء ، وعلمهم السيء ، وهم كثرة في هذا الزمان ، وأكثرهم في زَيِّ المتصوفة * والثالث أن جهنم دار القرار للأشرار ، وشدة حرها مما لا يوصف ، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (إن أهون النار عذاباً رجل يُوضع في أخمص قدميه جمرتان ، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل)[1] ﴿ **قُلْ لِعبادِيَ الَّذِينَ آمنُوا** ﴾ قال بعض الحكماء : شرَّف الله عباده بهذه الياء ، وهي خير لهم من الدنيا وما فيها ، لأن فيها إضافتهم إلى نفسه ، وكان أبو زيد البسطامي يقول : الخلق يفرُّون من الحساب وأنا أطلبه ، فإن الله تعالى لو قال لي أثناء الحساب عبدي لكفاني شرفاً ﴿ **يُقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ** ﴾ أي يؤدوا الصلاة المفروضة ، ويحسنوا إلى عباد الله .

﴿ **سِراً وعَلانِيَةً** ﴾ أي يُنفقوا إنفاق سرّ وعلانية ، والأحبُّ في الإنفاق إخفاء المتطوع ، وإعلان الواجب ، ﴿ **مِنْ قَبْلِ أنْ يأْتِيَ** ﴾ متعلقة بأنفقوا ﴿ **يومٌ** ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ **لا بيْعٌ فيهِ** ﴾ فيبتاع المقصر ما يتلافى تقصيره به ﴿ **ولا خِلالٌ** ﴾ ولا مخالة فيشفع له خليل ، أو من قبل أن يأتي يوم القيامة ، الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة ، وإنما ينتفع فيه بالطاعة وإنفاقٍ لوجه الله تعالى ﴿ **اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ** ﴾ وما فيها من الأجرام العلوية ﴿ **والأرضَ** ﴾ وما فيها من أنواع المخلوقات ، وقدم السماوات لأنها بمنزلة الذكر من الأنثى ﴿ **وأنزَلَ مِنَ السّماءِ** ﴾ أي من السحاب ، فإن كل ما علاك سماء ﴿ **مَاءً** ﴾ أي نوعاً منه وهو المطر ﴿ **فَأَخْرَجَ بِهِ** ﴾ أي بسبب ذلك الماء الذي أودع فيه القوة الفاعلية كما أنه أودع في الأرض القوة القابلية ﴿ **مِنَ الثّمراتِ** ﴾ من أنواع الثمرات ﴿ **رِزْقاً لَكُمْ** ﴾ تعيشون به وهو بمعنى المرزوق ، شامل للمطعوم والملبوس ﴿ **وَسَخّرَ لكُمُ الفُلْكَ** ﴾ بأن أقدركم على صنعتها واستعمالها بما ألهمكم كيفية ذلك ﴿ **لِتَجْرِيَ** ﴾ أي الفُلْكُ لأنه جمع فَلَك ﴿ **في البَحْرِ بِأَمْرِهِ** ﴾ بإرادته إلى حيث توجهتم ، قال عمر لعمرو بن العاص : صفْ لي البحر ، فقال : يا أمير المؤمنين، مخلوقٌ عظيم ، يركبه خلقٌ ضعيف ، ودوٌ على عود ﴿ **وَسَخَّرَ لكُمُ الأنْهارَ** ﴾ أي المياه العظيمة الجارية في الأنهار العظام ، وتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس ، حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجنانهم ، وما أشبه ذلك ، قال في بحر العلوم : أشير بها إلى خمسة أنهار « سيحون » نهر الهند ، وجيحون » نهر بلخ ، « ودجلة والفرات » نهري العراق ، والنيل نهر مصر ، أنزلها الله من عين واحدة من عيون الجنة ، فاستودعها الجبال وأجراها في الأرض ، وسخرها للناس ، وجعل فيها منافع لهم في أصناف

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير ، وتتمة الحديث (ما يرى أن أحداً أشد عذاباً منه ، وإنه لأهونهم عذاباً) انظر جامع الأصول ١٠ / ٥٣٨ .

معاشهم ، وسائرُ الأنهار تبعٌ لها وكأنها أصولها ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والقَمَرَ ﴾ حال كونها ﴿ دائِبيْنِ ﴾ دائمين متصلين في سيرهما ، لا ينقطعان إلى يوم القيامة يصلحان الأرض والأبدان والنبات ، لا يفتران أصلاً ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللّيْلَ والنّهارَ ﴾ يتعاقبان بالزيادة والنقصان ، والإضاءة والإظلام ،والحركة والسكون فيهما ، أي سخَّرها لمعاشكم ومنامكم ولعقد الثمار وانضاجها ، وسيِّدُ الأيام يوم الجمعة، وإذا وافق يوم عرفة يوم الجمعة تضاعف الحج على غيره ، وبهذا ظهر فضل يوم الجمعة ، وأفضل الليالي ليلة المولد المحمدي ﴿ وَآتيكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلتُموهُ ﴾ أي أعطاكم مصلحة لكم جميع ما سألتموه على أن « من » للبيان ، وكلمة كل للتكثير ﴿ وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ ﴾ التي أنعم بها عليكم بسؤال وبغيره ﴿ لا تُحْصُوها ﴾ لا تطيقوا حصرها وعدها ولو إجمالاً ، لكثرتها وعدم نهايتها ، والنعم على قسمين : نعمة المنافع ، لصحة البدن والأمن ، والتلذذ بالمطاعم والمشارب ، والملابس والمناكح ، والأموال والأولاد ، ونعمة دفع المضار ، من الأمراض والشدائد ، والفقر والبلاء ، وأجلُّ النعم إلهام المعرفة ﴿ إنّ الإنسانَ لَظَلومٌ ﴾ لبليغ في الظلم يظلم نفسه بتعريضها للحرمان ﴿ كَفّارٌ ﴾ شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كَفّارٌ في النعمة يجمع ويمنع ، واللام في الإنسان للجنس ، روي أنه شكا بعض الفقراء إلى واحد من السلف فقره وأظهر شدة اغتمامه به ، فقال : أيسّرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا ، فقال : أيسرُّك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألف درهم ؟ فقال لا ، فقال أيسرّك أن يجعلك الله مجنوناً ولك عشرة آلاف ؟ قال لا ، فقال : أما تستحيي أنك تشكو مولاك ، وعندك عروضٌ بأربعين ألف ؟ ودخل ابن السمّاك على بعض الخلفاء وفي يده كوز ماء وهو يشربه ، فقال : عظني فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وألا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال نعم ، قال ولو لم تعط إلا بملكك كله فهل كنت تتركه ؟ قال نعم ، فقال لا تفرح بملك لا يساوي شربة ماءٍ ، أقول : إن نعمة الله على العبد في شربة ماء عند العطش أغلى من ملك الأرض كلها ، بل كل نَفَسٍ لا يستوي بملك الأرض كلها ، فلو أخذ لحظة حتى انقطع الهواء عنه مات ، ولو حبس في بيت حمام فيه هواء حار ، أو في بئر فيه هواء ثقيل برطوبة الماء مات غماً ، ففي كل ذرة من بدنه نعم لا تُحصى ﴿ وَإذ قالَ إبْراهِيمُ ﴾ واذكر وقت قول إبراهيم في مناجاته أي بعد الفراغ من بناء البيت ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذا البَلدَ آمِناً ﴾ أهلَه ، بحيث لا يُخاف فيه من المخاوف والمكاره ، كالقتل والغارة والأمراض المنفرة من البرص والجذام ونحوها ﴿واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ ﴾ بعّدني وإياهم ﴿ أنْ نَعْبدَ الأصْنامَ ﴾ واجعلنا منه في جانب بعيد أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام ، والبعد عن عبادة الأصنام ﴿ رَبِّ إنّهُنَّ ﴾ أي الأصنام ﴿ أَضْلَلْنَ كثِيراً مِنَ النّاسِ ﴾ ولذلك سألتك أن تعصمني وبنيَّ من إضلالهن ، واستعذت بك منهن ﴿ فَمَنْ تَبِعني ﴾ منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملة الإسلام ﴿ فإنّهُ مِنّي ﴾ من تبعيضية أي كبعضٍ في عدم الانفكاك عني

﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أي لم يتبعني ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قادر على أن تغفر له وترحمه ، ابتداء أو بعد توبته ، وفيه دليل على أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك ، إلا أن الوعيد فرَّق بينه وبين غيره ، فالشرك لا يغفر بدليل السمع ، وهو قوله تعالى (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) وإن جاز غفرانه عقلاً ، فإن العقاب حقه تعالى فيحسن إسقاطه وفي التأويلات النجمية قد حفظ الأدب فيما قال (ومن عصاني) وما قال « ومن عصاك » لأنه بعصيان الله لا يستحق المغفرة والرحمة ﴿ رَبَّنَا ﴾ صيغةُ الجمع لأن الآية متعلقة بذريته ، فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخلُ في القبول ﴿ إِنِي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَتِي ﴾ أي بعض ذريتي وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ هو وادي مكة فإنها حجرية لا تنبت أي لا يكون فيها شيء من زرع وفي تفسير الشيخ لأنها واد بين جبلين لم يكن بها ماء ولا حرث ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ الإضافة للتشريف وسمي محرماً لأنه عظيم الحرمة ، حرم الله التعرض له بسوء يوم خلق السماوات والأرض ، وحرم فيه القتال والاصطياد ، وأن يدخل فيه أحد بغير إحرام ، ومنع عنه الطُّوفان فلم يستول عليه ، ولذلك سمي عتيقاً لأنه أُعتق منه ﴿ رَبَّنَا ﴾ كرر النداء لإظهار كمال العناية بما بعده ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلا لإقامة الصلاة عند بيتك المحرم ، على أنه لا غرض له دنيوي في إسكانهم عند البيت المحرم ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ ﴾ جمع فؤاد وهي القلوب ومن للتبعيض ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ تسرع إليهم شوقاً ، وتطير نحوهم محبة ﴿ وَارْزُقْهُمْ ﴾ أي ذريتي الذين أسكنتهم هناك ﴿ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك ، أو يُجْبى إليه من الأقطار البعيدة ، وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكه الربيعية ، والصيفية ، والخريفية في يوم واحد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية يقول الفقير : اختلف العلماء في أن هذا الدعاء ، بعد بناء البيت أو قبله أول ما قدم مكة ، ويؤيد الأول (رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا بَلَدَ) فإن الظاهر أن الإشارة حسية وقوله (عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) وقوله (الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ) فإن إسحاق لم يكن موجوداً قبل البناء ، وقال بعضهم الإشارة إلى الموجود في الذهن قبل تحقق البلدية فإن الله لما أبان موضعه صحت إشارته إليه ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ من الحاجات وغيرها ، ومقصدُه إنما هو لإظهار العبودية ، والافتقار إلى رحمتك والاستعجال لنيل أياديك ﴿ وَمَا يَخْفَى ﴾ دائماً إذ لا ماضي ولا مستقبل ﴿ عَلَى اللهِ ﴾ علام الغيوب ﴿ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ لأنه العالم بعلمٍ ذاتيٍّ ، تستوي نسبته إلى كل معلوم ، كأنه يقول : لا يخفى عليك شيء ما في أيّ مكان ، فافعل بنا ما هو مصلحتنا ﴿ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ﴾ أي وهب لي وأنا كبير آيس من الولد ، قيدَّ الهبة

بحال الكبر استعظاماً للنعمة ، وإظهاراً لشكرها ، لأن زمان الكبر زمانُ العقم ﴿ إسمعيلَ ﴾ روي أنه ولد إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ﴿ وإسْحٰقَ ﴾ روي أنه وله له إسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة ، وإسماعيل يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة ﴿ إنّ ربِّي ﴾ ومالك أمري ﴿ لَسَميعُ الدُّعاءِ ﴾ أي لمجيبه وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد فأجابه ووهب له سؤله ، حين ما وقع اليأس منه ، ليكون من أجلّ النعم وأجلاها ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقيمَ الصّلٰوةِ ﴾ معدّلاً لها ومواظباً عليها ﴿ وَمِنْ ذُرِّيتي ﴾ أي وبعض ذريتي لعلمه بإعلام الله تعالى أن يكون في ذريته كفار ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّل دُعاءِ ﴾ واستجب دعائي هذا ﴿ رَبَّنَا اغْفِر لي ﴾ أي ما فرط مني مما لا يسلم منه البشر ﴿ ولوالِديَّ ﴾ وهذا الاستغفار منه إنما كان قبل تبين الأمر له عليه السلام . قال في الكواشي : استغفر لأبويه وهما حيان طمعاً في هدايتهما .

وفي الحديث (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقُل لك لا تعصني فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم يارب إنك وعدتني أن لا تُخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من أبي أن يكون في النار ، فيقول الله تعالى : إني حرّمت الجنة على الكافرين، ثم يقال يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ مُتَلطِّخٍ - والذيخ بكسر الذال ذَكَرُ الضباع الكثيرة الشعر - فيؤخذ بقوائمه ويُلقى في النار »[1] ﴿ وَلِلمُؤْمِنينَ ﴾ كافة من ذريته وغيرهم، واكتفى بذكر مغفرة المؤمنين ، دون مغفرة المؤمنات ، لأنهن تبعٌ لهم في الأحكام بدعائه المؤمنين والمؤمنات استجيب له فمن السنة أن لا يختص نفسه بالدعاء * قال في الأسرار وفي الحديث (لا يؤم عبد قوماً فيخص نفسه بالدعاء دونهم ، فإن فعل فقد خانهم)[2] رواه ثوبان بل الأولى أيضاً إن كان منفرداً أن يأتي بصيغة الجمع فيعممهم بالدعاء وينالهم بركة دعائه ﴿ يَومَ يَقومُ الحِسابُ ﴾ أي يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عمّا يَعْمَلُ الظّالِمونَ ﴾ الحسبان بالكسر بمعنى الظن والظالمون أهل مكة وغيرهم من كل أهل شرك وظلم ، وهو خطاب لرسول الله ﷺ والمعنى دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلاً عن أعمالهم ، ولا تحزن بتأخير ما يستوجبونه من العذاب الأليم ﴿ إنّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيومٍ ﴾ أي لا يؤخر عذابهم إلا لأجل يوم هائل ﴿ تَشْخَصُ فيهِ الأبْصارُ ﴾ ترتفع فيه أبصار أهل الموقف أي تبقى أعينهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه ، يعني أن تأخيره للتشديد والتغليظ ، لا للغفلة عن أعمالهم ولا لإهمالهم ﴿ مُهطِعينَ ﴾ أي مسرعين إلى الداعي ،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٣٤ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الطهارة والترمذي في الصلاة وانظر جامع الأصول ٥ / ٥٩٧ .

مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع ﴿ **مُقْنعي رُؤُسِهِمْ** ﴾ أي رافعيها مع إدامة النظر من غير التفات إلى شيء ، قال في تهذيب المصادر : الإقناع أن يرفع رأسه ويقبل بطرفه إلى ما بين يديه ، وعن الحسن : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد ﴿ **لا يَرْتَدُّ إليهِمْ طرْفُهُمْ** ﴾ لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف ﴿ **وأفْئِدَتُهُمْ** ﴾ قلوبهم ﴿ **هَواءٌ** ﴾ خالية من العقل والفهم ، لفرط الحيرة والدهش ، كأنها نفس الهواء الخالي عن كل شاغل ، قيل : تلخيصه: الأبصار شاخصة ، والرؤس مقنعة ، والقلوب فارغة زائلة لهول ذلك اليوم ، ثبتك الله وإيانا فيه ، والآية تسلية لرسول الله ﷺ ، وتعزيةٌ للمظلوم وتهديد للظالم ، * وفي الكواشي : واستدل بعضهم على قيام الساعة بموت المظلوم مظلوماً ، قالوا وجد على جدار الصخرة :

نامتْ عيونُك والمظلومُ منتبهٌ * يدعو عليكَ وعينُ الله لم تَنَمِ

﴿ **وَأَنْذِرِ النَّاسَ** ﴾ أي خوِّفهم جميعاً يا محمد ﴿ **يَوْمَ يأتِيهِمُ العَذابُ** ﴾ أي من يوم القيامة ﴿ **فَيَقُولُ الذّينَ ظَلَمُوا** ﴾ منهم بالشرك والتكذيب ﴿ **رَبّنا أخّرْنا** ﴾ رُدَّنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿ **إلى أجَلٍ قَريبٍ** ﴾ إلى أمد واحد من الزمان قريب وهو الدنيا ، مؤخراً عذابنا ﴿ **نُجِبْ دَعْوَتَكَ** ﴾ أي الدعوة إليك وإلى توحيدك ﴿ **وَنتَّبِعِ الرُّسُلَ** ﴾ أي نتدارك ما فرَّطنا فيه من إجابة الدعوة ، واتباع الرسل ﴿ **أولَمْ تَكونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قبْلُ** ﴾ أي فيقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : ألم تؤخروا في الدنيا وحلفتم إذ ذاك بألسنتكم ، تكبراً وغروراً ﴿ **مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ** ﴾ مما أنتم عليه من التمتع حيث بنيتم شديداً ، وأمَّلتم بعيداً ، ولم تحدّثوا أنفسكم بالانتقال عن هذه الحال ؟ ﴿ **وَسَكَنْتُمْ في مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ** ﴾ بالشرك والمعاصي كعاد وثمود ، غير محدّثين لأنفسكم بما لقوا من العذاب بسبب ما اكتسبوا من السيئآت ﴿ **وَتَبَيَّنَ لَكُمْ** ﴾ بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار ﴿ **كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ** ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد ، أي فعلنا العجيب بهم ﴿ **وَضَرَبْنا لَكُمُ الأمْثالَ** ﴾ أي بينا لكم في القرآن العظيم صفات ما فعلوا ، وما فُعل بهم لتعتبروا بها ، وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ، فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي ﴿ **وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ** ﴾ أي والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق ، وتقرير الباطل ، مكرهم العظيم ، الذي استفرغوا في عمله المجهود ، وجاوزوا فيه كل حد معهود ﴿ **وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ** ﴾ أي جزاء مكرهم الذي فعلوه ﴿ **وَإنْ كانَ مَكْرُهُمْ** ﴾ في العظم والشدة ﴿ **لِتَزولَ مِنْهُ الجِبالُ** ﴾ أي وإن كان مكرهم في غاية المتانة والشدة ، وعبَّر عن ذلك بكونه مسوًى ومعداً لذلك لكونه مثلاً في ذلك ﴿ **فلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾ بتعذيب الظالمين ، ونصر المؤمنين ﴿ **إنّ اللهَ عَزيزٌ** ﴾ غالب لا يُمَاكر ، قادر لا يدافع ﴿ **ذُو انتِقامٍ** ﴾ لأوليائه من أعدائه ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرْضُ**

﴿ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمواتُ ﴾ أي اذكر يوم تبدل هذه الأرض المعروفة ، أرضاً أخرى غير معروفة ، وتبدل السموات غير السموات ، ويكون الحشر والناسُ على الصراط كما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله « **يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ** » أين الناس يومئذ ؟ قال : سألتني عن شيء ما سألني أحد قبلك ، الناس يومئذ على الصراط ، نقل القرطبي عن صاحب الإفصاح أن الأرض والسماء تبدلان مرتين ، **المرة الأولى :** تبدل صفتها فقط ، وذلك قبل نفخة الصعق ، فتتناثر كواكبها ، وتُخسف الشمس والقمر أي يذهب نورهما ، ويكون مرة كالدهان ، ومرة كالمهل ، وتكشف الأرض وتسير جبالها في الجو كالسحاب ، وتسوى أوديتها ، وتقطع أشجارها ، وتجعل قاعاً صفصفاً أي بقعة مستوية ، **والمرة الثانية :** تبدل ذاتها وذلك إذا وُقِفوا في الحشر ، فتبدل الأرض بأرض من فضة ، لم يقع عليها معصية ، وهي الساهرة ، والسماء تكون من ذهب ، كما جاء عن علي رضي الله عنه ﴿ **وَبَرَزُوا** ﴾ أي خرج الخلائق من قبورهم ﴿ **للهِ الواحدِ القهّارِ** ﴾ أي لمحاسبته ومجازاته ، وتوصيفُه بالوصفين للدلالة على أن الأمر في غاية الصعوبة ، كقوله (**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار**) فإن الأمر إذا كان لواحدٍ غلاّب لا يغالب ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار ﴿ **وَتَرَىٰ المُجْرِمينَ يومَئِذٍ** ﴾ أي يوم هم بارزون ﴿ **مُقَرَّنِينَ** ﴾ قرن بعضهم مع بعض أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال ﴿ **في الأَصْفادِ** ﴾ أي يقرنون في الأصفاد وهي القيود جمع صَفَد محركة ، وأصله الشدُّ يقال صفدته إذا شددته شداً وثيقاً ﴿ **سَرابِيلُهُمْ** ﴾ أي قمصانهم جمع سربال ﴿ **مِنْ قَطِرَانٍ** ﴾ وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار ، يطلى به جلود أهل النار يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ، ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب ، لذع القطران ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الموحش ، ونتن الريح ﴿ **وَتَغْشىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ أي تعلوها وتحيط بها النار ، التي تمس جلدهم المسربل بالقطران ، لأنهم لم يتوجهوا بها إلى الحق ، ولم يستعملوا في تدبره مشاعرهم وحواسهم التي خُلِقتْ لأجله ، ﴿ **لِيَجْزِيَ اللهُ** ﴾ أي يفعل بهم وذلك ليجزي ﴿ **كُلَّ نَفْسٍ** ﴾ مجرمة ﴿ **ما كَسَبَتْ** ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي ، جزاء موافقاً لعملها ﴿ **إنّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ** ﴾ إذ لا يشغله حساب عن حساب ، فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان ﴿ **هَـذا** ﴾ القرآن بما فيه من فنون العظات والقوارع ﴿ **بَلاغٌ للنّاسِ** ﴾ كفاية لهم في الموعظة والتذكير ﴿ **وَلِيُنْذَرُوا بِهِ** ﴾ أي كفاية لهم في أن ينصحوا وينذروا فينتفعوا به ، فإن الانتباه بالموت لا ينفع ﴿ **وَلِيَعْلَمُوا** ﴾ بالتأمل فيما فيه من الآيات ﴿ **أَنَّما هُوَ إلهٌ وَاحِدٌ** ﴾ أي لا شريك له فيعبدوه ، ولا يعبدوا إلهاً غيره من الدنيا ﴿ **وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبابِ** ﴾ أي وليتعظ ذووا الألباب أي العقول فيختاروا الله ويتقوه في المحافظة على أوامره ونواهيه ، وبذلك وصّى جميع أولي الألباب من الأولين والآخرين قال الله تعالى (**وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ**) .

تمت سورة إبراهيم بعون الله الكريم

● ● ●



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الر** ﴾ اسم للسورة وعليه الجمهور أي هذه السورة مسماة بالر ﴿ **تِلْكَ** ﴾ السورة العظيمة الشأن ﴿ **آياتُ الكِتابِ** ﴾ الكامل الحقيق باختصاص اسم الكتاب ﴿ **وَقُرْآنٍ** ﴾ عظيم الشأن ﴿ **مُبينٍ** ﴾ مظهر لما في تضاعيفه من الحكم والمصالح ، فارق بين الحق والباطل ، ﴿ **رُبَما** ﴾ رب ههنا للتكثير ﴿ **يَوَدُّ** ﴾ يتمنى في الآخرة ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ بالقرآن وبكونه من عند الله ﴿ **لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ** ﴾ يعني في الدنيا مستسلمين لأحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه ، يُروى أنه (إذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة : ألستم مسلمين ؟ فقالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها ، فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها ، فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ﴿ **ذَرْهُمْ** ﴾ أي دع الكفار يا محمد عن النهي عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة ، لا سبيل إلى ارعوائهم عن ذلك ، والآية منسوخة بآية القتال ﴿ **يأْكُلُوا** ﴾ كالأنعام ﴿ **وَيَتمتعُوا** ﴾ بدنياهم وشهواتها ﴿ **وَيُلْهِهِمُ** ﴾ أي يشغلهم عن اتباعك أو عن الاستعداد للمعاد ﴿ **الأَمَلُ** ﴾ التوقع لطول الأعمار وبلوغ الأوطار ، والأمل رحمة للأمة لولاه لتعطل كثير من الأمور ، وانقطع أغلب أسباب العيش والحياة ، ولذلك قيل : لولا الحمقى لخربت الدنيا ، قال بعضهم : لو كان الناس كلهم عقلاء لما أكلنا رطباً ، ولا شربنا ماء بارداً ، يعني أن العقلاء لا يقدمون على صعود النخيل لاجتناء الرطب ، ولا على حفر الآبار لاستنباط الماء ﴿ **فَسَوْفَ يَعْلَمونَ** ﴾ سوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه وهو وعيد لهم ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنا** ﴾ شروع في بيان سرتأخير عذابهم إلى يوم القيامة ﴿ **مِنْ قَرْيةٍ** ﴾ من القرى بالخسف بها وبأهلها ﴿ **إلاَّ وَلَها** ﴾ في ذلك الشأن ﴿ **كِتابٌ** ﴾ أي أجل مقدر مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿ **مَعلومٌ** ﴾ لا يُنْسى ولا يُغفل عنه ، والمعنى وما أهلكنا قرية من القرى في حال من الأحوال ، إلا حال أن يكون لها كتاب أي أجل مؤقت لإهلاكها قد كتبناه ، لا نهلكها قبل بلوغه ، معلوم لا يغفل عنه حتى تمكن مخالفته بالتقدم والتأخر ﴿ **ما تَسْبِقُ** ﴾ ما نافية ﴿ **مِنْ** ﴾ زائدة ﴿ **أمّةٍ** ﴾ من الأمم الهالكة وغيرهم ﴿ **أَجَلَها** ﴾ المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء كتابها ﴿ **وما يَسْتَأْخِرونَ** ﴾ وما يتأخرون عنه ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي مشركوا مكة وكفار العرب ، لغاية تماديهم في العتو والغي ﴿ **يا أَيُّها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ** ﴾ نادوا به النبي عليه السلام على وجه التهكم ﴿ **إنّكَ لمجنونٌ** ﴾ إنك لتقول قول المجانين ،

حين تدّعي أن الله نزّل عليك الذكر أي القرآن ﴿ لَوْمَا ﴾ حرف تحضيض بمعنى هلا ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ ﴾ يشهدون بصحة نبوتك ، ويعضدونك في الإنذار ، كقوله تعالى (لولا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فيكونَ مَعَهُ نَذيراً) ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادقينَ ﴾ في دعواك ، فإن قدرة الله على ذلك مما لا ريب فيه ﴿ ما نُنَزِّلُ الملائِكَةَ إلاّ بالحقِ ﴾ أي ملتبساً بالوجه الذي يحق ملابسة التنزيل به ، مما تقتضيه الحكمة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة ﴿ وَما كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ ﴾ والمعنى ولو نزلنا الملائكة ما كانوا مؤخرين بعد نزولهم طرفة عين ، كدأب سائر الأمم المكذبة المستهزئة ، ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة ، لتعلق العلم والإرادة بإيمان بعض ذراريهم ﴿ إِنّا نَحْنُ ﴾ لعظم شأننا وعلو جنابنا ﴿ نَزّلنا الذّكرَ ﴾ ذلك الذكر الذي أنكروه ، وأنكروا نزوله عليك ، ونسبوك بذلك إلى الجنون ﴿ وَإِنّا لَهُ لحافِظونَ ﴾ في كل وقت من كل مالا يليق به كالطعن فيه ، والتحريف والتبديل والزيادة والنقصان ونحوها ، وأما الكتب المتقدمة فلما لم يتولَّ اللهُ حفظها واستحفظها الناس، تطرَّق إليها الخلل ﴿ وَلقدْ أرْسَلْنَا ﴾ أي رسلاً وإنما لم يذكر لدلالة ما بعده عليه ﴿ مِنْ قَبْلِكَ في شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴾ أي فرقهم وأحزابهم جمعُ شِيعةٍ ، وهي الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب ، سمّوا بذلك لأن بعضهم يشايع بعضاً ويتابعه ﴿ وَما يأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ أي ما أتى شيعة من تلك الشيع رسولٌ خاصٌ بها ﴿ إلاّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِئُونَ ﴾ كما يفعله هؤلاء الكفرة ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ بأن هذه عادة الجهال مع الأنبياء ﴿ كذلِكَ ﴾ أي كإدخالنا الاستهزاء في قلوب الأولين ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ أي ندخل الاستهزاء ، والسلكُ : إدخال الشيء في الشيء ، كإدخال الخيط في المخيط أي الإبرة ﴿ في قُلوبِ المُجْرِمينَ ﴾ المراد بالمجرمين مشركو مكة ومن شايعهم في الاستهزاء والتكذيب ﴿ لا يُؤمِنونَ بِهِ ﴾ أي بالذكر ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنّةُ الأَوّلِينَ ﴾ أي وقد مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم ، حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء ﴿ وَلوْ فَتحْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على هؤلاء المقترحين المعاندين ﴿ باباً مِنَ السّماءِ ﴾ أي باباً ما ويسرنا لهم الرقيَّ والصعود إليه ﴿ فَظَلّوا ﴾ أي فصاروا ﴿ فيهِ ﴾ أي في ذلك الباب ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون بآلة أو بغيرها ويرون ما فيها من العجائب عيانا ﴿ لَقَالُوا ﴾ لغاية عنادهم وتشكيكهم في الحق ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ أي سدت من باب الإحساس قال في القاموس أي حبست عن النظر وحيرت أو غطيت وغشيت ﴿ بلْ نحْنُ قَوْمٌ مسْحُورونَ ﴾ قد سحرنا محمد كما قال تعالى حكاية عنهم (وَيَقولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ) تلخيصه لو أوتوا بكل ما طلبوا لكذّبوا ، لتماديهم في الجحود والعناد ، واعلم أن السحر من خرق العادة ، ولا يظهر السحر إلا على يد فاسق ، وكذا الكهانة والضرب بالرمل والحصى ونحو ذلك ، والضرب بالحصى هو الذي يفعله النساء ويقال له الطَّرْقُ ، وقيل الخط في الرمل ، وأخذُ العوض عليه حرام ، قال الشيخ صلاح الدين الصفدي : السحر رقى وعزائم وعقد تؤثر في

الأبدان والقلوب ، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه ، وله حقيقة عند الأئمة الثلاثة ، وتعلمه حرام بالإجماع ، وكذا تعلم الكهانة والشعبذة والتنجيم والضرب بالشعير ، وأما المعزّم الذي يعزم على المصروع ، ويزعم أنه يجمع الجن وأنها تطيعه فذكره أصحابنا في السحرة ، روي عن الإمام أحمد أنه توقّف فيه ، وسئل سعيد بن المسيب عن الرجل الذي يؤخذ عن امرأته ويلتمس من يداويه ، فقال إنما نهى الله عما يضرُّ ، ولم ينه عما ينفع ، فإن استطعت أن تنفع أخاك فافعل ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنا** ﴾ الجعل هنا بمعنى الخلق والإبداع ﴿ **فِي السَّماءِ بُروجاً** ﴾ قصوراً تنزلها السيارات السبع وهي البروج الاثنا عشر المشهورة ﴿ **وَزَيَّنَّاهَا** ﴾ أي السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال ﴿ **لِلنَّاظِرِينَ** ﴾ للمتفكرين المعتبرين ، المستدلين بذلك على قدرة مقدرها ﴿ **وَحَفِظْنَاهَا** ﴾ أي السماء ﴿ **مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رجيمٍ** ﴾ مرمي بالنجوم فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس في أهلها ويتصرف في أهلها ويقف على أحوالها ﴿ **إِلاَّ مَنِ اسْتَرقَ السَّمْعَ** ﴾ أي ولكن من استرق السمع ، والمسترق المستمع مختفياً ، والسمع بمعنى المسموع ، واستراقُ السمع اختلاسه سراً ﴿ **فَأَتْبَعَهُ** ﴾ أي تبعه ولحقه ﴿ **شِهابٌ** ﴾ لهب محرق وهي شعلة نار ساطعة ﴿ **مُبِينٌ** ﴾ ظاهر أمره للمبصرين ، ومما يجب التنبيه له أن هذا حكاية فعل قبل النبي ﷺ ، وأن الشياطين كانت تسترق في بعض الأحوال قبل أن يبعثه الله ، فلما بعث رسول الله ﷺ كثر الرجم ومنع الاسترق رأساً وبالكلية ، ويَعضده ما روي عن ابن عباس « أن الشياطين كانوا لا يُحجبون عن السموات ، فلما ولد محمد عليه السلام منعوا من السموات كلها بالشهب » ويُرمى المستمع بالشهاب ، فهم لا يرمون بالكواكب نفسها ، لأن قارة الفلك على حالها ، وما ذاك إلا كقبس يؤخذ من نار ، والنار ثابتة كاملة لا تنقص ، فمنهم من يحرق وجهه وجبينه ويده وحيث يشاء الله ، ومنهم من يخبل أي يفسد عقله حتى لا يعود إلى الاستماع من السماء ﴿ **والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا** ﴾ بسطناها ومهدناها للسكنى . ﴿ **وَألقينا فيها رَواسِيَ** ﴾ أي جبالاً ثوابت لولاها لمارت ، فلم يستقرَّ أحد على ظهرها ، يقال رسا رسواً ورسواً ثبت ﴿ **وَأَنْبَتْنَا فِيها** ﴾ أي في الأرض ﴿ **مِنْ كُلِّ شَيءٍ مَوْزونٍ** ﴾ بميزان الحكمة أي مستحسن مناسب من قولهم كلام موزون ﴿ **وَجَعلْنا لَكُمْ فِيها مَعَايِشَ** ﴾ جمع معيشة أي ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرها ، مما يتعلق به البقاء ﴿ **وَمنْ لَستُمْ لَهُ برازِقِينَ** ﴾ من العيال والمماليك والخدم والدواب ، وذكرهم بهذا الأمر لرد حسبانهم أنهم يكفون مؤوناتهم ، ولتحقيق أن الله تعالى هو الذي يرزقهم وإياكم ﴿ **وَإِنْ مِنْ شَيءٍ** ﴾ أي ما من شيء من الأشياء الممكنة ﴿ **إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ** ﴾ جمع خزانة بمعنى المخزن ، وهي ما يحفظ فيه نفائس الأموال شبهت مقدوراته تعالى بنفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية ﴿ **وما نُنَزِّلُهُ** ﴾ أي ما نوجده وما نكون شيئاً من تلك الأشياء ملتبساً بشيء من الأشياء ﴿ **إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلومٍ** ﴾ أي إلا ملتبساً بمقدار معين تقتضيه الحكمة ، وما نوجده مع كثرته وتمكننا منه إلا بحد محسوب

على قدر المصلحة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ شبهت الريح التي تجيء بالخير ، من إنشاء سحاب ماطر بالحامل ، كما شبه بالعقيم مالا يكون كذلك ، وقال أبو عبيدة لواقح جمع ملقحة لأنها تلقح السحاب والأشجار ، بأن تقويها وتنميها إلى أن يخرج ثمرها وقد ورد (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحا) ﴿ فَأَنْزَلْنا ﴾ بعدما أنشأنا بتلك الرياح سحاباً ماطراً ﴿ مِنَ السَّماءِ ﴾ من جانب العلو فإن كل ما علاك سماء ﴿ ماءً ﴾ أي بعض الماء كما يفيده التنكير ، فإنه معلوم عند الناس أنه لم ينزل من السماء كله ، بل قدر ما يَصلون به إلى المنفعة ويسلمون معه من المضرة ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أي جعلنا المطر لكم سقيا تشربونه ، وتسقونه المواشي والضياع .

﴿ وَما أَنتُمْ لَهُ ﴾ أي للمطر المنزل ﴿ بِخَازِنِينَ ﴾ أي نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين ، وقيل ما أنتم بخازنين له بعدما أنزلناه في الغدران والآبار والعيون ، بل نحن نخزنه في هذه المخازن ، ونحفظه فيها لنجعلها سقيا لكم ، مع أن طبيعة الماء تقتضي الغور ﴿ وإنّا لَنَحْنُ نُحيي ﴾ بإيجاد الحياة في بعض الأجسام القابلة لها ﴿ وَنُميتُ ﴾ بإعدامها وإزالتها عنها ، وقد يعم الإحياء والإماتة لما يشمل الحيوان والنبات والله تعالى يحيي الأرض بالمطر أيام الربيع ويميتها أيام الخريف ويحيي بالإيمان ويميت بالكفر ﴿ وَنَحْنُ الوارِثونَ ﴾ ونحن الباقون بعد فناء الخلق جميعاً ، المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك الحاكمون في الكل أولاً وآخراً ﴿ وَلَقَدْ عَلِمنا المُسْتَقْدِمينَ مِنْكُمْ ﴾ أي من تقدم منكم ولادة وموتاً ، يعني الأولين من زمان آدم إلى هذا الوقت ﴿ وَلقدْ عَلِمنا المُسْتأخِرينَ ﴾ أي من تأخر منكم ولادة وموتاً ، يعني الآخرين إلى يوم القيامة ﴿ وَإنَ رَبَّكَ هُوَ ﴾ لا غير ﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أي يجمع المتقدمين والمتأخرين يوم القيامة للجزاء ، فهو رد لمنكري البعث ﴿ إنّهُ حَكيمٌ ﴾ بالغ الحكمة متقن في أفعاله ﴿ عَليمٌ ﴾ وسع علمه كل شيء وقال الإمام الواحدي في أسباب النزول ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت تصلي خلف النبي عليه السلام امرأة حسناء في آخر النساء ، فكان بعضهم يتقدم في الصف الأول ليراها ، فإذا ركع نظر من تحت إبطه فنزلت ، وقيل كانت النساء يخرجن إلى الجماعة فيقفن خلف الرجال ، فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة يتأخر إلى آخر صف الرجال ، ومن النساء من في قلبها ريبة تتقدم إلى أول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت ، وفي الحديث (خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها)[1] قال في فتح القريب : هذا ليس على عمومه بل محمول على ما إذا اختلطن بالرجال ، فإذا

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٠١ .

صلين متميزات لا مع الرجال فهن كالرجال ، والمرادُ : بشَرٌ الصفوف في الرجال والنساء ، كونها أقل ثواباً وفضلاً ، وأبعدها عن مطلوب الشرع ،وخيرُها بعكسه ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ** ﴾ أي هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فردٍ من أفراده ، خلقاً بديعاً منطوياً على خلق سائر أفراده ﴿ **مِنْ صَلْصَالٍ** ﴾ من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أي يصوّت عنه نقره ﴿ **مِنْ حَمَإٍ** ﴾ أي كان ذلك الصلصال من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء ﴿ **مَسْنُونٍ** ﴾ صفة حمأ أي منتن ﴿ **والجَانَّ** ﴾ إبليس هو أبو الجن ، والجان اسم جمع للجن ، وسمي بذلك لأنه يجن أي يستتر ﴿ **خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ** ﴾ من قبل خلق الإنسان ﴿ **منْ نارِ السّمومِ** ﴾ من النار الشديد الحر ، فإن السموم في اللغة الريح الحارة والريح الحارة فيها نار. والفرق بين السموم والحرور ، أن السموم تكون غالباً بالنهار ، والحرور الريح الحارة بالليل ، سميت سموماً لأنها تنفذ في مسام البدن ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ** ﴾ أي اذكر يا محمد وقت قوله تعالى ﴿ **لِلْمَلاَئِكَةِ** ﴾ المقول لهم جميع الملائكة فدخل فيهم جبريل ونحوه من أكابر الملائكة وأصاغرهم ﴿ **إني خَالِقٌ** ﴾ فيما سيأتي البتة ﴿ **بَشَراً** ﴾ البشر الإنسان ذكراً أو أنثى ﴿ **مِنْ صَلْصَالٍ** ﴾ أي بشراً كائناً من صلصال ﴿ **مِنْ حَمَإٍ مسْنونٍ** ﴾ تقدم تفسيره ، أخبرهم سبحانه بتكوين آدم قبل أن يخلقه ليوطنوا أنفسهم على المسارعة إلى السجود ﴿ **فَإذا سَوَّيْتُهُ** ﴾ أي صوَّرته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية ﴿ **وَنَفَخْتُ فيهِ منْ رُوحي** ﴾ النفخ إجراء الريح إلى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، وهو كناية عن إيجاد الحياة ، وإنما أضاف النفخ إلى ذاته لأنه تعالى باشر تسويته وتعديله ، فخلقه وسوّاه وعدله بيديه المقدستين ثم نفخ بذاته دون واسطة فيه من روحه الإضافي ، وهو نفسه الرحماني الذي يقال له الوجود ، ومعنى الآية فإذا كملت استعداده ، وجعلت فيه الروح حتى جرى آثاره في تجاويف أعضائه ، فحيِيَ وصار حساساً متنفساً ﴿ **فَقَعوا لَهُ** ﴾ أي اسقطوا له ﴿ **سَاجِدينَ** ﴾ امتثالاً لأمر الله تعالى ، وتحية لآدم وتعظيماً وتكريماً له ، وسَجَدوا لله على أنه بمنزلة القبلة ، حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته وحكمته .

﴿ **فَسَجَدَ الملائِكَةُ** ﴾ أي فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة ﴿ **كُلُّهُمْ** ﴾ بحيث لم يشذ منهم أحد ، أرضياً أو سماوياً ﴿ **أَجْمَعُونَ** ﴾ بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد ، بل سجدوا مجتمعين ، وقوله (**أجمعونَ**) تأكيد بعد تأكيد فإن قوله ﴿ **فَسَجد الملائِكَةُ** ﴾ ظاهر في سجود جميع الملائكة ، لأن الجمع المعرف باللام ظاهر في العموم ، يتناول كل واحد من الأفراد ، لكنه يحتمل التخصيص وإرادة البعض ،فانقطع الاحتمال وبقوله « أجمعون » زاد الكلام في التأكيد ﴿ **إلاّ إبليسَ** ﴾ الاستثناء متصل لأنه كان جنياً مستوراً فيما بين الملائكة ، فأمر بالسجود معهم ، فغُلِّبوا عليه في قوله (**فَسَجَدَ المَلاَئِكَةُ**) تغليب الذكر على الأنثى ﴿ **أَبى أَنْ يَكونَ معَ السّاجِدينَ** ﴾ أي عدم سجوده لم يكن من تردده ، بل

من إبائه واستكباره ، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً فيتصل به ما بعده أي لكن إبليس أبى أن يكون معهم في السجود لآدم ، وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه ، حيث أدمج في معصية واحدة ثلاث معاصٍ ، مخالفة الأمر ، والاستكبار مع تحقير آدم ، ومفارقة الجماعة ، والإباء عن الانتظام في سلك أولئك المقربين الكرام وفي الحديث الصحيح (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، ويقول يا وَيْلَه ، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار)[1] ﴿ قَالَ ﴾ أي قال الله ﴿ يا إبْليسُ مالَكَ ﴾ أيْ أيُّ سبب جَعَلك ﴿ أنْ لا تَكونَ ﴾ في أن لا تكون ﴿ مَعَ السّاجِدينَ ﴾ لآدم مع أنهم ومنزلتهم في الشرف عالية ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ ﴾ أي ينافي حالي ولا يستقيم مني أن أسجد ﴿ لِبَشَرٍ ﴾ أي جسم كثيف ، وأنا جوهر روحاني ﴿ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مسْنُون ﴾ أي خلقته من طين أسود منتن أي حجتي أنك خلقتني من نار ، وهي جوهر لطيف نوراني علوي ، وخلقته من طين وهو كثيف ظلماني سفلي ، فأنا خير منه بهذا الدليل ، فأشار بهذا الاستدلال إلى غاية جهالته وسخافة عقله ، وحسب أن الله جعل استحقاق آدم لسجود الملائكة في بشرية آدم ، وخلقته من الطين ، ولم ينظر سر الخلافة المودعة في روحه ، المشرّف بشرف الإضافة إلى حضرته ، المختص باختصاص نفخته ، المتعلم للأسماء كلها ، المستعد لتجلي جماله وجلاله فيه ، ومن ههنا قيل لإبليس : إنه أعور لأنه كان بصيراً بإحدى عينيه ، التي يشاهد بها بشرية آدم ، مما أودع فيها من الصفات الحيوانية المذمومة ، المتولد منها الفساد وسفك الدماء ، وأنه كان أعمى لأنه لم يشاهد سر الخلافة المودع في روحانيته ، وما كُرِّم به من علم الأسماء ، والنفخة الخاصة ، وشرف الإضافة إلى نفسه ، وغير ذلك من الاصطفاء والاجتباء ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ فَاخْرُجْ مِنْها ﴾ أمر إهانة وإبعاد والضمير للجنة ، وخروجه منها لا ينافي دخولها بطريق الوسوسة قال أبو القاسم الأنصاري : إن الله باين بين الملائكة والجن والإنس ، في الصور والأشكال ، فإن قلب الله تعالى الملك إلى بنية الإنسان ، خرج عن كونه مَلَكاً ، وقس عليه غيره ﴿ فَإنّكَ رَجيمٌ ﴾ من الرجم بالحجر أي الرمي به أي مطرود من رحمة الله ، ومن كل خير وكرامة ، ﴿ وَإنّ عَليْكَ اللّعنَةَ ﴾ الإبعاد عن الرحمة ﴿ إلى يوْمِ الدّينِ ﴾ إلى يوم الجزاء والعقوبة ، وفيه إشعار بتأخير عقابه وجزائه إليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وإنما يتحقق ذلك يومئذ ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرني ﴾ أي إذا جعلتني رجيماً فأمهلني وأخرني ﴿ إلى يوْمِ يُبْعَثونَ ﴾ أي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجدَّ لإغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت ، إذ لا موت بعد يوم البعث ، فأجابه إلى الأول دون الثاني ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ فَإنّكَ مِنْ

(١) الحديث أخرجه مسلم وابن ماجه وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٤١ .

﴿ الْمُنْظَرِينَ ﴾ أي من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ أي أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم أي لذرية آدم المعاصي والشهوات واللذات ﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ أي في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولأحملنهم أجمعين على الغواية والضلالة ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الذين أخلصتهم لطاعتك ، وطهرتهم من شوائب الشرك فإنهم أهل التوحيد الحقيقي ، على بصيرة من أمرهم ويقظة ، وفي الأثر (قال إبليس لربه عز وجل بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم مادامت الأرواح فيهم ، فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني) وإنما خلق الله إبليس ليميز به العدو من الحبيب ، والشقي من السعيد ، فخلق الله الأنبياء ليقتدي بهم السعداء ، وخلق إبليس ليقتدي به الأشقياء ، فإبليس دلاَّل وسمسار على النار ، وبضاعته الدنيا ، ولما عرضها على الكافرين قيل : ما ثمنها ؟ قال ترك الدين فاشتروها بالدين ، وتركها الزاهدون وأعرضوا عنها ، ودخل قوم على أبي مدين فشكوا وسوسة الشيطان ، فقال : قد خرج من عندي الساعة وشكا منكم، وقال : قل لأصحابك يتركوا دنياي حتى أترك لهم دينهم ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله ، أعداؤك أربعة: الدنيا وسلاحها لقاء الخلق ، وسجنها العزلة ، والشيطان وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع ، والنفس وسلاحها النوم ، وسجنها السهر ، والهوى وسلاحه الكلام ، وسجنه الصمت ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لإبليس ﴿ هَذَا ﴾ أي تخلص المخلصين من إغوائك ﴿ صِرَاطٌ ﴾ أي طريق ﴿ عَلَيَّ ﴾ أي كالحق الذي يجب مراعاته في تأكيد ثبوته وتحقق وقوعه ، إذ لا يجب على الله شيء عند أهل السنة ﴿ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لا عوج فيه ولا انحراف عنه .

﴿ إِنَّ عِبَادِي ﴾ وهم المشار إليهم بالمخلصين ، الجديرون بالإضافة إلى جنابه تعالى ، لخلوصهم في الإيمان ، وسلامتهم من الشيطان ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ ﴾ على قلوبهم ﴿ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط وتصرف بالإغواء ، قيل للشيطان : ما حالك مع الصالحين قال : كمثل رجل يبول في البحر المحيط يريد أن يلوثه هل أسفه منه ، أو كمثل رجل يريد أن يطفىء أنوار الشمس بنفسه ، هل ترى أجهل منه ، وقيل لبعضهم : وكيف مجاهدتك للشيطان ؟ قال : ما الشيطان ؟ نحن قوم صرفنا همنا إلى الله تعالى فكفانا من دُونَه وفي معناه أنشد :

تسترت عن دهري بظل جنابه * فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت * وأين مكاني ما عرفن مكاني

﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ فإن قلت : إن الله تعالى لم يمنع إبليس عن النبي ﷺ ؟ قلت : سلَّطه عليه ثم عصمه منه ، ولذا أسلم شيطانه على يديه ، قال علي رضي الله عنه : الفرق بين صلاتنا وصلاة

أهل الكتاب وسوسة الشيطان ، لأنه فرغ من عمل الكفار لأنهم وافقوه ، يقول إذا كفر أحد إني بريء منك ، والمؤمن يخالفه والمحاربة تكون مع المخالفة وهم الذين قال الله تعالى في حقهم (**إنّ عِبادي ليْسَ لكَ عليْهِمْ سُلْطانٌ**) ﴿ **وَإنّ جَهَنَّمَ** ﴾ سميت جهنم لبعد قعرها يقال بئر جهنام إذا كانت بعيدة القعر وهي سجن الله في الآخرة ﴿ **لَمَوْعِدُهُمْ** ﴾ مكان الوعد للمتبعين أي مصيرهم ﴿ **أجْمعينَ** ﴾ تأكيد للضمير ﴿ **لَها سَبْعةُ أبوابٍ** ﴾ يدخلون منها كل باب فوق باب على قدر الطبقات لكل طبقة باب ﴿ **لِكُلِ بابٍ** ﴾ من تلك الأبواب المنفتح على طبقة من الطبقات وقوله ﴿ **مِنْهُمْ** ﴾ أي من الأتباع ﴿ **جُزْءٌ مَقْسُومٌ** ﴾ ضرب معين حسبما يقتضيه استعداده ، فللطبقة الأولى وهي العليا العصاة من المسلمين واختلفت الروايات في ترتيب طبقات النار ، وفي الأكثر جهنم أولها وسميت جهنم لما سبق ، ولظى لشدة إيقادها ، والحطمة لأنها تحطم ، والسعير لتوقدها ، وسقر لشدة الإلتهاب ، والجحيم لعمقها ، والهاوية لهويها وتسفلها ، واعلم أن أشد الخلق عذابا في النار إبليس ، الذي سنَّ الشرك ، وعامة عذابه بما يناقض ما هو الغالب عليه في أصل خلقته وهي النار ، فيعذب غالباً بما في جهنم من الزمهرير ، ثم بعد أن ذكر تعالى مآل المجرمين ، أعقبه بذكر مآل المتقين فقال ﴿ **إنّ المتّقينَ** ﴾ الاتقاء على ثلاثة أوجه : اتقاء عن محارم الله ، واتقاء عن الدنيا وشهواتها ، واتقاء عما سوى الله تعالى ، والأول تقوى العوام ، والثاني تقوى الخواص ، والثالث تقوى الأخص ﴿ **في جَنّاتٍ وَعُيُوْنٍ** ﴾ مستقرون فيها لكل واحد منهم جنة وعين ، على ما تقتضي قاعدة مقابلة الجمع بالجمع ﴿ **أُدخُلوها** ﴾ أي يقال لهم عند وصولهم إلى الباب ، ادخلوا أيها المتقون تلك الجنات ملتبسين ﴿ **بِسَلامٍ** ﴾ أي حال كونكم سالمين من كل مخوف ، أو مسلماً عليكم يسلم الله تعالى عليكم ﴿ **آمِنينَ** ﴾ من الآفات ﴿ **وَنَزعْنا مَا في صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ** ﴾ أي حقد كامن في القلب ، بسبب عداوة كانت منهم في الدنيا ، عن علي رضي الله عنه : أرجو أن أكون أنا وعثمان ، وطلحة ، والزبير منهم ﴿ **إخْواناً** ﴾ حال من الضمير في جنات ولم يذكر في الأعراف ، وزاد في هذه السورة « إخواناً » لأنها نزلت في أصحاب رسول الله عليه السلام ، وما سواها عامّ في المؤمنين ، فهم إذا كانوا إخواناً يعني على المصافاة ، لم يبق بينهم التحاسد لا في الدنيا على العلوم والمعارف ، ولا في الآخرة على درجات الجنة ومراتب القرب ﴿ **عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلينَ** ﴾ قال مجاهد : تدور بهم الأسرة حيث ما أرادوا ، فهم متقابلون في جميع أحوالهم ، يرى بعضهم بعضاً ، وذلك من نتائج مصافاتهم في الدنيا ﴿ **لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ** ﴾ أي تعب لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل أصلاً ، أو لا يعتريهم ذلك لكمال قوتهم ﴿ **وما هُمْ مِنها بِمُخرَجِينَ** ﴾ أبد الآباد لأن تمام النعمة بالخلود وفي الحديث (أول زمرة تلج الجنة ، صورُهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يتمخطون ، ولا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، وأمشاطهم من الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم

زوجتان ، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبُهم على قلبِ واحد ، يسبحون الله بكرة وعشياً) رواه البخاري ، قال في فتح القريب : أي يسبحون الله بقدر البكرة والعشي ، فأوقات الجنة من الأيام والساعات تقديرات ، فإن ذلك إنما يجيء من اختلاف الليل والنهار ، وسير الشمس والقمر ، وليس في الجنة شيء من ذلك ، قال القرطبي : هذا التسبيح ليس عن تكليف وإلزام ، لأن الجنة ليست بمحل التكليف ، وإنما هي محل جزاء ، وإنما هو عن تيسير وإلهام ، كما قال في الرواية الأخرى (يُلهمون التسبيح والتحميد والتكبير كما يُلهمون النَّفَس) ووجه التشبيه أن نَفَس الإنسان لا بد له منه ، ولا كلفة عليه ولا مشقة في فعله ، وسرُّ ذلك أن قلوبهم قد تنورت بمعرفته ، وأبصارهم قد تمتعت برؤيته ، وقد غمرتهم سوابغ نعمه ، وامتلأت أفئدتهم بمحبته ، فألسنتهم ملازمةٌ ذكرِه ، ورهينة شكره ، فمن أحب شيأ أكثر ذكره ﴿ **نَبِّىءْ عِبَادِي** ﴾ أي أعلم عبادي وأخبرهم ﴿ **أني** ﴾ أي بأني ﴿ **أَنا** ﴾ وحدي فهو لقصر المسند على المسند إليه ﴿ **الغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ أي لا يستر عليهم ولا يمحو ما كان منهم ولا ينعم عليهم بالجنة إلا أنا وحدي ولا يقدر على ذلك غيري ﴿ **وأن عَذابي هُوَ العَذابُ الأليمُ** ﴾ أي وأخبرهم بأنْ ليس عذابي إلا العذاب الأليم ﴿ **وَنَبِّئْهُمْ** ﴾ وأخبر أمتك يا محمد ﴿ **عَنْ ضَيْفِ إبْراهِيمَ** ﴾ أي أضيافه وهو جبريل مع أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان ، الوضاءة وجوهُهم ، جعلهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورة الضيف ، أو لكونهم ضيفاً في حسبان إبراهيم عليه السلام ﴿ **إذْ دَخلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا** ﴾ عند دخولهم عليه ﴿ **سَلاماً** ﴾ أي نسلّم سلاماً ، قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴿ **قَالَ** ﴾ إبراهيم ﴿ **إنّا مِنْكُمْ وَجِلونَ** ﴾ خائفون فإن الوجل اضطراب النفس لتوقع مكروه ، وإنما قاله عليه السلام حين امتنعوا من أكل ما قرَّبه إليهم من العجل الحنيذ ، لما أن المعتاد عندهم ، أنه إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ، ظنوا أنه لم يجيء بخير ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الملائكة ﴿ **لا تَوْجَلْ** ﴾ لا تخف يا إبراهيم ﴿ **إنّا نُبَشِّرُكَ** ﴾ استئناف في معنى التعليل وهو بشارة بقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زماناً طويلاً ، والبشارة : هو الإخبار بما يظهر سرور المخبر به ﴿ **بِغُلامٍ عَلِيمٍ** ﴾ أي إذا بلغ ﴿ **قَالَ أَبشّرتُموني عَلى أنْ مَسّنيَ الكِبَرُ** ﴾ الاستفهام للتعجب والاستبعاد أي مع مس الكبر بأن يولد لي ، أي إن الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر ، أي بعدما أصابني الكبر والهرم ﴿ **فَبِمَ تُبَشِّرُونِ** ﴾ هي ما استفهامية دخلها معنى التعجب ، كأنه قيل : فبأي أعجوبة تبشرون ؟ ﴿ **قَالُوا بَشّرناكَ بالحقِ** ﴾ أي بما يكون لا محالة ﴿ **فَلا تَكُنْ مِنَ القَانِطِينَ** ﴾ من الآيسين من ذلك ، فان الله تعالى قادر على أن يخلق بشراً بغير أبوين ، فكيف من شيخ فانٍ وعجوز عاقر ؟ ﴿ **قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ** ﴾ استفهام إنكازي أي لا يقنط ﴿ **مِنْ رَحْمَةِ رَبّهِ إلاّ الضّالونَ** ﴾ أي المخطئون طريق المعرفة والصواب ، فلا يعرفون سعة رحمته ، وكمال علمه وقدرته ، كما قال يعقوب عليه السلام (**لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ القَوْمُ**

الكَافِرونَ) ومراده نفي القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أي ليس بي قنوط من رحمته تعالى ، وإنما الذي أقول لبيان منافاة حالي لفيضان تلك النعمة الجليلة عليَّ ﴿ **قَالَ** ﴾ إبراهيم ﴿ **فَما خَطْبُكُمْ أيُّها المُرْسَلُوْنَ** ﴾ أي ما أمركم وشأنكم الخطير ؟ لعل إبراهيم عليه السلام علم بالقرائن أن مجيء الملائكة ليس لمجرد البشارة ، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الملائكة ﴿ **إنّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمٍ مُجْرِمينَ** ﴾ مصرين على إجرامهم ، متناهين في آثامهم ، وهم قوم لوط ﴿ **إلاّ آلَ لُوْطٍ** ﴾ يريد أهله المؤمنين ﴿ **إنّا لمنَجّوهُمْ أجْمعينَ** ﴾ أي مما يصيب القوم من العذاب وهو قلب مدائنهم ﴿ **إلاّ امْرأتَهُ قَدّرْنا** ﴾ حكمنا وقضينا ﴿ **إنّها لَمِنَ الغَابِرينَ** ﴾ الباقين مع الكفرة لتهلك معهم ﴿ **فَلَمّا جَاءَ آلَ لُوطٍ المُرْسَلُوْنَ** ﴾ أي الملائكة ﴿ **قَالَ** ﴾ لوط ﴿ **إنّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرونَ** ﴾ غرباء ليس عليكم زيُّ السفر فأخاف أن تطرقوني بشرٍّ ﴿ **قَالُوا** ﴾ ما جئناك بما تنكرنا لأجله ﴿ **بَلْ جِئْنَاكَ بما كَانُوا فيهِ يَمْتَرُوْنَ** ﴾ أي بما فيه يَشفيك من عدوك ، وهو العذاب « ويمترون » أي يشكُّون فيه ويكذبونك جهلاً وعناداً ﴿ **وَأتَيْنَاكَ بالحَقِّ** ﴾ بالمتيقن الذي لا مجال فيه للامتراء والشك ، وهو عذابهم ﴿ **وَإنّا لصَادِقونَ** ﴾ في الإخبار بنزوله بهم ﴿ **فَأسْرِ بأهْلِكَ** ﴾ فاذهب بهم في الليل ﴿ **بِقِطْعٍ مِنَ اللّيْلِ** ﴾ في طائفة من الليل أي بعض منه ﴿ **واتَّبِعْ أدْبَارَهُمْ** ﴾ أي وكن على أثرهم لتسوقهم وتسرع بهم ، وتطلع على أحوالهم ﴿ **ولا يَلْتَفتْ مِنْكُمْ** ﴾ أي منك ومنهم ﴿ **أحَدٌ** ﴾ فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه ﴿ **وَامْضُوا حَيْثُ تُؤمَرُوْنَ** ﴾ حيث أمركم الله بالمضي إليه ، وهو الشام أو مصر بالشام ﴿ **وَقَضَيْنَا إليْهِ** ﴾ وأوحينا إلى لوط حُكماً مقتضياً مبتوتاً ﴿ **ذلِكَ الأمْرَ** ﴾ مبهم يفسره ﴿ **أنَّ دَابِرَ هَؤلاءِ** ﴾ المجرمين أي آخرهم ﴿ **مَقْطُوعٌ** ﴾ أي مهلك يُستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿ **مُصْبِحينَ** ﴾ أي وقت دخولهم في الصبح ، وهو تعيين لوقت هلاكهم ، كما قال الله تعالى (**إنّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ**) وتلخيصه أوحينا إليه أنهم يهلكون جميعاً وقت الصبح فكان كذلك ، وفي الآيات إشارات : الأولى أن لا عبرة بالنسب والقرابة والصحبة ، بل بالعلم النافع والعمل الصالح ، ألا ترى أن الله استثنى امرأة لوطٍ فجعلها في الهالكين ، ولم تنفعها الزوجية بينها وبين لوط ! كما لم تنفع الأبوة والبنوة بين نوح وابنه كنعان ، والثانية أن الشك من صفات الكفرة ، كما أن اليقين من صفات المؤمنين ، والثالثة أن سالك طريق الحق ينبغي أن لا يلتفت إلى شيء سوى الله تعالى ، لأنه المقصد الأقصى والمطلب الأعلى ﴿ **وَجَاءَ أهْلُ المدينَةِ** ﴾ وجاء أهل سدوم منزل لوط ومدائن قوم لوط ، كانت أربعاً ، وقيل : سبعاً وأعظمها سدوم ﴿ **يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ أي مظهرين السرور بأنه نزل بلوط عدّة من المرد ، في غاية الحسن والجمال ، قصداً إلى ارتكاب الفاحشة ﴿ **قَالَ** ﴾ لوط لهم لما قصدوا أضيافه ﴿ **إنّ هَؤُلاَءِ ضَيْفي** ﴾ إطلاق الضيف على الملائكة بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم في زي الضيف ﴿ **فلا تَفْضَحونِ** ﴾ بأن تتعرضوا لهم بسوء

أو لا تفضحون بفضيحة ضيفي ، فإن من أُهينَ ضيفُه فقد أهين ، كما إن الإكرام كذلك ﴿ **واتّقوا اللهَ** ﴾ في ركوب الفاحشة واحفظوا ما أمركم به ، ونهاكم عنه ﴿ **ولا تُخْزونِ** ﴾ ولا تذلوني ولا تهينوني بالتعرض لهم بتلك الفعلة القبيحة ، من الخزي وهو الهوان ﴿ **قالوا أَوَلَمْ نَنْهكَ عَنِ العَالمينَ** ﴾ أي ألم نقدم إليك ولم ننهك عن التعرض لهم بمنعهم عنا ؟ وكانوا يتعرضون لكل واحد من الغرباء بالسوء ، وكان عليه السلام يمنعهم عن ذلك بقدر وسعه وهم ينهونه عن أن يجير أحداً ويوعدونه بقولهم (لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) ﴿ **قَالَ هَؤلاءِ بَناتي** ﴾ أي بنات قومي تزوجوهن ، وإنما جعل بنات قومه كبناته فإن كل نبي أبو أمته من حيث الشفقة والتربية ، أو أراد بناته الصلبية أي فتزوجوهن ولا تتعرضوا للأضياف وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم ﴿ **إنْ كُنْتُمْ فَاعِلينَ** ﴾ قضاء الشهوة فيما أحلَّ الله دون ما حرم ، فإن الله تعالى خلق النساء للرجال ، لا الرجال للرجال ، وفي الآيات فوائد : **الأولى** أن إكرام الضيف ورعاية الغرباء ، من أخلاق الأنبياء والأولياء ، وهو من أسباب الذكر الجميل **والثانية** أنه لابد لكل مؤمن متق ، أن يسد باب الشر بكل ما أمكن له من الوجوه ، ألا ترى أنَّ لوطاً عليه السلام لما لم يجد مجالاً لدفع الخبيثين ، عرض عليهم بناته بطريق النكاح وإن كانوا غير أكفاء دفعاً للفساد ؟ **والثالثة** أن محل التمتع هي النساء لا الرجال ، كما قالوا ضرر النظر في الأمرد أشدُّ لأنه لا يحل الاستمتاع بالأمرد ﴿ **لَعَمْرُكَ** ﴾ قسم من الله تعالى بحياة النبي ﷺ ، وهو المشهور وعليه الجمهور ، والعَمْرُ بالفتح والضم واحد ، وهو البقاء إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف ولذلك حذفوا الخبر ، وتقديره لعمرك قسمي ﴿ **إنّهُمْ** ﴾ أي قوم لوط ﴿ **لفي سَكْرَتِهِمْ** ﴾ غوايتهم من ترك البنين إلى البنات ﴿ **يَعْمَهونَ** ﴾ يتحيرون ويتارون ، فكيف يسمعون النصح ؟ قال في القاموس : العَمَهُ التردد في الضلال بحيث لا يعرف الحجة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما خلق الله تعالى نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، واعلم أن الله تعالى قد أقسم بنفسه في القرآن في سبعة مواضع، والباقي من القسم القرآني قسم بمخلوقاته كقوله (**والتين والزيتون**) (**والصافات**) (**والشمس**) (**والضحى**) ونحوها ، فإن قلت ما الحكمة في معنى القسم من الله تعالى ؟ فإن كان لأجل المؤمن فالمؤمن يُصدِّق بمجرد الإخبار من غير قسم ، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده ؟ قلت : إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمراً فإن قلت : ما الحكمة في أن الله تعالى قد أقسم بالخلق ، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى ؟ قلت في ذلك وجوه : أحدها أنه على حذف مضاف أي ورب التين ورب الشمس وواهب العمر ، **والثاني** أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون ، **والثالث** أن الإقسام إنما يكون بما يُعظِّم المقسم به أو يُجلُّه ، فأقسم تارة بنفسه، وتارة بمصنوعاته ، فهو يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله ، وهذا كالنهي عن

الامتنان قال الله تعالى (**بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ**) وعن تزكية النفس ومدحها وقد مدح الله تعالى نفسه ، وقد أقسم الله تعالى بالنبي عليه الصلاة والسلام في قوله (**لَعَمْرُكَ**) ليعرف الناس عظمته عند الله ومكانته لديه ، فالقسم إما لفضيلة ، أو لمنفعة كقوله (**والتّينِ والزيتونِ**) وكان الحلف بالآباء معتاداً في الجاهلية فلما جاء الله تعالى بالإسلام نهاهم الرسول عليه السلام عن الحلف بغير الله تعالى ، والحكمة في النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به ، وحقيقة العظمة مختصة بالله تعالى لأنه ليس فوقه عظيم يُحلف به ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ** ﴾ أي قوم لوط ﴿ **الصّيْحَةُ** ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام ﴿ **مُشْرِقِينَ** ﴾ أي حال كونهم داخلين في وقت شروق الشمس كما قال (**أنّ دَابِرَ هَؤلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ**) ﴿ **فَجَعَلْنَا عالِيهَا سَافِلَهَا** ﴾ وذلك بأن رفعناها إلى قريب من السماء على جناح جبريل ثم قلبناها عليهم فصارت منقلبة بهم ﴿ **وَأَمْطَرنا عَلَيْهِمْ حجارةً** ﴾ كائنة ﴿ **مِنْ سِجّيلٍ** ﴾ من طين متحجر ، عليه اسم من يُرْمَى به ، فهلكوا بالخسف والحجارة ﴿ **إنّ في ذَلِكَ** ﴾ أي فيما ذكر من القصة ﴿ **لآياتٍ** ﴾ لعلامات يستدل بها على حقيقة الحق ويعتبر ﴿ **للْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ أي المتفكرين المتفرسين الذين يبسطون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء وباطنه بسمته ، توسَّم الشيء : تخيَّره وتفرسه ﴿ **وَإنّها لَبِسَبِيلٍ مُقيمٍ** ﴾ أي طريق ثابت يسلكه الناس ، ويرون آثار تلك البلاد بين مكة والشام فاتعظوا بآثارهم يا قريش ﴿ **إنّ في ذلكَ** ﴾ أي في كون آثار تلك القرى بمرأى من الناس ، يشاهدونها في ذهابهم وإيابهم ﴿ **لآيةً** ﴾ عظيمة ﴿ **للْمُؤْمِنِينَ** ﴾ بالله ورسوله فإنهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب الذي ترك ديارهم بلاقع ، إنما حاق بهم لسوء صنيعهم ، وفي الآيات فائدتان : الأولى مدح الفراسة وهي الإصابة في النظر ، (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ثم قرأ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين)[1] ، والفائدة الثانية أن في إهلاك الأمم الماضية وإنجاء المؤمنين ،إيقاظاً ، وانتباهاً ، ووعداً ووعيداً ، فاعتبروا بأحوالهم واجتنبوا عن أفعالهم ، وابكوا فهذه ديار الظالمين ومصارعهم ﴿ **وَإنْ كَانَ** ﴾ إن مخففة من إنَّ أي وإن الشأن كان ﴿ **أَصْحابُ الأيْكَةِ** ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة الشجر الملتف المتكاثف ﴿ **لَظَالِمِينَ** ﴾ متجاوزين عن الحد ﴿ **فانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾ وذلك أن الله أرسل عليهم حراً شديداً سبعة أيام ، فخرجوا ليستظلوا بالشجر من شدة الحر ، فجاءت ريح سموم بنار فأحرقتهم ، فهو عذاب يوم الظلة ، وكان ظلمهم بشركهم بالله ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة ، والرجفة ، وعذاب يوم الظُّلَّة ، وكانوا قريباً من قوم لوط ،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٦ .

﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ مدائن قوم لوط ، والأيكة ﴿ لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ لبطريق واضح والإمام اسم ما يؤتمُّ به قال الله تعالى (إني جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً) أي يؤتم ويقتدى بك ، ويسمى به الكتاب أيضا قال الله تعالى (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِم) أي بكتابهم وقال (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ) يعني في اللوح المحفوظ ويسمى الطريق إماماً لأن المسافر يأتمّ به ويستدل به ، حكي أنَّ رجلاً كان يبيع الخمر في سفينة له ، ومعه قرد في السفينة ، وكان يشوب الخمر بالماء ، فأخذ القرد الكيس فصعد الذروة وفتح الكيس ، فجعل يأخذ ديناراً فيلقيه في السفينة ، ودينارا في البحر حتى جعله نصفين ، وفي الحديث (إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة) وفي الحديث (ليأتين على الناس زمانٌ ، لا يبالي المرء مم أخذ المال ، أمِنْ حلال أو من حرام)[1] يا ابن آدم عينك مطلقة في الحرام ، ولسانك مطلق في الآثام ، وجسدك يتعب في كسب الحطام ، تيقظ يا مسكين ، مضى عمرك وأنت في غفلتك ، فأين الدليل على سلامتك ؟

عليك بالقصدِ لا تطلبْ مكاثرةً * فالقصدُ أفضل شيء أنت طالبه
فالمرءُ يفرح بالدنيا وبهجتها * ولا يفكِّرُ ما كانت عواقبهُ
حتى إذا ذهبتْ عنه وفارَقَها * تبيَّنَ الغَبْنُ فاشتدَّتْ مصائِبهُ

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ ﴾ الحجر بكسر الحاء اسم لأرض ثمود قوم صالح عليه السلام ، بين المدينة والشام ، وكانوا عرباً ، وكان صالح عليه السلام من أفضلهم نسباً ، فبعثه الله إليهم رسولاً فكذب أصحاب الحجر أي ثمود المرسلين أي صالحا فإن من كذب واحداً من الأنبياء فقد كذب الجميع ، لاتفاقهم على التوحيد والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار ، ونظيره قولهم فلان يلبس الثياب ويركب الدواب ، وماله إلا ثوب ودابة ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ ﴾ أي ثمود ﴿ آياتِنا ﴾ هي الناقة كان فيها آيات ولما طال دعاؤه ، اقترحوا أن يُخرج لهم الناقة آية ، فكان من أمرها وأمرهم ما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا ﴾ أي عن تلك الآيات ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ إعراضاً كلياً ، بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا ، قال ابن الجوزي : لا بالناقة اعتبروا ، ولا بتعويضهم اللبن شكروا ، عتوا عن المنعم وبطروا ، وكلما رأوا آية من الآيات كفروا ، الطبع الخبيث لا يتغير ، والمقدر عليه ضلالة لا يزول ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ ﴾ جمع جبل والجبل كل وتد للأرض عظم وطال ، فإن انفرد فأكمة ﴿ بيوتاً ﴾ جمع بيت وهي اسم مبني مسقف مدخله من جانب واحد بني

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في البيوع ٤ / ٢٥٣ والنسائي في البيوع أيضاً ٧ / ٢٤٣ بلفظ « يأتي على الناس زمانٌ لا يبالي المرء .. » الحديث وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٦٩ .

للبيتوتة ﴿ آمِنِينَ ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء لوثاقتها فهو حال مقدرة أو من العذاب والحوادث لفرط غفلتهم ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ أي صيحة جبريل فإنه صاح فيهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أي داخلين في وقت الصبح في اليوم الرابع ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي لم يدفع عنهم ما نزل بهم ﴿ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من بناء البيوت الوثيقة ، والأموال الوافرة ، والعدد المتكاثرة ، روي أن صالحا عليه السلام انتقل بعد هلاك قومه إلى الشام بمن أسلم معه ، فنزلوا رملة فلسطين ، ثم انتقل إلى مكة فتوفي بها ، وهو ابن ثمان وخمسين سنة ، وكان أقام في قومه عشرين سنة ، وعن جابر رضي الله عنه مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر فقال لنا : (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء)[1] وكان هذا في غزوة تبوك خشي ﷺ على أصحابه رضي الله عنهم أن يجتازوا على تلك الديار ، غير متعظين بما أصاب أهل تلك الديار ، فنبه عليه الصلاة والسلام على أن الإنسان لا ينبغي له السكنى في أماكن الظلمة ، مخافة أن يصيبهم بلاء فيصاب به ، أو تسرق طباعه من طباعهم ، ولو كانت خالية منهم لأن آثارهم مذكرة بأحوالهم ، وربما أورثت قسوة وجبروتاً ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي بين جنسي السموات والأرضين ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ أي إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة ، لا باطلاً وعبثاً ، لينظر عبادي إليهما فيعتبروا ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ ﴾ أي القيامة لتوقعها كل ساعة لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ﴿ لآتِيَةٌ ﴾ لكائنة لا محالة فينتقم الله لك يا محمد فيها من أعدائك ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ أي فاعرض عن المكذبين إعراضاً جميلاً ، وتحمل أذيَّتهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الذي يبلغك إلى غاية الكمال ﴿ هُوَ الْخَلاَّقُ ﴾ لك ولهم ولسائر الموجودات على الإطلاق ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالك وأحوالهم ، فهو حقيق بأن تكل جميع الأمور إليه ليحكم بينهم ، وفي الآية أمر بالمخالفة بالخُلُق الحسن ، وكان ﷺ أحسن الناس خُلُقاً ، وأرجح الناس حلماً وأعظم الناس عفواً ، وأسخى الناس كفاً ، وكان زين العابدين عظيم التجاوز والصفح والعفو ، حتى إنه سبه رجل فتغافل عنه ، فقال له : إياك أعني ، فقال : وعنك أعرض ، أشار إلى آية (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ولما ضرب جعفر بن سليمان العباسي والي المدينة مالكاً رضي الله عنه ونال منه وحمل مغشيا وأفاق ، قال : أشهدكم أني جعلت ضاربي في حلٍّ ، ثم سئل فقال خفت أن أموت وألقى النبي ﷺ واستحيي منه أن يدخل بعض آله النار بسببي ، ولما قدم المنصور المدينة ناداه ليقتص له من جعفر فقال : أعوذ بالله ، والله ما ارتفع منها سوط إلا وقد جعلته في حلٍّ لقرابته من رسول الله ﷺ ، قيل : الحلم ملح الأخلاق

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً ٤ / ٥١١ جامع الأصول .

﴿ **ولقدْ آتيْناكَ** ﴾ يا محمد ﴿ **سَبْعاً** ﴾ هي الفاتحة ، لأنها سبع آيات بالاتفاق ﴿ **مِنَ المثاني** ﴾ وهي القرآن ، و « مِنْ » للتبعيض كما قال تعالى في سورة الزمر (**الله نَزّلَ أحسْنَ الحديث كِتاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ**) جمع مثنى لأنه ثنى فيه أي كرر في القرآن الوعد والوعيد ، والأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والقصص ﴿ **والقرآنَ العَظيمَ** ﴾ وهو من عطف الكل على البعض وهو السبع ، ويجوز أن يكون « من » للبيان فالسَّبعُ هي المثاني كقوله (**فاجْتَنِبوا الرّجْسَ مِنَ الأوْثانِ**) يعني اجتنبوا الأوثان ، وتسمية الفاتحة مثاني لتكرر قراءتها في الصلاة ، ولأنها تثنى بما يقرأ بعدها في الصلاة من السورة والآيات ، لأن نصفها ثناء العبد لربه ، ونصفها عطاء الرب للعبد ، ويؤيد هذا الوجه قوله عليه السلام لأبي سعيد : لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن : قال ما هي ؟ قال (الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)[1] ﴿ **لا تَمُدَّنَّ عَينَيْكَ** ﴾ أي نظر عينيك ولا تطمح ببصرك طموح راغب ، ولا تدم نظرك ﴿ **إلىٰ ما مَتّعْنا بِهِ** ﴾ من زخارف الدنيا وزينتها ، ومحاسنها وزهرتها ، إعجاباً به ، وتمنياً أن يكون لك مثله ﴿ **أزْواجاً مِنْهُمْ** ﴾ أصنافا من الكفرة فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال والذخائر ، بالنسبة إلى ما أوتيته من النبوة والقرآن والفضائل ، مستحقر لا يعبأ به ، فإن ما أوتيته هو النعمة العظمى ، فاستغن بما أعطيت ولاتلتفت إلى متاع الدنيا ومنه الحديث (ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن)[2] ذكر الحافظ لهذا الحديث أربعة أوجه : **أحدها** : أن المراد بالتغني رفع الصوت ، **والثاني** : الاستغناء بالقرآن عن غيره من كتاب آخر ونحوه لفضله ، كما قال أبو بكر رضي الله عنه : من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي ، فقد صغَّر عظيماً ، وعظَّم صغيراً ، **والثالث** : تغريد الصوت بحيث لا يخلُّ بالمعنى ، فاختار رسول الله ﷺ أن يترك العرب التغني بالأشعار ، إلى قراءة القرآن على الصفة التي كانوا يعتادونها في قراءة الأشعار ، **والرابع** : تحسين الصوت وتطييبُه بالقراءة من غير تغريد الصوت ﴿ **ولا تَحْزَنْ عَليْهِمْ** ﴾ أي على الكفرة ﴿ **واخْفِضْ جَنَاحَكَ للمُؤمِنينَ** ﴾ وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين ، وارفق بهم ، مستعار من خفض الطائر جناحه من فوق إذا أراد أن ينحط ﴿ **وقُلْ إني أنا النّذيرُ المبينُ** ﴾ أي المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله ذُكر في سبب نزوله قوله تعالى (**ولقدْ آتيْناكَ سَبْعاً مِن المثاني والقُرآنَ العَظيمَ**) أن عيراً لأبي جهل قدمت من الشام بمال عظيم وهي سبع قوافل ، ورسول الله وأصحابه ينظرون إليها ، وأكثر أصحابه بهم عري وجوع فخطر ببال النبي عليه السلام شيء لحاجة أصحابه فنزلت ، أي أعطيناك سبعاً من المثاني مكان سبع

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي في الصلاة ، جامع الأصول ٨ / ٤٦٩ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والحاكم من حديث أبي لبابة عن ابن عباس مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٦٧ .

قوافل فلا تنظر لما أعطيناه لأبي جهل ، وهو متاع الدنيا الدنية ، ولا تحزن على أصحابك ، واخفض جناحك لهم ، فإن تواضعك لهم أطيب لقلوبهم من ظفرهم بما يُحبُّ من أسباب الدنيا ﴿ **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ** ﴾ متعلق بقوله ولقد آتيناك ، لأنه بمعنى أنزلنا أي أنزلنا عليك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم إنزالاً مماثلاً لإنزال الكتابين على اليهود والنصارى المقتسمين ﴿ **الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ** ﴾ المنزل عليك يا محمد ﴿ **عِضِينَ** ﴾ أجزاء ، أي قسموا القرآن إلى حق وباطل ، حيث قالوا عناداً وعدواناً : بعضُه حقٌّ موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضه باطل مخالف لهما ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وعضين جمع عضة وهي الفرقة والقطعة ، والتعبيرُ عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريق الأعضاء من ذي الروح ، المستلزم لإزالة حياته وإبطال اسمه للتنصيص على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم هذا ، وقد قال بعضهم المقتسمون اثنا عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام موسم الحج ، فاقتسموا شعاب مكة وطرقها ، وقعدوا على أبوابها فإذا جاء الحاج قال واحد منهم : لا تغتروا بهذا الرجل فإنه مجنون ، وقال آخر كاهن ، وآخر عرّاف ، وآخر شاعر ، وآخر ساحر ، فثبَّط كل واحد منهم الناس عن اتباعه عليه الصلاة والسلام ووقعوا فيه عندهم فأهلكهم الله يوم بدر ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ سؤال توبيخ وتقريع بأن يقال لم فعلتم ؟ وقوله تعالى (**فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ**) أي لا يسألون أيَّ شيء فعلتم ليعلم ذلك من جهتهم ، لأن سؤال الاستعلام محال على الملك العلام ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ أي فاجهر بما تُومر من الشرائع ، أي تكلم به جهاراً وأظهره يقال صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً وكان رسول الله عليه السلام قبل نزول هذه الآية مستخفياً لا يظهر شيئاً مما أنزل الله تعالى حتى نزل (**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**) كان عليه الصلاة والسلام مأموراً بإظهار ما كان من قبيل الشرائع والأحكام، لا ما كان من قبيل المعارف ﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ أي لاتلتفت إلى ما يقولون ولاتبال بهم ولا تقصد الانتقام منهم ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾ بقمعهم وإهلاكهم ﴿ **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ** ﴾ يعني الأصنام وغيرها والموصول منصوب بأنه صفة المستهزئين ، ووصفُهم بذلك تسلية لرسول الله ﷺ وتهويناً للخطب عليه بإعلامه إنهم لم يقتصروا على الاستهزاء عليه الصلاة والسلام بل اجترأوا على العظيمة التي هي الإشراك بالله سبحانه ﴿ **فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ فهو عبارة عن الوعيد و « سوف » و « لعلَّ » و « عسى » في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده ، ولا مجال للشك بعده فعلى هذا جرى وعد الله ووعيده ، والجمهور على أنها نزلت في خمسة نفر ذوي شأن وخطر ، كانوا يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به ، فأهلكهم الله في يوم واحد ، وكان إهلاكهم قبل بدر منهم « العاص بن وائل السهمي » والد عمرو بن العاص رضي الله عنه ، كان يخلج خلف رسول الله بأنفه وفمه يسخر به فخرج في يوم مطير على راحلة مع

ابنين له فنزل شعباً من تلك الشعاب ، فلما وضع قدمه على الأرض قال : لُدِغتُ ، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً ، فانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ، ومنهم « الحارث بن القيس » أكل حوتاً مالحاً فأصابه عطش شديد ، فلم يزل يشرب الماء حتى انشق بطنه فمات في مكانه ، ومنهم « الأسود بن المطلب بن الحارث » خرج مع غلام له فأتاه جبريل وهو قاعد إلى أصل شجرة فجعل يضرب جبريل رأسه على الشجرة وكان يستغيث بغلامه ، فقال غلامه : لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك فمات مكانه ، وكان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي وأصحابه ، ويُصفِّرون إذا رأوه ومنهم « أسود بن عبد يغوث » خرج من أهله فأصابه السموم فاسود حتى صار كالفحم وكان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصحابة : قد جاءكم ملوك الأرض ، الذين يرثون كسرى وقيصر ، وذلك لأن ثياب الصحابة كانت رثة ، وعيشتهم خشنة ومنهم « الوليد ابن المغيرة » والد خالد رضي الله عنه وعم أبي جهل ، خرج يتبختر في مشيته حتى وقف على رجل يعمل السهام فتعلق سهم في ثوبه فلم ينقلب لينحيه تعاظماً فأخذ طرف ردائه ليجعله على كتفه فأصاب السهم أكحله فقطعه ثم لم ينقطع عنه الدم حتى مات ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** ﴾ من كلمات الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك وبه ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ فافزع إليه تعالى ، والتجىء فيما أصابك ونزل بك من ضيق الصدر ، واعلم أن « سبحان الله » كلمة مشتملة على سلب النقص والعيب ، عن ذات الله وصفاته ، فما كان من أسمائه سلباً فهو مندرج تحت هذه الكلمة ، كالقدوس وهو الطاهر من كل عيب ، والسلام وهو الذي سلم من كل آفة ، و « الحمد لله » كلمة مشتملة على إثبات ضروب الكمال لذاته وصفاته تعالى ، فما كان من أسمائه متضمناً للإثبات كالعليم والقدير والسميع والبصير ونحوها فهو مندرج تحتها ، فنفينا بسبحان الله كل عيب عقلناه وكل نقص فهمناه ، وأثبتنا بالحمد لله كل كمال عرفناه وكل جلال أدركناه ﴿ **وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ** ﴾ أي المصلين يكفك ويكشف الغم عنك ، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة أي لجأ ، قال في شرح الحكم : ما تجده القلوب من الهموم والأحزان ، عند فقدان مرادها وتشويش معتادها ، فلأجل ما منعت من وجود العيان ، إذا لو عاينت جمال الفاعل جمل عليها ألم البعد ، كما اتفق في قصة النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن ﴿ **واعْبُدْ رَبَّكَ** ﴾ دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى ﴿ **حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾ أي الموت فإنه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق ، والمعنى دم على العبادة ما دمت حياً ، من غير إخلال بها لحظة كقوله (**وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً**) ووقَّتَ العبادة بالموت لئلا يتوهم أن لها نهاية دون الموت ، فإذا مات انقطع عنه عمله وبقي ثوابه .

تمت سورة الحجر ولله الحمد والشكر



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أتى أمْرُ اللهِ ﴾ روي أن كفار قريش كانوا يستبطئون نزول العذاب الموعود لهم ، سخرية بالنبي عليه السلام وتكذيباً للوعد ويقولون : إن صح ما يقولون من مجيء العذاب فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت ، وأمر الله هو العذابُ الموعود وإتيانه عبارة عن دنوه واقترابه ، والمعنى دنا وقترب ما وُعدتم به أيها الكفرة ﴿ فلا تَسْتَعْجِلوهُ ﴾ أي أمر الله ووقوعه ، والاستعجال طلب الشيء قبل حينه ﴿ سُبْحانه وتعالى عَمّا يُشْرِكونَ ﴾ أي تبرأ وتقدس بذاته عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من الوجوه ، ولما كان المنزه للذات الجليلة هو نفس الذات آل التنزيه إلى معنى التبري ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين) يعني أصبعيه المسبحة والوسطى ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ الله تعالى ﴿ الملائِكَةَ ﴾ أي جبريل لأن الواحد يسمى بالجمع إذا كان رئيساً تعظيماً لشأنه ورفعاً لقدره أو هو ومن معه من حفظة الوحي ﴿ بالرُّوحِ ﴾ أي بالوحي الذي من جملته القرآن ، على نهج الاستعاره فإنه يُحيي القلوب الميتة بالجهل ، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ، ﴿ مِنْ أمْرِهِ ﴾ بيان الروح الذي أُريد به الوحي ﴿ على من يَشَاءُ مِنْ عبادِهِ ﴾ أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهلهم لذلك ﴿ أنْ انْذِروا ﴾ أي ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أي بهذا القول ، والمخاطبون به الأنبياء الذين نزلت الملائكة عليهم ، والآمرُ هو الله والملائكة نقلةٌ للأمر أي ينزلهم ملتبسين بأن الشأن أقول لكم أنذروا ، والإنذار : الإعلام أي أعلموا الناس أيها الأنبياء ﴿ أنّه ﴾ أي الشأن ﴿ لا إلَه إلاّ أنا ﴾ التخويف بلا إله إلا أنا من حيث إنهم كانوا يثبتون له تعالى ما لا يليق لذاته الكريمة من الشركاء والأنداد ﴿ فاتّقونِ ﴾ اتقوا عذابي .

وفي الآية دلالة على أن الملائكة وسائط بين الله وبين رسله وأنبيائه في إبلاغ كتبه ورسالاته ، وأنهم ينزلون بالوحي ﴿ خَلَقَ السّمواتِ والأرْضَ ﴾ أي الأجرام العلوية والآثار السفلية ﴿ بالحقّ ﴾ أي بالحكمة والمصلحة لا بالباطل والعبث ﴿ تَعالىٰ ﴾ وتقدس ﴿ عَمّا يُشْرِكونَ ﴾ عن شركة ما يشركونه به من الباطل الذي لا يبدىء ولا يعيد ﴿ خَلقَ الإنْسانَ ﴾ أي بني آدم لأن أبويهم لم يخلقا من النطفة بل خلق آدم من التراب وحواء من الضلع الأيسر منه ﴿ منْ نُطْفَةٍ ﴾ النطفة ماء الرجل . ﴿ فَإذا هُوَ ﴾ أي الإنسان بعد الخلق ، وأتى بالفاء إشارة إلى سرعة نسيانهم ابتداء خلقهم ﴿ خَصِيمٌ ﴾ بليغ الخصومة شديد الجدل ﴿ مُبِينٌ ﴾ أي مظهر الحجة ، والظاهر أن الآية على العموم ، وقد حكى المهدوي أن المراد به أبي بن خلف الجمحي ، فإنه أتى النبي ﷺ بعظم رميم فقال : يامحمد أتظن أن الله يحي هذا بعد ما قد رمّ ؟ فنزلت ، ﴿ والأنعامَ ﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم ، والمعز ، وهي الأجناس الأربعة

المسماة بالأزواج الثمانية اعتباراً للذكر والأنثى وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل ﴿ **خَلَقَهَا لَكُمْ** ﴾ ولمنافعكم ولمصالحكم يابني آدم وكذا سائر المخلوقات فإنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم لا لها ، يدل عليه قوله تعالى (**خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**) وقوله (**وسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَواتِ ومَا فِي الأَرْضِ**) ﴿ **فيها دِفءٌ** ﴾ والدفء نقيض البرد . أي بمعنى السخونة والحرارة ، ثم سمي به كل ما يدفأ به أي يسخن به من لباس معمول من صوف الغنم أو وبر الإبل أو شعر المعز هذا ﴿ **ومَنَافِعُ** ﴾ نسلها ودرها وركوبها والحراثة بها وثمنها وأجرتها ﴿ **وَمِنهَا تَأْكُلونَ** ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك ، بخلاف الذكر والخصيتين والمرارة والمثانة والعظم والدم فإنها حرام ﴿ **وَلَكُمْ فِيها** ﴾ مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية ﴿ **جَمَالٌ** ﴾ أي زينة في أعين الناس ، ووجاهة عندهم ﴿ **حِينَ تُرِيحُونَ** ﴾ تردونها من مراعيها إلى مراحلها ومباركها بالعشيّ أي في آخر النهار ﴿ **وَحِينَ تَسْرحونَ** ﴾ ترسلونها بالغداة أي في أول النهار في المرعى ، وتخرجونها من حظائرها إلى مسارحها ﴿ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ** ﴾ أي تحمل أمتعتكم وأحمالكم ﴿ **إِلى بَلَدٍ** ﴾ بعيد ، أيّاً ما كان فيدخل فيه إخراج أهل مكة متاجرهم إلى اليمن ومصر والشام ﴿ **لَمْ تَكُونوا بَالِغِيهِ** ﴾ واصلين إليه بأنفسكم مجردين عن الأثقال لولا الإبل أي لو لم تخلق الإبل فرضاً ﴿ **إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ** ﴾ فضلا عن استصحابها معكم أي عن أن تحملوها على ظهوركم إليه ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ** ﴾ عظيم الرأفة بكم ، وعظيم الإنعام عليكم حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل ، وأنعم بها عليكم لانتفاعكم وتيسير الأمر عليكم ، عن عمر رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ كان في بعض مغازيه فبينما هم يسيرون إذْ أخذوا فرخ طائر ـ أي ولده ـ فأقبل أحد أبويه فسقط في أيدي الذين أخذوا الفرخ ، فقال عليه الصلاة والسلام : ألا تعجبون لهذا الطير ؟ أُخذ فرخه فأقبل حتى سقط في أيديكم ؟ واللهِ للهُ أرحمُ بعباده من هذا الطائر بفرخه)[1] .

﴿ **والخَيلَ** ﴾ عطف على الأنعام ، أي خلق الله الخيل وهو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه كالإبل ﴿ **والبِغَالَ** ﴾ جمع بغل ، وهو مركب من الفرس والحمار ﴿ **وَالحَمِيرَ** ﴾ جمع حمار ﴿ **لِتَرْكَبُوها** ﴾ تعليل بمعظم منافعها ، وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضاً مما لا ريب في تحققه ﴿ **وَزِينَةً** ﴾ انتصابها على المفعول له عطفاً على محل لتركبوها أي وتتزينوا بها زينة ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ** ﴾ من أنواع المخلوقات من حيوانات البر والبحر ﴿ **وَعلى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** ﴾ القصد مصدرٌ بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم : أي حقٌّ عليه سبحانه ـ بموجب رحمته ووعده المحتوم لا واجبٌ ، إذ لا يجب عليه شيءٌ ـ بيان الطريق المستقيم الموصل لمن يسلكه إلى الحقّ الذي هو

(١) الحديث أخرجه أبو داود بنحوه وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٢٩ .

التوحيد ، بنصب الأدلة وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ﴿ **وَمِنْهَا جائِرٌ** ﴾ أي مائل عن الحق منحرف عنه ، لا يوصل سالكه إليه ، وهو طريق الضلال كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وسائر ملل الكفر وأهل الأهواء والبدع ﴿ **ولوْ شَاءَ لَهدٰكُمْ أجْمعينَ** ﴾ أي ولو شاء الله أن يهديكم إلى ما ذكر من التوحيد ، هداية موصلة إليه لفعل ذلك ، ولكن لم يشأ لأن مشيئته تابعة للحكمة الداعية إليها ، ولا حكمة في تلك المشيئة لما أن مدار التكليف والثواب والعقاب إنما هو الاختيار الجزئي الذي يترتب عليه الأعمال التي بها نيط الجزاء ﴿ **هُو الّذي أنْزَل** ﴾ بقدرته القاهرة ﴿ **مِنَ السّماءِ** ﴾ إلى السحاب ومنه إلى الأرض ﴿ **ماءً** ﴾ نوعاً منه وهو المطر ﴿ **لَكُمْ منْهُ** ﴾ أي من ذلك الماء المنزل ﴿ **شَرابٌ** ﴾ أي ما تشربونه ﴿ **ومِنْهُ شَجَرٌ** ﴾ أي ومنه وبسببه يحصل شجر ترعاه المواشي ، والمراد به ما ينبت من الأرض سواء كان له ساق أو لا ﴿ **فيهِ تُسيمُونَ** ﴾ يقال سامت الماشية ، رعت ، أي ترعون مواشيكم ، قدم الشجر لحصوله بغير صنع من البشر ، ثم استأنف إخباراً عن منافع الماء فقال ﴿ **يُنْبِتُ** ﴾ الله تعالى ﴿ **لَكُمْ** ﴾ لمصالحكم ومنافعكم ﴿ **بِهِ** ﴾ أي بما أنزل من السماء ﴿ **الزَّرْعَ** ﴾ الذي هو أصل الأغذية وعمود المعاش ﴿ **والزّيْتُونَ** ﴾ الذي هو أدام من وجه ، وفاكهة من وجه ، وفي الحديث (ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة)[1] وهي الزيتون وقيل لها مباركة لأنها لا تكاد تنبت إلا في شريف البقاع التي بورك فيها كأرض بيت المقدس ﴿ **والنّخيلَ** ﴾ النخيل والنخل بمعنى واحد ، وهو اسم جمع ، الواحدة نخلة كالثمرة والثمر ﴿ **والأعْنابَ** ﴾ جَمَع الأعناب للإشارة إلى ما فيها من الاشتمال على الأصناف المختلفة ، وفيه إشارة إلى أن تسمية العنب كرماً لم يكن بوضع الواضع ، ولكنه كان من الجاهلية كأنهم قصدوا به الاشتقاق من الكَرَم لكون الخمر المتخذة منه تحث على الكرم والسخاء ، فنهى النبي عليه السلام عن أن يسموه بالاسم الذي وضعه الجاهلية وأمرهم بالتسمية اللغوية بوضع الواضع حيث قال (لا تقولوا الكرم ولكن قولوا العنب والحبلة ، إنما الكرم قلب المؤمن)[2] يعني إن ما ظنوه من السخاء والكرم فإنما هو من قلب المؤمن لا من الخمر ، إذْ أكثرُ تصرفات السكران عن غلبة من عقله ، فلا يعتبر ذلك العطاء كرماً ولا سخاء إذ هو في تلك الحالة كصبي لا يعقل السخاء ويؤثر بماله سرفاً وتبذيراً ، وخصص هذه الأنواع المعدودة بالذكر للإشعار بفضلها وشرفها ثم عمم فقال ﴿ **وَمِنْ كُلِّ الثّمرات** ﴾ أي ومن كل الثمرات بأنواعها ﴿ **إنّ في ذلكَ** ﴾ أي في إنزال الماء وإنبات ما فصل ﴿ **لآيةً** ﴾ عظيمة دالة على تفرده تعالى بالألوهية ، لاشتماله على كمال العلم والقدرة والحكمة ﴿ **لِقوْمٍ يَتفكّرونَ** ﴾ فإن من تفكر في أن الحبة والنواة تقع في الأرض ، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق

(١) أخرجه ابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقي ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ١٤ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم قريباً من لفظه وأنظر جامع الأصول ١١ / ٧٥٢ .

أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض ، وينشق أعلاه ويخرج منه ساق فينمو ، ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار ، على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع ، وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا إلى نهاية ، مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثير العلوية بالنسبة إلى الكل ، علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في صفات الكمال ، فضلاً عن أن يشاركه أحد في صفاته التي هي الألوهية واستحقاق العبادة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمْ** ﴾ أي لحياتكم ومعاشكم ولعقد الثمار وانضاجها ﴿ **اللَّيْلَ والنَّهارَ** ﴾ يتعاقبان خِلفة كما قال تعالى (**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً**) ﴿ **والشَّمْسَ والقَمَر** ﴾في سيرهما وإنارتها وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحه ، كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم ﴿ **والنَّجُومُ مُسخَّراتٌ بأَمْرِهِ** ﴾ أي سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها مسخرات أي مذللات لله ، خلقها ودبرها كيف شاء ﴿ **إنَّ في ذلكَ** ﴾ أي فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملاً ومفصلاً ﴿ **لآياتٍ** ﴾ باهرة متكاثرة ﴿ **لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ** ﴾ يفتحون عقولهم للنظر والاستدلال ويعتبرون ، وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جميع الآيات ، عُلِّقت بمجرد العقل من غير حاجة إلى التأمل والتفكر ﴿ **وما ذَرَأَ لكُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ من حيوان ونبات حال كونه ﴿ **مُخْتلِفاً ألوانُه** ﴾ أي أصنافه فإن اختلافها غالباً يكون باختلاف اللون مسخرٌ لله تعالى لتتمتعوا من ذلك بأي صنف شئتم وقيل : « مختلفا ألوانه » هيآته من خضرة وبياض وسواد وغير ذلك ﴿ **إنّ في ذلكَ** ﴾ الذي ذكر من التسخيرات ونحوها ﴿ **لآيةً** ﴾ دالة على أن من هذا شأنه واحد لا شريك له ﴿ **لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُوْنَ** ﴾ فإن ذلك غير محتاج إلا إلى تذكر ما عسى يغفل عنه من العلوم الضرورية ﴿ **وَهُوَ الَّذي سَخَّرَ البَحْرَ** ﴾ البحر : الماء الكثير أو الملح فقط والجمع أبحر وقيل سخر البحر العذب ، والملح أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد ﴿ **لِتأْكُلوا مِنْهُ** ﴾ أي من العذب والملح ﴿ **لَحْماً طَرِيّاً** ﴾ من الطراوة فلا يهمز والمراد السمك ، والتعبير عنه باللحم للإيذان بعدم احتياجه للذبح كسائر الحيوانات ، وفيه بيان لكمال قدرته ، حيث خلقه عذباً طرياً في ماء زُعاف وهو الماء المر الغليظ ، لا يطاق شربه ، ومن إطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثوري إلى أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله ، والجواب أن مبنى الأيمان العُرفُ ، ولا ريب في أنه لا يفهم من اللحم عند الإطلاق ، ألا ترى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال (**إنَّ شَرَّ الدوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذينَ كَفَروا**) ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة ، وفي حياة الحيوان : المذهب المفتى به حل الجميع من الحيوانات التي في البحر إلا السرطان والضفدع والتمساح ،سواء كان على صورة كلب أو خنزير أم لا ﴿ **وَتَسْتَخْرِجُوْا مِنْهُ** ﴾ أي

من البحر الملح ﴿ **حِلْيَةً** ﴾ الحلية الزينة من ذهب أو فضة والمراد بها في الآية اللؤلؤ والحجر الأحمر الذي يقال له المرجان ﴿ **تَلْبَسُونَهَا** ﴾ تتزين بها نساؤكم ﴿ **وَتَرَى الْفُلْكَ** ﴾ أي لو حضرت أيها المخاطب لرأيت السفن ﴿ **مَواخِرَ فيهِ** ﴾ جواري في البحر مقبلة ومدبرة ، من المخر وهو شق الماء ﴿ **وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ أي لتطلبوا من سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ **وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ** ﴾ أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها بالطاعة والتوحيد ﴿ **وَأَلْقى** ﴾ الله تعالى بقدرته القاهرة ﴿ **في الأَرْضِ** ﴾ هي كروية الشكل محلها وسط العالم ﴿ **رَواسِيَ** ﴾ أي جبالاً ثوابت كأنها حصيات قبضهن قابض بيده فنبذهن في الأرض ، فهو تصوير لعظمته وتمثيل لقدرته وأن كل عسير فهو عليه يسير ، أي وجعل فيها رواسي بأن قال لها كوني فكانت ، فأصبحت الأرض وقد أرسيت بالجبال بعد أن كانت تمور موراً ﴿ **أَن تَميدَ بِكُمْ** ﴾ الميدُ : الحركة والميل والمعنى كراهة أن تميل بكم وتضطرب ، فالأرض بلا جبال كاللحم بلا عظام ، فكما أن وجود الحيوان وجسده إنما يستمسك بالعظم ، فكذا الأرض إنما تقوم بالرواسي ﴿ **وَأَنهاراً** ﴾ أي وجعل فيها أنهاراً ﴿ **وَسُبُلاً** ﴾ وطرقاً مختلفة جمع سبيل وهو الطريق ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ إرادة أن تهتدوا بها إلى مقاصدكم ومنازلكم ، قال بعضهم : « خذوا الطريق ولو دارت ، واسكنوا المدن ولو جارت ، وتزوجوا البكر ولو بارت » أي ولو كانت البكر فاسدة هالكة لا خير فيها ﴿ **وَعَلاماتٍ** ﴾ أي وجعل فيها معالم يستدل بها على الطريق بالنهار ، من جبل وسهل ومياه وأشجار وريح ﴿ **وَبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ بالليل في البراري والبحار حيث لا علامة غيره ، والمراد بالنجم الجنس أو هو الثريا وبنات نعش والجدي ، وذلك لأنها تعلم بها الجهات ليلاً لأنها دائرة حول القطب الشمالي فهي لا تغيب ﴿ **أَفَمَنْ يَخْلُقُ** ﴾ هذه المصنوعات العظيمة وهو الله تعالى ﴿ **كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ** ﴾ كمن لا يقدر على شيء أصلاً ، وهو الأصنام ، والهمزة للإنكار أي أبعد ظهور دلائل التوحيد تتصور المشابهة والمشاركة ؟ ﴿ **أَفَلا تَذَكَّرونَ** ﴾ أي ألا تلاحظون فلا تذكرون ذلك فتعرفون فساد ما أنتم عليه ياأهل مكة ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ** ﴾ الفائضة عليكم مما لم يذكر ﴿ **لا تُحْصُوها** ﴾ لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو إجمالاً فضلاً عن القيام بشكرها ﴿ **إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ** ﴾ ستور يتجاوز عن تقصيركم في شكرها ﴿ **رَحيمٌ** ﴾ عظيم الرحمة والنعمة لا يقطعها عنكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بسبب ما أنتم عليه من العصيان ﴿ **واللهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ** ﴾ ما تضمرون من العقائد والأعمال ﴿ **وما تُعْلِنُونَ** ﴾ أي تظهرونه منهما أي يستوي بالنسبة إلى علمه المحيط سركم وعلنكم ، فحقه أن يُتَّقى ويُحْذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف رضاه ﴿ **والَّذينَ يَدْعُونَ** ﴾ أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار ، والدعاء بمعنى العبادة في القرآن كثير ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي متجاوزين الله فإن معنى دون أدنى مكان من الشيء ثم استعير في كل من تجاوز حداً إلى حد وتخطى حكماً إلى حكم ﴿ **لا يَخْلقونَ شَيئاً** ﴾ من الأشياء أصلاً

أي ليس من شأنهم ذلك لأنهم عجزة ﴿ **وهم يُخْلَقونَ** ﴾ أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية ﴿ **أمْواتٌ** ﴾ أي جمادات لا حياة فيها ﴿ **غيرُ أحْياءٍ** ﴾ أي غير قابلين للحياة كالنطفة والبيضة فهي أموات على الإطلاق ﴿ **وما يَشْعُرون أيّانَ يُبعثونَ** ﴾ والمعنى ما يعلم أولئك الآلهة متى يبعث عبدتهم من القبور ؟ ﴿ **إلَهُكُمْ إلٰهٌ واحِدٌ** ﴾ لا يشاركه شيء ﴿ **فالَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ** ﴾ وأحوالها من البعث والجزاء وغير ذلك ، والإيمان في اللغة التصديق بالقلب ، وفي الشريعة هو الإعتقاد بالقلب والإقرار باللسان ﴿ **قُلوبُهُمْ مُنكِرَةٌ** ﴾ للوحدانية متصفة بالنكارة لا بالمعرفة ﴿ **وهُمْ مُسْتكْبِرون** ﴾ أي وهم قوم لا يزال الإستكبار عن الإعتراف بالوحدانية والتعظيم عن قبول الحق دأبهم ، كما أن الإنكار سجيتهم ﴿ **لاَ جَرَمَ** ﴾ حقّاً ﴿ **أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ** ﴾ من إنكار قلوبهم ﴿ **وما يُعْلِنونَ** ﴾ من استكبارهم ، ولا جرم للتحقيق والتأكيد بمنزلة حقاً ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **لا يُحِبُّ المسْتَكْبِرينَ** ﴾ عن التوحيد أي جنس المستكبرين ، سواء كانوا مشركين أو مؤمنين . والاستكبار رفع النفس فوق قدرها وجحود الحق ، وقد أحسن الشاعر :

ولا تَمْشِ فَوْقَ الأرضِ إلاَّ تَوَاضُعَاً * فكم تحتها قومٌ هم منك أرْفَعُ
فَإنْ كُنْتَ في عِزٍّ وحِرْزٍ وَرِفْعَةٍ * فكَمْ مَاتَ مِنْ قَومٍ هم مِنكَ أمْنَعُ

فعليك بالتواضع وعدم الفخر على أحد ، فإن التواضع باب من أبواب الجنة ، والفخر باب من أبواب النار ، واللازم فتح أبواب الجنان وسد أبواب النيران ﴿ **وإذا قيل لَهُمْ** ﴾ اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلم رجلاً ذَهَب بقلبه ، فانظروا أناساً من أشرافكم فابعثوهم في طُرُق مكة فمن جاء يريده ردوه عنه ، فخرج ناس منهم من كل طريق ، فكان إذا جاء وافد من القوم ينظر ما يقول محمد فنزل بهم ، قالوا له : هو رجل كذاب ، ما يتبعه إلا السفهاء والعبيد ، ومن لا خير فيه ، وأما أشياخ قومه وأخيارهم فهم مفارقوه فيُرجعه أحدهم ، وإذا كان الوافد ممن هداه الله يقول بئس الوافد أنا لقومي إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل ، فأنظر ما يقول ، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ما يقول لهم ؟ فيقولون خيراً فذلك قوله تعالى (**وإذا قِيلَ لَهُمْ**) أي لهؤلاء المشركين المستكبرين ﴿ **ماذا أنزَلَ رَبُّكُمْ** ﴾ أيَّ شيء أنزل ربكم على محمد ؟ ﴿ **قَالُوا أسَاطِيرُ الأَولينَ** ﴾ عدلوا عن الجواب ، فقالوا هذا أساطير الأولين أي أحاديث الأمم السالفة وأباطيلهم ، وليس من الإنزال في شيء ﴿ **ليَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ** ﴾ أي قالوا ما قالوا ليحملوا أوزارهم الخاصة بهم وهي أوزار ضلالهم ، والأوزار جمع وزر وهو الثقل والحمل الثقيل ﴿ **كامِلَةً** ﴾ لم يُكَفَّر منها شيء بنكبة أصابتهم في الدنيا ، كما يكفَّر بها أوزار المؤمنين ، فإن ذنوبهم تُكَفَّر عنهم من الصلاة إلى الصلاة ، ومن رمضان إلى

رمضان ، ومن الحج إلى الحج ، وتُكَفِّر بالشدائد والمصائب أي المكروهات من الآلام والأسقام والقحط حتى خدش العود وعثرة القدم ﴿ يَومَ القِيٰمَةِ ﴾ ظرف ليحملوا ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الّذينَ يُضِلُّوْنَهُمْ ﴾ أي وبعض أوزار من ضل بإضلالهم وهو وزر الإضلال والتسبيب للضلالَ لإنها شريكان ، هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر، وفي الحديث «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

﴿ بِغَيرِ عِلْمٍ ﴾ أي يضلونهم غير عالمين بأن ما يدعون إليه طريق الضلال وبما يستحقونه من العذاب الشديد في مقابلة الإضلال ﴿ ألا ساءَ مَا يزِرونَ ﴾ ساء في حكم بئس ، واعلم أنه لا يحمل أحد وزر أحد ، إذ كل نفس تحمل ما كسبت هي لا ما كسب غيرها ، إذ ليس ذلك من مقتضى الحكمة الإلهية ، وأما حمل وزر الإضلال فهو حمل وزر نفسه لأنه مضاف إليه لا إلى غيره ﴿ قَدْ مَكَرَ الّذينَ مِنْ قبْلِهِمْ ﴾ المكر الخديعة يعني قد مكر أهل مكة كما مكر الذين من قبلهم ، وصار المكر سبباً لهلاكهم لا لهلاك غيرهم ، لأن من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً ﴿ فأتى الله بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَواعِدِ ﴾ القواعد جمع قاعدة وقواعد البيت أساسه أو أساطينه ، أي قصد الله تخريب بنائهم من جهة أصوله وأساسه ﴿ فَخَرَّ ﴾ أي سقط ﴿ عليْهِمُ السَّقْفُ ﴾ أي سقف بنائهم ﴿ مِنْ فوْقِهِمْ ﴾ إذ لا يتصور البناء بعد هدم القواعد ، وجاء بفوقهم وعليهم للإيذان بأنهم كانوا تحته فإن العرب لا تقول سقط علينا البيت وليسوا تحته ﴿ وَأتٰهُمُ العَذابُ ﴾ أي الهلاك بالريح ﴿ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه منه بل يتوقعون إتيان مقابله مما يريدون ويشتهون ، والمعنى أن هؤلاء الماكرين ، القائلين للقرآن العظيم أساطير الأولين ، سيأتيهم في الدنيا من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون ﴿ ثُمّ يَوم القِيمةِ ﴾ أي هذا العذاب جزاؤهم في الدنيا ويوم القيامة ﴿ يُخْزِيهِمْ ﴾ أي يذل أولئك المفترين والماكرين على رءوس الاشهاد ﴿ وَيقولُ ﴾ لهم تفضيحاً وتوبيخاً ﴿ أيْنَ شُرَكائِيَ ﴾ بزعمكم ﴿ الّذينَ كُنتُم تُشَاقُّوْنَ ﴾ أي تخاصمون الأنبياء والمؤمنين ﴿ فِيهِمْ ﴾ أي في شأنهم بأنهم شركاء أحقاء حين بينوا لكم بطلانها ، والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريق الاستهزاء والتبكيت ﴿ قَالَ الّذينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ من أهل الموقف وهم الأنبياء والمؤمنون الذين أوتوا علماً بدلائل التوحيد أي يقولون توبيخاً لهم وإظهاراً للشماتة بهم ﴿ إنّ الخِزْيَ الْيَوْمَ ﴾ أي الفضيحة والذل والهوان ﴿ وَالسُّوءَ ﴾ أي العذاب ﴿ عَلى الكَافِرِينَ ﴾ بالله تعالى وبآياته ورسله ، ﴿ الّذينَ تَتَوفٰهُمُ الملائِكَةُ ﴾ نعت للكافرين ، أي على الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن تتوفاهم الملائكة أي يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه ﴿ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي حال كونهم مستمرين على الكفر والاستكبار ﴿ فَأَلْقَوْا السَّلَم ﴾ السلم

(١) أخرجه مسلم ، والترمذي ، والنسائي بلفظ (ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة ..) وانظر كامل الحديث في الفتح الكبير ٣ / ٢٠٠ .

بالتحريك ، الاستسلام أي فيلقون الاستسلام والانقياد في الآخرة حين عاينوا العذاب ، ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه في الدنيا من التكبر والعلو وشدة الشكيمة قائلين ﴿ **مـا كُنّـا نَعْمَلُ** ﴾ في الدنيا ﴿ **منْ سُوءٍ** ﴾ أي من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم ، قصداً ، ولتخليص نفوسهم من العذاب ﴿ **بَلىٰ** ﴾ أي بلى كنتم تعملون ما تعملون ﴿ **إنّ اللهَ عَليمٌ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه فلا يفيد إنكاركم وكذبكم على أنفسكم ﴿ **فادْخُلوا أبْوابَ جَهَنّم** ﴾ أي كل صنف بابه المعد له ﴿ **خَالِدينَ فِيها** ﴾ مَاكثين فيها أبداً ، ﴿ **فَلبِئْسَ مَثْوىَ المتَكَبِّرِينَ** ﴾ والمَثوى : المنزلُ والمقام والمخصوص بالذم محذوف وهو جهنم . قال الشيخ علي السمر قندي في تفسيره المسمى ببحر العيون : التكبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام : التكبر على الله وهو أخبث أنواع الكبر وأقبحها وما منشأه إلا الجهل المحض ، ثم التكبر على الرسل من تعزز النفس وترفعها عن الإنقياد لبشر مثل سائر الناس وهذا كالتكبر على الله تعالى في استحقاق العذاب السرمدي ، والثالث التكبر على العباد وهو بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره فيأبى عن الإنقياد لهم فيزدريهم ويستصغرهم ويستنكف عن مساواتهم وهو أيضاً قبيح وصاحبه جاهل كبير ﴿ **وَقِيلَ** ﴾ أي من طرف الوافدين ﴿ **للّذينَ اتّقَوْا** ﴾ وهم المؤمنون المخلصون ﴿ **مَاذا** ﴾ أيْ أيّ شيء ، ﴿ **أنْزَلَ رَبُّكُمْ** ﴾ على محمد ﴿ **قَالُوا** ﴾ في جوابه أنزل ﴿ **خَيْراً** ﴾ وفي تطبيق الجواب بالسؤال إشارة إلى أن الإنزال واقع وأنه نبي حق ﴿ **للّذِينَ أحْسَنوا** ﴾ أعمالهم وقالوا « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فإنه أحسن الحسنات وهو كلام مستأنف جيء به لمدح المتقين ﴿ **فِي هذِهِ** ﴾ الدار ﴿ **الدّنيا حَسَنَةٌ** ﴾ أي مثوبة حسنة مكافأة فيها بإحسانهم أي ولثوابهم فيها ﴿ **وَلَدارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ** ﴾ مما أوتوا في الدنيا من المثوبة فإن الآخرة كالجوهر ، والدنيا كالخزف ، وقيمة الجوهر أرفع من قيمة الخزف ، بل لا مناسبة بينهما أصلاً ﴿ **وَلَنِعْمَ دَارُ المتّقينَ** ﴾ قال الحسن : دار المتقين الدنيا لأنهم منها يتزودون للآخرة ﴿ **جَنّاتُ عَدْن** ﴾ أي لهم بساتين ﴿ **يَدْخُلونَها** ﴾ حال كونها ﴿ **تجْري مِنْ تحْتِها الأنْهارُ** ﴾ أي من تحت منازلها الأنهار الأربعة ﴿ **لَهُمْ فِيها** ﴾ أي في تلك الجنات ﴿ **ما يَشَاءُونَ** ﴾ ويجبون من أنواع المشتهيات ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الأوفى ﴿ **يَجْزي اللهُ المتّقِينَ** ﴾ أي كل من يتقي عن الشرك والمعاصي ﴿ **الّذينَ تَتَوفّهُمُ الملائِكَةُ** ﴾ أي يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم حال كونهم ﴿ **طيّبينَ** ﴾ أي طاهرين عن دنس الظلم ﴿ **يَقُولون** ﴾ أي قائلين لهم على وجه التعظيم والتبشير ﴿ **سلامٌ عليْكُمْ** ﴾ لا يخيفكم بعدُ مكروه ، قال القرطبي : إذا استدعيت نفس المؤمن جاءه ملك الموت فقال السلام عليك ياولي الله ، الله يقرئك السلام ، وبشّره بالجنة ﴿ **ادخُلُوا الجنّةَ** ﴾ أي جنات عدن فإنها معدة لكم ، والقبر روضة من رياض الجنة ، ومقدمة لنعيمها ، ومن دخله على حسن الحال والأعمال ، فكأنه دخل جنته ووجد نعيماً لا يزول ﴿ **بما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ بسبب ثباتكم على التقوى والطاعة

والعمل ﴿ هَلْ يَنْظُرونَ ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ إلاّ أنْ تَأتِيهُمُ الملائِكَةُ ﴾ أي ملك الموت ، وأعوانه ، لقبض أرواحهم ﴿ أوْ يأتي أمْرُ رَبِّكَ ﴾ أي العذاب الدنيوي وقد أتى يوم بدر ﴿ كذلِكَ ﴾ مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء ﴿ فَعَلَ الّذينَ ﴾ خلوا ﴿ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم ﴿ وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ ﴾ بما سيأتي من عذابهم ﴿ وَلكِنْ كَانُوا أنفُسَهُمْ يَظْلِمونَ ﴾ بالكفر والمعاصي المؤدية إليه ﴿ فَأصابَهُمْ سَيِّئَاتُ ما عَمِلُوا ﴾ أي أجزية أعمالهم السيئة ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أي أحاط بهم ونزل ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يسْتَهْزِئونَ ﴾ من العذاب الموعود ﴿ وَقالَ الّذينَ أشْرَكُوا ﴾ أي أهل مكة ﴿ لوْ شَاءَ اللهُ ﴾ عدم عبادتنا لشيء غيره ﴿ ما عبدْنا مِنْ دُونِه منْ شيءٍ نحْنُ ولا آباؤُنا ﴾ الذين نقتدي بهم في ديننا ﴿ ولا حرَّمنا مِنْ دُونِه مِنْ شيءٍ ﴾ يعني تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿ كَذلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الفعل الشنيع ﴿ فَعلَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم الذينْ أشركوا بالله وعصوا رسله ﴿ فهلْ عَلىٰ الرُّسُلِ إلاّ البَلاغُ المبينُ ﴾ أي ليست وظيفتهم إلا تبليغ الرسالة تبليغاً واضحاً لا إلجاءهم إلى قبول الحق ﴿ ولقدْ بَعَثْنَا في كُلّ أمةٍ ﴾ من الأمم ﴿ رَسُولاً ﴾ خاصاً بهم كما بعثناك ﴿ أن اعْبُدُوا اللهَ ﴾ قلنا لهم على لسان الرسول أعبدوا الله وحده ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوْتَ ﴾ هو الشيطان وكل ما يدعوا إلى الضلالة ، والطاغوتُ : فَعَلوت من الطغيان كالجبروت والملكوت من الجبر والملك ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من تلك الأمم ﴿ مَنْ هَدَىٰ اللهُ ﴾ خلق فيه الاهتداء إلى الحق الذي هو عبادته واجتناب الطاغوت ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقّتْ عَليْهِ الضَّلالةُ ﴾ أي وجبت وثبتت إلى حين الموت ، لعناده وإصراره عليها ﴿ فَسِيرُوا ﴾ سافروا يامعشر قريش ﴿ في الأرْضِ فَانْظُروا ﴾ في أكنافها ﴿ كيْفَ كَانَ عاقِبةُ المكذِّبينَ ﴾ ممن حقت عليه الضلالة ، لعلكم تعتبرون من منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب ﴿ إنْ تَحْرِصْ ﴾ يامحمد ﴿ عَلىٰ هُدٰهُمْ ﴾ أي أن تطلب هداية قريش بجهدك ﴿ فإنّ اللهَ لاَ يهدي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أي فاعلم أن الله لا يخلق الهداية جبراً وقهراً فمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿ وَمَا لَهُمْ منْ ناصِرينَ ﴾ من ينصرهم برفع العذاب عنهم ﴿ وأقْسَمُوا بِاللهِ ﴾ القَسَم : اليمين بالله ﴿ جَهْدَ أيْمانِهِمْ ﴾ أي بالغوا في اليمين واجتهدوا أي حلفوا بالله مبالغين في أيمانهم حتى بلغوا غاية شدتها وتأكيدها ﴿ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَموتُ ﴾ مقسم عليه ﴿ بَلىٰ ﴾ أي بلى يبعثهم ﴿ وَعْداً ﴾ أي وعد بذلك وعداً ثابتاً ﴿ عَليْهِ ﴾ إنجازه لإمتناع الخُلف في وعد الله تعالى ﴿ حَقّاً ﴾ أي حقّ حقّاً ﴿ وَلكنَّ أكثَر النّاس لا يعْلَمونَ ﴾ أنهم يبعثون ، لجهلهم بشئون الله تعالى من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾ أي يبعث الله كل من يموت مؤمناً كان أو كافراً ليبين لهم الشأن ﴿ الّذي يخْتَلِفونَ ﴾ مع المؤمنين ﴿ فيهِ ﴾ من الحق المنتظم للبعث والجزاء وجميع ما خالفوه مما جاء به الشرع المبين ﴿ وَلِيعْلَم الّذينَ كَفَرُوْا ﴾ بالله تعالى بالإشراك وإنكار البعث ﴿ أنَهُمْ كانوا كاذِبينَ ﴾ في قولهم

لا يبعث الله من يموت ونحوه ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ** ﴾ أيَّ شيء كان ممَّا عزَّ وهان ﴿ **إِذَا أَرَدْنَاهُ** ﴾ أي وقت إرداتنا لوجوده ﴿ **أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ** ﴾ أي احدثْ ، لأنه من كان التامة بمعنى الحدوث التام ﴿ **فَيَكُونُ** ﴾ أي فإذا قلنا ذلك فهو يكون ، ويحدث عقيب ذلك ، وهذا الكلام مجاز عن سرعة الإنجاز وسهولته على الله ، وتمثيل الغائب وهو تأثير قدرته في المواد بالشاهد وهو أمر المطاع للمطيع في حصول المأمور به ، من غير امتناع وتوقف ، وذهب فخر الإسلام إلى أن حقيقة الكلام مرادة ، بأن أجرى الله سنته في تكوين الأشياء أن يكوّنها بهذه الكلمة ، إذ لم يمتنع تكوينها بغيرها ، والمعنى يقول له احدث فيحدث عقيب هذا القول ﴿ **وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ** ﴾ أي في شأن الله ورضاه وفي حقه والتمكين من طاعته ولوجهه ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا** ﴾ هم الذين ظلمهم أهل مكة وأخرجوهم من ديارهم ، فهاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة فجمعوا بين الهجرتين روي (أن رسول الله ﷺ لما رأى ما نزل بالمسلمين من توالي الأذى عليهم من كفار قريش قال لهم : تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم ، قالوا إلى أين نذهب ؟ قال : اخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً عظيماً لا يُظْلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) ﴿ **لَنُبَوِّئَنَّهُمْ** ﴾ لننزلنهم ﴿ **فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ أي مباءة حسنة وهي المدينة المنورة حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿ **وَلأَجْرُ الآخِرَةِ** ﴾ المعد لهم في مقابلة الهجرة ﴿ **أَكْبَرُ** ﴾ مما يعجل لهم في الدنيا ﴿ **لو كانُوا يعْلَمون** ﴾ أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين ﴿ **الَّذِينَ** ﴾ أي المهاجرين هم الذين ﴿ **صَبَرُوا** ﴾ على مفارقة الوطن ﴿ **وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ خاصة ﴿ **يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ منقطعين إليه مفوضين إليه الأمر كله ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا** ﴾ وذلك أن مشركي قريش قالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فنزلت ﴿ **مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ أي الأمم الماضية ﴿ **إِلاَّ رِجَالاً** ﴾ آدميين لا ملائكةً ﴿ **نُوحِي إِلَيْهِمْ** ﴾ على ألسنة الملائكة في الأغلب ﴿ **فَاسْأَلُوا** ﴾ أي فإن شككتم في ذلك فاسألوا يامعشر قريش ﴿ **أَهْلَ الذِّكْرِ** ﴾ علماء أهل الكتاب ، ليخبروكم أن الله تعالى لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمونَ** ﴾ ذلك ، وفي الآية إشارة إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم ، وقد ورد [الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها] يعني ينبغي للمؤمن أن يطلب الحكمة كما يطلب ضالته ﴿ **بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ** ﴾ أي بالمعجزات والكتب، والبينات جمع بينة وهي الواضحة ، والزبر : جمع زبور وهو الكتاب المزبور أي المكتوب ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ** ﴾ أي القرآن إنما سمي به لأنه تذكير وتنبيه للغافلين ﴿ **لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ** ﴾ كافةً العرب والعجم ﴿ **مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ في ذلك الذكر من الأحكام والشرائع ، وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة ﴿ **وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ أي إرادة أن يجيلوا فيه أفكارهم ، فينتبهوا للحقائق وما فيه من العبر ، ويحترزوا عما يؤدي إلى مثل ما أصاب الأولين من العذاب ﴿ **أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ** ﴾ هم أهل

مكة الذين مكروا برسول الله ﷺ ، واحتالوا في إبطال الإسلام ، أي فعلوا السيئات وعملوا الكفر والمعاصي ﴿ **أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ** ﴾ أي أن يغوّر بهم الأرض كما فعل بقارون وأصحابه . ﴿ **أو يأتيهُمُ العَذابُ مِنْ حيْثُ لا يَشْعُرونَ** ﴾ أي يأتيهم العذاب حين غفلتهم ﴿ **أو يأخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ** ﴾ التقلب في الأمور التصرف كيف شاء أي في حالتي تقلبهم في متاجرهم وأسباب دنياهم ﴿ **فَما هُمْ بِمُعْجِزينَ** ﴾ بناجين من عذاب الله بالهرب والفرار ، وفي الحديث (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[1] أي ليمهل ويطول عمره حتى يكثر منه الظلم ثم يأخذه أخذاً شديداً ، فإذا أخذه لم يتركه ولم يخلصه أحد من الله ﴿ **أَوْ يأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ** ﴾ تخوف الشيء : تنقّصه والمعنى أو يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا ، ولا يهلكهم في حالة واحدة ، فيكون المراد عذاب الاستئصال ، ومنها الأخذ شيئاً فشيئاً ، والمراد بذكر الأحوال الثلاث بيان قدرة الله تعالى على إهلاكهم بأي وجه كان ﴿ **فإنّ رَبّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحيمٌ** ﴾ حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها ، ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا** ﴾ الهمزة للإنكار والضمير لكفار مكة أي ألم ينظروا ولم يروا ﴿ **إلىٰ ما خَلَقَ اللهُ** ﴾ أي قد رأوا أمثال هذه الصنائع ، فما لهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم كمال قدرته وقهره فيخافوا منه ؟ ﴿ **مِنْ شَيْءٍ** ﴾ أي من كل شيء ﴿ **يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ** ﴾ أي ترجع شيئاً فشيئاً من جانب إلى جانب ، وتدور من موضع إلى موضع حسبما تقتضيه إرادة الخالق ، يريد به الشجر والنبات وكل جسم قائم له ظل ﴿ **عَنِ اليمينِ و الشّمائِلِ** ﴾ والشمائل جمع شمال أي ألم يروا الأشياء التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي عن جانبي كل واحد منها وشقيه ﴿ **سُجَّداً للهِ** ﴾ أي حال كون تلك الظلال ساجدين لله ، دائرين على مراد الله في الإمتداد والتقلص ﴿ **وَهُمْ داخِرون** ﴾ أي أذلاء ﴿ **وَللهِ يَسْجُدُ** ﴾ أي له تعالى وحده ويخضع وينقاد ﴿ **مَا فِي السَّمٰواتِ** ﴾ من العلويات قاطبة ودخل فيه الشمس والقمر والنجوم ﴿ **وَما في الأَرْضِ** ﴾ كائناً ما كان ﴿ **مِنْ دَابَّةٍ** ﴾ بيان لما في الأرض ﴿ **وَالْمَلاَئِكَةُ** ﴾ عطف على ما في السموات تعظيماً وإجلالاً ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي والحال أن الملائكة مع علو شأنهم ﴿ **لا يَستَكْبِرونَ** ﴾ لا يتعظمون عن عبادته والسجود له ، بل يتذللون فكل شيء بين يدى صانعه ساجد بسجود يلائم حاله ، كما أن كل شيء يسبح بحمده تسبيحاً يلائم جلاله ، فتسبيح بعضهم بلسان القال وتسبيح بعضهم بلسان الحال ﴿ **يَخافُونَ ربّهُمْ** ﴾ أي مالك أمرهم ﴿ **مِنْ فوْقِهِمْ** ﴾ أي يخافونه تعالى خوف هيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر لقوله تعالى (**وَهُوَ القَاهِرُ فوْقَ عِبادِهِ**) ﴿ **وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ أي ما يأمرهم الخالق به من الطاعات ﴿ **وقَال اللهُ** ﴾ لجميع المكلفين ﴿ **لاَ تَتَّخِذوا إلَهَيْنِ**

---

(١) رواه الشيخان ، وابن ماجه ، والترمذي ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٤٦ .

﴿ اثْنَيْنِ ﴾ تأكيد ﴿ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ ﴾ لا شريك له ولا شبيه ولا نظير ، وهو منزَّهٌ عن الزوجة والولد. ﴿ فَإِيَّايَ ﴾ لا غيري ﴿ فَارْهَبونِ ﴾ خافون ﴿ وَلَهُ ﴾ وحده خلقاً وملكاً ﴿ ما في السّمواتِ ﴾ من الملائكة ﴿ والأَرْضِ ﴾ من الجن والإنس ، ﴿ وَلَهُ الدِّينُ ﴾ أي الطاعة والإنقياد من كل شيء في السموات والأرض وما بينهما ﴿ وَاصِباً ﴾ أي واجباً ثابتاً لازوال له ، لأنه الإله الواجب أن يُرهب منه ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي أبعد العلم بما ذكر من التوحيد واختصاص الكل به خلقاً وملكاً ، غير الله تطيعون فتتقون ؟ ﴿ وَما بِكُمْ ﴾ أيْ أيَّ شيء يلابسكم ويصاحبكم ﴿ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾ أي نعمة كانت كالغنى وصحة الجسم والخصب ونحوها ﴿ فَمِنَ اللهِ ﴾ فهي من قبل الله ﴿ ثُمّ إِذا مَسّكُمُ الضُّرُّ ﴾ أي الفقر والبلاء في جسدكم والقحط ونحوها مساساً يسيراً ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرونَ ﴾ تتضرعون في كشفه لا إلى غيره ، والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة ﴿ ثُمّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ ﴾ وهم كفاركم ﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُروا ﴾ بعبادة غيره ﴿ بِما آتَيْناهُمْ ﴾ من نعمة الكشف عنهم ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أي فعيشوا وانتفعوا بمتاع الحياة الدنيا أياماً قليلة ، وهو أمر تهديد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمونَ ﴾ عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ﴿ وَيَجْعَلونَ ﴾ أي كفار مكة ﴿ لِما لا يَعْلَمونَ ﴾ أي للأصنام التي لا يعلم الكفار حقيقتها وقدرها الخسيس ، ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله تعالى ﴿ نَصِيباً مِمّا رَزَقْناهُمْ ﴾ من الزرع والأنعام وغيرهما تقرباً إليها ﴿ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ سؤال توبيخ وتقريع ﴿ عَمّا كُنْتُمْ تَفْتَرونَ ﴾ في الدنيا بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب إليها ﴿ وَيَجْعَلونَ للهِ البَناتِ ﴾ هم خزاعة وكنانة كانوا يقولون : الملائكة بنات الله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزَّه وتقدس عما يقولون ﴿ وَلَهُمْ ما يَشْتَهونَ ﴾ من البنين أي يختارون لأنفسهم الأولاد الذكور ، ثم وصف كراهتهم البنات لأنفسهم فقال﴿ وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثىٰ ﴾ أخبر بولادتها ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ ﴾ أي صار وجهه ﴿ مُسْوَدّاً ﴾ إسوداد الوجه كناية عن الإغتام ﴿ وَهُوَ كظِيمٌ ﴾ مملوء غضباً على المرأة لأجل ولادتها الأنثى ﴿ يَتَوارىٰ ﴾ يستخفي ﴿ مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ ﴾ أي من أجل سوء المبشر به ، ومن أجل تعييرهم ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ أي متردداً في أمره أيمسك ذلك المولود ويتركه ﴿ على هُونٍ ﴾ ذل وهوان أي يمسكها مع رضاه بهوان نفسه ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ ﴾ يخفيه ﴿ في التُّرابِ ﴾ بالوأد : ولقد بلغ بهم المقت إلى أن يهجر بعضهم البيت الذي فيه المرأة إذا ولدت أنثى ﴿ أَلاَ سَاءَ ما يَحْكُمونَ ﴾ أي بئس صنيعهم حيث يختارون لأنفسهم البنين ﴿ لِلّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِالآخِرَةِ ﴾ ممن ذكرت قبائحهم ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ صفة السوء الذي هو كالمثل في القبح ﴿ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلىٰ ﴾ أي الصفة العجيبة الشأن التي هي مثل في العلو مطلقاً وهي النزاهةُ عن صفات المخلوقين ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ ﴾ المتفرد بكمال القدرة ﴿ الحَكِيمُ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة ، وفي الحديث (من بركة المرأة تبكيرها بالبناتِ)[1]

(١) أخرجه ابن عساكر بلفظ (من بركة المرأة تبكيرها بالأنثى) وروي بروايات متعددة ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤١ .

ألم تسمع قوله تعالى (**يَهَبُ لِمنْ يَشَاءُ إناثاً وَيَهبُ لمنْ يَشاءُ الذكورَ**) حيث بدأ بالإناث وفي الحديث (من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنَّ له ستراً من النار)[1] .

﴿ **وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ** ﴾ فاعل هنا بمعنى فَعَل ﴿ **النّاسَ** ﴾ أي الكفار ﴿ **بِظُلْمِهِمْ** ﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ **ما تَرَكَ عَلَيْها** ﴾ أي على الأرض ﴿ **مِنْ دَآبَّةٍ** ﴾ لأنها ما يدب على الأرض ، والعرب تقول فلان أفضل من عليها ، ولم يقل على ظهرها احترازاً عن الجمع بين الظَّاءين في كلام واحد ، والمعنى ما ترك على وجه الأرض من دابة قطُّ ، بل أهلكها بالكلية بشؤم ظلم الظالمين ﴿ **وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ** ﴾ يمهلهم بحلمه ﴿ **إلىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ أي معين لأعمارهم ولعذابهم ﴿ **فَإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ** ﴾ المسمى ﴿ **لا يَسْتَأْخِرونَ** ﴾ عن ذلك الأجل أي لا يتأخرون ﴿ **سَاعَةً** ﴾ أقصر وقت ، وهي مثل في قلة المدة ﴿ **ولا يَسْتَقْدِمونَ** ﴾ أي لا يتقدمون ﴿ **وَيَجْعلُون للهِ** ﴾ أي يثبتون له سبحانه وينسبون إليه في زعمهم ﴿ **ما يَكْرَهونَ** ﴾ لأنفسهم من البنات ومن الشرك في الرياسة ﴿ **وَ** ﴾ مع ذلك ﴿ **تَصِفُ** ﴾ تقول ﴿ **أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ** ﴾ مفعول تصف وهو ﴿ **أَنَّ لَهُمُ الحُسْنىٰ** ﴾ أي العاقبة الحسنى عند الله ، وهي الجنة إن كان البعث حقاً كقوله تعالى (**وَلَئِن رُجِعْتُ إلىٰ رَبِّيَ إنّ لي عِنْدَهُ لَلْحُسْنىٰ**) ﴿ **لا جَرَمَ** ﴾ رد لكلامهم وهو مصدر بمعنى حقاً ﴿ **أَنَّ لَهُمُ** ﴾ مكان ما أملوا من الحسنى ﴿ **النَّارَ** ﴾ التي ليس وراءها عذاب وهي علم في السوء ﴿ **وَأَنَّهُمْ مُفْرَطونَ** ﴾ أي مقدمون إلى النار معجلون إليها ﴿ **تاللهِ لَقَدْ أَرْسلْنا إلىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ أي رسلاً إلى من تقدمك من الأمم فدعوهم إلى الحق فلم يجيبوا إلى ذلك ﴿ **فَزَيّنَ لَهُمُ الشّيْطانُ أَعْمَالَهُمْ** ﴾ القبيحة من الكفر والتكذيب بالرسل فعكفوا عليها مصرِّين ﴿ **فَهُوَ** ﴾ أي الشيطان ﴿ **وَلِيُّهُمُ** ﴾ أي قرينهم وبئس القرين ﴿ **اليَوْمَ** ﴾ أي في الدنيا ، تولىَّ إضلالهم بالغرور ، ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **عَذابٌ أَليمٌ** ﴾ هو عذاب النار ﴿ **وَما أَنْزلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ** ﴾ أي القرآن ﴿ **إلا لِتُبَيّنَ لَهُمُ** ﴾ أي للناس ﴿ **الّذي اخْتَلَفُوا فيهِ** ﴾ من التوحيد وأحوال المعاد والحلال والحرام ﴿ **وَهُدىً وَرَحْمَةً** ﴾ أي وللهداية من الضلالة والرحمة من العذاب ﴿ **لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ** ﴾ وتخصيصهم لأنهم المنتفعون بالقرآن ، حكي عن مالك بن دينار أنه قال : « ياحملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم ، فإن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض » ؟ وعن علي بن أبي طالب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنها ستكون فتنة ، قلت : ما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما كان بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، لا تشبع منه العلماء ، وهو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، من قال به صدق ، ومن حكم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عائشة قالت : دخلت عليَّ امرأة ومعها ابنتان . الحديث وانظر جامع الأصول ١ / ٤١١ .

به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه فقد هُدي إلى صراط مستقيم)[1]﴿ وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ﴾ إلى السحاب ومنه إلى الأرض ﴿ مَاءً ﴾ نوعاً خاصاً من الماء وهو المطر ﴿ فأحْيا بهِ الأرْض ﴾ أي أنبت بسبب المطر في الأرض أنواع النباتات ﴿ بَعْدَ موْتِها ﴾ أي بعد يبسها ﴿ إنّ في ذلِكَ ﴾ أي في إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الميتة به ﴿ لآيةً ﴾ دالة على وحدته تعالى ، وعلمه وقدرته وحكمته ، إذ الأصنام وغيرها لا تقدر على شيء ﴿ لِقوْمٍ يَسْمَعونَ ﴾ هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر ، فكأن من ليس كذلك أصم لا يسمع ﴿ وَإنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ في الأنْعامِ ﴾ وهي الأنواع الأربعة الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، ﴿ لَعِبْرةً ﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم ، كأنه قيل كيف العبرة فقيل ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ قال الزجاج سقيته وأسقيته بمعنى واحد ﴿ مِمّا في بُطونِه ﴾ من للتبعيض ، لأن اللبن بعض ما في بطونه أي في بطون ما ذكرنا ﴿ مِنْ بيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لبَناً ﴾ الفرث فَضالة العلف في الكرش وثفله ، والكرش للحيوان بمنزلة المعدة للإنسان ﴿ خَالِصاً ﴾ صافياً ليس عليه لون الدم ، ولا رائحة الفرث ﴿ سَائِغاً لِلشّارِبينَ ﴾ أي سهل المرور في حلقهم وليس في الطعام والشراب أنفع منه ، قيل : خلق الله اللبن في مكان وسط بين الفرث والدم ، وذلك أن الكرش إذا طبخت العلف صار أسفله فرثاً ، وأوسطه لبناً ، وأعلاه دماً ، وبينه وبينهما حاجز من قدرة الله ، لا يختلط أحدهما بالآخر بلون ولا طعم ولا رائحة ، ثم تسلط الكبد على هذه الأصناف الثلاثة تقسمها فتجري الدم في العروق ، واللبن في الضروع ، ويبقى الفرث في الكرش ثم ينحدر ﴿ وَمِنْ ثَمَراتِ النّخيلِ وَالأعْناب ﴾ أي ونسقيكم أيها الناس من عصيرها ونطعمكم ، ثم بين كنه الإسقاء والإطعام فقال : ﴿ تتّخِذُونَ مِنْهُ ﴾ أي من عصيرها ﴿ سَكَراً ﴾ السكر محركة الخمر ونبيذ يتخذ من التمر ، فالآية سابقة على تحريم الخمر دالة على كراهتها حيث قوبل السكر بالرزق الحسن ، ومقابل الحسن لا يكون حسناً ﴿ وَرِزقاً حَسَناً ﴾ كالتمر والدبس والزبيب والرب والخل ﴿ إنَّ في ذَلِكَ ﴾ الإسقاء ﴿ لآيةً ﴾ باهرة ﴿ لِقَوْمٍ يعْقِلونَ ﴾ يستعملون عقولهم في الآيات بالنظر والتأمل ﴿ وَأوْحىٰ رَبُّكَ ﴾ يا محمد ﴿ إلى النّحْلِ ﴾ أي ألهمها وقذف في قلوبها ، وعلّمها بوجهٍ لا يعلمه إلا هو ، والله تعالى ألهم كل حيوان أن يلتمس منافعه ويجتنب مضاره ﴿ أن اتّخِذِي ﴾ لنفسك أي بأن اتخذي ، ﴿ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ أي مساكن تأوي إليها ، وسُمي ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان ، لما في بيوته المسدَّس المتساوية من الحذاقة وحسن الصنعة ، التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين إلا بآلات وأنظار دقيقة ، واختارت المسدس لأنه أوسع من المثلث والمربع والمخمس ، ولا يبقى بينها فرج خالية ﴿ وَمِنَ الشّجَرِ ﴾ لأنها لا تبني في كل شجر ﴿ وَمِمّا

(١) الحديث أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ، وأخرجه الدارمي أيضاً ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٤٦٢ .

﴿ يعْرشونَ ﴾ لأنها لا تبنى في كل ما يعرشه الناس أي يرفعه من الأماكن لتعسل فيها ﴿ ثُمّ كُلي مِنْ كُلِّ الثّمراتِ ﴾ من كل الثمرات المشتهاه عندك من حلوها وحامضها ومرها وغير ذلك فهو عام مخصوص بالعادة ﴿ فَاسْلُكي ﴾ أي فإذا أكلتِ الثمارَ في المواضع البعيدة من بيوتك فادخلي ﴿ سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ في الجبال وفي خلال الشجر أي طرق ربك التي ألهمك وعرَّفك الرجوع فيها ، إلى مكانك من الخلية بعد بعدك عنها ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول ، أي موطأة للسلوك مسهلة ، وذلك أنها إذا أجدب عليها ما حولها سافرت إلى المواضع البعيدة في طلب النجعة ثم ترجع إلى بيوتها من غير التباس وانحراف ، ﴿ يخْرُجُ مِنْ بُطونِها ﴾ أي بطون النحل بالقيء ﴿ شَرابٌ ﴾ أي عسل لأنه مشروب وذلك أن النحل تأكل الأجزاء اللطيفة الطلية الحلوة والواقعة على أوراق الأشجار والأزهار وتمص من الثمرات الرطبة والأشياء العطرة ثم تقيء في بيوتها إدخاراً للشتاء فينعقد عسلاً بإذن الله تعالى ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلوانُهُ ﴾ من أبيض ، وأخضر ، وأصفر ، وأسود ، بسبب اختلاف سن النحل فالأبيض يلقيه شباب النحل والأصفر كهولها والأحمر شيبها وقد يكون الاختلاف بسبب اختلاف لون النّوْرِ ﴿ فِيهِ ﴾ أي في الشراب وهو العسل ﴿ شِفاءٌ للنّاسِ ﴾ أي شفاء الأوجاع التي يعرف شفاؤها منه يعني أنه من جملة الأشفية المشهورة النافعة لأمراض الناس ، وليس المراد إنه شفاء لكل مرض ، لأنه نكرة في سياق الإثبات ، بل المراد أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في حال دون حال ، وكان ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم يحملانه على العموم .

روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال إن أخي قد اشتكى بطنه فقال اسقه عسلاً فسقاه عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، فعاد إلى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال (اسقه عسلاً) فسقاه ثانياً فما زاده إلا استطلاقاً ثم رجع فقال يارسول الله سقيته فما نفع فقال (إذهب فاسقه عسلاً فقد صدق الله وكذب بطن أخيك) فسقاه فشفاه الله[1] ﴿ إنّ في ذلكَ ﴾ أي في أمر نحل العسل ﴿ لآيةً ﴾ حجة ظاهرة دالة على القدرة الربانية ﴿ لِقوْمٍ يَتَفكّرونَ ﴾ أي للذين تفكروا فعلموا أن النحلة على صغر جسمها وضعف خلقتها لا تهتدي لصنعة العسل بنفسها ، فإن ذلك بصانع صنعها خالف بينها وبين غيرها من الحشرات الطائرة ، فاستدل بذلك على خالق واحد قادر لا شريك له ولا شبيه ﴿ وَاللهُ ﴾ المحيط بكل شيء علماً وقدرة ﴿ خَلَقَكُمْ ثُمّ يَتَوَفّاكُمْ ﴾ أي يقبض أرواحهم صبياناً وشباناً وكهولاً ، فلا يقدر الصغير على أن يؤخر ، ولا الكبير على أن يقدم ، فمنكم من يموت حال قوّته وشبابه ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ ﴾ قبل توفيه أي يعاد ﴿ إلى أرْذَلِ العُمُر ﴾ أخسه وأحقره ، وهو الهرم والخرف الذي يعود فيه كهيئته الأولى في أوان طفوليته ضَعيف البنية ناقص القوة والعقل ، قليل الفهم ، وليس له حدٌّ معلوم في الحقيقة ، لأنه رُبَّ ابن ستين

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه في قصة الأعرابي الذي شكا إلى الرسول استطلاق بطن أخيه .

انتهى إلى أرذل العمر ، ورب ابن مائة سنة يبقي كامل العقل ، ﴿ **لِكَيْلاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئَاً** ﴾ أي ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولة في سوء الفهم والنسيان ، ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ** ﴾ بمقادير أعماركم ﴿ **قَدِيرٌ** ﴾ أي قدير على كل شيء ، يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفاني ، وفيه تنبيه على أن تفاوت الآجال ليس إلا بتقدير قادر حكيم ، رَكَّب أبنيتهم وعدّل أمزجتهم على قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضى الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ ﴿ **وَاللهُ** ﴾ تعالى وحده ﴿ **فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ** ﴾ أي جعلكم متفاوتين فيه فمنكم غني ومنكم فقير ، ومنكم مالك ومنكم مملوك ، والرزق ما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان من المطعومات والمشروبات ، وفيه تنبيه على أن غنى المكثر ليس من كياسته ووفور عقله وكثرة سعيه ، ولا فقر المقلّ من بلادته ونقصان عقله وقلة سعيه ، بل من الله تعالى ليس إلاّ كما قال الشاعر :

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيتْ مذاهبه * وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقاً

﴿ **فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا** ﴾ أي فليس الموالي الذين فضلوا في الرزق على المماليك ﴿ **بِرَادِّي رِزْقِهِمْ** ﴾ أي بمعطي رزقهم الذي رزقهم إياه ، أصله رادين سقط النون للإضافة ﴿ **عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** ﴾ على مماليكهم الذين هم شركاؤهم في المخلوقية والمرزوقية ﴿ **فَهُمْ** ﴾ أي الملاك والمماليك ﴿ **فِيهِ** ﴾ في الرزق ﴿ **سَوَاءٌ** ﴾ لا يردون عليهم رداً مستتبعاً للتساوي وإنما يردون عليهم منه شيئاً يسيرا ، والحاصل أنهم لا يجعلون ما رزقناهم من الأموال وغيرها شركة بينهم وبين مماليكهم ، بحيث لا يرضون بمساواة مماليكهم لأنفسهم ، وهم أمثالهم في البشرية والمخلوقية ، فما بالهم كيف جعلوا مماليكه تعالى ومخلوقاتِهِ شركاء له مع كمال علوه ، فأين التراب ورب الأرباب ؟ وهذا كما ترى مثلٌ ضُرب لكمال قباحة ما فعله المشركون ، تقريعاً عليهم ، وكانوا يقولون في التلبية « لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك » ﴿ **أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ المعنى أبعد علمهم بأن الرزاق هو الله تعالى يشركون به فيجحدون نعمته ؟ ﴿ **وَاللهُ** ﴾ تعالى وحده ﴿ **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ** ﴾ من جنسكم ﴿ **أَزْوَاجَاً** ﴾ نساء لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ، ويكون أولادكم أمثالكم ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ** ﴾ أي جعل لكلٍ منكم من زوجه لا من زوج غيره ﴿ **بَنِينَ وَحَفَدَةً** ﴾ جمع حافد وهو الذي يسرع في الخدمة والطاعة أي جعل لكم خدماً يسرعون في خدمتكم وطاعتكم ويعينوكم كأولاد الأولاد ونحوهم ﴿ **وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ من اللذائذ كالعسل ونحوه لأن كل الطيبات في الجنة ، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها ﴿ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي أيكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل ؟ وهو أن الأصنام تنفعهم ، وأن البحائر ونحوها حرام ﴿ **وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴾ حيث يضيفونها إلى الأصنام ، والمراد بالباطل الأصنام وما يُفْضي إلى الشرك ، وبنعمة الله الإسلام ، والقرآن وما فيه من التوحيد والأحكام ،

﴿ وَيَعْبدُونَ مِنْ دُون اللهِ مالاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقَاً مِنَ السَّمٰواتِ وَالأَرْض شَيْئَاً ﴾ أي مالا يقدر على أن يرزق منهم شيئاً لا من السموات مطراً ولا من الأرض نباتاً ﴿ وَلا يسْتَطِيعونَ ﴾ أن يملكوه إذ لا استطاعة لهم أصلاً لأنهم جماد ﴿ فَلا تَضْرِبوا للهِ الأمْثالَ ﴾ أي فلا تشبهوا الله بشيء من خلقه وتشركوا به ، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال وقصة بقصة ، والله تعالى واحد حقيقي لا شبه له أزلا وابداً ﴿ إنّ اللهَ يعْلَمُ ﴾ كنه ما تفعلون وعظمه ، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم ﴿ وأنْتُم لا تعْلَمونَ ﴾ ذلك ولو علمتوه لما جرأتم عليه ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثلاً ﴾ ضرب المثل تشبيه حال بحال وقصة بقصة ، أي ذكر وأورد شيأ يستدل به على تباين الحال بين جنابه وبين ما أشركوا به ﴿ عَبْداً مَمْلُوْكاً ﴾ ووصفه بالمملوكية ليخرج عنه الحر ﴿ لا يَقْدِرُ عَلى شَيءٍ ﴾ ووصفه بعدم القدرة لتميزه عن المكاتب ﴿ وَمنْ رَزقْناهُ ﴾ كأنه قيل وحرا رزقناه بطريق الملك ليطابق عبداً ﴿ مِنّا ﴾ من جانبنا الكبير المتعال ﴿ رِزْقاً حَسَناً ﴾ حلالاً طيباً أو مستحسناً عند الناس مرضياً ﴿ فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك الرزق الحسن ﴿ سِرّاً وَجَهْراً ﴾ أي حال السر والجهر ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾أي لا يتساويان في المكانة والقدرة والسلطان ﴿ الحمدُ للهِ ﴾ اعتراض ، أي كل الحمد لله تعالى لأنه معطي جميع النعم ، وليس شيء من الحمد للأصنام ﴿ بلْ أكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمونَ ﴾ ذلك فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره ويعبدونه لأجلها ﴿ وَضَربَ اللهُ مَثلاً ﴾ على أوضح وجه وأظهره ﴿ رَجُلَيْنِ ﴾ تقديره مثل رجلين ﴿ أَحَدُهُما أَبْكَمُ ﴾ وهو من وُلِدَ أخرس ﴿ لا يَقْدِرُ عَلى شَيءٍ ﴾ من الأشياء لقلة فهمه سواء إدراكه ﴿ وَهُوَ كَلٌّ علىٰ مَوْلٰهُ ﴾ ثقل وعيال على من يعوله ويلي أمره ﴿ أينما يُوَجِّهْهُ ﴾ أي حيث يرسله مولاه ﴿ لا يَأتِ بِخَيرٍ ﴾ لا يرجع عليه بما ينفع ﴿ هلْ يَسْتَوِي هُوَ ﴾ مع ما فيه من الأوصاف المذكورة ﴿ وَمَنْ يأمُرُ بالعَدلِ ﴾ أي من هو منطيق ، ذو كفاية ورشد ، ينفع الناس بحثّهم على العدل الجامع لجميع الفضائل والمكارم ﴿ وَهُوَ ﴾ في نفسه مع ذكر من نفعه ﴿ عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ على طريق واضح لا عوج فيه ﴿ وَللهِ ﴾ تعالى خاصة لا لأحد غيره ﴿ غَيْبُ السّمواتِ والأرْضِ ﴾ أي علم ما غاب فيهما عن العباد ﴿ وَما أَمْرُ السَّاعَةِ ﴾ الساعة اسم لوقت تقوم فيه القيامة أي وما شأن قيام القيامة التي هي من الغيوب في سرعة المجيء ﴿ إلا كَلَمْحِ البَصَرِ ﴾ أي كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ﴿ أَوْ هُوَ ﴾ أي بل أمرها فيما ذكر من السرعة والسهولة ﴿ أَقْرَبُ ﴾ من لمح البصر وأسرع زماناً ، وإنما ضرب به المثل لأنه لا يعرف زمان أقل منه ﴿ إنّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ﴾ فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ (متى الساعة ؟ فقال عليه

السلام : ما أعددتَ لها ؟ قال : لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله فقال : أنت مع من أحببت)[1] ﴿ وَاللهُ ﴾ تعالى وحده ﴿ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمّهاتِكُمْ ﴾ جمع الأم زيدت الهاء فيها ﴿ لا تَعْلَمونَ شَيْئاً ﴾ أي حال كونكم غير عالمين شيئاً أصلاً من أمور الدنيا والآخرة﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السّمْع ﴾ قدَّمه على البصر ، لما أنه طريق تلقي الوحي ، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر ، ألا ترى أن الوليد يتأخر انفتاح عينيه عن السمع ﴿ وَالأَبْصَارَ ﴾ جمع بصر وهي حس العين ﴿ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ جمع فؤاد وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة ، والمعنى جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة ، بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء ، وتدركوها بأفئدتكم ، وتتنبهوا لما بينها بتكررالإحساس ، فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ ﴾ إرادة أن تشكروا هذه النِّعم ، وشكرها استعمالها فيما خلقت لأجله ، من استماع كلام الله وأحاديث رسول الله ، ومن النظر إلى آيات الله والاستدلال بها على وجوده ووحدته وعلمه وقدرته ، فمن استعملها في غير ما خلقت له ، فقد كفر جلائل نعم الله تعالى وخان في أماناته ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطّيْرِ ﴾ أي ألم ينظروا إليها ليستدلوا بها على قدرة الله تعالى ﴿ مُسَخّراتٍ ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المساعدة لها ، فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله للطيران ﴿ فِي جَوِّ السّماءِ ﴾ في الهواء غير متباعد من الأرض والجوُّ : الهواء ﴿ ما يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في الجو عن السقوط ﴿ إِلاّ اللهُ ﴾ بقدرته الواسعة وتدبيره لهن ، فإن ثقل جسدها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها والهواء للطائر كالماء للسابح ، فهو يقبض يديه ويبسطها ولا يغرق مع ثقل جسده ورقة الماء ﴿ إِنَّ فِي ذلكَ ﴾ الذي ذكر من تسخير الطير للطيران ﴿ لآياتٍ لِقَومٍ يُؤْمِنونَ ﴾ أي من شأنهم أن يؤمنوا وإنما خص ذلك بهم لأنهم المنتفعون به ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ المعهودة التي تبنونها من الحجر والمدر ﴿ سَكَناً ﴾ أي موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم ﴿ وَجَعل لَكُمْ مِنْ جُلودِ الأَنْعامِ ﴾ جمع نَعَم ، وهو مخصوص بالأنواع الأربعة الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز ﴿ بُيُوتاً ﴾ أُخَر مغايرة لبيوتكم المعهودة وهي الخيام والقباب والأخبية والفساطيط ﴿ تَسْتَخِفُّونَها ﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم نقضها وحملها وثقلها ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ أي وقت ترحلكم وسفركم ﴿ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ ﴾ وقت نزولكم ﴿ وَمِنْ أَصْوافِها وأَوْبَارِها وَأَشعارِها ﴾ أي وجعل لكم من أصواف الضأن ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز ﴿ أَثَاثاً ﴾ أي متاع البيت مما يلبس ويفرش ﴿ وَمَتاعاً ﴾ أي شيئاً يمتع به بفنون التمتع ﴿ إِلىٰ حِينٍ ﴾ إلى مدة من الزمان فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدة ﴿ وَاللهُ جَعَل لَكُمْ مِمّا خَلَقَ ﴾ من غير

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي ، وتمته قال أنس : (فما فرحنا بشيء فَرَحنا بقول النبي ﷺ : أنتَ مع من أحببتَ) وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٦ / ٥٥٦ .

صنع من قبلكم ﴿ **ظِلالاً** ﴾ جمع ظل ، وهو ما يستظل به أي أشياء تستظلون بها من الحر ، كالغمام والشجر والجبل وغيرها ، إمتنّ سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبالِ أكناناً** ﴾ جمع كن ، وهو ما يستكن فيه أي مواضع تستكنون فيها ، من الكهوف والغيران والسروب ﴿ **وَجعَل لكُمْ سَرابيلَ** ﴾ جمع سربال وهو كل ما يلبس أي جعل لكم ثياباً من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿ **تَقيكُمُ الحَرَ** ﴾ ولم يذكر البرد لدلالته عليه لأنه نقيضه ﴿ **وَسَرابِيلَ** ﴾ ودروعاً من الحديد ﴿ **تَقيكُمْ بأْسَكُمْ** ﴾ أي البأس والألم الذي يصل إلى بعضكم من بعض في الحرب من الضرب والطعن ، والبأس الشدة في الحرب والقتل والجراحة ، وأول من عمل الدرع داود عليه السلام ﴿ **كَذلِكَ** ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت ﴿ **يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَليْكُمْ** ﴾ يامعشر قريش ﴿ **لَعَلّكُمْ تُسْلِمونَ** ﴾ الإسلام ههنا بمعنى الاستسلام أي إرادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، فتعرفوا حق المنعم فتؤمنوا به وحده ﴿ **فَإنْ تَولّوْا** ﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ولم يقبلوا منك ما ألقي إليهم من البينات والعبر والعظات ، ﴿ **فَإنّما عَليْكَ البَلاغُ المُبينُ** ﴾ أي فلا قصور من جهتك لأن وظيفتك هي البلاغ الواضح ، وقد فعلته بما لا يزيد عليه ﴿ **يَعْرِفُوْنَ** ﴾ أي بعض المشركين ﴿ **نِعْمَةَ اللهِ** ﴾ المعدودة في هذه السورة ويعترفون أنها من الله ﴿ **ثُمّ يُنكِرونَها** ﴾ بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها ﴿ **وَأكْثَرهُمُ الكَافِرونَ** ﴾ أي المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر ﴿ **وَيَوْمَ نبْعثُ** ﴾ أي اذكر ياأفضل الرسل يوم نحشر ، وهو يوم القيامة ﴿ **مِنْ كُلّ أُمّةٍ شَهيداً** ﴾ نبياً يشهد لهم بالإيمان والطاعة ، وعليهم بالكفر والعصيان ﴿ **ثُمّ لا يُؤْذَنُ لِلّذينَ كَفرُوا** ﴾ في الاعتذار إذ لا عذر لهم ﴿ **وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبونَ** ﴾ يسترضون أي لا يقال لهم : أرضوا ربكم ، ولا يطلب منهم ما يوجب العتبى وهي الرضى، وذلك لأن الرضى إنما يكون بالإيمان والعمل الصالح ، والآخرة دار الجزاء لا دار العمل والتكليف ، والدنيا مزرعة الآخرة ﴿ **وَإذَا رأىَ الّذينَ ظَلَمُوا** ﴾ كفروا ﴿ **العَذابَ** ﴾ الذي يستوجبونه بظلمهم ، وهو عذاب جهنم ، صاحوا وطلبوا من مالك تخفيف العذاب ﴿ **فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ** ﴾ ذلك العذاب عند الدخول ﴿ **ولا هُمْ يُنْظَرونَ** ﴾ أي لا يمهلون قبله ليستريحوا ﴿ **وَإذا رأى الّذينَ أشْرَكوا شُرَكاءَهُمْ** ﴾ أوثانهم التي عبدوها ﴿ **قَالوا رَبّنَا هَؤُلاء شُرَكاؤُنا** ﴾ أي آلهتنا التي جعلناها شركاء ﴿ **الّذينَ كُنّا ندْعُوا مِنْ دُونِكَ** ﴾ أي نعبدهم متجاوزين عبادتك ، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك ، ﴿ **فألقَوْا** ﴾ أي شركاؤهم ﴿ **إليْهِمُ القَوْلَ** ﴾ أنطقهم الله تعالى فأجابوهم بالتكذيب وقالوا لهم ﴿ **إنّكُمْ** ﴾ أيها المشركون ﴿ **لكاذِبونَ** ﴾ في ادعائكم أننا شركاء الله إذ ما أمرناكم بعبادتنا ﴿ **وَألْقَوا** ﴾ أي المشركون ﴿ **إلى اللهِ يوْمَئِذٍ السّلَمَ** ﴾ الاستسلام والإنقياد لحكمه بعد الاستكبار عنه في الدنيا .

﴿ **وَضَلّ عنْهُمْ** ﴾ أي ضاع وبطل ﴿ **ما كَانُوا يفْتَرونَ** ﴾ من أن لله شركاء ، وأنهم ينصرونهم

ويشفعون لهم ، وذلك حين كذبوهم وتبرأوا منهم ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في أنفسهم ﴿ وَصَدُّوا ﴾ غيرهم ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ بالمنع عن الإسلام ، والحمل على الكفر ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً ﴾ لصدهم ﴿ فَوقَ العَذابِ ﴾ الذي كانوا يستحقونه بكفرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدونَ ﴾ أي زدنا عذابهم بسبب استرارهم على الإفساد ، وهو الصدّ المذكور ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ ﴾ تكرير لما سبق تثنيةً للتهديد ﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ ﴾ أي نبياً ﴿ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ من جنسهم ، قطعاً لمعذرتهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هَؤُلاءِ ﴾ الأمم ، وشهدائهم كقوله تعالى (فَكَيْفَ إذَا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً) ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتابَ ﴾ الكامل وهو القرآن العظيم ﴿ تِبْيَاناً ﴾ بياناً بليغاً ﴿ لِكُلِّ شَيءٍ ﴾ يتعلق بأمور الدين ، ومن ذلك أحوال الأمم مع أنبيائهم ﴿ وَهُدىً ﴾ وكاملاً في الهداية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ للعالمين ، ﴿ وَبُشْرىٰ ﴾ وبشارة بالجنة ﴿ لِلْمُسلِمِينَ ﴾ خاصة ﴿ إنّ اللهَ يَأْمُرُ ﴾ في القرآن ﴿ بالعدْلِ ﴾ أي بالتسوية في الحقوق فيما بينكم ، وترك الظلم ، وإيصال كل حق إلى ذي حقه ﴿ وَالإحْسانِ ﴾ وأن تحسنوا الأعمال مطلقاً لقوله عليه السلام (إن الله كتب الإحسان في كل شيء)[1] .

وروي أن امرأة عذبت في هرة حبستها ولم تطعمها إلى أن ماتت ، وامرأة رحمها الله وغفر لها بسبب أن سقت كلباً عطشان بخفها ﴿ وَإِيتَاءِ ذي القُرْبىٰ ﴾ القربى بمعنى القرابة ، أي إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه من المال ، والدعاء بالخير وهو داخل في الإحسان ، وإنما أفرد بالذكر إظهاراً لجلالة صلة الرحم وتنبيهاً على فضيلتها ، والرحم عام في كل رحم محرماً كان أو غير محرم ، وارثاً كان أو غير وارث من أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات وغير ذلك ، وقطع الرحم حرام موجب لسخط الله ، وإنقطاع ملائكة الرحمة ، والصلة واجبة باعثة على كثرة الرزق ، وزيادة العمر ، وأقله التسليم وإرسال السلام ، ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ ﴾ عن الذنوب المفرطة في القبح ، قولاً وفعلاً كالكذب والبهتان والاستهانة بالشريعة والزنىٰ واللواطة ونحوها ﴿ وَالْمُنكَرِ ﴾ وعما تنكره النفوس الزاكية السليمة ولا ترتضيه ﴿ والبغْيِ ﴾ العدوان والظلم والاستعلاء على الناس ، والتطاول عليهم بلا سبب ، وتجسس عيوبهم وغيبتهم ، ونحو ذلك ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ يعني بأمر هذه المستحسنات ونهي هذه المستقبحات ﴿ لَعلّكُمْ تَذَكّرونَ ﴾ طلباً لأن تتعظوا فتأتمروا بالأمر وتنتهوا بالنهي ، وقد أمر الله تعالى في هذه الآية بثلاثة أشياء ونهى عن ثلاثة أشياء ، وجمع في هذه الأشياء الستة علم الأولين والآخرين ، وجميع الخصال المحمودة والمذمومة ، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه « هي أجمع آية في القرآن للخير والشر » ولذا يقرأها كل خطيب على المنبر في آخر خطبة ، لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهيّ ﴿ وَأَوْفُوا ﴾ أي استمروا على

(١) رواه مسلم وأحمد ، وتتمته (فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلةَ ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحةَ ، وَلْيحدَّ أحدكُم شفرته وَلْيُرِحْ ذبيحته) الفتح الكبير ١ / ٣٤١ .

الإيفاء ﴿ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ وهو البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام فإنها مبايعة لله تعالى لقوله تعالى (إنّ الّذينَ يُبايِعونَكَ إنّما يُبايِعونَ الله) وسميت المعاهدة مبايعة تشبيهاً بالمعاوضة المالية ، ثم هو عام لكل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، لأن خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم ﴿ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ إذا عاقدتم وواثقتم والعهد العقد والميثاق ﴿ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ ﴾ التي تحلفون بها عند المعاهدة أي لا تحنثوا في الحلف ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ أي توثيقها بذكر الله وتشديدها باسمه ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ شاهداً رقيباً ، فإن الكفيل من يراعي لحال المكفول به محافظة عليه ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلونَ ﴾ من نقض الأيمان والعهود ، فيجازيكم على ذلك ، واعلم أنَّ الوفاء تأدية ما أوجبت على نفسك ، إما بالقبول أو بالنذر ، وعن بعض المتكلمين : إذا رأيتم الرجل أُعطي من الكرامات حتى يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في حفظ الحدود ، والوفاء بالعهود ، ومتابعة الشريعة ، قيل لحكيم : أي شيء أعمل حتى أموت مسلماً ؟ قال : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة ، ولا مع الدين إلا بالوفاء ﴿ وَلا تَكُونُوا ﴾ أيها المؤمنون في نقض العهد ﴿ كَالَّتِي ﴾ كالمرأة التي ﴿ نَقَضَتْ ﴾ النقض في البناء والحبل وغيره ضد الإبرام كما في القاموس ﴿ غَزْلَهَا ﴾ مصدر بمعنى المغزول ، أي ما غزلته من صوف وغيره ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أي من بعد إبرام ذلك الغزل وإحكامه فجعلته ﴿ أَنْكَاثاً ﴾ جمع نكث بمعنى المنكوث أي يحل غزلاً كان أو حبلاً ، والمعنى طاقات نكثت فتلها ، والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه حال الناقض بمثل هذه المرأة المعتوهة من غير تعيين ، إذ لا يلزم في التشبيه أن يكون للمشبه به وجود في الخارج ﴿ تَتَّخِذونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾ أي مشابهين بامرأةٍ شأنها هذا منه ، حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ، ودَخلاً بينكم ، والدَّخلُ : ما يدخل في الشيء ولم يكن منه ﴿ أَنْ تَكونَ أُمَّةٌ ﴾ أي بسبب أن تكون جماعة قريش ﴿ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أزيد عدد وأوفر مالاً من جماعة المؤمنين ، وهذا نهيٌ لمن يحالف قوماً ، فإن وجد أيسر منهم وأكثر ترك من حالف وذهب إليه ،

﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ﴾ أي يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله ، أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم ؟ والظبي وإن كان واحداً فهو خير من قطيع الخنزير ، والسواد الأعظم هو الواحد على الحق ، ويقال : سمي الدجال دجالاً لأنه يغطي الأرض بكثرة جموعه ، والصحيح أنه من الدَّجل ، ومعناه الكذب فإنه يَدَّعي الربوبية وهو كذَّابٌ أثيم ، ولا يلزم منه كونه على الحق وأفضل من في الأرض يومئذ ، لأن الله تعالى لا ينظر إلى الصور والأموال ، بل إلى القلوب والأعمال ، فإذا كانت للناس قلوب وأعمال صالحة ، يكونون مقبولين مطلقاً ،

سواء كانت لهم صور حسنة وأموال فاخرة أم لا ﴿ **وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يومَ القِيٰمَةِ ما كُنْتُمْ فيهِ تَختَلِفونَ** ﴾ في الدنيا إذا جازاكم على أعمالكم بالثواب والعقاب ، وهو إنذار وتخويف من مخالفة ملة الإسلام ودين الحق ، فإنها مؤدية إلى العذاب الأبدي ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللهُ** ﴾ مشيئة قسر وإلجاء ﴿ **لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحدةً** ﴾ متفقة على الإسلام ﴿ **وَلكنْ** ﴾ لا يشاء ذلك لكونه مخالفاً لقضية الحكمة بل ﴿ **يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ** ﴾ إضلاله أي يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئي إليه ﴿ **ويَهْدي مَنْ يَشاءُ** ﴾ هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها ، فالإضلال والهداية مبنيان على الاختيار ﴿ **و** ﴾ بالله ﴿ **لتُسْأَلُنّ** ﴾ جميعاً يوم القيامة سؤال تبكيت ومجازاة لا سؤال تفهم ﴿ **عَمّا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ** ﴾ في الدنيا من الوفاء والنقض ونحوهما ﴿ **ولا تَتَّخِذُوْا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنكُمْ** ﴾ مكراً وغدراً ﴿ **فَتَزِلَّ قدَمٌ** ﴾ أي أقدامكم أيها المؤمنون عن محجة الحق ﴿ **بَعْدَ ثُبوتِها** ﴾ عليها ورسوخها فيها بالإيمان ﴿ **وَتذوقُوا السُّوءَ** ﴾ أي العذاب الدنيوي ﴿ **بما صَدَدْتُمْ** ﴾ بصدودكم وخروجكم ومنعكم ﴿ **عَنْ سَبيلِ اللهِ** ﴾ فإن من نقض البيعة وارتدَّ ، جعل ذلك سُنَّة لغيره ﴿ **وَلَكُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **عَذابٌ عَظيمٌ** ﴾ شديد ﴿ **ولا تَشْتَروا بِعَهْدِ اللهِ** ﴾ أي لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى وبيعة رسوله ﴿ **ثَمناً قَليلاً** ﴾ أي لا تستبدلوا بها عوضاً يسيراً وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ، ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا ﴿ **إنّ ما عِنْدَ اللهِ** ﴾من النصر العزُّ في الدنيا ، والثواب في الآخرة ﴿ **هُوَ خيرٌ لكُمْ** ﴾ مما يعدونكم ﴿ **إنْ كُنْتُمْ تعْلَمونَ** ﴾ أي إن كنتم من أهل العلم والتمييز ﴿ **ما عِنْدَكُمْ** ﴾ من أعراض الدنيا ، وإن كثرت ﴿ **ينْفَدُ** ﴾ يفنى وينقضي ﴿ **وما عِنْدَ اللهِ** ﴾ من أنواع رحمته المخزونة ﴿ **بَاقٍ** ﴾ لانفادَ له ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّ** ﴾ أي والله لنعطين ﴿ **الّذينَ صَبَرُوا** ﴾ على أذية المشركين ومشاق الإسلام ، التي من جملتها الوفاء بالعهود والفقر ﴿ **أَجْرَهُمْ** ﴾ الخاص بهم ، بمقابلة صبرهم على الأمور المذكورة ﴿ **بأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُوْنَ** ﴾ أي لنجزيهم بما كانوا يعملونه بالأحسن ، فإنه أعد لبعاده الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحَاً** ﴾ أي عملاً صالحاً وهو ما كان لوجه الله تعالى ورضاه ، ليس فيه هوى ولا رياء ﴿ **مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثىٰ** ﴾ أي حال كون ذلك العامل من رجل أو امرأة ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي والحال أن ذلك العامل ﴿ **مُؤْمِنٌ** ﴾ قيده به ، إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب ﴿ **فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيِّبة** ﴾ في الدنيا يعيش عيشاً طيباً ، لأنه إن كان موسراً فظاهر ، وأن كان معسراً فيطيب عيشه بالقناعة والرضى بالقسمة ، وتوقع الأجر العظيم في الآخرة ، كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله ، بخلاف الفاجر فإنه إن كان معسراً فظاهر ، وإن كان موسراً فلا يدعه الحرص وخوف الفوت أن يتهنأ بعيشه ﴿ **وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحسنِ ما كَانُوا يَعْملونَ** ﴾ أي ولنعطينهم في الآخرة أجرهم الخاص بهم ، بما كانوا يعملون من الصالحات ، وعن بعض

أصحاب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال لما مات أحمد رأيته في المنام وهو يمشي ويتبختر في مشيه ، فقلت له ياأخي أي مشية هذه ؟ قال : مشية الخدام في دار السلام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وألبسني نعلين من ذهب ، وقال هذا جزاء قولك القرآن كلام الله المنزل غير مخلوق ، وقال ياأحمد قم حيث شئت فدخلت الجنة ، فإذا سفيان الثوري رحمه الله له جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة وهو يقرأ هذه الآية (**الحمدُ للهِ الّذي صَدَقَنا وَعْدَه وَأُورَثنا الأرْضَ نَتَبوّأُ مِنَ الجَنّةِ حيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أجْرُ العَامِلين**) ﴿ **فَإذا قَرأْتَ القُرْآنَ** ﴾ أي أردت قراءته ، عبّر عن الإرادة بالقراءة على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب ﴿ **فاسْتَعِذْ بِاللهِ** ﴾ أي فاسأله تعالى أن يعيذك ويحفظك ﴿ **مِنَ الشّيْطانِ** ﴾ البعيد عن الخير ﴿ **الرّجيمِ** ﴾ المرجوم بالطرد واللعن ، أي من وساوسه وخطراته كيلا يوسوسك عند القرآن ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي الشيطان ﴿ **لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ** ﴾ تسلط وولاية ﴿ **عَلى الّذينَ آمنُوا وَعلىٰ رَبّهِمْ يَتَوَكّلُوْنَ** ﴾ أي على أولياء الله المؤمنين به والمتوكلين عليه ، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم ﴿ **إنّما سُلْطانُهُ** ﴾ أي تسلطه وغلبته بدعوته المستتبعة للاستجابة ﴿ **عَلىٰ الّذينَ يَتَوَلّونَهُ** ﴾ أي يتخذونه ولياً لهم ، ويستجيبون لدعوته ويطيعونه ﴿ **والّذينَ هُمْ بِهِ** ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ **مُشْرِكونَ** ﴾ أي بسبب الشيطان الّذي حملهم على الإشراك بالله ، وتخصيص الاستعاذة بالله عند قراءة القرآن من الشيطان الرجيم لمعانٍ وفوائد **أولها** : كي يتذكر القارىء واقعة الشيطان ويتفكر في أمره ، أنه إنما صار شيطاناً رجيماً لأنه فسق عن أمر ربه ، وأبى أن يسجد لآدم واستكبر فصار من الكافرين ، فيتنبه بذلك عند قراءة القرآن ، ويصفّي نيته قبل القراءة على أن يأتمر بما أمره الله في القرآن ، وينتهي عما نهاه عنه ، احترازاً عن المخالفة فإن فيها الطرد واللعن ، والفسق والكفر ، وأنها مظنة للخلود في النار ، **وثانيها** : لأن العبد لا يخلو من حديث النفس وهواجسها ، ومن إلقاء الشيطان ووساوسه ، وقلبه لابد يتشوش بذلك ، فلا يجد حلاوة كلام الله ، فأمر بالاستعاذة وتزكيته للنفس وتصفيتها للقلب عن وساوس الشيطان ، ليستنير بنور القرآن ، **وثالثها** : لأن في كل كلمة من كلمات القرآن لله تعالى إشارات ومعاني وحقائق لا يفهمها إلا قلب مطهّر عن تلوثات الهواجس والوساوس ، معطّر بطيب أنفاس الحق ، وذلك مودع في الاستعاذة بالله ، فأمر بها لحصول الفهم ، وروى جبير بن مطعم قال : رأيت رسول الله ﷺ فقال (الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخهِ ، ونفثهِ ، وهمزهِ) ﴿ **وَإذا بَدّلْنا آيةً مكانَ آيةٍ** ﴾ قال ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما : إنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية فيها شدة ، أخذ الناس بها وعملوا ما شاء الله أن يعملوا ، فيشق ذلك عليهم فينسخ الله هذه الشدة ، ويأتيهم بما هو ألين منها وأهون عليهم ، رحمة من الله تعالى ، فيقول لهم كفار قريش ، إن محمداً يسخر بأصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً،

ويأتيهم بما هو أهون عليهم ، وما هو إلاَّ مُفْتٍ يقوله من تلقاء نفسه ، والمعنى إذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه ، وجعلناها بدلاً منها بأن نسخناها ﴿ **وَاللهُ أَعْلَمُ بما يُنَزِّلُ** ﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه لتوبيخ الكفرة على قولهم ، والتنبيه على فساد رأيهم ، أي أعلم بما ينزل أولاً وآخراً ، من الأحكام والشرائع ، التي هي مصالح ، ورب شيء يكون مصلحة في وقت ، يكون مفسدة في وقت آخر ، فينسخه ويثبت مكانه ما يكون مصلحة لخلقه ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الكفرة ﴿ **إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ** ﴾ على الله متقوِّلٌ من عند نفسك ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن الله أمر بأشياء نظراً لصلاح عباده ﴿ **قُلْ** ﴾ رداً عليهم ﴿ **نَزَّلَهُ** ﴾ أي القرآن ﴿ **رُوحُ القُدُسِ** ﴾ أي الروح المقدس المطهر من الأدناس البشرية ، وهو جبريل عليه السلام ﴿ **مِنْ رَبِّكَ** ﴾ من سيدك ومتولي أمرك ﴿ **بالحَقِّ** ﴾ أي نزله متلبساً بالحق الثابت ، الموافق للحكمة المقتضية له ، وفيه دلالة على أن النسخ حق ﴿ **لِيُثَبِّتَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **الَّذينَ آمَنُوا** ﴾ على الإيمان بأنه كلامه ، فإنهم إذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم ، واطمأنت قلوبهم على أن الله حكيم ، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿ **وَهُدىً** ﴾ من الضلالة ﴿ **وَبُشْرىٰ** ﴾ بالجنة ﴿ **لِلْمُسْلِمينَ** ﴾ المنقادين لحكمه تعالى أي تثبيتاً لهم وهداية وبشارة ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ** ﴾ ذكر ابن الحاجب أنهم نقلوا « قَدْ » إذا دخلت على المضارع من التقليل إلى التحقيق ، كما أن « رُبَّمَا » في المضارع نقلت من التقليل إلى التحقيق ﴿ **أَنَّهُمْ** ﴾ أي كفار مكة ﴿ **يَقُولونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ** ﴾ أي القرآن ﴿ **بَشَرٌ** ﴾ أي شخص من الناس عالم باللغة العبرية ، وليس ملكاً ينزل عليه بالوحي من السماء ، روي عن عبيد بن مسلمة قال (كانا لنا غلامان نصرانيان اسم أحدهما « يسار » والآخر « جبر » ، فكانا يقرآن كتاباً لهم بلسانهم ، وكان رسول الله ﷺ يمر بهما ويسمع قراءتهما ، فكان المشركون يقولون يتعلم منهما) فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ **لِسانُ الَّذي يُلْحِدونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ** ﴾ الأعجمي هو الذي لا يفصح وإن كان عربياً ، والعجمي المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحاً ، والمعنى لغة الرجل الذي يميلون إليه القول عن الإستقامة ، ويشيرون إليه أنه يُعلِّم محمداً أعجمية غير بينة ﴿ **وَهذا** ﴾ القرآن الكريم ﴿ **لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبينٌ** ﴾ ذو بيان وفصاحة فكيف يصدر عن أعجمي مثل هذا القرآن ؟ يعني أن القرآن معجز بنظمه ،كما أنه معجز بمعناه ، لاشتماله على الإخبار عن الغيب ، فإن زعمتم أن بشراً يُعلِّمه معناه ، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميل أهل الدنيا ؟ ﴿ **إِنَّ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِآياتِ اللهِ** ﴾ أي لا يصدقون أنها من عند الله ﴿ **لا يَهْدِيهِمُ اللهُ** ﴾ إلى سبيل النجاة هداية موصلة إلى المطلوب ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **عَذابٌ أَلِيمٌ** ﴾ مؤلم موجع ﴿ **إِنَّما يَفْتَري الكَذِبَ** ﴾ التصريح بالكذب للمبالغة في بيان قبحه ﴿ **الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِآياتِ اللهِ** ﴾ ردٌّ لقولهم إنما أنت مفتر ، يعني إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يترقب عقاباً عليه ليرتدع عنه ، وأما من يؤمن بها ويخاف ما

نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من عدم الإيمان بآيات الله ﴿ هُمُ الكَاذِبونَ ﴾ على الحقيقة لاعلى الزعم ، بخلاف رسول الله ﷺ فإن حاله على العكس ، أو الكاملون في الكذب ، إذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته والطعن فيها بأمثال هاتيك الأباطيل . ﴿ مَنْ كَفَرَ باللهِ ﴾ أي تلفظ بكلمة الكفر ﴿ مِنْ بعْدِ إيمانِهِ ﴾ به تعالى كابن خطل وطُعْمة ، ومقيس وأمثالهم ﴿ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ أجبر على ذلك التلفظ بأمر يخاف على نفسه ، أو على عضو من أعضائه ، وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ ﴾ أي والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته ، ﴿ وَلَكِنْ مَنْ ﴾ لم يكن كذلك بل ﴿ شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً ﴾ أي اعتقده وطاب به نفساً ، ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ عظيم ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ في الآخرة ﴿ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ﴾ العذاب والعقاب : الإيجاعُ الشديد ، قال ابن عباس : نزلت الآية في عمار رضي الله عنه ، وذلك أن كفار قريش أخذوه هو وأبويه « ياسر » و« سُمَيَّة » فعذبوهم ليرتدوا ، فأبى أبواه فربطوا « سُمَية » بين بعيرين ووجىء أي ضرب بحربة في قلبها فقتلوها وقتلوا ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فكان ضعيف البدن فلم يطق لعذابهم فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، وهو سب النبى ﷺ وذكر الأصنام بخير ، فقالوا يارسول الله إن عمار كفر فقال عليه الصلاة والسلام (كلا إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه) فأتى عمار رسول الله وهو يبكي ، فقال له الرسول الكريم : (كيف تجدُ قلبَك ؟ قال : أجده مطمئناً بالإيمان ، قال : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت)[1] وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه الملجىء ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه ويصبر على الأذى والقتل ، كما فعله أبواه ، كما رُوي أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين ، فقال لأحدهما : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله ، قال فما تقول فيَّ ؟ قال فأنت أيضاً فخلاَّه ، وقال للآخر ما تقول في محمد ؟ قال رسول الله ، قال فما تقول فيَّ ؟ قال أنا أصم ، فأعاد ثلاثاً فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ رسول ﷺ فقال أما الأول فقد أخذ برخصة الله ، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له الجنة)[2] ، وفي الحديث (أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر)[3] وإنما كان أفضل الجهاد لأن من جاهد العدوَّ ، وكان متردداً بين خوف ورجاء ، ولا يدري هل يَغْلب أو يُغلب ، وصاحب السلطان مقهور في يده ، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف ، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد من أجل غلبة الخوف ﴿ ذلِكَ ﴾ الكفر بعد الإيمان ﴿ بِأَنَّهُمُ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ اسْتَحَبُّوا ﴾ أي آثروا فتعدية

(١) انظر سبب النزول للواحدي وكتابنا صفوة التفاسير ٢ / ١٤٤ ,والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠ / ١٢١ .

(٢) ذكر هذه القصة المفسرون : القرطبي ، والألوسي ، والفخر الرازي ، والجصاص .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في الملاحم والترمذي وابن ماجه في الفتن بلفظ (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) .

الاستحباب بـ « عَلَى » لتضمنه معنى الإيثار ﴿ **الحَيٰوةَ الدُّنْيا عَلى الآخِرَةِ وأنّ اللهَ لا يَهْدي** ﴾ إلى الإيمان وإلى ما يوجب الثبات عليه ﴿ **القَوْمَ الكَافِرينَ** ﴾ فلا يعصمهم من الزيغ وما يؤدي إليه من الغضب والعذاب العظيم ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من القبائح ﴿ **الّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ** ﴾ أي ختم عليها فلا يدخلها نور ولا إيمان ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلونَ** ﴾ أي الكاملون في الغفلة ﴿ **لا جَرَمَ أَنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرونَ** ﴾ حقاً إنهم هم الكاملون في الخسران يوم القيامة ، إذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها إلى العذاب المخلد .

﴿ **ثُمّ إنّ رَبّكَ** ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنه لما أنزل الله تعالى أن أهل مكة لا يقبل منهم الإسلام حتى يهاجروا ، كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة ، فلما جاءهم ذلك خرجوا فأدركوا المشركين فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ **لِلّذينَ هَاجَرُوا** ﴾ إلى دار الإسلام وهو عمار وصهيب وخباب وسالم وبلال ونحوهم ﴿ **مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا** ﴾ أي عذبوا على الارتداد وأكرهوا على تلفظ كلمة الكفر ، فتلفظوا بما يرضيهم من الكفر مع اطمئنان قلوبهم ﴿ **ثُمّ جَاهَدُوا** ﴾ في سبيل الله ﴿ **وَصَبَرُوا** ﴾ على مشاق الجهاد ﴿ **إنّ رَبّكَ مِنْ بَعْدِها** ﴾ من بعد المهاجرة والجهاد والصبر ﴿ **لَغَفورٌ** ﴾ أي لستور عليهم محّاءٌ لما صدر منهم ﴿ **رَحيمٌ** ﴾ منعم عليهم من بعد بالجنة ، جزاء على تلك الأفعال الحميدة والخصال المرضية ﴿ **يَوْمَ تَأتي كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ منصوب باذكر والمراد يوم القيامة ﴿ **تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها** ﴾ يقال لعين الشيء : نفسه ، ولنقيضه غيره والمعنى اذكر يامحمد يوم يأتي كل إنسان يجادل ويخاصم عن ذاته ، يسعى في خلاصه بالاعتذار ، لا يهمه شأن غيره ، فيقول نفسي نفسي ، وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى مَلَكٌ مقرَّب ، ولا نبي مرسل ، إلا جثا على ركبتيه حتى خليل الرحمن عليه السلام ، وقال رب نفسي أي أريد نجاة نفسي ﴿ **وَتُوفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ برة أو فاجرة أي تعطىٰ وافياً كاملاً ﴿ **مَا عَمِلَتْ** ﴾ أي جزاء ما عملت ﴿ **وَهُمْ لا يُظْلَمونَ** ﴾ لا ينقصون أجورهم ، ولا يعاقبون بغير موجب ، ولا يزاد في عقابهم على ذنوبهم ﴿ **وَضَربَ اللهُ مثلاً قَرْيَةً** ﴾ أي قصة أهل قرية كانت في قرى الأولين وهي أيلة كما في الكواشي ، وهي بلد بين ينبع ومصر . والمعنى جعل أهلها مثلاً لأهل مكة ولكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، ففعلوا ما فعلوا ، فبدل الله بنعمتهم نقمة ، ﴿ **كانتْ آمِنَةً** ﴾ ذات أمنٍ من كل مخوف ﴿ **مُطْمَئِنّةً** ﴾ لا ينتقلون عنها إلى غيرها لحسنها ﴿ **يأْتيها رِزْقُها** ﴾ أقوات أهلها صفة ثانية لقرية ﴿ **رَغَداً** ﴾ واسعاً ﴿ **مِنْ كُلّ مَكانٍ** ﴾ من نواحيها من البر والبحر ﴿ **فَكَفَرتْ** ﴾ أي كفر أهلها ﴿ **بِأَنْعُمِ اللهِ** ﴾ أي بنعمه جمع نعمة والمراد بها نعمة الرزق والأمن المستمر ﴿ **فأذاقَها اللهُ** ﴾ أي أذاق أهلها ، من أنواع الشقاء والبلاء ،

وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء والاختبار ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ حتى أكلوا الجِيَف فإن قيل : كيف سمى الجوع لباساً ؟ قيل : لأنه يظهر من الهزال وشحوب اللون ، وضيق الحال ما هو كاللباس ﴿ والخَوْفِ ﴾ شبه أثر الجوع والخوف باللباس الغاشي لِلأَبس ، فاستعير له اسمه لمطلق الإيصال المنبيء عن شدة الإصابة ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعونَ ﴾ فيما قبل من الكفران ، ثم بين أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط ، بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضاً فقال ﴿ وَلَقَدْ جَاءهُمْ ﴾ أي أهل تلك القرية ﴿ رَسُوْلٌ مِنْهُمْ ﴾ أي من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة ، وأنذرهم سوء عاقبة الكفران ﴿ فَكَذّبوهُ ﴾ في رسالته ﴿ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ ﴾ المستأصل غِبَّ ما ذاقوا نبذة من ذلك ﴿ وَهُمْ ظَالِمونَ ﴾ حال كونهم ظالمين بالكفران والتكذيب ، حيث جعلوا الأول موضع الشكر ، والثاني موضع التصديق ، قال ابن عباس : هذا المثل لأهل مكة ، فإنهم كانوا في حرم آمن ، ويتخطف الناس من حولهم ، وما يمر ببالهم طيف من الخوف ، وكانت تجبى إليه ثمرات كل شيء ، ولقد جاءهم رسول منهم فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسول الله ﷺ فأصابهم بدعائه ﷺ بقوله (اللهم أعنّي عليهم بسبعٍ كسبع يوسف) ما أصابهم من القحط والجدب ، حتى أكلوا الجيف والكلاب الميتة ، والجلود ، والعظام المحرقة ، والعلهز وهو الوبر والدم - أي يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار - وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع ﴿ فَكُلوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ أي وإذ قد استبان لكم ياأهل مكة حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله ، وما حل بهم بسبب ذلك ، فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول ، كيلا يحل بكم مثل ما حلّ بهم ، واعرفوا حق نعم الله وكلوا من رزق الله من من الحرث والأنعام وغيرها حال كونه ﴿ حَلالاً طَيّباً ﴾ أي لذيذاًتستطيبه النفوس ، وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها ﴿ وَاشْكُروا نِعْمَةَ اللهِ ﴾ واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدونَ ﴾ أي تطيعون وتريدون رضاه ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ ﴾ أي أكلها وهي ما لم تلحقه الذكاة ﴿ والدَّمَ ﴾ المسفوح أي المصبوب من العروق ، وأما المختلط باللحم فمعفو والأولى غسله ﴿ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ أي رفع الصوت عند ذبحه للصنم به ، وذلك قول أهل الجاهلية باللّات والعزّى ، أي إنما حرم هذه الأشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوهما ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ الإضطرارُ : الاحتياج إلى الشيء ، واضطره إليه أحوجه وألجأه فتناول شيأ من ذلك حال كونه ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي على مضطر آخر ﴿ وَلاَعَادٍ ﴾ أي متجاوز قدر الضرورة وسدّ الجوع ﴿ فَإِنّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ أي لا يؤاخذه بذلك ، وفي الأشباه : يُرخَّص للمريض التداوي بالنجاسات وبالخمر على أحد القولين ، واختار قاضيخان عدمه وإساغة اللقمة بها إذا غص اتفاقاً ، وإباحة النظر للطبيب حتى للعورة والسوءتين انتهى ، قال الفقيه أبو

الليث رحمه الله : يستحب للرجل أن يعرف من الطب مقدار ما يمتنع به عما يضر ببدنه ﴿ **ولا تَقُولوا** ﴾ ياأهل مكة ﴿ **لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ** ﴾ أي لا تقولوا في شأن ما تصف ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم « ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا » من غير ترتيب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر ، فضلاً عن استناده إلى وحي أو قياس مبني عليه ﴿ **الكَذِبَ** ﴾ ينتصب بلا تقولوا وقوله تعالى ﴿ **هَذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ** ﴾ بدل منه فالمعنى لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام ، لما تصفه ألسنتكم بالحل والحرمة ، فقدم عليه كونه كذباً وأبدل منه هذا حلال وهذا حرام مبالغة ﴿ **لِتَفْتَروا عَلى اللهِ الكَذِبَ** ﴾ فإن مدار الحل والحرمة ليس إلا بأمر الله ﴿ **إِنَّ الَّذينَ يَفْتَرونَ عَلى اللهِ الكَذِبَ** ﴾ في أمر من الأمور ﴿ **لا يُفْلِحونَ** ﴾ لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراء للفوز بها ﴿ **مَتاعٌ قَليلٌ** ﴾ أي منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة تنقطع عن قريب ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **عَذابٌ أَليمٌ** ﴾ عذاب مؤلم موجع ﴿ **وَعَلى الَّذينَ هادُوا** ﴾ يعني على اليهود خاصة دون غيرهم من الأولين والآخرين ﴿ **حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ** ﴾ أي بقوله تعالى (**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوْا حَرَّمْنا كُلَّ ذي ظُفُر وَمنَ البَقَر والغَنَم حَرَّمْنا عَلَيهِمْ شُحومَهُمَا**) الآية ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي من قبل نزول الآية ﴿ **وَما ظَلَمْناهُمْ** ﴾ بذلك التحريم ﴿ **وَلكِنْ كانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمونَ** ﴾ حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم في قوله تعالى (**فَبِظُلْم مِنَ الَّذينَ هَادُوا حَرَّمْنا عليهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**) الآية ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى (**كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاً لبني إسْرائيلَ إلاّ ما حَرَّمَ اسرائيلُ على نفْسِه مِن قبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التوراة قُلْ فَأْتُوْا بالتَّوْارةِ فاتْلوها إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ روي أنه ﷺ لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجرأوا أن يخرجوا التوراة ، كيف وقد بين فيها أنَّ تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم ، عقوبة وتشديداً أوضح بيان ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ** ﴾ عن ابن عباس كل من يعمل سوأ فهو جاهل ، وإن كان يعلم أن ركوبه سيئة ﴿ **ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْد ذلِكَ** ﴾ أي من بعدما عملوا السوء ﴿ **وَأَصْلَحُوا** ﴾ أعمالهم أودخلوا في الصلاح ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها** ﴾ من بعد التوبة ، ولم يذكر تعالى الإصلاح لأنه تكميل التوبة ، فإنها الندم على المعصية من حيث إنها معصية ، مع عزم أن لا يعود ، فعدم العود والإصلاح تحقيق لذلك العزم ﴿ **لَغَفورٌ** ﴾ لذلك السوء أي ستور له محّاء ﴿ **رَحيمٌ** ﴾ لمن يثبت على طاعته تركاً وفعلاً ، وتكرير قوله تعالى « إن ربك » لتأكيد الوعد وإظهار كمال العناية بإنجازه ، والتوبة بمنزله الصابون فكما أن الصابون يزيل الأوساخ الظاهرة ، فكذلك التوبة تزيل الأوساخ الباطنة أعني الذنوب ،

﴿ **إِنَّ إِبْراهِيمَ كَانَ أُمَّةً** ﴾ لما حازه من الفضائل البشرية ، مما لا يكاد يوجد إلا في أمة متفرقة كما قيل : وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد ﴿ **قَانِتاً لله** ﴾ مطيعاً قائماً بأمره ﴿ **حَنيفاً** ﴾

مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ﴿ **ولَمْ يكُ مِنَ المشْركين** ﴾ في أمر من أمور الدين أصلاً وفرعاً ، وفيه رد على كفار قريش في قولهم نحن على ملّة أبينا إبراهيم ﴿ **شاكِراً لأَنْعُمِهِ** ﴾ جمع نعمة صفة ثالثة لأمة ، روي أنه كان لا يأكل الاَّ مع ضيف ﴿ **اجْتبٰهُ** ﴾ اختاره للنبوة ﴿ **وَهَداه إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ** ﴾ موصل إليه وهو ملة الإسلام المشتمل على التسليم ﴿ **وآتَيْنَاهُ في الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ أي حالة حسنة من الذكر الجميل ، والثناء العاطر عليه بين جميع الأمم ﴿ **وَإنّه في الآخِرةِ لَمِنَ الصّالِحينَ** ﴾ أصحاب الدرجات العالية في الجنة ، وهم الأنبياء عليهم السلام ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنا إليْكَ** ﴾ مع علو طبقتك وسمو رتبتك ﴿ **أَنِ اتّبعْ مِلّةَ إبْراهيمَ** ﴾ الملة اسم لما شرعه الله لعباده وهي الدين بعينه ، والمراد بملته الإسلام ﴿ **حَنيفاً** ﴾ حال من المضاف إليه أي مائلاً عن الأديان المحرفة إلى الدين الحق ﴿ **وما كانَ مِنَ المشْرِكين** ﴾ بل كان قدوة الموحدين ، وهو تكريرٌ لما سَبَق ، لزيادة تأكيد وتقرير نزاهته عما هم عليه من ضلال وعمل ﴿ **إنّما جُعِلَ السّبْتُ** ﴾ أي فرض تعظيم يوم السبت ، والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد فيه لأن اليهود يستريحون فيه من الأشغال الدنيوية ، وكان اليهود يدعون أن السبت من شعائر الإسلام ، وأن إبراهيم كان محافظاً عليه ، أي ليس السبت من شعائر إبراهيم وشعائر ملته التي أمرت يامحمد باتباعها حتى يكون بينه صلى الله عليه وسلم وبين بعض المشركين علاقة في الجملة ، وإنما شرع ذلك لبني إسرائيل بعد مدة طويلة ﴿ **عَلى الّذينَ اخْتَلَفُوا فيهِ** ﴾ منشأ الإختلاف أن موسى عليه السلام أمر اليهود أن يجعلوا في الأسبوع يوماً واحداً للعبادة ، وأن يكون ذلك يوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت ، إلا فئة قليلة منهم رضوا بالجمعة ، فأذن لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ، فأطاع أمر الله تعالى الرّاضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون ، وأما غيرهم فلم يصبروا عن الصيد ، فمسخهم الله قردة دون أولئك المطيعين ﴿ **وَإنّ رَبّكَ لَيَحْكُمُ بيْنَهُمْ** ﴾ أي بين الفريقين المختلفين فيه ﴿ **يَوْمَ القِيٰمةِ فيما كَانُوا فيهِ يخْتَلِفونَ** ﴾ أي يفصل ما بينهما من الاختلاف ، فيجازي الموافق بالثواب ، والمخالف بالعقاب وفي الحديث (نحن الآخرون السابقون بوم القيامة ، أوتينا من بعدهم ، يعني يوم الجمعة ، فهذا يومهم الذي فرض عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فَلَنا اليوم ، ولليهود غداً ، وللنصارى بعد غد)[1] .

فالواجب على العباد في العبادات والطاعات والمجاهدات الاتباع وترك الابتداع ، كما قال صلى الله عليه وسلم (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة)[2] وجاء رجل للشيخ أبي محمد عبد السلام فقال : ياسيدي وظِّفْ عليَّ

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وانظر جامع الأصول ٩ / ١٨٢ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، وهو جزء من حديث طويل .

وظائف وأوراداً ، فغضب الشيخ وقال : أرسول أنا فأوجب الواجبات ؟ الفرائض معلومة ، والمعاصي مشهورة ، فكن للفرائض حافظاً ، وللمعاصي رافضاً ، واحفظ قلبك من إرادة الدنيا ، واقنع من ذلك كله بما قسم لك ، فإذا خرج لك مخرج الرِّضَى ، فكن لله فيه شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابراً ﴿ **أُدْعُ** ﴾ الناس يا أفضل الرسل ﴿ **إلى سَبيلِ رَبِّكَ** ﴾ وهو الإسلام الموصل إلى الجنة والزلفى ﴿ **بالحِكمَةِ** ﴾ بالحجة القطعية المفيدة للعقائد الحقة ، المزيحة لشبهة من دعا إليها ﴿ **والْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ** ﴾ أي الدلائل الإقناعية ، يقال وعظه يعظه وعظاً وموعظة : ذكَّره ما يلين قلبه من الثواب والعقاب ﴿ **وَجادِلْهُمْ بالّتي هي أحْسَنُ** ﴾ أي ناظر معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المناظرة والمجادلة ، من الرفق واللين ، واختيار الوجه الأيسر ، واستعمال المقدمات المشهورة ، تسكيناً لشغبهم ، وإطفاء للهبهم كما فعله الخليل عليه السلام ، والآية دليل على أن المناظرة والمجادلة في العلم جائزة إذا قصد بها إظهار الحق ﴿ **إنّ رَبّكَ هُوَ أعْلَمُ بمنْ ضَلَّ عَنْ سَبيلِهِ** ﴾ أي أعرض عن قبول الحق بعدما عاين من الحِكَم والمواعظ والعبر ﴿ **وَهُوَ أعْلَمُ بالمهْتَدينَ** ﴾ بذلك أي ما عليك إلا ما ذكر من الدعوة والتبليغ ، والمجادلة بالأحسن ، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فلا عليكَ ، بل الله أعلم بالضالين والمهتدين ، فيجازي كلاً منهم بما يستحقه ، فكأنه قيل : إنَّ ربك أعلم بهم ، فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ، والنصيحة اليسيرة ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه في حديد بارد ﴿ **وَإنْ عَاقَبْتُمْ** ﴾ أي أردتم المعاقبة ، على طريقة قول الطبيب للمريض : إن أكلت فكل قليلاً ﴿ **فعَاقِبوا بمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بهِ** ﴾ أي بمثل ما فعل بكم ، وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة إطلاق اسم المسبب على السبب ، نحو « كما تَدِينُ تُدَانِ » .

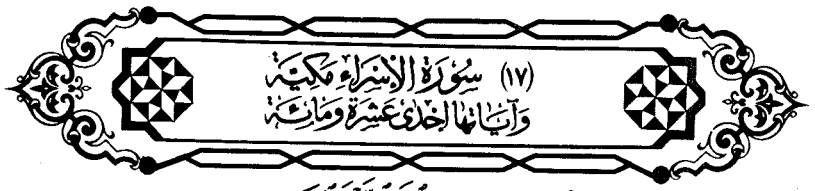
قال القرطبي أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وذلك أن المشركين مثَّلوا بالمسلمين يوم أحد ، بقروا بطونهم ، وجدعوا أنوفهم وآذانهم ، وقطعوا مذاكيرهم ، ما بقيَ أحد غير ممثَّلٍ به إلا حنظلة بن الراهب لأن أباه عامر الراهب كان مع أبي سفيان فتركوه لذلك ، ولما انصرف المشركون عن قتلى أحد إنصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُقَّ بطنه ، واصطلم أنفه ، وجدعت أذناه فقال ﷺ : (أما والله لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك) وقال المؤمنون إن أظهرنا الله عليهم لنزيدن على صنعهم ولنمثلن مُثْلةً لم يمثلها أحد من العرب، فنزلت الآية، وفي التبيان صلى النبي عليه السلام على عمه حمزة سبعين تكبيرة أو صلاة انتهى.

قال في أسباب النزول ما حاصله : إن حمزة رضي الله عنه قتله « وحشي الحبشي » وكان غلاماً لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش ألى أحد قال له جبير إن

قتلت حمزة عم محمد لعمي طعيمة فأنت عتيق ، فأخذ وحشي حربته فقذفه بها وكانت لا تخطىء فكان ما كان ثم أسلم وحشي وقال له صلى الله عليه وسلم (هل تستطيع أن تغيب عني وجهك) ؟ وذلك أنه عليه السلام كرهه لقتله حمزة ، فخرج فلما قبض رسولُ الله ﷺ وخرج الناس إلى مسيلمة الكذاب ، قال وحشي : لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافىء به حمزة ، فخرج مع الناس فوفقه الله لقتله ، فقال وحشي : قتلتُ في الجاهلية خير الناس - يعني حمزة - وقتلتُ في الإسلام شرَّ الناس - يعني مسيلمة - ثم إنّ القتلى لما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية ، فكفَّر عليه السلام عن يمينه وكفَّ عما أراده ، والأمرُ وإن دل على إباحة المماثلة في المثلة من غير تجاوز ، لكن في تقييده بقوله (**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ**) حثٌ على العفو تعريضاً ﴿ **وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ** ﴾ أي عن المعاقبة بالمثل وعفوتم ﴿ **لَهُوَ** ﴾ أي لصبركم هذا ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ أي العفو خير للعافين من الانتقام ﴿ **لِلصّابرينَ** ﴾ ثناء عليهم بالصبر ﴿ **واصْبِرْ** ﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذيَّة ، وعاينت من إعراضهم عن الحق بالكلية ، وصبره عليه السلام مستتبع لاقتداء الأمة ، كقول من قال لابن عباس رضي الله عنهما عند التعزية اصبر نكن بك صابرين ، فإنما صبر الرعية عند صبر الرأس ﴿ **وما صبْرُكَ إلاّ باللهِ** ﴾ بتوفيق الله وإعانته لك على الصبر ، قال جعفر الصادق : أمر الله أنبياءه بالصبر ، وجعل الحظ الأعلى منه للنبي ﷺ ، حيث جعل صبره بالله لا بنفسه وقال (**وما صبْرُكَ إلاّ باللهِ**) ﴿ **ولا تحْزَنْ عَليْهِمْ** ﴾ أي على الكافِرين بوقوع اليأس من إيمانهم نحو (**فَلا تأسَ عَلى القَوْمِ الكَافِرين**) ﴿ **ولاتَكُ** ﴾ أصله لا تكن حذفت النون تخفيفاً لكثرة استعماله ومعنى كثرة الاستعمال أنهم يعبرون بكان ويكون عن كل الأفعال ، فيقولون : كان زيد يجلس ، فإن وصلت بساكن رُدَّت النونُ وتحركت نحو (**وَمَنْ يَكُنْ الشَّيْطَانُ**) الآية ﴿ **في ضَيْقٍ** ﴾ أي لا تكن في ضيق صدر من مكرهم ، فهو من الكلام المقلوب الذي يسجع عليه عند أمن الالتباس لأن الضيق وصفٌ فهو يكون في الإنسان ، ولا يكون الإنسان فيه ، وفيه لطيفة أخرى وهي أن الضيق إذا عظم وقَوِيَ صار كالشيء المحيط به من جميع الجوانب ﴿ **ممّا يَمْكُرُوْنَ** ﴾ أي من مكرهم بك فيما يستقبل ﴿ **إنّ اللهَ مَعَ الّذينَ اتَّقَوْا** ﴾ اجتنبوا المعاصي ، ومعنى المعية الولاية والفضل ﴿ **والّذينَ هُمْ مُحْسِنونَ** ﴾ في أعمالهم ويقال مع الذين اتقوا مكافأة المسيء ، والذين هم محسنون إلى من يعادي إليهم ، فالإحسان على الوجه الأول بمعنى جعل الشيء جميلاً حسناً ، وعلى الثاني ضد الإساءة .

« انتهى بعونه تعالى تفسير سورة النحل »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **سُبْحانَ** ﴾ بمعنى التسبيح وهو التنزيه ، وانتصابه بفعل مضمر تقديره أسبح الله عن صفات المخلوقين تسبيحاً ، وكلمة سبحان للتعجب بها ، يشير إلى أعجب أمر من أموره تعالى جرى بينه وبين حبيبه ﷺ ﴿**الّذي أسْرىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ الإسراء: السير بالليل خاصة كالسُّرَى ، يقال أسرى وسرى أي سار ليلاً وإنما قال (بعبده) دون بنبيه لئلا يتوهم فيه أحد نبوَّة وألوهيَّة ، كما توهموا في عيسى بن مريم عليهما السلام بانسلاخه عن الأكوان وعروجه بجسمه إلى الملأ الأعلى منافياً للعادات البشرية وأطوارها ، وفيه إشارة إلى شرف مقام العبودية حتى قال الإمام في تفسيره : إن العبودية أفضل من الرسالة ، لأن بالعبودية ينصرف من الخلق إلى الحق ، وبالرسالة ينصرف من الحق إلى الخلق ، والعبودية أن يكل أموره إلى سيده فيكون هو المتكفل بإصلاح مهامه ، والرسالة التكفل بمهام الأمة ، وشتان ما بينهما ، والذي يدل على أنه عليه السلام عُرِج به بروحه وجسده معاً قوله (أسْرى بِعَبْدِهِ) فإن العبد اسم للروح والجسد جميعاً وأيضاً أن البراق الذي هو من جنس الدواب إنما يحمل الأجساد ، وأيضاً لو كان بالروح حال النوم أو الإنسلاخ ، لما استبعده المنكرون إذ البشر من جميع الملل يحصل لهم مثل ذلك .

﴿ **لَيْلاً** ﴾ نصب على الظرف لإفادة تقليل مدة الإسراء في جزء من الليل ، لما في التنكير من الدلالة على البعضية ، فإن قولك سرت ليلاً يفيد بعضية زمان سيرك ، بخلاف ما إذا قلت سرت الليل ، فإنه يفيد استيعاب السير له جميعاً ، وهي على المشهور ليلة سبع وعشرين من رجب ليلة الاثنين وعليه عمل الناس ، قالوا إنه عليه السلام ولد يوم الاثنين ، وبعث يوم الاثنين ، وأسري به ليلة الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، ومات يوم الاثنين ﴿ **مِنَ المسْجِدِ الحَرامِ** ﴾ أصح الروايات على أن الإسراء كان من بيت أم هانىء بنت أبي طالب ، وكان بيتها من الحرم ، والحرم كله مسجد ﴿ **إلى المسْجِدِ الأقْصىٰ** ﴾ أي بيت المقدس ، وسمي بالأقصى أي الأبعد لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ، فهو أبعد المساجد من مكة ، وكان بينهما أكثر من مسيرة شهر ﴿ **الّذي بارَكْنا حوْلَهُ** ﴾ ببركات الدين والدنيا ، لأنه مهبط الوحي والملائكة ، ومتعبد الأنبياء من لدن موسى عليه السلام ، ومحفوف بالأنهار والأشجار المثمرة ، فدمشق والأردنّ وفلسطين من المدائن التي حوله ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا** ﴾ غاية للإسراء ، وإشارة إلى أن الحكمة في الإسراء به ، إراءة آيات مخصوصة بذاته تعالى ، التي ما شرف برؤيتها أحداً من الأولين والآخرين ، إلا سيد المرسلين وخاتم النبيين ، فإنه تبارك وتعالى أرى خليله عليه السلام ـ وهو أعز الخلق عليه بعد حبيبه ـ الملكوت كما قال تعالى (**وَكَذَلِكَ نُرِى إبْرَاهِيمَ مَلَكُوْتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) وأرى حبيبه محمداً ﷺ آيات ربوبيَّته الكبرى كما قال (**لقدْ رأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ**

الكُبْرىٰ) فمن تبعيضيةٌ ، لأن ما أراه الله تعالى في تلك الليلة إنما هو بعض آياته العظمى ، وإضافة الآيات إلى نفسه على سبيل التعظيم لها ، لأن المضاف إلى العظيم عظيم ، قال المفسرون : هي ذهابه في بعض الليل مسيرة شهر ، ومشاهدته بيت المقدس ، وتمثل الأنبياء له ، ووقوفه على مقاماتهم العلية ونحوها ، وفي الآفاق ما ذكره من النجوم والسموات والمعارج العلى ، والرفرف الأدنى ، وصرير الأقلام ، وشهود الألواح ، وما غشّى الله سدرة المنتهى من الأنوار ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقواله ﷺ ﴿ البَصِيرُ ﴾ بأفعاله ، وفيه إيماء إلى أن الإسراء المذكور ليس إلا لتكرمته ورفع منزلته ، وإلا فالإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة إلى التقريب ، وفي معراجه صلى الله عليه وسلم كشف له عن حال من ترك الصلاة المفروضة في دار الجزاء ، فقد مرَّ على أقوام تُرضخ رءوسهم بالحجارة ، كلَّما رُضِختْ عادت كما كانت فقال : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين تتثاقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة أي المفروضة عليهم ، وكشف له عن حال من يترك الزكاة الواجبة عليه فأتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل والغنم ، ويأكلون الضريع وهو اليابس من الشوك والزقوم ، ويأكلون رضف جهنم أي حجارتها المحماة التي تكون بها قال : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم المفروضة عليهم ، وكشف له عن حال الزناة بضرب مثل فأتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدور ، ولحم نيء أيضاً في قدور خبيث ، فجعلوا يأكلون من ذلك النيء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال : ما هذا ياجبريل ؟ قال هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً ، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح ، وكشف له عن حال من يأكل الربا أي حالته التي يكون عليها في دار الجزاء ، فرأى رجلاً يسبح في نهر من دم يلقم الحجارة فقال : من هذا ؟ فقال آكل الربا ، وكشف له عن حال من يعظ ولا يتعظ فأتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت فقال : من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال هؤلاء خطباء الفتنة ، خطباء أمتك يقولون مالا يفعلون ، وكشف له عن حال المغتابين للناس فمر على قوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقال : من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم وكشف له عن حال من يتكلم بالفحش بضرب مثال فأتى على جُحْرٍ يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج فلا يستطيع فقال : ما هذا ياجبريل ؟ فقال هذا الرجل من أمتك يتكلم الكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها ، وكشف له عن حال من أحوال الجنة فأتى على واد فوجده طيباً بارداً ريحه ريح المسك وسمع صوتاً فقال : ياجبريل ما هذا ؟ قال هذا صوت الجنة تقول يارب آتني ما وعدتني ، وكشف له عن حال من أحوال النار فأتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً خبيثة فقال : ما هذا

ياجبريل ؟ قال صوت جهنم تقول يارب آتني ما وعدتني ، ومر عليه السلام على شخص متنحياً عن الطريق يقول هلم يامحمد ، قال جبريل سر يامحمد قال عليه السلام : من هذا ؟ قال عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه اهـ .

روي أنه لما دخل صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام وعرف أن الناس يكذبونه قعد حزيناً فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه عليه السلام ، فقال كالمستهزىء : هل كان من شيء ؟ قال نعم أسري بي الليلة ، قال إلى أين ؟ قال إلى بيت المقدس ، قال ثم أصبحت بين ظهر انينا ؟ قال : نعم ، قال أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني ؟ قال : نعم ، قال يامعشر كعب بن لؤي ، فانفضت إليه المجالس وجاؤا حتى جلسوا إليهما فقال حدثْ قومك بما حدثتني به فقال : إني أسري بي قالوا إلى أين ؟ قال إلى بيت المقدس فضجوا أي صاحت قريش وعظموا ذلك وصار بعضهم يصفِّق ، وبعضهم يضع يده على رأسه متعجباً ومنكراً ، فقالوا : نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً ، ومنحدراً شهراً ، أتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة ، وارتد ناس ممن كان آمن به ، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال إن كان قد قال ذلك فلقد صدق ، قالوا أتصدقه على ذلك ؟ قال إني أصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه في خبر السماء ، وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فقالوا يامحمد صف لنا بيت المقدس كم له من باب ؟ أرادوا بذلك إظهار كذبه عليه السلام ، لأنهم عرفوا أنه عليه السلام لم يره قال : (فكربتُ كرباً شديداً لم أكرب مثله قط ، لأنهم سألوني عن أشياء لم أثبتها وكنت دخلته ليلاً وخرجت منه ليلاً ، فقمت في الحجر فجلَّى الله لي بيت المقدس أي كشفه لي ورفع الحجاب بينه وبين بيت المقدس حتى رآه عليه السلام وهو في مكانه ، قال : فطفقتُ أي جعلت أخبرهم عن آياته أي علاماته وأنا أنظر إليه)[1] ﴿ **وَآتينا مُوسَى الكِتابَ** ﴾ أي التوراة جملة واحدة ﴿ **وَجَعَلْناهُ** ﴾ أي ذلك الكتاب ﴿ **هُدىً لبني إسرائيلَ** ﴾ هادياً لأولاد يعقوب ، يهتدون إلى الحق والصواب بما فيه من الأحكام والخطاب ﴿ **أَنْ لا تَتَّخِذوا** ﴾ « أن » مفسرة لما يتضمنه الكتاب من الأمر والنهي ، بمعنى أي كما في قوله كتبتُ إليه أن افعلْ كذا ﴿ **مِنْ دُوْني وَكِيلاً** ﴾ من دوني بمعنى غيري ﴿ **ذُرِّيةَ** ﴾ أي ياذرية ﴿ **مَنْ حملْنا مَعَ نُوحٍ** ﴾ في السفينة والمراد تأكيد الدعوة إلى التوحيد بتذكير إنعامه عليهم في ضمن إنجاء آبائهم من الغرق في سفينة نوح ، قال في الكواشي : هذا منه على جميع الناس لأنهم كلهم من ذرية من أنجى في السفينة من الغرق ، والمعنى كانوا مؤمنين فكونوا مثلهم واقتفوا بآثار آبائكم ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي إنَّ نوحاً عليه السلام ﴿ **كَانَ**

---

(١) هذه القصة « قصة نعت بيت المقدس » رويت في البخاري ومسلم والترمذي ولفظ البخاري (لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس ، قمتُ في الحجر فجلَّى الله لي بيت المقدس ..) الحديث وانظر جامع الأصول ١١ / ٣١٠ .

﴿ عبْداً شَكوراً ﴾ كثير الشكر في جميع حالاته ، وفيه إيذان بأن إنجاء من معه كان ببركة شكره عليه السلام ، وحث الذرية على الإقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفران ﴿ وَقَضيْنا إلى بني إسْرائيلَ ﴾ أي أعلمناهم وأوحينا إليهم ، وحياً جزماً وبيِّناً ﴿ في الكتاب ﴾ في التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ ﴾ والله لتفسدن في أرض الشام وبيت المقدس ﴿ مَرّتيْنِ ﴾ أي إفساداً بعد إفساد أولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعْيا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله ، والثانية قتل زكريا ويحيي ، وقصد قتل عيسى ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبيراً ﴾ ولتستكبرنَّ عن طاعة الله تعالى ، والعلوُّ : العتوُّ على الله والجراءة على شرعه ﴿ فَإذَا جَاءَ وَعْدُ أُوْلاَهُمَا ﴾ أي أولى كرتي إفسادكم أي حان وقت حلول العقاب الموعود ﴿ بَعَثْنَا عَليْكُمْ ﴾ لمؤاخذتكم بجناياتكم ﴿ عِباداً لَنا ﴾ أكثر ما يقال عباد الله ، وعبيد الناس ، والمراد من الإضافة بيان كونهم مظاهر الإسم « المذل ، المنتقم ، القهار » كما يفيده مقام العظمة ، لا التشريف ، فإن الكافر ليس من أهله ﴿ أُوْلي بأْسٍ شَديدٍ ﴾ أي ذوي قوة وبطشٍ في الحروب وهم بخت نصر من مجوس بابل ﴿ فَجاسُوا ﴾ من الجوس ، وهو التردد أي ترددوا لطلبكم بالفساد ﴿ خِلالَ الدِّيارِ ﴾ الخلل أي ما حوالَيْ جدرها وما بين بيوتها ، والمعنى : مشوا في وسط المنازل أو في أوساطها للقتل والأسر والغارة ، فقتلوا علماءهم وكبارهم ، وحرقوا التوراة ، وخربوا المسجد ، وسَبَوْا منهم سبعين ألفاً ، وذلك من قبيل تولية بعض الظالمين بعضاً ، مما جرت به السُنَّة الإلهية ﴿ وَكانَ ﴾ وعد عقابهم ﴿ وَعْداً مَفْعولاً ﴾ وعداً لابد أن يفعل ﴿ ثُمَّ رَدَدْنا ﴾ أعدنا ﴿ لَكُمُ الكَرَّةَ عَليْهِمْ ﴾ أي الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا ، بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم من الإفساد والعلو ، بعد ظفرهم بكم أظفرناكم بهم ، والكرة في الأصل المرة ﴿ وَأَمْدَدْناكُمْ بأَمْوالٍ ﴾ أي قويناكم بأموال كثيرة بعد ما نهبت أموالكم ﴿ وَبَنينَ ﴾ بعد ما سُبيتْ أولادكم ﴿ وَجعلْناكُمْ أكثَرَ نَفيراً ﴾ عدداً مما كنتم أو من عدوكم ﴿ إنْ أَحْسنتُمْ أَحْسنتُمْ لأنْفُسِكُمْ وإنْ أَسأْتُمْ فَلَها ﴾ أي إحسان الأعمال وإساءتها كلاهما مختص بكم ، لا يتعدى ثوابها ووبالها إلى غيركم ﴿ فَإذا جَاءَ وعْدُ الآخِرَةِ ﴾ أي حان وقت ما وعد من عقوبة المرة الآخرة من الإفساديْنِ ﴿ لِيَسوءُوا وجُوْهَكُمْ ﴾ يقال ساءه مساءة فعل به ما يكره ، أي بعثناهم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية في وجوهكم ، وخصت الوجوه بالمساءة والمراد أهلها لأن أول ما يظهر من الحزن عليها ﴿ وَلِيدْخُلوا المسْجِدَ ﴾ الأقصى ويخربوه ﴿ كَما دَخَلُوهُ أَوّلَ مَرَّةٍ ﴾ وخربوه ﴿ وَلِيُتَبِّروا ﴾ أي ليهلكوا ﴿ ما عَلَوْا ﴾ كل شيء غلبوه واستولوا عليه أو بمعنى مدة علوهم ﴿ تتْبيراً ﴾ إهلاكاً فظيعاً لا يوصف ، والمراد بهم طرطوس الرومي وجنوده ﴿ عَسىَ رَبُّكُمْ أَنْ يرْحَمَكُمْ ﴾ أي بعد المرة الثانية إنْ تبتم توبة أخرى ، وانزجرتم عن المعاصي ، فتابوا فرحمهم ﴿ وَإنْ عُدْتُمْ ﴾ مرة ثالثة إلى المعاصي ، قال بعضهم : مرة ثانية إذ العود مرتان ، والأول بدءٌ لا عود

﴿ **عُدْنا** ﴾ إلى عقوبتكم ، ولقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة ، بأن سلط عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الأتاوة ونحو ذلك ، أو عادوا بتكذيب محمد ﷺ وقصد قتله فعاد الله بتسليطه عليهم فقتل قريظة وأجلى بني النضير ، وأوجب الجزية على الباقين فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، وهم في عذاب من المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿ **وَجعلْنا جَهَنّمَ للكافِرينَ حَصِيراً** ﴾ أي محبساً ومقراً يحصرون فيه لا يستطيعون الخروج منها أبد الآباد ، فهو فعيل بمعنى فاعل أي حاصرةٌ لهم ومحيطةٌ بهم ، وعن الحسن حصيراً أي بساطاً كما يبسط الحصير المنسوج ، وإنما سمي الحصير لأنه حصرت طاقاته بعضها فوق بعض ﴿ **إنّ هَذا القُرْآنَ** ﴾ الذي آتيناك يامحمد ﴿ **يَهْدي** ﴾ الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم ﴿ **للّتي** ﴾ للطريقة التي ﴿ **هي أقْوَمُ** ﴾ أي أقوم الطرائق ، وأسدها وأصوبها ، أعني ملة الإسلام والتوحيد ﴿ **وَيُبَشِّرُ المؤمِنينَ** ﴾ بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع ﴿ **الّذينَ يَعْملونَ الصّالحاتِ** ﴾ التي شرحت فيه ﴿ **أنَّ لَهُمْ** ﴾ أي بأنّ لهم بمقابلة تلك الأعمال ﴿ **أجْراً كبيراً** ﴾ بحسب الذات ، وبحسب التضعيف عشر مرات فضاعداً ، وذلك لأنه يستصغر عند الجنة ونعيمها الدنيا وما فيها ﴿ **وأنّ الّذينَ لا يُؤْمِنونَ بالآخِرَةِ** ﴾ وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء ﴿ **أعْتدْنا لَهُمْ** ﴾ أي فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة ﴿ **عَذاباً أليماً** ﴾ وهو عذاب جهنم .

* واعلم أن القرآن مظهر الاسم الهادي ، وهو كتاب الله الصامت ، والنبي عليه السلام كتاب الله الناطق ، وأن الدلالة والإرشاد إنما تنفع المؤمنين العاملين بما فيه ، وهو لم يترك شيئاً من أمور الدين والدنيا إلا وتكفل بيانه ، إما إجمالاً أو تفصيلاً ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا أردتم العلم فآثروا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين ، حكي أنه تفكر بعض العارفين في أنه هل في القرآن شيء يقوي قوله عليه السلام (يخرج روح المؤمن من جسده كما يخرج الشعر من العجين) فختم القرآن بالتدبر فما وجده ، فرأى النبي ﷺ في منامه وقال يارسول الله قال الله تعالى (**ولا رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ إلاّ في كِتَابٍ مُبِينٍ**) فما وجدت معنى هذا الحديث في كتاب الله تعالى ، فقال عليه الصلاة والسلام : اطلبه في سورة يوسف ، فلما انتبه من نومه قرأها فوجده وهو قوله (**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرنَهُ وقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**) أي لما رأين جمال يوسف عليه السلام ، اشتغلن به وما وجدن ألم القطع ، وكذلك المؤمن إذا رأى ملائكة الرحمة ورأى إنعامه في الجنة ، وما فيها من النعيم والحور والقصور ، اشتغل قلبه بها ولا يجد ألم الموت ، ويُفهم من الحكاية أن القارىء ينبغي أن يقرأ القرآن بتدبُّرٍ تام ، حتى يصل إلى كل مرام ، وقد نهى النبي عليه السلام أن يختم القرآن في أقل من ثلاث وقال (لم يفقه) أي لم يكن فقيهاً في الدين (من قرأ

القرآن في أقلَّ من ثلاث)[1] يعني لا يقدر الرجل أن يتفكر ويتدبر في معنى القرآن في ليلة أو ليلتين ، لأنه يقرأ على العجلة حينئذ ، بل ينبغي أن يقرأ القرآن في ثلاث ليال أو أكثر حتى يقرأ عن طيب نفس ونشاطها ، ويتفرغ لتدبر معناه ، ولذا اختار بعضهم الختم في كل جمعة ، وبعضهم في كل شهر ، وبعضهم في كل سنة بحسب درجات التدبر والتفتيش ، ويغتنم الحضور للدعاء عند ختم القرآن فإنه يستجاب ، وكان الإمام الشاطبيُّ رحمه الله : يدعو بهذا الدعاء عند ختم القرآن « اللهم إنا عبيدك ، وأبناء عبيدك ، وأبناء إمائك ، ماضٍ فينا حكمك ، عدلٌ فينا قضاؤك ، نسألك اللهم بكل اسم هُوَلَكَ ، سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في شيء من كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وشفاء صدورنا ، وجلاء أحزاننا وهمومنا ، وسائقنا وقائدنا إليك ، وإلى جناتك جنات النعيم ، ودارك دار السلام ، مع الذين أنعمت عليهم « من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » برحمتك ياأرحم الراحمين » . قال في القنية : لابأس باجتماعهم على قراءة الإخلاص جهراً عند ختم القرآن ، ولو قرأ واحد واستمع الباقون فهو أولى انتهى ﴿ **وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ** ﴾ أي يدعو اللهَ عند غضبه بالشر واللعن ، والهلاك على نفسه وأهله وخدمه وماله ، والمراد بالإنسان الجنس ﴿ **دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ** ﴾ مثل دعائه لهم بالخير والرزق ، والعافية والرحمة ، ويستجاب له ، فلو استجيب إذا دعا باللَّعن كما يجاب له بالخير لهلك ، أو يدعوه بما يحسبه خيراً وهو شر في نفسه ، فينبغي أن يدعو بما هو خير عند الله تعالى لا بما يشتهيه ﴿ **وَكَانَ الإِنْسَانُ** ﴾ بحسب جِبلَّته ﴿ **عَجُولاً** ﴾ يسارع إلى طلب ما يخظر بباله ، ولا ينظر عاقبته ، ولا يتأنى إلى أن يزول عنه ما يعتريه ، واعلم أن الدعاء إما بلسان الحقيقة وإما باعتبار السيئة المفضية إلى الشر الموجبة له ، فالإنسان عجول قولاً وفعلاً ، يتمادى في الأعمال الموجبة للشر والعذاب .

* قيل : العجلة من الشيطان إلا في ستة مواضع : أداءُ الصلاة إذا دخل الوقت ، ودفنُ الميت إذا حضر ، وتزويجُ البكر إذا أدركت ، وقضاءُ الدين إذا وجب ، وإطعامُ الضيف إذا نزل ، وتعجيل التوبة إذا أذنب ، ثم شرع في بيان بعض الهداية التكوينية التي أخبر بها القرآن الهادي فقال : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ قدم الليل لأن فيه تظهر غرر الشهور ، أي جعلناهما بسبب تعاقبهما واختلافهما في الطول والقصر ﴿ **آيَتَيْنِ** ﴾ دالتين على وجود الصانع القدير ووحدته ، إذ لابد لكل متغيّر من مغيّر ﴿ **فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ** ﴾ الفاء تفسيرية والإضافة بيانية أي فمحونا الآية التي هي الليل ، والمحو في الأصل : إزالة الشيء الثابت ، والمراد هنا إبداعها ممحوة الضوء مطموسة ﴿ **وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ** ﴾ أي

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٧٢ .

الآية التي هي النهار ﴿ **مُبْصِرَةً** ﴾ مضيئة تُبْصَر فيها الأشياء ، وصفها بحال أهلها ويجوز أن تكون الإضافة في المحلين حقيقية ، فالمراد بآية الليل والنهار : القمر والشمس ﴿ **لِتَبْتَغُوا** ﴾ متعلق بقوله (وجعلنا آية النهار) أي لتطلبوا لأنفسكم في بياض النهار ﴿ **فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ أي رزقاً وسماه فضلاً لأن إعطاء الرزق لا يجب على الله ، وإنما يفيضه بحكم الربوبية ﴿ **وَلِتَعْلَمُوْا** ﴾ أي لتعلموا باختلاف الجديدين ﴿ **عَدَدَ السِّنِينَ** ﴾ لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿ **والحِسَابَ** ﴾ أي الأشهر والليالي ، والأيام وغير ذلك ، مما نيط به شيء من المصالح المذكورة ، ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ، ولتعطلت أمور كثيرة ، فالسنة تتحصل بعدة شهور ، والشهر بعدة أيام ، واليوم بعدة ساعات ، والسنين جمع سنة ، وهي شمسية ، وقمرية ، فالسنة الشمسية مدة وصول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من ذلك البرج ، وذلك ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، والسنة القمرية اثنا عشر شهراً قمرياً ، ومدتها ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثلث يوم .

﴿ **وَكُلَّ شَيءٍ** ﴾ تفتقرون إليه في المعاش والمعاد ، ﴿ **فَصَّلْنَاهُ تَفْصيلاً** ﴾ أي بيناه في القرآن بياناً بليغاً لا التباس معه ، فأزحنا عللكم ، وما تركنا لكم حجة علينا ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يكرهون أن يمضي يوم ولم ينظروا في مصحف ، لأن النظر إليه عبادة ، وفيه أيضاً وقوف على المرام ، فإن التدبر يؤدي إلى ظهور خفايا الكلام ، حكي عن الإمام الشافعي أنه كان لا ينام إلاَّ سويعاتٍ ، ويقضي بقية الليل مضطجعاً يفكر في القرآن ، ويستنبط منه الأحكام ، قال الإمام أحمد رضي الله عنه : بتُّ عنده ليلة فصليت إلى الصبح ، واضطجع هو إلى الصبح ، فاستنكرت ذلك منه ، فقام وصلى ركعتي الفجر فقلت له في ذلك فقال : أظننت أني نمت كلا ، استخرجت من كتاب الله نيفاً ومائة مسألة ، فأنت عملت لنفسك ، وأنا عملتُ للأمة ﴿ **وَكُلَّ إِنْسانٍ** ﴾ مكلف مؤمناً كان أو كافراً ، ذكراً أو أنثى ، عالماً أو أمياً ، سلطاناً أو رعية ﴿ **أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ** ﴾ أي عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له ، كأنه طار إليه من عشّ الغيب ، ووكر القدر ﴿ **فِي عُنُقِهِ** ﴾ تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط أي ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبداً ، بل يلزمه لزوم القلادة والغل للعنق ، لا ينفك عنه بحال ، ﴿ **وَنُخْرِجُ لَهُ** ﴾ أي لكل إنسان ﴿ **يَوْمَ الْقِيٰمَةِ** ﴾ أي يوم البعث للحساب ﴿ **كِتَاباً** ﴾ أي كتاباً مسطوراً فيه عمله ، لا يغيب منه شَيْء ﴿ **يَلْقَاهُ** ﴾ أي يجده ويراه ﴿ **مَنْشُوراً** ﴾ مفتوحاً بعدما كان مطوياً ، قال الحسن : بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان ، فهما عن يمينك وعن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيّآتك ، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك ، وجعلت معك في قبرك ، حتى تخرج لك يوم القيامة ﴿ **اقْرأْ كِتابَكَ** ﴾ على إرادة القول أي يقال إقرأ كتابك ، عن قتادة : يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً ﴿ **كَفى بِنَفْسِكَ اليوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً** ﴾ أي

كفى نفسك ، والباء زائدة لأنه بمعنى الحاسب ، وتذكيره مبني على تأويل النفس بالشخص ، وفوض تعالى حساب العبد إليه ، لئلا ينسب إلى الظلم ، ولتجب الحجة عليه باعترافه ، قال الحسن : أنصف من أنصفك ، أنصف من جعلك حسيب نفسك ﴿ **مَنِ اهْتدىٰ** ﴾ أي بهداية القرآن وعمل بما في تضاعيفه من الأحكام ، وانتهى عما نهاه ﴿ **فَإِنَّما يَهْتَدي لِنَفْسِهِ** ﴾ فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه ، لا تتخطاه إلى غيره ﴿ **ومنْ ضَلَّ** ﴾ عن الطريقة التي يهديه إليها ﴿ **فإنَّما يَضِلُّ عَلَيْها** ﴾ فإنما وبال إضلاله عليها لا على من عداه ، قال البيضاوي : لا يُنْجي اهتداؤه غيره ، ولا يُرْدي ضلالُه سواه ﴿ **ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ** ﴾ الوِزر بالكسر : الإثم والثقل والحمل ، أي لا تحمل نفس حاملة للإثم وزر نفس أخرى ، بل إنما تحمل كل منهما وزرها ، فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، وهذا تحقيق لمعنى قوله تعالى (**وَكُلَّ إنْسانٍ أَلْزَمْناهُ طَائِرَهُ في عُنُقِهِ**) وأما ما يدل عليه قوله تعالى (**منْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها ومنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سيِّئَةً يَكنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها**) وقوله تعالى (**لِيَحْمِلوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يوْمَ القِيٰمَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ**) من حمل الغير وزر الغير ، وانتفاعه بحسنته ، وتضرره بسيئته ، فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته ، فإن جزاء الحسنة والسيئة يصل إلى من يشفع جزاء شفاعته ، لاجزاء أصل الحسنة والسيئة ، وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين ، وما يحمله المضلون إنما هو جزاء الإضلال لاجزاء الضلال ، وذكر تعالىٰ ذلك قطعاً للأطماع الفارغة ، حيث كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق ، فالتبعة على أسلافهم الذين قلّدوهم ﴿ **وما كُنّا مُعَذِّبِينَ** ﴾ أي وما صح وما استقام منا أن نعذب أحداً من أهل الضلال والأوزار ، اكتفاء بقضية العقل ﴿ **حَتَّى نبْعَث** ﴾ إليهم ﴿ **رَسُولاً** ﴾ يهديهم إلى الحق ، ويردعهم عن الضلال ، ويقيم الحجج ، ويمهد الشرائع ، قطعاً وإلزاماً للحجة ، وفيه دلالة على أن البعثة واجبة ، لا بمعنى الوجوب على الله ، بل بمعنى أن قضية الحكمة تقتضي ذلك ، لما فيه من المصالح والحكم ، والمراد بالعذاب المنفي هو العذاب الدنيوي ، وهو من مقدمات العذاب الأخروي ، فجوزوا على الكفر والمعاندة بالعذاب في الدارين ، وما بينهما وهو البرزخ ﴿ **وَإذا أردْنا أنْ نُهْلِكَ قَرْيةً** ﴾ أي وإذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك قرية بأن نعذب أهلها ﴿ **أَمَرْنَا** ﴾ بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إلى أهلها[1] ﴿ **مُتْرَفيها** ﴾ متنعميها وكبارها وملوكها ، والمترف من أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿ **فَفَسَقُوا فِيها** ﴾ أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا في تلك القرية ﴿ **فَحقَّ عَلَيْها القَوْلُ** ﴾ أي ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب ، إثر ما ظهر

---

(١) هذا هو الصحيح في معنى الآية الكريمة ﴿ **أَمَرْنَا مُتْرَفيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا** ﴾ أي أمرناهم بطاعة الله والاستمساك بشرعه المبين ، فعصوا وفسقوا فيها ، وليس المعنى أمرناهم بالفسق كما يظنُّ بعض من لم يتمكن من فهم القرآن ، فإن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، فتدبره فإنه دقيق .

فسقهم وطغيانهم ﴿ فَدَمَّرْنَاها ﴾ بتدمير أهلها وتخريب ديارها ، والتدمير الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء ﴿ تَدْمِيراً ﴾ فظيعاً شنيعاً ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنَ القُرونِ ﴾ أي وكثيراً من القرون أهلكنا ، والقرنُ مدة من الزمان ، والأصح أنه مائة سنة ، والقرنُ : كل أمة هلكت فلم يبق منها أحد ، وكل أهل عصر قرن لمن بعدهم لأنهم يتقدمونهم ﴿ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ من بعد زمنه ، كعاد وثمود ومن بعدهم ، ولم يقل من بعد آدم لأن نوحاً أول نبي بالغ قومه في تكذيبه ، وقومه أول من حلت بهم العقوبة العظمى ، وهو الاستئصال بالطوفان ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ ﴾ أي كفى ربك ﴿ بِذُنوبِ عِبادِهِ خَبيراً بَصيراً ﴾ يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها ، وفي الآية تهديد لهذه الأمة لاسيما مشركي مكة ، لكي يطيعوا الله ورسوله ولا يعصوه ، فيصيبهم مثل ما أصابهم ، حكي أنه خرج أسد وذئب وثعلب يتصيدون ، فاصطادوا حمار وحش وغزالاً وأرنباً ، فقال الأسد للذئب اقسم ، فقال : حمار الوحش للملك ، والغزال لي ، والأرنب للثعلب ، قال فرفع الأسد يده وضرب رأس الذئب ضربة ، فإذا هو منجدل بين يدي الأسد ، ثم قال للثعلب اقسم هذه بيننا ، فقال : الحمار يتغذى به الملك ، والغزال يتعشى به ، والأرنب بين ذلك ، فقال الأسد : ويحك ما أقضاك !! منْ علَّمك هذا القضاء ؟ فقال الحكم الذي نزل برأس الذئب ، ولذلك قيل : العاقلُ من وُعِظَ بغيره ﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ ﴾ بأعماله ﴿ العَاجِلَةَ ﴾ الدار الدنيا فقط أي ما فيها من فنون مطالبها ، وهم الكفرة والفسقة وأهل الرياء والنفاق ﴿ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ﴾ أي في تلك العاجلة ﴿ ما نَشاءُ ﴾ تعجيله له من نعيمها لا كل ما يريد ، فإن الحكمة لا تقتضي وصول كل واحد إلى جميع ما يهواه ﴿ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ تعجيل ما نشاء له ﴿ ثُمَّ جعلْنا لَهُ ﴾ مكان ما عجلنا له ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ وما فيها من أصناف العذاب ﴿ يَصْلَاها ﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُوماً ﴾ ملوماً لأن الذم اللَّوم ، وهو خلاف المدح والحمد ﴿ مَدْحُوراً ﴾ مطروداً عن رحمة الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَرادَ ﴾ بالأعمال ﴿ الآخِرَةَ ﴾ الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ وَسعىٰ لَها سَعْيَها ﴾ أي السعي اللائق بها وهو الإتيان بما أمر ، والإنتهاء عما نُهي ، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ أي والحال أنه مؤمن إيماناً صحيحاً لا شرك معه ولا تكذيب فإنه العمدة ﴿ فَأُولئِكَ ﴾ الجامعون الشرائط الثلاثة من إرادة الآخرة ، والسعي الجميل لها ، والإيمان ﴿ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾ مقبولاً عند الله تعالى بحسن القبول ، مثاباً عليه ، ﴿ كُلاًّ ﴾ أي كل واحد من مريدي الدنيا ومريدي الآخرة ﴿ نُمِدُّ ﴾ أي نَزيده ونُعطيه مرة أخرىٰ وهو ما عجل لأحدهما من العطايا العاجلة ، وما أعد للآخر من العطايا الآجلة ﴿ هٰؤُلاءِ وَهٰؤُلاءِ ﴾ أي نمد هؤلاء المعجل لهم ، وهؤلاء المشكور سعيُهم ﴿ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ ﴾ أي من معطاه الواسع الذي لا تناهي له ، لأن العطاء اسم ما يعطى ﴿ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ ﴾ أي دنيوياً وأخروياً ﴿ مَحْظُوراً ﴾ ممنوعاً عمن يريده من البَرِّ والفاجر ، بل هو فائض على البَرِّ في الدنيا

والآخرة ، وعلى الفاجر في الدنيا فقط ، وإن وجد منه ما يقتضي الحظر وهو الفجور والكفر ﴿ **انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ أي أنظر يا محمد بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعض الآدميين على بعض ، فيما أمددناهم من العطايا الدنيوية ، فمن وضيع ورفيع ، ومالك ومملوك ، وموسر وصعلوك ، تعرف بذلك مراتب العطايا الأخروية ، ودرجات تفاضل أهلها ﴿ **وَلَلآخِرَةُ** ﴾ أي هي وما فيها ﴿ **أَكْبَرُ** ﴾ في الدنيا ﴿ **دَرَجَاتٍ** ﴾ جمع درجة بمعنى المرتبة والطبقة ﴿ **وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ وذلك لأن التفاوت في الآخرة بالجنة ودرجاتها العالية ، لأن ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فعلى العاقل تحصيل الدرجات الأخروية الباقية ، وفي الأثر (أكثر أهل الجنة البُلْه ، وعلّيون لذوي الألباب) أراد بذوي الألباب العلماء ، ألا يرى إلى قوله عليه السلام (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)[1] وفي رواية (كفضل القمر على سائر الكواكب) وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى (**والَّذين أُوتوا العِلْمَ دَرَجاتٍ**) يرفع العالم فوق المؤمن بسبعمائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فبهذه الشواهد يتضح أن تفاوت درجات أهل الجنة ، بحسب تفاوت معارفهم الإلهية ، وعلومهم الحقيقية ، روي أن عدة من الناس اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه ، فخرج الإذن لبلال وصهيب ، فشقّ على أبي سفيان ، فقال لسهيل بن عمرو : إنما أُتينا من قِبَلنا ، فإنهم دُعوا إلى الإسلام ودُعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت في الآخرة ؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر ، فما أعدَّ الله لهم في الجنة أكثر ﴿ **لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ** ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد أمته ، فإن بعضهم قالوا : الأصل في الأوامر هو عليه السلام ، وفي النواهي أمته ﴿ **فَتَقْعُدَ** ﴾ القعود بمعنى الصيرورة أي فتمكث في الناس ، كما تقول لمن سأل عن حال شخص : قاعد في أسوأ حال ، ومعناه ماكث سواء كان قائماً أو جالساً ﴿ **مَذْمُوماً مَخْذُوْلاً** ﴾ جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين ، والخذلان من الله تعالى ، فإن الشريك عاجز عن النصرة ، ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ** ﴾ أي أمر كل مكلَّف أمراً مقطوعاً به ، فضمَّن « قضى » معنى أمر ﴿ **أَنْ لا تَعْبُدوا** ﴾ أي بأن لا تعبدوا ﴿ **إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ لأن العبادة غاية التعظيم ، فلا تحق إلا لمن له غاية العظمة ، ونهاية الإنعام ﴿ **وبالوَالِدَيْنِ إِحْساناً** ﴾ أي بأن تحسنوا بهما إحساناً ، لأنهما السبب الظاهري للوجود والتعيش ، والله تعالى هو السبب الحقيقي ، فأخبر بتعظيم السبب الحقيقي ، ثم أتبعه بتعظيم السبب الظاهري ، يعني أن الله تعالى قرن إحسان الوالدين بتوحيده ، لمناسبتها لحضرة الألوهية والربوبية في سببيَّتها لوجودك ، وتربيتها إياك عاجزاً صغيراً ﴿ **إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا** ﴾ إما مركبة من إن الشرطية ، وما المزيدة ، لتأكيدها ، ولذلك

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في العلم رقم / ٢٦٨٦ / وقال : حسن غريب صحيح ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٢٢٧ .

حلَّ الفعلَ نون التأكيد ، ومعنى عندك في كنفك وكفالتك ﴿ **فلا تَقُلْ لَهُما** ﴾ أي لواحد منهما حالتي الإنفراد والإجتماع ﴿ **أُفٍّ** ﴾ هو صوت يدل على تضجر ، واسم للفعل الذي هو الضجر والمعنى لا تتضجر بما تستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما ﴿ **ولاَتَنْهَرْهُما** ﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظٍ إذا كرهت منهما شيئاً ﴿ **وَقُلْ لَهُما** ﴾ بدل التأفيف ﴿ **قَوْلاً كَرِيماً** ﴾ ذا كرم ، وهو القول الجميل الذي يقتضيه حسن الأدب ، ويستدعيه النزول على المروءة ، مثل أن تقول ياأبتاه ويا أماه ، كدأب إبراهيم عليه السلام إذ قال لأبيه ياأبت ، مع ما به من الكفر ، ولا يدعوهما بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب ، ولا يرفع صوته فوق صوتهما ، ولا يجهر لهما بل يكلمهما بالهمس والخضوع ، إلا لضرورة الإفهام ، ولا ينظر إليهما بالغضب ﴿ **واخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ** ﴾ أي تواضع لهما وليِّن جانبك ، وذلك أن الطائر إذا قصد أن ينحط خفض جناحه وكسره ، وإذا قصد أن يطير رفعه ، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كن مع الوالدين كالعبد المذنب الضعيف ، للسيد الفظّ الغليظ ﴿ **مِنَ الرَّحْمةِ** ﴾ أي من فرط رحمتك عليهما لافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما ، قالوا : ينظر إليهما بنظر المحبة والشفقة والترحم ويباشر خدمتهما بيده ، ولا يفوضها إلى غيره ، لأنه ليس بعارٍ للرجل أن يخدم معلمه وأبويه وسلطانه وضيفه ، ولا يؤمه للصلاة وإن كان أفقه منه أي أعلم بالفقه من الأب ، ولا يمشي أمامهما إلا أن يكون لإماطة الأذى عن الطريق ، ولا يتصدر عليهما في المجلس ، ولا يسبق عليهما في شيء أي في الأكل والشرب والجلوس والكلام وغير ذلك ﴿ **وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا** ﴾ وادع الله أن يرحمهما برحمته الباقية ، وإن كانا كافرين ، لأن من الرحمة أن يهديها إلى الإسلام ، قال ابن عباس : مازال إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدوٌّ للهِ تبرأ منه ، يعني ترك الدعاء ولم يستغفر له بعدما مات على الكفر ، سئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال كل ذلك واصلٌ إليه ، ولا شيء أنفع له من الاستغفار ، ولو كان شيء أفضل منه لأمرت به في الأبوين ﴿ **كَما رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾ أي رحمة مثل رحمتهما عليَّ وتربيتهما وإرشادهما لي في حال صغري ، وفاء بوعدك للراحمين ، روي أن رجلاً قال لعمر إن أبويَّ بلغا من الكبر ، أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر ، فهل قضيتهما حقهما ؟ قال : لا ، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما ﴿ **رَبُّكُمْ أعلمُ بما في نفُوسِكُمْ** ﴾ بما في ضمائركم من قصد البر والتقوى ، وكأنه تهديد على أن يضمر لهما كراهة واستثقالاً ﴿ **إنْ تَكونُوا صَالِحِينَ** ﴾ قاصدين الصلاح والبر دون العقوق والفساد ﴿ **فإنّه** ﴾ تعالى ﴿ **كانَ لِلأوّابِينَ** ﴾ أي الراجعين إليه تعالى مهما فرط منهم ، مما لا يكاد يخلو عنه البشر

---

(١) أي أغسل عنها الحدث والقذر .

﴿ غَفُوراً ﴾ لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية ، قال الإمام الغزالي رحمه الله : أكثر العلماء على أن طاعة الوالدين واجبة في الشبهات ، ولم تجب في الحرام المحض لأن ترك الشبهة ورع ، ورضى الوالدين حتم أي واجب ، قيل إذا تعذر مراعاة حق الوالدين جميعاً بأن يتأذى أحدهما بمراعاة الآخر ، يرجح حق الأب فيما يرجع إلى التعظيم والاحترام ، لأن النسب منه ، ويرجح حق الأم فيما يرجع إلى الخدمة والإنعام ، حتى لو دخلا عليه يقوم للأب ، ولو سألا منه شيأ يبدأ في الإعطاء بالأم كما في منبع الآداب ، قال الفقهاء : تُقدَّم الأم على الأب في النفقة إذا لم يكن عند الولد إلا كفاية أحدهما لكثرة تعبها عليه ، وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاق في حمله ، ثم وضعه ثم إرضاعه ثم تربيته وخدمته ، ومعالجة أوساخه وتمريضه وغير ذلك .

وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه ، وأنه يأخذ ماله فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوي ، وفقيراً وأنا غني ، فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي ، واليوم أنا ضعيف وهو قوي ، وأنا فقير وهو غني ، ويبخل عليَّ بماله ، فبكى عليه السلام وقال : (ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك)[1] وفي الحديث (رغم أنفه ، فقيل من يارسول الله ؟ قال : من أدرك والدَيْهِ عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة)[2] يعني بسبب عقوقهما وعدم الإحسان إليهما ﴿ وآتِ ﴾ يأفضل الخلقِ ، ويدخل فيه كل واحد من أمته ﴿ ذا القُربىٰ ﴾ أي القرابة وهم المحارم مطلقا ﴿ حَقَّهُ ﴾ وهي النفقة أي إذا كانوا فقراء ، واعلم أنه لا يجب على الفقير إلا نفقة أولاده الصغار الفقراء ، ونفقة زوجته غنية أو فقيرة ، مسلمة أو كافرة ، وأما الغني فيجب عليه نفقة الأبوين ومن في حكمهما من الأجداد والجدات ، إذا كانوا فقراء ، سواء كانوا مسلمين أو كافرين .

ويجب نفقة كل ذي رحم محرم مما سوى الوالدين إن كان فقيراً صغيراً أو أنثى ، أو زمناً أو أعمى ، فإن كان قادراً على العمل لا يجب اتفاقاً ﴿ والمسْكينَ وابنَ السّبيلِ ﴾ أي وآتِها حقهما ، والمسكينُ : من لا شيء له ، وابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن ماله ﴿ ولا تُبَذِّرْ تَبْذيراً ﴾ بصرف المال إلى من لا يستحقه ، فإن التبذير تفريق المال في غير موضعه ، وأما الإسراف الذي هو تجاوز الحد في صرفه فقد نهى عنه بقوله (وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ) ﴿ إنَّ المبَذِّرينَ كَانُوا إخْوانَ الشّياطينِ ﴾ أي أعوانهم في إهلاك أنفسهم ﴿ وكانَ الشّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفوراً ﴾ مبالغاً في الكفر به ، لا يشكر نعمه بامتثال أوامره ونواهيه ، وكانت قريش ينحرون الإبل ويبذرون أموالهم في السمعة ، وسائر مَالاَ خير فيه من المناهي

(١) الحديث أخرج بعضه ابن ماجه بلفظ (أنت ومالُكَ لأبيكَ) والطبراني ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٧٧ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في الأدب رقم / ٢٥٥١ / والترمذي في الدعوات / ٣٥٣٩ / وانظر جامع الأصول ١ / ٤٠٠ .

والملاهي ﴿ **وَإِمّا تُعْرِضَنَّ عنْهُمُ** ﴾ أي إن اعتراك أمر اضطرك إلى أن تعرض عن أولئك المستحقين من ذوي القربى وغيرهم ﴿ **ابْتِغاءَ رحْمةٍ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ أي لفقد رزق من ربك ﴿ **تَرْجُوها** ﴾ من الله تعالى لتعطيهم ، وكان عليه السلام إذا سئل شيئاً وليس عنده سكت حياءً ، فأمر بالقول الجميل لئلا يعتريهم الوحشة بسكوته فقيل ﴿ **فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوْراً** ﴾ سهلاً ليناً ، وعدهم بوعد فيه يسرٌ وراحة لهم ، وقيل : القول الميسور الدعاء لهم باليسر ، أي قل لهم أغناكم الله من فضله ، رزقنا الله وإياكم ، روي أن عيسى عليه السلام قال من رد سائلاً خائباً عن بابه لم تعبر الملائكة بيته سبعة أيام ، ومن مات فقيراً راضياً من الله بفقره لا يدخل الجنة أحد أغنى منه كذا في الخالصة ﴿ **وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عَنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ** ﴾ هما تمثيلان لمنع الشحيح وإعطاء المسرف ، زجراً لهما عنهما وحملاً على ما بينهما من الاقتصاد للذي هو بين التقتير والإسراف ، وهو الكرم ، والمعنى ولا تمسك يدك عن النفقة في الحق كل الإمساك بحيث لا تقدر على مدها ، كمن يده مغلولة إلى عنقه فلا يقدر على إعطاء شيء فيها ﴿ **فَتَقْعُدَ** ﴾ أي فتصير ﴿ **مَلُوْمَاً** ﴾ عند الله وعند الناس في الدارين وهو راجع لقوله (**ولا تجعلْ يَدكَ**) ﴿ **مَحْسُوْرَاً** ﴾ نادماً أو مُنْقَطَعاً بك لا شيء عندك ، كمن انقطع في سفره بانقطاع مِطِيَّته .

﴿ **إِنّ رَبّكَ يبْسُطُ الرِّزْقَ لمنْ يَشاءُ ويقْدِرُ** ﴾ يوسعه على بعض ، ويضيقه على بعض آخرين ، بمشيئته التابعة للحكمة ﴿**إِنّه كانَ بعبادِه خَبيراً بَصيراً** ﴾ أي يعلم سرهم وعلنهم ، فيعلَمُ من مصالحهم ما يخفى عليهم ، وفي الحديث القدسي (إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصلح إيمانه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، إني أدبر أمر عبادي ، بعلمي بقلوبهم ، إني عليم خبير) رواه أنس رضي الله عنه كما في بحر العلوم ، فيغني الله ويفقر ، ويبسط ويقبض ، ولو أغناهم جميعاً لطغوا ، ولو أفقرهم لنسوا فهلكوا وفي الحديث (بادروا بالأعمال سَبْعاً : هل تنتظرون إلاَّ فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هَرَماً مفنداً ، أو موتاً مُجْهِزاً ، أو الدجال فشرُّ غائب يُنْتظر ،أو الساعة فالساعة أدهى وأمرُّ)[1] فعلى العاقل التسليم لأمر الله تعالى ، والرضى بقضائه ، والصبر في موارد القبض ، والشكر في مواقع البسط ، والإنفاق مهما أمكن ﴿ **ولا تَقْتُلُوا** ﴾ يا معشر العرب ﴿ **أولادَكُمْ خشْيةَ إملاقٍ** ﴾ مخافة الفقر ، وقتلهم أولادهم : وأدهم بناتهم مخافة الفقر أي دفنها حية ، فنهاهم الله تعالى عنه وضمن لهم أرزاقهم فقال ﴿ **نحنُ نرزُقُهُمْ وإيّاكُمْ** ﴾ لا غيرنا ﴿ **إنّ قتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبيراً** ﴾ ذنباً عظيماً لما فيه من هدم بنيان الله ، وقطع النسل ، والخِطْءُ كالإثم وزنا ومعنى ، من خَطِىءَ ، اعلم أن من أول هذه الآيات إلى قوله تعالى (**مَلُومَاً مدْحوراً**) عشر آيات ، وفيها إشارة إلى تبديل عشر خصال مذمومة بعشر خصال محمودة ، أما

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد رقم / ٢٣٠٧ / وقال : حديث حسن غريب .

المذمومات ، **فأولها** البخل ، **وثانيها** الأمل وهما في قوله تعالى (**وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ**) فإن البخل وطول الأمل ، حملهم على قتل أولادهم ، فدلهم على تبديلها بالسخاء والتوكل بقوله (**نحنُ نرزُقُهُمْ وإيّاكُمْ**) - يحكى أن يحيى بن زكريا عليهما السلام لقي إبليس في صورته ، فقال له ياإبليس : أخبرني بأحب الناس إليك ، وأبغض الناس إليك ، فقال : أحبُّ الناس إليَّ البخيلُ ، وأبغضهم إليَّ السخيُّ ، قال يحيى : وكيف ذلك ؟ قال لأن البخيل كفاني بخله ، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخاه فيقبله ، ثم ولّى وهو يقول لولا أنك يحيى لم أخبرك . قالوا : ولا ينبغي أن يُلجيء أهل بيته على الزهد ، بل يدعوهم إليه فإن أجابوا وإلا تركهم ووسع عليهم في دنياهم ، من غير خروج عن حد الاعتدال ، وفعل بنفسه ما شاء ، ثم ذكر تعالى بقية الخصال المذمومة فقال : ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنىٰ** ﴾ بإتيان المقدمات من القبلة والغمزة والنظر بالشهوة ، فضلاً عن أن تباشروه ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي الزنى ﴿ **كانَ فَاحِشَةً** ﴾ فعلة ظاهرة القبح متجاوزة الحد ، فإن فيه تضييع الأنساب ﴿ **وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ أي بئس طريق الزنى ، لأنه يجر صاحبه إلى النار ، وهو طريق أيضاً إلى قطع الأنساب ، وتهييج الفتن ، وفي الحديث (إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة ، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان)[1] وروي عن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال : إياكم والزنى فإن فيه ست خصال : ثلاث في الدنيا ، وثلاث في الآخرة ، فأما التي في الدنيا : فنقصان الرزق - يعني تذهب البركة من الرزق ويصير محروماً من الخير - ونقصان العمر ، والبغض في قلوب الناس فإنه يذهب البهاء ، وأما الثلاث التي في الآخرة : فغضب الرب ، وشدة الحساب ، والدخول في النار ، وفي الحديث (العينان تزنيان ، وزناهما النظر ، واليدان تزنيان ..)[2] الحديث .

* واعلم أن غلبة الشهوة تورث الزنى ، فالشهوة هي ثالثة من العشر المذمومة ، حكي أنه كان بالبصرة رجل معروف بالمسكي ، لأنه كان يفوح منه رائحة المسك ، فسئل عنه فقال : كنت من أحسن الناس وجهاً ، وكان لي حياء ، فقيل لأبي لو أجلسته في السوق لانبسط مع الناس ، فأجلسني في حانوت بزّاز فجاءت عجوز فطلبت متاعاً فأخرجت لها ما طلبت ، فقالت : لو توجهت معي لثمنه ؟ فمضيتُ معها حتى أدخلتني في قصر عظيم ، فيه قبة عظيمة عليها سرير ، فإذا فيه جارية على فرش مُذْهبة فجذبتني إلى صدرها ، فقلتُ : الله ، فقالت لا بأس ، فقلت : إني حاقب ، ودخلت الخلاء وتغوطتُ ومسحت به

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وصححه الحاكم ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٧١٢ .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم وأوله (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ..) الحديث .

وجهي وبدني ، فقيل : إنه مجنون فخلصت ، ورأيت بمنامي في تلك الليلة رجلاً قال لي : أين أنت من يوسف بن يعقوب ؟ ثم مسح يده على وجهي وبدني ، فمن ذلك الوقت يفوح المسك عليَّ من رائحته وذلك ببركة العفة والتقوى ، ولقي إبليس موسى عليه السلام فقال ياموسى اذكرني حين تغضب ، فإن وجهي في قلبك ، وعيني في عينك ، وأجري منك مجرى الدم ، واذكرني حين تلقى الزحف فإني آتي ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكِّره ولده وزوجته وأهله حتى يولّي ، وإياك أن تجالس امرأة ليست بذات محرم ، فإني رسولها إليك ورسولك إليها ، كما في آكام المرجان ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهَ** ﴾ قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد فدخل فيه الذميُّ والمعاهد ﴿ **إلاَّ بالحَقِّ** ﴾ أي لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق أي بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنى بعه إحصان ، وقتل نفس معصومة عمداً ﴿ **وَمنْ قُتِلَ مَظْلوماً** ﴾ غير مرتكب واحدة من هذه الثلاث ﴿ **فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ** ﴾ لمن يلي أمره بعد وفاته من الوارث أو السلطان عند عدمه إذ هو وليٌّ من لا وليَّ له ﴿ **سُلْطاناً** ﴾ تسلطاً واستيلاء على القاتل ، إن شاء قَتَل ، وإن شاء أخذ الدية ﴿ **فلا يُسْرِفْ** ﴾ أي الوالي ﴿ **في القَتْلِ** ﴾ أي في أمر القتل بأن يجاوز الحد المشروع بأن يزيد عليه المثلة ، أو بأن يقتل غير القاتل من أقاربه ، وكانوا يقتلون غير القاتل أو يقتل الاثنين مكان الواحد كعادةِ الجاهلية ، كان إذا قتل منهم شريف لا يرضون بالقاتل ، بل بأن يقتلوا معه جماعة من أقاربه ﴿ **إنَّهُ** ﴾ أي الولي ﴿ **كانَ مَنْصُوراً** ﴾ ينصره الشرع والسلطان يعني أن الله ينصره ، بأن أوجب له القصاص أو الدية ، وأمر الحكام بإعانته في الاستيفاء ، فإن قلت : ما توبة القاتل عمداً ؟ قلت توبة القاتل عمداً في ثلاث : (إما أن يقتل ، وإما أن يُعفى عنه ، وإما أن يؤخذ منه الدية ، فأي هذه الخصال فُعِل به فهي توبته) ﴿ **ولا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتيمِ** ﴾ فضلاً عن أن تتصرفوا فيه ﴿ **إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ إلا بالخصلة والطريقة التي هي أحسن الخصال والطرائق ، وهي حفظه واستثماره ﴿ **حتّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ قوته وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين قال في بحر العلوم بلوغ الأشد : بالإدراك ، وقيل : أن يؤنس منه الرشد بعد أن يكون بالغاً ، وآخره ثلاث وثلاثون سنة ﴿ **وأَوْفوا بالعَهْدِ** ﴾ سواء جرى بينكم وبين ربكم ، أو بينكم وبين غيركم من الناس ، والإيفاء بالعهد والوفاء به : هو القيامُ بالمحافظة عليه ، ولا يكاد يستعمل إلا بالباء فرقاً بينه وبين الإيفاء الحسيّ كإيفاء الكيل والوزن ﴿ **إن العهْدَ كَان مسْئُولاً** ﴾ مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه وأن يفي به ﴿ **وَأَوفُوا الكَيْلَ** ﴾ أي أتموه ولا تخسروه ﴿ **إذا كِلْتُم** ﴾ وقت كيلكم للمشترين ﴿ **وَزِنُوْا بالقِسْطاسِ** ﴾ وهو الميزان العظيم أو هو كل ما يوزن به من موازين العدل ، صغيراً كان أو كبيراً ، والجمهور على أنه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل وهو الأصح ﴿ **الْمُسْتَقِيمِ** ﴾ أي العدل السوي ﴿ **ذلِكَ** ﴾ أي إيفاء الكيل والوزن السوي ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ لكم في الدنيا إذ هو أمانة توجب الرغبة في

معاملته والذكر الجميل ﴿ **وأحسَنُ تأْويلاً** ﴾ عاقبة والمراد ما يؤول إليه ، اعلم أن رابع الخصال العشر المذمومة الغضب فإن استيلاء الغضب يورث القتل بغير الحق فبدله بالحكم في قوله (**ومَنْ قُتِلَ مَظْلوماً فقدْ جَعلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً**) قال أنوشروان : أربع قبائح وهي في أربعة أقبح « البخل في الملوك ، والكذب في القضاة ، والحِدَّةُ في العلماء أي شدة الغضب ، والوقاحة في النساء وهي قلة الحياء » وخامسها الإسراف فإن الإفراط في كل شيء يورث الإسراف ، فبدَّله بالقوام حيث قال (فلا يُسْرِفْ في القَتْلِ إنّهُ كَانَ مَنْصُوْراً) ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال (ما هذا السرف ياسعد ؟ قال أفي الوضوء سرف ؟ قال نعم وإن كنت على نهر جار) وسادسها الحرص وهو في قوله (**وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ**) فإن التصرف في مال اليتيم من الحرص ، قيل لحكيم : ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب ، قال : لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب ، وسابعها نقض العهد فبدَّله بالوفاء بقوله (**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إنّ الْعَهْدَ مَسْئُولاً**) .

* وثامنها الخيانة فبدَّلها بالأمانة (**وأوْفوا الكيْلَ إذا كِلْتُمْ**) الآية واحْتُضِر رجلٌ فإذا هو يقول : جبلين من نار ، جبلين من نار : فسئل أهله عن عمله ، فقالوا كان له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أتى رسول الله ﷺ التجار فقال (يامعشر التجار إن الله باعثكم يوم القيامة فُجَّاراً ، إلاَّ من صدق ووصل وأدى الأمانة)[1] .

﴿ **وَلاَ تَقْفُ** ﴾ أي لا تتبع ، من قفا أثره يقفو تبعه ﴿ **ما ليْسَ لكَ بهِ عِلْمٌ** ﴾ أي لا تكن في اتباع مالا علم لك به من قولٍ أو فعل ، كمن يتبع مسلكاً لا يدري أنه يوصله إلى مقصده ﴿ **إنَّ السَّمْعَ والبَصَر والفُؤادَ كلُّ أُولَئِكَ** ﴾ أي كل واحد من هذه الجوارح ، فأجراها مجرى العقلاء ، لما كانت مسئولة عن أحوالها ، شاهدة على أصحابها ﴿ **كانَ عنْهُ** ﴾ عما فعل به صاحبه ﴿ **مسْئُولاً** ﴾ أي يسأل يوم القيامة عنها ، قال في بحر العلوم : اعلم أن المراد بالنهي عن اتباع كل ما فيه جهل ، مما يتعلق بالسمع والبصر والقلب ، كأنه تعالى قال لا تسمع كل مالا يجوز سماعه ، ولا تبصر كل مالا يجوز إبصاره ، ولا تعزم على كل مالا يجوز لك العزم عليه ، لأن كل واحد منها يسأله الله تعالى ويجازيه ، وفي الآية دلالة على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية كما قال تعالى (**وَلكنْ يُؤاخِذُكُمْ بما كَسَبتْ قُلوبُكُمْ**) أي بما كسبت مما يدخل تحت الاختيار من خبائث أعمال القلب ، من حب الدنيا ، ومن الرياء ، والعجب ، والحسد ، والكبر ، والنفاق مثلاً ، وأما مالا يدخل تحت الاختيار فلا يؤاخذ به ألا ترى إلى قوله عليه السلام (عُفي عن أمتي ما حدَّثتْ بها نفوسها) قال في الأشباه والنظائر: حديث النفس لا يؤاخذ به ما لم

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في البيوع ، وابن ماجه في التجارة ، وأحمد في المسند ٣ / ٤٢٨ .

يتكلم أو يعمل به كما في حديث مسلم ، وحاصل ما قالوه أن الذي يقع في النفس من قصد المعصية على خمس مراتب : الهاجس وهو ما يلقى فيها ، ثم الخاطر ، ثم حديث النفس ، ثم الهم ثم العزم وهو قوة ذلك القصد والجزم به ، فالهاجس لا يؤاخذ به إجماعاً لأنه ليس من فعله ، والخاطر الذي بعده كان قادراً على دفعه بصرف الهاجس أول وروده ، ولكن هو وما بعده من حديث النفس مرفوعانِ بالحديث الصحيح ، وقال بعض الكبار : جميع الخواطر معفوة إلا بمكة المكرمة ولهذا اختار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما السكنى بالطائف احتياطاً لنفسه ، وأما الهمُّ فقد بين في الحديث الصحيح أن الهمَّ بالحسنة يكتب له حسنة ، والهم بالسيئة لا يكتب عليه سيئة ، وينتظر فإن تركها للهِ تعالى كتب حسنة وإن فعلها كتب سيئة واحدة ، والأصحُّ في معناه أنه يكتب عليه الفعل وحده ، وهو معنى قوله واحدة وأما العزم فالمحققون على أنه يؤاخذ به ، ومنهم من جعله من الهم المرفوع ، واعلم أن قوله تعالى (**ولا تقْفُ ما ليْسَ لكَ بهِ علمٌ**) إشارةً إلى تاسع الخصال وهو الظلم ، وهو وضع الشيء في غير موضعه باستعمال الجوارح والأعضاء على خلاف ما أمر به ، فظلم السمع استعماله في استماع الغيبة واللغو والبهتان ، والقذف ، والملاهي ، والفواحش ، وظلم البصر النظر إلى المحرمات والشهوات وإلى من فوقه في دنياه وإلى من دونه في دينه ، وإلى متاع الدنيا وزينتها وزخارفها ﴿ **ولا تَمْشِ في الأرْضِ** ﴾ التقييد لزيادة التقرير ﴿ **مَرَحاً** ﴾ ذا مرح فهو مصدر وقع موقع الحال بمعنى التكبر والتبختر ، والمراد النهي عن المشي بالتكبر والتعظم ﴿ **إنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأرْضَ** ﴾ لن تجعل فيها خرقاً ونقباً بشدة وطأتك ﴿ **وَلنْ تَبْلُغَ الجِبالَ طُولاً** ﴾ بتطاولك فالمراد به هو الطول المتكلف الذي يتكلفه المختال ، وهو تهكم بالمتكبر وتعليل للنهي بأن التكبر حماقة مجردة ، ولن ينال الإنسان بكبره وتعظُّمه شيئاً من الفائدة ، وهو أي الكبر عاشر الخصال العشر فإن المشية بالخيلاء من الكبر فبدله بالتواضع بقوله (**إنّك لنْ تَخْرِق**) الآية .

وعن أبي هريرة أنه قال (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله كأنما الأرض تُطْوى له ، إنَّا لنُجْهِدُ أنفسنا وأنه لغير مكترث)[1] ﴿ **كُلُّ ذلِكَ** ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الخصال ﴿ **كانَ سَيِّئُهُ** ﴾ يعني المنهي عنه ، وهو أربع عشرة خصلة ﴿ **عِنْدَ رَبِّكَ مَكْروهاً** ﴾ المراد به المبغوض المقابل للمرضي ، لا ما يقابل الإرادة لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى ﴿ **ذلكَ** ﴾ أي الذي تقدم من التكاليف المفصَّلة ﴿ **ممّا أوْحى إلَيْكَ رَبُّكَ** ﴾ أي بعض منه أو من جنسه ﴿ **مِن الحِكْمةِ** ﴾ التي هي علمُ الشرائع ومعرفة الحق ، أو من الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخ والفساد ﴿ **وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ** ﴾

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم / ٣٦٥٠ / وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف ، لكنْ تابعه عمرو بن الحارث عن ابن عباس فارتقى إلى درجة الحسن ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٢٢٤ .

الخطاب للرسول والمراد غيره ، وتكريره للتنبيه بأن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه ، فإن من لا قصد له بطل عمله ، ومن قصد بفعله أو تركه غيره ضاع سعيه ، وأنه رأس كل حكمة وملاكُها ﴿ **فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً** ﴾ تلوم نفسك وتلومك الناس والملائكة ﴿ **مَدْحوراً** ﴾ مبعداً من رحمة الله ، ومن كل خير ، وهو تمثيل فإنه تعالى شبه من أشرك بالله استحقاراً له ، بخشبة يأخذها آخذٌ في كفه فيطرحها في التنور ، فالتوحيد أصل الحسنات ، والشركُ أصل السيئات .

* قال يحيى بن معاذ ما طابت الدنيا إلا بذكرك ، ولا الآخرة إلا بعفوك ، ولا الجنة إلا بلقائك ، وفي الحديث (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذِكرُ الله وما والاه ، وعالم أو متعلم)[1] .

﴿ **أَفَأَصْفٰكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ واتَّخَذَ مِنَ الملائِكَةِ إناثاً** ﴾ خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله ، وكان المشركون يستنكفون من البنات ، فيختارون لأنفسهم الذكور ومع ذلك ينسبون إليه تعالى الإناث ، فأنكر الله ذلك منهم ، والمعنى أفضَّلكم على جنابه فخصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص ، وآثر لذاته أخسها وأدناها كما في قوله تعالى (**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثىٰ**) ؟ ﴿ **إِنَّكُمْ لَتَقُولونَ** ﴾ بإضافة الولد إليه تعالى ﴿ **قَوْلاً عَظِيماً** ﴾ لا يجترىء عليه أحد حيث تضيفون إليه ما تكرهون ، وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ، ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلق بالأنوثة ﴿ **ولقدْ صَرَّفْنَا** ﴾ هذا المعنى وكررناه وبيناه ﴿ **في هذا القرآن** ﴾ على وجوه من التصريف في مواضع منه ﴿ **لِيَذَّكَّرُوا** ﴾ أي ليذكروا ما فيه ويقفوا على بطلان ما يقولونه ﴿ **وَمَا يَزِيدُهُمْ** ﴾ أي والحال أنه ما يزيدهم ذلك التصريف البالغ ﴿ **إلاّ نُفُوراً** ﴾ عن الحق وإعراضاً عنه ﴿ **قُلْ** ﴾ في إظهار بطلان ذلك من جهة أخرى ﴿ **لَوْ كَانَ مَعَهُ** ﴾ تعالى ﴿ **آلِهَةٌ كَمَا يقُولونَ** ﴾ أي المشركون قاطبة ، ﴿ **إذاً لابْتَغوْا** ﴾ أي طلبت تلك الآلهة ﴿ **إلى ذي العرْشِ** ﴾ أي إلى من له الملك والربوبية على الإطلاق ﴿ **سَبيلاً** ﴾ بالمغالبة والممانعة ، أي ليغالبوه ويقهروه ويدفعوا عن أنفسهم العيب والعجز ، كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض ، يشير إلى أن الآلهة لا يخلو أمرهم من أنهم كانوا إمّا أكبر منه ، أو كانوا أمثاله ، أو كانوا أدونَ منه ، فإن كانوا أكبر منه طلبوا طريقاً إلى إزعاج صاحب العرش ، ونزع الملك قهراً وغلبة ليكون لهم الملك لا له كما هو المعتاد من الملوك ، وإن كانوا مثله لم يرضوا أن يكون الملك واحداً منهم ، وهم معزولون عن الملك ، فحينئذٍ ينازعونه في الملك ، وإن كانوا أدون منه لا يصلحون للإلهية ، بسبب النقص ، والناقصُ لا يصلح لمغالبة الكامل ﴿ **سُبْحانه** ﴾ أي تنزه بذاته تنزهاً حقيقياً به ﴿ **وَتَعالى** ﴾ متباعداً ﴿ **عَمَّا يقولونَ** ﴾ من أن معه آلهة ، وأن له بنات ، أي ما أبعد من له المُلْكُ والربوبية ، وما أعلاه عما يقولون

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد رقم / ٢٣٢٣ / وابن ماجه رقم / ١١٢ / وفي سنن ابن ماجه (أو عالماً أو متعلماً) وقال الترمذي : حديث حسن.

﴿ عُلُوّاً ﴾ تعالياً ﴿ كَبيراً ﴾ لا غاية وراءه ، كيف لا وأنه سبحانه في أقصى غايات الوجود ، وما يقولون في أبعد مراتب العدم ؟! أعني الإمتناع ، واعلم أن الله تعالى أحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، والشرك إنما يجيء من التوهم قال الدينوري في قوله تعالى (**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ**) منهم من صنمه نفسه قال تعالى (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ**) ومنهم من صنمه زوجته في المحبة والإطاعة ، ومنهم من صنمه تجارته بأن اتكل عليها حتى ترك طاعة الله لأجلها ، حكى أن مالك بن دينار رحمه الله كان إذا قرأ في الصلاة (**إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ**) غُشِيَ عليه ، فسئل فقال نقول (**إِيَّاكَ نعبُد**) ونعبد أنفسنا بطاعتنا الهوى ، ونقول (**إِيَّاكَ نَسْتَعين**) ونرجع إلى أبواب غيره .

﴿ **تُسَبِّحُ لَهُ السَمَواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومَنْ فيهِنّ** ﴾ التسبيحُ تنزيه الحق ، وتبعيده عن نقائص الإمكان والحدوث ، وتسبيح السموات والأرض بلسان الحال الدال على وجود الخالق وقدرته وحكمته ، وتسبيح من فيهن من الملائكة والجن والإنس بلسان المقال الناطق بما يسمع منهم ، على أن المراد بالتسبيح معنى منتظم لما ينطق به لسان المقال ولسان الحال ﴿ **وَإِنْ** ﴾ نافية أي ما ﴿ **مِنْ شَيءٍ** ﴾ من الأشياء حيواناً كان أو نباتاً إلاَّ وهو يدلُّ على الصانع وقدرته وحكمته فإنها تنطق بذلك ﴿ **إِلاّ يُسَبِّحُ بِحمْدِهِ ولكنْ لا تفْقَهونَ تسْبيحَهُمْ** ﴾ لا تفهمون أيها المشركون تسبيحهم لإخلالكم بالنظر الصحيح الذي به يفهم التسبيح ﴿ **إِنّهُ كَانَ حَليماً** ﴾ ولذلك لم يعاجلكم بالعقوبة مع ما أنتم عليه من الإعراض عن التدبر في الدلائل ، والانهماك في الإشراك ﴿ **غَفوراً** ﴾ لمن تاب منكم ورجع إلى التوحيد ، وقال الشيخ علي السمر قندي في بحر العلوم : ذهب السلف الصالح إلى أن التسبيح في الآية في المحلين محمول على حقيقته وهو الأصح ، فإنه إن كان كلام الجماد مُسلَّماً فينبغي أن يكون تسبيحه أيضاً مسلماً ، قال رسول الله ﷺ (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن)[1] ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : « ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام بين يديْ رسول الله ﷺ وهو يؤكل » على أن شهادة الجوارح والجلود مما نطق به القرآن الكبير ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (**إِنّا سَخّرْنا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشيِّ والإشْراقِ**) كان داود إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، وقال مجاهد : كل الأشياء تسبح الله ، حياً كان أو جماداً وتسبيحها « سبحان الله وبحمده » .

قال في فتح القريب المجيب : إذا حصلت البركة بتسبيح الجماد ، فالقرآن الذي هو أشرف الأذكار أولى بحصول البركة ، ولا سيما إذا كان من رجل صالح ، ولهذا استحب العلماء قراءة القرآن عند القبر ، وهل يغرس الريحان أو الجريد على باب منزل القبر أو على جانب اللحد ؟ الجواب أنه ورد في الحديث مطلقاً

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ٧ / ٥٨ في كتاب الفضائل والدارمي في سننه والأصبهاني في دلائل النبوة .

فيحصل المقصود بأي موضع غرس في القبر ، (وكان عليه السلام يخطب مستنداً إلى جذعٍ فصنع رجل منبراً ثلاث درجات وأراد النبي عليد السلام أن يقوم على المنبر ، فحنّ الجذع فرجع النبي عليه السلام إليه ووضع يده عليه فسكن)[1] ، وعن أبي ذر رضي الله عنه (أن رسول الله ﷺ جلس في مكان معه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فتناول النبي عليه السلام سبع حصيات فوضعهن في كفه فسبحن حتى سمعتُ لهن طنيناً كطنين النحل ثم تناولهن فوضعهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن طنيناً كطنين النحل ، ثم وضعهن في يد عمر ثم في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن طنيناً كطنين النحل)[2] ، وذكر عبد الله القرطبي أن داود عليه السلام قال : لأسبحن الله تعالى هذه الليلة تسبيحاً ما سبحه به أحد من خلقه ، فنادته ضفدع من ساقيةٍ في داره : أتفخر على الله بتسبيحك ؟ وإن لي سبعين سنة ما جفَّ لساني من ذكر الله ، وبالجملة فالتسبيح غير ممتنع من الجمادات ، بل هو كائن من الكائنات لا ينكره إلا منكر خوارق العادات ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ** ﴾ قرأت آيات القرآن المنزلة عنك ﴿ **جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** ﴾ وهم كفار قريش منكري البعث ﴿ **حِجَاباً** ﴾ يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ، ولذلك اجترأوا على أن يقولوا (**إِنْ تَتَّبِعُوْنَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً**) ﴿ **مَسْتُوراً** ﴾ عن الحس بمعنى غير حسيٍّ مشاهد ، أو ذا ستر ﴿ **وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً** ﴾ أغطية كثيرة جمع كنان وهو الغطاء ﴿ **أَنْ يَفْقَهُوهُ** ﴾ أي كراهة أن يفهموا القرآن على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى ، وهذا تمثيل لتجافي قلوبهم عن الحق ، ونبوِّها عن قبوله ، كأنها في غُلُفٍ وأغطية تحول بينها وبينه ، وتمنع من نفوذه كما في بحر العلوم ﴿ **وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً** ﴾ صماً يمنع من سماعه ، ولما كان القرآن معجزاً من حيث اللفظ والمعنى ، أثبت لمنكريه ما يمنعهم عن فهم المعنى حق فهمه وإدراك اللفظ حق إدراكه ﴿ **وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ** ﴾ أي واحداً غير مشفوع به آلهتهم أي إذا قلت لا إله إلا الله ﴿ **وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً** ﴾ هو مصدر كالقعود أي أعرضوا وهربوا ورجعوا حال كونهم نافرين ﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُوْنَ بِهِ** ﴾ من اللغو والاستخفاف والهزؤ بك وبالقرآن ، ويروى أنه كان يقوم عن يمينه صلى الله عليه وسلم إذا قرأ رجلان من عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار ﴿ **إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ** ﴾ ظرف وفائدته تأكيد الوعيد بالإخبار ﴿**وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ** ﴾ والمعنى نحن أعلم بالذي يستمعون ملتبسين به ، مما لا خير فيه من الأمور المذكورة ، وبالذي يتناجون به فيما بينهم ﴿ **إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ** ﴾

---

(١) حديث حنين الجذع رواه البخاري في صحيحه بأوسع من هذا وأخرجه أحمد في المسند ، والحافظ الأصبهاني في دلائل النبوة ٢ / ٥١٣ .

(٢) انظر دلائل النبوة للحافظ الأصبهاني ٢ / ٥٥٥ وقصة تسبيح الحصى في يد النبي ﷺ ويد أبي بكر وعمر وعثمان مشهورة .

ووضع « الظالمون » موضع الضمير ، للدلالة على أن هذا القول منهم ظلم وتجاوز عن الحد ، وفيه دليل على أن ما يتناجون به غير ما يستمعون به أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم ﴿ **إِنْ تَتَّبِعونَ** ﴾ أي ما تتبعون إن وجد منكم الإتباع فرضاً ﴿ **إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً** ﴾ أي سُحر فجنّ ، فمن ظلمهم وضعوا اسم المسحور موضع المبعوث ﴿ **أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لكَ الأَمْثَال** ﴾ أي مثلوك بالشاعر ، والساحر ، والمجنون ﴿ **فَضَلّوا** ﴾ في جميع ذلك عن منهاج المحاجة ﴿ **فلا يَسْتَطيعُونَ سَبيلاً** ﴾ إلى طعنٍ يمكن أن يقبله أحد ، فيتهافتون ويخبطون كالمتحير في أمر لا يدري ما يصنع ، أو فضلوا عن الحق والرشاد فلا يستطيعون سبيلاً إليه ، لأنهم بالغوا في الضلالة والإنكار ، وكانوا مستمعين بالهوى فيستمعون الأساطير والسحر والشعر .

﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي الكفرة المنكرون للبعث من أهل مكة ، نسوا بداية خلقهم أنهم خلقوا من تراب بل إنهم خلقوا من لا شيء كقوله تعالى (**وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً**) فقالوا على سبيل الإنكار والإستبعاد ﴿ **أَئِذا كُنّا عِظاماً وَرُفَاتاً** ﴾ هو ما بولغ في دقّه وتفتيته ﴿ **أَئِنّا لمبعُوثُونَ خَلْقاً جَديداً** ﴾ نصب على المصدر على أن الخلق بمعنى المخلوق أي حياتنا بعد الموت محال منكر ، لما بين غضاضة الحي ويُبوسةِ الرميم من التنافي ، وتقييده بالوقت المذكور لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافيه له ﴿ **قُلْ** ﴾ جواباً لهم ﴿ **كُونُوا حِجارةً أَوْ حَديداً . أو خَلْقاً مّما يكْبُرُ في صدورِكُمْ** ﴾ يعظم عندكم من قبول الحياة لكونه أبعد شيء منها ، فإنكم مبعوثون ومعادون لا محالة ، والأمر وراد على التمثيل ، وقال في الكواشي : هو أمر تعجيز وتوبيخ : لا أمر إلزام ، وقال في بحر العلوم : ليس الأمر ههنا على حقيقته بل على المجاز لأن المقصود إهانتهم وقلة المبالاة بهم ، لا طلب كونهم حجارة أو حديداً لعدم قدرتهم على ذلك ، وما يكبر في صدورهم « السموات والجبال » ﴿ **فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا** ﴾ يبعثنا بعد الموت ؟ ﴿ **قُلِ الّذي فَطَرَكُم** ﴾ أي يعيدكم القادر العظيم الذي اخترعكم وأنشأكم ﴿ **أَوّلَ مَرَّةٍ** ﴾ أي من غير مثال وكنتم تراباً ما شمَّ رائحة الحياة ، فهو المبدىء والمعيدُ ﴿ **فَسَيُنْغِضُوْنَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ** ﴾ أي سيحرِّكونها تعجباً وإنكاراً ﴿ **وَيَقولُونَ** ﴾ استهزاءً ﴿ **متى هُوَ** ﴾ أي ما ذكرت من الإعادة ؟ فهو سؤال عن وقت البعث بعد تعيين الباعث ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **عَسَى أَنْ يَكونَ** ﴾ ذلك ﴿ **قَريباً** ﴾ فإن كل آتٍ قريب ، أو لأنه مضى أكثر الزمان وبقى أقله ﴿ **يوْمَ يدْعُوكُم** ﴾ من الأجداث كما دعاكم من العدم ﴿ **فَتسْتَجِيبُوْنَ** ﴾ منها استجابة الأحياء ، أي اذكروا يوم يبعثكم فتنبعثون ، وقد استعير لهما الدعاء والإجابة إيذاناً بكمال سهولة التأتي ، وقال أبو حيان: والظاهر أن الدعاء حقيقة أي يدعوكم بالنداء الذي يسمعكم وهو النفخة الأخيرة كما قال (**يوْمَ يُنادي المنادِ مِنْ مَكانٍ قَريبٍ**) ومعنى فتستجيبون توافقون الداعي فيما دعاكم إليه ، وقال بعضهم : المقصود

منها الإحضار للمحاسبة والجزاء ، يقول الفقير : لا يخفى أن الدعوة متعددة فدعاء البعث والنشر ، ودعاء الحشر كما قال تعالى (**مُهْطِعِينَ إلى الدّاعِ**) أي مسرعين ودعاء الكتاب كما قال تعالى (**وَتَرى كُلّ أُمّةٍ جاثِيةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إلى كِتابِها اليوْمَ**) والمراد في هذا المقام هو الدعوة الأولى لأن الكلام في البعث ﴿ **بِحَمْدِهِ** ﴾ أي حامدين لله تعالى على قدرته على البعث ، كما قال سعيد ابن جبير : إنهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، فيقدسونه ويحمدونه حين لا ينفعهم ذلك ، وفي الكواشي بحمده أي بإرادته وأمره ﴿ **وَتَظُنُّونَ** ﴾ عند ما ترون من الأمور الهائلة ﴿ **إنْ لَبِثْتُمْ** ﴾ ما لبثتم في القبور أو في الدنيا ﴿ **إلاّ قَلِيلاً** ﴾ بالنسبة إلى لبثكم بعد الإحياء إلى الأبد ، فإن قيل : كل أحد يستقصر مدة حياته في الدنيا ، ولو عمّر أطول الأعمار ؟ قلنا : ذلك الاستقصار مع العلم بمدة ذلك العمر الطويل ، وفي القيامة يذهل عن تلك المدة لشدة الهول ﴿ **وَقُلْ** ﴾ يا محمد ﴿ **لِعبادي** ﴾ أي المؤمنين ﴿ **يَقُولُوا** ﴾ أي للمشركين عند محاورتهم معهم ، ﴿ **الّتِي** ﴾ أي الكلمة التي ﴿ **هي أحْسَنُ** ﴾ ولا يخاشنوهم كقوله تعالى (**ولا تُجادِلوا أهْلَ الكِتابِ إلاّ بالّتِي هِيَ أحْسَنُ**) ﴿ **إنّ الشّيْطانَ ينْزَغُ بيْنَهُمْ** ﴾ يقال نزغ بينهم : أفسد وأغرى ووسوس ، أي يفسد ويهيج الشر والمِرَاءَ بينهم ، فلعل المخاشنة بهم تفضي إلى العناد ، وازدياد الفساد ﴿ **إنَّ الشّيْطانَ كانَ لِلإنْسانِ عَدُوّاً مُبِيناً** ﴾ ظاهر العداوة لا يريد صلاحهم أصلاً ، بل يريد هلاكهم ، وقد أبان عداوته لهم إذ أخرج أباهم من الجنة ، ونزع عنه لباس النور ﴿ **رَبُّكُمْ** ﴾ أيها المشركون ﴿ **أعْلَمُ بِكُمْ** ﴾ منيّ ﴿ **إنْ يَشأْ يرْحَمْكُمْ** ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿ **أوْ إنْ يَشأْ يُعَذِّبْكُمْ** ﴾ بالإماتة على الكفر ، فهو تفسير للتي هي أحسن وما بينهما اعتراض أي قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ، ولا تصرّحوا بأنهم من أهل النار ، فإنه مما يهيجهم على الشر ، مع أن العاقبة مما لا يعلمه إلا الله ، فعسى يهديهم إلى الإيمان ، هذا ما ذهب إليه البيضاوي وأبو السعود رحمهما الله ، وقال الجمهور : المراد (**بِالّتِي هي أحْسَنُ**) هي المحاورة الحسنة بحسب المعنى ، والرحمة الإنجاء من كفار مكة وأذاهم ، والتعذيب تسليطهم عليهم ، فيكون الخطاب في ربكم للمؤمنين ﴿ **وَما أرْسلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً** ﴾ موكولاً إليك يا محمد أمورهم حتى تجبرهم على الإيمان فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والإحتمال ، وترك المخاصمة ﴿ **وَرَبُّكَ أعْلَمُ بِمَنْ في السّمواتِ والأرْضِ** ﴾ وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والباطنة ، التي بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء ، فيختار منهم لنبوته وولايته من يستحقه ، وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبياً ، وأن يكون العراة الجياع أصحابه كصهيب وبلال وخباب وغيرهم ، دون أن يكون ذلك في بعض الأكابر والصناديد ﴿ **وَلَقَدْ فَضّلْنا بعْضَ النَّبِيّينَ عَلى بعْضٍ** ﴾ بالفضائل النفسانية والتبري من العلائق الجسمانية ، لا بكثرة الأموال والأتباع ، حتى « داود » فإنه شرفه بما أوحى إليه من الكتاب لا بما أوتي من الملك ، فالوجه أن التفضيل إنما هو بالكتاب

والرسالة ، والخلة ، والتكليم ، والمعراج ، والرؤية والشفاعة ونحو ذلك كما قال تعالى (**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ**) الآية والقرآن يفسر بعضه بعضاً ﴿ **وآتَيْنا دَاوُدَ زَبوراً** ﴾ خصصناه بإنزال الزبور عليه تفضيلاً له ، قال العلماء : كان زبور داود مائة وخمسين سورة ليس فيها حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ، بل تمجيد وتحميد ودعاء .

وقد شرَّف الله نبينا وفضله بكثرة الأتباع كما قال عليه السلام (أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها أمتي)[1] ، وفي جامع الأصول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون وهم ينتظرون خروجه فخرج حتى دنا منهم فسمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً إن الله تعالى اتخذ من خلقه خليلاً ، اتَّخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر ماذا بأعجبَ من كلام موسى ، كلَّمه تكلياً ، وقال آخر : ماذا بأعجبَ من جعل عيسى كلمة الله وروحه ، وقال آخر : ماذا بأعجب من آدم اصطفاه الله عليهم ، فسلم رسول الله ﷺ على أصحابه وقال (قد سمعت كلامكم وعجبكم ، إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وإن موسى نجيُّ الله وهو كذلك ، وإن عيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وإن آدم اصطفاه الله وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حاملُ لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر ، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي ، فأدخلها ومعي فقراء المهاجرين ولا فخر)[2] ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذينَ زَعَمْتُمْ** ﴾ أنهم آلهة ﴿ **مِنْ دُونِهِ** ﴾ أي متجاوزين الله تعالى ، كالملائكة والمسيح ، وأمه ، وعُزيرٌ ﴿ **فلا يَمْلِكونَ** ﴾ فلا يستطيعون ﴿ **كَشْفَ الضُّرِّ عنْكُمْ** ﴾ إزالة نحو المرض والفقر والقحط ﴿ **ولا تَحْوِيلاً** ﴾ ولا تحويله ونقله منكم إلى غيركم من القبائل ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذينَ يدْعُونَ** ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين ﴿ **يبْتَغُونَ** ﴾ يطلبون لأنفسهم ﴿ **إلىٰ رَبِّهِمُ** ﴾ ومالك أمورهم ﴿ **الوَسيلة** ﴾ أي القربة بالطاعة والعبادة ﴿ **أَيُّهُمْ أَقْربُ** ﴾ أي يبتغي من هو أقرب إلى الله منهم الوسيلة ، فكيف بمن دونه من غير الأقرب ؟ ﴿ **ويرْجُونَ رحْمَتهُ** ﴾ بالوسيلة ﴿ **وَيخافُونَ عذابهُ** ﴾ بتركها كدأب سائر العباد ، فأين هم من كشف الضر فضلاً عن الإلهية ؟ ﴿ **إنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذوراً** ﴾ حقيقاً بأن يحذره كل واحد حتى الرسل والملائكة وإن لم يحذره العصاة لكمال غفلتهم بل يتعرضون له ، وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب ، فعلى العاقل أن يترك الاعتذار ويحذر من بطش القهار ، عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال لعمر رضي الله عنه حين طعن يا أمير المؤمنين : أسلمتَ حين

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد والحاكم وتتمته (وأربعون من سائر الأمم) وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٧٢ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب رقم / ٣٦٢٠ / وقال : حديث غريب ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٢٦ .

كفر الناس ، وجاهدت مع رسول الله ﷺ حين خذله الناس ، وتوفي رسول الله وهو عنك راض ولم يختلف عليك إثنان ، وقُتِلتَ شهيداً ، فاطمئنَّ يا أمير المؤمنين !! فقال عمر رضي الله عنه : المغرور من غررتموه ، والله لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع أي القيامة ، قال بعض الحكماء : الحزن يمنع الطعام ، والخوف يمنع الذنوب ، والرجاء يقويّ على الطاعات ، وذكر الموت يزهد عن الفضول ، والخوف والرجاء إنما يكونان من الله تعالى ، لأن المعبود مفيض الخير والجود .

﴿ **وَإِنْ** ﴾ نافية ﴿ **مِنْ قَرْيَةٍ** ﴾ المراد بها القرية الكافرة أي ما من قريةٍ ﴿ **إلاّ نَحْنُ مُهْلِكوها** ﴾ أي مخربوها البتة بالخسف بها أو بإهلاك أهلها بالكلية لما ارتكبوا من عظائم المعاصي الموجبة لذلك ﴿ **قبْلَ يومِ القَيمةِ** ﴾ لأن الهلاك يومئذ غير مختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وإنما هو لانقضاء عمر الدنيا ﴿ **أو مُعَذِّبُوها** ﴾ أي معذبوا أهلها على الإسناد المجازي ﴿ **عَذاباً شَديداً** ﴾ بالقتل والقحط والزلازل ونحوها من البلايا الدنيوية والعقوبات الأخروية ، لأن التعذيب مطلق عما قيد به الإهلاك من قبل يوم القيامة ، وكثير من القرى العاصية قد أخرت عقوباتها إلى يوم القيامة هذا ما ذهب إليه المولى أبو السعود رحمه الله ، والوجه حمل الإهلاك على الاستئصال ، والتعذيب على أنواع البلية التي هي أشد من الموت ، ﴿ **كانَ ذلكَ** ﴾ الذي ذكر من الإهلاك والتعذيب ﴿ **في الكِتابِ** ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ **مَسْطوراً** ﴾ مكتوباً لم يغادر منه شيء إلا بيّن فيه كيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له ﴿ **ومَا مَنعنا أنْ نُرسِلَ بالآياتِ** ﴾ أي وما صرفنا عن إرسال الآيات التي اقترحتها قريش ، من إحياء الموتى ، وقلب الصفا ذهباً ، ورفع جبال مكة لتنبسط الأرض . وتصلح للزراعة ، وإجراء الأنهار لتحصل الحدائق ونحو ذلك ﴿ **إلاّ أنْ كَذَّبَ بِها الأوّلونَ** ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء أي وما منعنا عن إرسالها شيء من الأشياء إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا تكذيب أولئك واستوجبوا الاستئصال على ما مضت به سنتنا ، وقد قضينا أن لا نستأصلهم ، لأن فيهم من يؤمن أو يلد من يؤمن ، ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال ﴿ **وآتينا ثَمُودَ النّاقةَ** ﴾ كأنه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا ثمود الناقة بسؤالهم ﴿ **مُبْصِرَةً** ﴾ بينة ذات إبصار على أن يكون للنسبة فالتاء للمبالغة أو أسند إليها حال من يشاهدها مجازاً ﴿ **فَظَلَموا بِها** ﴾ فكفروا بها ظالمين ، أي لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر ، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ، ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم مالا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا ، وصدوراً ﴿ **وما نُرْسِلُ بِالآيَاتِ** ﴾ المقترحة ﴿ **إلاّ تَخْويفاً** ﴾ من نزول العذاب المستأصل كالطليعة له ، فإن لم يخافوا أنزل ، أو بغير المقترحة

كالمعجزات وآثار القرآن « إلا تخويفاً » بعذاب الآخرة فإن أمر من بعثت إليهم مؤخر إلى يوم القيامة كرامة لك ، قيل : إن الرسول عليه السلام هو الأمان الأعظم ما عاش وما دامت سنته باقية فإذا أماتوها أماتهم الله وأهلكهم ، إذ لهذه الأمة نصيب من عذاب الدنيا بقدر حالهم وذلك في أواخر الزمان . ومنه الزلازل والمخاوف والطاعون فإنه زجر لأهل الفسق ، وتسلط الظلمة فإنه عذاب أي عذاب ، فينبغي للمؤمن أن يسارع إلى طريق التقوى وإحياء سنة خير الورى ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ** ﴾ واذكر إذْ أوحينا إليك ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ** ﴾ أي علماً وقدرة فهم في قبضته ، فامض لأمرك ولا تخف أحداً ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ** ﴾ المراد بالرؤيا ما عاينه عليه السلام ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء ، والتعبير عن ذلك بالرؤيا ، لأنها وقعت بالليل وتقضت بالسرعة كأنها منام ، أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناكها ليلة الإسراء عياناً مع كونها آية عظيمة حقيقة بأن لا يتلعثم في تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة ، إلا فتنة افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم ﴿ **وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ** ﴾ وهي الزقوم تنبت في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة أي وما جعلناها إلا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا إن محمداً يزعم أنَّ الجحيم تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر ، ولقد ضلوا في ذلك ضلالاً بعيداً ، حيث كابروا قضية عقولهم ، فإنهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا يضرها ، ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندل تلقى في النار ولا تؤثر فيها ﴿ **وَنُخَوِّفُهُمْ** ﴾ بذلك وبنظائره من الآيات فإن الكل للتخويف ﴿ **فَمَا يَزِيدُهُمْ** ﴾ التخويف ﴿ **إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً** ﴾ عتواً متجاوزاً عن الحد ، فلو أنَّا أرسلنا بما اقترحوا من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها ، وفُعل بهم ما فعل بأشياعهم ، وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الأمة إلى الطامة الكبرى .

قال المزني : دخلت على الشافعي رحمه الله في مرضه الذي مات فيه ، فقلت : له كيف أصبحت ياأستاذي ؟ قال : أصبحت عن الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولعملي ملاقياً ، ولكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً ، فما أدري أروحي إلى جنة أم إلى نار ثم أنا أقول :

وَلَمْ أَدْرِ أيَّ الحَالَتَيْنِ تَنُوبُنِي ... وَإِنَّكَ لا تَدْرِي متَى أنتَ مَيِّتُ

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ** ﴾ أي واذكر وقت قولنا للملائكة ﴿ **اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ تحية وتكريماً لِمَا لَهُ من الفضائل المستوجبة لذلك ﴿ **فَسَجَدُوا** ﴾ له من غير تلعثم أداء لحقه عليه السلام وامتثالاً للأمر ، فدل ائتمارهم بأوامر الحق والإنتهاء عن نواهيه على السعادة الأزلية ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ** ﴾ فإنه أبى واستكبر ، فدل بالمخالفة والاستكبار والإباء على الشقاوة الأزلية ، قال في بحر العلوم : استثنى إبليس من الملائكة وهو

جني ، لأنه قد أمر بالسجود معهم ، فغلبوا عليه تغليب الرجال على المرأة في قولك : خرجوا إلا فلانة ، ثم استثنى الواحد منهم استثناء متصلاً ﴿ **قَالَ** ﴾ اعتراضاً وعجباً وتكبراً ﴿ **أَأَسْجُدُ** ﴾ وأنا مخلوق من النار ﴿ **لِمنْ خَلَقْتَ طِيناً** ﴾ أي من طين ، مثل قوله (**واختار مُوْسَى قَوْمَه**) أي من قومه فاستحق اللعن والطرد والبعد ﴿ **قالَ** ﴾ إبليس بعد ما لعن وطرد وأبعد ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ** ﴾ أرأيتَ بمعنى أخبرني والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ بأن أمرتني بالسجود له ، لم كرمته عليّ وفضلته بالخلافة والسجود ؟ وأنا خير منه لأنه خلق من طين وخلقت من نار ؟ ﴿ **لَئِنْ أَخَّرْتَنِ** ﴾ حياً ﴿ **إلى يوْمِ القيمَةِ** ﴾ يعني على صفة الإغواء والإضلال ﴿ **لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَتَهُ** ﴾ أي لأستولين على أولاده ونسله استيلاء قوياً بالإغواء كما قال (**فَبِعِزّتِكَ لأُغْوِينّهُمْ أجمَعينَ** ﴾ يقال احتنكه استولى عليه كما في القاموس ﴿ **إلاّ قَليلاً** ﴾ منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **اذْهبْ** ﴾ على طريقتك السوء بالإغواء والإضلال ، وليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء ، بل معناه امض لما قصدته أو هو على وجه الإهانة والتهديد ، تقول لمن لا يقبل منك : إذهب وكن على ما اخترت لنفسك ﴿ **فمنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ** ﴾ على الضلالة ﴿ **فإنّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ** ﴾ أي جزاوك وجزاؤهم ﴿ **جَزاءً مَوْفوراً** ﴾ أي تجزون جزاء مكملاً ﴿ **واسْتَفْزِزْ** ﴾ أي استخفَّ وحرك ، ومنه استفزه الغضب استخفَّه ﴿ **مَنِ اسْتَطعْتَ مِنْهُمْ** ﴾ من قدرت أن تستفزه من ذريته ﴿ **بِصوْتِكَ** ﴾ بوسوستك ودعائك إلى الشر والمعصية ، وكلّ داع إلى معصية الله فهو من حزب إبليس وجنده وقال مجاهد : بالغناء والمزامير ، فالمغنون والزامرون من جند إبليس ، والظاهر من قوله عليه السلام حين سمع صوت الأشعري وهو يقرأ (لقد أوتي هذا من مزامير آل داود) ضرب المزامير مثلاً لحسن صوت داود عليه السلام ، وحلاوة نغمته ، كأن في حلقه مزامير يَزْمرُ بها ﴿ **وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخيْلِكَ وَرَجِلِكَ** ﴾ أي صح عليهم بأعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل الفساد ، والخيل الخيالة بتشديد الياء وهي أصحاب الخيول ومنه قوله عليه السلام (ياخيل الله اركبي) ، والرَّجْل بالسكون : بمعنى الراجل ، وهو من لم يكن له ظهر يركبه ﴿ **وَشَارِكْهُمْ في الأَمْوالِ** ﴾ بحملهم على كسبها أو جمعها من الحرام ، والتصرف فيها على مالا ينبغي من الربا والإسراف ومنع الزكاة وغير ذلك ﴿ **والأَوْلادِ** ﴾ بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة والوأد والإشراك ، كتسميتهم بعبد العزى وعبد الحارث وعبد الشمس وعبد الدار وغير ذلك ، والتضليل بالحمل على الأديان الزائغة والحرف الذميمة والأفعال القبيحة حُكي (أن إبليس لما أنزل إلى الأرض ، قال يارب أنزلتني الأرض وجعلتني رجيماً فاجعل لي بيتاً قال : الحمام ، قال فاجعل لي مجلساً قال الأسواق ومجامع الطرق ، قال فاجعل لي طعاماً قال ما لم يذكر اسم الله عليه ، قال اجعل لي شراباً قال كل مسكر ، قال اجعل لي مؤذناً قال المزامير ، قال اجعل لي قرآناً قال الشعر ، قال اجعل لي حديثاً

قال الكذب ، قال اجعل لي رسلاً قال الكهنة ، قال اجعل لي مصائد قال النساء) كما في بحر العلوم للسمرقندي ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة ، وتأخير التوبة بتطويل الأمل ، وإخبارهم أن لا جنة ولا نار ونحو ذلك ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ ﴾ اللام يحتمل العهد ، والجنس ، قال عليه السلام (ما منكم من أحد إلا وله شيطان)[1] ﴿ إلاّ غُرُوراً ﴾ وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب ، قال في بحر العلوم : هذه الأوامر واردة على طريق التهديد كقوله للعصاة « اعْمَلُوْا مَا شِئْتُمْ » وقيل على سبيل الخذلان والتخلية ﴿ إنّ عِبادي ﴾ الإضافة للتشريف وهم المخلصون ، وفيه أن من تبعه ليس منهم ﴿ ليسَ لكَ عَلَيْهِمْ سُلطانٌ ﴾ أي تسلط وقدرة على إغوائهم كما قال (إنّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُوْنَ) ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ لهم في ترتيب أسباب سعادتهم وتفويت أسباب شقاوتهم ، ولا يلزم من نفي التسلط أن لا يلحقهم الشيطان أصلاً ، فإن ذلك يرده قوله تعالى (إنّ الّذينَ اتَّقوْا إذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرون) ولكنهم محفوظون لكونهم مؤيدون من عند الله تعالى ، حكى أنه جاء يهودي إلى بعض الصالحين فقال نحن نعبد بحضور القلب بلا وسواس الشيطان ، ونسمع أنكم تصلُّون بالوساوس ؟ فقال يا يهودي : بيتان بيت مملوء بالذهب والفضة ، والدر والياقوت ، والأقمشة النفيسة ، وبيت خراب خالٍ ليس فيه شيء من المذكورات ، أيقصد اللص إلى البيت المعمور المملوء من الأقمشة النفيسة أم يقصد إلى البيت الخراب ؟ فقال اليهودي يقصد إلى البيت المعمور المملوء بذلك ، فقال الرجل الصالح : قلوبنا مملوءة بالتوحيد والمعرفة ، والإيمان واليقين ، والتقوى والإحسان وغيرها من الفضائل ، وقلوبكم خالية عن هذه فلا يقصد الخنَّاس إليها ، فأسلم اليهودي ، فظهر أنَّ الشيطان غير واصل إلى مراده ، فإن الله يحفظ أولياءه ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ مبتدأ خبره قوله ﴿ الَّذِي ﴾ أي القادر الحكيم الذي ﴿ يُزْجِي ﴾ أي يسوق ويجري بقدرته الكاملة ﴿ لَكُمُ ﴾ لمنافعكم ﴿ الفُلْكَ ﴾ أي السفن ﴿ في البَحْرِ ﴾ قال في القاموس : البحر الماء الكثير ﴿ لِتبْتَغوا ﴾ لتطلبوا ﴿ مِنْ فضْلِهِ ﴾ من رزقٍ هو فضلٌ من قِبَلِه ﴿ إنّهُ كَانَ بِكُمْ ﴾ أزلاً وأبداً ﴿ رَحِيماً ﴾ حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه ، وسهل عليكم ما يعسر من أسبابه ، فالمراد الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة ﴿ وَإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ في البَحْرِ ﴾ خوف الغرق فيه ﴿ ضَلَّ مَنْ تدْعُونَ ﴾ أي ذهب عن خواطركم كل من تدعون في حوادثكم وتستغيثون به ﴿ إلاّ إيَّاهُ ﴾ تعالى وحده من غير أن يخطر ببالكم أحد منهم ، ولكن الله هو الذي ترجونه لصرف النوازل عنكم ﴿ فَلَمّا نَجَّاكُمْ ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿ إلى البَرِّ أعرضْتُمْ ﴾ عن التوحيد وعدتم إلى عبادة الأوثان ، ونسيتم النعمة وكفرتم بها

(١) الحديث أخرجه مسلم بلفظ آخر (ما منكم من أحدٍ إلاّ وقد وُكّل به قرينه من الجن ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٤٥ .

﴿ وكانَ الإنْسانُ كَفوراً ﴾ بليغ الكفران ولم يقل وكنتم كفورا ليسجل على أن هذا الجنس مرسوم بكفران النعمة ﴿ أَفأَمِنْتُمْ ﴾ الهمزة للإنكار أي أنجوتم فأمنتم من ﴿ أنْ يخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ ﴾ الذي هو مأمنكم أي يقلبه الله وأنتم عليه ، فيحصل بخسفه إهلاككم ، قال في القاموس : خسف المكان خسوفاً ذهب في الأرض وخسف الله بفلان الأرض غيَّبه فيها لازم ومتعد ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عليْكُمْ ﴾ من فوقكم ﴿ حاصِباً ﴾ ريحاً ترمي الحصباء وهي الحصى الصغار يرجمكم بها ، فيكون أشد عليكم من الغرق في البحر وقيل أي يمطر عليكم حصباء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ ثُمَّ لا تَجِدوا لَكُمْ وَكيلاً ﴾ يحفظكم من ذلك ويصرفه عنكم فإنه لا رادّ لأمره الغالب ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أنْ يُعيدَكُمْ فيهِ ﴾ في البحر بعد خروجكم إلى البر وسلامتكم ﴿ تَارةً ﴾ مرة ﴿ أُخْرىٰ ﴾ بخلق دواعي تلجئكم إلى أن ترجعوا فتركبوه ﴿ فَيُرْسِلَ عليْكُمْ ﴾ وأنتم في البحر ﴿ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ ﴾ وهي التي لا تمر بشيء إلا قصفته أي كسرته وجعلته كالرميم ﴿ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ﴾ بسبب إشراككم وكفرانكم لنعمة الإنجاء ﴿ ثُمّ لا تجِدوا لَكُمْ عليْنا بِهِ تَبيعاً ﴾ مطالباً يتبعنا بإنتصار أو صرف ، قال في القاموس : التبيعُ كأمير التابع أي ثائراً ولا طالباً قال تعالى ﴿ وَلَقدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدمَ ﴾ قاطبة تكريماً شاملاً لبرهم وفاجرهم وقال في بحر العلوم : الظاهر تكريمهم بالإيمان والعمل الصالح بدليل ما ورد أن المؤمن يعرف في السماء كما يعرف الرجل أهله وولده ، وأنه أكرم على الله من ملك مقرب ﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ في البَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ من حملته إذا جعلت له ما يركبه ، وليس من المخلوقات شيء كذلك ، ﴿ وَرزقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ﴾ من فنون النعم المستلذة مما يحصل بصنعهم ، وبغير صنعهم ، كالسمن والزبد والتمر والعسل وسائر الحلاوى ﴿ وَفَضّلْناهُمْ ﴾ في العلوم والإدراكات بِمَارَكّبْنَا فيهم من القوى المدركة ، التي يتميز بها الحق من الباطل ، والحسن من القبيح ﴿ عَلى كَثيرٍ مِمّنْ خَلقْنا ﴾ وهم ما عدا الملائكة عليهم السلام ﴿ تَفْضِيلاً ﴾ عظيماً ، فحق عليهم أن يشكروا نعم الله ولا يكفروها ، ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذي لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز ، فضلاً عمن فضل على من عدا الملأ الأعلى الذين هم العقول المحضة، وذلك أن الله أمر الملائكة كلهم بالسجود لآدم على وجه التعظيم والتكريم ، ومقتضى الحكمة الأمر للأدنى بالسجود للأعلى دون العكس ، وأيضاً قال (وَعلَّم آدمَ الأسْماءَ كُلّها) فيفهم منه كل أحد من أهل اللسان ، قصده تعالى إلى تفضيل آدم على الملائكة ، وبيان زيادة علمه واستحقاقه التعظيم والتكريم ﴿ يَومَ نَدْعُوا ﴾ نُصب بإضمار اذكر ﴿ كُلَّ أُناسٍ ﴾ الأناس : جمع الناس كما في القاموس ﴿ بِإمامِهِمْ ﴾ أي بمن ائتموا به من نبي ، فيقال : ياأمة موسى ، ياأمة عيسى ونحو ذلك ، أو كتاب فيقال : ياأهل القرآن ، وياأهل الإنجيل وغيرهما ، أو دين فيقال يامسلم ويايهودي ويانصراني ويامجوسي وغير ذلك ﴿ فَمنْ أُوتِيَ ﴾ يومئذ من أولئك المدعوين ﴿ كِتَابهُ ﴾ صحيفة أعماله ﴿ بِيَمينِهِ ﴾ وهم

السعداء ، وفي إيتاء الكتاب من جانب اليمين تشريف لصاحبه وتبشير ﴿ **فأُولئِكَ** ﴾ الجمع باعتبار معنى « مَنْ » ﴿ **يقْرأونَ كِتابَهُمْ** ﴾ قراءة ظاهرة مسرورين ، وينتفعون بما فيه من الحسنات ، ﴿ **ولا يُظْلَمونَ** ﴾ أي لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة في كتبهم بل يؤتونها مضاعفة ﴿ **فَتيلاً** ﴾ أي قدر فتيل وهو القشرة التي في شق النواة ، أو أدنى شيء ، فإن الفتيل مثلٌ في القلة والحقارة ﴿ **وَمنْ كانَ في هذهِ** ﴾ الدنيا ﴿ **أَعْمى** ﴾ أعمى القلب لا يهتدي إلى رشده ﴿ **فَهُوَ في الآخِرَةِ أعْمى** ﴾ لا يرى طريق النجاة ، لأن العمى الأول موجب للثاني ، فالكافر لا يهتدي إلى طريق الجنة ، والعاصي إلى ثواب المطيع ، والقاصر على مقامات الكاملين ﴿ **وأَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ من الأعمى في الدنيا لزوال الاستعداد وتعطل الأسباب والآلات ﴿ **وإنْ كَادُوْا ليَفْتِنونَكَ** ﴾ ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوهاً ، والأسلم ما في تفسير الكواشي ، من أن المشركين طلبوا من النبي عليه السلام ، أن يجعل آية رحمة مكان آية عذاب وبالعكس ، ويمس آلهتهم عند استلام الحجر ، ويطرد الضعفاء والمساكين عنه ، ونحو ذلك ، وبالعكس ، وأطمعوه في إسلامهم فنزلت أي إن الشأن قاربوا أن يوقعوك في الفتنة بالإستزلال ويخدعوك ﴿ **عَنِ الّذي أَوْحَيْنَا إليْكَ** ﴾ من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ﴿ **لِتَفْتَريَ عَليْنا** ﴾ أي لتختلق علينا ﴿ **غيْرهُ** ﴾ أي غير الذي أوحينا إليك كما تقدم ﴿ **وإذاً** ﴾ أي لو اتبعت أهواءهم وفعلت ما طلبوا منك ﴿ **لا تَخَذُوكَ خَليلاً** ﴾ أي صديقاً ووليا ، وكنت لهم ولياً وخرجت من ولايتي ﴿ **وَلَوْلاَ أنْ ثَبّتْناكَ** ﴾ أي ولولا تثبيتنا إياك على الحق وعصمتنا ﴿ **لَقدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليْهِمْ شَيْئاً قَليلاً** ﴾ من الركون الذي هو أدنى ميل أي لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم شيئاً يسيراً ، لقوة خدعهم وشدة احتيالهم ، لكن أدركتك العصمة ، فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الركون إليهم ، مع قوة الداعي إليها ﴿ **إذاً** ﴾ لو قاربت أن تركن إليهم أدنى ركنة ﴿ **لأذَقْناكَ ضِعْفَ الحيٰوة وَضِعْفَ المَماتِ** ﴾ أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، ضعف ما يعذب به في الدارين ، بمثل هذا الفعل غيرك ، لأن خطأ الخطير أخطر ، وكان أصل الكلام عذاباً ضعفاً في الحياة ، وعذاباً ضعفاً في الممات ، فقيل : ضعف الحياة وضعف الممات ، كما لو قيل : لأذقناك أليم الحياة ، وأليم الممات ﴿ **ثُمّ لا تَجِدُ لَك عَليْنَا نَصيراً** ﴾ يدفع عنك العذاب ،

﴿ **وَإنْ كَادوا** ﴾ أي وإن الشأن قارب أهل مكة ﴿ **لَيَسْتَفِزّونَكَ** ﴾ يقال استفزه أزعجه أي ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم وينزعونك بسرعة ﴿ **مِنَ الأرْضِ** ﴾ أي الأرض التي أنت فيها وهي أرض مكة ﴿ **ليُخْرِجُوكَ مِنْها** ﴾ إن قلت : أليس أخرجوه بشهادة قوله تعالى (**وَكَأيّنْ مِنْ قَرْيةٍ هي أشدُّ قوّةً مِنْ قرْيتِكَ التي أخْرَجتْكَ**) وقوله عليه السلام حين خرج من مكة متوجهاً إلى المدينة (والله إني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ) ؟ قلت : لم

يتحقق الإخراج عند نزول هذه الآية ، ثم وقع بعده حيث هاجر عليه السلام بإذن الله تعالى وكانوا قد ضايقوه قبل الهجرة ليخرج ﴿ **وإذاً** ﴾ أي ولئن أخرجت ﴿ **لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ** ﴾ أي بعد إخراجك ﴿ **إلاّ قَليلاً** ﴾ أي إلا زماناً قليلاً ، وقد كان كذلك فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه السلام ﴿ **سُنّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا** ﴾ أي سن الله سنة ، وهي أن يهلك كل أمة أخرجت رسولهم من بين أظهرهم ﴿ **ولا تَجِدُ لِسُنّتِنا** ﴾ أي لعادتنا بإهلاك مخرجي الرسل من بينهم ﴿ **تَحْويلاً** ﴾ أي تغييراً ﴿ **أَقِمِ الصّلوةَ** ﴾ أدمها ﴿ **لِدُلُوكِ الشّمْسِ** ﴾ أي وقت زوالها أو غروبها ، يقال : دَلَكت الشمس دلوكاً غربت أو اصفرت ومالت عن كبد السماء كما في القاموس ﴿ **إلى غَسَقِ اللّيْلِ** ﴾ إلى ظلمته وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة ، الغاسق : الليلُ إذا غاب الشفق ﴿ **وَقُرْآنَ الفَجْرِ** ﴾ أي صلاة الفجر على الإغراء أي الزم ، وسميت قرآناً لأنه ركنها كما تسمى ركوعاً وسجوداً ، فالآية تدل على تفسير الدلوك بالزول جامعة للصلوات الخمس ﴿ **إنّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهوداً** ﴾ يشهده ويحضره ملائكة الليل وملائكة النهار ، ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار ، وفي وقت الصباح أيضاً شواهد القدرة من تبدل الظلمة بالضياء ، والنوم الذي هو أخو الموت بالإنتباه ﴿ **وَمِنَ اللّيْلِ** ﴾ أي قم بعض الليل ﴿ **فَتَهَجّدْ بِهِ** ﴾ أي أزلْ وألق الهجود وهو النوم ، والضمير المجرور للقرآن أي تهجد في ذلك البعض ﴿ **نافِلَةً لَكَ** ﴾ فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة ، خاصة بك دون الأمة ، أو تطوعاً لزيادة الدرجات ، بخلاف تطوع الأمة فإنه لتكفير الذنوب ، وتدارك الخلل الواقع في فرائضهم ، ﴿ **عَسىٰ** ﴾ في اللغة للطمع ، والطمع والرجاء من الله كالواجب ﴿ **أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ** ﴾ من القبر فيقيمك ﴿ **مَقاماً مَحْمُودَا** ﴾ عندك وعند جميع الناس ، وهو مقام الشفاعة العامة لأهل المحشر ، يغبطه به الأولون والآخرون ، لأن كل من قُصِد من الأنبياء للشفاعة ، يحيد عنها ويُحيل على غيره ، حتى يأتوا محمداً للشفاعة فيقول : أنا لها ، ثم يشفَّع فيمن كان من أهلها .

والآية رد على المعتزلة المنكرين للشفاعة زعماً أنها تبليغ غير المستحق للثواب إلى درجة المستحقين للثواب ، وذلك ظلم ، ولم يعلموا أن المستحق للثواب والعقاب من جعله الله لذلك مستحقاً بفضله وعدله ، ولا واجب لأحد على الله ، بل هو يتصرف في عباده على حكم مراده ، فإن قالت المعتزلة : رويتم عن النبي عليه السلام (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[1] فعلى هذا المستحق للشفاعة إنما هو من قتل النفس ، وزنى ، وشرب الخمر ، فإن أصحاب الكبائر هؤلاء ، وهذا إغراء ظاهر لخلق الله على مخالفة أوامره ، فالجواب أنه ليس فيه إغراء ، وإنما فيه أن صاحب الكبائر مع قربه من عذاب الله واستحقاقه

(١) الحديث أخرجه الترمذي في صفة القيامة وأبو داود في باب الشفاعة وابن ماجه في الزهد وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٧٦ .

عقوبته تستدركه شفاعتي ، وتنجيه عنايتي ، وينقذه أرحم الراحمين بجاهي ومكانتي ، ففيه مدح الرسول ﷺ نفسه بماله عند الله تعالى من الدرجة الرفيعة والوسيلة ، فإذا كان حكم صاحب الكبائر هذا فكيف ظنك بصاحب الصغيرة ؟

* ثم الآية ترغيب لصلاة التهجد وهي ثمان ركعات قالت عائشة رضي الله عنها « ما كان يزيد رسول الله ﷺ في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً »[1] .

ويروى عن بعض الصالحين أنه كان يقول :

إذا كثر الطعام فحذّروني * فإن القلب يُفْسِدُه الطعام
إذا كثر المنام فنبّهوني * فإن العمر يُنقصُه المنام
إذا كثر الكلام فسكّتوني * فإن الدين يهدمه الكلامُ
إذا كثر المشيب فحرّكوني * فإن الشيب يتبعه الحِمَامُ

وفي الحديث (إذا نام العبد عقد الشيطان على رأسه ثلاث عقد : فإن قعد وذكر الله انحلّتْ عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة أخرى ، فإن صلى ركعتين انحلت العقد كلها ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح كسلان خبيث النفس)[2] وليل القائم يتنور بنور عبادته كوجهه ، يحكى عن شاب عابد أنه قال : نمت عن وردي ليلة ، فرأيت كأنّ محرابي قد انشق ، وكأني بجوارٍ قد خرجن من المحراب ، لم أر أحسن أوجهاً منهن ، وإذا واحدة فيهن شوهاء أي قبيحة لم أر أقبح منها منظراً ، فقلت : لمن أنتن ؟ ولمن هذه ؟ فقلن : نحن لياليك التي مضين ، وهذه ليلة نومك ، فلو مت في ليلتك هذه لكانت هذه حظك ، وكان بعض الصالحين يقوم الليل كله ويصلي صلاة الصبح بوضوء العشاء ﴿ **وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي** ﴾ القبر ﴿ **مُدْخَلَ صِدْقٍ** ﴾ أي إدخالاً مرضياً على طهارة وخَلاصٍ من السيئات ﴿ **وأَخْرِجْنِي** ﴾ منه عند البعث ﴿ **مُخْرَجَ صِدْقٍ** ﴾ أي إخراجاً مرضياً ملقى بالكرامة آمناً من السخط ، يدل على هذا المعنى ذكره أثر البعث ، فالمدخل والمخرج مصدران بمعنى الإدخال والإخراج وقيل : المراد إدخال المدينة والإخراج من مكة ، فيكون نزولها حين أمر بالهجرة ويدل عليه قوله تعالى (**وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ**) وقيل إدخاله في كل ما يلابسه من مكان أو أمر ، وإخراجه منه ، ورجح الأكثرون هذا الوجه فالمعنى حيثما

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التهجد ٣ / ١٦ ومسلم في صلاة الليل ، وأبو داود ، والترمذي .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي بلفظ (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ..) الحديث وانظر جامع الأصول ٦ / ٦٩ .

أدخلتني وأخرجتني فليكن بالصدق مني ، ولا تجعلني ذا وجهين ، فإن ذا الوجهين لا يجوز أن يكون أميناً ﴿ **واجعلْ لي مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ من خزائن نصرك ورحمتك ﴿ **سُلْطاناً** ﴾ برهاناً وقهراً ﴿ **نَصيراً** ﴾ ينصرني من أعداء الدين ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ** ﴾ الإسلام والقرآن ﴿ **وَزَهقَ البَاطِلُ** ﴾ أي ذهب وهلك الشرك والشيطان ،

﴿ **إنَّ الباطِلَ** ﴾ كائناً ما كان ﴿ **كَانَ زَهُوقاً** ﴾ أي شأنه أن يكون مضمحلاً غير ثابت ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل ينكت بمخصرة كانت بيده في عين واحد واحد ويقول (جاء الحق وزهق الباطل) فينكبُّ بوجهه حتى ألقوا جميعاً وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صُفر ، فقال : ياعليُّ ارم به ، فصعد فرمى به فكسره ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ** ﴾ لما في الصدور من أدواء الريب ، وأسقام الأوهام ﴿ **وَرحمةٌ للمُؤمِنينَ** ﴾ به لأنهم ينتفعون به ، فإن القرآن في تقويم المؤمنين واستصلاح نفوسهم ، كالدواء الشافي للمرض ﴿ **ولا يزيدُ الظّالمينَ إلاّ خَساراً** ﴾ أي لا يزيد القرآن الكافرين المكذبين به مع كونه في نفسه شفاء من الأسقام ، إلا هلاكاً بكفرهم وتكذيبهم ، وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض ، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك ، وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مداراً للشفاء والهلاك ، كبعض المطريكون دُرّاً وسماً باستعداد المحل وعدم استعداده .

* واعلم أن القران شفاء للمرض الجسماني وآيات الشفاء في القرآن ستٌ : (**وَيَشْفِ صُدورَ قَوْمٍ مُؤمنينَ**) (**شِفاءٌ لما في الصُّدور**) (**فيه شِفاءٌ للنَاسِ**) (**وَنُنَزِّل مِنَ القُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ورَحْمةٌ للمُؤْمِنينَ**) (**وإذا مَرضْتُ فهُوَ يَشفْينِ**) (**قلْ هُوَ للَّذينَ آمنُوا هدىً وشِفاء**) وفي الأثر (من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله) قال الشيخ التيمي رحمه الله : في خواص القرآن إذا كتبت الفاتحة في إناء طاهر ، ومحيت بماء طاهر ، وغسل المريض وجهه عوفي بإذن الله ، فإذا شرب من هذا الماء من يجد في قلبه تقلباً أو شكاً أو رجيفاً أو خَفَقاناً يسكن بإذن الله ، وزال عنه ألمه ، وإذا كتبت بمسك في إناء زجاج ومحيت بماء ، وشرب ذلك الماءَ البليدُ الذي لا يحفظ ، يشربه سبعة أيام زالت بلادته وحفظ ما يسمع ، فعلى العاقل أن يتمسك بالقرآن ويداوي به مرضه فلابد من معرفة المرض أولاً فإنه ما دام لم يُعرف نوعُه ، لا تتيسر المعالجة وأهل القرآن هم الذين يعرفون ذلك فالمعالجة بالقرآن أولى ﴿ **وإذا أنْعَمْنا عَلَى الإنْسانِ** ﴾ بالصحة والسعة ﴿ **أعْرضَ وَنَأى بِجانِبهِ** ﴾ كناية عن الاستكبار والتعظم ، لأن نأي الجانب وتحويل الوجه من ديدن المستكبرين ، ﴿ **وإذا مَسَّهُ الشَّرُ** ﴾ من فقر أو مرض أو

نازلة من النوازل ﴿ كانَ يَؤُوساً ﴾ شديد اليأس من روح الله وفضله ، وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممَّن هو على هذه الصفة ، ولا ينافيه قوله تعالى (وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فذو دُعاءٍ عَرِيضٍ) ونظائره فإن ذلك شأن بعض منهم ﴿ قل كلٌّ ﴾ من المؤمنين والكافرين ﴿ يَعْمَلُ ﴾ عمله ﴿ على شَاكِلَتِهِ ﴾ طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة ، قال في القاموس : الشاكلة الشكل والناحية والنية والطريقة والمذهب ﴿ فَربُّكُمْ ﴾ الذي برأكم على هذه الطبائع المختلفة ﴿ أعلمُ بِمنْ هُوَ أهْدىٰ سَبيلاً ﴾ أسدّ طريقاً وأبين منهاجاً أي يعلم المهتدي والضال فيجازي كُلاًّ بعمله ، وفي الآية إشارة إلى أن الأعمال دلائل الأحوال ، فمن وجد نفسه في خير وطاعة وشكر ، فليحمد الله تعالى كثيراً ، ومن وجدها في شر وفسق وكفران ويأس فليرجع قبل أن يخرج الأمر من يده ، حُكي أن ملكاً صاحب زينة واسع المملكة كثير الخزينة اتخذ ضيافة ، وجمع أمراءه وأحضر ألوان الأطعمة والأشربة فلما أرادوا التناول إذْ طرق رجل حلقة الباب بحيث تزلزل السرير ، فقال له الغلمان : ما هذا الحرص وسوء الأدب أيها الفقير ؟ اصبر حتى نأكل ونطعمك فقال : مالي حاجة إلى طعامكم ، جئت أقبض روح ملك دار الفناء ، فلم يشعروا إلا وقد وقع الملِكُ عن سريره ميتاً ، وغاب ذلك الرجل عن الأنظار ، فأُفٌّ لمن اغتر بهذه الدار ﴿ ويَسئَلُونَكَ ﴾ أي اليهود ﴿ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الذي هو روح البدن الإنساني ومبدأ حياته ، سألوه عن حقيقته فأجيبوا بقوله ﴿ قُلِ الرُّوحُ من أمْرِ ربّي ﴾ أي من جنس ما استأثر الله بعلمه من الأسرار الخفية ، التي لا يكاد يحوم حولها عقول البشر ، فالأمر واحد الأمور بمعنى الشأن ، والإضافة للإختصاص العلمي لا الإيجابي لإشتراك الكل فيه كذا في الإرشاد ، وقال البيضاوي : من الإبداعيات الكائنة بـ « كُنْ » من غير مادة ، وتولد من أصل كأعضاء جسده ﴿ وما أُوْتيتُمْ ﴾ أيها المؤمنون والكافرون ﴿ مِنَ العِلْمِ إلاّ قليلاً ﴾ أي إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرق الحواس ، فإن اكتساب العقل للمعارف النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات ، ولذلك قيل : من فقد حساً فقد علماً ، ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئاً من أحوال المعرفة لذاته وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن معرفة ذاته لأنه مما استأثر الله بعلمه .

* قال في الكواشي : اختلفوا في الروح وماهيته ، ولم يأت أحد منهم على دعواه بدليل قطعي ، غير أنه شيء بمفارقته يموت الإنسان ، وبملازمته له يبقى انتهى ﴿ وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنّ بالّذي أوْحيْنا إلَيكَ ﴾ اللام الأولى موطئة للقسم المحذوف ، والثانية لام الجواب ، والمعنى : والله إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور فلم نترك منه أثراً وبقية ، وهذا الكلام وارد على سبيل الفرض ، والمحال يصح فرضه لغرض ﴿ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بهِ ﴾ بالقرآن أي بعد ذهابه ﴿ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ أي من يتوكل بردّه عليك بعد ذهابه من صدرك ﴿ إلاّ رَحْمةً مِنْ رَبّكَ ﴾ إلا أن يرحمك ربك فيردّه عليك ، وفي

الكواشي (إلاَّ رَحْمَةً) مفعول له أي حفظناه عليك للرحمة، ثم قال: وهذا خطاب له عليه السلام والمراد غيره ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ بإرسالك وإنزال الكتاب عليك وإبقائه في حفظك ﴿ قُلْ ﴾ للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل بل يزعمون أنه من كلام البشرَ ﴿ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾ أي اتفقوا ﴿ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ في البلاغة ، وكمال المعنى ، وحسن النظم ، والإخبار عن الغيب ، وفهم العرب العرباء ، وأرباب البيان ، وتخصيصُ الثقلين بالذكر ، لأن التحدي معهما لامع الملائكة ، إذ المنكر لكونه من عند الله منهما لا من غيرهما ، وإلا فلا يقدر على إتيان مثله إلا الله تعالى وحده ﴿ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ بكلام مماثل له في صفاته البديعة ، ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ مظاهراً ومعاوناً في الإتيان بمثله ﴿ ولقدْ صَرَّفْنا ﴾ أي لقد ردَّدنا وكررنا بوجوهٍ مختلفة ، توجب زيادة تقرير وبيان ، ووكادة رسوخ واطمئنان ﴿ لِلنَّاسِ فِي هذا الْقُرْآنِ ﴾ المنعوت بالنعوت الفاضلة ﴿ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ من كل معنى بديع هو كالمثل في الغرابة والحسن ، واستجلاب النفس ليتلقوه بالقبول ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ جحوداً وإنكاراً للحق ، وإنما جاز الاستثناء من الموجب ، مع أنه لا يصح « ضربت إلا زيداً » لأنه متأول بالنفي مثل ما رضي وما اختار ، وفي الآية فوائد : منها أن القرآن العظيم أجلُّ النعم وأعظمها ، فوجب على كل عالم وحافظ أن يقوم بشكره ، ويحافظ على أداء حقوقه ، قبل أن يخرج الأمر من يده ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه « إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وليصلين قوم ولا دين لهم ، وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء ، فقال رجلٌ : كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا ، وأثبتناه في مصاحفنا ؟ فقال يسري عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء ، ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب »[1] وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل ، له دوي حول العرش كدوي النحل ، فيقول الرب تعالى مالك ؟ فيقول يارب أُتْلَى ولا يُعمل بي ، أتلى ولا يعمل بي .

ومنها أنه ليس في استعداد الإنسان ولا في مخلوق غيره أن يأتي بكلام جامع مثل كلام الله تعالى ، له عبارة في غاية الجزالة والفصاحة ، وإشارة في غاية الدقة والحذاقة ، ولطائف في غاية اللطف والنزاهة ، ثم اعلم أن القرآن غير مخلوق ، لأنه صفة الله تعالى ، وصفاته بأسرها أزلية غير مخلوقة ، قال أبو حنيفة رحمه الله : فمن قال إنها مخلوقة أو وقف فيها ، أوشكَّ فيها فهو كافر بالله ﴿ وَقَالُوا ﴾ روى الإمام الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عتبة وشيبة وأبا سفيان والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة وأبا جهل ، وأمية بن خلف ، ورؤساء قريش ، اجتمعوا عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض : إبعثوا إلى محمد

---

(١) هذا الأثر أخرجه الطبراني والحاكم وصححه ، وانظر الدر المنثور ٤ / ٢٠١ .

فكلموه وخاصموه حتى تُعْذروا فيه ، فبعثوا إليه إن أشراف قومك اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً وهو يظن أنه بدالهم في أمره بداء ، وكان عليهم حريصاً يحبُّ رشدهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا يامحمد : إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرّقت الجماعة وما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا تطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الرّأي الذي يأتيك قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن الرّأي ـ بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ، فقال رسول الله ﷺ (ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف فيكم ، ولا للملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم) قالوا يامحمد : إن كنت غير قابل منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاداً ولا أقل مالاً ، ولا أشد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك فلْيسيِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا أو يبسط لنا بلادنا وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا منهم « قُصي بن كلاب » فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول ، فقال رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه أصبر لأمر الله) قالوا فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك وسله أن يجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما سواك فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعاش فقال عليه السلام : (ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً) قالوا سله أن يسقط علينا السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل فقال عليه السلام : (ذلك إلى الله تعالى إن شاء فعل) ، وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً ، وقام عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب ابن عمة النبي عليه السلام ـ ثم أسلم بعد وحسن إسلامه ـ فقال لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلماً وترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتينا وتأتي بنسخة منشورةً معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، فانصرف رسول الله عليه السلام إلى أهله حزيناً لما فاته من متابعة قومه لما رأى من مباعدتهم عنه ، فأنزل الله تعالى (**وَقَالُوا** ﴾ أي مشركوا مكة ورؤساؤهم ﴿ **لَنْ نُؤْمِنَ لكَ** ﴾ لن نعترف لك يامحمد بنبوتك ورسالتك

﴿ حَتّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ ﴾ أرض مكة ﴿ يَنْبُوعاً ﴾ الينبوع : العين الكثيرة الماء ، ينبع ماؤها ولا يغور ولا ينقطع ﴿ أو تَكُونَ لكَ جَنّةٌ ﴾ بستان يستر أشجاره ما تحتها من العرصة ﴿ مِنْ نَخيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ وهما اسم جمع لنخلة وعنبة ﴿ فَتُفَجِّرَ الأنْهارَ ﴾ أي تجريها بقوة ﴿ خِلالَها ﴾ ما بين بيوتها ﴿ تَفْجيراً ﴾ كثيراً ، والمراد إما إجراء الأنهار خلالها عند سقيها ، أو إدامة إجرائها كما ينبىء عنه الفاء لا ابتداؤه ﴿ أو تُسْقِطَ السّماءَ كما زَعَمْتَ عليْنا كِسَفاً ﴾ جمع كسفة ، كقِطَع وقِطْعة ، لفظاً ومعنى ﴿ أو تأتي باللهِ والملائِكَةِ قَبيلاً ﴾ مقابلاً كالعشير والمعاشر أو كفيلاً يشهد بصحة ما تدَّعيه ﴿ أوْ يكونَ لَكَ بيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ من ذهبٍ وأصله الزينة ﴿ أوْ ترْقىٰ ﴾ تصعد ﴿ في السّماءِ ﴾ في معارجها فحذف المضاف ، يقال رقى في السلّم أي صعد وعلا ﴿ وَلنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أي لأجل رقيك فيها وحده أي صعودك ﴿ حَتّى تُنَزِّلَ ﴾ منها ﴿ عَليْنا كِتاباً ﴾ فيه تصديقك ﴿ نَقْرؤهُ ﴾ نحن من غير أن يتلقى من قبلك ، وكانوا يقصدون بمثل هذه الإقتراحات اللّجاج والعناد ، ولو كان مرادهم الاسترشاد ، لكفاهم ما شاهدوا من المعجزات ﴿ قُلْ ﴾ تعجباً من شدة شكيتهم واقتراحهم وتنزيهاً لساحة الله ﴿ سُبْحانَ رَبّي هَلْ كُنْتُ إلا بَشَراً ﴾ لا ملكاً حتى يتصور منّي الترقي في السماء ونحوه ﴿ رَسُولاً ﴾ مأموراً من قبل ربي بتبليغ الرسالة ، من غير أن يكون لي خيرة في الأمر ، فانظر في هذه الآيات إلى سوء أدب المشركين بالاقتراحات المنقولة عنهم ، وإلى كال الأدب المحمدي والفناء الأحمدي وترك الاعتراض ، حكي أن ليلى لما كسرت إناء قيس رقص ثلاثة أيام من الشوق ، فقيل أيها المجنون كنت تظن أن ليلى تحبك ، فقد كسرت إناءك فضلاً عن المحبة ، فقال : إنما المجنون من لم يتفطن لهذا السر ، يعني أن كسر الوعاء عبارة عن الفناء في حبها ، فالعاقل يسعى في تطهير القلب عن الأدناس ، ولا يأنس بشيء سوى ذكر رب الناس ، وقال الإمام الغزالي رحمه الله : لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب أعني طهارته عن أدناس الدنيا ، وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبُّه لله تعالى ، وصفاءُ القلب وطهارته لا تكون إلا بالمعرفة ، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الذكر والفكر ، وهذه الصفات الثلاثة هي المنجيات ﴿ وما مَنعَ النّاسَ ﴾ أي قريشاً من ﴿ أنْ يُؤْمِنوا ﴾ بالقرآن وبالنبوة ﴿ إذْ جَاءَهُمُ الهُدىٰ ﴾ وقت مجيء الوحي ﴿ إلاّ أنْ قَالُوا ﴾ إلا قولهم ﴿ أبَعثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً ﴾ ؟ منكرين أن يكون رسول الله من جنس البشر ﴿ قُلْ ﴾ جواباً لشبهتهم ﴿ لَوْ كانَ ﴾ لو وجد واستقر ﴿ في الأرْضِ ﴾ بدل البشر ﴿ ملائِكَةٌ يَمْشُونَ ﴾ على أقدامهم كما يمشي الناس ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء ، فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿ مُطْمَئِنّينَ ﴾ ساكنين فيها قارين ﴿ لَنَزّلنا عليْهِمْ مِنَ السّماءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾ ليبين لهم ما يحتاجون إليه من أمور الدنيا والدين ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، ولما كان سكان الأرض بشراً ، وجب أن يكون رسولهم بشراً ليمكن

الإفادة والإستفادة ، وهم جهلوا أن التجانس يورث التآنس ، والتخالف يوجب التنافر .

﴿ **قُلْ كَفى باللهِ** ﴾ وحده ﴿ **شَهيداً** ﴾ على أني بلغت ما أرسلني به إليكم ، وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿ **بيْني وبيْنَكُمْ** ﴾ لم يقل بيننا تحقيقاً للمفارقة ﴿ **إنّهُ كَانَ بعبادِهِ** ﴾ من الرسل والمرسل إليهم ﴿ **خَبيراً بصيراً** ﴾ محيطاً بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك ، وفيه تسلية له عليه السلام ، وتهديد للكافرين ﴿ **وَمنْ يَهْدِ اللهُ** ﴾ أي يخلق فيه الإهتداء إلى الحق ﴿ **فَهُوَ المهْتَدِ** ﴾ لا غير ﴿ **وَمنْ يُضلِلْ** ﴾ أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره ﴿ **فَلنْ تَجِدَ لَهُمْ** ﴾ أشار بالتوحيد في جانب الهداية إلى وحدة طريق الحق وقلة سالكيه ، وبالجمع في جانب الضلال إلى تعدد سبل الباطل وكثرة أهله ﴿ **أَوْلِيَاء** ﴾ كائنين ﴿ **مِنْ دُونِهِ** ﴾ أي أنصاراً يهدونهم إلى طريق الحق ، ويدفعون عنهم الضلال ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يومَ القِيٰمةِ** ﴾ كائنين ﴿ **عَلى وَجُوهِهِمْ** ﴾ سحباً أو مشياً ، فإن الذي أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم ﴿ **عُمْيَاً** ﴾ جمع أعمى ﴿ **وَبُكْماً** ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس ﴿ **وَصُمّاً** ﴾ جمع أصم من الصمم محركة وهو انسداد الأذن وثقل السمع ، إن قيل : ما وجه الجَمْعِ بين هذه الآية وبين قوله تعالى (**سَمِعُوْا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفيراً**) وقوله (**ورأى المجْرِمونَ النّارَ**) وقوله (**دَعَوْا هُنالِكَ ثُبوراً**) ؟ قلت قال ابن عباس رضي الله عنهما : معنى الآية لا يرون ما يسرّهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، ولا يستمعون ما يلذ مسامعهم ، لما أنهم كانوا لا يستبصرون بالآيات والعبر ، ولا ينطقون بالحق ولا يستمعون إليه ، وقال مقاتل : هذا إذا قيل لهم أخسأوا فيها ولا تكلمون فيصيرون بأجمعهم صماً بكماً عمياً ، نعوذ بالله من سخطه ﴿ **مَأْوٰهُمْ** ﴾ منزلهم ومسكنهم ، والمأوى كل مكان يأوى إليه ليلاً كان أو نهاراً ﴿ **جَهَنّمُ** ﴾ خبر مأواهم ﴿ **كلّما خَبتْ** ﴾ يقال خبت النار خُبُوّاً : سكنت وطفئت كما في القاموس ﴿ **زِدْناهُمْ سَعيراً** ﴾ أي كلما سكن لهبها بأن أكلتْ جلودَهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما تتعلق به النار ، زدناهم توقداً بأن بدلناهم جلوداً غيرها فعادت ملتهبة ومسعرة ، فإن قلت قوله تعالى (**كلّما نَضِجَتْ جُلودُهُمْ بدّلْناهُمْ جُلوداً غيْرها**) يدل على أن النار لا تتجاوز في تعذيبهم عن حد الإنضاج إلى حد الإحراق والإفناء ؟ قلت : النضج مجاز عن مطلق تأثير النار ، ثم ما ذكر من التجديد بعد الإفناء عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ، ليروها بعد أخرى فيروها عياناً حيث لم يعلموها برهاناً كما يفصح عنه قوله ﴿ **ذٰلكَ** ﴾ مبتدأ خبرُهُ قوله ﴿ **جَزاؤُهُمْ بأنّهُمْ** ﴾ بسبب أنهم ﴿ **كَفَروا بآياتِنا** ﴾ العقلية والنقلية الدالة على صحة الإعادة دلالة واضحة ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ منكرين أشد الإنكار ﴿ **أَئذا كُنّا عِظاماً وَرُفاتاً** ﴾ الرفات الحطام وهو الفتات المكسر ، وقال مجاهد رفاتاً أي تراباً ﴿ **أئِنّا لمبعُوثونَ خَلْقاً جَديداً** ﴾ أي لمبعوثون بعثاً جديداً ؟ ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا** ﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿ **أنّ اللهَ الّذي خَلَقَ السّموات والأرْضَ** ﴾ من غير مادة مع عظمتها ﴿ **قَادِر على أن يَخْلُقَ**

﴿ مِثْلَهُمْ ﴾ في الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الإعادة ﴿ وجَعلَ لَهُمْ أجَلاً لا رَيْبَ فيهِ ﴾ المعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس ، وجعل لهم ولبعثهم أجلاً محققاً لا ريب فيه ، هو يوم القيامة ﴿ فَأبَى الظّالِمونَ ﴾ فامتنعوا من الإنقياد للحق ولم يرضوا ﴿ إلاّ كفُوراً ﴾ جحوداً به ﴿ قُلْ لوْ أنْتُمْ تَمْلِكونَ خَزائِنَ رحمةِ ربّي ﴾ خزائن رزقه التي أفاضها على كافة الموجودات ، ﴿ إذاً لأمْسَكْتُمْ ﴾ لبخلتم من قولك للبخيل : ممسكٌ ﴿ خشْيةَ الإنفاقِ ﴾ مخافة عاقبته وهو النفاد ﴿ وكانَ الإنْسانُ قَتُوراً ﴾ يقال قتر ضيَّق ، والمعنى كان ضيقاً مبالغاً في البخل ، لأن مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض فيما يبذل ، فالبخل والحرص من الصفات المذمومة ، فلابد من تطهير النفس عنهما وتحليتها بالسخاء والقناعة وترك طول الأمل ، قال حسان في مدح النبي ﷺ :

لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا * عَلَى الْبَرِّ كَانَ البَرُّ أنْدىٰ مِنَ البَحْرِ

الراحة الكف والمعشار بمعنى العشر ، روي أن زين العابدين رضي الله عنه لقيه رجل فسبه ، فثارت إليه العبيد والموالي ، فقال لهم زين العابدين : مهلاً على الرجل ، ثم أقبل عليه وقال ما سترمن أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحى الرجل فألقى عليه خميصة كانت عليه وهي كساء أسود معلم ، وأمر بألف درهم فكان الرجل بعد ذلك يقول أشهد أنك من أولاد الرسل ، وفيهم يصدق قول القائل :

وَهُمْ يُنْفِقُونَ المَالَ في أوّلِ الغِنىٰ * وَيَسْتَأْنِفُونَ الصّبْرَ فِي آخِرِ الْفَقْرِ
إذا نَزَلَ الحيُّ الغَريبُ تقارعوا * عَلَيْهِ فَلَمْ تَدْرِ الْمُقِلَّ من الْمُثْري

﴿ ولَقدْ آتيْنا مُوسَى تِسْعَ آياتٍ ﴾ معجزات ﴿ بيِّناتٍ ﴾ واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله ، وهي العصا ، واليد البيضاء ، والجراد ، والقمَّل ، والضفادع ، والدم ، والطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات ﴿ فاسْألْ بني إسْرائيلَ ﴾ أي فقلنا له ﴿ إذْ جَاءَهُمْ ﴾ سلهم ياموسى واقصِدْ فرعون وقل له أرسل معي بني إسرائيل أي أولاد يعقوب أي ليظهر صدقك حين اختبروك عندهم على وفق ما اخبرتهم ﴿ فقَالَ لَهُ فِرْعَونُ ﴾ أي فأظْهَرَ عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات ، وبلَّغه ما أرسل به فقال له فرعون ﴿ إنّي لأَظُنُّكَ يامُوسَى مَسْحُوراً ﴾ سُحِرْتَ فتخبَّط عقلك ، ولذا تتكلم بمثل هذه الكلمات غير المعقولة ، وهذا يشبه قوله (إنّ رَسُولَكُمُ الّذي أُرْسِلَ إليْكُمْ لَمَجْنُونٌ) ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ لقدْ عَلِمْتَ ما أنْزَلَ هَؤُلاءِ ﴾ يعني الآيات التي أظهرها ﴿ إلاّ رَبُّ السّمواتِ والأرْضِ ﴾ خالقهما ومدبرهما ﴿ بَصائِرَ ﴾ حال من الآيات أي بينات مكشوفات تبصرك صدقي ، ولكنك تعاند وتكابر ﴿ وَإنّي لأَظُنُّكَ يافِرْعَونُ مَثْبوراً ﴾ مصروفاً عن

الخير مطبوعاً على الشر ﴿ فَأَرادَ ﴾ أي فرعون من نتائج ظنه الكاذب ﴿ أَنْ يَسْتفِزَّهُمْ ﴾ الاستفزاز الازعاج ﴿ مِنَ الأَرْضِ ﴾ أي أرض مصر بالقتل والاستئصال ﴿ فأغْرقْناهُ ﴾ أي فرعون ﴿ وَمنْ مَعَهُ ﴾ من القبط ﴿ جَميعاً ﴾ ونجينا موسى وقومه ، قال في الإرشاد : فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالإغراق ﴿ وَقُلْنا مِنْ بعْدِهِ ﴾ أي من بعد إغراق فرعون ﴿ لِبني إسْرائيلَ ﴾ أولاد يعقوب ﴿ اسْكُنوا الأَرْضَ ﴾ وهي أرض مصر إن صح أنهم دخلوها بعده ﴿ فإذا جَاءَ وعْدُ الآخِرَةِ ﴾ يعني قيام الساعة ﴿ جئْنا بِكُمْ لَفيفاً ﴾ اللفيف الجماعات من قبائل شتى ، قد لُفّ بعضها ببعض ، قال في القاموس (جِئْنا بِكُمْ لَفيفاً) مجتمعين مختلطين من كل قبيلة .

يقول الفقير : وذلك لأنَّ التلفف الصوري والإرتباط الظاهري لا ينفع الكفار والمنافقين ، إذ لم يجمع بينهم وبين المؤمنين الاعتقاد الخالص والعمل الصالح ، فكانوا كمن انكسرت سفينتهم فتعلق من لا يحسن السباحة بالسَبَّاح، فتعلقه هذا لا ينفعه إذ البحر عميق والساحل بعيد، فكم من سباح لا ينجو فكيف غيره ؟

وفي الحديث (من أبطأ به عملُه لم يسرع به نسبه)[1] يعني من أخره في الآخرة عمله السيء أو تفريطه في العمل الصالح لم ينفعه شرف النسب من جهة الدنيا ولم ينجبر به نقيصته ، فإن نسَبه ينقطع هناك ألا ترى أن الغصن اليابس يقطع من الشجرة ليبوسته ورطوبة الباقي وغضارته ، إذ لا مناسبة بينه وبين الأغصان الغضة الطرية فهو وإن كان غصن تلك الشجرة متعلقاً بها منسوباً إليها لكنه ليبوسته حريٌّ بالقطع ، وإنما النسب المفيد هو نَسَبُ التقوى ﴿ وَبِالحقِّ أَنْزلْناهُ وبِالحقِّ نَزلَ ﴾ أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبساً بالحق ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاّ مُبَشِّراً وَنَذيراً ﴾ أي وما أرسلناك يامحمد إلا لتبشر المؤمنين بجنات النعيم ، وتنذرَ الكافرين من عذاب الجحيم ﴿ وَقُرْآناً ﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى ﴿ فَرَقْناهُ ﴾ نزلناه مفرقاً ﴿ لِتَقْرأهُ عَلى النّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ ﴾ أي مهل وتأنٍ فإنه أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ﴿ وَنَزّلْناهُ ﴾ في ثلاث وعشرين سنة ﴿ تَنْزيلاً ﴾ على قانون الحكمة ، وحسب الحوادث ، وجوابات السائلين ﴿ قُلْ ﴾ للذين كفروا ﴿ آمِنوا بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ أَوْ لا تُؤْمِنوا ﴾ فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً ، وامتناعكم عنه لا يورثه نقصاً ، والأمر للتهديد ﴿ إنّ الّذينَ أوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِه ﴾ أي العلماء الذين قَرَءُوا الكتب السالفة ، وعرفوا حقيقة الوحي ، وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، نحو عبد الله بن سلام وأتباعه من اليهود ، والنجاشي وأصحابه من النصارى ﴿ إذا يُتْلى ﴾ أي القرآن ﴿ عَليْهِمْ يخِرّونَ لِلأذْقانِ ﴾ أي يسقطون على وجوههم ﴿ سُجَّداً ﴾ أي حال كونهم ساجدين تعظيماً لأمر الله أي إن لم تؤمنوا فقد آمن به أحسن إيمان

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد في المسند ٣ / ٢٥٢و٤٠٧ وهذا جزء من حديث طويل .

من هو خير منكم ﴿ وَيَقُوْلُوْنَ ﴾ في سجودهم ﴿ سُبْحانَ رَبِّنا ﴾ عما يفعل الكفرة من التكذيب ، أو عن خُلْفه وعده الذي في الكتب السالفة ببعث محمد وإنزال القرآن عليه ﴿ إنْ ﴾ أي إن الشأن ﴿ كَانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمفْعولاً ﴾ كائناً لا محالة واقعاً البتة لأن الخلف نقص وهو محال على الله * يقول الفقير الظاهر أن المراد بالوعد وعد الآخرة كما يدل عليه سياق الآية من قصة موسى وفرعون وما قبلها من قصة قريش في إنكار البعث والله أعلم ﴿ وَيخِرّونَ لِلأذْقانِ يَبْكُونَ ﴾ أي حال كونهم باكين من خشية الله تعالى ، كرَّر الخرور للأذقان لاختلاف السبب ، فإن الأول لتعظيم أمر الله ، والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن ﴿ وَيَزِيدُهُمْ ﴾ أي القرآن بسماعهم ﴿ خشُوعاً ﴾ كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله ﴿ قُلِ ادْعوا اللهَ أو ادْعُوا الرّحْمٰن ﴾ الدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والمراد بالله والرحمن الاسم لا المسمى ، والمراد أنهما سيان في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود ، والمعنى : سموا بهذا الاسم ، أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا ﴿ أيّاً ما تَدْعُوا ﴾ والتنوين عوض عن المضاف إليه ، وما صلة لتأكيد ما في أيّ من الإبهام ، أي أيّ هذين الإسمين سَمَّيْتم وذكرتم ﴿ فَلَهُ ﴾ أي للمسمى وهو ذاته تعالى ﴿ الأسْماءُ الحُسْنىٰ ﴾ وحسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذينك الاسمين ، والحسنى تأنيث الأحسن لأن حكم الأسماء حكم المؤنث ، نحو الجماعة الحسنى ، وكونها حسنى لدلالتها على صفات الجلال والجمال ، قال في بحر العلوم معنى كونها أحسن الأسماء أنها مستقلة بمعاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والإلهية والأفعال التي هي النهاية في الحسن ، وقال بعضهم : نزلت هذه الآية حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول يا الله يارحمٰن ، فقالوا أنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر ، فالمراد هو التسوية بين اللفظين بأنهما مطلقان على ذات واحدة ، وإن اختلف معناهما واعتبار إطلاقهما ، والتوحيد إنما هو للذات الذي هو المعبود ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ أي بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين ، فإن ذلك يحملهم على سب القرآن ومن أنزله[1] ﴿ ولا تُخافِتْ بِها ﴾ أي بقراءتها بحيث لا تسمع من خلفك من المؤمنين ﴿ وابْتَغِ ﴾ أي اطلب ﴿ بيْنَ ذَلكَ ﴾ أي بين الجهر والمخافتة على الوجه المذكور ﴿ سَبيلاً ﴾ أمراً وَسطاً فإن خير الأمور أوساطها ، روي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخافت ويقول أناجي ربي وقد علم حاجتي ، وعمر رضي الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت أمر رسول الله ﷺ أبا

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ولا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ قال : نزلت ورسولُ الله ﷺ بمكة متوارٍ - أي مختفٍ - فكان إذا صلّى بأصحابه ، رفع صوتَه بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون ، سبُّوا القرآن ومن أنزله ، ومن جاء به ، فقال الله لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبُّوا القرآن ﴿ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ يقول : بين الجهر والمخافتة .

بكر أن يرفع قليلاً ، وعمر أن يخفض قليلاً[1] ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ لإن الولادة من صفات الأجسام لا غير ، وهو رد على اليهود والنصارى حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ في ملك العالم أي الألوهية فإن الكل عبيده والعبد لا يصلح أن يكون شريكاً لسيده في ملكه ، وهو رد على الكفار القائلين بتعدد الآلهة .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ لم يوال أحداً من أجل مذلة ليدفعها بموالاته ، فإنه محال أنه يذل فيحتاج إلى أحد يتعزز به ، إذ له العزة كلها ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ عظِّمْه تعظيماً أو قل « الله أكبر » من الشريك والولي .

انتهت سورة الإسراء بعون الله وتوفيقه

• • •

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : كان أبو بكر إذا صلّى من الليل خفض صوتَه جداً ، وكان عمر إذا صلّى رفع صوته جداً ، فأرسل النبي ﷺ إليها فقال : يا أبا بكر ارفع من صوتك شيئاً ، وقال لعمر : اخفضْ من صوتك شيئاً) وانظر الحديث في الدر المنثور للسيوطي ٤ / ٢٠٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمدُ للهِ ﴾ اللام للإستحقاق ، أي هو المستحق للمدح والثناء والشكر كله ، لأن كل شيء نعمة من نعمه فلا منعم إلا هو ، قال القيصري : الحمد قوليٌّ ، وفعليٌّ ، وحاليٌّ ، أما القوليُّ فحمد اللسان ، وثناؤه عليه بما أثنى به الحق على نفسه ، على لسان أنبيائه عليهم السلام ، وأما الفعلي فهو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات والخيرات ، ابتغاء لوجه الله تعالى ، وتوجهاً إلى جنابه الكريم ، لأن الحمد كما يجب على اللسان ، كذلك يجب عليه بحسب مقابلة كل عضو ، وعند كل حال من الأحوال كما ورد (الحمدُ للهِ على كل حال) ولا يمكن إلا باستعمال كل عضو فيما خُلق لأجله ، عبادة للحق تعالى ، وإنقياداً لأمره ، وأما الحالي فهو الذي يكون بحسب الروح والقلب كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية ، والتخلق بالأخلاق الإلهية لأن الناس مأمورون بالتخلق بسنة الأنبياء صلوات الله عليهم ، لتصير الكمالات ملكة نفوسهم وذواتهم .

﴿ الّذي أَنْزَلَ عَلىٰ عَبْدِهِ ﴾ محمد الذي يستأهل أن يكون عبداً مطلقاً حقيقياً حراً عن جميع ما سوى الله ولذا يقول (أمتي أمتي) يوم يقول كل نبي نفسي نفسي ، وفيه إشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبداً للمُرْسِل ، لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام ﴿ الكِتابَ ﴾ أي القرآن الحقيق باسم الكتاب ، وفيه تنبيه على أنه من أعظم نعمائه ، إذ فيه سعادة الدارين ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ ﴾ أي القرآن ﴿ عِوَجاً ﴾ أي شيئاً من العوج بنوع اختلاف في النظم ، وتنافٍ في المعنى ، وفيه السكتُ على « عوجاً » وهو وقفة لطيفة من غير تنفس ، لئلا يتوهم أن ما بعده صفة له ، ﴿ قَيِّماً ﴾ أي مستقيماً معتدلاً ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، أو قيماً بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد ، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال ، والقيِّم ، والقيوم ، والقيَّام بناء مبالغة للقائم ﴿ لِيُنْذِرَ ﴾ أي أنزل لينذر الكتاب أو محمد بما فيه الذين كفروا ﴿ بَأْساً ﴾ عذاباً ﴿ شَدِيداً ﴾ صادراً ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ من عنده تعالى بمقابلة كفرهم وتكذيبهم ، وهو إما عذاب الإستئصال في الدنيا ، أو عذاب النار في العقبى ، أو كلاهما ، ﴿ وَيُبَشِّرَ المؤْمِنينَ ﴾ المصدقين ﴿ الّذينَ يعْملونَ الصّالحَاتِ ﴾ أي الأعمال الصالحة وهي ما كانت لوجه الله تعالى ﴿ أَنّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم في مقابلة إيمانهم وأعمالهم المذكورة ﴿ أَجْراً حَسَناً ﴾ هو الجنة وما فيها من النعيم ﴿ ماكِثينَ فيهِ ﴾ أي في ذلك الأجر ﴿ أَبَداً ﴾ من غير إنقطاع وانتهاء ، ﴿ وَيُنْذِرَ ﴾ أيضاً خاصة ﴿ الّذينَ قَالُوا اتّخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾ كاليهود والنصارى وكفار العرب ﴿ ما لَهُمْ بِهِ ﴾ أي باتخاذه تعالى ولداً ﴿ مِنْ عِلْمٍ ولا لآبَائِهِمْ ﴾ الذين قلدوهم في ذلك ، وإنما قالوا بالجهل

من غير فكر ونظر ، فيما يجوز على الله ويمتنع ، ﴿ كَبُرتْ ﴾ عظمت ﴿ كلمةً ﴾ تمييز وتفسير للضمير المبهم في « كَبُرت » أي عظمت مقالةً شنيعة ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِمْ ﴾ صفة للكلمة تفيد استعظام اجترائهم على التفوه بها قال القاضي : عظمت مقالتهم هذه في الكفر ، لما فيها من التشبيه والتشريك ، وإيهام احتياجه إلى ولد إلى غير ذلك من الزيغ ﴿ إنْ يَقولُونَ ﴾ أي ما يقولون في هذا الشأن ﴿ إلاّ كَذِباً ﴾ إلا قولاً كذباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق ﴿ فَلَعَلَّكَ باخِعٌ ﴾ مهلك ﴿ نفْسَكَ ﴾ معناه نهى أي لا تُبْخِع نفسك ، كما يقال : لعلك تريد أن تفعل كذا ؟ أي لا تفعل كذا ، قال في القاموس : بخع نفسه قتلها غماً وقوله (فَلَعلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ) أي مهلكها مبالغاً فيها حرصاً على إسلامهم ، ﴿ عَلى آثارِهِمْ ﴾ غماً ووجداً على فراقهم ﴿ إنْ لَمْ يُؤْمِنوا بهذا الحديثِ ﴾ أي القرآن ﴿ أسفاً ﴾ الأسف : أشد الحزن كما في القاموس ، مثّل حاله ﷺ في شدة الوجد على إعراض القوم عن الإيمان بالقرآن ، وكمال التحسر عليهم ، بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه عند مفارقة أحبته ، تأسفاً على مفارقتهم ، وهذه غاية الرحمة والشفقة على الأمة ، وكمال القيام بأداء حقوق الرسالة ، والإقدام على العبودية فوق الطاقة ، وكان من دأبه ﷺ أن يبالغ في القيام بما أمر إلى حد أن ينهى عنه ﴿ إنّا جَعلْنا مَا علىٰ الأرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ من الحيوان والنبات والمعدن ﴿ لِنَبْلوَهُمْ ﴾ لنعاملهم معاملة من يختبر حتى يظهر ﴿ أيُّهُمْ أحْسَنُ عَملاً ﴾ في ترك الدنيا ، ومخالفة هوى نفسه طلباً لله ومرضاته ، وأيهم أقبح عملاً في الإعراض عن الله ، وما عنده من الباقيات الصالحات ، والإقبال على الدنيا وما فيها من الفانيات الفاسدات ﴿ وَإنّا لَجَاعِلونَ ﴾ عند تناهي عمر الدنيا ﴿ ما عَليْها صَعيداً ﴾ تراباً ﴿ جُرُزاً ﴾ لا نبات فيه ، وسَنَةٌ جرزٌ : لا مطر فيها ، هذه هي الدنيا من بدايتها إلى نهايتها ، بهجةً وزينة ، ثم خرابٌ ودمار ، وما أحسن قول القائل :

يا صاحبي لا تَغْترِرْ بِتَنَعُّمٍ * فالعُمْرُ يَنْفَدُ والنعيمُ يزولُ
وإذا حملتَ إلى القبور جَنَازةً * فاعلم بأنك بعدها محمول

﴿ أمْ حَسِبْتَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ، والمراد أمته ، وأم منقطعة مقدرة ببل أي بل أحسبتَ وظننت ؟ بمعنى ما كان ينبغي أن يحتسب ولم حسبت ﴿ أنّ أصْحابَ الكَهْفِ ﴾ الكهف الغار الواسع في الجبل ، فإن لم يكن واسعاً فغار ﴿ والرّقِيمِ ﴾ قال في القاموس : الرقيم كأمير قرية أصحاب الكهف أو جبلهم ، أو لوح حجري نقش ورقم فيه أسماؤهم ، ودينهم ، وممّ هربوا ، وجعل على باب الكهف ، فالرقيم فعيل بمعنى مفعول ﴿ كَانُوا ﴾ في بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر ﴿ مِنْ آياتِنا ﴾ من بين آياتنا ودلائل قدرتنا ﴿ عَجَباً ﴾ أي آية ذات عجب والمعنى أن قصتهم وإن كانت

خارقة للعادات ، ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات ، فإن لله تعالى آيات عجيبة ، قصتهم عندها كالنزر الحقير ﴿ **إِذْ أَوَىٰ** ﴾ أي أذكر حين أنضم والتجأ ﴿ **الفِتْيَة** ﴾ من أشراف الروم ، أكرههم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا ﴿ **إلى الكَهْفِ** ﴾ اتخذوه مأوى ، والفتية جمع الفتى وهو الشاب القوي الحديث ، ويستعار للمملوك وإن كان شيخاً كالغلام وعن النبي ﷺ (لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل فتاي وفتاتي)[1] ﴿ **فَقَالُوا رَبَّنا آتنا مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة ﴿ **رَحْمَةً** ﴾ تستوجب المغفرة والرزق ، والأمن من الأعداء ﴿ **وَهَيِّىءْ لَنا مِنْ أَمْرِنا** ﴾ في الصحاح : هيأت الشيء : أصلحته ، والإصلاح نقيض الإفساد ، وهو جعل الشيء على الحالة المستقيمة النافعة ، والإفساد هو الإخراج عن حد الاعتدال ، والمعنى أصلح وأتم لنا من أمرنا الذي هو مهاجرة الكفار ، والمثابرة على الطاعة ﴿ **رَشَداً** ﴾ إصابة للطريق الموصل إلى المطلوب ، واهتداء إليه ﴿ **فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ** ﴾ أي أنمناهم على طريقة التمثيل المبني على تشبيه الإنامة الثقيلة ، بضرب الحجاب عليها ﴿ **في الكَهْفِ** ﴾ ظرف مكان لضربنا ﴿ **سِنِينَ** ﴾ ظرف زمان له ﴿ **عَدَداً** ﴾ أي ذوات عدد ، هي ثلاثمائة وتسع سنين كما سيأتي ﴿ **ثُمَّ بعثْناهُمْ** ﴾ أي أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة ، الشبيهة بالموت ، وفيه دليل على أن النوم أخو الموت ، في تعطيل الحياة ، والإلتحاق بالجمادات ﴿ **لِنَعْلَمَ** ﴾ العلم هنا مجاز عن الاختبار ، فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم ﴿ **أَيُّ الحِزْبَيْنِ** ﴾ أيُّ الفريقين المختلفين في مدة لبثهم بالتقدير والتفويض ﴿ **أَحْصىٰ** ﴾ أي أضبط ﴿ **لِما لَبِثُوا** ﴾ أي للبثهم فما مصدرية ﴿ **أَمَداً** ﴾ أي منتهى غايته فيظهر لهم عجزهم ، ويفوّضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم من حفظ أبدانهم وأديانهم ، فيزدادوا يقيناً بكمال قدرته وعلمه ، والأمد : بمعنى المدى كالغاية في قولهم ابتداء الغاية على طريق التجوز بغاية الشيء عنه ، فالمراد بالمدى المدة كما أن المراد بالغاية المسافة ، ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ** ﴾ أي نخبرك ونبين لك ، ﴿ **نَبَأَهُمْ** ﴾ أي خبر أصحاب الكهف والرقيم ﴿ **بالحَقِّ** ﴾ صفة لمصدر محذوف ، أي نقصُّ قصّاً ملتبساً بالحق والصدق ، وفيه إشارة إلى أن القُصَّاص كثيراً ما يَقصُّون بالباطل ، ويزيدون وينقصون ، ويغيّرون القصة كل واحد يعمل برأيه موافقاً لطبعه وهواه ، وما يقص بالحق إلا الله تعالى ﴿ **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ** ﴾ والظاهر أن إيمانهم كان بالإلهام والإنجذاب الإلهي ، من غير دليل يدلهم على ذلك ، كما يشير إليه كلام التأويلات ، واختلف فيهم متى كانوا ؟ فروى بعض الناس أنهم كانوا قبل عيسى بن مريم ، وروى بعضهم أن أمرهم كان بعد عيسى ، وأنهم كانوا على دين عيسى ، قال الطبري :

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبود داود ، وفي رواية مسلم (لا يقولن أحدكم عبدي ، فكلكم عبيد الله ، ولكنْ ليقل فَتَايَ .) وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٠ .

وعليه أكثر العلماء ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ بأن ثبتناهم على الدين الحق ، وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي قويناهم حتى اقتحموا مضايق الصبر ، على هجر الأهل والأوطان ، والنعيم والإخوان ، واجترأوا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار ، والرد على دقيانوس الجبار وفي الحديث (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[1] وذلك لأن المجاهد متردد بين رجاء وخوف ، وأما صاحب السلطان فمتعرض للتلف فصار الخوف أغلب ، قال في الأساس : ربطتُ الدابة شددتها برباط ، والمربط الخيل ، ومن المجاز ربط الله على قلبه أي صبَّره ، ولما كان الخوف والقلق يزعج القلوب عن مقارها ، قيل في مقابلته ربط قلبه إذا تمكن وثبت ، وهو تمثيل ، شبَّه تثبيت القلوب بالصبر ، بشد الدوابّ بالرباط ﴿ إِذْ قَامُوا ﴾ المراد بقيامهم انتصابهم لإظهار شعار الدين ، وقيل : المراد قيامهم بين يدي دقيانوس الجبار من غير مبالاة به ، حين عاتبهم على ترك عبادة الأصنام ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ رب العالم ومالكه وخالقه ﴿ لَنْ نَدْعُوَ ﴾ لنْ نعبد أبداً ﴿ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً ﴾ معبوداً آخر ، لا استقلالاً ولا إشتراكاً ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴾ قولاً ذا شطط أو قولاً هو عين الشطط ، و « إذاً » جوابٌ وجزاءٌ أي لو دَعوْنا من دونه إلّهاً ، لقد قلنا قولاً خارجاً عن حد العقل ، مفرطاً في الظلم ﴿ هَؤُلاءِ ﴾ مبتدأ وفي التعبير باسم الإشارة ، تحقيرٌ لهم ﴿ قَوْمُنَا ﴾ عطف بيان له ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ خبره أي عبدوا الأصنام وجعلوها آلهة جهلاً منهم ، ﴿ لَوْلاَ يَأْتُونَ ﴾ هلا يأتون ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على ألوهيتهم ﴿ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم ، يعني يعبدون آلهة لم يتمسكوا في صحة عبادتها ببرهان سماوي ، ولا لهم فيها علم ضروري ، ولا دليل عقلي ، والآية إنكارٌ وتعجيز وتبكيت ، لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بنسبة الشريك إليه ، تعالى اللهُ عن ذلك علواً كبيراً ، والمعنى أنه أظلم من كل ظالم ، وعذابه أعظم من كل عذاب ، لأن الظلم موجب للعذاب فيكون الأعظم للأظلم ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ أي فارقتموهم في الاعتقاد ، وهو خطاب بعضهم لبعض ، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم ﴿ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾ أي حين اعتزلتموهم ومعبوديهم إلا الله ، أي وما عبادتهم إلا عبادة الله ، ﴿ فَأْوُوا ﴾ التجئوا ﴿ إِلَى الكَهْفِ ﴾ إذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالإلتجاء إلى الكهف ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ ﴾ يبسطْ لكم ويوسع عليكم ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ مالك أمركم ﴿ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ من تفضله وإنعامه في الدارين ﴿ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ ﴾ يُسهل لكم ﴿ مِنْ أَمْرِكُمْ ﴾ الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين ﴿ مِرْفَقاً ﴾ ما ترتفقون وتنتفعون به ، وجزمهم بذلك لخلوص يقينهم عن شوب الشك ، وقوة وثوقهم

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي بلفظ (أفضل الجهاد كلمةُ عدلٍ عند سلطان جائر أو أمير جائر) وقد تقدم الحديث .

بالله ، وفي الحديث (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة) ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ ﴾ يا محمد أو يا من يصلح للخطاب ويتأتى منه الرؤية وليس المراد به الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقاً بل الإنباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس ﴿ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ ﴾ أي تتزاور وتتنحى وتميل بحذف إحدى التاءين ، من الزور بفتح الواو وهو الميل ﴿ عَنْ كَهْفِهِمْ ﴾ الذي أَوَوْا إليه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل إلى قعره أي جانبه الذي يلي المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم لأن الكهف كان جنوبياً أي كانت ساحته داخلة في جانب الجنوب ، أمالها الله عنهم وصرفها على منهاج خرق العادة كرامة لهم ، وحقيقتها الجهة ذات اسم اليمين أي الجهة المسماة باسم اليمين ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ ﴾ أي تراها عند غروبها ﴿ تَقْرِضُهُمْ ﴾ أي تقطعهم ولا تقربهم ﴿ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي جهة شمال الكهف أي جانبه الذي يلي المشرق ، وفي القاموس تقرضهم ذات الشمال أي تخلفهم شمالاً وتجاوزهم وتقطعهم وتتركهم على شمالها ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ الفجوة الفرجة وما اتسع من الأرض وساحة الدار ، وهي جملة حالية مبنية لكون ذلك أمراً بديعاً ، أي تراها تميل عنهم يميناً وشمالاً ولا تحوم حولهم في نهارهم كله ، مع أنهم في متسع من الأرض أي في وسط معرض لإصابتها لولا أن صرفتها عنهم يد التقدير ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقروضها حالتي الطلوع والغروب ﴿ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ ﴾ إلى الحق بالتوفيق له ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة كلها فلن يقدر على إضلاله أحد ، والمراد إما الثناء عليهم بأنهم المهتدون ، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآية كثيرة ، ولكن المنتفع بها من وفقه الله للاستبصار بها ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ ﴾ أي يخلق فيه الضلالة لصرف اختياره إليها ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ ﴾ أبداً وإن بالغت في التتبع والاستقصاء ﴿ وَلِيّاً ﴾ ناصراً ﴿ مُرْشِداً ﴾ يهديه إلى الفلاح ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ ﴾ أي تظنهم ﴿ أَيْقَاظاً ﴾ متنبهين جمع يقظ ، ولانفتاح عيونهم على هيئة الناظر ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ نيام جمع راقد .

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ﴾ في رقدتهم بأيدي الملائكة ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أي جهة تلي أيمانهم ﴿ وذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ أي جهة تلي شمائلهم ، كيلا تأكل الأرض ما يليها من أبدانهم على طول الزمان ، قال أبو هريرة رضي الله عنه كانت لهم تقلبتان في السنة ، وقال ابن عباس : تقلبة واحدة من جانب إلى جانب ، لئلا تأكل الأرض لحومهم ، وذلك في يوم عاشوراء ، وتعجَّب منه البعض وقال إن الله قادر على حفظهم من غير تقليب ، وأجاب عنه سعدي المفتي بقوله : لاريب في قدرة الله ولكن تعالى جعل لكل شيء سبباً في أغلب الأحوال ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ودخل معهم الكهف ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ حكاية حال ماضية ، والذراع من المرفق إلى رأس الأصبع الوسطى ﴿ بِالْوَصِيدِ ﴾ أي

بموضع الباب من الكهف ، قال في القاموس : الوصيد الفناء والعتبة انتهى ، قال السدي : الكهف لا يكون له عتبة ولا باب وإنما أراد الكلب منه موضع العتبة من البيت ، روي أنه يدخل الجنة مع المؤمنين على ما قال مقاتل عشرة من الحيوانات : تدخل الجنة ناقة صالح ، وعجل إبراهيم ، وكبش إسماعيل ، وبقرة موسى ، وحوت يونس ، وحمار عزير ، ونملة سليمان ، وهدهد بلقيس ، وكلب أصحاب الكهف ، وناقة محمد ﷺ ، فكلهم يدخلون الجنة ، ذكره في مشكاه الأنوار .

قال في حياة الحيوان : أكثر أهل التفسير على أن كلب أهل الكهف كان من جنس الكلاب ، وروي عن ابن جريج أنه قال كان أسداً ، ويسمى الأسد كلباً لأن النبي عليه السلام دعا علي « عتبة بن أبي لهب » أن يسلط الله عليه كلباً من كلابه ، فأكله الأسد ، والكلب نوعان : أهلي ، وسلوقي ، نسبة إلى سلوق وهي مدينة باليمن ينسب إليها الكلاب السلوقية ، فإنه يكون فيها كلاب طوال يصيدون بها ، ومن بلاغات الزمخشري : السوقية والكلاب السوقية سواء ، يعني أن السوقية لما فيهم من سوء الخلق ، ورداءة المعاملة ، والكلاب السوقية متساويان ، وكلا النوعين في الطبع سواء ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كلب أمين خير من صاحب خوان ، وكان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم ، وكان شديد المحبة لهم ، فخرج في بعض منتزهاته ومعه ندماؤه فتخلف منهم واحد ، فدخل على زوجته فأكلا وشربا ثم اضطجعا فوثب الكلب عليهما فقتلهما ، فلما رجع الحارث إلى منزله ووجَدَهما قتيلين عرف الأمر فأنشد يقول :

ومـــازال يرعى ذمتي ويحـوطني * ويحفـــظ عِرْسي والخليـلُ يخـون
فيا عجباً للخِلّ تحليل حرمتي * ويـا عجبـاً للكلب كيف يصـون

وفي عجائب المخلوقات أن شخصاً قتل شخصاً بأصفهان وألقاه في بئر ، وللمقتول كلب يرى ذلك ، فكان يأتي كل يوم إلى رأس البئر ، وينحّي التراب عنها ويشير ، وإذا رأى القاتل نبح عليه ، فلما تكرر منه ذلك ، حفروا الموضع فوجدوا القتيل ، ثم أخذوا الرجل فأقر فقتل به ﴿ **لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي لو عاينتهم وشاهدتهم ، وأصل الإطلاع الإشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة ﴿ **لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ** ﴾ أي هربت ﴿ **فِرَاراً** ﴾ أي وليت تولية أو فررت فراراً ﴿ **وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً** ﴾ خوفاً يملأ الصدر ويرعبه ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة والهيئة ، كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم ، وعن معاوية رضي الله عنه أنه غزا الروم فمر بالكهف فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : ليس لك ذلك وقد منع الله من هو خير منك فقال (**لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً**) فإن قيل من أين يفهم المنع من الآية ؟ قلنا من حيث دلالتها ، على أنهم لما

ألبسهم الله تعالى من الهيبة لا يستطيع أحد أن ينظر إليهم نظر الاستقصاء ، يقول الفقير : لاشك أن عبارة الخطاب في (لَوِ اطَّلَعْتَ) وما يليه لحضرة الرسالة ، وإشارته لكل من يصلح له من أمته فيكون التفتيش عنهم إذاً ضائعاً لا طائل تحته ، وذلك لأن مطالعة ما خرج عن حد أشكاله من الأمور العجيبة الخارقة ، لا تتيسر لكل نظر ، ألا ترى أنه عليه السلام مع غلبة الروحانيَّة عليه ، لَمَّا رأى جبرائيل على صورته العجيبة وقد سد بأجنحته ما بين المشرق والمغرب خر مغشياً عليه ، مع أن في النظر إليهم ابتذالاً لهم بالنسبة إلى من ليس من أهله ، وقد جرت عادة الله تعالى على ستر المعاني في الدنيا ، والصور في البرزخ الذي هو مقدمة عالم الآخرة ، فكما لا يشاهد الروح وهو البرزخ لكون حس الرائي حجاباً مانعاً ، كذلك الجسد الطاهر الطيب المقدس ، لكونه متصلاً بمقام الروح ، ولذا لا تأكله الأرض فافهم ﴿ وَكَذلِكَ ﴾ أي كما أنمناهم تلك الإنامة الطويلة ، وحفظنا أجسادهم وثيابهم من البلى ، آية دالة على كمال قدرتنا ﴿ بَعَثْناهُمْ ﴾ أي أيقظناهم من النوم ﴿ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً ، فيترتب عليه ما فصل من الحِكَم البالغة ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ هو رئيسهم مكسلمينا ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ في منامكم ، لعله قال لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد في الجملة ﴿ قَالُوا ﴾ أي بعضهم ﴿ لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قيل إنما قالوا لما أنهم دخلوا الكهف غدوة ، وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوماً فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد ، قالوا أو بعض يوم ، وكان ذلك بناء على الظن الغالب ، فلم يُنسبوا إلى الكذب ، يقول الفقير : هذا أولى مما قبله لأن قوله « فابعثوا أحدكم بورقكم » يدل على بقاء ما يسع فيه الذهاب والإياب من النهار ، بخلاف ما لو كان الوقت قبيل الغروب ، إذ يبعد البعث المذكور فيه لعدم إمكان العود عادة ، لمكان المسافة بين الكهف والمدينة ﴿ قَالُوا ﴾ أي بعض آخر منهم بما سنح لهم من الأدلة أو إلهام من الله ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ ﴾ أي أنتم لا تعلمون مدة لبثكم لأنها متطاولة ومقدارها مبهم وإنما يعلمها الله تعالى ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ ﴾ يمليخا ﴿ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ قالوه إعراضاً عن التعمق في البحث ، وإقبالاً على ما يهمهم بحسب الحال ، والوَرِقُ : الفضة مضروبة أو غير مضروبة ، ناولها بعض أصحابه ليشتري بها قوت يومهم ذلك ، وحملهم لها دليل على أن التزود أي الأخذ لا ينافي التوكل على الله ، بل هو فعل الصالحين ، ودأب المنقطعين إلى الله دون المتواكلين ، والمدينة « طرسوس » وكان اسمها في الجاهلية (أفسوس) ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكَىٰ طَعَاماً ﴾ أحلُّ وأطيب ، وأكثر وأرخص طعاماً ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ ﴾ بقوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك الأزكى طعاماً ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ في الاستخفاء لئلا يعرف ﴿ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ من أهل المدينة فإنه يستدعي شيوع أخباركم أي لا يفعلن ما يؤدي أي الشعور بنا من غير قصد ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي ليبالغ في التلطف لأنهم ﴿ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أي يطلعوا عليكم ويظفروا بكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ يقتلوكم

بالرجم وهو الرمي بالحجارة إن ثَبَتُّم على ما أنتم عليه ، وهو أخبث القتلة وكان من عادتهم ﴿ **أَوْ يُعِيدوكُمْ فِي مِلّتِهِمْ** ﴾ أي يصيِّروكم إلى ملة الكفر ، أو يدخلوكم فيها كرهاً ﴿ **وَلَنْ تُفْلِحوا إِذاً** ﴾ أي إن دخلتم لن تفوزوا بخير ﴿ **أَبَداً** ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ **وَكَذلِكَ** ﴾ أي كما أنمناهم وبعثناهم من تلك النومة ، لما في ذلك من إظهار القدرة الباهرة ، والحكمة البالغة ﴿ **أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ** ﴾ أي أطلعنا الناس أي على أصحاب الكهف وأصله أن الغافل عن شيء إذا عثر به فيعرفه ، فكان العثار سبب العلم به ، فأطلق اسم السبب على المسبب ﴿ **لِيَعْلَمُوا** ﴾ أي الذين أطلعناهم على حالهم وهم الذين أنكروا البعث ﴿ **أَنَّ وَعْدَ اللهِ** ﴾ أي وعده بالبعث للروح والجسد معاً ﴿ **حَقٌّ** ﴾ صدق لا خلف فيه ، لأن نومهم وانتباههم بعده ، كحال من يموت ثم يبعث ، إذ النومُ أخو الموت ﴿ **وَأَنَّ السّاعَةَ** ﴾ أي القيامة التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعاً للحساب والجزاء ﴿ **لا رَيْبَ فِيها** ﴾ لاشك في قيامها ولا شبهة في وقوعها فإن من شاهد أنه تعالى توفى نفوسهم وأمسكها ثلاثمائة سنة وأكثر ، حافظاً أجسامهم من التحلل والتفتت ، ثم أرسلها إليها ، علم يقيناً أنه تعالى يتوفى نفوس جميع الناس ، ويمسكها إلى أن يحشر أبدانها ، فيردها إليها للحساب والجزاء ﴿ **إِذْ يَتَنَازَعُونَ** ﴾ المتنازعون هم قوم دقيانوس ﴿ **بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ** ﴾ أي تدبير أمر أصحاب الكهف ، حين توفاهم الله ثانياً بالموت ، كيف يخفون مكانهم وكيف يستر الطريق إليهم ﴿ **فَقَالُوا** ﴾ أي بعض أهل المدينة ﴿ **ابْنُوا عَلَيْهِمْ** ﴾ أي على باب كهفهم ﴿ **بُنْياناً** ﴾ يعني لئلا يعلم أحد تُرْبتَهم وتكون محفوظة من تطرق الناس ﴿ **رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ** ﴾ بحالهم وشأنهم ، لا حاجة إلى علم الغير بمكانهم ﴿ **قَالَ الّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ** ﴾ من المسلمين وملكهم ﴿ **لَنَتّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً** ﴾ أي لنقيمنَّ على باب كهفهم مسجداً يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم ﴿ **سَيَقُولونَ** ﴾ الضائر في الأفعال الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب والمسلمين ، أي سيقول اليهود هم أي أصحاب الكهف ﴿ **ثَلٰثَةٌ** ﴾ أي ثلاثة أشخاص ﴿ **رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ أي جاعلهن أربعة بإنضمامه إليهم كلبهم ﴿ **وَيَقولُونَ** ﴾ أي النصارى وإنما لم يجىء بالسين إكتفاء بعطفه على ما هو فيه ﴿ **خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْبِ** ﴾ رمياً بالخبر الخفي عليهم وإتياناً به ، أو ظناً بالغيب فهم يرجمون رجماً بالغيب ﴿ **وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ القائلون المسلمون بطريق التلقين من هذا الوحي ، وما فيه مما يرشدهم إلى عدم نظمهم في سلك الرجم بالغيب ﴿ **قُلْ** ﴾ تحقيقاً للحق ورداً على الأولين ﴿ **رَبّي أَعْلَمُ** ﴾ أي أقوى علماً وأزيد في الكيفية ، فإن مراتب اليقين متفاوتة في القوة ﴿ **بِعِدَّتِهِمْ** ﴾ بعددهم ﴿ **ما يَعْلَمُهُمْ إِلاّ قَلِيلٌ** ﴾ ما يعلم عدتهم إلا قليل من الناس ، قد وفقهم الله للإستشهاد بتلك الشواهد ﴿ **فَلاَ تُمَارِ** ﴾ أي إذ قد عرفت جهل أصحاب القولين الأولين فلا تجادلهم ﴿ **فِيهِمْ** ﴾ أي في شأن أصحاب الكهف ﴿ **إِلا مِراءً ظَاهِراً** ﴾ إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق

فيه ، وهو أن تقص عليهم ما في القرآن ، من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم ، فإنه مما يخل بمكارم الأخلاق ﴿ **وَلا تَستفْتِ فِيهِمْ** ﴾ أي في شأنهم ﴿ **مِنْهُمْ** ﴾ أي من الخائضين ﴿ **أَحَداً** ﴾ فإن فيما قُصَّ عليك لمندوحة عن ذلك ، مع أنه لا علم لهم بذلك ﴿ **وَلا تَقُولَنَّ** ﴾ نهي تأديب ﴿ **لِشَيْءٍ** ﴾ أي لأجل شيء تعزم عليه ﴿ **إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ** ﴾ الشيء ﴿ **غداً** ﴾ أي فيما يستقبل من الزمان مطلقاً ، نزلت حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، فسألوه ﷺ فقال (ائتوني غداً أخبركم) ولم يستثن أي لم يقل إن شاء الله ، وتسميته استثناء لأنه يشبه الاستثناء في التخصيص ، فأبطأ عليه الوحي أياماً حتى شقَّ عليه ، وكذبته قريش وقالو : وَدَعه ربه وأبغضه فنزلت الآية ﴿ **إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ** ﴾ استثناء مفرغ من النهي ، أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال ، إلا حال ملابسته بمشيئته تعالى على الوجه المعتاد ، وهو أن يقال إن شاء الله ، وفيه إشارة إلى أن الاختيار والمشيئة لله ، وأفعالُ العباد كلها مبنية على مشيئته كما قال (**وَمَا تَشاؤونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ**) ﴿ **واذْكُرْ رَبَّكَ** ﴾ أي قل إن شاء الله ﴿ **إذا نَسيتَ** ﴾ ثم تذكرته ﴿ **وَقُلْ عَسىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي** ﴾ أي يوفقني ﴿ **لأَقْرَبَ مِنْ هذا** ﴾ أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف ، من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي ﴿ **رَشَداً** ﴾ أي إرشاداً للناس ودلالة على ذلك ، وقد فعل حيث أراه من البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين ، كقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم ، والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة ، قال السمرقندي في بحر العلوم : والظاهر أن يكون المعنى إذا نسيت شيئاً فاذكرْ ربك ، وذكر ربك عند نسيانه أن تقول عسى ربي أن يهديني لشيء آخر بدل هذا المنسي أقرب منه رشداً وأدنى خيراً ومنفعة إنتهى ، قال الإمام في تفسيره : والسبب في أنه لابد من ذكر هذا القول ، وهو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غداً ، لم يبعد أن يموت قبل أن يجيء الغد ، ولم يبعد أيضاً لو بقيَ حياً أن يعوقه من ذلك الفعل عائق ، فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد ، والكذب منفر ، وذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، فلهذا السبب وجب عليه أن يقول « إن شاء الله » حتى أنه بتقدير أن يتعذر عليه الوفاء بذلك الموعود لم يصر كاذباً فلم يحصل التنفير إنتهى ، رَوَى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : (لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، كلُّ امرأةٍ تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله ـ ونسي أن يقول إن شاء الله ـ فلم تأت واحدة منهن بشيء إلا امرأة بشقِّ غلام ، فقال النبي عليه السلام : والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لولد له ذلك)[1] .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحَيْهما وفي رواية عنهما « والذي نفسي بيده لو قال « إن شاء الله » لقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » .

* ومن لطائف روضة الخطيب أنه سئل رجل إلى أين ؟ فقال : إلى الكُنَاسة لأشتري حماراً ، فقيل له : قل إن شاء الله ، فقال : لست أحتاج إلى الاستثناء ، فالدراهم في كمي والحمير في الكناسة ، فلم يبلغ الكناسة حتى سرقت دراهمه من كمه ، فرجع فقال له رجل : من أين جئت ؟ قال من الكناسة إن شاء الله ، سرقت دراهمي إن شاء الله ، واعلم أن ابن عباس رضي الله عنهما جوَّز الاستثناء المنفصل بالآية المذكورة ، وعامة الفقهاء على خلافه ، إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرار ، ولا طلاق ، ولا عَتاق ، ولم يعلم صدق ولا كذب في الإخبار عن الأمور المستقبلة ، قال القرطبي في تأويل الآية : هذا في تدارك التبرّى والتخلص من الإثم ، وأما : الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلاً انتهى ، قال في مناقب الإمام الأعظم : روي أن محمد بن إسحاق صاحب المغازي ، كان يحسد أبا حنيفة لما رأى من تفضيل المنصور له على سائر العلماء ، فقال محمد بن إسحاق عند أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور لأبي حنيفة : ما تقول في رجل حلف وسكت ، ثم قال إن شاء الله بعد ما فرغ من يمينه ، فقال أبو حنيفة لا يعمل الإستثناء ، لأنه مقطوع ، وإنما ينفعه إذا كان متصلاً ، فقال : كيف لا ينفعه وقد قال جد أمير المؤمنين وهو عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إنه يعمل الاستثناء وإن كان بعد سنة لقوله تعالى (**واذكُرْ رَبّكَ إذا نَسِيتَ**) فقال له أمير المؤمنين : أهكذا قول جدي ؟ فقال : نعم ، فقال المنصور لأبي حنيفة أتخالف جدي ياأبا حنيفة ؟ فقال أبو حنيفة : لقول ابن عباس تأويل يخرج على الصحة ، ثم قال لأمير المؤمنين : إن هذا وأصحابه لا يرونك أهلاً للخلافة ، لأنهم يبايعونك ، ثم يخرجون فيقولون إن شاء الله ويخرجون من بيعتك ، ولا يكون في عنقهم حنث ، فقال أمير المؤمنين لأعوانه : خذوا هذا ـ يعني محمد بن إسحاق ـ فأخذوه وحبسوه .

﴿ **وَلَبِثُوا** ﴾ أي الفتيةُ ﴿ **في كَهْفِهِمْ** ﴾ أحياء نياماً ﴿ **ثلاثَ مِائةٍ سنينَ** ﴾ عطف بيان لثلاثمائة ﴿ **وازْدادُوا تِسْعاً** ﴾ أي تسع سنين وهي إشارة إلى أن ذلك الحساب على اعتقاد أهل الكتاب شمسي ، وأما عند العرب فهو قمري ، والقمري يزيد على الشمس تسعاً ، لأن التفاوت بينهما في كل مئة سنة ثلاثة سنين ، ولذلك قال (**وَازْدادوا تِسْعاً**) والسنة الشمسية مدة وصول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من ذلك البرج وذلك ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، والسنة القمرية إثنا عشر شهراً قمرياً ومدتها ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً وثلث يوم ﴿ **قُلِ اللهُ أعْلَمُ بما لَبِثوا** ﴾ قال البغوي : إن الأمر في مدة لبثهم كما ذكرنا ، فإن نازعوك فيها فأجبهم و (**قُلِ اللهُ أعْلَمُ بما لَبِثوا**) أي بالزمان الذي لبثوا فيه ، لأن علم الخفيات مختص به ولذلك قال ﴿ **لَهُ** ﴾ خاصة ﴿ **غَيْبُ السّمواتِ والأرْضِ** ﴾ أي ما غاب عن أهل الأرض ﴿ **أبْصِرْ بهِ وأسْمِعْ** ﴾ الضمير في به « لله » محله رفع لكونه فاعلاً لفعل التعجب والباء زائدة ومعناه ما أبصر الله بكل موجود ، وما أسمعه لكل مسموع ؟ ﴿ **ما لَهُمْ** ﴾ أي لأهل السموات

والأرض ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى ﴿ مِنْ وَلِيّ ﴾ يتولى أمرهم وينصرهم استقلالاً ﴿ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ أي لا يجعل الله تعالى أحداً شريكاً لذاته العالية ، في قضائه الأزلي لعزته وغناه ، قال الإمام : المعنى أنه تعالى لما حكى أن لبثهم هو هذا المقدار ، ليس لأحد أن يقول بخلافه .

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ أي القرآن للتقرب إلى الله تعالى بتلاوته والعمل بموجبه ، والإطلاع على أسراره ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ لا قادر على تبديله وتغييره غيره تعالى ﴿ وَلَنْ تَجِدَ ﴾ أبد الدهر وإن بالغت في الطلب ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ تعالى ﴿ مُلْتَحَداً ﴾ ملتجأ تعدل إليه عند نزول بلية ، واعلم أن القرآن لا يتبدل أبداً ولا يتغير بالزيادة والنقصان سرمداً ، وكذا أحكامه لأنه محفوظ في الصدور بنظمه ومعانيه ، وإنما يتبدل أهله بتبدل الأعصار فيعود العلم والعمل والجهل والترك ونعوذ بالله تعالى ، ومن فرق المتصوفة المبتدعة قوم يسمون بالإلهامية يتركون طلب العلم والدرس ويقولون : القرآن حجاب ، والأشعار قرآن الطريقة ، فيتركون القرآن ويتعلمون الأشعار ، فهلكوا بذلك ، قال إبراهيم الخواص : جلاء القلب ودواؤه خمسة : قراءة القرآن بالتدبر ، وإخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع إلى الله عند السحر ، ومجالسة الصالحين ، فمن اشتغل بشهوته وهواه عن هذه الأمور الشاقة ، بقي على مرضه الروحاني ، ولم يجد لنفسه ملتحداً سوى العذاب والهلاك ، فانظر يامسيء الأدب أن لا مرجع إلا إلى الله تعالى ، فكيف ترجع إليه بالأشعار التي اخترعتها أنت وأمثالك ، من أهل النفس والهوى ، بدل القرآن الذي أرسله الله إليك ، وأمر بالعمل به ، فما جوابك يوم يجثو المقربون على ركبهم من الهول ؟ ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ إحبسها وثبتها مصاحبة ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ في أول النهارَ وآخره ، والمراد الدوام أي مداومين على الدعاء في جميع الأوقات ، أو بالغداة لطلب التوفيق والتيسير ، والعشي لطلب عفو التقصير ، نزلت حين طلب رؤساء الكفار طرد فقراء المسلمين من مجالسه عليه السلام كصهيب ، وعمار ، وخباب ، وغيرهم وقالو : أطرد هؤلاء الذين ريحهم ريح الصنان حتى نجالسك ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، وما يمنعنا من أتباعك إلا هؤلاء ، لأنهم قوم أرذلون ، كما قال قوم نوح (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ) فلم يأذن الله في طرد الفقراء لأجل أن يؤمن جَمْعٌ من الكفار ، فإن قيل : يرجح الأهم على المهم وطرد الفقراء يسقط حرمتهم وهو ضرر قليل وعدم طردهم يوجب بقاء الكفار على كفرهم وهو ضرر عظيم ؟ قلنا من ترك الإيمان حذراً من مجالسة الفقراء ، لم يكن إيماناً ، بل يكون نفاقاً قبيحاً ، يجب أن لا يلتفت إليه كذا في تفسير الإمام ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بدعائهم ذلك ﴿ وَجْهَهُ ﴾ أي رضاه ، لا شيء آخر من أعراض الدنيا ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ أي لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم ، وهذا نهي للعينين والمراد صاحبهما ، يعني نهيه عليه السلام عن الازدراء بفقراء

المسلمين ، لرثاثة زيهم طموحاً إلى زي الأغنياء ، قال ذو النون رحمه الله : خاطب الله نبيه عليه السلام وعاتبه ، وقال له : اصبر على من صبَر علينا بنفسه وقلبه وروحه ، وهم الذين لا يفارقون محل الاختصاص من الحضرة بكرة وعشياً ، فمن لم يفارق حضرتنا فحق أن تصبر عليه فلا تفارقه ، وحق لمن لا تعدو عينهم عني طرفة عين ، أن لا ترفع نظرك عنهم ، وهذا جزاؤهم في العاجل ﴿ **تُرِيدُ** ﴾ يا محمد ﴿ **زِينَةَ الحَيٰوةِ الدُّنْيا** ﴾ أي تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وأهل الدنيا ﴿ **ولا تُطِعْ** ﴾ في تنحية الفقراء عن مجلسك ﴿ **مَنْ أَغْفَلنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا** ﴾ أي جعلت قلبه في فطرته الأولى غافلاً عن الذكر ، ومختوماً عن التوحيد كرؤساء قريش ﴿ **واتَّبَعَ هَوٰهُ** ﴾ هَوِيَهُ إذ أحبه واشتهاه ثم سمي به المشتهى محموداً أو مذموماً ، ثم غلب على غير المحمود ، وقيل فلان اتَّبع هواه إذا أريد ذمه ، ومنه فلان من أهل الهوى إذا زاغ عن السنة متعمداً ، وحاصله ميلان النفس إلى ما تشتهيه وتستلذه من غير داعية الشرع ، ﴿ **وكانَ أمرُهُ فُرُطاً** ﴾ الفُرُط : بضمتين الظلم والإعتداء ، والأمر المجاوز فيه عن الحد ، أي متقدماً للحق والصواب ، نابذاً له وراء ظهره ، من قولهم فرس فرط أي متقدم للخيل ﴿ **وَقُلْ** ﴾ لأولئك الغافلين المتبعين هواهم ﴿ **الحَقُّ** ﴾ ما يكون ﴿ **مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ من جهة الله لا ما يقتضيه الهوى فإنه باطل أو هذا الذي أوحي إليَّ هو الحق كائناً من ربكم فقد جاء الحق وانزاحت العلل ، فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم ، مما فيه النجاة والهلاك ﴿ **فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ** ﴾ من نفوس أهل السعادة ﴿ **وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ من قلوب أهل الشقاوة ، وهو تهديد ووعيد لا تخيير ، أراد أن الله تعالى لا ينفعه إيمانكم ، ولا يضره كفركم ، فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا ، فإن كفرتم فاعلموا أن الله يعذبكم ، وإن آمنتم فاعلموا أنه يثيبكم ، قال في بحر العلوم : فمن شاء الإيمان فليصرف قدرته وإرادته إلى كسب الإيمان ، وهو أن يصدق بقلبه بجميع ما جاء من عند الله ، ومن شاء عدمه فليختره فإني لا أبالي بكليهما ، وفيه دلالة بينة على أن للعبد في إيمانه وكفره مشيئة واختياراً ، فهما فعلان يتحققان بخلق الله وفعل العبد معاً ، وكذا سائر أفعاله الاختيارية ، كالصلاة ، والصوم ، مثلاً فإن كل واحد منهما لا يحصل إلا بمجموع إيجاد الله وكسب العبد ، وهو الحق الوسط بين الجبر والقدرة ، ولولا ذلك لما ترتب استحقاق العباد على ذلك بقوله ﴿ **إنّا أَعْتَدْنا** ﴾ هيأنا ﴿ **لِلظّالِمِينَ** ﴾ أي لكل ظالم على نفسه بإرادة الكفر ، واختياره على الإيمان ﴿ **نَاراً** ﴾ عظيمة عجيبة ﴿ **أَحَاطَ بِهِمْ** ﴾ يحيط بهم ، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقيق ﴿ **سُرادِقُها** ﴾ أي فسطاطها وهو الخيمة ، شبَّه به ما يحيط بهم من النار ﴿ **وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ** ﴾ كالحديد المذاب على أسلوب التهكّم ، أي يجعل المهل لهم مكان الماء الذي طلبوه ﴿ **يَشْوِي الوجُوهَ** ﴾ إذا قدم ليشرب من فرط حرارته ، وهو كعكر الزيت ، أي درديه في الغلظة والسواد ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه ﴿ **بِئْسَ الشَّرابُ** ﴾ ذلك الماء ، لأن المقصود

تسكين الحرارة ، وهذا يبلغ في الإحراق مبلغاً عظيماً ﴿ **وسَاءَتْ** ﴾ النار ﴿ **مُرْتَفَقاً** ﴾ أي متكئاً ومنزلاً ، فعلى المؤمن الإجتناب عن الظلم والمعاصي والتدارك بالإستغفار والندامة والاشتغال بالتوحيد والأذكار ، وإلا فالسفر بعيد ، وحر النار شديد ، وماؤها مُهْلٌ وصديد ، وقيدها حديد ، وفي الحديث (إن أدنى أهل النار عذاباً من ينعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعله) حُكي عن مالك بن دينار أنه قال : مررت على صبي ، فقلت : يانفس كان النبي ﷺ يُسلِّم على الصغار والكبار ، فسلمت ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله يامالك ، فقلت : ما الفرق بين النفس والعقل ؟ فقال : نفسك التي منعتك عن السلام ، وعقلك الذي حرَّضَك عليه ، فقلت : لم تلعب بالتراب ؟ فقال : لأنا خلقنا منه ونعود إليه ، فقلت ولم الضحك والبكاء ؟ قال : إذا ذكرت عذاب ربي أبكي ، وإذا ذكرت رحمته أضحك ، فقلت ياولدي أي ذنب لك حتى تبكي ؟ أي فإنك لست بمكلف ، قال : لا تقل هذا فإني رأيت أمي لم توقد الحطب الكبار إلا بالصغار ، فعليك بالاعتبار ﴿ **إنَّ الّذينَ آمنُوا وَعمِلوا الصّالِحاتِ** ﴾ جمعوا بين عمل القلب ، وعمل الأركان ، والصالحات جمع صالحة ، وهي في الأصل صفة ، ثم غلب استعمالها فيما حسَّنه الشرع من الأعمال ، فلم تحتج إلى موصوف ، ومثلها الحسنة فيما يتقرب به إلى الله تعالى ﴿ **إنّا لا نُضِيعُ أجْر مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ الأجر الجزاء على العمل ، والتنوين للتقليل ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ المنعوتون بالنعت الجليل ﴿ **لَهُمْ جَنّاتُ عَدْنٍ** ﴾ العدن في اللغة : الإقامة فيجوز أن يكون المعنى أولئك لهم جنات إقامة كما يقال هذه دار إقامة ، ويجوز أن يكون العدن اسماً لموضع معين من الجنة وهو وسطها وأشرف مكان ﴿ **تَجْري مِنْ تَحتِهِمُ الأنْهارُ** ﴾ الأربعة من الخمر ، واللبن ، والعسل ، والماء العذب ، وذلك لأن أفضل البساتين في الدنيا البساتين التي تجري فيها الأنهار ﴿ **يُحَلّوْنَ فِيها** ﴾ أي في تلك الجنات ، من حليت المرأة إذا لبست الحلي ، وهي ما تتحلى به من ذهب وفضة وغير ذلك من الجواهر ﴿ **مِنْ أساوِرَ** ﴾ جمع أسورة وهي جمع سوار ﴿ **مِنْ ذَهَبٍ** ﴾ من بيانية ، صفة لأساور ، وتنكيرها لتعظيم حسنها ، قال في بحر العلوم : وتنكير أساور للتكثير والتعظيم ، وعن سعيد بن جبير : يُحلَّى كل واحد منهم ثلاثة أساور ، واحد من ذهب ، وواحد من فضة ، وواحد من لؤلؤ وياقوت ، فهم يسورون بالأجناس الثلاثة على المعاقبة ، أو على الجمع ، كما تفعله نساء الدنيا ويجمعن بين أنواع الحلي ﴿ **وَيَلْبَسونَ ثِياباً خُضْراً** ﴾ لأن الخضرة أحسن الألوان ، وأكثرها طراوة ، وأحبها إلى الله تعالى ﴿ **مِنْ سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ** ﴾ مارقَّ من الديباج وما غلظ منه ، والديباج الثوب الذي سداه ولحمته حرير ، اعلم أن لباس أهل الدنيا ، إما لباس التحلي ، وإما لباس الستر ، فأما لباس التحلي فقال تعالى في صفته (**يُحَلّوْنَ**) الآية ، وأما لباس الستر فقال تعالى في صفته (**وَيلْبَسونَ**) الآية ، فإنْ قيل : ما السبب في أنه تعالى قال في الحلي يُحلون على فعل ما لم يسم فاعله ، وقال في السندس والإستبرق :

ويلبسون بإسناد اللبس إليهم ؟ قلنا فيه إيذان بكرامتهم وبيان أن غيرهم يفعل بهم ذلك ويزينهم به ، بخلاف اللبس فإنه يتعاطاه بنفسه شريفاً وحقيراً ، يقول الفقير : لاشك أن لباس الستر يلبسه المرء بنفسه ، ولو كان سلطاناً فلذا أسند إليه ، وأما لباس الزينةِ فغيره يزيّنه به عادة ، كما يشاهد في السلاطين والعرائس ولذا أسند إلى غيره على سبيل التعظيم والكرامة ﴿ **مُتَّكِئِينَ فيها عَلَىٰ الأرائِكِ** ﴾ جمع أريكة ، وهي السرير في الحجال ولا يسمى السرير وحده أريكة ، والحجال جمع حَجَلَة وهي بيت يزين بالثياب للعروس ، وخص الإتكاء لأنه هيئة المتنعمين والملوك على أسرتهم ، قال ابن عطاء : متكئين على أرائك الأنس في رياض القدس ، وميادين الرحمة ، فهم على بساتين الوصلة ﴿ **نِعْمَ الثَّوابُ** ﴾ ذلك إشارة إلى جنات عدن ونعيمها والثواب جزاء الطاعة ﴿ **وَحَسُنَتْ** ﴾ أي الأرائك ﴿ **مُرْتَفَقاً** ﴾ أي متّكئاً ومنزلاً للإستراحة ، اعلم أنه لا كلام في حسن الجنة وصفة نعيمها ، وإنما الكلام في الإستعداد لها ، فالصالحات من الأعمال من الأسباب المعدة لها ، وهي ما كانت لوجه الله تعالى من الصوم والصلاة وسائر وجوه الخيرات ، ولأهل الإيمان والأعمال جزاء يناسب صلاحية أعمالهم وحسنها ، فمنها أعمال تصلح للسير بها إلى الجنات وغرفها ، وهي الطاعات والعبادات البدنية ، بالنية الصالحة على وفق الشرع والمتابعة ، ومنها أعمال تصلح للسير إلى الله تعالى ، وهي الطاعات القلبية من الصدق في طلب الحق ، والإخلاص في التوحيد ، وترك الدنيا ، والإعراض عما سوى الله ، والإقبال على الله بالكلية ، ولا يغتر بالأماني ، فإن من زرع الشعير لا يحصد حنطة ، حكي أن رجلاً ببلخ أمر عبده أن يزرع حنطة ، فزرع شعيراً فرآه وقت حصاده ، وسأله وقال : زرعت شعيراً على ظن أن ينبت حنطة ، فقال : ياأحمق هل رأيت أحداً زرع شعيراً فحصد حنطة ؟ فقال العبد : فكيف تعصي الله أنت وترجو رحمته ؟ أما علمت أن الدنيا مزرعة الآخرة ؟ فتاب الرجل وأعتق غلامه ، فمن أيقظه الله تعالى عن سِنَةِ الغفلة عرف الله ، وكان في تحصيل مرضاته ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ** ﴾ مفعولان لاضربْ ، أي اضربْ ياممحمد وبيّنْ للكافرين المتقلبين في نعم الله ، والمؤمنين المكابدين لمشاق الفقر ، مثلاً أخوين من بني إسرائيل ، قالوا كان أحد الأخوين مؤمناً واسمه يهودا ، والآخر كان كافراً واسمه قطروس ، وَرِثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار ، فتقاسماها بينهما ، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار ، وبنى داراً بألفٍ ، وتزوج بألفٍ ، واشترى متاعاً وخدماً بألف ، فقال المؤمنُ : اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار ، وأنا اشتري منك داراً في الجنة فتصدق به ، وإن أخي تزوج امرأة بألف وأنا أجعل ألفاً صداقاً للحور فتصدق به ، وإن أخي اشترى خدماً ومتاعاً بألف وأنا اشتري منك الولدان المخلدين بألف فتصدق به ، ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه ، فقام إليه فنظر إليه وقال : ما شأنك ، قال : أصابتني حاجة فأتيت لتصيبني بخير ، فقال : وما فعلت بمالك ؟ فقص عليه القصص فطرده ووبخه على التصدُّق

بماله ﴿ جَعَلْنا لأَحَدِهِما ﴾ وهو الكافر ﴿ جَنَّتَيْنِ ﴾ بستانين ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ من كروم متنوعة ﴿ وَحَفَفْنَاهُما بِنَخْلٍ ﴾ أي جعلنا النخل محيطة بالجنتين ، ملفوفاً بها كرومها ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا ﴾ وسطها ﴿ زَرْعاً ﴾ ليكون كل منهما جامعاً للأقوات والفواكه ، على الشكل الحسن ، والترتيب الأنيق ﴿ كِلْتا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها ﴾ أعطتْ ثمرها وبلغ مبلغاً صالحاً للأكل ﴿ وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ ﴾ لم تُنقصْ من أكلها ﴿ شَيْئاً ﴾ كما يعهد في سائر البساتين ، فإن الثمار تتم في عام واحد وتنقص في عام غالباً ، وكذا بعض الأشجار تأتي بالثمر في بعض الأعوام دون بعض ﴿ وَفَجَّرنا خِلالَهُما ﴾ وشققنا فيما بين كل من الجنتين وأجرينا ﴿ نَهَراً ﴾ على حدة ليدوم شربها ويزيد بهاؤها ﴿ وكانَ لَهُ ﴾ أي لصاحب الجنتين ﴿ ثَمَرٌ ﴾ أنواع من المال غير الجنتين ، من ثمر ماله الذي ذكر ، وقال الشيخ : بفتحتين جمع ثمرة ، وهي المجني من الفاكهة ، وذكرُها وإن كانت الجنة لا تخلو عنها إيذان بكثرة الحاصل له في الجنتين من الثمار وغيرها ﴿ فَقالَ لِصاحِبِهِ ﴾ أخيه المؤمن ﴿ وَهُوَ ﴾ أي والحال أن القائل ﴿ يُحاوِرُهُ ﴾ يكلمه ويراجعه الكلام ﴿ أَنا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً ﴾ قال محمد بن الحسن : المالُ : كلُّ ما يتملكه الناس من دراهم أو دنانير ، أو ذهب أو فضة ، أو حنطة أو خبز ، أو حيوان أو ثياب أو غير ذلك ﴿ وأَعَزُّ نَفَراً ﴾ حَشَماً وأعواناً وأولاداً ذكوراً ، والنفر من الثلاثة إلى العشرة من الرجال ، ولا يقال فيما فوق العشرة ، ﴿ وَدَخَلَ ﴾ صاحب الجنتين وهو « قطروس » ﴿ جَنَّتَهُ ﴾ بصاحبه يطوف به فيها ، ويعجِّبه منها ، ويفاخره بها ﴿ وَهُوَ ﴾ أي والحال أنه ﴿ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ ضار لها ، لكفره بالمبدأ والمعاد ، وهو أقبح الظلم ﴿ قالَ ما أَظُنُّ ﴾ كثيراً ما يستعار الظن للعلم ، لأن الظن الغالب يداني العلم ، ويقوم مقامه في الأحكام ﴿ أَنْ تَبيدَ ﴾ تفنى وتهلك وتنعدم ، من باد إذا ذهب وانقطع ﴿ هذِهِ ﴾ الجنة ﴿ أَبَداً ﴾ الأبد الدهر والمراد هنا المكث الطويل ، وهو مدة حياته ، لا الدوام المؤبد إذ لا يظنه عاقل ، فلطول أمله ، وتمادي غفلته ، واغتراره بمهلته قال بمقابلة موعظة صاحبه ، وتذكيره بفناء جنته والإغترار بها ﴿ وَمَا أَظُنُّ السّاعَةَ ﴾ أي القيامة التي هي عبارة عن وقت البعث ﴿ قائِمَةً ﴾ كائنة فيما سيأتي ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ ﴾ والله لئن رجعت ﴿ إِلى رَبِّيَ ﴾ بالبعث ، على الفرض والتقدير كما زعمت ، فليس فيه دلالة على أنه كان عارفاً بربه ، مع أن العرفان لا ينافي الإشراك ، وكان كافراً مشركاً ، قال في البرهان قال تعالى (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إلى ربيّ) وفي حم (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى ربيّ) لان الرد على الشيء يتضمن كراهة المردود ، ولما كان في الكهف تقديره : ولئن رددت عن جنتي هذه إلى ربي ، كان لفظ الرد الذي يتضمن الكراهة أولى ، وليس في حم ما يدل على كراهته ، فذكر بلفظ الرجع ، ليقع في كل سورة ما يليق بها ﴿ لأَجِدَنَّ ﴾ يومئذ ﴿ خَيْراً مِنْها ﴾ من هذه الجنة ﴿ مُنْقَلَباً ﴾ أي مرجعاً وعاقبة ، ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة ، اعتقاد أنه تعالى إنما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي ، وكرامته عليه

سبحانه ، ولم يدر أنَّ ذلك استدراج فقول الكافر : إنه كريم رحيم ، يعطيني في الآخرة خيراً مما أعطاني في الدنيا ، وهو مخالف لأوامره ونواهيه ، غاية الغرور بالله تعالى كما قال (**يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم**) ؟

﴿ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ** ﴾ أي أخوه المؤمن ﴿ **وَهُوَ يُحاوِرُهُ** ﴾ أي وهو يخاطبه ويجادله ، قال في الإرشاد : وفائدة هذه الجملة الحالية التنبيه على أن ما يتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة ﴿ **أَكَفَرْتَ** ﴾ حيث قلت : ما أظن الساعة قائمة ، فإنه شك في صفات الله وقدرته ﴿ **بالّذي خَلَقَكَ** ﴾ أي في ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ﴿ **مِنْ تُرَابٍ** ﴾ فإنه متضمن بخلقه منه ، وهمزة الاستفهام للتقرير ، بمعنى ما كان ينبغي أن تكفر ، ولم كفرت بمن أوجدك من تراب أولاً ؟ ﴿ **ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ** ﴾ أي من منيٍّ في رحم أمك ثانياً وهي مادتك القريبة ﴿ **ثُمّ سَوّاكَ** ﴾ جعلك معتدل الخلق والقامة ، حال كونك ﴿ **رَجُلاً** ﴾ إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال ، قال في القاموس : الرجل وهو إذا احتلم وشب ﴿ **لٰكِنّا هُوَ اللهُ رَبِّي** ﴾ أصله لكنْ أنا فحذفت الهمزة بنقل حركتها إلى نون لكن أو بدون نقل على خلاف القياس فتلاقت النونان فكان الإدغام ، أثبت جميع القراء ألفها في الوقف ، وحذفوها في الوصل غير ابن عامر فإنه أثبتها في الوصل أيضاً كأنه قال لأخيه أنت كافر بالله ، لكني مؤمن موحّد ﴿ **ولا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً** ﴾ فيه إيذان بأن كفره كان بطريق الإشراك ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ** ﴾ وهلاّ قلت عند دخول جنتك ﴿ **ما شاءَ اللهُ** ﴾ أي الأمر ما شاء الله والمراد تحضيضه على الإعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله تعالى ، إن شاء أبقاها على حالها عامرة ، وإن شاء أفناها وجعلها خربة ﴿ **لا قُوَّةَ إلاّ باللهِ** ﴾ أي هلاّ قلت ذلك إعترافاً بعجزك ، وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبيرها إنما هو بمعونته تعالى وإقداره ؟ وفي الحديث (من رأى أحداً أعطىَ خيراً من أهل أو مال ، فقال عنده ، ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، لم ير فيه مكروهاً)[1] ﴿ **إِنْ تَرَنِ أَنا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً** ﴾ أصله أن ترني والرؤية إما بصرية وإما علمية ﴿ **فَعَسىٰ** ﴾ لعل ﴿ **رَبِّيَ أَنْ يُؤْتِيَنِ** ﴾ أصله يؤتيني ﴿ **خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ** ﴾ هذه في الآخرة بسبب إيماني ، لأن الجنة الدنيوية فانية ، والأخروية باقية ﴿ **وَيُرْسِلَ عَلَيْها** ﴾ على جنتك في الدنيا ﴿ **حُسْباناً مِنَ السّماءِ** ﴾ عذاباً يرميها به من بَرَد ، أو صاعقة ، أو نار ، وإنما توقعه في حقه ، لعلمه بأن الكفران مؤدٍّ إلى الخسران ، وأن الإعجاب سبب للخراب ، فكلامه جواب عن قول صاحبه المنكر « ما أظن أن تبيد هذه أبداً » ﴿ **فَتُصْبِحَ** ﴾ أي تصير جنتك ﴿ **صَعِيداً زَلَقاً** ﴾ أي أرضاً ملساء يزلق عليها ، باستئصال نباتها وأشجارها ﴿ **أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُها غَوْراً** ﴾ أي غائراً في

---

(١) الحديث أخرجه ابن السني بنحوه ولفظه (من رأى شيئاً يعجبه فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، لم تضره العين) الفتح الكبير ٣ / ١٩٢.

الأرض ، ذاهباً لا تناله الأيدي ولا الدِلاءُ ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ ﴾ تقدر أبداً ﴿ لَهُ ﴾ أي للماء الغائر ﴿ طَلَباً ﴾ فضلاً عن وجدانه ورده ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض توقعه من المحذور ، وأهلك أمواله التي هي جنتاه ، مأخوذ من أحاط به العدو ، لأنه إذا أحاط به فقد غلبه واستولى عليه فيهلكه ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ صار ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ ظهراً لبطنٍ ، تأسفاً وتحسراً ، كما هو عادة النادمين ، فإن النادم يضرب يديه واحدة على الأخرى ، قال في بحر العلوم : تقليب الكفين ، وعض الكف والأنامل ، واليدين ، وأكل البنان وحرق الأسنان ، ونحوها ، كنايات عن الندم والحسرة ، لأنها من روادفها فتطلق الرادفة على المردوف ، فيرتقي الكلام به إلى الذروة العليا ، ويزيد الحسن بقبول السامع ، ولأنه في معنى الندم عُدِّي تعديته بعلى ، كأنه قيل فأصبح يندم ﴿ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾ أي على ما صرف في عمارتها من المال الكثير ﴿ وَهِيَ ﴾ أي الجنة ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ خالية ساقطة ، يقال : خَوَت الدارُ خوياً : تَهدَّمت وخلت من أهلها ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ دعائمها سقطت عروشها على الأرض ، وسقط فوقها الكروم ، قيل أرسل الله عليها ناراً فأحرقها وغار ماؤها ﴿ وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَداً ﴾ كأنه تذكر موعظة أخيه ، وعلم أنه إنما أتي من جهة الشرك ، فتمنى أنه كان موحداً غير مشرك ، حين لم ينفعه التمني ، ولما كان رغبته في الإيمان لطلب الدنيا ، لم يكن قوله هذا توبة وتوحيداً ، لخلوه عن الإخلاص ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ ﴾ جماعة ﴿ يَنْصُرُونَهُ ﴾ يقدرون على نصره بدفع الهلاك ، ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فإنه القادر وحده على نصره بذلك لا غير ، لكنه لا ينصره لاستحقاقه الخذلان بكفره ومعاصيه ﴿ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ﴾ ممتنعاً بقوته عن انتقامه سبحانه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال ﴿ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ أي النصرة له تعالى وحده ، لا يقدر عليها أحد ، ﴿ هُوَ ﴾ أي الله تعالى ﴿ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾ بمعنى العاقبة أي لأوليائه ، قال في الجلالين : أفضل ثواباً ممن يرجى ثوابه ، وعاقبة طاعته خيرٌ من عاقبة طاعة غيره ، واعلم أن هذه القصة مشتملة على فوائد كثيرة : وأعظمها أن التوحيد وترك حب الدنيا سبب للنجاة في الدارين ، والشرك وحب الدنيا سبب للهلاك فيهما ، وعن وهب بن منبه أنه قال : « جمع عالم من علماء بني إسرائيل سبعين صندوقاً من كتب العلم ، كل صندوق سبعون ذراعاً ، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان ، أن قل لهذا العالم : لا تنفعك هذه العلوم وإن جمعتَ أضعافاً مضاعفة ، مادام معك ثلاث خصال : حب الدنيا ، ومرافقة الشيطان ، وإيذاء مسلم » وذلك أن فرعون علم نبوة موسى عليه السلام ، ولكن منعه حب الدنيا والرياسة عن المتابعة فلم ينفعه علمه المجرد ، وكذا علم إبليس حال آدم عليه السلام ، واليهود حال نبينا ﷺ ، وما سعدوا بمجرد علمهم ، وما وجدوا خير عاقبة ، ولو عملوا بما وعظوا لنجوا ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ﴾ أي اذكر لقومك وبيِّنْ حال الدنيا ، وما يشبهها في زهرتها ونضارتها ، وسرعة

زوالها ، لئلا يطمئنوا ولا يعكفوا عليها ، ولا يعرضوا عن الآخرة بالكلية ﴿ كَمَاءٍ ﴾ أي هي كماء ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء وحده ، بل بمجموع ما في حَيِّز الأداة ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾ إلتفَّ وتكثَّفَ بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ فصار ذلك النبات الملتف إثر بهجته ﴿ هَشِيماً ﴾ مهشوماً مكسوراً ليبسه ، من الهشم وهو كسر الشيء الرخو ﴿ تَذْرُوهُ الرِيَاحُ ﴾ تحمله وتفرقه ، يقال ذَرَت الريح الشيء وأذرته أطارته وأذهبته ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ ﴾ من الإنشاء ، والإبقاء ، والإفناء ، وغير ذلك ﴿ مُقْتَدِراً ﴾ قادراً على الكمال ، لا يعجزه شيء ، فعلى العاقل أن لا يغتر بالحياة الدنيا ، فإنها فانيةٌ ولو طالت مدتها ، وزائلة ولو أعجبتْ زينتُها ﴿ المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيٰوةِ الدُّنْيا ﴾ المعنى أن ما يفتخر به الناس من المال والبنين ، شيء يتزينون به في الحياة الدنيا ، ويفنى عنهم عن قريب ﴿ والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ الباقياتُ : إسم لأعمال الخير أي أعمال الخير التي تبقى ثمراتها أبدالآباد ، من الصلاة ، والصوم ، وأعمال الحج ، و« سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ونحو ذلك من الكلم الطيب ـ روي ـ أنه عليه السلام خرج على قومه فقال : (خُذوا جُنَّتَكم) قالوا يارسول الله أمن عدو حضر ؟ قال : لا بل من النار ، قالوا : وما جُنَّتُنا من النار قال (سبحان الله) إلى آخر الكلمات[1] ﴿ خَيْرٌ ﴾ من الفانيات الفاسدات من المال والبنين ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أي في الآخرة ﴿ ثَواباً ﴾ عائدة تعود إلى صاحبها ﴿ وَخَيْرٌ أَملاً ﴾ رجاء حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا ، وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله ، والآية تزهيد للمؤمنين في زينة الحياة الدنيا الفانية ، وتوبيخ للمفتخرين بها ، قال بعضهم : لا ينجو من زينة الحياة الدنيا ، إلا من كان باطنه مزيناً بأنوار المعرفة ، وضياء المحبة ، ولمعان الشوق ، وظاهره مزيناً بآداب الخدمة ، وشرف الهمة ، وعلو النفس ، وتغلب زينة باطنه زينة حب الدنيا شوقاً منه إلى ربه ، وتغلب زينة ظاهره زينة الدنيا لأن زينتها أزين ، ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ ﴾ أي اذكر حين نقلعها من أماكنها ، وتسير في الجو على هيئاتها ، أو تسيرُ أجزاؤها بعد أن نجعلها هباء منبثّاً ، والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهي ﴿ وَتَرَىٰ ﴾ يامحمد أو يامن يصلح للرؤية ﴿ الأَرْضَ ﴾ جميع جوانبها ﴿ بَارِزَةً ﴾ ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا نبات ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ جمعنا أهل الإيمان والكفر إلى الموقف من جانب ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ ﴾ لم نترك ﴿ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ تحت الأرض ﴿ وَعُرِضُوا ﴾ أي الخلائق يوم القيامة ، يعني المحشورين ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ على حكمه وحسابه ﴿ صَفّاً ﴾ مفردٌ منزّلٌ منزلة الجمع ، كقوله تعالى (ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً) أي أطفالاً ، والمعنى صفوفاً يقف بعضهم وراء بعض ، غير متفرقين ولا مختلطين ، شبهت حالهم بحال

(١) رواه النسائي والحاكم بلفظ (خذوا جُنَّتكم من النار ، قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ..) إلخ الفتح الكبير ٢ / ٨٥ .

الجند المعروضين على السلطان ، ليحكم فيهم بما أراد ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُوْنَا ﴾ أي فيقال لهم ثمة لقد جئتمونا كائنين ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرَّةٍ ﴾ حفاة عراة لا شيء من المال والولد ، وعن عائشة رضي الله عنها قلتُ يارسول الله : كيف يحشر الناس يوم القيامة ؟ قال حُفاةً ، عُراةً ، غُرْلاً ، قالت عائشة : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يُهمّهم ذلك ، وفي رواية : من أن ينظر بعضهم إلى بعض)[1] .

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ أيها الكافرون المنكرون للبعث ، والزعم الإدّعاء بالكذب ﴿ أَنْ ﴾ مخففة من الثقيلة ﴿ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ « بَلْ » للخروج والإنتقال من قصة إلى أخرى ، كلاهما للتوبيخ والتقريع ، أي زعمتم في الدنيا أنه لن نجعل لكم أبداً وقتاً ننجز فيه ما وعدناه ، على ألسنة الأنبياء ، من البعث وما يتبعه ، والآية تشير إلى عزته تعالى وعظمته ، وإظهار صفة جلاله وقهره ، وآثار عدله ، لينتبه النائمون من نوم غفلتهم ، ويتأهب الغافلون بأسباب النجاة لذلك اليوم ، ويصلحوا أمر سريرتهم وعلانيتهم ، لخطاب الحق تعالى وجوابه ، إذ إليه المرجع والمآب ، والعرض على الله هو العرض الأكبر ، ليس كعرض على الملوك ، قال عتبة الخواص : بات عندى عتبة الغلام فبكى حتى غُشي عليه ، فقلت ما يبكيك ؟ قال : ذكر العرض على الله ، قطّع أوصال المحبّين ، وحكي أن سليمان بن عبد الملك وهو سابع خلفاء المروانية قال لأبي حازم : ما لنا نحبُّ الدنيا ونكره الآخرة ؟ قال : لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة ، فتكرهون الإنتقال من العمران إلى الخراب ، فقال صدقت ياأبا حازم ، فياليت شعري مالنا عند الله تعالى غداً ؟ قال : إن شئت تعلم ذلك ففي كتاب الله ، فقال أين أجده ؟ فقال في قوله (**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**) قال فكيف يكون العرض على الله تعالى ؟ فقال أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله مسروراً ، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه محسوراً ، فبكى سليمان بكاء شديداً ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ﴾ المراد ، وضع صحف الأعمال في أيمان أصحابها ، أو في الميزان ﴿ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ خائفين ﴿ مِمَّا فِيهِ ﴾ من الذنوب ومن ظهورها لأهل الموقف.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عند وقوفهم على تضاعيفه تعجباً من شأنه ﴿ يَاوَيْلَتَنَا ﴾ منادين لهلكتهم التي هلكوا بها أي ياهلكتنا احضري وتعالي فهذا أوانك ﴿ مَالِ هَذَا الكِتَابِ ﴾ ، قال البقاعي : رَسْمُ لام الجر وحده إشارة إلى أنهم صاروا من قوة الرعب وشدة الكرب يقفون على بعض الكلمة ، أي أيّ شيء له حال كونه ﴿ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ من الزلل تصدر عن جانيها ﴿ إِلاّ أَحْصَاهَا ﴾ حواها

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وللنسائي في رواية أخرى قال : ﴿ لِكلّ امْرِىءٍ منْهمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٢٦ .

وضبطها ، عن سعيد بن جبير الصغيرة المسيس ، والكبيرة الزنا ، وفي الحديث (إياكم ومحقّرات الذنوب ، فإن مثل محقّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ ، فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى طبخوا أخبزتهم)[1] ﴿ **وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا** ﴾ في الدنيا من السيئات أو جزاء ما عملوا ﴿ **حَاضِراً** ﴾ مثبتاً في كتابهم ﴿ **ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً** ﴾ فيكتب ما لم يعمل من السيئات ، أو يزيد في عقابه الملائم لعمله ، وفي التأويلات : فإن كان النور غالباً على صفحة روحه ، فهو من أهل الجنة ، وإن كانت الظلمة غالبة عليها فهو هالك ، ومن لا يشوب نُورَه بالظلمة ، فهو من أهل الدرجات والقربات في مقعد صدق عند مليك مقتدر إنتهى ، فعليك بالحسنات ، والكفّ عن السيئات ، فإن كل أحد يجد ثمرة شجرة أعماله ، عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت جالسة ذات يوم ، إذ جاءت امرأة قد سترت يدها ، قالت عائشة : مالك لا تخرجين يدك من كمك ؟ قالت لا تسأليني ياأم المؤمنين ، إنه كان لي أبوان وكان أبي يحب الصدقة ، وأما أمي فكانت تبغض الصدقة ، فلم أرها تصدقت بشيء إلا قطعة شحم ، فلما ماتا رأيت في المنام قد قامت القيامة ، ورأيت أمي قائمة ورأيت الشحم بيدها وهي تلحسه ، وتنادي : واعطشاه ورأيت أبي على الحوض وهو يسقي الماء ، ولم يكن عند أبي صدقة أحب إليه من سقي الماء ، فأخذت قدحاً من ماء فسقيت أمي ، فنوديت من سقاها شُلَّتْ يده ، فاستيقظت وقد شلت يدي[2] .

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ** ﴾ أي اذكر وقت قولنا لهم ﴿ **اسْجُدوا لآدَمَ** ﴾ سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة ، وكان ذلك مشروعاً في الأمم السالفة ثم نسخ بالإسلام ﴿ **فَسَجَدُوا** ﴾ جميعاً ﴿ **إلاّ إبْليسَ** ﴾ فإنه لم يسجد بل أبى واستكبر ، وكأنه قيل ما له لم يسجد فقيل ﴿ **كانَ مِنَ الجِنِّ** ﴾ أي كان أصله جنياً خلق من نار السموم ، ولم يكن من الملائكة ، وإنما صح الاستثناء المتصل لأنه أمر بالسجود معهم فغُلِّبوا عليه في قوله (**فَسَجَدُوا**) ثم استثنى كما يستثنى الواحد منهم استثناء متصلاً كقولك خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال ، قيل إن المراد بقوله (**كانَ مِنَ الجِنِّ**) أي كان أول الجن ، لأن الجن منه ، كما أن آدم من الإنس ، لأنه أول الإنس ، وقيل إنه كان بقايا قوم يقال لهم الجن ، كان الله تعالى قد خلقهم في الأرض قبل آدم ، فسفكوا الدماء ، وقاتلتهم الملائكة . قال البغوي : كان اسمه عزازيل بالسريانية وبالعربية الحارث ، فلما عصى غير اسمه وصورته فقيل إبليس ، لأنه أبلس من الرحمة أي يئس والعياذ بالله تعالى ﴿ **فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ أي خرج عن طاعته ، فالأمر على حقيقته ، جعل عدم امتثاله للأمر خروجاً عنه ، ويجوز أن يكون المراد المأمور به وهو السجود ، والفاء للسببية لا للعطف أي

---

(١) الحديث أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي في السنن عن سهل بن سعد مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٩١ .

(٢) هذه رؤيا منامية لا يثبت بها حكم شرعي ، فقد تكون صحيحة أو باطلة ، ولكن فيها مغزى لطيف ولذلك أثبتنا هذه القصة .

كونه من الجن سبب فسقه ولو كان ملَكاً لم يفسق عن أمر ربه ، لأن الملك معصوم دون الجن والإنس ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ** ﴾ الهمزة للإنكار والتعجب أي عقيب علمكم يابني آدم بصدور الفسق عن إبليس تتخذونه ﴿ **وَذُرِّيَّتَهُ** ﴾ أي أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازاً ﴿ **أولياء مِنْ دُونِي** ﴾ فتطيعونهم بدل طاعتي ، أي ذلك الإتخاذ منكر غاية الإنكار ، حقيق بأن يتعجب منه ، ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي والحال أن إبليس وذريته ﴿ **لَكُمْ عَدُوٌّ** ﴾ أي أعداء فحقهم أن تعادوهم ، لا أن توالوهم ﴿ **بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴾ من الله إبليس وذريته ﴿ **مَا أَشْهَدْتُهُمْ** ﴾ إشارة إلى غناه تعالى عن خلقه ، ونفي مشاركتهم في الألوهية أي ما أحضرت إبليس وذريته ﴿ **خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ لأعتضد بهم في خلقها ، وأشاورهم في تدبير أمرهما ، حيث خلقتهما ، وفيه رد لمن يدعي أن الجن يعلمون الغيب ﴿ **وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ** ﴾ ولا أشْهدتُ بعضهم خلق بعضهم ﴿ **وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ المضِلِّينَ** ﴾ أي الشياطين الذين يضلون الناس عن الدين ، والأصل متخذهم ، فوضع المظهر موضع المضمر ذماً لهم وتسجيلاً عليهم بالإضلال ﴿ **عَضُداً** ﴾ أعواناً في شأن الخلق ، وفي شأنٍ من شؤوني ، حتى يتوهم شركتهم في بعض أحكام الربوبية ، والعضدُ : الناصر والمعين ، ﴿ **وَيَوْمَ يَقُولُ** ﴾ أي يوم يقول الله للكفار توبيخاً وتعجيزاً ، وهو يوم القيامة ﴿ **نَادُوا شُرَكَائِيَ** ﴾ أضافهم إليه على زعمهم ، تهكّماً بهم وتقريعاً لهم ﴿ **الَّذِينَ زَعَمْتُمْ** ﴾ ادَّعَيْتم أنهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم ، والمراد بهم كل من عُبِد من دونه تعالى ﴿ **فَدَعَوْهُمْ** ﴾ أي نادوهم للإعانة ﴿ **فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** ﴾ أي فلم يغيثوهم ، ولم يدفعوا عنهم ضراً ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ** ﴾ بين الداعين والمدعوين ﴿ **مَوْبِقاً** ﴾ اسم مكان ، من وَبَق وبوقاً إذا هلك مهلكاً يشتركون فيه وهو النار ﴿ **وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ** ﴾ حين أمروا بالسوق إليها ﴿ **فَظَنّوا** ﴾ فأيقنوا ﴿ **أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا** ﴾ مخالطوها وواقعون فيها ﴿ **وَلَمْ يَجِدوا عَنْهَا مَصْرِفاً** ﴾ إنصرافاً أو مكاناً ينصرفون إليه ، لأنها أحاطت بهم من كل جانب ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا** ﴾ أي أُقسم قسماً لقد كررنا وأدرنا على وجوه كثيرة من النظم ﴿ **فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ** ﴾ لمصلحتهم ومنفعتهم ﴿ **مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** ﴾ ليتذكروا ويتعظوا ﴿ **وَكَانَ الإنْسَانُ** ﴾ جنس الإنسان بحسب جبلَّته ﴿ **أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً** ﴾ أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل ، أي جدله أكثر من جدل كل مجادل ، وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل لاقتضاء خصوصية المقام ، وفي الحديث (ما ضلَّ قوم بعد هُدَىً كانوا عليه إلا أُوتُوا الجدل)[1] ﴿ **ومَا مَنع النَّاسَ** ﴾ أي لم يمنع أهل مكة من ﴿ **أَنْ يُؤْمِنوا** ﴾ بالله تعالى ، ويتركوا الشرك الذي هم عليه ﴿ **إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ** ﴾ وهو الرسول الكريم الداعي ، والقرآن العظيم

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير برقم / ٣٢٥٠ / وابن ماجه باب اجتناب البدع والجدل رقم ٤٨ وأحمد في المسند ٥ / ٢٥٢ وإسناده صحيح وانظر جامع الأصول ٩ / ٧٤٩ .

الهادي ﴿ وَ ﴾ من أن ﴿ يَسْتَغْفِروا رَبَّهُمْ ﴾ من أنواع الذنوب ﴿ إلاّ ﴾ إنتظار ﴿ أنْ تأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأوّلينَ ﴾ أي سنة الله وعادته في الأمم الماضية وهو الاستئصال ﴿ أوْ ﴾ إنتظار أن ﴿ يأْتِيَهُمُ العَذابُ ﴾ عذاب الآخرة حال كونه ﴿ قُبُلاً ﴾ وعياناً لهم أي معايناً ﴿ وما نُرْسِلُ المرْسَلينَ ﴾ إلى الأمم ﴿ إلاّ مُبَشِّرِينَ ﴾ للمؤمنين والمطيعين بالثواب والدرجات ﴿ وَمُنْذِرينَ ﴾ للكافرين والعاصين بالعقاب والدركات ﴿ وَيُجادِلُ الّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي يجادلون الرسل المبشرين والمنذرين ﴿ بالباطِلِ ﴾ حيث يقولون « ما أنتم إلا بشر مثلنا » ولو شاءالله لأنزل ملائكة ، ويقترحون آيات بعد ظهور المعجزات تعنتاً ﴿ لِيُدْحِضُوا ﴾ ليزيلوا ﴿ بهِ ﴾ بالجدال ﴿ الحَقَّ ﴾ الذي مع الرسل ويبطلوه ، من ادحاض القدم وهو إزلاقها عن موطنها ، والدحض الزلق ﴿ واتّخَذُوا آياتي ﴾ الدالة على الوحدة والقدرة ونحوهما ﴿ وما أُنْذِرُوا ﴾ خوّفوا به من العذاب ﴿ هُزُواً ﴾ سخرية يعني موضع استهزاء ﴿ وَمَنْ أظْلَمُ ﴾ استفهام على سبيل التوبيخ أي من أشد ظلماً ﴿ مِمّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ ﴾ أي وعظ بالقرآن الكريم ﴿ فَأعْرضَ عَنْها ﴾ لم يتدبرها ولم يتفكرها ﴿ وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ ﴾ من الكفر والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها ، ولم ينظر في أن المسيء والمحسن لابد لهما من جزاء ، ولما كان الإنسان يباشر أكثر أعماله بيديه غلب الأعمال باليدين على الأعمال التي تباشر بغيرهما ، حتى قيل في عمل القلب هذا ما عملت يداك ، قال بعضهم : أحق الناس تسمية بالظلم من يرى الآيات فلا يعتبر بها ويرى طريق الخير فيعرض عنها ، ويرى مواقع الشر فيتبعها ولا يجتنب عنها ﴿ إنّا جَعلْنَا على قُلوبِهِمْ أكِنّةً ﴾ أغطية جمع كنان ، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ﴿ أنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ كراهة أن يقفوا على كنه الآيات ﴿ وَ ﴾ جعلنا ﴿ في آذانِهِمْ وَقْراً ﴾ ثقلاً وصماً يمنعهم عن استماعه .

﴿ وَإنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدىٰ ﴾ أي إلى طريق الفلاح وهو دين الإسلام ﴿ فَلَنْ يهْتَدوا إذاً أبَداً ﴾ أي فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف كلها ﴿ وَرَبُّكَ الغَفُورُ ﴾ البليغ في المغفرة وهي صيانة العبد عما استحقه من العقاب للتجاوز عن ذنوبه ﴿ ذُو الرَّحْمةِ ﴾ الموصوف بالرحمة وهي الإنعام على الخلق ، ﴿ لوْ يُؤاخِذُهُمْ ﴾ لو يريد مؤاخذتهم ﴿ بما كَسَبُوا ﴾ من الذنوب ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذابَ ﴾ في الدنيا من غير إمهال لاستيجاب أعمالهم لذلك ، ولكنه لم يعجل ولم يؤاخذ بغتة ﴿ بلْ لَهُمْ موْعِدٌ ﴾ والمراد يوم بدر أو يوم القيامة فيعذبون فيه و ﴿ لنْ يَجِدُوا ﴾ أبداً حين مجيء الموعد ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ من غيره تعالى ﴿ مَوْئِلاً ﴾ منجى وملجأ ﴿ وَتِلْكَ القُرىٰ ﴾ أي قرى عاد وثمود وأضرابهما ، ﴿ أهْلكْنَاهُمْ لَمّا ظَلَمُوا ﴾ أي وقت ظلمهم مثل ظلم أهل مكة ، بالتكذيب والجدال وأنواع المعاصي ﴿ وَجعلْنا لِمهْلِكِهِمْ ﴾ أي عيناً لهلاكهم ﴿ مَوْعِداً ﴾ أي وقتاً ممتداً لا يتأخرون عنه .

* وفي الآيات إشارات : منها أن أسباب الهداية لا يهتدي بها الناس إلا بهداية الله تعالى ، ومنها أن أهل الباطل يرون الحق باطلاً والباطل حقاً ، وذلك من عمى قلوبهم وسخافة عقولهم ، فيجادلون الأنبياء جهلاً منهم وضلالة ، ويسعون في إبطال الحق ، ومنها أن رحمة الله تعالى في الدنيا تعم المؤمنَ والكافر ، لأنه لا يؤاخذهم بما كسبوا في الدنيا لَقَطعَ الرِّزقَ عنهم ، ومن سُنَّتنا أن نمهل الظالم ولا نهمله ، والمظلوم مستجاب الدعاء قال عليه السلام : (اتقوا دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[1] . ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ** ﴾ رُوي أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بني إسرائيل بعد هلاك القبط ، أمره الله أن يذكّر قومه إنعام الله عليهم ، فخطب خطبة بليغة رقَّت بها القلوب وذرفت منها العيون ، فقال واحد من علماء بني إسرائيل : ياموسى من أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه تعالى ، فأوحى إليه بل أعلم منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين وهو الخضر ، فقال يارب : أين أطلبه وكيف يتيسر لي الاجتماع معه ؟ قال : اطلبه على ساحل البحر عند الصخرة ، وخذ حوتاً في مكتل يكون زاداً لك ، فحيث فقدته أي غاب عنك فهو هناك ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ، فقال لِفَتَاهُ : إذا فقدت الحوت فأخبرني ، والمعنى اذكر وقت قول موسى بن عمران لما فيه من العبرة ﴿ **لِفَتٰـهُ** ﴾ وهو يُوْشَع بن نون وهو ابن أخت موسى ، وكان من أكبر أصحابه ولم يزل معه إلى أن مات ، وخلفه في شريعته ، وكان من أعظم بني إسرائيل بعد موسى ، سُمِّي فتاه إذ كان يخدمه ويتبعه وإنما قال لفتاه تعليماً للأدب قال عليه السلام (ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي)[2] .

﴿ **لاَ أَبْرَحُ** ﴾ أي لا أزال أسير ﴿ **حتّى أَبْلُغَ مجْمعَ البَحْرَيْنِ** ﴾ هو ملتقى بحر فارس والروم ، مما يلي المشرق وهو المكان الذي وعد الله موسى بلقاء الخضر فيه ﴿ **أَوْ أَمْضِيَ** ﴾ من مضى في الأمر بمعنى نفَّذهُ ﴿ **حُقُباً** ﴾ والمعنى أسير زماناً طويلاً حتى أجد هذا العالم ، قال الإمام : هذا إخبار من موسى بأنه وطَّن نفسه على تحمل التعب الشديد ، والعناء العظيم في السفر ، لأجل طلب العلم ، وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سار من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لَحَقَّ له ذلك ، وفي روضة الخطيب : رجل جاء من المدينة إلى مصر لحديث واحد ، أي فذهب موسى ويوشع يمشيان ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا** ﴾ بينما ظرف أضيف له اتساعاً ، أي وصلا مكاناً يكاد يلتقي وسط ما امتد من البحرين طولاً ﴿ **نَسِيَا حوتَهُمَا** ﴾ أي نسي موسى تذكر الحوت لصاحبه ، وصاحبه نسي الإخبار بأمره ﴿ **فَاتَّخذَ** ﴾ الحوت

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم وهو حديث معاذ (إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ..) وفيه (واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وقد تقدم وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٠ .

﴿ سَبِيلَهُ ﴾ أي طريق الحوت ﴿ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾ أي مسلكاً كالسرب وهو بيت في الأرض وثقب تحتها ، وهو خلاف النفق لأنه إذا لم يكن له منفذ يقال له سرب ، وإذا كان له منفذ يقال له نفق ، وذلك أن الله تعالى أمسك جرية الماء على الحوت فانجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم تلتئم ، هكذا فسر النبي ﷺ هذا المقام كما في حديث الصحيحين ، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ أي مجمع البحرين الذي يجعل موعداً للملاقاة أي انطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان الغد ألقى على موسى الجوع ليتذكر الحوت ، ويرجع إلى مطلبه فعند ذلك ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ ما نتغذى به ، وهو الحوت ، والغداء بالفتح هو ما يُعَد للأكل أول النهار ، والعشاء ما يعد له آخره ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا ﴾ أي بالله لقد لقينا من هذا السَّفر الذي سرناه بعد مجاوزة مجمع البحرين ﴿ نَصَباً ﴾ تعباً وإعياء ، قال النووي : إنما لحقه النصب ، والجوع ليطلب موسى الغذاء ، فيتذكر به يوشع الحوت ، وفي الحديث « لم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره به » ﴿ قَالَ ﴾ فتاه ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ بمعنى أخبرني ﴿ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ يعني عجبتُ ما أصابني حين وصلنا إلى الصخرة ، ونزلنا عندها ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ أن أذكر لك أمره ، وما شاهدت منه من الأمور العجيبة ، ثم اعتذر بإنساء الشيطان إياه ، لأنه لو ذكر ذلك لموسى ما جاوز ذلك المكان ، وما ناله النصب ، فقال ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ ﴾ بوسوسته الشاغلة عن ذلك ﴿ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ أي الشيطانُ أنساني أن أذكره لك ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ سبيلاً ﴿ عَجَباً ﴾ وهو كون مسلكه كالطاق ، والسرب كأنه قيل حَيِيَ ، واضطرب ، ووقع في البحرَ ، واتخذ سبيله فيه سبيلاً عجباً ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت في أمر الحوت ﴿ مَا ﴾ أي الذي ﴿ كُنَّا نَبْغِ ﴾ أي نبغيه ، ونطلبه ، لكونه إمارة للفوز بالمرام من لقاء الخضر عليه السلام ﴿ فَارْتَدَّا ﴾ رجعا من ذلك الموضع وهو طرف نهر ينصب إلى البحر ﴿ عَلَى آثَارِهِمَا ﴾ طريقهما الذي جاءا منه ﴿ قَصَصاً ﴾ أي يتبعان آثارهما إتباعاً ، ويتفحصان تفحصاً حتى أتيا الصخرة التي حَيِيَ الحوت عندها ، وسقط في البحر واتخذ سبيله سرباً ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً ﴾ التنكير للتفخيم ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الإضافة للتشريف ، وكان مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى وعرفه نفسه ، وأفاد أنه جاء لأجل التعلم ، والاستفادة . والجمهور على أنه الخَضِر وهو لقبه ، وسبب تلقيبه بذلك ، ما جاء في الصحيح أنه عليه السلام قال (إنما سُمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء) ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ فضلاً وصلاحاً ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ من غير واسطة .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ ﴾ أي للخضر عليهما السلام ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ أصحبك ﴿ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ ﴾ على شرط أن تعلمن وهو استئذان منه في اتباعه له على وجه التعليم ، ويكفيك دليلاً في شرف الاتباع

﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ أي علماً ذا رشد أرشد به في ديني ، ولقد راعى في سوق الكلام غاية التواضع معه ، فينبغي للمرء أن يتواضع لمن هو أعلم منه ، قال الإمام : والآية تدل على أن موسى راعى أنواع الأدب حيث جعل نفسه تبعاً له فقال ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ واستأذن في اثبات هذه التبعية وأقرَّ على نفسه بالجهل ، وعلى استاذه بالعلم في قوله ﴿ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ ﴾ و« مِنْ » في قوله ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ للتبعيض أي لا أطلب مساواتك في العلوم ، وإنما أريد بعضاً من علومك كالفقير يطلب من الغني جزأ من ماله ، وقوله ﴿ مِمَّا عُلِّمْتَ ﴾ اعتراف بأنه أخذ من قوله ﴿ رُشْداً ﴾ طلباً للإرشاد أي ما لولاه لضلَّ ، قال قتادة : لو كان أحد مكتفياً من العلم لاكتفى نجيُّ الله موسى ولكنه قال ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ الآية وقال الزجاج : وفيما فعل موسى وهو من أَجَلِّ الأنبياء ، من طلب العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم ، وإن كان قد بلغ نهايته ﴿ قَالَ ﴾ الخضر ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد ، كأنه مما لا يصح ولا يستقيم ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ علىٰ مالَم تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ أي لم يحط به خبرك أي علمك ، وهو إيذان بأنه يَتولىَّ أموراً خفية منكرة الظواهر ، والرجل الصالح لا يصبر إذا رأى ذلك ، ويأخذ في الإنكار ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً ﴾ معك غير معترض عليك ، وتعليق الوعد بالمشيئة إمَّا طلباً لتوفيقه في الصبر ، ومعونته ، أو تيمناً به ، أو علماً منه بشدة الأمر ، وصعوبته ، فإن الصبر من مثله عند مشاهدة الفساد شديد جداً لا يكون إلا بتأييد الله تعالى ﴿ وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ أي ستجدني صابراً ، لا أخالفك في شيء ، ولا أترُك أمرك فيما أمرتني به ، ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي ﴾ صحبتني لأخذ العلم وهو إذنٌ له في الاتِّباع ، ﴿ فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ ممَّا تشاهد من أفعالي ، وتنكره مني في نفسك أي لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلاً عن المناقشة ، والاعتراض ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ حتى أبتدى بيانه ، وفيه بيان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة ﴿ فَانْطَلَقا ﴾ أي ذهب موسى والخضر عليهما السلام على الساحل يطلبان السفينة ، وكان يوشع تبعاً لهما ، فلم يُذْكر ، يدل على هذا قوله عليه السلام (مرت بهم سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول) ﴿ حَتَّى إِذا رَكِبا ﴾ دخلا ﴿ فِي السَّفِينَةِ ﴾ ﴿ خَرَقَها ﴾ ثقبها الخضر ، وشقها لما بلغوا معظم الماء حيث أخذ فاساً فقلع على غفلة من القوم من ألواحها لوحين ممَّا يلي الماء ، والظاهر أنه خرق جدارها لتكون ظاهرة العيب ، ولا يتسارع إلى أهلها الغرق فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ موسى منكراً عليه ﴿ أَخَرَقْتَها ﴾ ياخضر ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَها ﴾ فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها ، وهم قد أحسنوا بنا حيث حملونا بغير أجرة وليس هذا جزاءهم ﴿ لَقَدْ جِئْتَ ﴾ أي أتيت وفعلت ﴿ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أي منكراً عجباً ، ﴿ قَالَ ﴾ الخَضِر لموسىٰ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي قد قلت لك ما تقدر

أن تصبر معي البتة ، وهو تذكير لما قاله من قبلُ ، متضمنٌ للإنكار على عدم الوفاء بوعده ﴿ **قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بما نَسِيتُ** ﴾ بنسياني وصيَّتَك بعدم السؤال عن حكمة الأفعال قبل البيان فإنه لا مؤاخذة على الناسي ، كما ورد في صحيح البخاري « من أن الأول كان من موسى نسياناً ، والثاني فرطاً ، والثالث عمداً » ﴿ **وَلاَ تُرْهِقْنِي** ﴾ ولا تُغشِّني ، ولا تكلفني ، ولا تُحَمِّلني ﴿ **مِنْ أَمْرِي** ﴾ وهو اتباعه إياه ﴿ **عُسْراً** ﴾ أي لا تعسِّرْ على متابعيك ، ويسِّرْها عليّ ، فإني أريد صحبتك ، ولا سبيل لي إليها إلا بالإغضاء ، والعفو ، وترك المناقشة .

﴿ **فَانْطَلَقَا** ﴾ فقبل الخضر عذر موسى عليه السلام فخرجا من السفينة فانطلقا ﴿ **حَتَّى إِذَا لَقِيَا** ﴾ في خارج قرية مرّا بها ﴿ **غُلاماً فَقَتَلَهُ** ﴾ أي فقتله عقيب اللقاء ، كما قال رسول الله ﷺ (ثم[1] خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخَضِرُ غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله) كذا في الصحيحين برواية أبي بن كعب رضي الله عنه ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى ﴿ **أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً** ﴾ طاهرة من الذنوب لأنها صغيرة لم تبلغ الحِنْثَ أي الإثم والذنب وهو قول الأكثرين . يعني لم تقتل نفساً فيقتص منها ﴿ **بِغَيْرِ نَفْسٍ** ﴾ من غير جناية قتل ﴿ **لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً** ﴾ أي منكراً عظيماً لا يمكن السكوت عنه .

﴿ **قَالَ** ﴾ الخضر ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** ﴾ توبيخ لموسى على ترك الوصية ، وزيادة (لَكَ) هنا زيادة العتاب على تركها لأنه قد نقض العهد مرتين ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى ﴿ **إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بعْدَها** ﴾ أي بعد هذه المرة ﴿ **فَلا تُصاحِبْنِي** ﴾ أي لا تكن صاحبي ومقارني بل أبعدني عنك ، وإن سألت صحبتك ﴿ **قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لَدُنِّي عُذْراً** ﴾ أي قد وجدت عُذراً من قِبلي ، لَمَّا خالفتك ثلاث مرات . ﴿ **فَانْطَلَقَا** ﴾ أي ذهبا بعدما شرطا ذلك ﴿ **حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ** ﴾ هي أَنْطَاكية ﴿ **اسْتَطْعَمَا أَهْلَها** ﴾ أي طلبا منهم الطعام ضيافة ، قيل لم يسألاهم ولكن نزولهما عندهم كالسؤال منهم ، ﴿ **فَأَبَوْا** ﴾ امتنعوا ﴿ **أَنْ يُضَيِّفُوهُما** ﴾ أي من تضييفهما ﴿ **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ** ﴾ فسواه الخضر بالإشارة بيده كما هو المروي عن النبي عليه السلام ﴿ **قَالَ** ﴾ له موسى لضرورة الحاجة إلى الطعام ﴿ **لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ** ﴾ على عملك هذا ﴿ **أَجْراً** ﴾ أجرة حتى نشتري بها طعاماً ﴿ **قَالَ** ﴾ الخضر ﴿ **هَذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ أي هذا الوقت وقت الفراق بيننا ، وهذا الاعتراض الثالث سبب الفراق الموعود بقوله « فلا تصاحبني » ﴿ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** ﴾ التأويل رجع الشيء إلى مآله ، والمراد به ههنا المآل والعاقبة إذ هو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية ، وخلاص أبوَيْ الغلام من شرِّه من الفوز بالبدل

(١) رواه الشيخان .

الأحسن ، واستخراج اليتيمين للكنز قال رسول الله ﷺ (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصّ اللهُ علينا من خبرهما) أي يبين الله لنا بالوحي ﴿ **أَمَّا السَّفِينَةُ** ﴾ التي خرقتها ﴿ **فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ** ﴾ لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة وكانوا عشرة أخوة خمسة منهم زَمْنى ﴿ **يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ** ﴾ بها مؤاجرة طلباً للكسب ، فإسناد العمل إلى الكل بطريق التغليب ، أو لأن عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكّلين ، فإنما سمّاهم الله مساكين دون فقراء لعجزهم عن دفع المَلِكِ الظالم ، ولزمانتهم ، والمسكين يقع على من أذله شيء ، وهو غير المسكين المشهور في مصرف الصدقة هذا هو تحقيق المقام . ﴿ **فَأَرَدْتُ** ﴾ بحكم الله وإرادته ﴿ **أَنْ أَعِيبَهَا** ﴾ أي أجعلها ذات عيب ﴿ **وَكَانَ** ﴾ ﴿ **وَرَاءَهُمْ** ﴾ أمامهم كقوله (ومن ورائهم برزخ) فوراء من الأضداد ، أريد به ههنا الأمام دون الخلف ﴿ **مَلِكٌ** ﴾ كافر ﴿ **يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ** ﴾ صحيحة جيدة ﴿ **غَصْباً** ﴾ من أصحابها وقهراً ، وخوفُ الغَصْب سببٌ لإدارة عيبها ﴿ **وَأَمَّا الْغُلَامُ** ﴾ الذي قتله ﴿ **فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ** ﴾ مقربين بتوحيد الله تعالى ﴿ **فَخَشِينَا** ﴾ خفنا من ﴿ **أَنْ يُرْهِقَهُمَا** ﴾ أي يكلفهما ﴿ **طُغْيَاناً** ﴾ ضلالة ﴿ **وَكُفْراً** ﴾ ويتبعان له لمحبتها إياه فيكفران بعد الإيمان ، ويضلاّن بعد الهداية، وإنما خشي الخضر من ذلك لأن الله أعلمه بحال الولد أنه طبع أي خلق كافراً ﴿**فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرَاً مِنْهُ زَكٰوةً**﴾ طهارة من الذنوب، والأخلاق الرديئة ﴿ **وَأَقْرَبَ** ﴾ منه ﴿ **رُحْماً** ﴾ رحمة، وبراً بوالديه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أبدلهما الله جارية تزوجها نبيٌّ فولدت له أنبياء كرماً ﴿ **وَأَمَّا الْجِدارُ** ﴾ المعهود ﴿ **فكانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ** ﴾ في القرية المذكورة فيما سبق وهي أنطاكية ﴿ **وكانَ تَحْتَهُ** ﴾ أي تحت الجدار ﴿ **كَنْزٌ لَهُمَا** ﴾ أي مال مدفون لهما من ذهب ، وفضة ، روي ذلك مرفوعاً ، وهو الظاهر لإطلاق الذمّ على كنزهما في قوله تعالى (**والّذينَ يَكْنِزونَ الذّهَبَ والفِضّةَ**) لمن لا يؤدي زكاتها وما تعلق بها من الحقوق ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً** ﴾ كان الناس يضعون الودائع عند ذلك الصالح ، فيردها إليهم سالمة ، فحفظا بصلاح أبيهما في مالهما ، وأنفسهما ، قال جعفر بن محمد : كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء ، فيكون الذي دفن ذلك الكنز جدهما السابع ﴿ **فَأَرَادَ رَبُّكَ** ﴾ بالأمر بتسوية الجدار ﴿ **أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا** ﴾ أي حلمهما ، وكمال رأيهما ، قال الخضر : (**فَأَرَدْتُ أن أَعيبَها**) بالإسناد إلى نفسه لظاهر القبح ، وفي تأويل قتل الغلام (**خَشِينا**) بلفظ الخشية والإسناد إلى « نا » لأن الكفر مما يجب أن يخشاه كل أحد ، وقال في تأويل الجدار ﴿ **فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يبْلُغا أَشُدَّهما** ﴾ بالإسناد إلى الله تعالى وحده لأن بلوغ الأشد وتكامل السن ، ليس إلا بمحض إرادة الله تعالى من غير مدخل وأثر لإرادة العبد ، فالأول في نفسه شر قبيح ، والثاني خيرٌ محض ، والثالث ممتزج ﴿ **وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما** ﴾ من تحت الجدار ولولا أنّي أقمته لا نقضّ وخرج الكنز من تحته ، قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع بالكلية ، فإن قيل : إن عرف واحد من اليتيمين

والقيِّمُ عليهما الكنز ، امتنع أن يترك سقوط الجدار ، وإن لم يعرفوا فكيف يسهل عليهم استخراجه ؟ قلنا : لعلهما لم يعلماه وعلم القيّم إلا أنه كان غائباً كذا في تفسير الإمام ، يقول الفقير : قوله وإن لم يعرفوا إلخ غير مسلَّم لأن الله تعالى قادر على أن يعرِّفهما مكان ذلك الكنز بطريق من الطريق ، ويسهل عليهما استخراجه ، على أن واجد الكنز في كل زمان من غير سبق معرفة بالمكان ليس بنادر ﴿ **رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** ﴾ لهما أي مرحومين من قبله تعالى ، أو مصدر لمحذوف أي رحمهما الله بذلك رحمة ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُ** ﴾ أي ما فعلت ما رأيته ياموسى من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ﴿ **عَنْ أَمْرِي** ﴾ عن رأيي واجتهادي وإنما فعلته بأمر الله ووحيه ، وهذا إيضاح لما أشكل على موسى ، وتمهيد للعذر في فعله المنكر ظاهراً ، ﴿ **ذلكَ** ﴾ المذكور من العواقب ﴿ **تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً** ﴾ أي لم تستطع فحذف التاء للتخفيف ، روي أن موسى لما أراد أن يفارقه قال له الخضر لو صبرت لأتيت على ألف عجب ، كل عجب أعجب مما رأيت ، فبكى موسى على فراقه وقال أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به الناس ، واطلبه لتعمل به .

ومن وصايا الخضر « كن نفاعاً ولا تكن ضراراً ، وكن بشاشاً ولا تكن عبوساً ، وإياك واللجاجة ، ولا تمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير المذنبين خطاياهم بعد الندم ، وابك على خطيئتك مادمت حياً . ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد . واجعل همك في معادك . ولا تخض فيما لا يعنيك . وتدبر الأمور في علانيتك . ولا تذر الإحسان في قدرتك » ، فقال له موسى : قد أبلغت في الوصية فأتم الله عليك نعمته ، وغمرك في رحمته ، وكلأك من عدوه ، قال محمد بن المنكدر : إن الله يحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وعشيرته فلا يزالون في حفظ الله وستره ، قال سعيد بن المسيب : إني أصلي وأذكر ولدي فأزيد في صلاتي ، وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً** ﴾ أنه قال : حُفِظا بصلاح أبيهما ، ذكر أن بعض الصالحين همَّ السلطان بقتله لأمرٍ بلغه عنه ، فلما دخل عليه أكرمه وخلى سبيله ، فقيل بم دعوت حتى أنجاك الله منه ؟ فقال : قلت يامن حفظ الكنز على الصبيَّيْنِ لصلاح أبيهما ، احفظني لصلاح آبائي ﴿ **وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذِي القَرنَيْنِ** ﴾ هم اليهود سألوه على وجه الامتحان عن رجل طوَّاف ، بلغ شرق الأرض وغَربها ، وهو ذو القرنين الأكبر واسمه « اسكندر بن فيلقوس » اليوناني ملك الدنيا بأسرها ، كما قال مجاهد : مَلَك الأرضَ أربعةٌ مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان وذو القرنين ، والكافران نمرود وبخت نصر ، وكان ذو القرنين بعد نمرود في عهد إبراهيم عليه السلام على ما يأتي ولكنه عاش طويلاً ، قال ابن كثير : والصحيح أنه ما كان نبياً ولا ملكاً ، وإنما كان مِلكاً صالحاً عادلاً ملك الأقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ، وانقادت له البلاد وإنما سُمِّي بذي القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس أي جانبيها مشرقها ومغربها ، وأما ذو القرنين الثاني ، هو اسكندر

الرومي الذي يؤرخ بأيامه الروم ، فكان متأخراً عن الأول بدهر طويل أكثر من ألفي سنة ، كان هذا قبل المسيح عيسى عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة ، وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف ، وهو الذي حارب دارا وأذل ملوك الفرس ، ووطىء أرضهم ، وكان كافراً عاش ستاً وثلاثين سنة ، فالمراد بذي القرنين في القرآن هو الأول دون الثاني ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم في الجواب ﴿ **سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ** ﴾ سأذكر لكم أيها السائلون ﴿ **مِنْهُ** ﴾ أي من خبر ذي القرنين وحاله ، فحذف المضاف ﴿ **ذِكْراً** ﴾ نبأ مذكوراً وبياناً ﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ** ﴾ التمكين ههنا الإقدار وتمهيد الأسباب ، يقال : مكَّنه ومكن له ، ومعنى الأول جعله قادراً قوياً ، ومعنى الثاني جعل له قدرة وقوة ، ﴿ **وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ أراده من مهمات ملكه ، ومقاصده المتعلقة بسلطانه ﴿ **سَبَباً** ﴾ أي طريقاً يوصل إليه ، وهو كل ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة . ﴿ **فَأَتْبَعَ** ﴾ أي فأراد بلوغ المغرب فأتبع ﴿ **سَبَباً** ﴾ يوصله إليه أي لحقه وتبعه وسلكه وسار ، قال ابن الكمال : يقال تبعه اتّباعاً إذا طلب الثاني اللحوق بالأول ، وتبعه تَبَعاً إذا مرَّ به ومضى معه ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ** ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط ، قال الشيخ : أي بلغ قوماً في جهة ليس وراءهم أحد ، لأنه لا يمكنه أن يبلغ موضع غروب الشمس ﴿ **وَجَدَهَا** ﴾ أي رأى الشمس ﴿ **تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** ﴾ أي ذات حمأة وهي الطين الأسود ولعله لما بلغ ساحل البحر رآها كذلك ، إذ ليس في مطمح نظرهِ غير الماء ، كراكب البحر ولذلك قال ﴿ **وَجَدَهَا تَغْرُبُ** ﴾ وقال بعضهم : لما بلغ موضعاً لم يبق بعده عمارة في جانب المغرب وجد الشمس كأنها تغرب في وحدة مظلمة ، كما أن راكب البحر يراها كأنها تغرب في البحر ، إذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر ، وإلا فقد علم أن الأرض كرة ، والسماء محيطة بها ، والشمس أكبرُ من الأرض بمرات كثيرة ، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض ؟ ﴿ **وَوَجَدَ عِنْدَهَا** ﴾ عند تلك العين ، يعني عند نهاية العمارة ﴿ **قَوْماً** ﴾ أي وجد قوماً من الأقوام يعبدون الأوثان والأحجار ﴿ **قُلْنَا** ﴾ بطريق الإلهام ﴿ **يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً** ﴾ أي أنت مخيَّر في أمرهم بعد الدعوة إلى الاسلام : إما تعذيبك بالقتل إن أبَوْا ، وإمَّا إحسانك بالعفو ، أو الأسر ، وسماها إحساناً في مقابلة القتل ، والمعنى ليكن شأنك معهم إما التعذيب ، وإما الإحسان ، فالأول لمن يبقى على حاله ، والثاني لمن تاب ﴿ **قَالَ** ﴾ ذو القرنين ﴿ **أَمَّا مَنْ ظَلَمَ** ﴾ نفسه بالإصرار على الكفر ، ولم يقبل الإيمان مني ﴿ **فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ** ﴾ أنا ومن معي في الدنيا بالقتل ﴿ **ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ** ﴾ في الآخرة ﴿ **فَيُعَذِّبُهُ** ﴾ فيها ﴿ **عَذَاباً نُكْراً** ﴾ منكراً لم يعهد مثله وهو عذاب النار ﴿ **وَأَمَّا مَنْ آمَنَ** ﴾ بموجب دعوتي ﴿ **وَعَمِلَ** ﴾ عملاً ﴿ **صَالِحاً** ﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿ **فَلَهُ** ﴾ في الدارين ﴿ **جَزَاءً الْحُسْنَىٰ** ﴾ أي فله المثوبة الحسنى حال كونه مجزياً بها في الدار الآخرة وهي الجنة

﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا ﴾ أي مما نأمر به ﴿ يُسْراً ﴾ أي سهلاً متيسراً غير شاق ، يعني لا نأمره بما يصعب عليه بل بما يسهل ﴿ ثُمَّ أَتْبَع سَبَباً ﴾ أي تبع وسلك طريقاً راجعاً من مغرب الشمس موصلاً إلى مشرقها ﴿ حَتَّى إذا بَلَغَ مَطلِعَ الشَّمْسِ ﴾ يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أوّلاً من معمورة الأرض ، إذ لا يمكنه أن يبلغ موضع طلوع الشمس ﴿ وَجدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ ﴾ عراة ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها ﴾ من أمام الشمس ﴿ سِتْراً ﴾ من اللباس والبناء ، يعني لَيس لهم لباس يتسترون به من حر الشمس ، ولا بناء يستظلون فيه ، لأن أرضهم لا تمسك الأبنية لغاية رخاوتها ، وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوا الأسراب ، أو البحر من شدة الحر ، وإذا ارتفعت عنهم خرجوا ﴿ كَذلِكَ ﴾ أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك في رفعة المحل وبسطة الملك ، أو أمره فيهم كأمره في أهل الغرب من التخيير والاختيار ﴿ وَقَدْ أَحَطْنا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من الأسباب والعدد ﴿ خُبْراً ﴾ أي علماً تعلق بظواهره وخفاياه ، يعني أن ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ، فانظر إلى سعة لطف الله تعالى وإمداده بمن شاء من عباده ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي أخذ طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ، آخذاً من الجنوب إلى الشمال ﴿ حَتّى إذا بَلغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ بين الجبلين اللذين سد ما بينهما وهما جبلان عاليان من ورائهما يأجوج ومأجوج ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما ﴾ أمام السدين ومن ورائهما مجاوزاً عنهما ﴿ قَوْماً ﴾ أمة من الناس ﴿ لا يَكادُونَ يفْقَهونَ قَوْلاً ﴾ أي لا يفهمون كلام أحد ، ولا يفهم الناس كلامهم ، لغرابة لغتهم ، وقال الزمخشري : ﴿ لا يكادُون يفْقَهونَ ﴾ إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم ﴿ قَالُوا ﴾ على لسان ترجمانهم بطريق الشكاية ، والظاهر أن ذي القرنين كان قد أوتي اللغات ففهم كلامهم ﴿ يَاذا القَرْنيْنِ إنّ يأجُوجَ ومَأجُوجَ ﴾ اسمان اعجميان من أولاد يافث بن نوح ﴿ مُفْسِدُونَ في الأرْضِ ﴾ أي في أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزروع ، وكانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه .

﴿ فَهلْ نَجْعَلُ لكَ خَرْجاً ﴾ جُعلاً من أموالنا أي أجراً نخرجه لك ، والخروج والخراج واحد ﴿ عَلى أنْ تَجْعلَ بيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ حاجزاً يمنعهم من الخروج والوصول إلينا ﴿ قالَ ﴾ ذو القرنين ﴿ ما مَكَّنّي ﴾ بالإدغام : أي الذي مكنني ﴿ فيهِ رَبِّي ﴾ وجعلني فيه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب ﴿ خيْرٌ ﴾ مما تريدون أن تبذلوه إليّ من الخراج ، فلا حاجة لي إليه ، ونحوه قول سليمان عليه السلام (فَما آتانِيَ اللهُ خيْرٌ ممّا آتاكُمْ) ﴿ فَأعينُوني بِقُوَّةٍ ﴾ بفَعَلةٍ وصُنَّاع يحسنون البناء والعمل ، وبآلات لابد منها في البناء ﴿ أَجْعَلْ ﴾ جواب الأمر ﴿ بيْنَكُمْ وَبيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ حاجزاً حصيناً وحجاباً عظيماً . وهو أكبر من السد وأوثق ﴿ آتوني زُبَرَ الحديدِ ﴾ تفسير للقوة فيكون المراد بها ترتيب الآلات ، وزُبَرٌ جمعُ زُبْرَةٍ كغرف جمع غرفة وهي القطعة الكبيرة ، وهذا لا ينافي ردَّ

خراجهم لأن المأمور به الإيتاء بالثمن ، ولأن إيتاء الآلة من قبيل الإعانة بالقوة ، دون الخراج على العمل قال بعضهم : حفر ما بين السدين حتى بلغ الماء ، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب بدل الطين ﴿ **حَتّى إذا سَاوىٰ بيْنَ الصَّدَفَيْنِ** ﴾ الصدف منقطع الجبل ، أو ناحيته أي آتوه إياها فجعل يبني شيئاً فشيئاً ، حتى إذا جعل ما بين ناحيتي الجبلين مساوياً لهما في السمك ، يعني ملأ ما بينهما إلى أعلاهما وكان ارتفاعه مائتي ذراع وعرضه خمسين ذراعاً ، ثم وضع المنافخ حوله ﴿ **قَالَ** ﴾ للعملة ﴿ **انفُخُوا** ﴾ على زبر الحديد بالكير والنار ﴿ **حَتّى إذا جَعَلَهُ** ﴾ أي المنفوخ فيه وهو زبر الحديد ﴿ **نَاراً** ﴾ كالنار في الحرارة والهيئة ﴿ **قَالَ** ﴾ للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة ﴿ **آتوني** ﴾ قِطْراً أي نحاساً مذاباً ﴿ **أُفْرِغْ عليْهِ قِطْراً** ﴾ الإفراغُ : الصبُّ أي أصبُبْ على الحديد المحميِّ النحاسَ ﴿ **فَمَا اسْتَطَاعُوا** ﴾ بحذف تاء الافتعال تخفيفاً أي فعلوا ما أمروا به فاختلط والتصق بعضه ببعض ، فصار جبلاً صلداً أي صلباً أملس ، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما قدروا ﴿ **أنْ يَظْهَروهُ** ﴾ ان يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته ﴿ **وما اسْتَطاعوا لَهُ نَقْباً** ﴾ أي وما قدروا أن ينقبوه ويخرقوه من أسفله لصلابته وثخانته ، وهذه معجزة ﴿ **قَالَ** ﴾ ذو القرنين ﴿ **هَذا** ﴾ السد ﴿ **رَحْمَةٌ** ﴾ عظيمة ونعمة جسيمة ﴿ **مِنْ رَبِّي** ﴾ على كافة العباد ﴿ **فَإذا جَاءَ وعْدُ رَبِّيْ** ﴾ ومقدماته من خروج الدجال ، ونزول عيسى ، ونحو ذلك ﴿ **جَعَلَهُ** ﴾ أي السد المشار إليه مع متانته ﴿ **دَكَّاءَ** ﴾ أي مدكوكاً مستوياً بالأرض وكل ما انبسط بعد إرتفاع فقد اندك ﴿ **وكانَ وعْدُ ربِّيْ** ﴾ أي وعده المعهود وكل ما وعد به ﴿ **حَقّاً** ﴾ ثابتاً لا محالة ، واقعاً البتة .

وعن زينب أم المؤمنين رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليها فزعاً يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوجَ مثل هذه ، وحلَّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها ، قالت زينب : فقلت يارسول الله أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخَبَثُ)[1] ﴿ **وَتَرَكْنا** ﴾ أي وجعلنا ﴿ **بعْضَهُمْ** ﴾ بعض الخلائق ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ يوم إذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه ﴿ **يَموجُ في بعْضٍ** ﴾ آخر والموج الاضطراب أي يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط إنسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ، قال في الإرشاد : لعل ذلك قبل النفخة الأولى ﴿ **وَنُفِخَ في الصُّوْرِ** ﴾ هي النفخة الثانية التي عندها يكون الحشر بمقتضى الفاء التي بعدها ، ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الأولى لئلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الأولى من الأحول ، والأهوال ، وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة ، فإذا هم قيام ينظرون ، وكلٌّ يتخيل أن ذلك الذي كان فيه منام كما يتخيله

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٢٣١ ، والخَبَثُ : يُراد به المنكراتُ والمعاصي .

المستيقظ وقد كان حين مات وانتقل إلى البرزخ كالمستيقظ هناك ، وأن الحياة الدنيا كانت له كالمنام ، وفي الآخرة يعتقد في أمر الدنيا والبرزخ أنه منام وأن اليقظة الصحيحة هي التي هو عليها في الدار الآخرة حيث لا نوم فيها ، وسئل رسول الله ﷺ عن الصور فقال (هو قرن من نور أُلقمه إسرافيل)[1] ﴿ **فَجَمَعْنَاهُمْ** ﴾ أي جمعنا الخلائق بعدما تمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء ﴿ **جَمْعاً** ﴾ عجيباً لم نترك من الملك والإنس والجن والحيوانات أحداً ﴿ **وَعَرَضْنَا** ﴾ أي أظهرنا ﴿ **جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ** ﴾ يوم إذ جمعنا الخلائق كافة ﴿ **لِلْكَافِرِينَ** ﴾ منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ، ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً ﴿ **عَرْضاً** ﴾ هائلاً لا يُعرف كنهه وفي الحديث (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يَجُرُّونها)[1] ﴿ **الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ** ﴾ وهم في الدنيا ﴿ **فِي غِطَاءٍ** ﴾ غلاف غليظ محاطة بذلك من جميع الجوانب ﴿ **عَنْ ذِكْرِي** ﴾ عن الآيات المؤدية لأولى الأبصار المتدبرين فيها إلى ذكري بالتوحيد ، والتمجيد كما قيل :

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ * تَدلُّ على أَنَّه وَاحِدٌ

﴿ **وَكَانُوا** ﴾ مع ذلك ﴿ **لا يَسْتَطِيعُونَ** ﴾ لفرط تصامهم عن الحق وكال عداوتهم للرسول ﷺ ﴿ **سَمْعاً** ﴾ استماعاً لذكري وكلامي ، يعني أن حالهم أعظم من الصم فإن الأصم قد يستطيع السمع إذا صيح به ، وهؤلاء زالت عنهم تلك الاستطاعة وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، ﴿ **أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي أكفروا بي مع جلالة شأني ، فحسبوا ، وظنوا ؟ ﴿ **أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي** ﴾ من الملائكة وعيسى وعزير وهم تحت سلطاني وملكوتي ﴿ **مِنْ دُونِي** ﴾ مجاوزين إياي أي تاركين عبادتي ﴿ **أَوْلِيَاءَ** ﴾ معبودين ينصرونهم من بأسي ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ** ﴾ هيأناها ﴿ **لِلْكَافِرِينَ** ﴾ المعهودين ﴿ **نُزُلاً** ﴾ وهو ما يعد للنزيل ، والضيف أي أحضرنا جهنم للكفارين كالنزل المعد للضيف ، وفيه تهكم بهم كقوله (**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) وإيماء إلى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هي انموذج له ، وهو كونهم محجوبين عن رؤية الله تعالى كما قال تعالى (**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ**) جعل الصليّ أي الدخول تالياً في المرتبة للمحجوبية فهو دونها في الرتبة ، وفسره ابن عباس رضي الله عنهما بموضع النزول والمثوى ، وفي الآية إشارة إلى أن من ادعى محبة الله وولاءه لا يتخذ من دون الله أولياء إذ لا يجتمع ولاية الحق وولاية الخلق ، ومن كفر بنعمة الولاء واتخذ من دون الله أولياء فله جهنم ، وحبُّ الله تعالى قطبٌ تدور عليه الخيرات ، وأصل جامع لأنواع الكرامات ، وعلامته الجريان على موجب الأمر والنهي ، كما قال بعضهم : نزِّهْ ربك وعظمه من أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب صفة الجنة والنار ، والترمذي في باب ما جاء في صفة النار .

حيث أمرك ، فالذين كفروا أضاعوا أيامهم بالكفر والآثام ، وعبدوا المعدوم وهو ما سوى الله الملك العلام ، وأكلوا وشربوا في الدنيا كالأنعام ، فلا جرم جعل الله لهم جهنم نزلاً وشر مقام ، وأما المؤمنون فقد جاهدوا في الله بالطاعات ، واشتغلوا بالرِّياضات والمجاهدات ، وما عبدوا غير الموجود الحقيقي في وقت من الأوقات ، فلا جرم أحسن الله إليهم بالدرجات العاليات ، فالخلاص والنجاة في التوجه إلى الله رفيع الدرجات ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ** ﴾ أي نخبركم أيها الكفرة ﴿ **بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً** ﴾ أي بالقوم الذين هم أشد الخلق وأعظمهم خسراناً فيما عملوا ؟ وهذا بيان حال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الأعمال الحسنة في أنفسها ، من صلة الرحم ، وإطعام الفقراء ، وعتق الرقاب ونحوها ، وفي حسبانهم أيضاً حيث كانوا معجبين بها ، واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها ، ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ** ﴾ في إقامة الأعمال الحسنة في أنفسها أي ضاع وبطل بالكلية ﴿ **فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيا** ﴾ متعلق بالسعي لا بالضلال ، لأن بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي والحال أنهم ﴿ **يَحْسَبُونَ** ﴾ يظنون ﴿ **أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾ يعني يعملون عملاً ينفعهم في الآخرة ، أي يحسبون أنهم يعملون ذلك على الوجه اللائق ، وذلك لإعجابهم بأعمالهم التي سعوا في إقامتها وكابدوا في تحصيلها ، وفي الآية إشارة إلى أهل الأهواء والبدع وأهل الرياء والسمعة ، فإن اليسير من الرياء شرك ، وإن الشرك محبط الأعمال كقوله تعالى (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**) والحاصل وإنْ العمل المقارن بالكفر باطل ، وإن كان طاعة ، كمثل أهل الرياء والسمعة والبدعة ، وكذا الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع ، وحملوها على الرياضات الشاقة ، ليسوا على شيء ، وعن علي رضي الله عنه هم (أهل حروراء) ، وهم الخوارج الذي قاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والخوارج قوم من زُهَّاد الكوفة خرجوا عن طاعة علي رضي الله عنه عند رضاه بالتحكيم بينه وبين معاوية ، قالوا : كفر بالتحكيم : إن الحكم إلا لله وكانوا اثنى عشر ألف رجل ، اجتمعوا ونصبوا راية الخلاف ، وسفكوا الدماء ، وقطعوا السبيل ، فخرج إليهم علي رضي الله عنه ورام رجوعهم فأبوا إلا القتال ، فقاتلهم بالنهروان فقتلهم واستأصلهم ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وهم الذين قال فيهم ﷺ (يخرج قوم في أمتي يحقر أحدكم صلاته في جنب صلاتهم ، وصومه في جنب صومهم ، لا يجاوز إيمانهم تراقيهم)[1] ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ المنعوتون بما ذكر من ضلال السعي ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** ﴾ بدلائله الداعية إلى التوحيد عقلاً ونقلاً ﴿ **وَلِقَائِهِ** ﴾ بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هي عليه ﴿ **فَحَبِطَتْ** ﴾ بطلت بذلك ﴿ **أَعْمَالُهُمْ** ﴾ المعهودة حبوطاً كلياً ، فلا يثابون عليها ﴿ **فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَزْناً** ﴾ أي فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً ، لأن مداره الأعمال الصالحة ، وقد حبطت بالمرة وفي الحديث (يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة ، اقرأوا إن

(١) أخرجه الشيخان والترمذي وأحمد بأوسع من هذا ، وبألفاظ متقاربة ، الفتح الكبير ٣ / ٤١٩ .

شئتم (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً)[١] ﴿ ذلِكَ ﴾ أي الأمر ذلك ، وقوله تعالى ﴿ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملة مُبيِّنةٌ له ﴿ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذوا آياتِي وَرُسُلي هُزُواً ﴾ يعني بسبب كفرهم وإنكارهم لما يجب إيمانهم وإقرارهم به ، واتخاذهم القرآن وغيره من الكتب الإلهية ورسل الله وأنبياءه سخرية وإستهزاء وفي الحديث (إن المستهزئين بالناس ، يُفْتح لأحدهم بابٌ من الجنة ، فيقال : هَلُمَّ هَلُمَّ فيجيء بكربه وغمِّه، فإذا جاء أُغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب ، فيقال : هلمَّ هلمَّ فما يأتيه)[٢] ﴿ إنَّ الَّذينَ آمَنُوا ﴾ في الدنيا ﴿ وَعَمِلوا الصّالِحاتِ ﴾ من الأعمال الصالحة ، وهي ما كانت خالصة لوجه الله تعالى ﴿ كانتْ لَهُمْ ﴾ في علم الله تعالى ﴿ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ ﴾ قال في القاموس : البستان يجمع كل ما يكون في البساتين يكون فيه الكروم ﴿ نُزُلاً ﴾ النزل : المنزل وما هيء للضيف النازل ، أي كانت جنات الفردوس منازل مهيأة لهم أو ثمار جنات الفردوس نُزُلاً ، يعني بمنزلة النزل بالنسبة إلى الضيافة ﴿ خَالِدينَ فِيها ﴾ أي مقدرين الخلود في تلك الجنات ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً ﴾ أي لا يطلبون تحولاً وانتقالاً عنها إلى غيرها ، كما ينتقل من دار لم توافقه إذ لا مزيد عليها وفيها كل المطالب، قال الإمام : وهذا الوصف يدل على غاية الكمال ، لأن الإنسان في الدنيا إذا وصل إلى أي درجة كانت في السعادة ، فهو طامح الطرف إلى ما هو أعلى منها ، وفي الحديث (الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها ، فيها تتفجر الأنهار الأربعة ، وفوقها عرش الرحمن ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس)[٣] ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴾ يريد الجنس يعني لو كان ماء جنس البحر ﴿ مِداداً ﴾ يعني حبراً ﴿ لِكَلِماتِ رَبِّي ﴾ لكلمات علمه وحكمته ، يعني لمعلوماته وحِكَمه فتكتب من ماء البحر ، كما تكتب من المداد والحبر ﴿ لَنَفِدَ البَحْرُ ﴾ يعني ماء جنس البحر بأسره مع كثرته ، ولم يبق فيه شيء لأن كل جسم مُتَناهٍ ﴿ قَبْلَ أنْ تَنْفدَ كَلِماتُ رَبِّي ﴾ أي من غير أن تفنى معلوماته وحِكَمه ، فإنها غير متناهية لا تنفد كعلمه ، فلا دلالة للكلام على نفادها بعد نفاد البحر ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ بمثل البحر الموجود يعني بمائه ﴿ مَدَداً ﴾ تمييز أي زيادة ومعونة أي لنفد أيضاً ، والكلمات ما نفدت كقوله تعالى ﴿ وَلو أنّ ما في الأرْضِ منْ شَجَرةٍ أقْلامٌ والبَحْرُ يُمدُّهُ مِنْ بعْدِهِ سبْعَةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ ﴾ ﴿ قُلْ إنّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ قل يا محمد ما أنا إلا آدمي مثلكم في الصورة ، ومساوٍ بكم في بعض الصفات البشرية ﴿ يُوحَىٰ إليَّ ﴾ من ربي ﴿ أنّما إلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ ﴾ ما هو إلا متفرد في

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ولفظه : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » الحديث وأما الرواية التي ذكرها الشيخ فقد أخرجها ابن مردويه وانظر فتح الباري ٨ / ٢٢٦ .

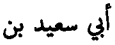
(٢) أخرجه البيهقي عن الحسن مرسلاً ، وانظر الترغيب والترهيب للمنذري ٣ / ٦١١ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري بنحوه في كتاب التوحيد ، وفي كتاب الجهاد ، وهو جزء من حديث طويل ، وانظر فتح الباري ١٣ / ٤٠٤ .

الألوهية ، لا نظير له في ذاته ، ولا شريك له في صفاته ، يعني أنا معترف ببشريتي ، ولكنَّ الله منَّ عليَّ من بينكم بالنبوة والرسالة ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ** ﴾ المراد بلقائه كرامته أي فمن استمرَّ على رجاء كرامته تعالى ، وعلى رؤيته ، ﴿ **فَلْيَعْمَلْ** ﴾ لتحصيل ذلك المطلوب العزيز ﴿ **عَمَلاً صَالِحاً** ﴾ أي فليعمل عملاً يصلح للعرض عليه ، قال ذو النون : العمل الصالح هو الخالص من الرياء ﴿ **ولا يُشْرِكْ بِعبادَةِ رَبِّه أَحَداً** ﴾أي في عبادة ربه إشراكاً جلياً ، ولا إشراكاً خفياً كما يفعله أهل الرياء ، قال ابن عباس : أراد العمل الذي يعمله ويحب أن يحمد عليه ، وعن الحسن (هذا فيمن أشرك بعمل يريد الله به والناس) ، على ما روي أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ : (إني لأعمل العمل لله فإذا اطَّلع عليه أحد سرني ، فقال : إن الله لا يقبل إلاَّ ما كان خالصاً له) فنزلت تصديقاً له عليه السلام وهذا على حسب النية فإذا سره ظهوره لِيُقْتدى به كما هو شأن المخلصين المعرضين عما سوى الله فلا بأس ، فأما إذا أراد به مجرد مدح الناس ، وانتشار الصيت ، والذكر فهو محض الرياء والشرك ، فيخفي المقتدي احترازاً عن افساد العمل ، وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول : رزقني الله البارحة خيراً ، قرأتُ كذا ، وصليتُ كذا ، فإذا قيل له ياأبا فراس أَمِثْلُكَ يقول مثل هذا ؟ يقول : قال الله تعالى (**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**) وأنتم تقولون لا تحدث بنعمة الله ، وإنما يجوز مثله إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره ، وأمن على نفسه الفتنة ، والسترُ أولى ، ولو لم يكن فيه إلا التشبيه بأهل الرياء والسمعة لكفى ، والآية جامعة لخلاصتي العلم والعمل ، وهما التوحيد والإخلاصُ في العمل .

قال في بحر العلوم : إن قلت ما معنى الرياء ؟ قلت : العمل لغير الله بدليل قوله عليه السلام (إن أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله ، أما إني لا أقول يعبدون شمساً ولا قمراً ، ولا شجراً ولا وثناً ولكن أعمالاً لغير الله تعالى)[1] وفي الحديث (إذا جمع اللهُ الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه ، نادى منادٍ من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً ، فليطلب ثواب عمله من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)[2] .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة الكهف



(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٢٤ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري ، الفتح الكبير ١ / ١٠٠ .

« ما ورد في فضائل سورة الكهف »

١ ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال) رواه مسلم .

٢ ـ وفي رواية للنسائي (من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال) .

٣ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : (من قرأ الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة ، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يسلط عليه) رواه الحاكم .

٤ ـ وعن أبي سعيد قال : (من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق) رواه الدارمي في مسنده موقوفاً على أبي سعيد ، كذا في الترغيب والترهيب للإمام المنذري .

اللهمَّ اعصمْنا من مُضلاَّتِ الهَوَىٰ ، ومن فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ ، برحمتك يـاأرحم الراحمين ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ اسم للسورة ، ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هنا كهيعص ، أي مسمى به ، وإنما صحت الإشارة إليه مع عدم جريان ذكره لأنه في حكم الحاضر المشاهد وقيل : قسم أقسم به الله تعالى ، أو هي اسم من أسمائه الحسنى ، أو أنه مركب من حروف يشير كل منها إلى صفة من صفاته العظمى ، فالكاف من كريم ، والهاء من هادٍ ، والعينُ من عليم ، والصَّادُ من صادق ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ أي هذا ذكر رحمة ربك يا محمد ، لعبده ورسوله زكريا نقصُّه عليك وهو زكريا من من ولد هارون أخي موسى من ذرية يعقوب بن اسحاق ﴿ إِذْ نادىٰ رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا ﴾ راعى عليه السلام حسن الأدب في دعائه ، فإنه مع كونه بالنسبة إليه تعالى كالجهر ، أدخل في الإخلاص ، وأبعد من الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من غائلة لوم الناس على طلب الولد ، لأنه طلبه وقت الكبر والشيخوخة ، وكان سنه وقتئذ تسعاً وتسعين عاماً ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيَ وَهَنَ العَظْمُ مِنِّيَ ﴾ الوهن الضعف ، وإنما أسنده إلى العظم لأنه عماد بيت البدن ، فإذا أصابه الضعف مع صلابته وقلة تأثره من العلل ، أصاب سائر الأجزاء ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ ﴾ منى حذف اكتفاء بما سبق ﴿ شَيْبًا ﴾ شبه الشيب في بياضه وإنارته بشواظ النار ، وانتشاره في الشعر مبالغةً ، وإشعاراً لشمول الشيب جملة الرأس ، حتى لم يبق من السواد شيء ، والأصل اشتعل شيب رأسي ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ ولم أكن بدعائي إياك خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل ، بل كلما دعوتك استجبتَ لي ، وهذا توسل منه بما سلف من الاستجابة عند كل دعوة ، فإنه تعالى بعدما عوّد عبده بالإجابة دهراً طويلاً ، لا يخيبه أبداً ، لاسيما عند اضطرار وشدة افتقار ، ذُكِر أن محتاجاً قال لبعضهم : أنا الذي أحسنتَ إليَّ وقت كذا ، فقال مرحباً بمن توسَّل بنا إلينا ، وقضى حاجته ، وكأنه يقول : ما رددتني حين ما كنتُ قويَّ القلب والبدن ، فلو رددتني الآن بعدما عودتني القبول مع نهاية ضعفي ، لتضاعف ألم قلبي وهلكتُ ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ المَوالِيَ مِنْ وَرائِي ﴾ أي بعد موتي فلابد من الخلف ، والمعنى : خفتُ جور الموالي ، فإن ضعف القوى وكبر السن من مبادىء خوفه من يلي أمره بعد موته ، ومواليهْ بنو عمه ، وكانوا شرار بني أسرائيل ، فخاف أن لا يُحسنوا خلافته في أمّته ويبدلوا عليهم دينهم ﴿ وَكانَتِ امْرَأَتِي ﴾ هي إيشاع بنت فاقوذ وهي أخت حنة بنت فاقوذ ، قال الطبري : وحنة هي أم مريم ، فعلى هذا القول يكون يحي ابن خالة عيسى وفي حديث الإسراء (فلقيت ابني الخالة يحي وعيسى) ﴿ عَاقِراً ﴾ أي لا تلد من حين شبابها ، فإن العاقر من الرجال

---

(١) الراجح في هذه الحروف المقطعة ما ذكره أهل التحقيق من المفسرين ، أنها للتنبيه على إعجاز القرآن ، وأن هذا الكتاب المعجز منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية وانظر كتابنا صفوة التفاسير ١ / ٧ ففيه ما يشفي الغليل ، ويثلج الصدر بعيون الأقاويل .

والنساء من لا يولد له ولد ، وكان سنها حينئذ ثماني وتسعين سنة ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴾ أي أعطني من محض فضلك الواسع ، وقدرتك الجليلة ، بطريق الاختراع لا بواسطة الأسباب العادية ، فإني وامرأتي لا نصلح للولادة ﴿ وَلِيّاً ﴾ ولداً من صلبي ، يلي أمر الدين بعدي ﴿ يَرِثُنِي ﴾ أي يرثني من حيث العلم والدين والنبوة ، فإن الأنبياء لا يورثون المال كما قال عليه السلام (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة)[1] ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ابن اسحاق ابن ابراهيم الملك ، وكان زكريا رئيس الأحبار يومئذ فأراد أن يرث ولده علمه ، ويرث من بني ماثان ملكهم ﴿ واجْعَلْهُ ﴾ أي الولد الموهوب ﴿ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ مرضياً عندك قولاً وفعلاً ، وتوسيط « رب » لتحريك سلسلة الإجابة بالمبالغة في التضرع ولذلك قيل إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته .

واعلم أن الله تعالى لا يُمكّن العبد من الدعاء ، إلا لإجابته كلاً أو بعضاً كما وقع لزكريا .

وفي الأثر (من فُتِح له باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة) وذلك لأن الدعاء إظهار الذلة والافتقار ، وليس شيء أحب إلى الله من هذا الإظهار ، ولذا قال أبو يزيد البسطامي : كابدت العبادة ثلاثين سنة ، فرأيت قائلاً يقول لي يا أبا يزيد خزائنه مملوءة من العبادات ، إن أردت الوصول إليه فعليك بالذلة والإفتقار ، وعن بعض أهل المعرفة : نعم السلاح الدعاء ، ونعم المطية الوفاء ، ونعم الشفيع البكاء ، ثم إن الدعاء إما للدين أو للدنيا ، والأول مطمح نظر الكُمّل ، ألا ترى أن زكريا طلب من الله أن يكون من ذريته من يرث العلم ، الذي هو خير من ميراث المال ، لأن نظام العالم في العلم والعمل ، والصلاح والتقوى ، والعدل والإنصاف !! ﴿ يا زَكَرِيَّا ﴾ على إرادة القول ، أي قال تعالى على لسان الملك يازكريا ، كما قال في سورة آل عمران (فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ والبشارة الإخبار بما يظهر سروراً في المُخبَّر ﴿ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ أي شريكاً له في الاسم ، حيث لم يُسمَّ أحد قبله بيحيى ، وبالغريب من الأسماء كانت العرب تعني لكونها أنبه وأنوه ﴿ قَالَ ﴾ أي قال زكريا ﴿ رَبِّ ﴾ ناداه تعالى بالذات للمبالغة في التضرع والمناجاة ﴿ أَنَّى يَكونُ لي غُلامٌ ﴾ أي كيف أو من أين يحدث لي غلام ؟ ﴿ وَ ﴾ الحال أنه قد ﴿ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً ﴾ لم تلد في شبابها ، فكيف وهي عجوز الآن ؟ ﴿ وقَدْ بَلَغْتُ ﴾ أنا ﴿ مِنَ الكِبَرِ ﴾ من أجل كبر السن ﴿ عِتِيّاً ﴾ يبوسة وجفافاً ، كالعود اليابس من قولهم عتا العود إذا يبس ، وإنما استعجب الولد من شيخٍ فانٍ ، وعجوزٍ عاقر ، اعترافاً بأن المؤثر فيه كمال

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والطبري ولفظ البخاري عن عائشة أن أزواج رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن ، فقالت عائشة : أليس قد قال رسول الله لا نورث ما تركناه صدقة . وانظر جامع الأصول ٩ / ٦٤٠ .

قدرته ، قال الإمام : فإن قيل لم تعجب زكريا بقوله ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ ﴾ مع أنه طلبه ؟ قلنا : تعجب من أن يجعلها شابين ، ثم يرزقها الولد ، أو يتركها شيخين ويلدان مع الشيخوخة ، يدل عليه قوله تعالى ﴿ رَبِّ لاَتَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيِي وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي أعدنا له قوة الولادة انتهى ، وقيل : أراد من التي يكون منه هذا الولد ، أمن هذه المرأة وهي عاقر ، أم من امرأة أخرى أتزوج بها ؟ ﴿ قَالَ ﴾ الملك المبلغ للبشارة ﴿ كَذلِكَ ﴾ أي الأمر كما قلت ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عليَّ هَيِّنٌ ﴾ أي سهلٌ أردُّ عليك قوتك ، وأفتق رحم امرأتك بالولد ، وهي جملةٌ مقررة للوعد المذكور ، دالة على إنجازه كأنه قيل مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو عليّ خاصة هين ، وإن كان في العادة مستحيلاً ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل يحيى ﴿ وَلَمْ تَكُ ﴾ إذْ ذاك ﴿ شَيْئاً ﴾ أصلاً بل عدماً صرفاً ، فخلق « يحيى » من البشرين أهون من خلقك مفرداً ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي علامة على وقوع الحمل ، لأتلقّى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ آيَتُكَ أَن لا تُكَلِّمَ النَّاسَ ﴾ أي أن لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناس ، مع القدرة على الذكر والتسبيح ، كما هو المفهوم من تخصيص الناس ﴿ ثَلاَثَ لَيَالٍ ﴾ مع أيامهن للتصريح بهنَّ في سورة آل عمران ﴿ سَوِيّاً ﴾ أي حال كونك سوي الخلق ، سليم الجوارح ، ما بك شائبةٌ بكْمٍ ولا خَرَس . ﴿ فَخَرَجَ ﴾ صبيحة حمل امرأته ﴿ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرابِ ﴾ من المصلىّ أو من الغرفة ، وكانوا ينتظرون أن يفتح لهم الباب ، فيدخلوه ويصلوا ، إذْ خرج عليهم متغيراً لونه ، صامتاً ، فأنكروه وقالوا مالك يازكريا ؟ ﴿ فَأَوْحىٰ إِلَيهِمْ ﴾ أي أومأ إليهم لقوله تعالى (إلا رمزاً) ﴿ أَنْ سَبِّحُوا ﴾ أي صلّوا ﴿ بُكْرَةً ﴾ هي من طلوع الفجر إلى وقت الضحى ﴿ وَعَشِيّاً ﴾ هو من وقت زوال الشمس إلى أن تغرب ، عن أبي العالية أن المراد بها صلاة الفجر وصلاة العصر ، أونزهوا ربكم طرفي النهار ، وقولوا : سبحان الله ، ولعله كان مأموراً بأن يُسبِّح شكراً ويأمر قومه بذلك كما في الارشاد ﴿ يَايحْيىٰ ﴾ أي وهبنا له يحيى ، وقلنا له يايحيى ﴿ خُذِ الكِتابَ ﴾ أي التوراة ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واستظهار أي اعطيتكها وقويتك على حفظها والعمل بما فيها ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ ﴾ حال كونه ﴿ صَبِيّاً ﴾ قال ابن عباس « الحكم » النبوة استنبأه الله تعالى ، وإنما سميت النبوة حكماً لأن الله تعالى أحكم عقله في صباه ، وأوحى إليه ، وقيل : الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين ، فهو بمعنى المنع ومنه الحاكم لأنه يمنع الظالم من الظلم ، والحكمة ما يمنع الشخص من السفه ، روي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب ، فقال : ما لِلَّعب خلقنا ﴿ وَحَناناً مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا ، أو رحمة في قلبه وشفقة على أبويه وغيرهما ﴿ وَزَكٰوةً ﴾ أي طهارة من الذنوب ، جمع الله له التعطف عليه مع الطهارة عن الإخلال بالواجبات ﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ أي مطيعاً متجنباً عن المعاصي ، لم يعمل

خطيئة ، ولم يهمَّ بها ﴿ وَبَرّاً بِوالِدَيْهِ ﴾ أي بارّا بها لطيفاً محسناً إليهما ﴿ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً ﴾ متكبراً عاقاً لهما ، وعاصياً لربه وقيل : هو الذي يضرب ويقتل على الغضب ، ولا ينظر في العواقب ، وقيل : هو المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله ﴿ وَسَلامٌ ﴾ سلامةٌ من الله تعالى وأمان ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على يحيى ، أصله وسلمنا عليه في هذه الأحوال وهي أشدُّ المواطن ، لكن نقل إلى الجملة الإسمية للدلالة على ثبات السلام واستقراره ﴿ يومَ وُلِدَ ﴾ من رحم أمه من طعن الشيطان كما يطعن سائر بني آدم ﴿ ويوْمَ يَمُوتُ ﴾ بالموت الطبيعي من هول الموت وما بعده من عذاب القبر ﴿ ويوْمَ يُبْعَثُ ﴾ حال كونه ﴿ حَيّاً ﴾ من هول القيامة وعذاب النار ﴿ وَاذْكُرْ ﴾ يامحمد للناس ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ أي القرآن أو السورة الكريمة ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أي خبر مريم بنت عمران وقصتها ، فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان ، ومريم بمعنى العابدة ، وحكمة ذكر مريم باسمها أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأٍ ، ولا يبتذلون أسماءهن ، بل يكنون عن الزوجة بالعِرْس ، والأهل ونحو ذلك ، فلما قالت النصارى في حق مريم ما قالت ، وفي ابنها صرح الله تعالى باسمها ، ولم يكنِّ عنها تأكيداً للعبودية التي هي صفة لها ، وإجراء للكلام على عادة العرب في ذكرِ إمائها ، ومع هذا فإن عيسى عليه السلام لا أبَ له ، واعتقادُ هذا واجبٌ ، فإذا تكرَّر ذكره منسوباً إلى الأم ، إستشعرت القلوب ما يجب عليها إعتقاده من نفي الأب عنه ، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله تعالى ﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ ﴾ من النبذ وهو الطرح ﴿ مِنْ أَهْلِها ﴾ قومها ﴿ مَكاناً شَرْقِيّاً ﴾ قال الحسن : ومن ثمَّ اتَّخذ النصارى المشرق قبلةً ، كما اتخذ اليهود المغرب قبلةً ، لأن الميقات وايتاء التوراة وقَعا في جانب الجبل الغربي كما قال تعالى (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيّ إِذْ قَضَيْنا إِلَى مُوْسَى الأَمْرَ) والمعنى : حين اعتزلت وانفردت وتباعدت من قومها ، وأتت مكاناً شرقياً ، فإن موضعها كان المسجد ، فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها ، وإذا طهرت عادت إلى المسجد ، فاحتاجت يوماً إلى الاغتسال ، وكان الوقت وقت الشتاء فجاءت إلى ناحية شرقيّه من الدار وموضع مقابل للشمس ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أي أرخت من أدنى مكان أهلها ﴿ حِجاباً ﴾ ستراً تتستر به ، فبينما هي في مغتسلها وقد تطهرت ولبست ثوبها ، أتاها الملك في صورة آدمي ، شاب أمرد ، وضيء الوجه ، وذلك قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا ﴾ أي جبريل فإنه كان روحانياً فأطلق عليه الروح للطافته ، ولأن الدين يحيا به فهو الروح الأمين .

﴿ فَتَمَثَّلَ لَها ﴾ يعني فتشبه لأجلها ﴿ بَشَراً سَوِيّاً ﴾ تام الخلق كامل البنية وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته تعالى ، إذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ، ولم تستطع استماع كلامه ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ ﴾ أي أستجير بالرحمن منك ، قالت ذلك للمبالغة في العياذ به تعالى ، واستجلاب آثار الرحمة الخاصة ، التي هي العصمة مما دهمها ، قال في

الكشاف : دلَّ على عفافها وورعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ﴾ تتقي الله وتبالي بالاستعاذة به ، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السياق عليه أي فإني عائذة به ، وإنما قالت ذلك لأن التقي يتعظ بالله ويخاف ، والفاسق يُخوَّف بالسلطان ، والمنافق يخوف بالناس ، كما قال في التأويلات النجمية ، يعني إن كنت تقياً من أهل الدين تعرف الرحمن ، فلا تقربني بعوذي به ، وإن كنت شقياً لا تعرف الرحمن ، فأتعوذ منك بالخلق ، فأجابها ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ يريد انى لست ممن يتوقع منه ما توهمتِ من الشر ، وإنما أنا رسول ربك الذي استعذتِ به ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً ﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع ﴿ زَكِيّاً ﴾ طاهراً من الذنوب ولوث الظلمة النفسانية الإنسانية ﴿ قَالَتْ ﴾ أي متعجبة من حيث العادة لا مستبعدة من حيث القدرة ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ﴾ كما وُصِفَ ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل ، فإن المس كناية عن الوطىء الحلال ، أما الزنى فإنما يقال خَبَثَ بها أو فجر أو زنى ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ﴾ ولم تقل بغية لأنه وصف غالب على المؤنث كحائض ، أي فاجرة تبغي الرجال ، تريد نفي الوطىء مطلقاً ، وأن الولد إما من النكاح الحلال ، أو الحرام ، أما الحلال فلأنها لم يمسها بشر ، وأما الحرام فلأنها لم تك بغياً ، فإذا انتفى السببان جميعاً انتفى الولد ﴿ قَالَ كَذَلِكِ ﴾ أي الأمر كما قلت ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الذي أرسلني إليك ﴿ هُوَ ﴾ أي ما ذكرت من هبة الغلام ، من غير أن يمسَّك بشر أصلاً ﴿ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي يسير ، وإن كان مستحيلاً عادة ، لما أني لا أحتاج إلى الأسباب والوسائط ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ أي ونفعل ذلك لنجعل الغلام ﴿ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ وبرهاناً يستدلون به على كمال قدرتنا ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِنَّا ﴾ عليهم ، يهتدون بهدايته ، ويسترشدون بإرشاده ﴿ وَكَانَ ﴾ خلقه بلا رجل ﴿ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾ قضيت به في سابق علمي ، وحكمتُ بوقوعه لا محالة ، فيمتنع خلافه فلا فائدة في الحزن وهو معنى قولهم (من عرف سرَّ الله في القدر هانت عليه المصائب) وفي الحديث (إذا أحب الله عبداً ابتلاه)[1] فالواجب على العبد الحمد على البلية ، لما تضمنته من النعمة فإن فقد فالصبر ، وكلاهما من طريق العبودية ، قال في شرح الحكم : ثم إذا تأملت ظهر لك أن التحقق بالمعرفة منطو في وجود البلايا ، إذ ليست المعرفة إلا بتحقيق أوصافه تعالى ، حتى يفنى في أوصافه كلُّ شيء من وجودك ، فلا يبقى لك عز مع عزه ، ولا غنى مع غناه ، ولا قدرة مع قدرته ، وهذا يتحقق لك بوجود البلية ، إذ هي مشعرة بقهر الربوبية ، فافهم هذا وفقنا الله وإياكم للتحقق بحقيقة الحال ، والتمكن في مقام الصبر على جميع الأحوال ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : فاطمأنت مريم إلى قول جبريل فدنا منها

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، والديلمي في مسند الفردوس ، وتتمته (ليسمع تضرُّعه) الفتح الكبير ١ / ٦٨ .

فنفخ في جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها ، فحملت عيسى عقيب النفخ ﴿ **فَانْتَبَذَتْ بِهِ** ﴾ أي فاعتزلت ملتبسة به وهو في بطنها ﴿ **مَكَاناً قَصِيّاً** ﴾ أي أتت مكاناً بعيداً من أهلها ﴿ **فَأَجَاءَهَا** ﴾ أي جاء بها واضطرها ﴿ **المَخَاضُ** ﴾ وجع الولادة ، يُقال : مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج ﴿ **إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة إذ لم تكن لها قابلة تعينها ﴿ **قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا** ﴾ اليوم أو هذا الأمر كما في الجلالين ، وإنما قالته مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم ، استحياء من الناس على حكم العادة البشرية ، لا كراهة لحكم الله ، وحذراً من وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها ، روي عن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تبنة من الأرض فقال ياليتني هذه التبنة ولم أكن شيئاً ، وعن بلال أنه قال « ليت بلالاً لم تلده أمه » وقد قال بعضهم :

فقولي تارة يارب زدني * وأخرى ليت أمي لم تلدني

﴿ **وَكُنْتُ نَسْياً** ﴾ شيئاً حقيراً شأنه أن ينسى ﴿ **مَنْسِيّاً** ﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس ﴿ **فَنَادِيهَا** ﴾ أي جبريل حين سمع جزعها ، لأن عيسى لم يتكلم حتى أتت به قومها ﴿ **مِنْ تَحْتِهَا** ﴾ من مكان أسفل منها تحت الأكمة ﴿ **أَنْ لا تَحْزَنِي** ﴾ أي لا تحزني بولادة عيسى فشأنه عظيمٌ ، والحزنُ : غمٌّ يلحق الإنسانَ لفوات نافع ، أو حصول ضار ﴿ **قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ** ﴾ أي في مكان أسفل منك ﴿ **سَرِيّاً** ﴾ نهراً صغيراً قال ابن عباس : إن جبريل ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب ، فجرى جدولاً ﴿ **وَهُزِّي** ﴾ هز الشيء تحريكه تحريكاً عنيفاً متداركاً ، والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب والدفع لقوله ﴿ **إِلَيْكِ** ﴾ أي إلى جهتك ﴿ **بِجِذْعِ النَّخْلَةِ** ﴾ قال الفراء : تقول العرب هزّه وهزَّ به ﴿ **تُسَاقِطْ** ﴾ أي تُسقِطِ النخلةُ ﴿ **عَلَيْكِ** ﴾ إسقاطاً متواتراً ﴿ **رُطَباً جَنِيّاً** ﴾ أي رطباً مجنياً أي صالحاً للاجتناء قد بلغ الغاية ، فإن قيل : ما الحكمة في أمرها بالهز ؟ قيل : لأنها تعجَّبت من ولد بغير أب ، فأراها الرطب من نخل يابس ، آية منه تعالى كيلا تتعجب منه ﴿ **فَكُلِي** ﴾ من ذلك الرطب ﴿ **واشْرَبِي** ﴾ من ماء النهر ، وكان ذلك إرهاصاً لعيسى أو كرامة لأمه ، وفي ثمر النخيل فوائد كثيرة : فإنه سهل الهضم ، كامل الغذاء ، وقد كان الماء والتمر طعام العرب ، فلذلك كانوا شجعاناً وأبطالاً ، قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندي خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ﴿ **وَقَرِّي عَيْناً** ﴾ وطيبي نفساً ، وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك ، فإن الله تعالى قد نزه ساحتك بالخوارق ، من جَرْيِ النهر ، واخضرار النخلة اليابسة ، وإثمارها قبل وقتها ، لأنهم إذا رأوا ذلك لم يستبعدوا ولادة ولد بلا فحل ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً** ﴾ أي فإن تريْ آدمياً كائناً من كان ، ﴿ **فَقُولِي** ﴾ له إن سألك على ولدك ولامَك عليه ﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ** ﴾ أوجبتُ على نفسي ﴿ **لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً** ﴾ أي صمتاً أو صياماً ،

وكان صيام المجتهدين من بني اسرائيل بالإمساك عن الطعام والكلام حتى يُمْسي ، وقد نسخ في هذه الأمة لأنه عليه السلام نهى عن صوم الصمت ﴿ **فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوْمَ إِنْسِيًّا** ﴾ أُمِرتْ بأن تخبر بنذرها بالإشارة ، فالمعنى قولي ذلك بالإشارة لا باللفظ ، وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ، والإكتفاء بكلام عيسى أنه قاطع لطعن الطاعن ، في براءة ساحتها وذلك أن الله تعالى أراد أن يظهر براءتها من جهة عيسى ، فتكلَّم ببراءة أمه وهو في المهد ، وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيةٌ لم يجد مسافها، ومن بلاغات الزمخشري : ما قَدَع السفية بمثل الإعراض ، وما أطلق عنانه بمثل العِرَاض ، سَوْرة السفيه تكسرها الحلماء ، والنار المضطرمة يطفئها الماء ، يعني أن سورة السفية كالنار المضطرمة ولا يُطفِئها إلا الحلم ، كما لا يطفىء النار إلا الماء « والنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله » ﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا** ﴾ أي جاءتهم مع ولدها راجعة إليهم ، عندما طهرت من نفاسها ، وعن ابن عباس أنها خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس ، وجاءتهم عند الظهر ومعها صبيٌّ ﴿ **تَحْمِلُهُ** ﴾ في موقع الحال أي حاملة له ، روي أن زكريا افتقد مريم فلم يجدها في محرابها ، فاغتم غماً شديداً وقال لابن خالها يوسف اخرج في طلبها ، فخرج يقص أثرها حتى لقيها تحت النخلة ، فلما رجعت إلى قومها وهم أهل بيت صالحون ، وزكريا جالس معهم بكوا وحزنوا ثم ﴿ **قَالُوا** ﴾ موبخين لها ﴿ **يامَرْيَمُ لقدْ جِئْتِ شَيْئًا** ﴾ أي فعلت شيئاً ﴿ **فَرِيًّا** ﴾ أي عظيماً بديعاً منكراً مقطوعاً بكذبه ، والفِرْيةُ بالكسر الكذب ، والفِرْى الأمر المختلق المصنوع ﴿ **ياأُخْتَ هٰرونَ** ﴾ قيل إنهم إنما عنوا به هارون النبي عليه السلام وكانت من أعقاب من كان معه في مرتبة الأخوة ، وقيل : كان هارون أخاها من أبيها وكان رجلاً صالحاً ، وقيل هو أخو موسى نسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده ، كما يقال ياأخا العرب أي ياواحداً منهم ﴿ **ما كان أبوكِ** ﴾ عمران ﴿ **امْرأَ سَوْءٍ** ﴾ أي ما كان عمران زانياً ﴿ **وما كانَتْ أُمُّكِ** ﴾ حنة بنت فاقوذ ﴿ **بَغِيًّا** ﴾ زانية فمن أين لك هذا الولد من غير زوج ؟ وهو تقرير لكون ما جاءت به أمراً منكراً ، وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش ﴿ **فَأَشارَتْ إِليْه** ﴾ أي إلى عيسى أن كلموه ليجيبكم ﴿ **قَالُوا** ﴾ منكرين لجوابها ﴿ **كيْفَ نُكَلِّمُ** ﴾ **نحدِّثُ** ﴿ **منْ كَانَ في المهْدِ صَبِيًّا** ﴾ ولم نعهد فيما سلف صبياً رضيعاً في الحجر يكلمة عاقل ، لأنه لا قدرة له على فهم الخطاب ورد الجواب ، ﴿ **قَالَ** ﴾ استئناف بياني ، أي قال عيسى بلسان فصيح ﴿ **إِنِّيَ عَبْدُ اللهِ** ﴾ أقرَّ على نفسه بالعبودية أول ما تكلم ، رداً على من يزعم ربوبيته من النصارى ، وإزالة للتهمة عن أمه ، لأنه تعالى لا يخص الفاجرة بولد مثله ﴿ **آتَانِيَ الكِتَابَ** ﴾ الإنجيل ﴿ **وَجَعَلَني نَبِيًّا وَجَعَلني** ﴾ مع ذلك ﴿ **مُبَارَكًا** ﴾ نفَّاعاً معلّماً للخير ، أخبر عما يكون لا محالة بصيغة الماضي ، والجمهور على أن عيسى آتاه الله الإنجيل والنبوة في الطفولة ، وكان يعقل عقل الرجال ، والمشهور أنه أوحى الله إليه بعد الثلاثين ، فتكون رسالته متأخرة عن نبوته ﴿ **أَيْنَمَا**

﴿ كُنْتُ ﴾ حيثما كنت ﴿ وَأَوْصانِي بالصَّلوٰةِ ﴾ أي أمرني بها أمراً مؤكداً ﴿ والزَّكٰوةِ ﴾ أي زكاة المال وعموم الخطابات الإلهية تُنسبُ إلى الأنبياء، تهييجاً للأمة على الائتمار والانتهاء ﴿مادُمْتُ حيّاً﴾ في الدنيا، قال في بحر العلوم : دلالةٌ بينة على أن العبد مادام حياً لا يسقط عنه التكاليف والعبادات الظاهرة ، فالقول بسقوطها كما نقل عن بعض الإباحيين كفرٌ وضلال ﴿ وَبَرّاً بوَالِدَتِي ﴾ أي جعلني باراً بها محسناً لطيفاً وهو إشارة إلى أنه بلا فحل ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً ﴾ متكبراً ﴿ شَقِيّاً ﴾ عاصياً لربه ﴿ والسَّلامُ عَلَيَّ يَوم وُلِدْتُ ﴾ بلا والد طبيعي ﴿ وَيوْمَ أَمُوتُ ﴾ من شدائد الموت وما بعده ﴿ وَيَوم أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ أي من هول القيامة وعذاب النار ، يعني السلامة من الله وجهت إليّ ، كما وجهت إلى يحيى في هذه الأحوال الثلاثة العظام ، فلما كلمهم عيسى بهذا الكلام أيقنوا ببراءة أمه ، وأنها من أهل العصمة والبعد من الريبة ، ولم يتكلم بعد حتى بلغ سن الكلام ﴿ ذٰلِكَ ﴾ الذي فصلت نعوته الجليلة ﴿ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ لا ما يصفه النصارى ، وهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ ، والطريق البرهاني ﴿ قَوْلَ الحَقِّ ﴾ القول الثابت والصدق ﴿ الَّذِي فيه يَمْتَرونَ ﴾ أي يشكُّون فيقولون : هو ابن الله ﴿ ما كَانَ للهِ ﴾ ما صح وما استقام له تعالى ﴿ أَنْ يَتخِذَ منْ وَلَدٍ ﴾ أي ولداً وجاء بمن لتأكيد النفي العام ﴿ سُبْحانَهُ ﴾ أي تنزه وتعالى تنزيهاً عن بهتان النصارى ﴿ إذا قَضَى أَمْراً ﴾ أي أراد كونه ﴿ فَإنّما يقولُ لهُ كُنْ فيَكُونُ ﴾ قال لعيسى كن فكان من غير أب ، والمعنى أنه تعالى إذا أراد تكوين الأشياء لم تمتنع عليه ، ووجدت كما أرادها على الفور من غير تأخير ﴿ وَإنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكُمْ فاعْبدُوهُ ﴾ من تمام كلام عيسى داخل تحت القول ﴿ هٰذا ﴾ الذي ذكرته من التوحيد ﴿ صِراطٌ مُسْتَقيمٌ ﴾ لا يضل سالكه ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ ﴾ جمع حزب بمعنى الجماعة ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أي من بين الناس المخاطبين وهم القوم المبعوث إليهم ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، واليعقوبية قالوا : هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء ، وقالت الملكانية : هو عبد الله ونبيه ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهم المختلفون ، والويل الهلاك ، ﴿ مِنْ مَشْهَدِ يوْمٍ عَظيمٍ ﴾ أي من شهود يوم عظيم الهول والحساب ، وهو يوم القيامة ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ﴾ وهو تعجبٌ من حدة سمعهم وإبصارهم يومئذ ﴿ يوْمَ يأتُونَنا ﴾ للحساب والجزاء يوم القيامة ، وهو جدير بأن يُتعجب منه ، بعد أن كانوا في الدنيا صماً وعمياً ، والتعجب استعظام الشيء مع الجهل بسببه ، ثم استعمل لمجرد الاستعظام ﴿ لَكِنِ الظّالِمونَ اليوْمَ ﴾ أي في الدنيا ﴿ في ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ في خطأ ظاهر لا يدرك غايته ، حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية حين ينفعهم ﴿ وأَنْذِرْهُمْ ﴾ خوِّفهم يا محمد يعني الظالمين ﴿ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ أي من يوم يتحسر فيه ويتحزن الناس ويندمون ﴿ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أي فُرغ من الحساب ، والفريقان إلى الجنة أو النار ، روي أن النبي عليه السلام سئل عن ذلك فقال (حين يجاء بالموت على الكبش الأملح ، فيذبح والفريقان ينظرون ، فينادي

المنادي : ياأهل الجنة خلود بلا موت ، ويأهل النار خلود بلا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح ، وأهل النار غماً إلى غم)[1] ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ أي عما يفعل بهم في الآخرة ﴿ وَهُمْ لا يُؤْمِنونَ ﴾ الآن في هذه الحياة الدنيا أي مستقرون في ذلك ﴿ إنّا نَحْنُ نَرِثُ ﴾ نملك ﴿ الأرْضَ وَمَنْ عَلَيْها ﴾ أي لا يبقى لأحد غيرنا عليهم ملك ﴿ وَإلَيْنا يُرْجَعون ﴾ أي يردون للجزاء لا إلى غيرنا استقلالاً أو اشتراكاً ﴿ واذْكُرْ في الكِتابِ إبْراهِيمَ ﴾ أي اتل ياعمد على قومك قصة إبراهيم وبلغها إياهم ، وذلك أن أهل الملل كانوا يعترفون بفضله ، ومشركوا العرب يفتخرون بكونهم من أبنائه ، فأمر الله تعالى حبيبه عليه السلام أن يخبرهم بتوحيده ليقلعوا عن الشرك ﴿ إنّهُ كانَ صِدِّيقاً ﴾ ملازماً للصدق فيه ، قائماً في جميع الأوقات ﴿ نَبِيّاً ﴾ ، أي كان جامعاً بين الصدّيقية والنبوة ، وذلك أن الصديقية تلي النبوة ، ومن شرطها أن لا يكون نبياً إلا وهو صديق وليس من شرط الصديق أن يكون نبياً والفرق بين الرسول والنبي أن الرسول من بعث لتبليغ الأحكام مَلَكاً كان أو إنساناً ، بخلاف النبي فإنه مختص بالإنسان ﴿ إذْ قَالَ ﴾ أي أذكر وقت قوله ﴿ لأبيهِ ﴾ آزر متلطفاً في الدعوة مسهلاً له ﴿ يـاأبَتِ ﴾ أي ياأبي فإن التاء عوض عن ياء الإضافة ﴿ لِمَ تعْبُدُ مالا يَسْمَعُ ﴾ ثناءك وتضرعك له عند عبادتك له ، ﴿ ولا يُبْصِرُ ﴾ خضوعك وخشوعك بين يديه ﴿ ولا يُغْني عنْكَ ﴾ أي لا يقدر على أن ينفعك ﴿ شَيْئاً ﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة أي لا يدفع عنك شيئاً من عذاب الله تعالى ﴿ يَـاأبَتِ إنِّي قَدْ جَاءَنِي ﴾ بطريق الوحي ﴿ مِنَ العِلْمِ ما لَمْ يأتِكَ فاتَّبِعْني ﴾ ولا تستنكف عن التعلم مني ﴿ أهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً ﴾ أي مستقيماً موصلاً إلى أعلى المراتب ، منجياً من الضلال ، لم يشافهه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه ، ولم يصف نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك ، بل جعل نفسه في صورة رفيق له في مسير ، يكون أعرف ، وذلك من باب الرفق واللطف ﴿ يَاأبَتِ لا تَعبُدِ الشّيْطانَ ﴾ فإن عبادتك للأصنام عبادة له ، إذ هو الذي يزينها لك ويغريك عليها ﴿ إنَّ الشَّيْطانَ كانَ للرَّحْمٰنِ عَصِيّاً ﴾ ومن جملة عصيانه إباؤه عن السجدة ، ومعلوم أن طاعة العاصي تورث النقم وزوال النعم ﴿ يَـاأبَتِ إنِّي أخَافُ ﴾ ان مت على ما أنت عليه من متابعة الشيطان وعصيان الرحمن ﴿ أنْ ﴾ أي من أن ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ يصيبك ﴿ عَذابٌ ﴾ كائن ﴿ مِنَ الرَّحْمٰنِ ﴾ وذلك الخوف للمجاملة ﴿ فَتَكونَ للشّيْطانِ وَلِيّاً ﴾ أي قريباً له في اللعن المخلد ﴿ قَالَ ﴾ قال أبوه مصراً على عناده ﴿ أراغِبٌ أنْتَ عَنْ آلهتي ياإبْرَاهِيمُ ﴾ أي أمعرض ومنصرفٌ أنت عنها ؟ وفيه ضربٌ من التعجب ، كأن الرغبة عنها مما لايصدر عن العاقل ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾ والله لئن لم ترجع عما كنت عليه من النهي عن عبادتها ﴿ لأرْجُمَنَّكَ ﴾

---

(١) الحديث مرويٌّ بالمعنى وقد أخرجه الشيخان والإمام أحمد ولفظه « إذا دخل أهلُ الجَنةِ الجَنةَ ، وأهلُ النَارِ النَّارَ ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيؤمر به فيذبح .. » الحديث وانظر المسند ، والفتح الكبير ١ / ١٠٨ .

بالحجارة حتى تَموت أو تبعد عني ، ﴿ **واهْجُرْني** ﴾ أي فاحذرني واتركني ﴿ **مَلِيّاً** ﴾ أي زماناً طويلاً سالماً مني ، ولا تكلمني ﴿ **قَالَ** ﴾ إبراهيم ﴿ **سَلامٌ عليْكَ** ﴾ سلام مفارقة لا سلام لطف وإحسان ، لأنه ليس بدعاء له ، على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة ، ودل على جواز متاركة المنصوح إذا أظهر اللَّجاج ، والمعنى سلمت مني لا أصيبك بمكروه بعد ، ولا أشافهك بما يؤذيك ، ولكنْ ﴿ **سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيْ** ﴾ أي أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك إلى الإيمان ، والاستغفارُ بهذا المعنى مما لا ريب في جوازه ، وإنما المحظور استدعاؤه له مع بقائه على الكفر ولا اشتباه في هذا الوعد من إبراهيم وكذا قوله (**لأَسْتَغْفِرَنّ لَكَ**) إنما كان قبل إنقطاع رجائه عن إيمانه ، لعدم تبين أمره (**فَلَمّا تَبيّنَ لَهُ أَنّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرّأَ مِنْهُ** ﴾ ﴿ **إِنّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً** ﴾ أي بليغاً في البر والإلطاف ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ** ﴾ أي أتباعد عنك وعن قومك بالمهاجرة بديني ، حيث لم تُؤثِّر فيكم نصائحي ﴿ **وما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي تعبدون ﴿ **وأَدْعُو رَبِّيْ** ﴾ أي أعبده وحده ﴿ **عَسَىَ أَنْ لا أَكُوْنَ بِدُعَاءِ رَبِّيْ شَقِيّاً** ﴾ أي بدعائي إياه خائباً ضائع السعي ، ﴿ **فَلَمّا اعْتَزَلَهُمْ وما يعْبُدونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ** ﴾ بالمهاجرة إلى الشام ﴿ **وهَبْنَا لَهُ اسْحٰقَ ويعْقُوبَ** ﴾ ابن اسحاق ، بدل من فَارَقه من أقربائه الكفرة ، وتخصيصهما بالذكر لأنها شجرة الأنبياء ﴿ **وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً** ﴾ أي كل واحدٍ منهم جعلناه نبياً لا بعضهم دون بعض ﴿ **وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رحْمَتِنا** ﴾ كل خير ديني ودنيوي ﴿ **وَجعلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيّاً** ﴾ ثناءً حسناً رفيعاً ، فإن لسان الصدق هو الثناء الحسن ، أي يفتخر بهم أناس ويثنون عليهم ، استجابة لدعوته بقوله (**واجْعلْ لي لِسانَ صِدْقٍ في الآخرِينَ**) واعلم أن في الآيات إشارات : منها الرفق وحسن الخلق ، فإن العنف يوجب إعراض المستمع ، ومنها المتابعة فمن علت مرتبته اتبع الكتاب والرسول عليه السلام ، قال سهل بن عبد الله : أشدُّ ما على النفس الاقتداء ، فإنه ليس للنفس فيه نفس ولا راحة ، ومنها العزلة قال أبو القاسم : من أراد السلامة في الدنيا والآخرة ، فليعتزل قرناء السوء فإن المرء مع من أحب ، * ومنها من فارق محبوبه ابتغاء لمرضاة الله تعالى ، فإن الله تعالى يجعل له بدلاً خيراً من ذلك وأحب ، فيأنس به كما جعل الله لخليله إبراهيم ﴿ **واذْكُرْ في الكِتابِ مُوسىٰ** ﴾ قدم ذكره على إسماعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب ﴿ **إِنّهُ كَانَ مُخْلَصاً** ﴾ أخلصه الله من الأدناس والنقائص ومما سواه ﴿ **وكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً** ﴾ أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه ، ولذلك قَدَّم « رسولاً » مع كونه أخص وأعلى ، يقول الفقير : تأخير نبياً لأجل الفواصل ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الأَيْمنِ** ﴾ الطور جبل بين مصر ومَدْيَن أي ناديناه من ناحيته اليمنى ، وهي التي تلي يمين موسى ، إذ لا يمين للجبل ولا شمال قال السيوطي : أقبل من مدين يريد مصر ، فنودي من الشجرة وكانت في جانب الجبل على يمين موسى ﴿ **وَقَرّبْنَاهُ نَجِيّاً** ﴾ تقريب تشريف ، مثَّل حاله بحال من قرَّبه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، حيث كلمه بغير واسطة مَلك ،

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ أي من أجل رحمتنا ورأفتنا به ﴿ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّاً ﴾ ليكون معه وزيراً معيناً ، كما سأل ذلك ربه فقال (**واجْعل لي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي**) وفي التأويلات النجمية قوله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُوْنَ نَبِيّاً ﴾ يشير إلى أن النبوة ليست بكسبية ، بل هي من مواهب الحق تعالى ، يهب لمن يشاء النبوة ويهب لمن يشاء الرسالة ، من رحمته وفضله ، لا من كسبهم واجتهادهم ، وفيه إشارة إلى أن موسى عليه السلام أشد اختصاصاً بالقربة والقبول عند الله تعالى ، حتى يهب أخاه هرون النبوة والرسالة بشفاعته ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه ، لابراز كمال الإعتناء بأمره ، بإيراده مستقلاً أي واتل على قومك يا محمد في القرآن قصة جدك إسماعيل وَبَلِّغْها إليهم ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ ﴾ فيما بينه وبين الله وكذا بين الناس ، ووصفه بهذا الوصف لكمال شهرته به واتصاله بأشياء في هذا الباب لم تعهد من غيره ، وناهيك أنه وعد الصبر على الذبح فوفى حيث قال (**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصّابِرِين**) وفيه حث على صدق الوعد والوفاء به . واعلم أن الله تعالى أثنى على إسماعيل بكونه صادق الوعد ، إشارة إلى أن الثناء إنما يتحقق بصدق الوعد بالموعود ، لا بصدق الوعيد ، ومن هذا ذهب العلماء إلى أن الخلف في الوعيد جائز دون الوعد صرَّح به الإمام الواحدي في قوله تعالى في سورة النساء (**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ**) الآية والعرب لا تعدُّ عيباً ولا خُلْفاً أن يعد أحد شراً ثم لا يفعله ، بل ترى ذلك كرماً وفضلاً كما قيل :

وإني إذَا أوْعَدْتُه أو وَعَدْتُه * لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدي

وقيل

إذَا وَعَدَ السرَّاءَ نَجَّزَ وَعْدَهُ * وإنْ أوعَدَ الضَرَّاءَ فَالْعَقْلُ مَانِعُهُ

وأحسن يحيى بن معاذ في هذا المعنى حيث قال : الوعد والوعيد حق ، فالوعد حق العباد على ما ضمن لهم إذا فعلوا ذلك أن يعطيهم كذا ، ومن أولى بالوفاء من الله ؟ والوعيدُ حقه على العباد قال : لا تفعلوا كذا فأعذبكم ، ففعلوا فإن شاء عفا وإن شاء آخذ لأنه حقه ، وأولاهما العفو والكرم ، لأنه غفور رحيم ﴿ وكانَ رَسُولاً ﴾ أرسله الله تعالى إلى جُرْهُم إلى قبائل اليمن في زمن أبيه إبراهيم عليهما السلام ، وجرهم حيٌّ من اليمن ، تزوج فيهم إسماعيل ﴿ نَبِيّاً ﴾ يخبر عن الله وكان على شريعة أبيه إبراهيم ، ولم يكن له كتاب أنزل إليه بإجماع العلماء ، وكذا لوط وإسحاق ويعقوب ﴿ وكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ وهو من اتصل به بجهة الزوجية والولادة ، لأن الأهم أن يُقْبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس إليه قال تعالى (**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**) (**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ**) (**قُوْا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**) فإنهم إذا صلحوا صلح الكل ﴿ بالصَّلَوٰةِ ﴾ التي هي أشرف العبادات البدنية ﴿ والزَّكَوٰةِ ﴾ التي هي أفضل

العبادات المالية ﴿ وكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ في الأقوال والأفعال والأحوال ، وفي الجلالين مرضياً لأنه قد قام بطاعته .

حكي عن بعض الصالحين أنه قال : نزل عندي أضياف فقلت لهم : أوصوني بوصية بالغة قالوا نوصيك بستة أشياء : أولها من كثر نومه فلا يطمع في رقة قلبه ، ومن كثر أكلُه فلا يطمع في قيام الليل ، ومن اختار صحبة ظالم فلا يطمع في استقامة دينه ، ومن كان الكذب عادته فلا يطمع في أن يخرج من الدنيا مع الإيمان ، ومن كثر إختلاطه بالناس فلا يطمع في حلاوة العبادة ، ومن طلب رضى الناس فلا يطمع في رضى الله تعالى . ﴿ وَاذْكُرْ فِي الكِتابِ إدريسَ ﴾ وهو جد أبي نوح ، فإن نوحاً بن لاَمَك ، بن متوشلخ بن إدريس النبي عليه السلام وهو أول من وضع الميزان والمكيال ، وأول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب وكانوا يلبسون الجلود ﴿ إنَّهُ كَانَ صِدّيقاً ﴾ ملازماً للصدق في جميع أحواله ﴿ نَبِيّاً ﴾ خبر آخر مخصّص للأول ، إذ ليس كل صِدِّيق نبياً ﴿ وَرفعْناهُ مكاناً عَلِيّاً ﴾ وهو السماء الرابعة فإن النبي عليه السلام رأى آدم ليلة المعراج في السماء الدنيا ، ويحيي وعيسى في الثانية ، ويوسف في الثالثة وإدريس في الرابعة ، وهارون في الخامسة ، وموسى في السادسة ، وإبراهيم في السابعة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المذكورين في هذه السورة من زكريا إلى إدريس ﴿ الّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَليْهِمْ ﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية ، وأصناف المواهب الصورية والمعنوية ، وقد أشير إلى بعض ما يخص كلاً منهم ﴿ مِنَ النَبِيِّينَ ﴾ بيان للموصول ﴿ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ يقال : ذرأ الشيء كثر ، ومنه الذرية لنسل الثقلين ﴿ وَمِمّنْ حَمَلْنا مَع نُوحٍ ﴾ أي ومن ذرية من حملنا معه في سفينته ، وهم من عدا إدريس ، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ وَمِنْ ذُرِّيةِ إبْرَاهِيمَ ﴾ وهم الباقون ﴿ وَإسْرائيلَ ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل أي يعقوب ، وكان منهم موسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيي ، وعيسى ، وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية ، لأن عيسى بن « مريم » وهي من نسل يعقوب ﴿ وَمِمّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ أي ومن جملة من هديناهم إلى الحق ، واصطفيناهم للنبوة والكرامة ، ﴿ إذا تُتْلى ﴾ تقرأ ﴿ عَليْهِمْ ﴾ على هؤلاء الأنبياء ﴿ آياتُ الرّحْمٰنِ ﴾ أي آيات الترغيب والترهيب في كتبهم المنزلة ﴿ خَرُّوا ﴾ سقطوا على الأرض حال كونهم ﴿ سُجَّداً ﴾ ساجدين جمع ساجد ﴿ وَبُكِيّاً ﴾ باكين جمع باك ، والمعنى أن الأنبياء قبلكم مع مالهم من علو الرتبة في شرف النسب ، وكمال النفس ، والزلفى من الله تعالى ، كانوا يسجدون ويبكون لسماع آيات الله ، فكونوا مثلهم ، وفي الحديث (اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا)[1] يقال : تباكى إذا تكلف البكاء أي إن لم تبك أعينكم فلتبك قلوبكم ، يعني تحزّنوا عند

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه بلفظ (إنَّ هذا القرآن نزل بحُزْنٍ ، فإذا قرأتموه فابكوا ..) الحديث وانظر الترغيب والترهيب ٢ / ٣٦٤ .

سماع القرآن ، فإن القرآن نزل بحزن على المحزونين .

﴿ **فَخَلَف مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ** ﴾ يقال لعقب الخير خَلَفٌ بفتح اللام ، ولعقب الشـرِّ خَلْفٌ بـالسكون أي فعقَّبَ الأنبياء المذكورين وجاء بعدهم ، عقب سوء من أولادهم ، يعني اليهود والنصارى والمجوس ، وفي الحديث (ما من نبي بعثه الله في أمة إلا كان من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتـدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلوف ، يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهـدهم بيـده فهو مؤمن ، ومن جـاهـدهم بلسـانـه فهو مؤمن ، ومن جـاهـدهم بقلبـه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلـك من الإيمان حبة خردل)[1] ﴿ **أَضَاعُوا الصَّلٰوةَ** ﴾ تركوها ، أوأخَّروها عن وقتها أو ضيعوا ثوابها لأنهم أدَّوها بـلا خضـوع وخشـوع ﴿ **واتَّبَعـوا الشَّهَـواتِ** ﴾ من شرب الخمر ، والانهماك في فنون المعاصي ، وفي بعض الكتب (أوحى الله إلى داود ، مثل الدنيا كمثل جيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونهـا ، أفتحب أن تكون مثلهم فتجر معهم ، يـاداود طيبُ الطعـامِ ، ولينُ اللبـاس ، والصِّيتُ في النـاس ، والجنـةُ في الآخرة ، لا يجتمعان أبداً) ، وأعلم أن تيسير أسباب الشهوات ليس من أمـارة الخير ، وعلامـة النجـاة في الآخرة ، ومن ثمة امتنع عمر رضي الله عنه من شرب ماء بارد بعسل ، وقال : اعزلوا عني حسـابهـا ، والمراد بهـا في الآيـة المشتهيات المذمومـة ، والفرق بين الهوى والشهوة ، أن الهوى مذمومٌ وهو من جملـة الشهوات ، والشهوة قـد تكون محمودة ، وهي ما يـدعو الإنسـان إلى الصلاح ، وقـد تكون مـذمومـة وهي من فعل النفس الأمـارة بالسوء ، وهي استجابتها لما فيه لذاتها البدنية ، ولا عبادة لله أعظم وأشرف من مخالفـة الهوى والشهوات ، وترك اللذات ، كما قال الشاعر :

وخَالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا * وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

﴿ **فَسَـوْفَ يَلْقَـوْنَ غَيّـاً** ﴾ أي شراً وقيـل : غي واد من جهنم يستعيـذ من حرّه أو ديتُهـا أُعـد للزاني ، وآكل الربـا ، وتـارك الصلاة ﴿ **إلاّ منْ تَـابَ** ﴾ رجع من الشرك والمعـاصي ﴿ **وآمنَ** ﴾ اختـار الإيمان مكان الكفر ﴿ **وَعَمِلَ صَالِحاً** ﴾ بعد التوبة والندم ﴿ **فَأُولَئِكَ** ﴾ المنعوتون بـالتوبـة والإيمـان ، والعمل الصـالح ﴿ **يـدْخُلونَ الجَنّـةَ** ﴾ بموجب الوعـد المحتوم ﴿ **ولا يُظْلَمونَ** ﴾ لا ينقصون من جزاء أعمالهم ﴿ **شَيْئاً** ﴾ ولا يمنعون ، فالظلم بمعنى النقص والمنع ﴿ **جَنّـاتِ عَـدْنٍ** ﴾ جنـات عـدن عَلَم لـدار الثواب ، أي جناتُ إقامة ، ﴿ **الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمٰنُ عِبَادَهُ** ﴾ أي وعدها إياهم ﴿ **بـالغَيْبِ** ﴾ أي وهي غائبة عنهم غير حاضرة ، أو غائبين عنها لا يرونها ، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي الله تعـالى ﴿ **كانَ وعْدُهُ** ﴾ أي موعوده الذي هو الجنة ﴿ **مأتِيّاً** ﴾ أي يأتيه من وُعد له لا محالـة بغير خلف ﴿ **لا**

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان من حديث عبد الله بن مسعود وانظر جامع الأصول ١ / ٣٢٦ .

﴿ يَسْمَعون فِيها ﴾ في تلك الجنات ﴿ لَغْواً ﴾ أي فضول كلام لا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها ، وفيه تنبيه أن اللغو مما ينبغي أن يجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن ﴿ إلاّ سَلاماً ﴾ استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم على بعض ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ المراد دوام الرزق ، كما يقال أنا عندَ فلان صباحاً ومساء ، يراد الدوام منه ، وقيل يؤتى طعامهم على مقدار البكرة والعشي ، إذ لا نهار ثمة ولا ليل ، بل هم في نور أبداً ، وإنما وصف الله الجنة بذلك ، لأن العرب لا تعرف من العيش أفضل من الرزق بالبكرة والعشي ، قال الحسن : أراد أن يرغب كل قوم بما أحبوه في الدنيا ، فلذلك ذكر أساور الذهب والفضة ، ولبس الحرير الذي كان عادة العجم ، والأرائك التي كانت عادة أشراف اليمن ، ولا شيء أحب إلى العرب من الغداء والعشاء ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة التي بلغك وصفها وسمعت بذكرها ﴿ الجَنّةُ ﴾ لتعظيم شأنها وتعيين أهلها ﴿ الَّتِي نُورِثُ ﴾ أي نورثها ونعطيها ﴿ مِنْ عِبادِنا مَنْ كَانَ تَقِيّاً ﴾ مجتنباً عن الشرك والمعاصي مطيعاً لله ، ونمتعهم بها كما نبقي على الوارث مال مُوَرِّثه ونُمتِّعه به ﴿ ومَا نَتَنَزّلُ إلاّ بِأمْرِ رَبِّكَ ﴾ ، قال مجاهد : أبطأ الملك على رسول الله عليه السلام ثم أتاه فقال له عليه السلام : ما حبسك ياجبرائيل ؟ فنزلت ﴿ ومَا نَتَنَزَّلُ إلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ وقال بعض المفسرين : هو حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله ، فشق عليه ذلك مشقة شديدة ، وقال المشركون وَدَعه ربه وقَلاَهُ ، فقال له الرسول (أبطأتَ عليّ حتى اشتقتُ إليك) فقال جبريل : إني كنت أَشْوَقَ ، ولكني عبد مأمور ، إذ بُعِثتُ نزلت ، وإذا حُبست إحتبست فأنزل الله هذه الآية وسورة والضحى ﴿ لَهُ ﴾ أي لله ﴿ ما بيْنَ أيْدِينا ﴾ من الأمور الأخروية ﴿ وما خَلفْنَا ﴾ من الأمور الدنيوية ﴿ وما بيْنَ ذلكَ ﴾ ما بين ما كان وما سيكون أي من هذا الوقت إلى قيام الساعة ﴿ وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ أي تاركاً لك كما زعمت الكفرة ، أو بمعنى نقيض الذكر أي غافلاً عنك ﴿ رَبُّ السّمواتِ وَالأرْضِ ﴾ أي هو مالكها ﴿ وما بيْنَهُمَا ﴾ من الخلق فكيف يجوز النسيان على الرب ؟ ﴿ فاعْبُدْهُ ﴾ أي إذا كان هو الرب ، فاثبت على عبادته ياممد ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعبادَتِهِ ﴾ أي اصبر لمشاقها ولا تحزن بإبطاء الوحي ، وإستهزاء الكفرة وشماتتهم بك ، فإنه يراقبك ويراعيك ، ويلطف بك في الدنيا والآخرة ﴿ هَلْ تعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ السَمِيُّ : الشريكُ في الإسم والمثل والشبيه أي مِثْلاً يستحقُّ أن يسمى إلهاً ﴿ ويَقولُ الإنْسانُ ﴾ بطريق الإنكار والاستبعاد للبعث ، وهو « أبيّ بنُ خَلَف » حين فتَّ عظماً بالياً فقال : يزعم محمد أنا نَبعث بعد ما نَموت ونصير إلى هذه الحال ؟ ﴿ أئِذا ما متُّ ﴾ وكنت رميماً ﴿ لَسَوْفَ أُخْرَجُ ﴾ من القبر حال كوني ﴿ حَيّاً ﴾ أي سأعود إلى الحياة مرة أخرى ؟ ﴿ أَوَ لا يَذْكُرُ الإنْسَانُ ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي ، والمعنى أيقول ذلك ولا يتفكر ؟ ﴿ أنّا خَلقْنَاهُ مِنْ قبْلُ ﴾ أي من قبل الحالة التي هو

فيها وهي حالة بقائه ﴿ وَلَمْ يَكُ ﴾ أصله لم يكن حذفت النون تَخفيفاً لكثرة الاستعمال ﴿ شَيْئاً ﴾ بل كان عَدَماً صِرْفاً فيعلم أن من قدر على الابتداء من غير مادة قدر على الإعادة بجمع المواد بعد تفريقها؟! وفي هذا دليل على صحة القياس حيث أنكر عليه وجهَّله في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى ، فيستدلُّ به على البعث والإعادة ، قيل : لو اجتمع الخلق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قَدَروا ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ الواو للقسم ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ لنجمعن القائلين بالسوق إلى المحشر بعد ما أخرجناهم من الأرض أحياء ﴿ وَالشَّياطِينَ ﴾ أي ونحشر الشياطين الذين أَغْوَوْهم معهم ، إذ كل كافر سيحشر مع شيطانه في سلسلة ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ ﴾ حال كونهم ﴿ جِثِيّاً ﴾ جمع جاث من جثا يجثو ، أي جالسين على الرُكب ، لما يعرضهم من شدة الأمر ، التي لا يطيقون معها القيام على أرجلهم ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ ﴾ لنخرجنَّ والنزعُ : الجذبُ ﴿ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أمةٍ وفرقة أي نبعث غاوياً من الغواة ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ أي لننزعن الذين يقال لهم أيهم ﴿ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيّاً ﴾ يقال عتا على فلان إذا تجاوز الحد في الظلم ، والمقصود أن يميز من كل طائفة منهم الأعصى فالأعصى ، فإذا اجتمعوا يطرح في النار على الترتيب يُحضِرهم أولاً ، ثم يخصُّ أشدهم تمرداً بعذاب أعظم ، إذ عذاب الضال المضل يجب أن يكون فوق عذاب من يَضِل تبعاً ، وليس عذاب من يورد الشبهة كعذاب من يقتدي به غافلاً قال الله تعالى (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فوقَ العَذاب بِما كَانُوا يُفْسِدونَ) ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيّاً ﴾ دخولاً يعني وهم المنتزعون ، يقال صلي يصلى كلقي يلقى ، ومضى يمضي إذا دخل النار ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ ﴾ أي وما منكم أيها الناس ﴿ إِلاّ وَارِدُهَا ﴾ أي واصل جهنم وداخلها ﴿ كَانَ ﴾ أي ورودهم إياها ﴿ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً ﴾ أي أمراً محتوماً أوجبه الله على ذاته ﴿ مَقْضِيّاً ﴾ لابد من وقوعه البتة ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ ننجيهم من أهوال جهنم بفضلنا ﴿ وَنَذَرُ ﴾ نترك ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿ فِيها ﴾ في جهنم ﴿ جِثِيّاً ﴾ وهو إشارة إلى هوانهم وتقاعدهم عن الحركة إلى الجنة مع الناجين ، اعلم أن الوعيدية وهم المعتزلة قالوا : إن من دخلها لا يخرج منها ، وقالت المرجئة : لا يدخلها مؤمن قط ، قالوا إن الورود ههنا هو الحضور لا الدخول ، فأما أهل السنة فقالوا يجوز أن يعاقب الله العصاةَ من المؤمنين بالنار ثم يخرجهم منها ، وقالوا معنى الورود الدخول كقوله تعالى (فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) وقال تعالى (حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ) وبدليل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذين اتَّقَوْا ﴾ والنجاة إنما تكون بعد الدخول فيها كقوله تعالى (فَنَجَّيناهُ مِن الغَمِّ وكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ) فإن قلت : كيف يدخلونها والله تعالى يقول (أُولَئِكَ عَنْها مُبْعَدون لا يَسْمَعونَ حَسِيسَها) قلت : المراد به الإبعاد عن عذابها ، وقال الحسن وقتادة : ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها ، وذلك لأنه لا طريق إلى الجنة سوى الصراط ، فالمرور في حكم الورود

وفي الحديث (لا يموت لمسلم ثلاثةٌ من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم)[1] وهي قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إلا وارِدُها ﴾ والتَّحِلةُ مصدر حللْتُ اليمين ، فهو مثل في القليل المفرط في القلَّة ﴿ وَإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ ﴾ أي على المشركين ﴿ آياتُنا ﴾ القرآنية ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الإعجاز والمعاني ﴿ قَالَ الّذينَ كَفَرُوا ﴾ كنضر بن الحارث وأصحابه ﴿ للّذينَ آمنُوا ﴾ أي لفقراء المؤمنين لأجلهم وفي حقهم ﴿ أَيُّ الفَرِيقَيْنِ ﴾ أيُّ المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا ﴿ خَيْرٌ ﴾ نحن أو أنتم ﴿ مَقاماً ﴾ مكاناً ومسكناً ﴿ وأَحْسنُ نَدِيّاً ﴾ أي مجلساً ومجتمعاً ، قال بعض المفسرين والنديُّ : المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعوانهم وأنصارهم ، يروى أنهم كانوا يرجِّلون شعورهم ويدهنونها ، ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ، فإذا سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها ، قالوا مفتخرين بالحظوظ الدنيوية على فقراء المؤمنين : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل ، لكان حالكم في الدنيا أحسن ، وقصدهم بهذا الكلام صرفهم عن دينهم فرد الله عليهم بقوله ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أهل كل عصر قرن لمن بعدهم ، لأنهم يتقدمونهم ، مأخوذ من قرن الدابة وهو مقدمها ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً ﴾ وهو متاع البيت ﴿ وَرِئْياً ﴾ هو المنظر والهيئة من الرؤية ، كالطَّحْنِ لما يُطْحن ، والمعنى كثيراً من القرون كعاد وثمود ، وأضرابهم من الأمم العاتية ، قبل هؤلاء أي كفار قريش أهلكناهم بفنون العذاب ، لو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا ، وفيه من التهديد والوعيد مالا يخفى ، كأنه قيل فلينظر هؤلاء أيضاً مثل ذلك ﴿ قُلْ ﴾ للمفتخرين بالمال والمنال ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ مستقراً ﴿ فِي الضَّلاَلَةِ ﴾ مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمٰنُ مَدّاً ﴾ أي يمدُ له ويمهله بطول العمر ، وإعطاء المال والتمكين من التصرفات ، أي فليستدرجه الرحمن استدراجاً ، بمد عمره ، وتوسيع ماله ، وتكثير ولده ، على وجه الإحسان حتى يقع في العقاب والعذاب ، على سبيل التدرج لا التعجيل ، فيكون عقابه وعذابه أكمل وأشمل ﴿ حَتّى إذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ ﴾ غاية للمد الممتد ، وَجَمع الضمير في الفعلين باعتبار معنى « مَنْ » ﴿ إمَّا العَذَابَ وَإمَّا السّاعَةَ ﴾ تفصيل للموعود أي إما العذاب الدنيوي بغلبة المسلمين وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً ، وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الحزن والنكال ، قال الإمام : أي لو فرض أن هذا الضال المتنعم ، قد مُدَّ له في أجله ، أليس أنه ينتهي إلى عذاب في الدنيا أو في الآخرةَ ؟ فسيعلم أن النعم لا تنفعه ، كما قال تعالى ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ جواب الشرط أي حتى إذا عاينوا ما يوعدون فسيعلمون حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً ﴾ من الفريقين بأن يشاهدوا الأمر على عكس ما كانوا يقدرونه ، فيعلمون أنهم شر مكاناً لا خير مقاماً ﴿ وَأَضْعَفُ جُنْداً ﴾ أي فئة وأنصاراً ، وإنما ذكر

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٥٩٠ .

ذلك رداً لما كانوا يزعمون أن لهم أعواناً وأنصاراً ، ويفتخرون بذلك في الأندية والمحافل ﴿ **وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً** ﴾ ، أي ويزيد الله المؤمنين إيماناً وعملاً ، ويقيناً ورشداً ، كما زاد الضالين ضلالاً ﴿ **وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً** ﴾ هو الجزاء لأنه نفع يعود إلى المجزي أي الأعمال التي تبقى عائدتها أبداً ، خير عند ربك من مفاخرات الكفار وحظوظهم العاجلة ﴿ **وَخَيْرٌ مَرَدّاً** ﴾ مرجعاً وعاقبةً لأن مآلها رضوان الله ، والنعيم الدائم ، ومآل هذه السخط والعذاب المقيم ﴿ **أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا** ﴾ نزلت فيمن سخر بالبعث وهو « العاص بن وائل » كان لخبَّاب بن الأرتّ عليه مال فتقاضاه ، فقال : لا أعطيك حقَّك حتى تكفر بمحمد فقال : لا والله لا أكفر بمحمد ، حياً ولا ميتاً ، ولا حين نبعث ، قال إذاً فانتظرني إلى ذلك اليوم ، فإني إذا بعثت جئتني ، فيكون لي مال وولد فأعطيك!! والهمزة للتعجب من حاله ، والإيذان بأنها من الغرابة والشناعة بحيث يجب أن يرى ويقضى منها التعجب ، أي أنظرت فرأيت الذي كفر بآياتنا التي من جملتها آيات البعث ﴿ **وَقَالَ** ﴾ مستهزئاً بها ، مصدِّراً كلامه باليمين الفاجرة ﴿ **لأُوْتَيَنَّ** ﴾ في الآخرة إن بعثتُ ﴿ **مَالاً وَوَلَداً** ﴾ أي انظر إليه يامحمد فتعجب من حالته البديعة ، وجرأته الشنيعة ﴿ **أَطَّلَعَ الغَيْبَ** ﴾ همزةُ استفهام ، وأصله أأطلع والمعنى أقد بلغ من عظمة الشأن إلى أن ارتقى إليه علم الغيب ، الذي توحَّد به العليم الخبير ، حتى ادَّعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً وأقسم عليه ؟ ﴿ **أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً** ﴾ أو اتخذ من عالم الغيب عهداً بذلك ؟ ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ليس الأمر على ما يقول ﴿ **سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ** ﴾ سنحفظ عليه ما يقول من الكذب ، والكفر ، والاستهزاء ، فنجازيه به ﴿ **وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العَذَابِ مَدّاً** ﴾ مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد ، أي نطوِّل له من العذاب ما يستحقه ﴿ **وَنَرِثُهُ** ﴾ بموته ﴿ **مَا يَقُولُ** ﴾ وهو ما أوتيه في الدنيا من المال والولد ﴿ **وَيَأْتِينَا فَرْداً** ﴾ يوم القيامة وحيداً خالياً لا يصحبه مال ولا ولد ﴿ **وَاتَّخَذوا** ﴾ أي مشركو قريش ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً** ﴾ أي اتخذوا الأصنام آلهة متجاوزين الله تعالى ﴿ **لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً** ﴾ أي ليتعزَّزوا بهم ، بأن يكونوا لهم شفعاء وأنصاراً ينجون بهم من عذاب الله ، قال بعضهم : كيف تظفر بالعز وأنت تطلبه في محل الذل ، إذ ذللت نفسك بسؤال الخلق ، ولو كنت موفقاً لأعززت نفسك بسؤال الحق ، فتكون عزيزاً في كل حال دنياً وآخرة ﴿ **كَلاَّ** ﴾ ليس الأمر ما ظنوا ﴿ **سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ** ﴾ سينكر الكفرة عبادتهم لهم ﴿ **وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً** ﴾ أعداء للآلهة كافرين بها بعد أن كانوا يحبونها كحب الله ويعبدونها ، ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ** ﴾ أي سلَّطناهم عليهم بسبب سوء اختيارهم ﴿ **تَؤُزُّهُمْ أَزّاً** ﴾ أي تُغْريهم وتُهيجهم على المعاصي بأنواع الوساوس والتسويلات ، فإن الأزَّ والهزَّ والاستفزاز أخوات معناها شدة الإزعاج ، والمراد تعجيب رسول الله عليه السلام من أقاويل الكفرة ، وتماديهم في الغي والإنهاك في الضلال ، والإفراط في

العناد ﴿ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بأن يهلكوا حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم ، وتطهر الأرض من فسادهم ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ ﴾ أيام آجالهم ﴿ عَدّاً ﴾ أي لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام محصورة ، وأنفاس معدودة فيجازيهم بها ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا قرأها بكى ، وقال : « آخرُ العدد خروجُ نفسك ، آخرُ العدد فراقُ أهلك ، آخرُ العدد دخولُ قبرك » وكان ابن السماك رحمه الله عند المأمون فقرأها فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفدُ ؟ وقال أعرابي : كيف تفرح بعمر تقطعه الساعات ، وسلامة بدن تعرض للآفات ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي اذكر يامحمد لقومك ، بطريق الترغيب والترهيب ، يوم نجمع أهل التقوى والطاعة ﴿ إِلَى الرَّحْمَنِ ﴾ إلى ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة ﴿ وَفْداً ﴾ وافدين عليه كما يفد الوفود على الملوك ، منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ، والوافد من يأتي بالخير ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ العاصين كما تساق البهائم ﴿ إِلَىَ جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ مشاة عطاشاً فإن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش ، وحقيقة الورد : المسيرُ إلى الماء ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ لا يملك أحدٌ من العباد أن يشفع للعصاة ، إلا من اتخذ من الله إذناً فيها ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾ أي قال اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله ، فقال الله تعالى ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ الإدُّ : الأمر الفظيع والداهية والمنكر ، أي فعلتم أمراً منكراً شديداً لا يقادر قدره ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ أي تقرب من أن ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ يتشققن مرةً بعد أخرى ، من عظم ذلك الأمر ﴿ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ ﴾ وتكاد تنشق الأرض وتتصدع أجزاؤها ـ وروي ـ عن بعض الصحابة أنه قال « كان بنو آدم لا يأتون شجرة إلا أصابوا منها منفعة ، حتى قالت فجرة بني آدم : اتخذ الرحمن ولداً فاقشعرت الأرض وشاك الشجر ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ ﴾ أي تسقط وتتهدم ﴿ هَدّاً ﴾ أي تكسر كسراً وتُدَكُّ دكّاً ، والمعنى إن هول تلك الكلمة الشنعاء ، بحيث تُهدُّ الاجرام العظام ، وتَتَفتَّتُ من شدتها ، ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴾ أي تكاد السموات تتفطرن ، والأرض تنشق ، والجبال تخرُّ ، لأن دَعَوْا لله سبحانه ولداً ﴿ وما يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ أي قالوه والحال أنه ما يليق به تعالى اتخاذ الولد ، لأن الولد بضعه من الوالد فهو مركب ، ولابد من مؤلف ، فالمحتاج إلى المؤلف لا يصلح أن يكون إلهاً ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي ما منهم أحد من الملائكة والثقلين ﴿ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ ﴾ حال كونه ﴿ عَبْداً ﴾ أي إلا وهو مملوك يأوى إليه بالعبودية والانقياد ، وسيأتي جميع الخلائق يوم القيامة إلى الرحمن خاضعين ذليلين مقرِّين بالعبودية كالملائكة وعيسى وعُزير وغيرهم يعني يلتجئون إلى ربوبيته منقادين كما يفعل العبيد للملوك فلا يليق به اتخاذ الولد منهم ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ أي أحصاهم وأحاط بهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾ أي عد أشخاصهم وأنفاسهم وآجالهم ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

﴿ فَرْدَاً ﴾ أي كل واحد منهم آتٍ إياه تعالى منفرداً من الأتباع والأنصار ، وفي الحديث القدسي (كذبني ابنُ آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبُهُ إياي ، فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ - أي بأسهل من إعادته - وأما شتمه إياي ، فقوله اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصَّمَدُ الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)[1] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ جمعوا بين عمل القلب وعمل الجوارح ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدّاً ﴾ أي سيحدث لهم في القلوب مودة ومحبة ، لما لهم من الإيمان والعمل الصالح ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ﴾ أي سهلنا القرآن ﴿ بِلِسَانِكَ ﴾ بأن أنزلناه على لغتك فبشِّر به وأنذر ، فإنما يسرناه بلسانك العربي المبين ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي الصائرين إلى التقوى ، بامتثال ما فيه من الأمر والنهي ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ ﴾ يقال أنذَره بالأمر إنذاراً : أعلمه وحذَّره وخوَّفه ﴿ قَوْماً لُدّاً ﴾ لا يؤمنون به لجاجاً وعناداً ، واللد جمع الألد وهو الشديد الخصومة ، اللجوج المعاند وفي الحديث (أبغضُ الرِّجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ)[2] ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي قروناً كثيرة أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين ، بعد أن أنذرهم أنبياؤهم بآيات الله ، وحذروهم عذابه وتدميره ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي هل تشعر بأحد منهم وترى ؟ ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ أي صوتاً خفياً ، وأصل الركز هو الخفاء ، والمعنى أهلكناهم بالكلية ، واستأصلناهم بحيث لا يرى منهم أحد ، ولا يُسمع منهم صوت خفي ، وفي الآية وعد لرسول الله ﷺ في ضمن وعيد الكفرة بالإهلاك ، وحثٌّ له على الإنذار .

انتهى بعونه تعالى تفسير سورة مريم

• • •

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير والنسائي في الجنائز وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٤٣ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ومسلم في العلم والترمذي والنسائي وفي مسند أحمد ٦ / ٥٥ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه ﴾ اختلفوا فيه فقال بعضهم : هو اسم القرآن ، أو اسم السورة ، وقال بعضهم : هو اسم من أسماء رسول الله ﷺ مثل أحمد ، ويس ، وغير ذلك ويؤيده الخطاب في « عَلَيْكَ » فيكون حرف النداء محذوفاً أي ياطه ﴿ ما أَنْزَلنَا عَلَيْكَ القُرْآن لِتَشْقَى ﴾ الشقاء بمعنى التعب ، والمعنى لتتعب بفرط تأسفك على كفر قريش ، إذ ما عليك إلا البلاغ وقد فعلت ، فلا عليك أن يؤمنوا به بعد ذلك ، أو بكثرة الرياضة ، وكثرة التهجد ، والقيام طيلة الليل ، إذ ما بعثت إلا بالحنيفية ﴿ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ نصب على أنه مفعول له كأنه قيل : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب في تبليغه ، ولكنْ تذكيراً وموعظة لمن يعلم الله منه أنه يخشى بالتذكرة والتخويف ﴿ تَنْزِيلاً ﴾ أي نزل القرآن تنزيلاً ﴿ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ أخرج من العدم إلى الوجود ﴿ الأَرْضَ والسَّمٰوات العُلَى ﴾ تخصيص خلقها لأنها قوام العالم وأصوله ووصف السموات بالعُلَى ،وهو جمع العليا تأنيث الأعلى للدلالة على عظم قدرة خالقها بعلوها ﴿ الرَّحْمٰنُ ﴾ رفع على المدح أي هو الرحمن ﴿ على العَرْشِ ﴾ الذي تحمله الملائكة ﴿ اسْتَوَىٰ ﴾ إعلم أن العرش سرير الملك ، والاستواء الاستقرار ، قال بعضهم : إنَّا نقطع بأن الله منزه عن المكان ، وإلا لزم قدم المكان ، وقد دل الدليل على أن لا قديم سوى الله تعالى ، وأنه تعالى لم يرد من الاستواء الاستقرار والجلوس[1] بل مراده به شيء آخر ، إلا أنّا لا نشتغل بتعيين ذلك المراد خوفاً من الخطأ ، ونفوّض تأويل المتشابهات إلى الله تعالى كما هو رأيُ أكثر السلف ، كما روي عن مالك وأحمد : الاستواءُ معلوم ، والكيفيةُ مجهولة ، والبحث عنها بدعة ، وما كان مقصود الإمامين الأجلين بذلك إلا المنع من الجدال ، وقد أحسنا حيث حسما بذلك باب الجدال ، وكذلك فعل الجمهور لأن في فتح باب الجدال ضرراً عظيماً على أكثر عباد الله ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمٰوات وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات الكائنة في الجو كالهواء ، والسحاب والطير أي له تعالى وحده ـ دون غيره لا شركة ولا استقلالاً ـ كلُّ ما ذُكِر ، ملكاً ، وتصرفاً وإحياءً ، وإماتة، وإيجاداً ، وإعداماً ﴿ وما تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ الثرى : التراب النديُّ أي الرطب ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالقَوْلِ ﴾ أي إنْ تعلن بذكره تعالى ودعائه ، فاعلم أنه تعالى غنيٌّ عن جهرك وإعلانك ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ يَعْلَمُ السِرَّ وَأَخْفَىٰ ﴾ أي يعلم ما أسررته إلى غيرك ، وشيئاً أخفى من ذلك ، وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوّه به أصلاً ، وهذا إمَّا نهيٌ عن الجهر ، كقوله تعالى (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ) وإمَّا إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه ، بل لغرض آخر من تصور النفس بالذكر ، ورسوخه فيها ومنعها من الاشتغال بغيره ، وقطع الوسوسة عنها وهضمها

---

(١) الحقُّ ما قاله علماء السلف في آيات الصفات وأحاديث الصفات ، أننا نؤمن بها من غير تشبيه ولا تعطيل ، ولا تجسيم ولا تمثيل ، ونجريها على ظاهرها من غير تأويل ، وهذا هو الأسلم والأحكم ، والله أعلم .

بالتضرع والجؤار وايقاظ الغير ونشر البركات إلى مدى صوته وتكثير اشهاد ونحو ذلك ، وجاء أنه عليه السلام لما توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير فقال عليه السلام : (اربعوا على أنفسكم - أي ارفقوا بأنفسكم ولا تبالغوا في رفع أصواتكم - إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم)[1] أربعوا على أنفسكم أي ارفقوا بها ، كذا في انسان العيون ﴿ **اللهُ** ﴾ أي ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله ﴿ **لا إلَـهَ إلاّ هُوَ** ﴾ لا معبود في الأرض ولا في السماء إلا هو ، الغائب عن الحواس ، الموجود في الأزل هو الله تعالى ، وفيه معنى حسن وهو التعالي عن درك الحواس حتى استحق اسم الكناية عن الغائب من غير غيبة ، كما في بحر العلوم ﴿ **لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنىٰ** ﴾ بيان لكون ما ذُكر من أسمائه وصفاته من غير تعدد في ذاته تعالى ، فإنه روي أن المشركين حين سمعوا النبي عليه السلام يقول : ياالله ، يارحمن ، قالوا ينهانا أن نعبد إلهين ، وهو يدعو إلهاً آخر ، والحسنى تأنيث الأحسن ، وفضل أسماء الله لدلالتها على معاني التقديس والتمجيد ، والتعظيم ، ﴿ **وَهلْ أَتَاكَ حَديثُ مُوسىٰ** ﴾ أي لم يأتك خبر موسى وقصته فتنبه له ، واذكر لقومك ما فيه من أمر التوحيد ونحوه ، ويحتمل أنه قد أتاه ذلك سابقاً فيكون استفهام تقرير فكأنه قال قد أتاك ﴿ **إذْ رأىٰ نَاراً** ﴾ أي حين أبصر ناراً من بعيد .

رُوي أن موسى عليه السلام تزوج صفورياء بنت شعيب عليه السلام ، فاستأذن منه في الخروج من مدين لزيارة أمه وأخيه هارون في مصر ، فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق ، خوفاً من ملوك الشام ، فلما أتى وادي طوى وهو بالجانب الغربي من الطور ، ولد له ولد في ليلة مظلمة ، ذات برد وشتاء وثلج ، فقدح زنده فصلد أي صوّت ولم يخرج ناراً فبينما هو في ذلك إذ رأى ناراً من بعيد على يسار الطريق من جانب الطور فظن أنها من نيران الرعاة ﴿ **فَقالَ لأَهْلِهِ** ﴾ لامرأته وولده وخادمه ﴿ **امْكثُوا** ﴾ أقيموا مكانكم ولا تتبعوني ﴿ **إنِّيْ آنَسْتُ نَاراً** ﴾ الإيناس الإبصار البيِّن أي أبصرتها إبصاراً بيناً لا شبهة فيه فأذهب إليها ﴿ **لَعَلِّيْ آتيكُمْ مِنْها** ﴾ راجياً أن أجيئكم من النار ﴿ **بِقَبَسٍ** ﴾ بشعلة من النار أي بشيء فيه لهب مقتبس من معظم النار ، قال أكثرُ المفسرين : إن الذي رأه موسى لم يكن ناراً بل كان نور الرب تعالى ، ذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً ، وقال الإمام : إنه رأى ناراً ليكون صادقاً في خبره ، إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء انتهى ﴿ **أَوْ أَجِدُ عَلىٰ النّارِ هُدىً** ﴾ هادياً يدلني على الطريق لأن النار قلما تخلو من أهل لها وناس عندها ﴿ **فَلَمّا أَتَاهَا** ﴾ أي انتهى إلى النار التي آنسها قال ابن عباس : رأى شجرة خضراء أحاطت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء ، تتَّقدُ كأَضْوَءِ ما يكون ، ولم ير هناك أحداً ، فوقف متعجباً من شدة ضوء تلك النار ، وشدة خضرة تلك الشجرة ، فلا النار تغير

(١) الحديث أخرجه البخاري في المغازي والجهاد ، ومسلم في الذكر ، وأبو داود والترمذي في الدعوات ، وأحمد ٤ / ٣٩٤ .

خضرتها ، ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار ، فسمع تسبيح الملائكة ورأى نوراً عظيماً تكلُّ الأبصار عنه ، فوضع يديه على عينيه وخاف وبهت ، فألقيت عليه السكينة والطمأنينة، ثم خوطب ﴿ **نودِيَ** ﴾ فقيل ﴿ **يامُوسىٰ إنيّ أَنَا رَبُّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيْكَ** ﴾ أي إني أنا ربُّك الذي أكلمك ، فاخلع نعليك من قدميك ، رعاية للأدب وأَقْبِلْ ﴿ **إنّكَ بالوادِ المقَدَّسِ** ﴾ المطهَّر ﴿ **طُوىٰ** ﴾ اسم الوادي ، رُوي أن موسى عليه السلام خلعهما وألقاهما وراء الوادي ﴿ **وَأنا اخْتَرْتُكَ** ﴾ أي اصطفيتك للنبوة والرسالة ﴿ **فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** ﴾ للذي يوحى إليك من الأمر والنهي ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللهُ** ﴾ قدَّم الأصول على الفروع ، فإن التوحيد من مسائل الأصول ، والعبادة الآتية من الفروع ﴿ **لا إلَهَ إلاّ أَنَا** ﴾ لا معبود غيري فإذا كان كذلك ﴿ **فاعبُدْني** ﴾ فخصَّني بالعبادة والتوحيد ولا تشرك بعبادتي أحداً ﴿ **وَأَقِمِ الصّلٰوةَ** ﴾ من عطف الخاص على العام لفضله ﴿ **لِذكْرِي** ﴾ أي لتذكرني وتكون ذاكراً لي فإن ذكر الله كما ينبغي عبارة عن الاشتغال بعبادته باللسان والجنان والأركان ، والصلاة جامعة لها ﴿ **إنَ السَّاعَةَ آتِيَةٌ** ﴾ تعليل لوجوب العبادة ، والساعةُ : اسم لوقت تقوم فيه القيامة ، سمي بها لأنها ساعة حقيقة أي القيامة كائنة لا محالة ﴿ **أكادُ أُخْفِيها** ﴾ استرها للتهويل والتعظيم ، والمعنى أريد إخفاء وقتها عن الخلق، ليكونوا على الحذر منها كل وقت ﴿ **لِتُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعىٰ** ﴾ أي بسعيها وعملها خيراً كان أو شراً ، لتمييز المطيع من العاصي ﴿ **فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْها** ﴾ أي لا يمنعك عن ذكر الساعة ومراقبتها ﴿ **مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها** ﴾ أي بالساعة ﴿ **واتّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ ما تهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية ﴿ **فَتَرْدىٰ** ﴾ أي فتهلك فإن الإغفال عنها وعن تحصيل ما ينجي من أهوالها ، مستتبع للهلاك لا محالة ، والمراد بهذا النهي الأمرُ بالاستقامة في الدين ، وهو خطاب له والمراد غيره ، فإن قلت : لماذا كلّم الله موسى حتى صار كليم الله ، دون سائر الأنبياء ؟ قلت لأن الجزاء إنما هو من جنس العمل ، وكان قد احترق لسانه عليه السلام عند الامتحان الفرعوني ، فجازاه الله بمناجاته لسماع كلامه ، رؤي بعضهم في النوم فقيل : ما فعل الله بك ؟ فقال : رضي الله عني ورحمني ، وقال لي كل يامن قطع الليل تلاوة ، واشرب يامن ثبتَ يوم الزحف ، وقيل لبعضهم وقد رؤي يمشي في الهواء : بم نلت هذه الكرامة ؟ فقال تركتُ هوايَ لهواه ، فسخَّر لي هواه ، ﴿ **وَما تِلْكَ** ﴾ أيْ أيُّ شيء هذه التي حملتها ﴿ **بِيَمِينِكَ يامُوسىٰ** ﴾ أي العصا ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى ﴿ **هِيَ عَصَايَ** ﴾ نسبها إلى نفسه تحقيقاً لوجه كونها بيمينه ﴿ **أَتَوَكّؤُا عَلَيْها** ﴾ أي أعتمد عليها عند الإعياء في الطريق وحال المشي ﴿ **وَأَهُشُّ بِها عَلىٰ غَنَمِي** ﴾ أي أخبط بها الورق وأسقطه على رؤس غنمي لتأكله ﴿ **وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ** ﴾ جمع مأربه وهي الحاجة ﴿ **أُخْرَىٰ** ﴾ لم يقل آخر لرعاية الفاصلة ، أي حاجات أخر غير التوكىء ، والهشّ ، وهي أنه إذا سار ألقاها على عاتقه ، وعلَّق بها قوسه وكنانته وحملَ عليها زاده ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **أَلْقِها يامُوسى** ﴾ اطرحها لترى من شأنها ما

لم يخطر ببالك ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ على الأرض ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ السعيُ : المشيُ بسرعة وخفة وحركة ، روي أنه حين ألقاها انقلبت حية صفراء في غلظ العصا ، ثم انتفخت وعظمت فلذلك شبهت بالجان تارة وهو الخفيف ، كما قال تعالى (كَأَنَّها جَانٌّ) أي باعتبار ابتداء حالها ، وعبَّر عنها ههنا بالاسم العام للحالين أي الصغير والكبير ، والظاهر أنها انقلبت من أول الأمر ثعباناً وهو الأليق بالمقام كما يفصح عنه قوله تعالى (فَإذا هي ثُعْبانٌ مُبينٌ) وإنما شُبهت بالجان في الجلادة وسرعة الحركة ﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني ﴿ خُذْها ولا تَخَفْ ﴾ رُوي أنّها انقلبت ثعباناً ذكراً ، يبتلع كل شيء يمر به من صخر ، وحجر ، وعيناه تتقدان كالنار ، ويسمع لأنيابه صريف شديد ، مَنْ رآه كذلك خاف ونفر ، لأن الخوف والهرب من الحيّات ونحوها من طباع البشر ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴾ أي سنعيدها بعد الأخذ إلى هيئتها الأولى التي هي عصا كما كانت ، أراه الله تعالى هذه الآية كيلا يخاف عند فرعون إذا انقلبت حية ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ ﴾ اليمنى ﴿ إِلَى جَنَاحِكَ ﴾ وجناحُ الإنسان جنْبه وعضده إلى أصل إبطه ، والمعنى : واضم يدك إلى جنبك تحت العضد ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي تخرج مضيئة كائنة من غير عيب وقبح ، كنىَّ به عن البَرَص لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه ، روي أن موسى عليه السلام كان أسمر اللون فإذا أدخل يده اليمنى تحت إبطه الأيسر ، وأخرجها كان عليها شعاع كشعاع الشمس ، يغشى البصر ويسد الأفق ، ثم إذا ردها إلى جنبه صارت إلى لونها الأول بلا نور وبريق ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي معجزةأخرى غير العصا ﴿ لِنُرِيَكَ ﴾ أي فعلنا ما فعلنا من قلب العصا حية ، وجعل اليد بيضاء لنريك بهاتين الآيتين ﴿ مِنْ آياتِنا الكُبْرَىٰ ﴾ أي بعض آياتنا الكبرى فكل من العصا واليد من الآيات الكبرى وهي تسع كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) والفرقُ بين آيات موسى وآيات نبينا عليهما السلام ، أن آيات موسى عجائب الأرض فقط ، وآيات نبينا عجائب السموات والأرض ، واعلم ان موسى عليه السلام أدخل يده في جيبه ، فأخرجها بيضاء من غير سوء ، وهذا من كرامات اليد ، ونبينا عليه السلام نبع الماء من بين أصابعه في غزوة تبوك ، حتى شرب منه وانتفع خلق كثير ، ورمى التراب في وجوه الأعداء فانهزموا ، وسبح الحصى في يده ﷺ ﴿ إِذْهَبْ ﴾ ياموسى بطريق الدعوة والتحذير ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ وملئه بهاتين الآيتين : العصا ، واليد ، لقوله تعالى (إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآياتي) فسيأتي معنى الجمع فيه إن شاء الله تعالى ﴿ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أي جاوز حد العبودية ، بدعوى الربوبية كما قال (أنا رَبُّكُمُ الأعْلَىٰ) ﴿ قَالَ ﴾ موسى مستعيناً بالله ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ أي وسِّعْ قلبي حتى لا يضيق بسفاهة المعاندين ولجاجهم ، ولا يخاف من شوكتهم وكثرتهم. واعلم أن شرح الصدر من نعم الله تعالى على الأنبياء ، وقد أخذ منا نبينا عليه السلام الحظ الأوفى ، لأنه حصل له بصورته ومعناه ، إذ شق صدره في صباه وألقى عنه العلقة التي هي حظُّ الشيطان ، وغسل في

طست من الذهب ، وفي المعراج ليتسع لأسرار الحق تعالى ﴿ **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** ﴾ سَهِّل عليَّ أمر التبليغ ﴿ **وَاحْلُلْ** ﴾ وافتح ﴿ **عُقْدَةً** ﴾ لكنة ﴿ **مِنْ لِسَانِي** ﴾ متعلق بالفعل وتنكير عقدة يدل على قلتها في نفسها قالوا ما الإنسان لولا اللسان إلاَّ بهمية مرسلة ، أو صورة ممثلة ، والمرءُ بأصغريه قلبه ولسانه ﴿ **يَفْقَهُوا قَوْلِي** ﴾ أي يفهم هو وقومه كلامي عند تبليغ الرسالة ، فإنما يحسن التبليغ من البليغ ، وكان في لسانه من جمرة أدخلها فاه ، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ لحيته ونتفها ، لما كانت منصعة بالجواهر ، فغضب وقال : إن هذا عدوي المطلوب وأمر بقتله ، فقالت آسية زوجته : أيها الملك إنه صبي لا يفرق حُبْسةً من جمرة أدخلها فاه ، وذلك أن فرعون حمله يوماً فأخذ لحيته ونتفها ، لما كانت منصعة بالجواهر، أخذ الجوهر فأمال جبرائيل يده إلى الجمر فرفعه إلى فيه فاحترق لسانه ، فكانت منه لُكْنةً وعُجْمة ﴿ **وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً** ﴾ الوزير عضد الملك أي جليسه وخاصته الذي يحمل ثقله ويُعينه برأيه أي واجعل لي موازراً يعاونني في تحمل أعباء ما كُلِّفته ﴿ **مِنْ أَهْلِي** ﴾ من خواصي وأقربائي﴿ **هَرُونَ** ﴾ مفعول أول لاجعل قدم عليه الثاني وهو وزيراً للعناية به ، لأن مقصوده الأهم طلب الوزير ﴿ **أَخِي** ﴾ بدل من هارون ﴿ **أُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** ﴾ الأزرُ : القوة والظهر ، أي أحكم به قوتي أَوْقَوِّ به ظهري ﴿ **وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** ﴾ واجعله شريكي في أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي ، فإن قيل : كيف سأل لأخيه النبوة وهي باختيار الله تعالى ؟ قلت : إن في إجابة الله دليلاً على أن سؤاله كان بإذن الله وإلهاماً منه وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبياً ﴿ **كَيْ** ﴾ غاية للأدعية الثلاثة الأخيرة ﴿ **نُسَبِّحَكَ** ﴾ تسبيحاً ﴿ **كَثِيراً** ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بك من الأفعال والصفات ، التي من جملتها ما يدعيه فرعون ﴿ **وَنَذْكُرَكَ** ﴾ ذكراً ﴿ **كَثِيراً** ﴾ أي على كل حال ، ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال ﴿ **إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً** ﴾ أي عالماً بأحوالنا وأن التعاون يصلحنا ، وإن هارون نعم الوزير والمعين لي فيما أمرتني به ، فإنه أكبر مني سناً ، وأفصح لساناً ، وكان أكبر من موسى بأربع سنين ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ** ﴾ مسئولك ومطلوبك ، وفي الحديث (إذا أراد الله بالأمير خيراً قيَّض له وزير صدقٍ ، إن نسِي ذكَّره ، وإن ذكر أعانه[1]، ﴿ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ** ﴾ من قولهم منَّ عليه منّاً بمعنى أنعم عليه ، فإن قيل : ذكر تلك النعم بلفظ المنة مؤذٍ ، والمقام مقام التلطف ، قلنا : عرَّفه أنه لم يستحق شيئاً منها بذاته وإنما خصَّه بها بمحض التفضل ، والمعنى : وبالله لقد أنعمنا عليك ياموسى وأكرمناك بكرامات من غير أن تسألنا ﴿ **مَرَّةً أُخْرَىٰ** ﴾ أي وقتاً غير هذا الوقت فإن أخرى تأنيث آخر بمعنى غير ﴿ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ** ﴾ والمراد

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الإمارة رقم ٢٩٣٢ والنسائي في البيعة ٧ / ١٥٩ . جامع الأصول ٤ / ٧٣ .

من هذا الوحي ، ليس الوحي الواصل إلى الأنبياء ، بل الإلهام كما في قوله تعالى (**وَأَوْحىٰ رَبُّكَ إلى النَّحْلِ**) بأن أوقع الله في قلبها عزيمة جازمة على ما فعلته من اتخاذ التابوت والقذف ، وفي الأسئلة المقحمة : كيف يجوز لها أن تلقي ولدها في البحر ، وتخاطر بروحه بمجرد الإلهام ؟ والجواب : كانت مضطرة إلى ركوب أحد الخطرين ، فاختارت له أخفَّ الشرين انتهى ﴿ **ما يُوحىٰ** ﴾ بقذفه في التابوت والبحر ، أبهم أولاً تهويلاً له وتفخيماً لشأنه عليه السلام ، ثم فَسَّره ليكون أقرَّ عند النفس ﴿ **أن اقْذِفِيهِ في التَّابُوتِ** ﴾ أي قلنا لها اقذفيه ، ومعنى القذف ههنا الوضع وفي قوله ﴿ **فاقْذِفِيهِ في اليَمِّ** ﴾ الإلقاء وليس المراد القذف بلا تابوت ، واليَمُّ نيل مصر في قول جميع المفسرين فإن اليم يقع على البحر والنهر العظيم ﴿ **فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بالسّاحِلِ** ﴾ لما كان إلقاءُ البحر إياه واجب الوقوع ، لتعلق الإرادة الربانية به جعل البحر كأنه ذو تمييز مطيع أُمر بذلك ﴿ **يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وَعَدُوٌّ لَهُ** ﴾ بالجزم جواب للأمر بالإلقاء ، أي دعيه حتى يأخذه العدو ، فإني قادر على تربية الولي في حِجْر العدو ، ووقايته من شره بإلقاء محبة منه عليه ، روي أنها جعلت في التابوت قطناً ووضعته فيه ، ثم أحكمته بالقير وهو الزفت ، لئلا يدخل فيه الماء ، وألقته في اليم ، وكان يدخل منه إلى بستان فرعون نهر ، فدفعه الماء إليه فأتى به إلى بركة في البستان ، وكان فرعون جالساً مع آسية بنت مزاحم ، فأمر به فأخرج ففتح فإذا هو صبي أصبح الناس وجهاً ، ولما وجده في اليم عند الشجر سماه موسى و « مو » هو الماء بالقبطية و « سا » هو الشجر ، وأحبه حباً شديداً لا يكاد يتمالك الصبر عنه ، وذلك قوله تعالى ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً** ﴾ عظيمة كائنة ﴿ **مِنِّي** ﴾ قد زرعتها في القلوب ، بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ، ولذا أحبك عدو الله ﴿ **وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي** ﴾ لتربى بالحنو والشفقة ويُحسن إليك ، وأنا مراعيك وحافظكَ ﴿ **إِذْ تَمْشي أُخْتُكَ** ﴾ مريم إلى بيت فرعون ﴿ **فَتَقُولُ** ﴾ أي لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدياً ، ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ** ﴾ أي يضمه إلى نفسه ويربيه ، يروى أنه فشا الخبر بمصر ، أن آل فرعون أخذوا غلاماً من النيل ، لا يرضع ثدي امرأة ، واضطروا إلى تتبع النساء ، فخرجت مريم لتعرف خبره ، فجاءتهم منكرة فقالت ما قالت ، وقالوا من هي ؟ قالت أمي فجاءت بها فقبل ثديها ﴿ **فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ** ﴾ أي رددناك وهو قوله (**إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِن الْمُرْسَلِينَ**) ﴿ **كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا** ﴾ أي تطيب نفسها بلقائك ﴿ **ولا تَحْزَنَ** ﴾ على فقدك ، ﴿ **وَقَتَلْتَ نَفْساً** ﴾ هي نفس القبطي ﴿ **فَنَجَّيناكَ مِنَ الغَمِّ** ﴾ أي غم قتله خوفاً من عقاب الله بالمغفرة ، ومن اقتصاص فرعون بالمهاجرة إلى مدين ﴿ **وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً** ﴾ الفتنةُ والفتونُ : المحنةُ وكل ما شقَّ على الإنسان ، والمعنى ابتليناك ابتلاء ، وقال بعضهم : طحنَّاك بالبلاء طحناً ، ومن ابتلائه قتله القبطيّ ومهاجرته من الوطن ، ومفارقة الأحباب ، والمشي راجلاً ، مع فقد الزاد ونحو ذلك ، مما وقع

قبل وصوله إلى مدين ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ ﴾ عشر سنين ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي عند شعيب لرعي الأغنام لأن شعيباً أنكحه بنته على أن يخدمه ثماني سنين ، فخدمه عشراً قضاء لأكثر الأجلين ﴿ ثُمَّ جِئْتَ ﴾ أي الوادي المقدس بعد ضلال الطريق ، وتفرق الغنم في الليلة المظلمة ونحوها ﴿ عَلَى قَدَرٍ ﴾ تقدير قدَّرتُه أن أكلِّمكَ ، وأستنبئك ، غير مستقدِم وقته المعين ولا مستأخر ، أو على مقدار مقدَّر من السن يوحى فيه إلى الأنبياء ﴿ يامُوسَىٰ ﴾ كرره تشريفاً له عليه السلام ، وتنبيهاً على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية ﴿ واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ تذكير لقوله (وَأَنَا اخْتَرتُكَ) أي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فهو تمثيل لما أعطاه تعالى من الكرامة العظمى ، بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه لبعض أموره الجليلة ﴿ إِذْهَبْ أَنْتَ ﴾ ياموسى ﴿ وَأَخُوكَ ﴾ أي وليذهب أخوك هارون ﴿ بِآيَاتِي ﴾ بمعجزاتي إذ المراد ذهابهما إلى فرعون ملتبسين بالآيات ، متمسكين بها في إجراء أحكام الرسالة ، وإكمال أمر الدعوة ، قال ابن عباس : يريد الآيات التسع التي أُنزلت عليه ، وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقباً بعد ﴿ ولا تَنِيا فِي ذِكْرِي ﴾ أي في مداومته على كل حال ، لساناً ، وجَناناً ، فإنه آلة لتحصيل كل المقاصد ، فإن أمراً من الأمور لا يتمشى لأحد إلا بذكري، قال بعضهم : الحكمة في هذا التكليف أن من ذكر جلال الله تعالى وعظمته ، استخفَّ غيره فلا يخاف أحداً غيره ، فيتقوَّى روحه بذلك الذكر ، فلا يضعف في مقصودٍ ﴿ إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ هذا الخطاب إما بطريق التغليب ، أو بعد ملاقاة أحدهما الآخر ، وتكرير الأمر بالذهاب لترتيب ما بعده عليه ﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ الطغيان مجاوزة الحد في العصيان أي تجاوز حد العبودية بدعوى الربوبية ، قال في العرائس : أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون لقطع حجته وإظهار كذبه في دعواه ، وهذا تهديد لكل مدع لا يكون معه بيِّنةٌ من الله في دعواه ، والحكمة في إرسال الأنبياء إلى الأعداء ليعرفوا عجزهم عن هداية الخلق إلى الله ، ومن يعجز عن هداية غيره يعجز عن هداية نفسه ، كالطبيب العاجز عن معالجة الغير ، فإنه عاجز عن معالجة نفسه أيضاً ، وليعلموا أن الاختصاص لا يكون بالأسباب ويشكروا الله بما أنعم عليهم بلطفه ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً ﴾ أي كلِّماه باللين ، والرفق من غير خشونة ، ولا تعنيف ، ويسِّرا ، ولا تعسِّرا ، فإنه « ما دخل الرفق في شيء إلا وقد زانه ، وما دخل العسرُ في شيء إلا وقد شانه » وفرعون كان من الملوك الجبابرة، ومن عادتهم أن يزدادوا عتواً إذا خوشنو افي الوعظ ، فاللِّين عندهم أنفع وأسلم ، كما أن الغلظة على العامة أوفق حكمة ، وأشد دعوة ، وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ رحمه الله هذه الآية فبكى ، وقال : إلهي هذا رفقك بمن يقول أنا الإله فكيف بمن يقول أنت الإله ؟ ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ لعله يتذكر بما بلَّغتاه من ذكري ، ويرغب فيما رغَّبتاه فيه ، أو يخشى عقابي ﴿ قَالا رَبَّنَا ﴾ أسند القول إليهما مع أن

القائل حقيقة هو موسى بطريق التغليب ﴿ إِنَّنا نَخَافُ ﴾ الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة ، أو معلومة كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة ، ويضادُّ الخوف الأمن ، والخوف من الله إنما يراد به الكف عن المعاصي ، واختيار الطاعات ﴿ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ أي يعجل علينا بالعقوبة ، ولا يصبر إلى إتمام الدعوة ، وإظهار المعجزة فيتعطل المطلوب من الإرسال إليه . ﴿ أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴾ أي يزداد طغياناً إلى أن يقول في شأنك مالا ينبغي ، لكمال جراءته ، وقساوته ﴿ قَالَ لاَتَخَافَا ﴾ ما توهمتما من الأمرين ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ بكمال الحفظ والنصرة ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ أي ما يجري بينكما ، وبينه من قول ، وفعل ، فافعل في كل حال ما يليق بها من دفع ضرر وشر ، وجلب نفع وخير ، فمن كان الله معه يحفظه من كل جبار عنيد ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ أمر بإتيانه الذي هو عبارة عن الوصول إليه بعدما أمرا بالذهاب إليه ﴿ فَقُولا ﴾ من أول الأمر ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ ليعرف الطاغي سؤالكما ويبني جوابه عليه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَئِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أي بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، فإنهم كانوا تحت مملكة القبط ، يستخدمونهم في الأعمال الصعبة الفادحة ، من الحفر ، ونقل الأحجار ، وغيرهما من الأمور الشاقة ، ويقتلون ذكور أولادهم عاماً دون عام ، ويستخدمون نساءهم ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قد جئناك ببرهان على ما ادعيناه من الرسالة ﴿ وَالسَّلاَمُ ﴾ والتحية المستتبعة بسلامة الدارين ، من الله والملائكة وغيرهم من المسلمين ﴿ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ بتصديق آيات الله الهادية إلى الحق ﴿ إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا ﴾ من جهة ربنا وذلك قد يكون بالكلام الخفي على لسان جبريل ، وقد يكون بالإلهام وبالمنام ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ أي كل العذاب الدنيوي والأخروي الدائم ، ﴿ عَلَى مَنْ كَذَّبَ ﴾ بآياته تعالى وكفر بما جاء به الأنبياء عليهم السلام والكذب ، في المقام وفي الفعال ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أعرض عن قبولها بمتابعة الهوى ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا ﴾ أي إذا كنتما رسولي ربكما ، فأخبرا من ربكما الذي أرسلكما إليّ ؟ ولم يقل فمن ربي مع قولهما (إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ) لغاية عتوه ونهاية طغيانه ﴿ يامُوسَىٰ ﴾ خاطبهما ثم أفرد موسى إذ كان يعلم أن موسى هو الأصل في الباب وهارون وزيره وتابع له ﴿ قال ﴾ موسى مجيباً له ﴿ رَبُّنا الَّذِي ﴾ من محض رحمته ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من أنواع المخلوقات ﴿ خَلْقَهُ ﴾ أي صورته وشكله اللائق به مشتملاً على خواصه ومنافعه ، ﴿ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ وجه كل واحد منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغي له طبعاً كما في الجمادات ، واختياراً كما في الحيوانات ، وهيأه لما خلق له ، فما من مخلوق إلا وقد هُدي إلى معرفته تعالى ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴾ والمعنى فما بال القرون الماضية ، وما خبر الأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصّلة ؟ ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ أي إن علم أحوال تلك القرون من الغيوب التي لا يعلمها إلا الله ، ولا ملابسة للعلم بأحوالهم بمنصب الرسالة فلا أعلم منها إلا ما علمنيه من

الأمور المتعلقة بما أرسلت ﴿ **في كِتابٍ** ﴾ أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله ﴿ **لا يَضِلُّ رَبِّيْ ولا يَنْسىٰ** ﴾ لا يخطىء ابتداءً بل يعلم كل المعلومات ، ولا يغفل عنه بقاء بل هو ثابت أبداً ، وهو لبيان أن إثباته في اللوح المحفوظ ليس لحاجته تعالى إليه في العلم به ابتداء وبقاء ، وإنما كتب أحكام الكائنات في كتاب ليظهرها للملائكة ، فيزيد استدلالهم بها على تنزه علمه تعالى عن السهو والغفلة ﴿ **الّذي** ﴾ أي هو الذي ﴿ **جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً** ﴾ والمهد المهاد المكان الممهد الموطأ ﴿ **وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً** ﴾ جعل لكم أي لأجلكم لا لغيركم طرقاً كثيرة ، ووسَّطها بين الجبال والأودية والبراري تسلكونها من قطر إلى قطر ، لتقضوا منها مآربكم ، وتنتفعوا بمنافعها ﴿ **وَأَنْزَلَ مِنَ السّماءِ** ﴾ أي من السحاب ﴿ **مَاءً** ﴾ والمراد هنا المطر وهو الأجزاء المائية إذا التأم بعضها مع بعض .

﴿ **فَأَخْرَجْنا بِهِ** ﴾ أي أنبتنا بسببه ، ﴿ **أَزْواجاً** ﴾ أصنافاً سميت بذلك لازدواجها ، واقتران بعضها ببعض ، لأنه يقال لكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاداً : زوجٌ ، كل قرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج ، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج كالخف والنعل ﴿ **مِنْ نَباتٍ** ﴾ والنبات ما يخرج من الأرض من الناميات سواء كان له ساق كالشجر أو لم يكن له ساق كالبقل ﴿ **شَتّى** ﴾ أي نباتات مختلفة الأنواع والطعوم والروائح والأشكال والمنافع ، بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح ، وبعضها للبهائم ﴿ **كُلُوا** ﴾ قائلين : كلوا منها أي من الثمار والحبوب ونحوها ﴿ **وَارْعَوْا** ﴾ أي أسيموا واسرحوا فيها ﴿ **أَنْعامَكُمْ** ﴾ وهي الإبل والبقر والضأن والمعز ، هيَّأناها بأن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها ، ويشير إلى أن السماء والماء والنبات والأنعام كلها مخلوقة لكم ، ولولا احتياجكم للتعيش بهذه الأشياء بل بجميع المخلوقات ما خلقتها ﴿ **إِنَّ في ذلِكَ** ﴾ المذكور من الشؤون والأفعال الإلهية ، من جعل الأرض مهداً وسلك السبل فيها وإنزال الماء وإخراج أصناف النبات ﴿ **لآيَاتٍ** ﴾ كثيرة جليلة واضحة الدلالة على الصانع ، ووحدته ، وعظيم قدرته ، وباهر حكمته ﴿ **لأُولِي النُّهىٰ** ﴾ جمع نهية ، سمي بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبيح ، كما سُمِّي بالعقل والحِجْر لعقله وحجره عن ذلك لذوى العقول الناهية عن الأباطيل التي من جملتها ما تدعيه الطاغية وتقبله منهم الفئة الباغية ، وتخصيص أولي النهى مع أنها آيات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها ﴿ **مِنْها** ﴾ أي من الأرض ﴿ **خَلَقْناكُم** ﴾ بوساطة أصلكم آدم ، وإلا فمن عدا آدم وحواء مخلوق من النطفة ، ﴿ **وَفِيها نُعيدُكُمْ** ﴾ عند الموت بالدفن فيها ﴿ **وَمِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرىٰ** ﴾ أي عند البعث بتأليف الأجزاء وتسوية الأجساد ، ورد الأرواح للحساب والجزاء ، وكون هذا الإخراج تارة أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها وإن لم يكن على نهج التارة الثانية ، قيل ليحيي بن معاذ رضي الله عنه : ما بال الإنسان يحب الدنيا ؟ قال : حُقَّ له أن يحبها ، منها خُلِق ، وهي أمه ، ومنها عيشه ورزقه ، فهي حياته ، وفيها يعاد فهي كفاته ، وفيها كسب الجنة

فهي مبدأ سعادته وهي ممر الصالحين إلى الله تعالى ، فكيف لا يحب طريقاً يأخذ بسالكه إلى جوار ربه؟ ﴿ وَلقدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها ﴾ أي وبالله لقد بصَّرنَّا فرعون على يدي موسى آياتنا كلها من العصا ، واليد وغيرهما على مهل من الزمان ، أو عَرَّفْنَاه صحتها وأوضحنا وجه الدلالة فيها ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ بالآيات كلها من فرط عناده من غير تردد وتأخير ، وزعم أنها سحر ﴿ وَأَبىٰ ﴾ عن قبولها لعتوه ، ﴿ قَالَ أَجِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يامُوسىٰ ﴾ ؟ والمعنى أجئتنا من مكانك الذي كنت فيه بعدما غبت عنه ، أو أقبلت علينا لتخرجنا من أرض مصر بالغلبة ، والاستيلاء بما أظهرته من السحر ، فإن ذلك مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب محاولة المحال ، وقال بعضهم : هذا تعلل وتحير ودليل على أنه علم كون موسى محقاً حتى خاف منه على ملكه ، فإن ساحراً لا يقدر أن يخرج ملكاً مثله من أرضه ، وإنما قال ذلك لحمل قومه على غاية المقت ، بإبراز أن مراده ليس مجرد إنجاء بني إسرائيل من أيديهم ، بل إخراج القبط من وطنهم ، وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه إلى اتباعه أحد ويبالغوا في المدافعة والمخاصمة وسمى ما أظهره عليه من المعجزات الباهرة سحراً ليجسرهم على المقابلة ، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ كأنه قيل إذا كان كذلك فأقسم لنأتيك بسحر مثل سحرك ، فلا تتغلَّب علينا ﴿ فَاجْعَلْ ﴾ صيّر ﴿ بَيْنَنا وبَيْنَكَ ﴾ لإظهار السحر ﴿ مَوْعِداً ﴾ أي وعداً ﴿ لا نُخْلِفُهُ ﴾ أي ذلك الوعد ﴿ نَحْنُ ولا أَنْتَ مَكاناً سُوىً ﴾ أي أعِدَّ مكاناً عدلاً بيننا وبينك ، وسطاً يستوي طرفاه من حيث المسافة علينا ، وعليكم لا يكون فيه أحد الطرفين أرجح من الآخر ، أو مكاناً مستوياً لا يحجب العين ارتفاعه ولا انخفاضه ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ مَوْعِدُكُمْ يومُ الزِّينَةِ ﴾ يوم عيدهم الذي يجتمع فيه الناس من كل مكان ليكون بمشهد خلق عظيم ، لعلهم يستحيون منهم فلا ينكرون المعجزة بعد إبطال السحر ، سألوا عن المكان فأجابهم بالزمان ، فإن يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه في ذلك اليوم ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النّاسُ ضُحىً ﴾ أي وأن يجمع الناس في وقت الضحى ليكون أبعد من الريبة ﴿ فَتَوَلّى فِرْعَوْنُ ﴾ أي ترك المجلس والمكان ، وانصرف عن المجلس ، وأرسل إلى المدائن لجمع السحرة ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أي ما يُكاد به من السحرة ، وأدواتهم ﴿ ثُمّ أَتىٰ ﴾ أي الموعد ومعه ما جمعه من كيده لم يسارع إليه بل أتاه بعد تأخير ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسىٰ ﴾ قال لهم بطريق النصيحة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ أصله الدعاء بالهلاك بمعنى ألزمكم الله عذاباً وهلاكاً ، والمراد هنا الزجر والردع والحث والتحريض على ترك الافتراء ﴿ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ بأن تدَّعوا أن الآيات التي ستظهر على يديَّ سحر ، أو لا تشركوا مع الله أحداً ، والافتراء التقول والكذب عن عمد ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ ﴾ فيهلككم ويستأصلكم بسببه ﴿ بِعَذابٍ ﴾ هائل لا يقادر قدره ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ الخيبة فوت المطلب ﴿ مَنِ افْتَرىٰ ﴾ أي على الله تعالى كائناً من كان بأي وجه كان ﴿ فَتَنَازَعُوا ﴾ أي السحرة حين سمعوا كلامه كأن ذلك غاظهم فتنازعوا ﴿ أَمْرَهُمْ ﴾ الذي أريد منهم

من مغالبته عليه السلام ، وتشاوروا وتناظروا ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ في كيفية المعارضة وتجاذبوا أهداب القول في ذلك ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾ وبالغوا في إخفاء النجوى عن موسى لئلا يقف عليه فيدافعه ، والنجوى : السرُّ ﴿ قَالُوا ﴾ أي بطريق التناجي والإسرار ﴿ إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ أي موسى وهارون ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ أي من أرض مصر بالغلبة والاستيلاء عليها ﴿ بِسِحْرِهِمَا ﴾ أي الذي أظهراه من قبل ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ أي بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأمثلها بإظهار مذهبهما ، وإعلاء دينهما ، يريدون ما كان عليه قوم فرعون لقوله (إِنِّيٓ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ) لا طريقة السحر فإنهم ما كانوا يعتقدونه ديناً ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ والمعنى إذا كان الأمر كما ذكر من كونهما ساحرين ، فأحكِموا مكركم وحيلكم في رفع هذا المزاحم ، واجعلوه مجمعاً عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم ، وارموا عن قوس واحدة ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً ﴾ أي مصطفين في الموعد ومجتمعين ، ليكون أشد لهيبتكم وأنظم لأمركم ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب خصمه ، ونال كل ما يطلب ويشتهي ﴿ قَالُوا ﴾ أي السحرة بعد إجماعهم وإتيانهم الموعد واصطفافهم ﴿ يَامُوسَىٰٓ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ أي تطرح عصاك من يدك على الأرض ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ ما نلقيه من العصيّ والحبال أي اختر إلقاءك ؟ وفيه إشارة إلى أن السحرة ، لما أعزُّوا موسى عليه السلام بالتقديم والتخيير في الإلقاء ، أعزَّهم الله بالإيمان الحقيقي ، حتى رأوا بنور الإيمان معجزة موسى ، فآمنوا به تحقيقاً لا تقليداً ، ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أولاً ما أنتم ملقون ، يقول الفقير : الظاهر أن الله تعالى ألهم السحرة التخيير ، وعلم موسى اختيار إلقائهم أولاً ليظهر الحق من الباطل ، لأن الحق يدفع الباطل ويمحوه ، ولو كان موسى أول من ألقى لتفرق الناس من أول الأمر خيفة الثعبان كما تفرقوا بعد ابتلاع العصا عصيهم وحبالهم ، وذلك مُخِلٌّ بالمقصود ، قال الإمام : فإن قيل كيف أمرهم به وهو سحر وكفر ؟ قلنا : لما تعيَّن طريقاً إلى كشف الشبهة صار جائزاً ، وقيل : هذا ليس بأمر وإنما هو للإستهانة بذلك وعدم الإكتراث به ، لما كان يعلم أن ذلك سبب لظهور الحق وزهوق الباطل ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ التخيل تصوير الخيال الشيء في النفس ، والمعنى فألقوا ففاجأ موسى وقت أن يخيل إليه سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق ، فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت ، فخيل إليه أنها تتحرك ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ الوجس : الصوتُ الخفيُّ والتوجس التسمع ، والمعنى أضمر موسى في نفسه بعض خوف من مفاجأته ، بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيَّاتِ ، والاحتراز عن ضررها المعتاد من اللسع ونحوه ﴿ قُلْنَا لاَ تَخَفْ ﴾ ما توهمت ﴿ إِنَّكَ ﴾ أي لأنك ﴿ أَنْتَ الأَعْلَىٰ ﴾ أي الغالب القاهر لهم ونحن معك في جميع أحوالك ، وفي التأويلات النجمية : يشير إلى أن خوف البشرية مركوز في جبلة الإنسان ولو

كان نبياً ، إلى أن ينزع الله الخوف منه انتزاعاً ربانيا كما قال تعالى ﴿ **قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَىٰ** ﴾ أي أعلى درجة من أن تخاف من المخلوقات دون الخالق ﴿ **وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ** ﴾ أي عصاك والإبهام لتفخيم شأنها ﴿ **تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا** ﴾ بالجزم جواب للأمر ، والمعنى تبتلع وتلتقم ما صنعوه من الحبال والعِصِيِّ التي خُيِّل إليك سعيها وخفتها ، والتعبير عنها بما صنعوا للتحقير والإيذان بالتمويه والتزوير أي زَوَّروه وافتعلوه ﴿ **إِنَّمَا صَنَعُوا** ﴾ ما موصولة أو موصوفة أي إن الذي صنعوه ، أو إنَّ شيئاً صنعوه ﴿ **كَيْدُ سَاحِرٍ** ﴾ أي كيد جنس الساحر ومكره وحيلته وتنكيره للتحقير ، والكيد ضرب من الاحتيال يكون محموداً أو مذموماً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، وكذلك الاستدراج والمكر ﴿ **وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ** ﴾ أي لا يدرك بغيته هذا الجنس ﴿ **حَيْثُ أَتَىٰ** ﴾ من الأرض وعمل السحر فيها وهو من تمام التعليل ، وفي التأويلات النجمية : يشير إلى أن ما في يمينك هو مصنوعي ، وما صنعه السحرة إنما هو مَصْنوعُهم وكيدهم ، ولا يفلح السحر ومَصْنوعُهُ حيث أتى مَصْنوعي وكيدي ، لأن كيدي متين ، واعلم أن الفلاح دنيوي وهو الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا ، وهو البقاء والغنى والعز ، وأخروي وهو أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل ، ففلاح أهل الدنيا كَلاَ فلاح لأن عاقبته خيبة وخسران ، والساحر إذا تاب قبل أن يؤخذ تقبل توبته ، وإن أخذ ثم تاب لم تقبل توبته ، وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال في الساحر : يُقتل إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب ، ولا يقبل قوله إني أترك السحر وأتوب منه ، فإذا أقرَّ ساحر فقد حلَّ دمه ، والساحر يقتل ذكراً أو أنثى ، إذا كان سعيه بالإفساد والإهلاك في الأرض ، وإذا كان سعيه بالكفر فيقتل الذكر دون الأنثى انتهى ، وفي الفروع لا تقتل الساحرة المسلمة ولكن تضرب وتحبس ، لأنها ارتكبت جريمة عظيمة ، وإنما لا تقتل لأن النبي عليه السلام نهى عن قتل النساء مطلقاً ، والسحر في اللغة : كل ما لطف ودقَّ ، ومنه قوله عليه السلام (إن من البيان لسحراً) وهو رقى وعزائم وعُقَدٌ ، تؤثر في الأبدان والقلوب ، فيمرض ويُقتل ، ويفرق به بين المرء وزوجه ، وله حقيقة عند الأئمة وقالت المعتزلة : لا حقيقة له ولا تأثير له في الجسم ، بل هو مجرد إراءة مالا حقيقة له ، بمنزلة الشعوذة التي سببها خفة حركات اليد أو إخفاء وجه الحيلة ، ولنا وجهان : الأول يدل على الجواز ، والثاني يدل على الوقوع ، أما الأول فهو إمكان الأمر في نفسه وشمول قدرة الله تعالى ، فإنه هو الخالق وإنما الساحر فاعل وكاسب ، وأيضاً فيه إجماع الفقهاء وإنما اختلفوا في الحكم ، وأما الثاني فهو قوله تعالى (**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**) إلى قوله (**وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ**) وفيه إشعار بأنه ثابت حقيقة ، ليس مجرد إراءة وتمويه ، وبأن المؤثر والخالق هو الله تعالى وحده ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ** ﴾ أي فألقى العصا فوقع ما وقع

من اللقف ، فألقيَ السحرة حال كونهم ﴿ سُجَّداً ﴾ ساجدين ، كأنما ألقاهم ملقي لشدة خرورهم ، روي أنهم قالوا : كنا نغلب الناس وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحراً ، فأين ما ألقيناه من الآلات ؟ فاستدلوا بتغير أحوال الأجسام على الصانع ، العالم القادر ، فتابوا وأتوا بنهاية الخضوع وهو السجود ، قال جار الله : ما أعجب أمرهم ألقوا حبالهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤسهم للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ؟ ﴿ قَالُوا ﴾ في سجودهم ﴿ آمنّا بِرَبِّ هَرونَ وَمُوسىٰ ﴾ تأخير موسى عند حكاية كلامهم لرعاية الفواصل ، ومعنى إضافة الرب إليهما أنه هو الذي يدعوان إليه وأجرى على يديهما ما أجرى ﴿ قَالَ ﴾ فرعون للسحرة بطريق التوبيخ ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أي لربهما على أن اللام بمعنى الباء ، والدليل القاطع عليه قوله (قَالَ آمَنْتُمْ بِهِ) في سورة الأعراف ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي من غير أن آذن لكم في الإيمان له وآمركم به ﴿ إِنَّهُ ﴾ يعني موسى ﴿ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ أي أستاذكم ﴿ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم ، وأراد التلبيس على قومه لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان ، لأنه عالم أن موسى ما علّمهم السحر ، يعني أن هذه شبهة زوَّرها اللعين وألقاها على قومه ، وأراهم أن أمر الإيمان منوط بإذنه ، فلما كان إيمانهم بغير إذنه لم يكن معتداً به ، وأنهم من تلامذته وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة في الإيمان بالله ، ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال ﴿ فَلأُقَطِّعَنَّ ﴾ أي فوالله لأقطعنَّ أيديكم وأرجلكم ، وصيغة التفعيل للتكثير ﴿ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ﴾ من كل شق طرفاً ، وهو أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، من مخالفة العضو العضو ، لكونه أفظع من غيره ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ الصلبُ : تعليق الإنسان للقتل ، أي على أصول النخل في شاطىء النيل ، وفرعون هو أول من استعمل الصلب ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا ﴾ أي أنا وموسى ﴿ أَشَدُّ عَذاباً وَأَبْقىٰ ﴾ أدوم ، وموسى لم يكن في شيء من التعذيب إلا أن فرعون ظن السحرة خافوا من قبل موسى على أنفسهم ، حين رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم ، فقال ما قال ، وقيل : أراد بقوله (أَيُّنا) نفسه ورب موسى ، وإنما قال (أَشَدُّ عَذاباً) لأنه كان بصيراً بعذاب الدنيا وشدته ، وقد كان أعمى بعذاب الآخرة وشدته ﴿ قَالُوا ﴾ غير مكترثين بوعيده ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ لن نختارك بالإيمان والاتّباع ﴿ على ما جَاءَنا ﴾ من الله على يد موسى ﴿ مِنَ البَيِّنَاتِ ﴾ من المعجزات الظاهرة التي لا شبهة في حقيقتها ، وكان من استدلالهم أنهم قالوا : لو كان هذا سحراً فأين حبالنا وعصينا ؟ شاهدوا في رؤية الآيات أنوار الذات والصفات ، فهان عليهم عظائم البليات ، ومن آثر الله على الأشياء هان عليه ما يلقى في ذات الله ، وقد قال بعض الكبار : ليخفِّف ألم البلاء عنك ، علمُك أن الله هو المبتَلي ﴿ والّذي فَطَرنا ﴾ أي خلقنا وسائر المخلوقات وهو قسم محذوف الجواب ، لدلالة المذكور عليه أي وحق الذي فطرنا لا نؤثرك ﴿ فاقْضِ ما أَنْتَ قَاضٍ ﴾ أي فاصنع ما أنت صانعه ، أو احكم فينا ما أنت فيه

حاكم ، من القطع والصلب ﴿ إِنَّما تَقْضِي هَذِهِ الحيٰوةَ الدُّنْيا ﴾ أي إنما تصنع ماتهواه في هذه الحياة الدنيا ، فسيزول أمرك وسلطانك عن قريب ﴿ إِنَّا آمنّا بِرَبّنا لِيغْفِرَ لنا خَطَايَانا ﴾ من الكفر والمعاصي ولا يآخذنا بها في الدار الآخرة ﴿ ومَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه في معارضة موسى ، بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية ﴿ وَاللهُ خيْرٌ وَأَبْقىٰ ﴾ أي خير لنا منك ثواباً إن أطعناه ، وأدوم عذاباً منك إن عصيناه ، وفي التأويلات النجمية ﴿ وَاللهُ خَيْرٌ ﴾ في إيصال الخير ودفع الشر منك ﴿ وَأَبْقىٰ ﴾ خيره من خيرك وعذابه من عذابك ، قال الحسن : سبحان الله ، لقومُ كفار ، هم أشد الكافرين كفراً ، ثبت في قلوبهم الإيمان طرفة عين ، فلم يتعاظم عندهم أن قالوا (فَاقْضِ ما أَنْتَ قَاضٍ) في ذات الله ، والله إن أحدهم اليوم ليصحب القرآن ستين عاماً ، ثم أنه ليبيع دينه بثَمنٍ حقير ﴿ إِنَّهُ ﴾ الشأن وهو تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيراً وأبقى ﴿ مَنْ يأْتِ رَبّهُ مُجْرِماً ﴾ حال كونه متوغلاً في إجرامه ، منهمكاً فيه ، بأن يموت على الكفر والمعاصي ﴿ فَإِنّ لَهُ جَهَنّم لا يَموتُ فِيهَا ﴾ فينتهي عذابه ويستريح ، وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى ﴿ ولا يَحْيىٰ ﴾ حياة ينتفع بها ﴿ وَمنْ يأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات ﴿ قَدْ ﴾ أي وقد ﴿ عَمِلَ الصّالِحاتِ ﴾ وهي كل ما استقام من الأعمال ، بدليل العقل والنقل ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات ﴿ لَهُمُ ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة ﴿ الدَّرَجَاتُ العُلىٰ ﴾ جمع العليا تأنيث الأعلى ، أي المنازل الرفيعة في الجنة ، ﴿ جَنّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من الدرجات العلى ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ ﴾ تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيها ﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي المذكور من الثواب ﴿ جَزاءُ مَنْ تَزَكّىٰ ﴾ والمعنى جزاءُ من تطهرَّ من دنس الكفر والمعاصي ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة ، وفي الحديث (إن أهل الدرجات العُلَى ، ليَرَاهم مَنْ تحتَهم كما ترونَ الكوكبَ الدُرِيَّ في أفق السماء ، وإن أبا بكر وعمر منهم ، وأنعما)[1] أي هما أهل لهذا ﴿ وَلقدْ أَوْحَينا إِلىٰ مُوسىٰ ﴾ وبالله لقد أوحينا إليه بعد إجراء الآيات التسع ﴿ أَنْ ﴾ أي بأن ﴿ أَسْرِ بعبادِي ﴾ الإسراء سيرُ الليل أي سِرْ ببني إسرائيل من مصرَ ليلاً ، أمره بذلك لئلا يعوقهم أعوان فرعون ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ ﴾ فاتَّخذْ واعمَلْ لهم ﴿ طَرِيقاً ﴾ الطريق : السبيل الذي يُطرق بالأرجل ويُضرب ﴿ فِي البَحْرِ ﴾ المراد هنا بحر القلزم ﴿ يَبَساً ﴾ وهو صفة لطريقاً ﴿ لاَ تَخافُ دَرَكاً ﴾ حال كونك آمناً من أن يدرككم العدو ﴿ ولا تَخْشَىٰ ﴾ الغرق ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنودِهِ ﴾ أي ففعل ما أمر به من الإسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه ، فتبعهم

(١) الحديث أخرجه أبو داود ، والترمذي في المناقب ، وقال : حديث حسن ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٢٨ .

فرعون ومعه جنوده حتى لحقوهم وقت إشراق الشمس ، روي أن موسى خرج بهم أول الليل ، وكانوا ستمائة وسبعين ألفاً ، فأخبر فرعون بذلك فأتبعهم بعساكره ، وكانت مقدمته سبعمائة ألف ، فقصَّ أثَرهم فلحقهم ، بحيث تراءى الجمعان ، فعند ذلك ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر ، فانفلق على اثنى عشر فرقاً ، كل فرق كالطود العظيم ، وبقي الماء قائماً بين الطرق ، فعبر موسى بمن معه من الأسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده ﴿ **فَغَشِيَهُمْ** ﴾ سترهم وعلاهم ﴿ **مِنَ اليَمِّ** ﴾ أي بحر القلزم ﴿ **ما غَشِيَهُمْ** ﴾ أي الموج الهائل الذي لا يعلم كُنْهه إلا الله ﴿ **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ** ﴾ أي سلك بهم مسلكاً أداهم إلى الخيبة والخسران ، في الدنيا معاً ، حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الدنيوي ، المتصل بالعذاب الأخروي ﴿ **وَمَا هَدَىٰ** ﴾ أي ما أرشدهم إلى طريق الخير والرشاد وفيه نوع تهكم في قوله (**وَما أَهْدِيكُمْ إلاّ سبيلَ الرَّشادِ**) وأحسن وجوه الاتباع ، الإيمانُ ، والتوحيد ، لأن جميع الأنبياء متفقون على ذلك ، والمؤمن في حصن حفظِ الله تعالى ، من الأعداء الظاهرة والباطنة ، في الدنيا والآخرة ، حكي أن الحجاج أحضر « أنس بن مالك » وقال له : أريد أن أقتلك شرَّ قتلةٍ ، فقال أنس : لو علمتُ أنّ ذلك بيدك لعبدتك من دون الله تعالى ، فقال الحجاج : ولم ذلك ، قال لأن رسول الله عليه السلام علَّمني دعاءً مَنْ دَعَابِهِ في كل صباح ، لم يكن لأحد عليه سبيل ، وقد دعوت به في صباحي ، فقال الحجاج : علمنيه ، قال معاذ الله أن أعلمه لأحد وأنت حي ، فقال : خلُّوا سبيله ، فقيل له في ذلك : فقال رأيت على عاتقيه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما ، ولما حضرته الوفاة قال لخادمه : إن لك عليَّ حقاً أي الخدمة ، فعلَّمه الدعاء المذكور وقال له قل (بسم الله خيرِ الأسماء ، بسم الله الّذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء) ﴿ **يَا بَنِي اسْرائِيلَ** ﴾ أي قلنا لهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿ **قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ** ﴾ فرعون وقومه ، حيث كانوا يذبحون أبناءكم ويستحيوون نساءكم ، ويستخدمونكم في الأعمال الشاقة ﴿ **وَواعَدْناكُمْ جَانِبَ الطّورِ الأَيْمَنَ** ﴾ أي واعدناكم بوساطة نبيكم إتيان جانبه الأيمن ، نظراً إلى السالك من مصر إلى الشام ، وإلا فليس للجبل يمين ولا يسار ، أي إتيان موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه ﴿ **وَنَزّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ** ﴾ هو شيء كالطلِّ فيه حلاوة يسقط على الشجر ﴿ **والسَّلْوىٰ** ﴾ طائر يقال له السماني كان ينزل عليهم المنُّ وهم في التيه ، مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع ، ويبعث عليهم السماني فيذبح الرجل ما يكفيه ، والتيهُ : المفازةُ التي يتاه فيها ، وذلك حين أمروا أن يدخلوا مدينة الجبارين ، فأبوا ذلك ، فعاقبهم الله بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة ، ومَثَلُ ذلك كمثل الوالد المشفق ، يضرب ولده العاصي ليتأدب ، وهو يقطع عنه إحسانه ، فقد ابتلوا بالتيه ورزقوا بما لا تعب فيه ﴿ **كُلُوا** ﴾ أي وقلنا لكم كلوا ﴿ **مِنْ طَيِّبَاتِ ما رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ أي من لذائذه أو حلالاته وأصل الطيب ما تستلذه النفس ، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز ، وبقدر ما يجوز ، فإنه

متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وآجلاً ﴿ **ولاَ تَطْغَوْا فيهِ** ﴾ أي ولا تتجاوزوا الحدَّ فيما رزقناكم بالإخلال بشكره ، وبالسرف والبطر ﴿ **فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبي فَقَدْ هَوَىٰ** ﴾ أي تردَّى وهلَك ، وأصله أن يسقط من جبل فيهلك ومن بلاغات الزمخشري : من أرسل نفسه مع الهوى ، فقد هوى في أبعد الهوى ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ** ﴾ لستور ﴿ **لِمنْ تَابَ** ﴾ من الشرك والمعاصي التي من جملتها الطغيان فيما ذكر ﴿ **وآمَنَ** ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ **وَعَمِلَ صَالحاً** ﴾ مستقيماً عند الشرع والعقل ﴿ **ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾ أي استقام على الهدى ولزمه حتى الموت ، وهكذا شأن المهتدين أعلى وأجلُّ ، لأن الشأن كله في الهداية وهي مزلة اقدام الرجال ، قال ابن عطاء ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لمنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً** ﴾ أي رجع من طريق المخالفة إلى طريق الموافقة ، وصدَّق موعود الله فيه ، واتَّبع السنة ﴿ **ثُمَّ اهْتَدَىٰ** ﴾ أقام على ذلك لا يطلب سواه مسلكاً وطريقاً .

وفي التأويلات النجمية أي رجع من الطغيان إلى عبادة الرحمن ﴿ **وَعمِلَ صَالحاً** ﴾ بالعبودية .

اعلم أن التوبة بمنزلة الصابون ، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ كذلك التوبة تزيل الأوساخ الباطنة أعني الذنوب ، حكي أن رجلاً قال للدينوري : ما أصنع ؟ فكلما وقفت على باب المولى صرفتني البلوى ! فقال كن كالصبي مع أمه كلما ضربته يجزع بين يديها ، فلا يزال كذلك حتى تضمه إليها ، والتوبة على أقسام : فتوبة العوام من السيئات ، وتوبة الخواص من الزلَّات والغفلات ، وتوبة الأكابر من رؤية الحسنات والالتفات إلى الطاعات ، وشرائط التوبة ثلاثة : الندم بالقلب ، والاعتذار باللسان ، والإقلاع بالجوارح وهو الكف عن الذنب ﴿ **وَما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يامُوسىٰ** ﴾ أي وقلنا لموسى عند ابتداء موافاته الميقات أي شيء حملك على العجلة عن قومك ؟ وهم النقباء السبعون المختارون للخروج معه إلى الطور ، وذلك أنه سبقهم شوقاً إلى ميعاد الله ، وأمرهم أن يتبعوه كما في الجلالين ﴿ **قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَىٰ أَثَرِي** ﴾ يجيئون بعدي ﴿ **وَعَجِلْتُ** ﴾ بسبقي إياهم ﴿ **إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾ عني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك ، واعتنائي بالوفاء بعهدك ، وفي الآية إشارة إلى أنَّ العجلة ممدوحة في الدين قال تعالى (**وسَارِعوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ**) ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **فَإِنَّا قَدْ فَتنَّا قَوْمَكَ مِنْ بعْدِكَ** ﴾ ألقيناهم في فتنة من بعد خروجك من بينهم ، وابتليناهم في إيمانهم بخلق العجل ، وهم الذين خلفهم مع هارون على ساحل البحر ﴿ **وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** ﴾ حيث كان هو المدبر والداعي إلى عبادة العجل ، والسامري رجل من بني إسرائيل منسوب إلى قبيلة السامرة ، من قوم يعبدون البقر ، وحين دخل ديار بني إسرائيل أسلم معهم ، وفي قلبه حب عبادة البقر ، فابتلى الله بني إسرائيل ﴿ **فَرَجَعَ مُوسىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ** ﴾ أي بعد ما استوفى الأربعين وأخذ الألواح المكتوب فيها التوراة ﴿ **غَضْبَانَ أَسِفاً** ﴾ أي شديد

الغضب والحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل ﴿ **قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً** ﴾ أي وعدكم وعداً صادقاً متناهياً في الحسن ، فإنه تعالى وعدهم أن يعيطهم التوراة التي فيها هدى ونور ، ولا وعد أحسن من ذلك وأجمل ﴿ **أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العَهْدُ** ﴾ أي أوَعدكم ذلك فطال زمان الإنجاز ، فأخطأتم بسببه ﴿ **أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ** ﴾ عذاب عظيم ، وانتقام شديد كائن ﴿ **مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ من مالك أمركم بسبب عبادة ما هو مَثَلٌ في الغباوة والبلادة ﴿ **فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي** ﴾ أي وَعْدَكُم إياي بالثبات على ما أمرتكم به ، قيل : أنسيتم الوعد بطول العهد فأخلفتموه خطأ ، أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمداً ﴿ **قَالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ** ﴾ أي وعدنا إياك : الثبات على ما أمرتنا به ﴿ **بِمَلْكِنا** ﴾ أي بقدرتنا واختيارنا ، لكنْ غلبنا من كيد السامري ﴿ **وَلكِنّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ القَوْمِ** ﴾ أي أحمالاً من حليّ القبط التي استعرناها منهم ﴿ **فَقَذَفْنَاهَا** ﴾ أي طرحنا الحليَّ في النار رجاء للخلاص من ذنبها ﴿ **فكذَلكَ** ﴾ أي مثل ذلك القذف ﴿ **أَلقىٰ السَّامِرِيُّ** ﴾ أي ما معه من الحلى ، وقد كان أراهم أنه أيضاً يلقي الحلي ، وإنما كان الذي ألقاه التُّربة التي أخذها من أثر فرس جبريل ﴿ **فَأَخْرَجَ** ﴾ أي السامريُّ بسبب ذلك التراب ﴿ **لَهُمْ** ﴾ أي للقائلين ﴿ **عِجْلاً** ﴾ من تلك الحِليِّ المذابة وهو ولد البقرة ﴿ **جَسَداً** ﴾ من ذهب لا روح له ولا امتناع ﴿ **لَهُ خُوارٌ** ﴾ أي صوت عِجلٍ فسجدوا له ﴿ **فَقَالُوا** ﴾ أي السامري ومن افتتن به أول ما رأى ﴿ **هَذا** ﴾ العجل ﴿ **إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسىٰ فَنَسِيَ** ﴾ أي غفل عنه وذهب يطلبه في الصحراء والجبل ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ** ﴾ أي ألا يتفكرون فلا يعلمون ﴿ **أَنْ** ﴾ مخففة من الثقيلة أي أنه ﴿ **لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً** ﴾ كلاماً ولا يرد عليهم جواباً ! فكيف يتوهمون أنه إلٰه ؟ ﴿ **ولا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولا نَفْعاً** ﴾ أي لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرراً ، أو يجلب لهم نفعاً ﴿ **ولقدْ قَالَ لَهُمْ هَرونُ مِنْ قبْلُ** ﴾ أي وبالله لقد نصح لهم هارون ، وَنَبَّههم على كنه الأمر ، من قبل رجوع موسى إليهم قائلاً ﴿ **ياقوْمِ إِنّما فُتِنْتُمْ بهِ** ﴾ أي أوقعتم في الفتنة بالعجل ، وأُضللتم به بمعنى إنما فعل بكم الفتنة لا الإرشاد إلى الحق ﴿ **وَإِنّ رَبَّكُمُ** ﴾ المستحق للعبادة هو ﴿ **الرّحْمٰن** ﴾ المنعم بجميع النعم ، لا العجل ﴿ **فاتّبِعوني** ﴾ في الثبات على الدين ﴿ **وَأَطيعُوا أَمْري** ﴾ هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه ، وما أحسن هذا الوعظ ، فإنه زجرهم عن الباطل بقوله ﴿ **إِنّما فُتِنْتُمْ بهِ** ﴾ وأزال الشبهات أولاً وهو كإماطة الأذى عن الطريق ، ثم دعاهم إلى معرفة الله بقوله ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرّحْمنُ** ﴾ فإنها الأصل ، ثم إلى معرفة النبوة بقوله ﴿ **فاتّبِعوني** ﴾ ثم إلى الشرائع فقال ﴿ **وَأطيعوا أَمْري** ﴾ وفي هذا الوعظ شفقة على نفسه وعلى الخلق ، فلو لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر لخالف أمر الله وأمر موسى ، أوحى الله إلى يوشع : إني مهلكٌ من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ، وستين ألفاً من شرارهم ، فقال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال : إنهم لم يغضبوا لغضبي » وفي الحديث

(مَثَلُ المؤمنينَ في تَوَادّهم وتراحمِهِمْ وتَعَاطفِهم ، مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تَدَاعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهَرِ والحُمىً)[1] ﴿ قَالُوا ﴾ في جواب هارون ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عليْهِ ﴾ لن نزال على العجل وعبادته ﴿ عاكِفِينَ ﴾ مقيمين والعكوفُ : الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم قال في الكبير : رحمتهُ تعالى خلَّصتهم من آفات فرعون ، ثم إنهم لجهلهم قابلوه بالتقليد فقالوا ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ أي لا نقبل حجتك وإنما نقبل قول موسى ، قالوه بطريق التعلل والتسويف ، وقد دسوا تحت ذلك أنه عليه السلام لا يرجع بشيء تعويلاً على مقابلة السامريّ ، روي أنهم لما قالوه اعتزلهم هارون في اثنى عشر ألفاً ، وهم الذين لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح ، وكانوا يرقصون حول العجل ، قال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة ، فقال لهم ما قال ، وسمع منهم ما قالوا ﴿ قَالَ ﴾ أي قال له موسى وهو مغتاظٌ ، وقد أخذ بلحيته ورأسه ﴿ يَاهَرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ أخطأوا طريق عبودية الله بعبادة العجل ، وبلغوا من المكابرة إلى أن شافهوك بالمقابلة الشنعاء ﴿ أَنْ لا تَتَّبِعَنِ ﴾ أيْ أيُّ شيء منعك حين رؤيتك لضلالهم ، من أن تتبعني في الغضب لله والمقاتلة لمن كفر به ﴿ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ أي أخالفتني فعصيت أمري ﴿ قَالَ يَابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي ﴾ أصله يابن أمي أبدل الياءُ ألفاً ثم حذف الألف واكتفى بالفتحة لكثرة الاستعمال ، وخصَّ الأم بالإضافة استعظاماً لحقها ، وترقيقاً لقلبه واعتداداً لنسبها وإشارة إلى أنهما من بطن واحد ، روي أنه أخذ شعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله من شدة غيظه وغضبه لله ، وكان حديداً متصلباً في كل شيء ، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ، نفسَه ، ففعل ما فعل بمرأى من قومه أي بمكان يراه قومه ، ويرون ما يفعل بأخيه ﴿ إِنِي خَشِيْتُ ﴾ لو قاتلت بعضهم ببعض وتفرقوا ﴿ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ ﴾ برأيك وأراد بالتفريق ما يستتبعه القتال من تفريق لا يرجى بعده الاجتماع ﴿ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ لم تحفظ وصيتي في حسن الخلافة عليهم يريد به قوله (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ) قال بعض العارفين من أحسنَ خُلُقَه طابتْ عِيشته ، ودامتْ سلامتُه ، وتأكدتْ في النفوسِ محبتُه ، ومن ساءَ خُلُقه ، تنكدتْ عيشتُه ، ودامتْ بغضتُه ، ونفرتْ النفوس منه وقال الشاعر :

أَرَى الحِلْمَ في بعضِ المَوَاضِعِ ذِلَّةً * وفي بَعْضِها عِزّاً يُسَوِّدُ فاعِلَه

وقال أرسطو : بالتواضع تكثر المحبة ، وبالحلم تكثر الأنصار ، وبالرفق تستخدم القلوب ، وبالوفاء يدوم الإخاء ، وكان النبي عليه السلام لم يخرج عن حد اللين والرفق ولذا قال اللهُ في وصفه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه وأحمد في المسند ، الفتح الكبير ٣ / ١٣٢ .

﴿ قَالَ ﴾ موسى بعد اعتذار القوم ، واعتذار هارون ﴿ فما خَطْبُكَ يا سَامِرِيُّ ﴾ الخطبُ : الأمر العظيم والمعنى ما شأنك وما مطلوبك فيما فعلت ؟ وما الذي حَمَلَك عليه ؟ خاطبه بذلك ليظهر للناس بطلان كيده باعترافه ﴿ قَالَ ﴾ السامري مجيباً لموسى عليه السلام ﴿ بَصُرْتُ بما لَمْ يَبْصُرُوْا بهِ ﴾ أي رأيت ما لم يره القوم ، وقد كان رأى أن جبريل جاء راكب فرس ، وكان كلما وضع الفرسُ يديه أو رجليه على الطريق اليبس ، يخرج من تحته النبات في الحال ، فعرف أن له شأناً فأخذ من موطئه حفنة فحين رأيت قومك سألوك أن تجعل لهم إلهاً ، زينت لي نفسي ذلك ، فذلك قوله تعالى ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴾ أي من تربة موطىء فرس الملَك الذي أرسل إليك ﴿ فَنَبَذْتُها ﴾ أي طرحتها في الحلي المذابة فكان ما كان ﴿ وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لي نَفْسي ﴾ أي بشقاوتي ومحنتي ، والتسويلُ : تزيينُ النفس وتصويرُ القبيح منها بصورة الحسن ﴿ قَالَ ﴾ موسى مكافئاً له ﴿ فاذْهَبْ ﴾ أي من بين الناس ﴿ فَإنّ لَكَ في الحَيَاةِ ﴾ لك مدة حياتك عقوبة على ما فعلت ﴿ أَنْ تَقولَ لا مِسَاسَ ﴾ بالكسر أي لا أَمسُّ ولا أُمَسُّ بمعنى لا يمسني أحد ، ولا أمسُّ أحداً خوفاً من الحمى ، روي أنه كان إذا ماسَّ أحداً حُمَّ الماسُّ والممسوس جميعاً حمى شديدة ، فتحامى الناسَ وتحاموه ، وكان يصيح بأقصى صوته لا مِساس ، وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ، فصار وحيداً طريداً يهيم في البرية مع الوحش والسباع ﴿ وَإنّ لَكَ مَوْعِداً ﴾ أي وعداً في الآخرة بالعقاب على الشرك والافساد ﴿ لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾ أي لن يخلفك الله ذلك الوعد ، بل ينجزه بعدما عاقبك في الدنيا ﴿ وَانْظُرْ إلى إلَهِكَ ﴾ معبودك بزعمك ﴿ الّذي ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً ﴾ أصله ظللت فحذفت اللام الأولى تخفيفاً والمعنى صرت مقيماً على عبادته ﴿ لَنُحَرِّقَنّهُ ﴾ جواب قسم محذوف أي بالنار ﴿ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ في اليَمِّ نَسْفاً ﴾ أي لنذرينه في البحر رماداً بحيث لا يبقى منه عينٌ ولا أثر ﴿ إنّما إلهُكُمُ ﴾ أي معبودكم المستحق للعبادة ﴿ اللهُ الَّذي لاَ إلَهَ ﴾ في الوجود لشيء من الأشياء ﴿ إلاّ هُوَ ﴾ وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء بوجه من الوجوه ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي وسع علمه بكل ما كان وما يكون ، أي علم كل شيء وأحاط به ، واعلمْ أنَّ لكل مبطل ومفسد ، محقٌّ ومصلح ، ألا ترى أن فرعون أفسد الأرض بالكفر والتكذيب ، والظلم والمعاصي ، فأصلحها موسى بالإيمان والتصديق ، والعدل والطاعات ، ثم أن السامري أراد أن يكدِّر وجه مرآة الدين ، بما صنعه بيده العادية ، فجاء موسى فأزاله ، وهكذا الحال إلى يوم القيامة ﴿ كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ ﴾ والمعنى مثل ذلك القص البديع ، نقص عليك يا محمد بعض الحوادث الماضية ، الجارية على الأمم السالفة ، وتكثيراً لمعجزاتك ، وتذكيراً للمستبصرين من أمتك ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنّا ﴾ أي من عندنا ﴿ ذِكْراً ﴾ أي كتاباً شريفاً مطوياً على هذه الأقاصيص والأخبار ، حقيقاً بالتفكير والاعتبار ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ﴾ عن ذلك الذكر العظيم الشأنِ ، الجامع لوجوه السعادة

والنجاة ﴿ **فَإِنَّه** ﴾ أي المعرض عنه ﴿ **يَحْمِلُ يوْمَ القِيٰمةِ وِزْراً** ﴾ عقوبة ثقيلة على كفره وسائر ذنوبه ، وتسميتها وزراً تشبيهاً في ثقلها بالحمل الذي يفدح الحامل وينقض ظهره ﴿ **خَالِدينَ فيهِ** ﴾ أي ماكثين في الوزر لما أن الخلود في النار مما يتحقق حال اجتماع أهلها ﴿ **وَساءَ لَهُمْ يوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً** ﴾ أي بئس لهم حملاً وزرهم ، واعلم أن التوحيد أفضل العبادات ، وذكر الله أقرب القربات ، وقد وقَّت الله العبادات كلها كالصلاة ، والصيام ، والحج ، ونحوها بالمواقيت ، إلا الذكر ، فإنه أمر به على كل حال ، قياماً وقعوداً واضطجاعاً ، وحركة ، وسكوناً ، وفي كل زمان ليلاً ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، ولما سئل النبيُّ عليه السلام عن جلاء القلب قال (ذكر الله وتلاوة القرآن) . حكي أن موسى عليه السلام قال : إلهي علِّمْني شيئاً أذكركَ بهِ ، فقال الله تعالى : قل « لا إله إلا الله » فقال موسى : يارب كلُّ عبادك يقول ذلك ، فقال الله تعالى ياموسى : لو أن السموات والأرضين ، وضعت في كِفَّةِ ميزان ، ولا إله إلا الله في أخرى ، لمالت به تلك الكلمة ﴿ **يوْمَ يُنْفَخُ في الصُّوْرِ** ﴾ أي اذكر لقومك يامحمد يوم ينفخ إسرافيل في القرن الذي التقمه للنفخ ﴿ **وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي نخرج المتوغلين في الإجرام والآثام ، وهم الكفرة والمشركون من مقابرهم ونجمعهم ﴿ **زُرْقاً** ﴾ جمع أزرق ، والزرقة أسوء ألوان العين ، وأبغضها إلى العرب ، وقال الإمام : أي عمياً عيونهم لا نور لها ، لأن العين إذا زال نورها ازرقت ﴿ **يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ** ﴾ أي يقول بعضهم لبعض خفية من غير رفع صوت ، بسبب امتلاء صدورهم من الخوف والهوان ﴿ **إِنْ لَبِثْتُمْ** ﴾ أي أقمتم ومكثتم في الدنيا ﴿ **إِلاَّ عَشْراً** ﴾ عشر لَيال أو عشر ساعات ، استقصاراً لمدة لبثهم فيها لزوالها ، لأن أيام الراحة قليلة ﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بما يقُولُونَ** ﴾ وهو مدة لبثهم ﴿ **إِذْ يقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً** ﴾ أوفرهم رأياً وأوفاهم عقلاً ﴿ **إِنْ** ﴾ بمعنى النفي أي ما ﴿ **لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً** ﴾ ونسبة هذا القول لكونه أدلَّ على شدة الهول ، فعلى العاقل أن لا يضيع وقته بالصرف إلى الدنيا وما فيها من الشهوات ، فإنما الوقت نقدٌ نفيس ، لاينبغي أن يبذل لشيء حقير ، ومن المعلوم أن عيش الدنيا قصير ، وقدرها عند الله صغير ، أي إذا كانت لا تعدل عنده جناح بعوضة ، فمن عظَّم هذا الجناح كان أصغر منه ، قال عيسى عليه السلام : من ذا الذي يبني على موج البحر داراً ؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً ﴿ **وَيسْأَلونَكَ عَنِ الجِبالِ** ﴾ السؤال استدعاء معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة ، والمعنى : يسألونك عن مآل أمرها ، وقد سأل عنها رجل من ثقيف وقال يارسول الله : ما يُصنع بالجبال يوم القيامة ؟ ﴿ **فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً** ﴾ أي يقلعها من أصلها ويجعلها كالهباء المنثور ، أو يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرِّقها وتذروها ﴿ **فَيَذَرُها** ﴾ أي فيترك مقارها ومراكزها ﴿ **قَاعاً** ﴾ مكاناً خالياً والقاع : أرض سهلة مطمئنة ﴿ **صَفْصَفاً** ﴾ مستوياً كأن أجزاءها على صف واحد ، من كل جهة ﴿ **لا تَرىٰ فِيها** ﴾ أي في مقام الجبال لا بالبصر ولا بالبصيرة ﴿ **عِوَجاً** ﴾ أي عوجاً ما ، كأنه

﴿ وَلا أَمْتاً ﴾ ارتفاعاً يسيراً ، قال الزمخشري : الأمتُ النتوء اليسير وفي الجلالين ﴿ عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً ﴾ انخفاضاً وارتفاعاً ﴿ يومَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ نسفت الجبال ﴿ يَتَّبِعُوْنَ ﴾ أي الناس ﴿ الدّاعِيَ ﴾ الذي يدعوهم إلى الموقف والمحشر ، وهو إسرافيل عليه السلام ، يدعو الناس عند النفخة الثانية ، ويقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتفرقة ، واللحوم المتمزقة ، قوموا إلى عرض الرحمن ، فيقبلون من كل جانب إلى جهته ﴿ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يعوج له مدعو ولا يعدل عنه ، بل يستوي إليه من غير انحراف متبعاً لصوته﴿ وَخَشَعَتِ الأصْواتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ خفضت من شدة الفزع ، وخفتت لهيبته ﴿ فلا تَسْمَعُ إلاّ هَمْساً ﴾ صوتاً خفياً ، قال الإمام الغزالي في الدرة الفاخرة : ينفخ في الصور أي نفخة أولى فتتطاير الجبال ، وتتفجر الأنهار بعضها في بعض ، فيمتلىء عالم الهواء ماء ، وتنتثرُ الكواكب ، وتتغير الأرض والسماء ويموت الخَلْقُ ، فتخلوا الأرض والسماء ، ثم يخرج لهب من النار ، فيشتعل في البحار فتنشف ، ثم يهب من تحت العرش ريح لطيفة ، فتبرز الأرض ليس فيها جبل ولا عوج ولا أمت ، ثم يحيي الله تعالى إسرافيل فينفخ في صخرة ببيت المقدس فتخرج الأرواح من ثقب في الصور بعددها ، ويحلُّ كل روح في جسده ، حتى الوحش والطير ، فإذا هم بالساهرة أي بوجه الأرض بعد أن كانوا في بطنها وعن ابن عباس : أرض من فضة بيضاء لم يُعْصَ اللهُ عليها منذ خلقها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يقع ما ذكر من الأمور الهائلة ﴿ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ أحداً ، قال الراغب : الشفاعة الإنضمام إلى آخر ناصراً له وتكون ممن هو أعلى مرتبة ، إلى من هو أدنى ﴿ إلاّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرّحْمنُ ﴾ في أن يشفع له ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ أي ورضى لأجله قول الشافع في شأنه ، وأما من عداه فلا تكاد تنفعه لقوله تعالى (فما تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) ﴿ يعْلَمُ ﴾ الله تعالي ﴿ مَا بَيْنَ أيْدِيهِمْ ﴾ أي ما تقدمهم من الأحوال ﴿ وما خَلْفَهُمْ ﴾ وما بعدهم مِمَّا يستقبلون ﴿ ولا يُحيطُون بِهِ ﴾ تعالى ﴿ عِلْماً ﴾ لانه تعالى قديم ، وعلم المخلوقين لا يحيط بالقديم ، قال الواسطي : كيف يطلب أن يأخذ طريق الإحاطة ، وهو لا يحيط بنفسه علماً ، ولا بالسماء وهو يرى جوهرها ؟ وأنى تطيق نورَ الشمس أبصارُ الخفافيش ؟ ﴿ وَعَنتِ الوُجوهُ للحَيِّ القَيُّوْمِ ﴾ والمراد بها وجوه العصاة كقوله تعالى (سيئَت وُجوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) والمعنى ذلّت الوجوه يوم الحشر ، وخضعت للحي القيوم خضوع العناة أي الأسارى في يد ملك قهار ﴿ وقدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ﴾ منهم ﴿ ظُلْماً ﴾ خسر من أشرك بالله ، ولم يتب ﴿ ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ ﴾ أي بعض الصالحات ﴿ وهو مُؤْمِنٌ ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الطاعات ، وقبول الحسنات ﴿ فلا يَخَافُ ظُلْماً ﴾ أي منع ثواب مستحق بواجب الوعد ﴿ ولاَ هَضْماً ﴾ ولا كسراً منه ، بنقص الأجر ، فعليك بالحسنات والكف عن السيئات ، فإنَّ كلَّ أحد يجد ثمرة شجرة أعماله ، ويصل بأعماله إلى كل آماله ، وأفضل الأعمال أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال

سليمان بن عبد الملك لأبي حازم : عظني وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، نزِّهْ ربَّك وعظِّمه من أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، وقيل : علامة اتباع الهوى ، المسارعة إلى نوافل الخيرات ، والتكاسل عن القيام بحقوق الواجبات ، وهذا حال غالب الخلق ، إلا من عصمه الله ، ترى الواحد منهم يقوم بالأوراد الكثيرة ، والنوافل العديدة الثقيلة ، ولا يقوم بفرض واحد على وجهه ﴿ **وَكذلِكَ** ﴾ إشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات أي مثل ذلك الإنزال ﴿ **أَنْزَلْنَاهُ** ﴾ أي القرآن كله ﴿ **قُرْآناً عَرَبِيّاً** ﴾ يعني بلغة العرب ، ليفهموه ويقفوا على إعجازه ، وخروجه عن حدِّ كلام البشر ﴿ **وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ** ﴾ الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة ، والمعنى بيَّنا وكرَّرنا في القرآن بعض الوعيد ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ أي يتقون الكفر والمعاصي ﴿ **أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً** ﴾ أي يُجدِّد القرآن لهم إيقاظاً واعتباراً بهلاك من قبلهم ﴿ **فَتَعَالَى اللهُ** ﴾ استعظام له تعالى ولشؤونه التي يُصرِّفُ عليها عباده ، أي ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين ، في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ﴿ **المَلِكُ** ﴾ السلطان النافذ أمره ونهيه ، الحقيقُ بأن يُرجى وعده ويُخشى وعيده ﴿ **الحَقُّ** ﴾ في ملكوته وألوهيته ﴿ **ولا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ** ﴾ يُؤدَّى ويتم ويفرغ ﴿ **وَحْيُهُ** ﴾ إلقاؤه وقراءتُه ، وكان ﷺ إذا ألقى إليه جبريل الوحي ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقي والحفظ ، فنهي عن ذلك ، والمعنى لا تعجل بقراءة القرآن خوف النسيان والانفلات ، قبل أن يستتم جبريل قراءته ويفرغ من الإبلاغ والتلقين ، فإذا بلغ فاقرأه ﴿ **وَقُلْ** ﴾ أي في نفسك ﴿ **رَبِّ زِدْنِي عِلْماً** ﴾ أي فهماً لإدراك حقائقه ، فإنها غير متناهية ، وتنوراً وتخلُّقاً بخلقه ، وكان ابن مسعود إذا قرأها قال : اللهم زدني إيماناً ويقيناً بك ، وهو أجل التفاسير وأدقها ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ** ﴾ يقال عهد فلان إلى فلان بعهد أي ألقى إليه وأوصاه بحفظه ، والمعنى وبالله لقد أمرناه ووصيناه بأن لا يأكل من الشجرة ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ من قبل هذا الزمان ﴿ **فَنَسِيَ** ﴾ العهد ولم يهتم به حتى غفل عنه ، والنسيان بمعنى عدم الذكر ﴿ **وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** ﴾ أي لم نعلم له تصميم رأي ، وثبات قدم في الأمور ، اذ لو كان كذلك لما أزلَّه الشيطان ، ولما استطاع تغريره ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا** ﴾ أي واذكر يا محمد وقت قولنا ﴿ **لِلْمَلاَئِكَةِ** ﴾ أي لمن في الأرض والسماء منهم ﴿ **اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ سجود تحية وتكريم ، وفيه إشارة إلى استحقاقه لسجودهم لمعان جمة : منها لأنه خلق لأمرٍ عظيم ، وهو الخلافة فاستحق لسجودهم ، ومنها لأن الله تعالى جعله مجمعَ عالَمَيْ الخلق ، والأمر ، والملك والملكوت وأما الملائكة فقد خلقت من عالم الأمر والملكوت دون عالم الخلق ، ومنها لأنه خلق صورته في أحسن تقويم في حسن صورته فله الأفضلية في كلا الحالين فاستحق لسجودهم بالأفضلية ، ومنها لأنه شُرِّف ، ومنها لأنه اختص بعلم الأسماء كلها ، ومنها لأنه لما خلقه الله تعالى تجلى فيه بجميع صفاته فأَسْجَدَ الله تعالى ملائكته إياه تعظيماً وتكريماً ، وإعزازاً وإجلالاً ﴿ **فَسَجَدُوا** ﴾ تعظيماً لأمر

ربهم وامتثالاً له ﴿ **إلاّ إبليسَ** ﴾ فإنه لم يسجد ولم يطرح أرديةَ الكِبْرِ ، ولم يخفض جناحه ، بل تعظَّم وتكبَّر فأُبلس ، يقال : أبليس يئس وتحير ، ﴿ **أَبَى** ﴾ السجود وامتنع منه ﴿ **فَقُلْنا يا آدَمُ إنّ هَذا** ﴾ الحقير ﴿ **عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ** ﴾ حواء ، ولعداوته وجوه ، الأول أنه كان حسوداً فلما رأى نعم الله على آدم حسده فصار عدواً له ، والثاني أنه كان شاباً عالماً وإبليس شيخاً جاهلاً ، والشيخ الجاهل يكون أبداً عدوَّ الشاب العالم ، والثالث أنه مخلوق من النار ، وآدم من الماء والتراب ، وبين أصليهما عداوة فبقيت العداوة فيهما ﴿ **فلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجنّةِ** ﴾ أي لا يكونن سبباً لإخراجكما منها ، ﴿ **فَتَشْقَى** ﴾ جواب للنهي ، وإسناد الشقاء إليه لرعاية الفواصل ، ولأصالته ، والشقاوة خلاف السعادة ، وكما أن السعادة ضربان : سعادة دنيوية ، وسعادة أخروية ، ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب : سعادة نفسية ، وبدنية ، وخارجية ، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب ، وفي الشقاوة الأخروية قال تعالى (**فَمنِ اتّبَعَ هُدَايَ فلاَ يضِلُّ ولاَ يَشْقىٰ**) وفي الدنيوية (**فلا يُخْرِجَنّكُما مِنَ الجنّةِ فَتَشْقىٰ**) والمعنى لا تباشر أسباب الخروج فيحصل الشقاء ، وهو الكدُّ والتعب الدنيوي ، مثل الحرث ، والزرع ، والحصد ، والطحن ، والعجن ، والخبز ، ونحو ذلك مما لا يخلو الناس عنه في أمر تعيشهم ويؤيده ما بعد الآية ﴿ **إنّ لكَ أنْ لا تَجوعَ فِيها** ﴾ أي قلنا : إن حالك مادمت في الجنة عدم الجوع ، ولأنَّ النعم كلها حاضرة فيها ﴿ **ولا تَعْرىٰ** ﴾ من الثياب لأن الملبوسات كلها موجودة في الجنة ﴿ **وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا** ﴾ أي لا تعطش لأن العيون والأنهار جارية على الدوام ﴿ **ولا تَضْحىٰ** ﴾ أي لا يصيبك حرُّ الشمس في الجنة ، إذ لا شمس فيها ، وأهلها في ظل ممدود ﴿ **فَوَسْوَسَ إلَيْهِ الشَّيْطَانُ** ﴾ أي أنهى إلى آدم وسوسته ، والوسوسة : الصوتُ الخفيُّ ومنها وسواس الحلي لأصواتها ﴿ **قال** ﴾ أي إبليس ﴿ **يا آدَمُ هَلْ أدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الخُلْدِ** ﴾ أي شجرة من أكل منها خُلِّد ولم يمت أصلاً ؟ ﴿ **وَمُلْكٍ لاَ يَبْلىٰ** ﴾ أي لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه ﴿ **فأكلاَ مِنْها فَبَدتْ لَهُما سوْآتُهما** ﴾ أي ظهرت عوراتها ظهوراً بيّناً ، وكنى عن الفرج بالسوءة لأنه يسوء الإنسانَ انكشافه أي يغمه ويحزنه ، قال ابن عباس : إنها عريا عن النور الذي كان الله ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما ، قال الحصيري : بدت لهما ولم تبد لغيرهما ، لئلا يعلم الأغيار من عقوبة الجناية ما علما ، ولو بدت للأغيار لقال : بدتْ منهما ﴿ **وَطَفِقا** ﴾ شَرَعا يقال : طَفِق يفعل كذا أي أخذ وشرع ﴿ **يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ** ﴾ أي يلزقان الورق على سوْءآتهما للتستر ﴿ **وَعَصىٰ آدمُ رَبَّهُ** ﴾ بأكل الشجرة ، يُقال : عَصَى عصياناً إذا خرج عن الطاعة ﴿ **فَغَوىٰ** ﴾ ضلَّ عن مطلوبه الذي هو الخلود . واعلم أن المعصية فعل محرم وقع عن قصد إليه ، والزلةُ ليست معصية ممن صدرت عنه لأنها اسم فعل حرام غير مقصود في نفسه للفاعل ، ولكن وقع عن فعل مباح قصده ، وذكر في عصمة الأنبياء ليس معنى الزلةأنهم زلوا عن الحق إلى الباطل ، ولكن معناها أنهم زلوا عن

الأفضل إلى الفاضل ، وأنهم يعاتبون به لجلال قدرهم ، ومكانتهم من الله تعالى ، وآدم إنما ترك الانتهاء عن أكل الشجرة اجتهاداً لا بأن تعمد المعصية ، ووجه الاجتهاد أنه عليه السلام حمل النهي على شجرة بعينها دون جنسها ، وفي الكبير : فإن قيل دل هذا على الكبيرة ، لأن المعاصي اسم ذم فلا يليق إلا بصاحب الكبيرة ، ولأن الغواية ترادف الضلالة وتضاد الرشد ، ومثله لا يتناول إلا المنهمك في الفسق ؟ وأجيب بأن المعصية خلاف الأمر ، والأمر قد يكون بالمندوب يُقال : أمرته بشرب الدواء فعصاني ، فلم يبعد إطلاقه على آدم ، لا لأنه ترك الواجب ، بل لأنه ترك المندوب ، وليس لأحد أن يقول كان آدم عاصياً غاوياًلوجوه : الأول قال العتبي : يقال للرجل قطع ثوباً وخاطه قد قطعه وخاطه ، ولا يقال خياط إلا إذا عاود الفعل ، والزلة لم تصدر من آدم إلا مرة فلا تُطلق عليه . والثاني أن الزلة أن وقعت قبل النبوة لم يجز بعد أن شرَّفه الله تعالى بالرسالة إطلاقها عليه ، وإن كانت بعد النبوة فكذلك بعد أن تاب ، كما لا يقال للمسلم التائب ؛ إنه كافر ، أو زان ، أو شارب خمر ، اعتباراً بما قبل إسلامه وتوبته ، والثالث أن قولنا عاصٍ وغاوٍ ، يوهم عصيانه في الأكثر ، وغوايته عن معرفة الله ، والمراد في القصة ليس ذلك ، فلا يطلق دفعاً للوهم الفاسد ، والرابع يجوز من الله مالا يجوز من غيره ، كما يجوز للسيد في ولده وعبده عند المعصية قول مالا يجوز لغيره ، قال الحسن : والله ما عصى إلاّ بنسيان قال تعالى (**فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**)

﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ** ﴾ اصطفاه وقرَّبه بالحمل على التوبة والتوفيق لها ﴿ **فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ أي قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين (**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) ﴿ **وَهَدَىٰ** ﴾ أي إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة قال ابن عطاء : اسم العصيان مذموم ، إلا أن الاجتباه والاصطفاء منعا أن يلحق آدم اسم المذمة وفي الحديث (احتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدمُ أنتَ أبونا الذي خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة ، بخطيئتك التي خرجت بها منها ؟ فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه ، وخطَّ لك التوراة بيده ، أتلومني على أمر قدَّره الله علي ؟ قال ﷺ : فحج آدمُ موسى ، فحجَّ آدمُ موسى)[1] وزاد في بعض الروايات (قال آدمُ : بِكَمْ وجدت الله كتب لك التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدتَ فيها وعصى آدم ربه ؟ قال ﷺ فحج آدم موسى) ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى لآدم وحواء بعد صدور الزلة ﴿ **اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا** ﴾ أي انزلا من الجنة إلى الأرض ﴿ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ أي بعض أولادكم عدوّ لبعض ، في أمر المعاش ، كما عليه الناس من التحارب ، ولَمَّا اختص آدم منهم بالاجتباء والاصطفاء ، وَعَده بالاهتداء فقال ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ يا ذرية ادم وحواء ﴿ **مِنِّي هُدًى** ﴾ كتابٌ

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير والقدر ، ومسلم في كتاب القَدَر ، وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، وأحمد في المسند ٣ / ٢٤٨ .

ورسول ، والأصل فإن يأتيكم و « مَا » مزيدة لتأكيد معنى الشرط ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ ﴾ أي فمن آمن بالكتاب وصدَّق الرسول ﴿ فَلاَ يَضِلُّ ﴾ في الدنيا عن طريق الدين القويم مادام حياً ﴿ وَلاَ يَشْقَى ﴾ في الآخرة بالعقاب ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي الكتاب الذاكر لي ، والرسول الداعي إليّ ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ في الدنيا ﴿ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ ضيقاً مصدر وصف به مبالغة ، والمعنى معيشة ذات ضنك وذلك لأن نظره مقصور على أعراض الدنيا ، وهو يتهالك على ازديادها ﴿ وَنَحْشُرُهُ ﴾ أي المعرض ﴿ يَوْمَ القِيٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ فاقد البصر كما في قوله تعالى (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيٰمَةِ عَلَى وُجُوْهِهِمْ عُمْيَاً وَبُكْمَاً وَصُمَّاً) قال علي رضي الله عنه : من لم يعرف الله في الدنيا ، لا يعرفه في الآخرة ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ أي في الدنيا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت ﴿ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ أي آيات الكتاب ، أو دلائل القدرة وعلامات الوحدانيَّة ، واضحة نيرة بحيث لا تخفى على أحد ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أي عميت عنها وتركتها ، ترك المنسي الذي لا يذكر أصلاً ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي ومثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا ﴿ اليَوْمَ تُنْسىٰ ﴾ تترك في العمى والعذاب ، جزاء وفاقاً ، لكنْ لا أبداً كما قيل ، بل إلى ما شاء الله ، ثم يزيله عنه ليرى أهوال القيامة ، ويشاهد مقعده من النار ، ويكون ذلك له عذاباً فوق العذاب ، وكذلك البَكَمُ والصَّمَمُ يزيلها الله عنهم « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوْنَنَا » ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للجناية ﴿ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ في عصيانه ، والإسرافُ : مجاوزة الحد في كل فعل يفعله الإنسان ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّه ﴾ أي القرآن وسائر المعجزات بل كذبها وأعرض عنها ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ ﴾ وعذاب النار ﴿ أَشَدُّ ﴾ مما نعذبهم به في الدنيا من ضنك العيش ونحوه ﴿ وَأَبْقَى ﴾ وأدوم لعدم انقطاعه ، فمن أراد أن ينجو من عذاب الله ، وينال ثوابه ، فعليه أن يصبر على شدائد الدنيا في طاعة الله ، ويجتنب المعاصي وشهوات الدنيا ، فإن الجنة قد حُفَّت بالمكاره ، وحُفَّتِ النار بالشهوات ، كما ورد في الحديث الصحيح ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُوْنِ ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي ، والهداية بمعنى التَّبيين والمعنى أغفلوا فلم يبين لهم مآل أمرهم ، كثرة إهلاكنا للقرون الأولى ؟ ﴿ يَمْشُوْنَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ﴾ أي وهم في أمن وتقلب في ديارهم أو حال كونهم ماشيين في مساكنهم مارين بها إذا سافروا إلى الشام ، مشاهدين لآثار هلاكهم ، مع أن ذلك مما يوجب أن يهتدوا إلى الحق فيعتبروا ، لئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في الإهلاك بالعذاب ﴿ لآيَاتٍ ﴾ كثيرة واضحة الهداية ، ظاهرة الدلالة على الحق ﴿ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ جمع نُهْية بمعنى العقل أي لذوي العقول الناهية عن القبائح ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي ولولا الكلمة المتقدمة وهي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة لحكمة تقتضيه ﴿ لَكَانَ ﴾ عقاب جناياتهم ﴿ لِزَاماً ﴾ أي لازماً لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ عطفٌ على « كلمةٌ » والفصل لمراعاة فواصل الآي ، أي ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة لما تأخر عذابهم أصلاً ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُوْلُوْنَ ﴾ أي إذا كان الأمر على ما ذكر ، من أن تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال ، وأنه لازم لهم البتة ، فاصبر على ما يقولون فيك من كلمات

الكفر ، والنسبة إلى السحر والجنون ، إلى أن يُحكم فيهم ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي صلِّ حامداً لربك على هدايته وتوفيقه ﴿ قَبْلَ طُلُوْعِ الشَّمْسِ ﴾ والمراد صلاة الفجر ﴿ وَقَبْلَ غُرُوْبِهَا ﴾ يعني صلاتي الظهر والعصر لأنها قبل غروبها ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ أي بعض ساعاته جمع إنَى بالكسر والقصر ، كِمعَى وأمعاء ﴿ فَسَبِّحْ ﴾فصلِّ والمراد المغرب والعشاء ، وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهم بمزيد الفضل فإن القلب فيهما أجمع ، والنفس إلى الاستراحة أميل ، فتكون العبادة فيهما أشق ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ أمر بالتطوع أجزاء النهار أي سبح فيها وهي صلاة الفجر على التكرار لإرادة الاختصاص وقال الطبري : قبل غروبها وهي العصر ، ومن آناء الليل هي العشاء الآخرة ، وأطراف النهار الظهر والمغرب ، لأن الظهر في آخر الطرف الأول من النهار ، والمغرب في آخر الطرف الثاني فكأنها بين طرفين ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ أي سبح في هذه الأوقات رجاء أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك ، ويُسرُّ به قلبُك .

واعلم أن الاشتغال بالتسبيح استطاراً للنصر ، وأن الصلاة أعظمُ ترياقٍ لإزالة الألم ، ولذا كان النبي عليه السلام إذا حَزَبه أمر ، فزع إلى الصلاة ، وكان آخر ما أوصى به (الصلاة وما ملكت أيمانكم) والآية جامعةٌ لذكر الصلوات الخمس ، عن جرير بن عبد الله كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تُغْلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها فافعلوا ، ثم قرأ (وسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ)[1] الآية وفي الحديث (أثقلُ الصلاة على المنافقين ، صلاةُ العشاء ، والفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً)[2] يقال: من داوم على الصلوات الخمس في الجماعة ، يرفع الله عنه ضيق العيش ، وعذاب القبر ، ويُعطى كتابه بيمينه ، ويمر على الصراط كالبرق ، ويدخل الجنة بغير حساب ، ومن تَهَاون في الصلاة في الجماعة ، يرفع الله البركة من رزقه وكسبه ، وينزع سيما الصالحين من وجهه ، ولا يقبل منه سائر عمله ، ويكون بغيضاً في قلوب الناس ، ويقبض روحه عطشان جائعاً ، ويُبتلى في القبر بشدة المسألة ، وظلمة القبر ، وبشدة الحساب ، وغضب الرب ، وعقوبة الله في النار ﴿ وَلاَتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أصل المدِ الجرُّ ، وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب ، والمدُّ في المكروه ، نحو (وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ) (ونَمدُّ لَهُ مِنْ العَذابِ مَدّاً) والمعنى لا تطل النظر بها بطريق الرغبة والمحبة ، وقال بعضهم : مد النَّظر تطويله وأن لا يكاد يرده ، استحساناً للمنظور إليه وإعجاباً به ، وتمنياً أن له مثله ﴿ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ نفعنا به من زخارف الدنيا ، ومنه متاع البيت لما ينتفع به ، والإمتاع : الإلذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ، ويُسمع من الأصوات المطربة ، ويُشم من الريح الطيبة ، وغير ذلك من الملابس والمناكح ﴿ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ﴾ أي أصنافاً من الكفرة كالوثني ، والكتابي ، واليهودي ، والنصارى ﴿ زَهْرَةَ الحَيٰوةِ الدُّنْيَا ﴾ أي أعطينا من زينة الدنيا وبهجتها ونضارتها وحسنها ، وهذه تسلية للفقراء وتعزية لهم ، حيث مُنع خير الخلق عن

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وأصحاب السنن وأحمد وانظر الدر المنثور ٤ / ٣١٢ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٠ .

النظر إلى الدنيا على وجه الاستحسان ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي لنعاملهم معاملة من نبتليهم ، حتى يستوجبوا للعذاب ، بأن تزيد لهم النعمة فيزيدوا كفراً وطغياناً قال الحسن : لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة ، ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرفات ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ ﴾ أي ما ادخر لك في الآخرة من الثواب ﴿ خَيْرٌ ﴾ لك مما منحهم في الدنيا الفانية من زهرة الحياة ﴿ وَأَبْقَى ﴾ فإنه لا يكاد ينقطع أبداً ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ ﴾ يعني كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت أهل بيتك ، فإن الفقير ينبغي أن يستعين بها على فقره ، ولا يهتم بأمر المعيشة ، ولا يلتفت إلى جانب أهل الغنى ﴿ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ وداومْ أنت وهم عليها ، غير مشتغل بأمر المعاش ، فكان النبي ﷺ يذهب إلى فاطمة وعليّ كل صباح ، ويقول : (الصلاة) كان يفعل ذلك أشهراً ، الاصطبار مقام المجاهدة ،والصبر مقام المشاهدة ، قال ابن عطاء : أشد أنواع الصبر الاصطبار ، وهو السكون تحت موارد البلاء بالسر والقلب ، والصبر بالنفس لا غير ﴿ لاَنَسْأَلُكَ رِزْقاً ﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك إنما نسألك العبادة ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾ وإياهم ففرِّغْ بالكَ لأمر الآخرة ، فإن من كان في عمل الله كان الله في عمله ﴿ وَالعَاقِبَةُ ﴾ الحميدة وهي الجنة ﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي لأهل التقوى يعني لك ولمن صدَّقك ، لا لأهل الدنيا ، إذ هي مع الآخرة لا تجتمعان ﴿ وَقَالُوْا ﴾ يعني كفار قريش ﴿ لَوْلاَ ﴾ هلاَّ ﴿ يَأْتِينَا بِآيَةٍ ﴾ مما اقترحنا نحن ﴿ مِنْ رَبِّهِ ﴾ليكون علامة لنبوته ، بلغوا من العناد ، إلى حيثُ لم يعدُّوا ما شاهدوا من المعجزات ، ومن قبيل الآيات ، حتى اجترأوا على التفوه بهذه الكلمة العظيمة ﴿ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُوْلَى ﴾ والمعنى ألم يأتهم سائر الآيات ، ولم تأتهم خاصة بينة ما في الصحف الأولى ؟ أي قد أتاهم آية وهي أمُّ الآيات وأعظمها في باب الإعجاز ، وهو القرآن ، الذي فيه بيان ما في الكتب الإلهية ، وهو شاهد بحقية ما فيها وبصحة ما ينطق به من أنباء الأمم ، فاشتماله على زبدتها مع أن الآتي به أُمِّيٌّ إعجازٌ بيِّنٌ ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ بِعَذابٍ ﴾ مستأصل ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل إتيان البينة ﴿ لَقَالُوْا ﴾يوم القيامة احتجاجاً ﴿ رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا ﴾ في الدنيا ﴿ رَسُوْلاً ﴾ مع كتاب ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ التي أنزلت معه ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ ﴾ بذُلِّ الضلالة ، وعذاب القتل ، والسبي في الدنيا ﴿ وَنَخْزَى ﴾ بعذاب الآخرة ودخول النار اليوم ، والمعنى : ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها ، فانقطعت معذرتهم ، فعند ذلك اعترفوا وقالوا (بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ) ﴿ قُلْ ﴾ لأولئك الكفرة المتردين ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منا ومنكم ﴿ مُتَرَبِّصٌ ﴾ انتظار الأمر أو زواله ، منتظرٌ لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ، ورُوي أن المشركين قالوا : نتربص بمحمد حوادث الدهر ، فإذا مات تخلصنا ، فقال تعالى ﴿ فَتَرَبَّصُوْا ﴾ أنتم ﴿ فَسَتَعْلَمُوْنَ ﴾ عن قريب إذا جاء أمر الله ﴿ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ﴾ المستقيم ﴿ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ من الضلال أي أنحن أم أنتم ؟ كما قال بعضهم :

سَـــوْفَ تَرَى إِذَا انْجَلَى الغُبَـــارُ * أَفَرسٌ تَحْتَـــــكَ أم حِمَـــــارُ

وفي الآية تهديد شديدٌ للكفار ، على استمرارهم على التكذيب ، والكفر ، والطغيان .

« تمت سورة طه والحمد لله رب العالمين »

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ** ﴾ المراد بالناس المشركون المنكرون للبعث من أهل مكة ، كما يفصح عنه ما بعده من الغفلة والإعراض ، والمراد باقتراب حسابهم : اقترابُ الساعة والمعنى : دنا من مشركي قريش وقت محاسبة الله إياهم ، على أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب ﴿ **وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ** ﴾ أي والحال أنهم في غفلة تامة من الحساب والتأهب له ساهون عنه بالكلية ﴿ **مُعْرِضُوْنَ** ﴾ عن الإيمان والآيات ﴿ **مَايَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ** ﴾ من طائفة نازلة من القرآن ، تذكّرهم وتُنبِّهُم عن الغفلة ﴿ **مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ** ﴾ أي محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة ، كي يتعظوا ﴿ **إِلاَّ اسْتَمَعُوْهُ وَهُمْ يَلْعَبُوْنَ . لاَهِيَةً قُلُوْبُهُمْ** ﴾ اللهو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمُّه والمعنى : ما يأتيهم ذكرٌ من ربهم في حال من الأحوال ، إلا حال استماعهم إياه لاعبين مستهزئين به ، متشاغلين عن التأمل فيه ، لتناهي غفلتهم ، وفرطِ إعراضهم عن التفكر في العواقب ﴿ **وَأَسَرُّوْا النَّجْوَى** ﴾ النجوى من التناجي بمعنى القول بطريق المسارَّة ، أي السرَّ بين اثنين فصاعداً ومعنى إسرارها مع أنها لا تكون إلا سراً أنهم بالغوا في إخفائها ﴿ **الَّذِينَ ظَلَمُوْا** ﴾ أنفسهم بالشرك والمعصية ، بدل من واو « أسَرُّوا » منبئٌ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش ﴿ **هَلْ هَذَا** ﴾ هل بمعنى النفي أي ما محمد ﴿ **إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** ﴾ مساوٍ لكم في المأكل والمشرب ، وكل ما يحتاج إليه البشر ﴿ **أَفَتَأْتُوْنَ السِّحْرَ** ﴾ الهمزة للإنكار ﴿ **وَأَنْتُمْ تُبْصِرُوْنَ** ﴾ أي ما هذا إلا من جنسكم وما أتى به يعنون القرآن سحر ، أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه ، على وجه الإذعان والقبول ، وأنتم تعاينون أنه سحر ؟ قالوه لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا مَلَكاً ، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر أي الخدع والتخيلات التي لا حقيقة لها ﴿ **قَالَ** ﴾ الرسول عليه السلام بعد ظهور أمرهم وانكشاف سرهم ﴿ **رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ** ﴾ سراً كان أو جهراً ﴿ **فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ فضلاً عما أسرُّوا به ، وإذا علم القول عَلِمَ الفعل ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ** ﴾ أي المبالغ في العلم بالمسموعات والمعلومات ، فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم ﴿ **بَلْ قَالُوْا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ** ﴾ أي لم يقتصروا على أن يقولوا في حقه إنه سحر ، بل قالوا تخاليط أحلام أي أخلاط أحلام كاذبة رآها في المنام ﴿ **بَلِ افْتَرَاهُ** ﴾ من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل ثم قالوا ﴿ **بَلْ هُوَ شَاعِرٌ** ﴾ وما أتى به شعر ، يخيل إلى المسامع معاني لا حقيقة لها ، وهذا شأن المبطل المحجوج ، متحيرٌ لا يزال يتردد بين باطلٍ ، قال بعض المحققين : ولا يخفى ذلك على بسطاء العجم فضلاً عن بلغاء العرب ، وإنما رموه بالكذب ، فإن الشعر يعبر به عن الكذب ، ولكون الشعر مقر الكذب قيل : « أحسنُ الشِّعرِ أكْذبهُ » ﴿ **فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ** ﴾ أي إن لم يكن كما قلنا بل كان رسولاً من الله ، فليأتنا بآية جليلة ﴿ **كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُوْنَ** ﴾

أي مثل الآية التي أرسل بها الأولون ، كاليد والعصا ، وإحياء الموتى والناقة ونظائرها حتى نؤمن به ﴿ **مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ** ﴾ قبل مشركي مكة ﴿ **مِنْ قَرْيَةٍ** ﴾ أي من أهل قرية ﴿ **أَهْلَكْنَاهَا** ﴾ أي بإهلاك أهلها بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات ﴿ **أَفَهُمْ يُؤْمِنُوْنَ** ﴾ الهمزة لإنكار الوقوع والمعنى إنه لم تؤمن أمةٌ من الأمم المهلكة ، فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا إلى ما سئلوا مع كونهم أعتى منهم وأطغى ؟ كما قال تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً** ﴾ أي وما أرسلنا إلى الامم قبل إرسالك إلى أمتك ، إلا رجالاً مخصوصين من أفراد الجنس ﴿ **نُوْحِي إِلَيْهِمْ** ﴾ بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والأحكام ، كما نوحى إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي ، كما لا نفرق بينك وبينهم في البشرية ، فمالهم لا يفهمون أنك لست بدعاً من الرسل ﴿ **فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ** ﴾ أي إنْ كنتم لا تعلمون ما ذكر ، فاسألوا أيها الكفرة الجهلة أهل الكتاب ، الواقفين على أحوال الرسل السالفة لتزول شبهتكم ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ** ﴾ أي الرسل ﴿ **جَسَداً** ﴾ الجسد : جسم الإنسان ﴿ **لاَيَأْكُلُوْنَ الطَّعَامَ** ﴾ أي وما جعلناهم جسداً مستغنياً عن الأكل والشرب ، بل محتاجاً إلى ذلك ﴿ **وَمَا كَانُوْا خَالِدِينَ** ﴾ لأن مآل التحلل هو الفناء لا محالة ، والمعنى جعلناهم أجساداً متغذية صائرة إلى الموت ، لا ملائكة ولا أجساداً مستغنية عن الأغذية ، مصونة عن التحلل ﴿ **ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوَعْدَ** ﴾ أي ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم بإهلاك أعدائهم ﴿ **فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ** ﴾ من المؤمنين وغيرهم ، ممن تستدعى الحكمة إبقاءهم ﴿ **وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ** ﴾ أي المجاوزين للحدّ في الكفر والمعاصي ﴿ **لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ** ﴾ أي والله قد أنزلنا إليكم يا معشر قريش ﴿ **كِتَاباً** ﴾ عظيم الشأن نير البرهان ﴿ **فِيهِ ذِكْرُكُمْ** ﴾ موعظتكم بالوعد لترغبوا وتحذروا ، وليس بسحر ، ولا شعر ، ولا أضغاث أحلام ﴿ **أَفَلاَ تَعْقِلُوْنَ** ﴾ أي ألا تتفكرون فتعقلون أن الأمر كذلك وقال بعضهم : ﴿ **فِيهِ ذِكْرُكُمْ** ﴾ أي شرفكم لأنه بلغة العرب ، ففيه شرف عظيم لكم .

وفي الحديث (إنَّ للهِ أهلين من الناس ، أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصَّتُه)[1] وقد ورد في الحديث الصحيح (تركتكم على المحجة البيضاء ـ أي الطريق الواضح ـ ليلُها كنهارها ـ في الوضوح ـ وتركت لكم واعظين : ناطقاً ، وصامتاً ، فالناطق القرآن ، والصامت الموت) قال أبو هريرة رضي الله عنه : (من تعلم القرآن في صغره ، اختلط القرآن بلحمه ودمه ، ومن تعلمه في كبره فهو يتفلت منه) وجه الأول أنه في الصغر خالٍ عن الشواغل ، وما صادف قلباً خالياً يتمكن فيه كما قال الشاعر :

أتاني هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أعرِفَ الهَوَى * فَصَادَفَ قَلْباً خَالِياً فَتَمَكَّنَا

(١) أخرجه أحمد والنسائي والحاكم ، الفتح الكبير ١ / ٤٠٦ .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾كم خبرية للتكثير أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرىٰ المكذبين ، وفي لفظ القصم من الدلالة على قوة الغضب ، وشدة السخط مالا يخفى ﴿ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ أي أهلكناهم لأنهم كانوا ظالمين كافرين بآيات الله ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا ﴾ أي بعد إهلاكها والإنشاء هو : الاختراع والتكوين ، وإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود ﴿ قَوْماً آخَرِينَ ﴾ أي ليسوا منهم نسباً ولا ديناً ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا ﴾ أي أدركوا عذابنا الشديد إدراكاً تاماً﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا ﴾ من القرية ﴿ يَرْكُضُوْنَ ﴾ أي يهربون مسرعين راكضين دوابهم ، أو مشبهين بهم في إفراط الإسراع ﴿ لاَ تَرْكُضُوْا ﴾ أي قيل لهم لا تركضوا ﴿ وَارْجِعُوْا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أي إلى ما أعطيتموه من العيش الواسع ، والحال الطيبة ، حتى بطرتم فكفرتم ﴿ وَمَسَاكِنِكُمْ ﴾ التي تفتخرون بها﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُوْنَ ﴾ تقصدون من جهة الناس للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل كما هو عادة الناس مع عظمائهم في كل قرية لا يزالون يقطعون أمراً دونهم ﴿ قَالُوْا ﴾ لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب ﴿ يَاوَيْلَنَا ﴾ يا هلاك تعالَ فهذا وقتك ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي مستوجبين للعذاب ، وهو اعتراف منهم بالظلم وندمهم عليه حين لم ينفعهم ذلك ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ ﴾ أي كلمة الويل وهي يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي دعاؤهم ونداؤهم ، أي رددوها مرة بعد أخرى ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً ﴾ أي مثل الحصيدُ : وهو المحصود من الزرع والنبت ، ﴿ خَامِدِينَ ﴾ أي ميتين ، من خمدت النار إذا أطفىء لهيبها ، ودلت الآية على أن الظلم خراب العمران .

وفي الحديث (الظلم ظلماتٌ يوم القيامة)[1] وإذا أظلم القلب عن المعرفة والإخلاص خرب ، وعلامة خراب القلب ، عصيانُ الجوارح وتعديلها وميلها إلى ما فيه الهلاك ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ ﴾الخلق يستعمل في إبداع الشيء من غير أصل أي وما أبدعنا السماء التي هي كالقبة المضروبة ﴿ وَالأَرْضَ ﴾ التي هي كالفراش والبساط ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من أنواع الخلائق وأصناف العجائب حال كوننا ﴿ لاَعِبِينَ ﴾ أي عابثين بل لِحِكَمٍ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوَاً ﴾ أي ما يتلى به ويلعب وقول من قال أراد باللهو : المرأة والولد ، فتخصيصٌ ببعض ما هو من زينة الحياة الدنيا ﴿ لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي من جهة قدرتنا عليه أو مما نصطفيه ونختاره مما تشاء من خلقنا من الحور العين أو من غيرها ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ذلك ، لكن تستحيل إرادتناله لمنافاته الحكمة ، فيستحيل إتخاذنا له قطعاً ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ ﴾ أضرب على اتخاذ الولد ، أي بل شأننا أن نغلّب الحق على الباطل الذي من جملته اللهو والكفر ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ فيهلكه ويُعدمه والدَّمْغُ مالحق بجرم صلب كالماس أو الياقوت ،

(١) أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه بلفظ (اتقوا الظلم فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة) الحديث الفتح الكبير ١ / ٣٤ .

قذف به على جرم رخو أجوف من قزاز أو تراب ، فمحقه أو عدمه فالمستعار منه حسي والمستعار له عقلي أي ففيه تشبيه المعقول بالمحسوس ، عبَّر عن الصورة المعقولة بما يدل على الهيئة المحسوسة ، لتتمكن تلك الهيئة المعقولة في ذهن السامع فضلَ تمكّن ﴿ **فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** ﴾ أي ذاهب بالكلية ، والزهوقُ : ذهابُ الروح ، ويُقال : زهقت نفسه خرجت من الأسف ﴿ **وَلَكُمُ الوَيْلُ** ﴾ قال الأصمعي : ويل للقبح وقد يستعمل في التحسر ، وويح ترحم ، ومن قال « ويلٌ » وادٍ في جنهم ، فإنه لم يرد أن ويلاً في اللغة هو موضوع لهذا ،وإنما أن من قال الله تعالى فيه ذلك ، فقد استحقَّ مقراً من النار ، وثبت ذلك له ، والمعنى استقر لكم الهلاك أيها المشركون ﴿ **مِمَّا تَصِفُوْنَ** ﴾ أي من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل ، من المرأة ، والولد ، ووصف كلامه بأنه سحر ، وأضغاث أحلام ، ونحو ذلك من الأباطيل﴿ **وَلَهُ** ﴾ خاصة ﴿ **مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي جميع المخلوقات إيجاداً واستعباداً ﴿ **وَمَنْ عِنْدَهُ** ﴾ المراد الملائكة المكرمون ، المنزلون لكرامتهم عليه منزلة المقرَّبين عند الملوك ، على طريقة التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على أكثر خلقه ﴿ **لاَ يَسْتَكْبِرُوْنَ عِنْ عِبَادَتِهِ** ﴾ أي لا يتعظَّمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبيرة ، بل يتفاخرون بعبوديته ، فالبشر مع نهاية ضعفها أولى أن يطيعوه ﴿ **وَلاَ يَسْتَحْسِرُوْنَ** ﴾ ولاَ يَكِلُّون ولا يَعْيون ، يقال : حَسَر واستحسر إذا تعب وأعيى ﴿ **يُسَبِّحُوْنَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴾ أي ينزهونه في جميع الأوقات ، ويعظمونه ويمجدونه دائما ﴿ **لاَيَفْتُرُوْنَ** ﴾ لا يتخلل تسبيحهم فترة طرفة عين بفراغ منه أو بشغل آخر ، لأنهم يعيشون كما يعيش الإنسان بالنَّفس ، والحوت بالماء ، يعني أن التسبيح بالنسبة إلى الملائكة كالتنفس بالنسبة إلينا ، فكما أن قيامنا ، وقعودنا ، وتكلمنا من أفعالنا لا يشغلنا عن التنفس ، فكذلك الملائكة لا يشغلهم عن التسبيح شيء من أفعالهم ، يقول الفقير : سمعت من حضرة شيخي وهو يقول : لا تتيسر حلاوة العبودية إلا بعد المعرفة التامة بالله تعالى ، والشهود الكامل له ، وذلك لأن لذة المناجاة مع السلطان ، لا يصل إليها السائس ، فعبادة أهل الحجاب لا تخلو عن فتور وكُلْفة ، بخلاف أهل المعرفة كالرسل والأنبياء ، فإن العبادة صارت لهم كالعادة لغيرهم ، في سهولة المأخذ والقيام بها

﴿ **أَمِ اتَّخَذُوْا آلِهَةً** ﴾ أم منقطعة مقدرة ببل مع الهمزة والضمير للمشركين ، والمراد بالآلهة الأصنام ﴿ **مِنَ الأَرْضِ** ﴾ ابتدأوا اتخاذها من الأرض بأن صنعوها ونحتوها من بعض الحجارة ، ﴿ **هُمْ يُنْشِرُوْنَ** ﴾ يُقال : أنشره الله : أحياه ، أي يبعثون الموتى ؟ والتشنيع أنهم مع حقارتهم وجماديتهم يثبتونه للأصنام ، حيث ادعوا لها الإنشار ضرورة أنه من الخصائص الآلهية حتماً[1] ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا**

(١) توضيح معنى الآية هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض تقدر على إحياء الموتى ؟ كلاً بل اتخذوا آلهة جمادات ، لا تتصف بالقدرة على شيء ، فهي عاجزة عن البعث والإحياء ، فكيف جعلوها آلهة ؟

﴿ آلِهَةً إِلاَّ اللهُ ﴾ تنزيه لنفسه عن الشريك بالنظر العقلي ، وإلاَّ بمعنى غير ، أي لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله ، كما هو اعتقادهم الباطل ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي لخرجتا عن هذا النظام المشاهد ، لأن كل أمر بين الاثنين لا يجري على نظام واحد ، والرعيَّة تَفسد بتدبير المِلكَين ، وحيث انتفى التالي تعين انتفاء المقدَّم ﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُوْنَ ﴾ أي نزِّهوه تنزيهاً عما يصفونه به من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد ، لأن ذلك من صفات الأجسام ، ولو كان الله جسماً لم يقدر على خلق العالم وتدبير أمره ، على أن الجسم متحيز ، وذلك من أمارات الحدوث ، وواجب الوجود متعالٍ عن ذلك .

قال بعض الكبار : افترى الثَّنويَّةُ أعني القائلين بإلهين اثنين ، أحدهما مصدر للخيرات ، والآخرمصدر للشرور ، فزعموا أن للعالم إلهين وهو باطل بالطريق الكشفي والبرهاني ، ليس لجسد قلبان ، ولا لبدن نفسان ، ولا للسماء شمسان ، شهد الأخيار بواحد وهو منتهى الأعيان ، ولو حصل شمسان لانطمست الأركان ، أبى النظام شمساً أخرى ، فكيف لا يأبى إلهاً آخر فحيث لم تجد شمساً أخرىعرفنا أنه ليس في الوجود إله آخر .

﴿ لاَ يُسْأَلُ ﴾ الله تعالى ﴿ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ ويحكم ﴿ وَهُمْ ﴾ أي العباد ﴿ يُسْأَلُوْنَ ﴾ عما يفعلون نقيراً وقطميراً ، إنما لا يُسأل عما يفعل ، لأنه ربّ مالك علاَّم ، لا نهاية لعلمه ، وكلٌّ من سِواهُ مربوب مملوك جاهل ، لا يعلم شيأ إلا بتعليم ، فليس للمملوك الجاهل ، أن يعترض على سيده ، العليم بكل شيء فيما يفعل ، ويقول : لم فعلت ؟ وهلاّ فعلتَ مثلاً ؟ وهم يُسألون لأنهم مملوكون مستعبدون ، ومخلوقون خطَّاؤن فيقال لهم في كل شيء فعلوه : لِمَ فعلتم ؟ واعلم أن الاعتراض شؤم يسخط الرب ، ويوجب عقابه وسَخَطه .

وبشؤم الإعتِراض على الله في فعله ، لُعن إبليس وكان من مردة الكافرين ، فإنه تعالى لما أمره بالسجود قال (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً) ؟ وبالاعتراض على الله والتعمق في الخوض في صفاته ، هلك الهالكون من أهل الأهواء ، وتعمَّقوا فيما لم يتعمق فيه أصحاب رسول اللهوالتابعون ، ومن تبعهم من أهل الحق ، وتكلفوا الخوض فيه فوقعوا في الشبهات ، فضلُّوا وأضلُّوا ، وقد اتَّفقت كلمة أهل الحق ، على أنَّ الاعتراض على الله الملك الحق ، في فعله وما يحدثه في خلقه كفرٌ ، فلا يجترىء عليه إلا كافر وجاهل ضال ، وكذا الإعتراض على النبي عليه السلام فإنه إنما يقول عن الحق ، لا عن الهوى ، فالإعتراض عليه اعتراض على الحق وفيه الهلاك .

حكي عن بعض الكبار أنه قال : كنت في مجلس بعض الغافلين ، فتكلَّم إلى أن قال لا مَخْلص لأحدٍ من الهوى ، ولوكان فلاناً ، عنىَ به النبي عليه السلام من حيث قال (حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث :

الطيبُ ، والنساءُ ، وجُعِلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة)[1] فقلتُ : أما تستحي من الله تعالى ؟ فإنه ماقال : أحببتُ بل قال : حُبِّب ، فكيف يُلام العبد على أمرٍ من عند الله ؟ ثم حصل لي همٌّ وغمٌّ ، فرأيتُ النبي عليه السلام في المنام ، فقال : لا تغتمَّ فقد كفيناك أمره ، ثم سمعتُ أنه قُتِل ، قال الفقهاء : من عيَّره عليه السلام بالميل إلى نسائه قاصداً به النقص ، يُقتل حَدّاً ، قاتله الله تعالى ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوْا مِنْ دُوْنِهِ آلِهَةً** ﴾ الهمزة لإنكار الاتخاذ ، واستقباحه ، واستعظامه والمعنى بل اتخذوا متجاوزين إياه تعالى آلهة ، مع ظهور خلوهم عن خواص الألوهية بالكلية ؟ ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم بطريق الإلزام وإلقاء الحجر ﴿ **هَاتُوْا** ﴾ أي أعطوني ﴿ **بُرْهَانَكُمْ** ﴾ حجتكم على ما تدعون من جهة العقل والنقل ؟ فإنه لا صحة لقول لا دليل عليه ، لاسيما في مثل هذا الشأن الخطير ، والبرهان : بالضم الحجة ، وبرْهن عليه أقام البرهان ﴿ **هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي** ﴾ هذا إشارة إلى الكتب الثلاثة « القرآن ، والتوراة ، والإنجيل » فالقرآن ذكرٌ وعظة إلى يوم القيامة ، والتوراة والإنجيل ذكر وعظة للأمم المتقدمة ، يعني راجعوا هذه الكتب الثلاثة ، هل تجدون في واحد منها غير الأمر بالتوحيد ؟ فهذا برهاني قد أقمته ، فأقيموا أيضاً برهانكم ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الحَقَّ** ﴾ أي لا يفهمون الحق ، ولا يميزون بينه وبين الباطل ، فلا تَنْجع فيهم المحاجة ، لأن عندهم ما هو أصل الفساد كله ، وهو الجهل وعدم التمييز بين الحق والباطل ، فمن ثمة جاء الإعراض ، ومن هناك ورد الإنكار ﴿ **فَهُمْ** ﴾ لأجل ذلك ﴿ **مُعْرِضُوْنَ** ﴾ مستمرون على الإعراض عن التوحيد واتباع الرسول ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُوْلٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ** ﴾ أي الشأن ﴿ **لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُوْنِ** ﴾ أي وحدوني ولا تشركوا بي ، وفيه إشارة إلى أن الحكمة في بعثة جميع الأنبياء والرسل ، مقصورة على هاتين المصلحتين ، وهما : إثبات وحدانية الله تعالى ، وتعبده بالإخلاص ، لتكون فائدة المصلحتين راجعة إلى العباد لا إلى الله تعالى كما قال تعالى : (**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُوْنِ**) ﴿ **وَقَالُوْا** ﴾ أي المشركون وهم حيٌّ من خزاعة ﴿ **اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً** ﴾ من الملائكة ، وادعوا أنهم بنات الله ، وأنه تعالى صاهر سروات الجن فولدت له الملائكة ﴿ **سُبْحَانَهُ** ﴾ أي تنزه بالذات تنزُّهه اللائقَ به ، ويجوز أن يكون تعجباً من كلمتهم الحمقاء ، أي ما أبعد الخالق وما أعلاه ، ممَّا يضاف إليه من اتخاذ الولد والصاحبة والشريك ؟ ﴿ **بَلْ** ﴾ أي ليست الملائكة كما قالوا بل هم ﴿ **عِبَادٌ** ﴾ مخلوقون له تعالى ﴿ **مُكْرَمُوْنَ** ﴾ مقرَّبون عنده ، مفضَّلون على كثير من العباد ، والمخلوقية تنافي الولادة ، لأنها تقتضي المناسبة ، فليسوا بأولاد لله تعالى كما زعموا ﴿ **لاَ يَسْبِقُوْنَهُ بِالْقَوْلِ** ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى ويأمرهم به ، لكمال انقيادهم وطاعتهم ، كالعبيد المؤدَّبين

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ، والنسائي ، والحاكم ، والبيهقي ، وانظر الحديث في الفتح الكبير ٢ / ٦٨ .

﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُوْنَ ﴾ أي كما أنهم يقولون بأمره ، كذلك يعملون بأمره لا بغيره أصلاً ﴿ يَعْلَمُ ﴾ الله تعالى أي لا يخفي عليه ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ما قدَّموا من الأقوال والأعمال ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وما أخَّروا منها ﴿ وَلاَيَشْفَعُوْنَ ﴾ الشفع ضم الشيء إلى مثله ، والشفاعة : الانضمامُ إلى آخر ، ناصراً له وسائلاً عنه ، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى مرتبة ، إلى من هو أدنى ، ومنه الشفاعة في القيامة ﴿ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ أن يشفع له من أهل الإيمان مهابة منه تعالى قال ابن عباس : إلاَّ لمن قال : « لا إله إلا الله » فلا دليل فيه للمعتزلة في نفي الشفاعة عن أصحاب الكبائر ﴿ وَهُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ مِنْ خَشْيَتِهِ ﴾ أي من خشيتهم منه تعالى ﴿ مُشْفِقُوْنَ ﴾ مرتعدون والاشفاق عناية مختلطةبخوفٍ ، لأن المشفق يحبُّ المشفَق عليه ويخاف ما يلحقه ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ ﴾ أي من الملائكة ﴿ إِنِّيَ إِلَـهٌ مِنْ دُوْنِهِ ﴾ أي متجاوزاً إياه تعالى ﴿ فَذٰلِكَ ﴾ الذي فُرض قولُه ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ كسائر المجرمين ، ولا يغني عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية ، وأفعالهم المرضية ، وهو تهديد للمشركين بتهديد مدّعي الربوبية ،ليمتنعوا عن شركهم ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الفظيع ، نجزي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها ، ويتعدون أطوارهم بالإشراك وإدعاء الإلهية ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوْا ﴾ الهمزة لإنكار نفي الرؤية والمعنى ألم يتفكروا ويستفسروا من العلماء ، ويطالعوا الكتب ويعلموا ﴿ أَنَّ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً ﴾ ملتزقتين ومنضمتين ، لافضاء بينهما ولا فرج ، فإن الرتق هو الضمُّ والالتحام ، خِلقةً كان أو صنعة ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ أي ففصلنا وفرقنا إحداهما عن الأخرى ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ خلقنا ﴿ مِنَ الْمَاءِ ﴾ الماء جسمٌ سيَّالٌ قد أحاط حول الأرض ﴿ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ ﴾ أي كل حيوان عرف جعلنا مبدأ كل شيء حي من هذا الجنس ، أي جنس الماء ،وهو النطفة كما في قوله تعالى (وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) أي كل فرد من أفراد الدواب من نطفة معينة هي نطفة أبيه المختصة به ، أو كل نوع من أنواع الدواب متنوع من أنواع المياه ، وقال بعضهم : يدخلُ في الآية النباتُ والشجر لنائها بالماء ، والحياة قد تطلق على القوة النامية الموجودة في النبات والحيوان كما في قوله تعالى (يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) ﴿ أَفَلاَ يُؤْمِنُوْنَ ﴾ أي أفلا يصدِّقون بقدرة الله جلَّ وعلا ؟ ويشير بقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شيءٍ حَيٍ) إلى أنه تعالى خلق حياة كل ذي حياة من الحيوانات من الماء الذي هو أصلٌ لجميع المخلوقات الحيَّة ، من إنسانٍ ، وحيوانٍ ، ونبات ، فكلُّ هذه الموجودات التي فيها حياة ، تحتاج إلى الماء في نموِّها وبقائها ، والحيوانات والدواب كذلك كما قال تعالى (وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَةٍ مِنْ مَاءٍ) وكان ذلك كله بمشهد الأرواح ، واعلم أن المراد من رؤية الآيات الانتقال منها إلى رؤية صانعها رؤية قلبية ، وهي حقيقة الإيمان ، حُكي أن علياً رضي الله عنه صعد المنبر يوماً ، وقال سلوني فإن ما بين الجوانح علم جَمٌّ ، هذا لُعابُ رسول اللهفي فمي ، وكان في المجلس رجل يماني ، فقال :

ادَّعى هذا الرجل دعوى عريضة لأفضحنَّه ، فقام وقال : أسأل ؟ قال : سلْ تفقهاً ولا تسأل تعنتاً ، فقال : أنت حملتني على ذلك ، هل رأيت ربك يا عليّ ؟ قال : ما كنتُ أعبد رباً لم أره ؟ فقال : كيف رأيت ؟ قال : لم تره العيون بمشاهدة العيان ، ولكن رأته القلوب بحقيقة الإيمان ، ربي أحد لا شريك له ، أحد لا ثاني له ، فردٌ لامِثْلَ له ، لا يُدرَك بالحواس ، ولا يقاس بالقياس ، فسقط اليماني مغشياً عليه ، فلما أفاق قال : عاهدتُ الله أن لا أسأل تعنتاً .

﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ** ﴾ الأرض جسمٌ غليظ أغلظ ما يكون من الأجسام ﴿ **رَوَاسِيَ** ﴾ جبالاً ثوابت ، جمع راسي ، من رسا إذا ثبت ورسخ ﴿ **أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ** ﴾ الميد اضطراب الشيء العظيم ، يقال ماد يميد ميداً إذا تحرك ، والمعنى كراهة أن تميل بهم الأرض وتضطرب ، قال ابن عباس : إن الأرض بسطت على وجه الماء ، فكانت تميد بأهلها كما تميد السفينة على الماء ، فأرساها الله بالجبال الثوابت ، كما تُرْسَى السفينة بالمرساة ﴿ **وَجَعَلْنَا فِيهَا** ﴾ في الأرض ﴿ **فِجَاجاً سُبُلاً** ﴾ أي طرقاً مسلوكة لأن السبيل من الطرق ، ما هو معتاد السلوك ، والفجُّ : الشقُّ بين الجبلين ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُوْنَ** ﴾ إرادة أن يهتدوا إلى مصالحهم في البلاد البعيدة ﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً** ﴾ سميت سقفاً لأنها للأرض كالسقف ﴿ **مَحْفُوْظاً** ﴾ من الوقوع مع كونها بغير عمد ،ومن الفساد والإنحلال ، أو من استراق السمع بالشهب ﴿ **وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا** ﴾ أي أدلتها الواضحة التي جعلها الله علامات نيّرة على وجوده ، ووحدته ، وكمال صنعه ،وعظيم قدرته ، مثل الشمس ، والقمر ، والنجوم ، وغيرها ﴿ **مُعْرِضُوْنَ** ﴾ لايتدبرون فيها فيقفون على ما هم عليه من الكفر والضلال فانظروا إلى آثار رحمته ، وتفكروا في عجائب صنعه ، وبدائع قدرته ، حتى تستخرجوا الدُّرَّ مِنْ بحار معرفته ، حُكِيَ أن داود عليه السلام دخل في محرابه فرأى دودة صغيرة ، فتفكر في خلقها وقال ما يعبأ الله بخلق هذه ؟ فأنطقها الله تعالى فقالت يا داود : أتعجبك نفسك ؟ أنا على ما أنا أذكر الله وأشكره أكثر مما آتاك الله ! فالمقصود برؤية الآيات ذكر الله تعالى عند كل شيء ، وهي من أوصاف المؤمنين الكاملين ، فعلى العاقل أن يعقل نفسه عن هواها ، ويتفكر في هداها ، ويختار للإرشاد من هو أعرف بطريق العقل والنقل .

﴿ **وَهُوَ** ﴾ وحده ﴿ **الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ** ﴾ الذي هو ظل الأرض ﴿ **وَالنَّهَارَ** ﴾ الذي هو ضوء الشمس ﴿ **وَالشَّمْسَ** ﴾ الذي هو كوكب مضيء نهاري ﴿ **وَالْقَمَرَ** ﴾ الذي هو كوكب مضيء ليلي ، أي الله تعالىأوجد هذه الأشياء ، وأخرجها من العدم إلى الوجود دون غيره ، فله القدرة الكاملة والحكمة الباهرة ﴿ **كُلٌّ** ﴾ أي كل واحد من الشمس والقمر ﴿ **فِي فَلَكٍ يَسْبَحُوْنَ** ﴾ أي يجرون في سطح الفلك ، كالسبح في الماء ، فإن السبح المر السريع في الماء ، أو في الهواء ، واستعير لمر المنجوم في الفلك والذي يدل عليه لفظ القرآن أن تكون الأفلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها ، كما تسبح السمكة في

الماء ، وأعلم أنه لو خلق السماء ولم يخلق الشمس والقمر ، ليظهر بها الليل والنهار ، وسائر المنافع بتعاقب الحر والبرد ، لم تتكامل نعمه على عباده ، وإنما تتكامل بحركاتها في أفلاكها ، ولهذا (**كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُوْنَ**) ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ** ﴾ أي وما جعلنا لفرد من أفراد الإنسان ، من قبلك يا محمد ، دوام البقاء في الدنيا ، أي ليس من سنتنا أن نخلد آدمياً في الدنيا ، وإن كنا قادرين على تخليده ، فلا أحد إلا وهو عرضة للموت ، فإذا كان الأمر كذلك ﴿ **أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُوْنَ** ﴾ في الدنيا ، لا بل أنت وهم ميتون ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُوْنَ** ﴾ والهمزة في المعنى داخلة على الخلود ، كأنه قيل : فإذا متَّ أيبقى هؤلاء المشركون حتى يشمتون بموتك ؟ قال الشاعر :

فقلْ للشَّامِتينَ بِنَا أفيقُوا ✻ سَيَلْقَى الشَّامِتُوْنَ كَمَا لَقِينَا

ذكر في صحيح المستدرك من أنه عليه السلام لما توفي عزتهم الملائكة بقولهم : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، إن في الله عزاء في كل مصيبة ، وخَلَفاً من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإنما المحروم من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ، ودخل رجل أشهب اللحية جسيم صبيح ، فتخطى رقابهم فبكى ، ثم التفت إلى الصحابة فقال : إن في الله عزاء في كل مصيبة ، وعوضاً عن كل فائت ، وخَلَفاً من كل هالك ، فإلى الله فأنيبوا ، وإلى الله فارغبوا ، ونظره إليكم في البلاء فانظروا ، فإنما المصاب من لم يُجْبَر ، وانصرف ، فقال أبو بكر وعلي رضي الله عنهما لعله الخضر عليه السلام ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ والمراد النفس الناطقة التي هي الروح الإنساني ، وموتها عبارة عن مفارقتها جسدها ، أي ذائقة مرارة المفارقة ، والذوق لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، لأن الموت ليس من المطعوم حتى يُذاق ، بل الذوق إدراك خاص ، فيجوز جعله مجازاً عن أصل الإدراك ، والموتُ صفة وجودية خلقت ضداً للحياة ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : استأذن أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ، وقد مات وسُجِّي عليه الثوب ، فكشف عن وجهه فقبَّله وقال صدق الله العظيم (**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُوْنَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**) ثم خرج إلى الناس وخطب ، وقال في خطبته : مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قدْ مات ، ومن كان يعبد الله فإن اللهَ حيٌّ لا يموت ، ثم قرأ (**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**) الآية ، فكأنَّ الناس لم يقرءوها قبل ﴿ **وَنَبْلُوْكُمْ** ﴾ أي نعاملكم أيها الناس معاملة من يبلوكم ويختبركم ﴿ **بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ** ﴾ بالبلاء والنعم كالفقر والألم ، والشدة والغنى ، واللذة والسرور ، هل تصبرون وتشكرون أولا ؟ ﴿ **فِتْنَةً** ﴾ أي بلاءً واختباراً ، ويسمَّى التكليف بلاء من أوجه : الأول أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان ، فصارت من هذا الوجه بلاء . والثاني أنها اختبارات . والثالث أن اختبار الله تعالى تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار فصارت المحنة ، والمحنة جميعاً بلاء فالمحنة مقتضية للصبر ، والمنحة

أعظم البلاءين وبهذا النظر قال عمر رضي الله عنه « بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نشكر » ولهذا قال أمير المؤمنين رضي الله عنه « من وسع عليه في دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله » ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُوْنَ ﴾ لا إلى غيرنا لا استقلالاً ، ولا اشتراكاً ، فنجازيكم على ما وجد منكم من الخير والشر ، فهو وعد ووعيد وفيه إيماء إلى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعرض للثواب والعقاب ، واعلم أن المجازاة لا تسعها دار التكليف فلابد من دار أخرى لا يصار إليها إلا بالموت والنشور ، فلابد لكل نفس من أن تموت ثم تبعث ، ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوْا ﴾ أي المشركين . نزلت حين مر النبي عليه السلام بأبي جهل فضحك وقال لمن معه من صناديد العرب : هذا نبي عبد مناف كالمستهزيء به ﴿ إِنْ يَتَّخِذُوْنَكَ إِلاَّ هُزُوًا ﴾ أي لا يفعلون بك إلا اتخاذك مهزوءاً به : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أصنامكم بسوء يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُوْنَ ﴾ أي يعيبون أن يذكر عليه السلام آلهتهم ، التي لا تضر ولا تنفع بالسوء ، والحال أنهم كافرون بأن يذكروا الرحمن المنعم عليهم بما يجب أن يُذكر به ، من الوحدانية ، فهم أحقُّ بالعيب والإنكار ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ ﴾ أي جنسه ﴿ مِنْ عَجَلٍ ﴾ العجلة طلب الشيء قبل أوانه حتى قيل : العجلة من الشيطان ، جعل الإنسان لفرط استعجاله ، وقلة صبره ، كأنه مخلوق منه ، يقال خلق زيد من الكرم ، تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق ، منزلة ما طبع منه من الأركان ، ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجاله بالوعيد ، قال النضر بن الحارث (**اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن المراد بالإنسان آدم ، وإنه حين بلغ الروح صدره ، أراد أن يقوم قبل أن يبلغ الروح أسفله ﴿ سَأُرِيكُمْ ﴾ أيها المستعجلون ﴿ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُوْنِ ﴾ بالإتيان بها أي أنتم تستعجلون في طلب العذاب من جهلكم وضلالكم ، وذلك لأنكم تؤذون حبيبي ونبيِّ بطريق الاستهزاء والعداوة ، ومن عادى لي ولياً فقد بارزني في الحرب ، فقد استعجل في طلب العذاب ، قيل :

لاَتَعْجَلَنَّ لأمرٍ أَنْتَ طَالِبُهُ * فَقَلَّمَا يُدْرِكُ المطلوبَ ذُوْ العَجَلِ
فَذُو التَأَنِّي مُصِيبٌ في مَقَاصِدِه * وَذُوْ التَعجُّلِ لا يَخْلُو عَنِ الزَّلَلِ

قال أعرابي : إياكم والعجلة فإن العرب تكتبها « أمُّ الندامات » فلابد من التأني في الأمور الدنيوية ، والمقاصد المعنوية ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ بطريق الاستعجال والاستهزاء ﴿ مَتَى هَذَا الوَعْدُ ﴾ أي وعد العذاب والساعة فليأتنا بسرعة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبي عليه السلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات المنبئة عن مجئ الوعد فقال تعالى ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّوْنَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنْصَرُوْنَ ﴾ والمعنى لو علموا الوقت الذي

يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب بحيث لا يقدرون على دفعها ، ولا يجدون ناصراً يمنعها لما استعجلوا ﴿ **بَلْ تأتِيهم** ﴾ القيامة ﴿ **بَغْتَةً** ﴾ أي فجأة ﴿ **فَتَبْهَتُهُمْ** ﴾ والبهت الحيرة ، وإنما لم يُعْلِم الله وقت الموت والساعة لأن المرء مع الكتمان أشد حذراً وأقرب إلى التدارك ، ﴿ **فلا يستطيعُونَ رَدّها** ﴾ أي العدة فإن المراد بها العذاب أو النار أو الساعة ﴿ **ولا هُمْ يُنْظَرون** ﴾ أي لا يمهلون ليستريحوا طرفة عين ، أو يُتركوا ليعتذروا أو لا يُنظر إليهم ، ولا إلى تضرعهم ، ﴿ **وَلَقَد اسْتُهْزِئَ بُرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزائهم به أي بالله لقد استهزئ برسُلٍ أولي شأن خطير ، وذوي عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك كما استهزأ بك قومك فصبروا ﴿ **فحاقَ بالَّذينَ سَخرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِه يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ والمعنى فأحاط بهم عقيب ذلك العذاب الذي كانوا به يستعجلون ، وهو وعدٌ له بأن ما يفعلون به يحيق بهم ، كما حاق بالمستهزئين بالأنبياء ما فعلوا يعني جزاءه ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد للمستهزئين بطريق التقريع والتبكيت ﴿ **مَنْ يَكْلَؤُكُمْ** ﴾ أي من يحفظكم ويحرسكم ويرعاكم ﴿ **باللَّيْل والنَهارِ** ﴾ أي فيهما ﴿ **مِنَ الرّحْمَنِ** ﴾ أي من بأسه الذي يستحقون نزوله ليلاً أو نهاراً إن أراد بكم أي لا يمنعكم من عذابه إلا هو ﴿ **بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ ربِّهِمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلاً عن أن يخافوا الله ويعدّوا ما كانوا عليه من الأمن ، والدَّعة حفظاً وكلاءة ، حتى يسألوا عن الخالق أي دعهم عن هذا السؤال لأنهم لا يصلحون له لإعراضهم عن ذكر الله تعالى .

﴿ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا** ﴾ أي بل لهم آلهة تمنعهم من العذاب متجاوزة منعنا فهم معتمدون عليها أي ليس لهم ﴿ **لا يَسْتَطيعُونَ نَصْر أَنْفُسِهِمْ ولا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ** ﴾ أي هم لا يقدرون أن ينصروا أنفسهم ، ولا يُمنعون بالنصر من جهتنا ، ولا يكون لهم من جهتنا ما يصحبهم من سكينة ، وروح ، وترفق ، ونحو ذلك ، مما يصحب أولياءنا ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « يُصْحَبُونَ » يمنعون ﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هؤُلاَءِ وآباءَهُمْ حتّى طالَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ** ﴾ أي طال عليهم الأجل في التمتع فاغترواوحسبوا أنهم مازالوا على ذلك لا يغلبون ﴿ **أَفلاَ يَرَوْنَ** ﴾ أي ألا ينظرون فلا يرون ﴿ **أَنَّا نَأْتي الأَرْضَ** ﴾ أرض الكفرة التي هي دار الحرب ﴿ **نَنْقُصها مِنْ أطرافِها** ﴾ بتسليط المؤمنين عليها فكيف يتوهمون أنهم ناجون من بأسنا ؟ هذا تمثيل وتصوير لما يُخرِّبه الله من ديارهم على أيدي المسلمين ويضيفه إلى دار الإسلام ﴿ **أَفَهُمُ الغَالِبون** ﴾ القاهرون على رسول الله والمؤمنين ؟ أي أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ؟ أي الغالب هو الله وهم المغلبون قطعاً ، كما قال تعالى (**وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغالِبُوْن**) أي وإن رؤيَ أنهم مغلوبون ، لأن الغالبية له ، ألا ترى أن الله تعالى أظهر المؤمنين على العرب كلهم ، وافتتحوا بلاد الشرق والغرب ،

ومزّقوا ملك الأكاسرة ، وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا ، وما وقع في بعض الأوقات من صورة الانهزام ، فهو من باب تشديد المحنة والبلاء الحسن ، فعلى المؤمن أن يثق بوعد الله تعالى ولا يضعف عن الجهاد ، فإن بالهمّة تنقلع الجبال عن أماكنها ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ** ﴾ أي إنما شأني أن أخوفكم مما تستعجلونه بما أُوحِيَ إليَّ من القرآن ﴿ **وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ** ﴾ إلى الإيمان ﴿ **إِذَا مَا يُنْذَرُونَ** ﴾ شبهوا بالصم وهم صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما ينذرون به من آيات الله لا تعيه آذانهم ، فكانت حالهم لانتفاء جدوى السماع ، كحال الذين عدموا مصحح السماع وينعق بهم فلا يسمعون ، وتفيد نفي السماع به ـ مع أن الصُمَّ لا يسمعون الكلام ، انذاراً كان أو تبشيراً ـ لبيان كمال شدة الصمم ، ﴿ **وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ** ﴾ المسُّ : اللمسُ ، ويُقال في كل ما ينال الإنسان من أذى ﴿ **نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ** ﴾ أي والله لئن أصابهم أدنى شيء من عذابه تعالى ، الذي ينذر به ، والنفحة من نفحته الريح إذا هبت أيَّ هبَّةٍ ، أو من نفح الطيب إذا فاح فوحة كما قال ثمَّة ﴿ **لَيَقُولُنَّ** ﴾ من غاية الاضطراب والحيرة ﴿ **يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ أي لدعوا على أنفسهم بالويل والهلاك ، واعترفوا عليها بالظلم ، حين تصامُّوا وأعرضوا ، وفيه إشارة إلى أن أهل الغفلة والشقاوة ، لا ينتبهون حتى يمسهم أثر من آثار عذاب الله ، فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، فاعترفوا بذنوبهم ، ونادوا بالويل والثبور على أنفسهم بما كانوا ظالمين ، فالظلم يجلب النِّقَمَ ويسلُب النِّعَمَ ؛ سواء كان ظلم الغير أو ظلم النفس ، فليجتنب المؤمن من أسباب العذاب والنقمة ، وليأت إلى باب النجاة والرحمة ، وذلك بالمجاهدة وقمع الهوى ، واختيار طريق الطاعة والتقوى ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ** ﴾ أي نقيم الموازين العادلة التي توزن بها صحائف الأعمال ، ونحضرها وذكر الميزان بلفظ الواحد ، اعتباراً بالمحاسبة ، وفي مواضع بلفظ الجمع اعتباراً بالمحاسبين انتهى ﴿ **لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ أي لأجل جزائه ﴿ **فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ** ﴾ من النفوس ﴿ **شَيْئًا** ﴾ حقاً من حقوقها بل يوفى كل ذي حق حقه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ **وَإِنْ كَانَ** ﴾ أي العمل المدلول عليه بوضع الموازين ﴿ **مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ** ﴾ أي مقدار حبة كائنة من خردل ، وإن كان في غاية القلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مَثَلٌ في الصغر ﴿ **أَتَيْنَا بِهَا** ﴾ أي أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن ، والتأنيثُ لإضافته إلى الحبة ﴿ **وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ اذ لا مزيد على علمنا وعدلنا وقال ابن عباس : عالمين حافظين ، لأن من حَسَب شيئاً علمه وحفظه ، وفيه تحذير ، فإن المحاسب القادر الذي لا يفوته شيء ، يجب أن يُخاف منه ، ورؤي الشبلي في المنام ، فقيل ما فعل الله بك ؟ فقال :

حَاسَبُونَا فَدَقَّقُوا * ثم مَنُّوا فأُعتَقُوا

قال الإمام الغزالي : الميزان حق ، ووجهه أن الله تعالى يُحدث في صحائف الأعمال وزناً بحسب درجات الأعمال عند الله فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد ، حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو تضعيف الثواب ، وروي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريَه الميزان ، فأراه كل كفة كما بين المشرق والمغرب ، فغُشيَ عليه ، ثم أفاق فقال : إلهي من ذا الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات ، فقال : يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة ، وفي الحديث (كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم)[1] ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ أي وبالله لقد آتيناهما كتاباً جامعاً بين كونه فرقاناً بين الحق والباطل ، وضياء يستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة ، وذكراً يتعظ به الناس ، فالمراد بجميع هذه الصفات واحد هو التوراة ، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المستضيئون بأنواره ، والمغتنمون بغنائم آثاره ﴿ **الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾ عذابه ﴿ **بِالْغَيْبِ** ﴾ أي يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم ، غير مشاهد لهم ، ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ، ما لم يشاهدوا ماأنذروه من العذاب ﴿ **وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ** ﴾ اسم لوقت القيامة ، سميت بذلك لسرعة حسابه كما قال (**وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**) وكما نبه عليه بقوله (**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**) فالأولى هي القيامة والثانية الوقت القليل من الزمان ﴿ **مُشْفِقُونَ** ﴾ أي خائفون منها ﴿ **وَهَذَا** ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ **ذِكْرٌ** ﴾ يتذكر به من يتذكر ﴿ **مُبَارَكٌ** ﴾ كثير الخير والنفع ، يتبرك به ﴿ **أَنْزَلْنَاهُ** ﴾ على محمد ﴿ **أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ** ﴾ إنكارٌ لإنكارهم كأنه قيل : أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة أنتم منكرون لكونه منزلاً من عندنا ؟

وفي الحديث (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب)[2] وفي الحديث (لا تجعلوا بيوتكم مقابر)[3] يعني لا تتركوا بيوتكم خالية من تلاوة القرآن ، فإن كل بيت لا يقرأ القرآن فيه يشبه المقابر ، في عدم قراءة الذكر والطاعة ، نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وجلاء أحزاننا ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ** ﴾ لقد آتينا بجلالنا وعظيم شأننا ، إبراهيم الخليل عليه السلام ، الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ من قبل إيتاء موسى وهارون التوراة ﴿ **وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** ﴾ أي وكنا عالمين بأنه أهل لما آتيناه من الرشد والنبوة ﴿ **إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** ﴾ أي ما هذه الأصنام التي أنتم لها كالخدم مقيمون عليها ؟ وهذا السؤال تجاهل

---

(١) رواه البخاري ومسلم الترمذي ، وهو آخر حديث خُتم به صحيحُ البخاري ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٣٣٢ .

(٢) أخرجه الترمذي برقم ٢٩١٤ ورواه أحمد في المسند ، والحاكم ١ / ٥٥٤ وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٠٨ .

(٣) رواه مسلم والترمذي ، وتتمته : (إن الشيطان يَفِرُّ من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة) جامع الأصول ٨ / ٤٧٣ .

منه ، وإلاّ فهو يعرف أن حقيقتها حجراً ، أو شجراً اتخذوها معبوداً ، وروي أن علياً رضي الله عنه مر بقوم يلعبون بالشطرنج . فقال : ما هذه التماثيل ؟ وفيه تقبيح للّعب بالشطرنج حيث عبر عن شخوصه بما عبر به إبراهيم عن الأصنام فأشار إلى أن العكوف على هذا اللعب كالعكوف على عبادة الأصنام ، ويكره اللعب بالنرد والشطرنج ، والكلُّ لهو لأنه إن قامر بها ، فالميسر حرام بالنص ، وهو اسم لكل قمار، وإن لم يقامر فهو عبث ، ولهو وقال عليه السلام (لهو المؤمن باطل إلا لثلاث : تأديبه لفرسه ، ومناضلته عن قوسه ، وملاعبته مع أهله)[1] وقد قال عليه السلام (من لعب بالشطرنج والنردشير فكأنما غمس يده في دم الخنزير)[2] ﴿ **قَالُوا** ﴾ كأنه قال إبراهيم عليه السلام أيّ شيء حملكم على عبادتها ؟ فقالوا ﴿ **وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** ﴾ أي عابدين لها فنحن نعبدها اقتداء بهم ، وهو جواب العاجز عن الأتيان بالدليل ﴿ **قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ﴾ أي وبالله لقد كنتم أيها المقلدون ، وآباؤكم الذين سَنُّوا لكم هذه السنة الباطلة مستقرين في ضلال عظيم ، وخطأ ظاهر لكل أحد ، لعدم استناده إلى دليلٍ ما ، والباطل لا يصير حقاً بكثرة القائلين به وفيه إشارة إلى أن التقليد غالب على الخلق كافة في عبادة الهوى والدنيا الا من آتاه الله رشده ، ﴿ **قالوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ** ﴾ أي بالجد ﴿ **أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ** ﴾ بنا فتقول ما تقول على وجه المزاح واللعب ؟ حسبوا أنهم إنما أنكر عليهم دينهم القديم مع كثرتهم ، وشوكتهم على وجه المزاح واللعب . وفيه إشارة لطيفة وهي كما أن أهل الصدق والطلب يرون أهل الدنيا لاعبين والدنيا لعباً ولهواً كقوله تعالى (**قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**) كذلك أهل الدنيا يرون أهل الدين لاعبين ، والدينَ لعباً ولهواً ﴿ **قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السمواتِ والأرضِ الذي فَطَرَهُنَّ** ﴾ أي خلقهنَّ ابتداء من غير مثال سابق أي فكيف تعبدون ما كان من جملة المخلوقات ؟ ﴿ **وَأَنَا عَلى ذَلِكُمْ** ﴾ الذي ذكرته من كون ربكم رب السموات ، والأرض فقط دون ما عداه كائناً ما كان ﴿ **مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ أي العالمين به على الحقيقة أي لست من اللاعبين في الدعاوي بل من المحتجين عليها بالبراهين القاطعة بمنزلة الشاهد الذي تقطع به الدعاوى ﴿ **وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ** ﴾ لأجتهدنَّ في كسرها وفيه إيذان بصعوبة الأمر وتوقفه على استعمال الحِيَل ، وذلك من قبيل التوسع في الكلام ، فإن القوم كانوا يزعمون أن الأصنام لهن شعور ، ويجوز عليهن الضرر ، فقال ذلك بناء على زعمهم ، وقيل المراد لأكيدنكم في أصنامكم لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم ﴿ **بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوْا** ﴾ ترجعوا ﴿ **مُدْبِرِينَ** ﴾ ذاهبين من عبادتها إلى عيدكم ، ﴿ **فَجَعَلَهُمْ** ﴾ أي فولوا ، فجعلهم ﴿ **جُذَاذاً** ﴾ قطعاً

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي بلفظ « كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة .. » وذكر الحديث وانظر جامع الأصول ٥ / ٤٢.

(٢) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود بلفظ « من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه » وليس فيه ذكر الشطرنج ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٧٥٢ .

﴿ إلاّ كَبيراً لَهُمْ ﴾ لم يكسر الكبير ، وتركه على حاله ، وعلق الفأسَ في عنقه ، وكِبْرُه في التعظيم ، أو في الجثة ، أو فيهما ﴿ لعلّهُمْ إليهِ ﴾ إلى الكبير ﴿ يَرْجِعونَ ﴾ فيسألونه عن كاسرها لأن من شأن المعبود أن يُرجع إليه في حل المُشكل ، فيستجهلهم ، ويبكتهم ، أو إلى إبراهيم يرجعون لاشتهاره بإنكار دينهم ، وسب آلهتهم ، وعداوتهم ، فيحاججهم بقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ فيحجهم ويبكتهم ﴿ قَالُوا ﴾ حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك ﴿ مَنْ فَعَل هذا بِآلِهَتِنَا ﴾ والاستفهام للإنكار والتوبيخ ولم يقولوا بهؤلاء مع أنها كانت بين أيديهم مبالغة في التشنيع ﴿ إنَّهُ لِمَنَ الظّالمينَ ﴾ حيث عرض نفسه للهلاك ﴿ قالُوا ﴾ أي بعض منهم مجيبين للسائلين ﴿ سَمِعْنا ﴾ من الناس ﴿ فَتىً ﴾ وهو الطري من الشبان ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾ بسوء أي يعيب الأصنام ، فلعله فعل ذلك بها ﴿ يُقَالُ لَهُ إبراهيمُ ﴾ أي يطلق عليه هذا الاسم ﴿ قَالوا ﴾ أي السائلون أو النمرود الجبار ، وأشراف قومه فيما بينهم ﴿ فَأْتُوْا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النّاسِ ﴾ أي ظاهراً مكشوفاً بمرأى منهم ومنظر بحيث تتمكن صورته في أعينهم ﴿ لَعلّهُمْ ﴾ أي بعضاً منهم ﴿ يشْهَدونَ ﴾ بفعله أو بقوله ذلك لئلا نأخذه بلا بيِّنة ﴿ قَالُوا ﴾ في الكلام حذف أي فأتوا به ، فلما شهدوه ، قالوا منكرين عليه فعله موبخين له ﴿ أَأَنْتَ فَعلْتَ هذا ﴾ الكسر ﴿ بآلهتِنا ياإبْراهيمُ . قَالَ بلْ فَعَلهُ كَبيرُهُمْ هَذا ﴾ مشيراً إلى الذي لم يكسره ، غضب من أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها ؟ ﴿ فَاسْألُوهُمْ ﴾ عن حالهم ﴿ إنْ كَانوا يَنْطِقونَ ﴾ أي إن كانوا ممن ينطقون حتى يخبروا من فعل ذلك منهم ، وفي الحديث (لم يكذب ابراهيم النبي قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله ، والثالثة قوله « إني سقيم »[1] سميت المعاريض كذباً لما شابهت صورتها صورته ، وإلا فالكذبُ الصريح كبيرة ، فالأنبياء معصومون منها وفي قوله (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) الإعلام بأن من لم يستطع دفع المضرة عن نفسه ، كيف يستطيع دفع المضرة عن غيره ؟ فكيف يصلح إلها ؟ قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق ، والكذب جميعاً ، فالكذب فيه حرام ، فإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المطلوب مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً[2] ، فهذا ضابطه ، اهـ وقيل : إنه لما قال له أبوه : لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ، فخرج معهم فلمَّا كان ببعض الطريق ألقى نفسه ، وقال « إني سقيم » يريد قلبي سقيم بكفركم ، وكانوا إذا خرجوا للعيد لم يتركوا إلا مريضاً ، فلما همَّ إبراهيم بكسر الأصنام نظر قبل العيد إلى السماء وقال أراني أشتكي غداً فأصبح معصوباً رأسه ، فخرج القوم ولم يتخلف غيره ، وقوله « بل فعله كبيرهم » مرَّ شرحه وواحدة في شأن سارة ، وذلك أنه قدم الأردنّ وبها

(١) حديث (لم يكذب إبراهيم قط ..) إلخ أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٦٠٥ .

(٢) مثاله إذا اختفى مظلوم من حاكم ظالم يريد قتله ، فيحرم إخباره عن مكانه ويجب الكذب في هذه الحالة .

ملك جبار ، ومعه سارة وكانتْ أحسن الناس ، فقال لها : إن ذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فأخبريه أنك أختي ، أي في الإسلام ، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ، فقال له : لقد قدم أرضك امرأةٌ لا ينبغي أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها فأتي بها ، وقام إبراهيم إلى الصلاة والدعاء ، فلما دخلت عليه أعجبته ، فمدَّ يده إليها ، فأيبس الله تعالى يده ، فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك فدعت ، فعاد ثم وثم ، حتى دعا الذي جاء بها ، وقال أخرجها من أرضي ، وأعطاها هاجر وكانت جارية في غاية الحسن والجمال ، وهبتها سارة لإبراهيم، فولدت له اسماعيل عليهما السلام ﴿ **فَرَجَعُوا إلى أَنْفُسِهِمْ** ﴾ أي راجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ، ولا على الإضرار بمن كسره ، يستحيل أن يقدر علىدفع مضرة غيره أو جلب منفعة له ، فكيف يستحق أن يكون معبوداً ؟ ﴿ **فَقَالُوا** ﴾ أي قال بعضهم لبعض فيما بينهم ﴿ **إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمونَ** ﴾ بعبادتها لا من كسرها ﴿ **ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُءُوسِهِم** ﴾ أي إنقلبوا إلى المجاملة بعدما استقاموا بالمراجعة ، شبَّه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه ، من قولهم نكس المريض إذ عاد إلى مرضه الأول بعد العافية ، والنكس قلب الشيء ورد آخره على أوله ، وفيه إشارة وهي أن العقل ـ وإن كان يعرف الصلاح من الفساد ، ويميز بين الحق والباطل ، مالم يكن له تأييد من نور الله لا يقدر على اختيار الصلاح ، واحتراز الفساد ، فيبقى مبهوتاً كما كان حال قوم نمرود ، حيث نكسوا على رءوسهم إذْ لم يكونوا موفقين ، فما نفعهم ما عرفوا من الحق ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقونَ** ﴾ أي قائلين لقد علمت ياإبراهيم أنْ ليس من شأنهم النطق ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ؟ فأقروا بهذا للحيرة التي لحقتهم ﴿ **قَالَ** ﴾ مبكتاً لهم ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ** ﴾ أي أتعلمون ذلك فتعبدون ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي متجاوزين عبادته تعالى ﴿ **مَالاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً** ﴾ من النفع إنْ عبدتموهم ﴿ **ولاَ يَضُرُّكُمْ** ﴾ إن لم تعبدوهم ؟ ﴿ **أُفٍّ لَكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ تضجر من إصرارهم على الباطل البين ، و « أفّ » صوت التضجر ، إذا صوَّت بها الإنسَان ، عُلم أنه متضجر ، ومعناه قُبْحاً وَنَتْناً وهو من أسماء الأفعال « أفّ » بمعنى أتضجر ﴿ **أَفَلا تَعْقِلونَ** ﴾ أي أجننتم فلا تعقلون قبح صنيعكم ؟ قال ابن عطاء : دعا اللهُ تعالى عباده إليه ، وقطعهم عما دونه بقوله ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ** ﴾ إلخ كيف تعتمده وهو عاجز مثلك ؟ ولا تعتمد من إليه المرجع وبيده الضر والنفع ؟ قال حمدون القصار : استغاثة الخلق بالخلق كاستغاثة المسجون بالمسجون ، وقال بعض الكبار : طلبك من غيره لوجود بُعْدِك عنه ، إذ لو كنت حاضراً بقلبك معه ، ما صح منك توجهٌ لغيره ، وكل ما دون الله خوض ولعب ، فالتعلق به زور وكذب ، فدع الكل جانباً ، وتعلق بمولاك تجده في كل مهم معيناً ومغيثاً ، حكي أن امرأة حبيب العجمي ألحت عليه أن يعمل بالأجرة ، طلباً للسعة في الرزق ، فخرج من بيته وعَبَدَ الله إلى الليل ، فعاد إلى بيته وليس معه شيء ، فلما سألته

امرأته قال : عملتُ لعظيم كريمٍ ، واستحيْتُ أن أطلب الأجرة ، فلما مضى عليه ثلاث أيام ، قالت : اطلب الأجرة ، أو اعمل لغيره ، أو طلقني ، فخرج إلى الليل فلما عاد إلى منزله وجد رائحة الطعام ، وامرأته مستبشرة ، فقالت إنَّ الذي عملت له أرسل إلينا أشياء عظيمة ، وكيساً مملوءاً ذهباً ، فبكى حبيب ، وقال : إنه من عند الله الكريم ، فلما سمعت المرأة تابتْ وحلفتْ أن لا تعود إلى مثله أبداً ، ففي هذه الحكاية فوائد ، منها أن العمل بالأجرة وإن كان أمراً مشروعاً لكنَّ الحبيب اختار طاعة الحبيب ، فأعطاه الله ما يتمناه وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي (مَنْ شغلَه ذكري عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعْطِي السَّائلين)[1] ومنها أن الصبر مؤد إلى الفتح ، ولو كان بعد حين ، فلابد من الصبر وترك الجزع ، ومنها أن تلك المرأة عرفت الحال ، فتابت إلى الله المتعال ، واختارت القوت والقناعة ، ولازمت العبادة والطاعة ، فإن من أعرض عن الحق بعد ظهور البرهان ، فقد خان نفسه وأهان ، ألا ترى أن قوم إبراهيم بعدما استبان لهم الحق رجعوا إلى الكفر والإصرار ، وعبادة الأصنام من الخشب والأحجار ، فأهلكهم الله تعالى ﴿ **قَالُوا حرِّقُوهُ** ﴾ أي قال بعضهم لبعض لَمّا عجزوا عن المحاجة أحرقوه بالنار ، وهكذا ديدن المبطل المحجوج ، إذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح ، لا يبقى له مفزع إلا المناصبة ، واتفقت كلمتهم على إحراقه لأنه أشد العقوبات ﴿ **وانْصُرُوا آلِهتَكُمْ** ﴾ بالانتقام لها ﴿ **إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** ﴾ إن كنتم تريدون الإنتقام لآلهتكم المحطَّمة ، وقصته أنه لما اجتمع نمرود وقومه لإحراقه عليه السلام ، حبسوه في بيت ، وبنوا له حائطاً كالحظيرة ، ارتفاعه ستون ذراعاً ثم جمعوا له الحطب الكثير ، حتى إن الرجل المريض كان يوصي بشراء الحطب وإلقائه فيها ، وكانت المرأة لو مرضت قالت : إن عافاني الله لأجمعن حطباً لإبراهيم ، ثم أوقدوا الحطب سبعة أيام ، فلما اشتعلت النار صار الهواء بحيث لو مرَّ الطير في أقصى الجو لاحترق من شدة وهجها ـ أي شدة حرها ـ روي أنهم لم يعلموا كيف يلقونه فيها لعدم القدرة على القرب منها فجاء إبليس في صورة شيخ نجار ، فصنع لهم المنجنيق ، ونصبوه على رأس الجبل ، ثم عمدوا إلى ابراهيم ، فوضعوه في كفه المنجنيق ، مقيَّداً مغلولاً ، فانقطع رجاؤه عن الخلق بالكلية ، متوجهاً إلى الله تعالى ، مستسلماً نفسه إليه ، حتى إن جبريل عليه السلام أدركه في الهواء فقال له : هل لك من حاجة ؟ فقال أما إليك فلا ، قال له جبريل : سل ربك ، فقالَ : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، وما أظهر عليه حاله فأدركته العناية الأزلية بقوله ﴿ **قُلْنا يانَارُ كوني بَرْداً وَسَلاَماً على إبْراهيمَ** ﴾ أي كوني ذات برد من حرِّكِ ، وسلامةٍ من بردك ، فزال ما فيها من الحرارة والإحراق ، وبقى ما فيها من الإضاءة والإشراق ، وهذا من أبدع المعجزات ، لأن فيها ما يخرق العادات ، ولو لم

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في ثواب القرآن والدارمي في فضائل القرآن ولفظه « من شغله القرآن وذكري عن مسألتي .. » الحديث.

يقل (على إبراهيم) لبقيت ذات برد أبداً على كافة الخلق ، ولو لم يقل (سلاماً) بعد قوله (برداً) لمات إبراهيم من بردها ، وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إيّاه ، وقال إبراهيم : إن ربك يقول أما علمتَ أن النار لا تضر أحبابي ، ثم نظر النمرود من صرح له وأشرف على إبراهيم وقال له هل تستطيع أن تخرج منها ؟ قال : نعم ، قال قم فاخرج فقام يمشي حتى خرج ، فاستقبله النمرود وعظَّمه ، وقال له النمرود إني مقرب إلى إلهكَ قرباناً لما رأيته من قدرته وعزته فيما صنع بك ، وإني ذابح له أربعة آلاف بقرة ، فقال إبراهيم لا يقبل الله منك ما دمتَ على دينك هذا ، فإن قلتَ : لم ابتلاه الله بالنار في نفسه ؟ قلتُ : كلُّ رسول أتى بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان أهل ذلك الزمان يعبدون النار ، والشمس ، والنجوم ، معتقدين أنها العنصر الأعظم وأنها تضر وتنفع ، فأظهر الله لهم حقيقة الشمس والنجوم ، والنار ، وأنها لا تؤثّر إلا بإذن الله ، بسريان القدرة القاهرة في حقائق العناصر ، وقيل : ابتلاه الله بالنار ، لأن كل إنسان يخاف الطبع من صفة القهر ، كما قيل لموسى (**لاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولى**) فأراه تعالى أن النار لا تضر شيئاً ، إلا بإذن الله تعالى وإن ظهرت بصفة القهر ، ولذلك أظهر الجمع بين التضاد ، بجعلها برداً ، وسلاماً ، ومعجزة قاهرة ﴿ **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً** ﴾ مكراً عظيماً في الإضرار به ﴿ **فَجعلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ** ﴾ أي أخسر من كل خاسر ، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق برهاناً قاطعاً على أنه على الحق ، وهم على الباطل ، موجباً لارتفاع درجته ، واستحقاقهم لأشد العذاب ﴿ **وَنَجّينَاهُ** ﴾ أي إبراهيم من الإحراق ومن شر النمرود ﴿ **وَلُوطاً** ﴾ هو ابن اخي إبراهيم اسمه « هاران » خرج مهاجراً ﴿ **إلى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلعَالَمِينَ** ﴾ أي من العراق إلى الشام ، وكانت واقعة إبراهيم مع النمرود « بكوثى » في حدود بابل ، من أرض العراق ، فنجاه الله من تلك البقعة ، إلى الأرض المباركة الشامية ، وقد كان لوط النبي آمن بإبراهيم ، وهو لوط بن هاران ، وكان هاران وإبراهيم أخوين ، وآمنت به أيضاً سارة بنت عم إبراهيم فخرج من (كوثى) مهاجراً إلى ربه ، ومعه لوط وسارة ، يلتمس الفرار بدينه ، والأمان على عبادة ربه ، حتى نزل (حران) فمكث ما شاء الله ، ثم ارتحل منها ونزل بفلسطين ، ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر ، ثم خرج من مصر وعاد إلى أرض الشام ، ونزل لوط بالمؤتفكة وبعثه الله نبياً إلى أهلها روي ، عن رسول الله عليه السلام أنه قال (ستكون هجرةٌ بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم إلى مُهَاجر إبراهيم)[1] والمقصود ترغيب الناس في المقام بها وفي الحديث (الشام صفوة الله من بلاده ، يجبى إليها صفوته من خلقه)[2] .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد « باب سكنى الشام » وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٤٩ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود ولفظه (عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه ، يجتبي إليها خيرته من عباده) وهو جزء من حديث طويل وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٥٠ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ أي لإبراهيم بعد نزوله في الأرض المباركة ﴿ إِسْحَٰقَ ﴾ ولداً لصلبه من سارة ﴿ وَيَعقوبَ ﴾ أي ووهبنا له يعقوب أيضاً حال كونه ﴿ نَافِلَةً ﴾ أي ولدَ ولدٍ سمي نافلة لأنه زيادة عما طلب ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء الأربعة ﴿ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ بأن وفقناهم للصلاح في الدين والدنيا فصاروا كاملين ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يقتدى بهم في أمور الدين ﴿ يَهْدُونَ ﴾ أي الأمة إلى الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ لهم بذلك وإرسالنا إياهم ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ ليحثوهم عليه فيتمُّ كمالُهم ، بانضمام العمل إلى العلم ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوٰةِ ﴾ عطف الخاص على العام دلالة على فضله ﴿ وَكَانُوا لَنَا ﴾ خاصة دون غيرنا ﴿ عَابِدِينَ ﴾ لا يخطر ببالهم غير عبادتنا ، والعبادةُ غاية التذلل ، نبه تعالى على أهل الإخلاص بالعبارة ، وعلى غيره بالإشارة ، فالأول هو العبد المطلق ، والثاني هو عبد هواه ودنياه ، وفي الحديث (تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار)[1] وعن يحيى بن معاذ أنه قال : الناس ثلاثة أصناف : رجلٌ شَغَله معادُه عن معاشه ، ورجلٌ شَغَله معاشهُ عن معاده ، ورجلٌ مشتغل بهما جميعاً ، فالأول درجة العابدين ، والثاني درجة الهالكين ، والثالث درجة المخاطرين ، فإما أن يَسْلم ، أو يشقى ويندم .

﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ ﴾ أي وآتينا لوطاً عليه السلام ﴿ حُكْمَاً وَعِلْمَاً ﴾ حكمة حقيقيَّة ، وفضلاً بين الخصوم بالحق ، يقول الفقير : الحكم يراد به الحكمة ، كما يدل عليه قوله تعالى في حق يحيى عليه السلام (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً) وهو الفهم عن الله تعالى ، وقوله تعالى في حق داود عليه السلام (وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ والحِكْمَةَ وعلّمهُ مِمّا يَشاءُ) فرق بين الملك ، والحكمةِ ، والعلم ، فيكون معنى قوله ﴿ وعِلْماً ﴾ أي علماً نافعاً يتعلق بأمور الدين ، وقواعد الشرع والملة ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ ﴾ قرية سدوم أعظم القرى المؤتفكة أي المنقلبة المجعول عاليها سافلها وهي سبع كما سبق ﴿ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ جمع خبيثة ، والخبيثةُ ما يكره رداءةً وخساسةً ، والمراد هنا اللواطة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ ﴾ قال الراغب السوء كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية من فوات مال وفقد حميم ، ويعبر به عن كل ما يقبح وهو مقابل الحسن ﴿ فَاسِقِينَ ﴾ أي منهمكين في الكفر والمعاصي ، متوغلين في ذلك ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ في أهل رحمتنا الخاصة ﴿ إِنَّه مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين سبقت لهم منا الحسنى ، والرحمة على نوعين : خاص ، وعام ، فالعام منها يصل إلى كل بروفاجر كقوله تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) والخاص لا يكون إلا للخواص وهو الدخول في الرحمة وذلك متعلق بالمشيئة وحسن الاستعداد ولهذا قال

---

(١) هذا جزءمن حديث طويل أخرجه البخاري وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٣١ .

﴿ **إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ المستعدين لقبول فيض رحمتنا والدخول فيها ، وهو إشارة إلى مقام الوصول ﴿ **ونوحاً إذ نادىٰ** ﴾ أي اذكر نبأه الواقع حين دعائه على قومه بالهلاك ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين﴿ **فاسْتجبْنا لَهُ** ﴾ أي دعاءه الذي هو قوله ﴿ **إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ قال : استجاب الله دعاءه ، أو استجاب له لأن الاستجابة تقتضي الدعاء ﴿ **فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ** ﴾ من الغم العظيم الذي كانوا فيه من أذيَّةِ قومه ﴿ **ونَصرْناهُ** ﴾ نصراً مستتبعاً للانتقام والانتصار ﴿ **مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ كَذّبُوا بآياتِنا** ﴾ أولاً وآخراً ﴿ **إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ** ﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿ **فأغْرقْناهُمْ أجْمَعِينَ** ﴾ فإنه لم يجتمع الإصرار على التكذيب ، والانهماك في الشر والفساد في قوم ، إلا أهلكهم الله تعالى ، واعلم أن الدعاء إذا كان بإذن الله تعالى ، وخلوص القلب ، كما للأنبياء ، وَكُمَّلِ الأولياء ، يكون مقروناً بالإجابة ﴿ **وَداوُدَ وسُلَيْمنَ إِذْ يحْكُمانِ فِي الحرْثِ** ﴾ أي اذكر خبرهما وقت حكمهما في وقت الحرث ﴿ **إِذْ نَفَشَتْ** ﴾ تفرقت وانتشرت ﴿ **فيه غَنَمُ القوْمِ** ﴾ ليلاً بلا راع فرعته وأفسدته ، فإن النفش أن ينتشر الغنم ليلاً بلا راع ﴿ **وَكُنّا لحُكْمِهِمْ** ﴾ أي الحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما ﴿ **شَاهِدِينَ** ﴾ حاضرين علماً معهما ، وإنما حكماً بإرشادنا لهما ﴿ **فَفَهّمْناها** ﴾ أي الحكومة ﴿ **سُلَيْمَنَ** ﴾ وهو ابن احدى عشرة سنة ، وهو ابن صغير ، وداود نبيٌّ مرسل كبير ﴿ **وَكُلاً آتيْنا حُكْماً وَعِلْماً** ﴾ لا سليمان وحده ، فحكم كليهما حكم شرعي ، ليحكم كل واحد منهما موافقاً للعلم والحكمة بتأييدنا ، ليتحقق صحة أمر الاجتهاد ، وهذا يدل على أن خطأ المجتهد في كونه مجتهداً ، روي أنه دخل على داود عليه السلام رجلان ، فقال أحدهما : إن غنم هذا دخلت في حرثي ليلاً فأفسدَتْه ، فقضى له بالغنم ، إذ لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت ، فخرجا فمرَّا على سليمان عليه السلام فأخبراه بذلك ، فقال : غير هذا أرفق بالفريقين ، فسمعه داود فدعاه فقال له : ألا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين ؟ فقال : أرى أن تدفع الغنم إلى صاحب الأرض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها ، والحرث إلى أرباب الغنم ليقموا عليه أي بالحرث والزرع حتى يعود إلى ما كان ويبلغ الحصاد ، ثم يترادّ ، فقال : القَضاءُ ما قضيتَ وأمضى الحكم بذلك ، وهذا يدل على أن حكمها كان بالاجتهاد ، والاجتهادُ : بذلُ الفقيه الوسع ليحصل له ظن بحكم شرعي وهو جائز للأنبياء إلا أن الأنبياء لا يُقَرُّون على خطأ وفي الحديث (إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر)[1] واعلم أن في هذه الآية دليلاً على أن المجتهد يخطىء أو يصيب ، وأن الحق واحد في المسائل الاجتهادية ، إذا لو كان كل من الاجتهاد صواباً وحقاً ، لكان كل منهما قد أصاب الحق وفهمه ، ولم يكن لتخصيص سليمان بالذكر

(١) الحديث أخرجه البخاري في الاعتصام ، ومسلم في الأقضية ، وأبو داود في سننه برقم / ٣٥٧٤ / في الأقضية أيضاً ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٧١ .

جهة ﴿ وَسخّرْنا مع داوُدَ الجِبالَ ﴾ التسخير تذليل الشيء وجعله طائعاً منقاداً ﴿ يُسَبّحْنَ ﴾ أي يقدسن الله تعالى بحيث يسمع الحاضرون تسبيحهن ، لا انعكاس الصدى فإنه عام ﴿ والطّيْرَ ﴾ قُدّمت الجبال على الطير ، لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب ، وأدل على القدرة ، وأدخل في الاعجاز ، لأنها جماد ، والطير حيوان ﴿ وَكُنّا فَاعِلِينَ ﴾ قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عَجباً عندكم ، روي أن داود كان إذا مر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير ، لينشط في التسبيح ، ويشتاق إليه ، قال ابن عباس : إن بني إسرائيل كانوا قد تفرقوا قبل مبعث داود ، وأقبلوا على ملاهي الشيطان ، وهي العيدان والطنابير ، والمزامير ، والصنوج ، وما أشبهها ، فبعث الله داود وأعطاه من حسن الصوت ، ونغمة الألحان ، حتى كان يتلو التوراة بترجيع ، فأذهل عقول بني اسرائيل ، وشغلهم عن تلك الملاهي وصاروا يجتمعون إلى داود يستمعون ألحانه ، وكان إذا سبح تُسبِّح معه الجبال والطير والوحش وكما أن الأصوات الحسنة والنغمات الموزونة ، تؤثر في النفوس فتجذبها من الشر إلى الخير ، فكذا الأصوات القبيحة والنغمات الغير الموزونة ، تؤثر في النفوس ﴿ وَعلّمْناهُ صَنْعَةَ لَبوسٍ ﴾ أي عمل الدروع : واللبوس في الأصل اللِّباسُ درعاً كان أو غيرها ، وكانت الدروع قبل داود صفائح أي قطع حديد عراضا ﴿ لَكُمْ ﴾ أي لنفعكم ، والمعجزة فيه من غير استعانة بأداة وآلة من النار ، والسندان ، والمطرقة ، ﴿ لِتُحْصِنَكُمْ ﴾ لتحرزكم أي الدرع ﴿ مِنْ بأْسِكُمْ ﴾ أي من حرب عدوكم ﴿ فَهلْ أنتُمْ شَاكِرونَ ﴾ ذلك يعني قد ثبت عليكم النعم الموجبة للشكر فهو أمر وارد على صورة الاستفهام ، أخبر الله تعالى أن أول من عمل الدرع داود ، ثم تعلم الناس ، فعمّت النعمة بها إلى آخر الدهر ، فلزمهم شكر الله على هذه النعمة ، وقال بعضهم : الخطاب لداود وأهل بيته ، أي فقلنا لهم بعدما أنعمنا عليهم بهذه النعم هل أنتم شاكرون ؟ وكان داود قد سأل الله أن يجعل رزقه من كدّ يده ، فألان له الحديد ، وكان يتخذ الدرع من الحديد ويبيعها ويأكل من ذلك ، وكان الأنبياء عليهم السلام يحترفون بالحرف ، ويكتسبون بالمكاسب ، فقد كان إدريس خياطاً ، وكان نوح نجاراً ، وإبراهيم بزازاً ، وداود زرَّاراً ، وآدم زرَّاعاً ، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة ، فإنه عليه السلام آجر نفسه قبل النبوة في رعي الغنم ، وقال : (وما من نبي إلا وقد رعاها)[1] ومن حكمة الله في ذلك ، أن الرجل إذا استرعى الغنم ، سكن قلبَهُ الرأفةُ واللطف ، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق يكون في أعدل الأحوال ، ولا ينبغي لأحدٍ عُيِّر برعاية الغنم أن يقول كان النبي عليه السلام يرعى الغنم ، فإن قال ذلك أدِّب ، لأن ذلك كمال في حق الأنبياء دون غيرهم ، فلا ينبغي الاحتجاج به ، ويجري ذلك في كل ما يكون كمالاً في حقه عليه السلام دون غيره كالأمِّية ، فمن قيل له أنت أمي فقال : كان عليه السلام أمياً

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإجارة ولفظه (ما بعث الله نبياً إلاّ رَعَى الغنم ، قالوا حتى أنت يارسول الله ، قال : حتى أنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة) ورواه مسلم وابن ماجه بنحوه .

يؤدَّب لأنه يوهم التحقير في شأنها العظيم ، وأفضل الكسب الجهادُ وهو حرفة رسول الله عليه السلام بعد النبوة والهجرة ، ثم التجارة بشرط الأمانة بحيث لا يخون ويجتنب المكاسب الخبيثة أي الحرام نحو اجرة الزانية والكاهن ويجتنب عن صنعة الملاهي ونحوها ﴿ **وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ** ﴾ أي وسخرنا له الريح فإن تسخير ما سخر له من الريح وغيرها ، كان بطريق الانقياد الكلي له ، والامتثال بأمره ونهيه فجيء بلام التمليك ، وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام ، فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له ﴿ **عاصِفَةً** ﴾ أي حال كونها شديدة الهبوب تقطع به مسافة بعيدة في مدة يسيرة من الزمان ، وكانت لينة في نفسها ، طيبة كالنسيم ، فكان جمعها بين الرخاوة في نفسها ، وعصفها في عملها ، مع طاعتها لسليمان ، وهبوبها حسبما يريد معجزة مع معجزة ﴿ **تَجْرِي بِأَمْرِهِ** ﴾ بمشيئته ﴿ **إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ وهي الشام ، كانت تذهب به غدوة من الشام إلى ناحية من نواحي الأرض وبينها وبين الشام مسيرة شهر إلى وقت الزوال ، ثم ترجع به منها بعد الزوال إلى الشام عند الغروب كما قال تعالى (**غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ**) ﴿ **وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ** ﴾ فنجريه على ما يقتضي علمنا وحكمتنا ﴿ **وَمِنَ الشَّيَاطِينِ** ﴾ أي وسخرنا له من الشياطين ﴿ **مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ** ﴾ أي يدخلون تحت البحر ويستخرجون له من نفائسه ﴿ **وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ** ﴾ أي غير ما ذُكِر ، من بناء المدن ، والقصور ،واختراع الصنائع الغريبة ، والمسخّر له كفارهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى (**وَمِنَ الشَّيَاطِينِ**) ﴿ **وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** ﴾ أي من أن يزيغوا عن أمره ويعصوا ويتمردوا عليه ، أو يفسدوا ما عملوا على ما هو مقتضى جبلتهم ، والشياطين وإن كانوا أجساماً لطيفة ، لكنهم يتشكلون بأشكال مختلفة ويقدرون على الأعمال الشاقة ، ألا ترى أن لطافة الريح لا تمنع عصوفها ؟! فإن قيل : لماذا لم تخرج الشياطين عن طاعة سليمان ، مع استعمالهم في تلك الأمور الشديدة ؟ فالجواب أن الله تعالى أوقع لسليمان في قلوبهم من الخوف والهيبة ، حتى خافوا أن يخرجوا عن طاعته ، وهذا من معجزاته ﴿ **وَأَيُّوبَ** ﴾ أي واذكر خبر أيوب ، وينتهي نسبته إلى روم بن عيص بن ابراهيم عليه السلام ، روي أن الله تعالى أرسله إلى أهل « حَرَّان » وهي قرية بغوطة دمشق ، وكثر أهله وماله ثم مرض وبقي في مرضه ثماني سنوات ، فقالت له يوماً امرأته لو دعوتَ الله ! فقال لها : كم كانت مدة الرخاء ؟ فقالت ثمانين سنة ، فقال أنا أستحيي من الله أن أدعوه ، وما بلغتْ مدةُ بلائي مدة رخائي ﴿ **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ** ﴾ أي دعاه ﴿ **أَنِّي مَسَّنِيَ** ﴾ أصابني ﴿ **الضُّرُّ** ﴾ الضَّرُّ بالفتح شائع في كل ضرر ، وبالضم خاص بما في في النفس من مرض وهزال ونحوهما ﴿ **وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ بيَّن افتقاره إليه تعالى ، ولم يقل ارحمني لطفاً في السؤال ، وحفظاً للأدب في الخطاب ، فإن أكثر أسئلة الأنبياء في كشف البلاء عنهم إنما هي على سبيل التعريض .

وفي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وفيكَ فَطَانَةٌ * سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وخِطَابُ

فإن قيل : أليس صرَّح زكريا في الدعاء فقال : (هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) ؟ قلنا : هذا سؤال العطاء لا يجمل به التعريض ، وذلك كشف البلاءفيجمل به التعريض لئلا يشتبه بالشكاية ، ويحكى أن عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك ، فقالت ياأمير المؤمنين : مشت جرذانٌ بيتي على العصيّ ، فقال لها : ألطفتِ في السؤال ، لأجعلنَّها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبًّا ، فهذا القول من أيوب دعاء وتضرع وافتقار ، لا جزع وشكاية كما هو حال الاضطراب ، ولذا جاء جوابه بلفظ الاستجابة وقال تعالى في حقه (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ العَبْدُ) وعلى تقدير تضمنه الشكاية فقد اشتكى من البلوى إليه تعالى لا إلى غيره ، ولا ينافي الصبر الجميل ، كما قال يعقوب (إِنَّمَا أَشْكُوْ بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ) والعارف الصادق إذا كان متحققاً في معرفته ، فشكواه حقيقَة الانبساط ، ومناداتُه تحقيق المناجاة ، وأساه حقيقة المباهاة ﴿ فاسْتَجبْنَا لَهُ فَكَشفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾ أي فاستجبنا دعاءه فكشفنا ما نزل به من البلاء والمرض ، روي أنه قيل له ارفع رأسك فقد استجيب لك ، اركض برجلك أي اضرب بها الأرض ، فركض فنبعت من تحتها عين ماء ، فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه جراحة إلا برئت ، ثم ركض مرة أخرى فنبعتْ عين أخرى ، فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج ، وعاد صحيحاً ، ورجع إلى شبابه وجماله ثم كُسِيَ حُلَّة ، والسر في ابتلائه تصفيةُ وجوده بالرياضات الشاقة ، وأنواع المجاهدات البدنية ، لتكميل المقامات العلية ، قالوا : من كان مجاوراً للعزيز والشريف ، صار عزيزاً شريفاً ، ومن كان مجاوراً للذليل والوضيع ، كان ذليلاً ووضيعاً ، ألا ترى أن الريح إذا مرت بالأزهار والأوراد ، تحمل الرائحة الطيبة ، وإذا عبرت على المستقذرات تحمل الرائحة الخبيثة ، وقس على هذا من كان مصاحباً لأوصاف النفس ، ومن كان مجاوراً لأخلاق الروح ﴿ وآتَيْناهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ بأن ولد له ضعف ما كان ، روي أن الله تعالى ردَّ إلى امرأته شبابها ، فولدت له ستة وعشرين ولداً ، كما هو المروي عن ابن عباس ، وردَّ أمواله ، وكان رحيماً بالمساكين ، يكفل الأيتام والأرامل ، ويكرم الضيف ، وفي الحديث (بينما أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه رِجْلُ جراد من ذهب ، فجعل أيوب يحثو في ثوبه ، فناداه ربه : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى وعزتك ، ولكنْ لا غِنى لي عن بركتك)[1] وفيه دلالة على إباحة تكثير المال الحلال ﴿ رَحمةً مِنْ عِنْدِنا ﴾ أي آتيناه ما ذكر لرحمتنا إياه بالرحمة الخاصة ﴿ وَذِكْرَىٰ للعَابِدِينَ ﴾ وتذكرة وعبرة لغيره من العابدين ، ليعلموا بذلك كمال قدرتنا ، ويصبروا كما صبر أيوب فيثابوا كما أُثيب ﴿ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ ﴾ أي اذكر هؤلاء الأنبياء المقربين وقُصَّ خبرهم على أمتك ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء ﴿ مِنَ الصّابِرِينَ ﴾ أي الكاملين في الصبر على

(١) الحديث أخرجه البخاري في الغسل وفي التوحيد ، والنسائي في الغسل « باب الاستتار عند الاغتسال » ١ / ٢٠٠ وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٢١ .

مشاق الطاعات ، واحتمال البليات ، فإن اسماعيل قد صبر عند ذبحه ، وقال (**يَاأَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ**) الآية وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ، فلا جَرَمَ أكرمه الله وأخرج من صلبه خاتم النبيين عليه وعليهم السلام ، وإدريس قد صبر على الشدائد ، وذو الكفل صبر على صيام النهار ، وقيام الليل ، وأذى الناس ، وفيه إشارة إلى أن كل من صبر على طاعة الله ، أو على ما أصابه من مصيبة في المال والأهل والنفس ، فإنه بقدر صبره يستوجب نعمة ربه ، وينال رتبة العبدية ، ويصلح لإدخاله في رحمته المخصوصة به ، كما قال تعالى ﴿ **وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا** ﴾ الخاصة من النبوة وغيرها ﴿ **إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أي الكاملين في الصلاح ، وهم الأنبياءُ فإن صلاحهم معصوم من الفساد ، واعلم أن للصلاح بداية وهي الأخذ بالشرائع والأحكام ، ونهاية وهي التوجه إلى رب العباد ، وعدم الإلتفات إلى عالَم الكون والفساد ، وهي في الحقيقة مقام الصدِّيقية ، وإصلاح الله تعالى الإنسان ، يكون تارة بخلقه إياه صالحاً ، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده ، ثم الصبر من مراتب الصلاح وهو أفضل الأعمال ، ولا يكون الصبر إلا على بلاء ومشقة ، فالترقي إنما هو بالصبر ، لا بنفس البلاء يرفع درجات من قام به عند الله وينال به السعادة الأبدية ، وإلاَّ لنَالَها أهل البلاء من المشركين والكفار ، بل هو في حقهم تعجيل لعذابهم ، وفي حق المؤمنين الصَّابرين تكميلٌ لدرجاتهم ، وحطٌّ من خطيئآتهم ﴿ **وَذَا النُّونِ** ﴾ أي واذكر صاحب النون أي الحوت والمراد يونس بن متَّى ﴿ **إِذْ ذَهَبَ** ﴾ أي اذكر خبره وقت ذهابه ﴿ **مُغَاضِباً** ﴾ مراغماً لقومه أهل نينوى وهي قرية بالموصل ،لما مر من شدة شكيمتهم ، وتمادي إصرارهم مهاجراً عنهم قبل أن يُؤمر ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أي لن نضيق عليه الأمر ، يقال : قَدَر على عياله ضيَّق ، وفيه إشارة وهي أن الله تعالى من كمال فضله وكرمه على عباده ـ وإن كانوا عصاةً مستوجبين للعذاب ـ أن يعاتب أنبياءه لهم ، ولا يرضى عنهم اشتهاء نزول عذاب الله بقومهم ، وكراهية دفع العذاب عنهم ، بل يرضى لهم أن يستغفروا لهم لدفع العذاب عنهم كما قال لنبينا عليه السلام (**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ**) وقال في حق الكفار (**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**) روي أنه حين خرج مغاضباً أتى بحر الروم ، فوجد قوماً هيَّأوا السفينة فركب معهم فلما توسطت السفينة البحر وقفت ولم تجر بحالٍ ، فقال الملاحون : هنا رجل عاص أو عبد آبق ، لأن السفينة لا تفعل هذا إلا وفيها عاص أو آبق ، ومن عادتنا إذا ابتلينا بهذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ، فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها على يونس ، فقال أنا الرجل العاصي والعبد الآبق ، فألقوه في البحر ، فجاء حوت فابتلعه ، فأوحى الله تعالى إلى الحوت أن لا تؤذي منه شعرة ، فإني جعلت بطنك سِجناً له ، ولم أجعله طعاماً ﴿ **فَنَادَىٰ** ﴾ أي فكان ما كان من القرعة والتقام الحوت فنادى ﴿ **فِي الظُّلُمَاتِ** ﴾ أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة ، أو في ظلمات بطن الحوت ، والبحر ،

والليل ﴿ أَنْ ﴾ أي بأنه ﴿ لا إلهَ إلاّ أنْتَ ﴾ أي لا إله يحفظني من هذه الظلمات ، ويسلمني من آفاتها وفتنتها ، ويلهمني أن أذكره في هذا الموطن إلا أنت ﴿ سُبْحانَكَ ﴾ أنزهك تنزيهاً لائقاً بك ، من أن يعجزك شيء وأن يكون ابتلائي هذا بغير سبب من جهتي ، نزَّهَه عن الظلم إلى نفسه ، اعترافاً واستحقاقاً ورعاية للأدب فقال ﴿ إنِّيَ كُنْتُ مِنَ الظّالِمينَ ﴾ لأنفسهم بتعريضها للهلاك ، حيث بادرتُ إلى المهاجرة فنجاة الله من وحشة بطن الحوت بقوله ﴿ فاسْتَجبْنا لَهُ ﴾ أي دعاءه الذي هو في ضمن الاعتراف بالذنب وفي الحديث (ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له)[1] وعن الحسن : ما نجّاه والله إلاّ إقراره على نفسه بالظلم ، وفي صحيح المستدرك قال عليه السلام (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى لا إله إلا أنت) إلخ ﴿ وَنَجّيْناهُ مِنَ الغَمِّ ﴾ من غم الالتقام والبحر ، بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات ، أو ثلاثة أيام ، وقال بعضهم كان رأس الحوت فوق الماء وفمه مفتوحاً ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أوحى الله إلى الحوت أن خُذْهُ ، ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً ، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه في البحر ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر ، سمع يونس تسبيح دواب البحر ، فسبَّح هو في بطنه فسمع الملائكة تسبيحه ، وقالوا يا ربنا : نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة فقال ذاك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت ، فشفعوا عند ذلك ، فأمر الله الحوت فقذفه في الساحل ﴿ وَكَذلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ﴿ نُنْجي المؤْمِنينَ ﴾ من غموم دعوا الله فيها بالإخلاص ، وعن جعفر بن محمد قال : عجبتُ ممنْ يبتلى بأربع كيف يغفل عن أربع : عجبتُ لمن يبتلى بالهمّ كيف لا يقول ﴿ لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إني كُنْتُ مِنَ الظَّالِمينَ ﴾ لأن الله تعالى يقول ﴿ فَاسْتَجبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجي المؤْمِنينَ ﴾ وعجبتُ لمن يخاف شيئاً من السوء كيف لا يقول (حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ) لأن الله تعالى يقول (فَانْقَلَبُوْا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ) وعجبت لمن يخاف مكر الناس كيف لا يقول (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَىٰ اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ) لأن الله تعالى يقول (فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَامَكَرُوْا) وعجبت لمن يرغب في الجنة كيف لا يقول (مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ) لأن الله تعالى يقول (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ) اهـ ، قال قتادة : ذكر لنا رجل قال : اللهم ما كنت تعاقبني به في الآخرة ، فعجِّلْهُ لي في الدنيا ، فمرض الرجل مرضاً شديداً فأضنى ، حتى صار كأنه هامة ، فقيل له هلاَّ دعوتَ الله بالعافية والصحة والغنى ؟ قل : (اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فدعا بها فبرىء ، وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال يارسول الله : إنّي أُرَوَّعُ في منامي قال قل (أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامات من غضبه ، وعقابه ، وشر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضروني) ﴿ وَزَكَرِيّا ﴾ واذكر خبر زكريا من أنبياء بني إسرائيل ﴿ إذْ نادىٰ رَبَّهُ ﴾ وقال ﴿ رَبِّ لاَ تذَرْني

(١) جزء من حديث رواه أحمد والترمذي والنسائي ، مختصر ابن كثير ٢ / ٥١٩ .

﴿ فَرْداً ﴾ هذه العبارةُ تضرع ودعاء أي هب لي ولداً ولا تدعني وحيداً بلا ولد ، وذلك لما بلغ عمر زكريا عليه السلام مائة سنة ، وبلغ عمر زوجته تسعاً وتسعين ، ولم يرزق لهما ولد ، أحب أن يرزقه الله من يؤنسه ، ويقويه على أمر دينه ودنياه ، ويكون قائماً مقامه بعد موته ، فدعا ثم رد الأمر إلى مولاه مستسلماً ومنقاداً لمشيئته فقال ﴿ وأنتَ خيْرُ الوارِثِينَ ﴾ خير من يبقى بعد من يموت فحسبي أنت إن لم ترزقني وارثاً ، فهو ثناء على الله تعالى بأنه الباقي بعد فناء الخلق ، وله ميراث السموات والأرض ﴿ فاسْتَجبْنا لَهُ ﴾ أي دعاءه في حق الولد ﴿وَوَهبْنا لَهُ يَحْيىٰ ﴾ المشهور أن يحيى قُتل قبل موت أبيه ، وهذا لا يقدح في شأن زكريا فإن الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا مستجابي الدعوة ، لكن أثر بعض الدعوات لا يظهر في هذا الموطن للحكمة الإلهية ﴿ وأصْلَحْنَا لَهُ زوْجَهُ ﴾ ايشاع بنت عمران أي جعلناها ولوداً بعد أن كانت عقيماً ، فإنها لم تلد قط إلاَّ بعد أن بلغت تسعاً وتسعين سنة ﴿ إنّهُمْ كَانُوا يُسارِعونَ في الخيْراتِ ﴾ الضمير عائد إلى زكريا وزوجته ويحيى أو الأنبياء المذكورين أي إنهم كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخيرات ﴿ وَيَدْعُوْنَنَا ﴾ حال كونهم ﴿ رَغَبَاً ﴾ راغبين في اللطف والجمال ﴿ وَرَهَباً ﴾ خائفين من القهر والجلال ، أو راغبين فينا وراهبين مما سوانا ، والرغبة العطاء الكثير لكونه مرغوباً ﴿ وَكانُوا لنا خاشِعينَ ﴾ عابدين في تواضع وضراعة ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، ولكن شأن الأنبياء أعلى ، فلهم خشوع كامل في القلب والقالب جميعاً ، والمعنى أنهم نالوا من الله ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة ، فليفعل من أراد الإجابة مثل ما فعلوا ، وليتخلق بتلك الأخلاق ﴿ والّتي أحْصَنتْ فَرْجَها ﴾ المراد بها مريم بنت عمران ، وكنى به عن السوءة وكثر حتى صار كالصريح فيه ، أي اذكر خبر مريم التي حفظت سوأتها حفظاً كلياً من الحلال والحرام ﴿ فَنفخْنا فِيها ﴾ أي أحيينا عيسى كائناً في جوفها ﴿ مِنْ رُوحِنا ﴾ من الروح الذي هو من أمرنا ، وقال السهيلي : النفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضيف القدس إلى القدوس ، ونزه القدوس ، ونزه المقدسة عن الظن الكاذب والحدس ﴿ وَجَعلْناها وابْنَها ﴾ أي حالها ﴿ آيةً ﴾ عظيمة ﴿ للعَالَمينَ ﴾ وعلامة دالة على القدرة الكاملة ، لأهل زمانها ولمن بعدها ، فإن من تأمل في ظهور ولد ، من بتول عذراء من غير فحل ، تحقَّق كمال قدرته تعالى ، ومن عجائب عيسى عليه السلام ، أن أمه ذهبت به إلى صباغ ، وقالت له : خذ هذا الغلام وعلمه شيئاً من صنعتك ، فأخذه منها ، وقال ما اسمك ياغلام ؟ فقال : عيسى بن مريم ، فقال له ياعيسى خذ هذه الجرة ، واملأ هذه النقائر من هذا النهر ، ففعل ، فأعطاه الصباغ الثياب وقال له : ضع كل لونٍ من ثيابه في نقير ، ثم تركه وانصرف إلى منزله ، فأخذ عيسى الثياب جميعاً ووضعها في نقير واحد ، ووضع عليها الأصباغ جملة واحدة ، وانصرف إلى أمه ، ثم عاد من الغد ، وجاء الصباغ فرأى الثياب والأصباغ كلها في نقير واحد أي

في برميل واحد فغضب وقال : أتلفتني وأتلفت ثياب الناس ، فقال له عيسى : ما دينك ؟ قال : يهوديٌّ فقال له قل « لا إله إلا الله وأني عيسى روح الله » ثم أدخل يدك في هذا النقير ، وأخرج كل ثوب على اللون الذي يريده صاحبه ، فهداه الله تعالى ففعل ، فكان الأمر كما قال عيسى ﴿ **إِنَّ هَـٰذِهِ** ﴾ أي ملة التوحيد والإسلام ﴿ **أُمَّتُكُمْ** ﴾ أي ملتكم التي يجب أن تحافظوا على حدودها ، وتراعوا حقوقها ﴿ **أُمَّةً واحِدَةً** ﴾ أي غير مختلفة فيما بين الأنبياء ، فإنهم متفقون في الأصول ، وإن كانوا مختلفين في الفروع بحسب الأمم والأعصار ، والأمة : جماعة أرسل إليهم رسول ، فأصلها القوم الذين يجتمعون على دين واحد ﴿ **وأَنَا رَبُّكُمْ** ﴾ لا إله لكم غيري ﴿ **فَاعْبُدُونِ** ﴾ خاصة لا غير ﴿ **وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ** ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة ، أي جعل الناس أمر الدين قِطَعاً ، واختلفوا فيه فصاروا فِرَقاً ، كأنه قيل ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي اجتمعت عليه كافة الأنبياء ؟ حيث جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قِطَعاً فأصاب كل جماعة قطعة من الدين ، فصاروا بتقطيع دينهم كأنهم قطع شتى ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿ **كُلٌّ** ﴾ أي كل واحدة من الفرق المتقطعة ﴿ **إِلَيْنَا** ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ **رَاجِعُونَ** ﴾ بالبعث فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي بعض الصالحات ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي والحال أنه ﴿ **مُؤْمِنٌ** ﴾ بالله ورسوله ﴿ **فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ** ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله والسعي في الأصل : المشيُ السريع ، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً ، وأكثر ما يستعمل في الأفعال المحمودة ﴿ **وَإِنَّا لَهُ** ﴾ أي لسعيه ﴿ **كَاتِبُونَ** ﴾ أي مثبتون في صحائف أعمالهم ، لا نغادر من ذلك شيئاً ﴿ **وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ** ﴾ أي وممتنع البتة على أهل القرية المهلكة ، عدم رجوعهم إلينا للجزاء ، على معنى أن عدم رجوعهم المحقق ممتنع ، وتخصيص امتناع رجوعهم بالذكر ، لأنهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم ﴿ **حتّى إذا فُتِحَت يأجوجُ ومأجُوجُ** ﴾ حتى حرف يُبتدأ بعدها الكلام غاية لما يدل عليه ما قبلها ، كأنه قيل : يستمرون على ما هم عليه من الهلاك ، حتى إذا قامت القيامة يرجعون إلينا ، ويأجوج ومأجوج قبيلتان من الإنس ، والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي والحال أن يأجوج ومأجوج ﴿ **مِنْ كُلِّ حَدَبٍ** ﴾ مرتفع من الأرض ﴿ **يَنْسِلُونَ** ﴾ ينزلون مسرعين ، من نَسَلَ الذئبُ إذا أسرع في مشيه ، روي أنهم يسيرون في الأرض ، ويقبلون على الناس من كل موضع مرتفع ﴿ **واقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ** ﴾ المراد ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء ﴿ **فإذا هي شَاخِصَةٌ أبصَارُ الّذينَ كَفَروا** ﴾ يقال شخص بصره فهو شاخص إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف بصره ، وفي الآية دلالة على أن قيام الساعة ، لا يتأخر عن خروج يأجوج ومأجوج ﴿ **يا وَيْلَنَا** ﴾ أي يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك ﴿ **قَدْ كُنّا في غَفْلَةٍ** ﴾ تامة في الدنيا ، والغفلة سهو يعتري من قلة التحفظ والتيقظ ﴿ **مِنْ هذا** ﴾ أي

من البعث والرجوع إليه للجزاء ، ولم نعلم أنه حق ﴿ **بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ اضراب عما قبله أي لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر ، بل كنا ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب ﴿ **إِنَّكُمْ** ﴾ ياأهل مكة ﴿ **وما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي والأصنام التي تعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿ **حَصَبُ جَهَنَّمَ** ﴾ اسم لما يحصب أي يُرمى في النار فتهيج به والمعنى تحصبون في جهنم وترمون فتكونون وقودها ﴿ **أَنْتُمْ لَهَا وارِدونَ** ﴾ داخلون على طريق الخلود ، والخطاب لهم ولما يعبدون تغليباً ﴿ **لوْ كانَ هَؤُلاَءِ** ﴾ الأصنام ﴿ **آلِهَةً** ﴾ على الحقيقة كما يزعمون ﴿ **ما وَرَدُوها** ﴾ ما دخلوها ﴿ **وكُلٌّ** ﴾ من العابدين والمعبودين ﴿ **فيها خَالِدونَ** ﴾ لا خلاص لهم منها ﴿ **لَهُمْ فِيها زفيرٌ** ﴾ أي أنينٌ وتنفس شديد ﴿ **وهُمْ فيها لا يسْمَعونَ** ﴾ أي لا يسمع بعضهم زفير بعض ، لشدة الهول وفظاعة العذاب ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يجعلون في توابيت من نار ، عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره ، ثم بين أحوال أضداد هؤلاء فقال ﴿ **إِنَّ الَّذينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنىٰ** ﴾ الخصلة الحسنى التي هي أحسن الخصال ، وهي السعادة ، وهم كافة المؤمنين الموصوفين بالإيمان والأعمال الصالحة ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ المنعوتين بما ذكر من النعت الجميل ﴿ **عَنْهَا** ﴾ أي عن جهنم ﴿ **مُبْعدونَ** ﴾ لأنهم في الجنة ، وشتَّان بينها وبين النار ، لأن الجنة في أعلى عليين ، والنار في أسفل السافلين ﴿ **لاَ يَسْمَعونَ حَسِيسَها** ﴾ الحسيس صوت يُحسُّ به أي لا يسمعون صوتها سمعاً ضعيفاً كما هو المعهود عند كون المصوت بعيداً وإن كان صوته في غاية الشدة ، قال الصادق : كيف يسمعون حسيسها والنار تخمد لمطالعتهم وتتلاشى برؤيتهم ؟ وفي الأثر (تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُزْ يامؤمنُ فقد أطفأ نورك لهبي) .

﴿ **وَهُمْ فيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدونَ** ﴾ دائمون في غاية التنعم والاشتهاء ، والشهوة طلب النفسِ اللذةَ ، وهو بيان لفوزهم بالمطالب إثر بيان خلاصهم من المهالك ، قال ابن عطاء : للقلوب شهوة ، وللأرواح شهوة ، وللنفوس شهوة ، وقد يجمع الله لهم في الجنة جميع ذلك ، فشهوة الأرواح القرب ، وشهوة القلوب المشاهدةُ والرؤية ، وشهوة النفوس الالتذاذ بالراحة والأكل ، والشرب ، والزينة ﴿ **لاَ يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ** ﴾ قال الراغب : الفزع الأكبر هو الفزع من دخول النار ، وقال بعضهم : ذبح الموت بمرأى من الفريقين ، وإطباق جهنم على أهلها ﴿**وَتَتَلَقّٰهُمُ الْمَلاَئِكَةُ** ﴾ أي تستقبلهم ملائكة الرحمة مهنئين لهم ﴿ **هَذا يَوْمُكُمُ** ﴾ أي قائلين هذا اليوم يومكم ﴿ **الَّذي كُنْتُمْ تُوعدونَ** ﴾ في الدنيا وتبشرون بما فيه من فنون المثوبات على الإيمان والطاعة ، واعلم أن الدار الآخرة وثوابها إنما ينال إليها بترك الدنيا وزخارفها ، فمن كان مشتهاه الجنَّة ونعيمها فليترك اللذة في الدنيا ، ومن كان مشتهاه المشاهدات فليقطع نظره عن غير الله تعالى ، قال بعض الحكماء : إن الجنة راحة لا يجدها إلا من ترك

الفضول في الدنيا ، واقتصر على اليسير منها ، وفيها ما تشتهي الأنفس لا يجده إلا أهل الزهد ، وعن بعض الزهاد أنه كان يأكل بقلاً وملحاً من غير خبزْ ، فقال له رجل : اقتصرت على هذا ، قال نعم ، لأني إنما جعلت الدنيا للجنة ، وأنت جعلت الدنيا للمزبلة ، يعني تأكل الطيبات فتصير إلى المزبلة ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ** ﴾ الطي ضد النشر ﴿ **كَطَيِّ السِّجِلِّ** ﴾ وهي الصحيفة أي طياً كطيّ الصحف ﴿ **لِلْكُتُبِ** ﴾ أي كائناً للكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها ، فسجلُّها بعض أجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة ، قيل : لم يُذكر في القرآن من الصحابة رضي الله عنهم أحد باسمه إلا زيد بن حارثة الذي تبناه رسول الله ﷺ ، كما لم يذكر امرأة باسمها إلا مريم ، ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** ﴾ أي نعيد ما خلقناه إعادة مثل بدئنا إياه ، في كونها إيجاداً بعد العدم ﴿ **وَعْداً** ﴾ أي وعدنا الإعادة وعداً ﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ أي علينا إنجازه ﴿ **إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ ذلك لا محالة ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ** ﴾ وهو كتاب داود عليه السلام كما قال (**وَآتَيْنَا** كونها إيجاداً بعد العدم ﴿ **وَعْداً** ﴾ أي وعدنا الإعادة وعداً ﴿ **عَلَيْنَا** ﴾ أي علينا إنجازه ﴿ **إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ ذلك لا محالة ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ** ﴾ وهو كتاب داود عليه السلام كما قال (**وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً**) ، ﴿ **مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ** ﴾ أي بعدما كتبنا في التوراة لأن كل كتاب سماوي ذِكرٌ قال بعضهم : اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية ، دون الأحكام الشرعية ، والكتابُ لما يتضمن الأحكام والحكم ، ويدل على ذلك ما جاء في زبور داود عليه السلام ﴿ **أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ أي عامة المؤمنين بعد إجلاء الكفار كما قال (**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) وهذا وعد منه بإظهار الدين وإعزاز أهله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد أرض الجنة ﴿ **إِنَّ فِي هَٰذَا** ﴾ أي فيما ذكر في السورة الكريمة ، من الأخبار والمواعظ البالغة ، والبراهين القاطعة على التوحيد وصحة النبوة ﴿ **لَبَلَاغاً** ﴾ أي كفاية ﴿ **لِقَوْمٍ عَابِدِينَ** ﴾ أي لقوم همهم العبادة دون العادة ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ** ﴾ يامحمد بما ذكر منَ الشرائع والأحكام ، وغير ذلك من الأمور التي هي مناط السعادة في الدارين ﴿ **إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ، ومنشأ لا نتظام مصالحهم في النشأتين ، وجاء رحمة للكفار أيضاً من حيث أن عقوبتهم أخرت بسببه ، وأمِنوا به عذاب الاستئصال ، والخسف والمسخ ، ثم اعلم أن حياته عليه السلام رحمة ،ومماته رحمة كما قال ﷺ (حياتي خير لكم ومماتي خير لكم ، تُعرض عليَّ أعمالكم ، فما كان من خير حمدت الله تعالى ، وما كان من شر استغفرتُ الله لكم)[1] .

---

(١) الحديث أخرجه البزار ولفظه (إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام ، وقال : حياتي خير لكم ، تحدثون ويُحدث لكم ، ووفاتي خيركم تعرض عليَّ أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله عليه ..) الحديث .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي ما يوحى إليّ إلاّ أن معبودكم الذي يستحق العبادة هو إله واحد لا شريك له في ملكه ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون العبادة لله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإسلام ، ولم يلتفتوا إلى ما يوجبه من الوحي ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ آذَنْتُكُمْ ﴾ أعلمتكم ما أمرت به من وجوب التوحيد والتنزه ﴿ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أي لم اطوه عن أحد منكم، وما فرقت بينكم في النصح وتبليغ الرسالة ﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ أي ما أعلم ﴿ أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ من غلبة المسلمين وظهور الدين ، ولا جرم أن العذاب والذلة يلحقكم ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي ما تجاهرون به من الطعن في الإسلام وتكذيب الآيات ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ من الحسد والعداوة للرسول وللمسلمين ، فيجازيكم عليه ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ أَدْرِي لَعَلَّهُ ﴾ لعل تأخير جزائكم ﴿ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ استدارج لكم وزيادة في افتتانكم ، أو امتحان لكم كيف تعلمون ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ وتمتيع لكم إلى أجل مقدر ، ليكون ذلك حجة عليكم ﴿ قَالَ ﴾ الرسول ﴿ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أي اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ كثير الرحمة على عباده أي المطلوب منه المعونة ﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ فإنهم كانوا يقولون إن المتوعَّد لو كان حقاً لنزل بهم ، فاستجاب الله تعالى دعاء رسوله ، فخيب آمالهم ، وغيَّرَ أحوالهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم ، فعلى العاقل أن لا يغتر بطول العمر ، وكثرة الأموال والأولاد ، فإن الاغترار بذلك من صفات الكفرة نسأل الله العصمة والتوفيق .

تمت سورة الأنبياء والحمد لله رب العالمين ..

● ● ●

فهارس المجلد الثاني

أولاً : فهرس المواضيع
ثانياً : فهرس أطراف الحديث
ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية

أولاً فهرس المواضيع

الموضوع — **« سورة الأنفال »** — **الصفحة**

- صفات المؤمنين الكاملين ٦
- قصة غزوة بدر وسببها واستشارة النبي ﷺ أصحابه ٧
- قيل لعلي : ما بال خلافة عثمان مع خلافتك كانت متكدرة ؟ ٩
- قصة رمي النبي ﷺ في وجوه المشركين التراب ١٢
- قال المسيح : يا معشر الحواريين ، كم من سراجٍ قد أطفأته الريح ؟ ١٣
- لا يمكن الوصول إلى الله إلا بأمرين : بمحبته تعالى وطاعته ، ومتابعة رسوله ١٤
- نزول بني النضير على حكم سعد بن معاذ ، وما كان من أمر أبي لبابة ١٦
- قصة الحارث بن صعصعة مع ندمائه ١٧
- أوحى الله إلى موسى : إني أعلمك خمس كلمات ١٨
- تآمر المشركين على النبي ﷺ في دار الندوة بمكة ١٩
- قال أبو العيناء : كان لي خصماء فشكوتهم إلى أحمد بن داود ٢٠
- قصة الرجل الذي قرأ سورة طه فرفع صوته بآية منها ٢٧
- قصة العابد الذي استأمنه الملك على ابنته ٢٨
- النعمة إنما تُسلب ممن لا يعرف قدرها ومثال ذلك .. إلخ ٣١
- قصة السري السقطي مع الشاب ٣٣
- الحكمة من جمع المسلمين في الصلوات والأعياد ٣٦
- قصة أبي جهل مع عمر رضي الله عنه ، وسبب إسلام عمر الفاروق ٣٧
- قصة الرافضي الذي كان له بغلان يسمى أحدهما أبا بكر والآخر عمر ٣٨
- قصة أخذ النبي ﷺ الفداء من أسرى بدر وما نزل في الحادثة ٣٩
- قصة العباس لما أُسر في بدر ، وما جرى من معجزة للرسول فيما أخبره به ٤٠
- قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم سأل هل له توبة ٤٣

« سورة التوبة »

- بعث النبي ﷺ أبا بكر أميراً على موسم الحج ثم أتبعه بعلي رضي الله عنه ٤٥
- قال بعض الصالحين : إن شئتَ أن تصير من الأبدال ، فحوّل أخلاقك لأخلاق الأطفال ٤٦
- حكاية الشاب الذي عبد الله عشرين سنة ثم عصاه ٤٧
- قصة العباس الذي خاصم المسلمين فقال : ما لكم تذكرون مساوئنا وتنسون محاسننا ؟ ٥١

الموضوع — الصفحة

- ما هي عمارة المساجد الحسية والمعنوية ؟ ٥٣
- قال علي رضي الله عنه : نورت مسجدنا نوَّر الله قبرك يا ابن الخطاب ٥٣
- سبب انهزام المسلمين في غزوة حنين ما داخلهم من العُجب بسبب كثرتهم يومذاك ٥٥
- ما قاله الأنصار لما قسم الرسول ﷺ غنائم حنين ٥٧
- هجرة النبي ﷺ مع أبي بكر إلى المدينة المنورة ٦٧
- قصة « قتيبة بن مسلم » الذي عبر نهر جيحون مع أصحابه دون سفن ٧٠
- رؤي إبليس ناحل الجسم ، مصفر اللون ، فسئل ما الذي نحل جسمك ؟ ٧٠
- قصة الحسن البصري مع الرجل الذي أخبره أن فلاناً يتكلم عليه .. إلخ ٧٣
- قصة الرجل الذي أراد أن يسقي أحد العطشى في غزوة تبوك ٧٤
- ما رآه ﷺ في حادثة المعراج من القوم الذين يزرعون في يوم ويحصدون .. إلخ ٧٦
- قصة الرجل الصالح مع جاريته التي وضعها في مكان ثم لم يرها فيه ٨٣
- قصة ثعلبة الذي طلب من الرسول أن يدعو له بالرزق ووعده بالإحسان ٨٧
- دعوة الرسول الصحابة إلى تجهيز جيش العسرة ، وما أنفقه أبو بكر وعمر ٨٨
- قصة داود عليه السلام الذي طلب من ربه أن يريه الميزان .. إلخ ٩٠
- مرَّ الحسن البصري بشاب وهو يضحك ، فقال له يابنيَّ : هل مررت على الصِراط ؟ ٩١
- قصة عمر بن الخطاب مع الرسول ﷺ لما أراد أن يصلي على أحد المنافقين ٩٢
- سبب جفاء الأعراب بعدهم عن أماكن الوحي وعدم مخالطتهم لأهل العلم ٩٨
- قصة البخيل الذي قطع يد ابنته لأنها تصدقت على فقير ٩٩
- قصة المنافقين الذين بنوا مسجد الضرار وتحريق النبي ﷺ للمسجد ١٠٣
- قصة مرض أبي طالب ودخول الرسول عليه في مرض الموت ودعوته إلى الإسلام وما نزل فيه ١١٠
- قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وتوبةُ الله عليهم ١١٤
- خروج النبي ﷺ إلى الطائف ليستنجد بأهلها بعد أن اشتد عليه أذى كفار مكة ١٢٢
- الكذب على الرسول ﷺ حرام سواءٌ من أجل الترغيب في دينه أو لا ١٢٣

« سورة يونس »

- سخرية المشركين من الرسول ﷺ وانتقاصهم له بأن يتيم أبي طالب ١٢٥
- تطييب البيت بالبخور لا يفيد ، إلا بعد تنظيفه من القاذورات ١٢٥
- إصلاح النفس البشرية إنما يكون بالعبودية ١٢٦

الموضوع — الصفحة

- وصية عيسى للحواريين ، وبيان أن الحكمة لا تنبت إلا في قلب المؤمن المتواضع ١٢٦
- الأمور التي يحسن التعجيل فيها ستة « التوبة ، وقضاء الدين ، وتزويج البكر .. إلخ ١٢٦
- الدنيا مزرعة الآخرة ، فمن زرع الخير حصد السلامة .. إلخ ١٢٨
- إذا بلغ الإنسان أربعين سنة ولم يغلب خيرُه شرَّه ، قبَّل الشيطان بين عينيه .. إلخ ١٢٨
- حكاية الطبيب والخنفساء ، وما اعترض به بعض الناس على خلقها ، والحكمة في وجودها ١٢٩
- قول بعض الصالحين : عجبت من ثلاثة : ممن آمن بالنار ويعلم أنها وراءه كيف يضحك .. إلخ ١٣٠
- حكاية النعمان بن المنذر لما جلس تحت شجرة ليلهو ، وما ذكَّرَهُ به بعض العقلاء ١٣٠
- الحكمة من تأخير عقوبة الطغاة والمجرمين ١٣١
- تمثيل الدنيا بالحلوة الخضرة لافتتان الناس بلذاتها ، وهي في الحال حلوة وفي المآل مرة ١٣٣
- إقامة الحجة على المشركين بمكثه ﷺ بينهم أربعين سنة ١٣٣
- كيف دخلت عبادة الأصنام على قوم نوح ؟ وأسباب ذلك ١٣٤
- وصية الحكيم لأولاده بأن يجتمعوا ولا يتفرقوا وتمثيل ذلك لهم بحزمة العصيّ .. إلخ ١٣٥
- قال يهودي لعلي : ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم ؟ وجوابه المسكت لليهودي ١٣٦
- قصة النحوي الذي ركب مع ملاح في السفينة وقال له ممازحاً : أتعرف النحو ؟ ١٣٨
- حكاية بعض الملوك الذي بنى مدينة ، وتأنَّق وتغالى في حسنها وزينتها ثم صنع طعاماً ودعى الناس إليه .. إلخ ١٣٩
- كان علي رضي الله عنه يقول : سبحان من بصَّر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم ١٤١
- إذا اجتمع في الإنسان الحُمْقُ والعمى ، انسدَّ عليه باب الهدى ، ولهذا شبَّه الله الكافر بالأصم الأعمى ١٤٤
- قال بعض العلماء : خمسة أشياء ضائعة : المطر في الأرض السبخة ، والسراج في ضوء الشمس .. إلخ ١٤٥
- الناس غافلون وهو مشغولون بالظواهر عن الحقائق ، فلذلك نادى الله هؤلاء الغافلين .. إلخ ١٤٧
- حكاية مالك بن دينار لما كان في سفينةٍ مع جماعة .. إلخ ١٤٧
- قصة إبراهيم بن أدهم ، وكان له سلطان ، ومملكة ، فرأى في نومه : لا تؤثر الفاني على الباقي .. إلخ ١٤٨
- حكاية عمر البناني مع العابد الذي كان يجمع الحصى .. إلخ ١٤٩
- قصة الولي الذاكر الذي كان يذكر الله تعالى وبجانبه أسد .. إلخ ١٤٩
- أوصاف أولياء الله الصادقين ١٥٠
- لا يشترط في الولاية وجود الكرامة ، ولكن يشترط المعرفة الإلهية والتقوى الصادقة ١٥٢
- من دعاء أبي بكر الصديق : « اللهم ابسطْ ليَ الدنيا وزهِّدْني فيها ، ولا تزْوِها عني وترغبني فيها » ١٥٧
- دعا موسى على فرعون بالهلاك ، وأمَّن على ذلك هارون ، وأجيبت الدعوة بعد أربعين سنة ١٥٧

الموضوع — الصفحة

- قصة فرعون لما غار نهر النيل ، وطلب الناس منه أن يُجري لهم النهر ، فقال : إني لست راضٍ عنكم .. إلخ ١٥٩
- بواسطة تعلق الروح بالجسد ، يعرف الميت من يزوره ويأنس به ويردُّ سلامه ١٦٠
- فرعون مع طغيانه آمن لما شعر بالغرق ، وفرعون هذه الأمة « أبو جهل » لم يظهر التوبة .. إلخ ١٦٠
- قصة يونس عليه السلام لما ترك قومه وذهب إلى البحر ، وهاج بهم فرموه فيه إلخ ١٦١
- قصة طغاة مكة حين ألقوا سلى الجزور على رسول الله ﷺ وما كانوا يفعلونه معه عليه السلام ١٦٤

« سورة هود »

- معنى قول النبي ﷺ (الدنيا سجن المؤمن) وقصة اليهودي مع القاضي المسلم ١٦٦
- قال حذيفة : المنافقون اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ كانوا يومئذٍ يُسرُّون ، واليوم يجهرون ١٦٧
- إذا كانت منية أحد ببلد ، دفعته الحاجة إليها ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتني ١٦٧
- قصة موسى عليه السلام لما أمر بالذهاب إلى فرعون لتبليغه الدعوة ، وقصة الصخرة .. إلخ ١٦٨
- كيف يستر الله المؤمن يوم القيامة ويفضح المرائي المنافق ؟ ١٧٣
- الهوى إما حيواني ، وإما شيطاني ، وإما رحماني وتفصيل ذلك ١٧٧
- قال يحيى بن معاذ : الناس ثلاثة أصناف : صنف شغله معاده عن معاشه ، ورجل شغله معاشه .. الخ ١٧٧
- حكاية العجوز المؤمنة لما مرَّت على نوح وهو يصنع السفينة .. إلخ ١٧٩
- قصة نوح مع إبليس لما ركب السفينة ، وقول نوح له : ويلك قد غرق أهل الأرض من أجلك .. إلخ ١٨٠
- لا تنفع النصيحة ولا تنجع إلا إذا كانت خالصة ، وقصة الرجل الذي كان يأخذ طعاماً للهرة .. إلخ ١٨٢
- حكاية السقاء الذي كان ينقل الماء مع الصائغ الذي كان قد تعرَّض لفتاة بمسٍّ يدها ١٨٤
- معجزة نبي الله صالح الناقة ، وقصة خروجها من الصخرة ١٨٦
- تكريم إبراهيم عليه السلام للأضياف ، وأدبُ الضيافة ١٨٧
- مجادلة إبراهيم للملائكة حين جاءوا لإهلاك قوم لوط ١٨٨
- سبب هلاك امرأة لوط وعدم نجاتها ١٩١
- نصيحة مالك بن دينار لشاب كان يلهو ولا يقلع عن المعصية ١٩٤
- شعيب عليه السلام يسمى « خطيب الأنبياء » لفصاحته وقوة حجته ١٩٥
- فرعون مثل لكل طاغية جبار ، ولهذا يتقدَّم قومَه إلى النار ١٩٦
- ما معنى قوله تعالى ﴿ **خالدين فيها مادامت السموات والأرض** ﴾ ؟ ١٩٨
- التقليد جائزٌ في الفروع ، ولا يجوز في أصول الدين والمعتقدات ١٩٩
- الميلُ اليسير إلى الظالمين يوجب نار جهنم ، فكيف بمن ينخرط فيهم ؟ ٢٠٠

الموضوع — الصفحة

- أوحى الله إلى « يوشع بن نون » إني مهلك أربعين ألفاً من قومك من خيارهم .. إلخ ٢٠١
- قصة الأنصاري الذي كان يبيع التمر مع المرأة التي أعجبه حسنها .. إلخ ٢٠١
- وصيةُ السلف « من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .. » ٢٠٢
- قصة الجنيد مع خاله سري السقطي في أمر الوعظ والإرشاد ٢٠٤

« سورة يوسف »

- قال ابن عطاء : لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح ٢٠٥
- لماذا سمَّى الله قصة يوسف بأحسن القصص ؟ ٢٠٥
- اجتمع في يوسف الصدِّيق : شرف النبوة ، وحسن الصورة ، وتعبير الرؤيا .. إلخ ٢٠٥
- أقسام الرؤيا المنامية ثلاث : حديث النفس ، وتخويف الشيطان ، وبشرى الرحمن .. إلخ ٢٠٦
- الصحيح أن إخوة يوسف ليسوا أنبياء لما صدر منهم من كبائر الذنوب ٢٠٧
- حكاية ابن السكيت مع المتوكل ، وعثرته بلسانه سبَّبت هلاكه ٢٠٩
- دعوات يوسف الصديق وهو في الجب ، وتفريجُ الله كربته ٢٠٩
- أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر ، وابنة شعيب ، وأبو بكر الصديق ٢١٢
- ما معنى البرهان في الآية الكريمة ؟ ٢١٣
- ما المراد بالهمِّ في الآية الكريمة ﴿ ولقد همَّتْ بهِ وهمَّ بها ﴾ ؟ ٢١٣
- عدم ذكر توبة يوسف دليل على عدم معصيته .. إلخ ٢١٤
- من هم الذين تكلموا في المهد ؟ وبماذا نطق شاهد يوسف ؟ ٢١٤
- تآمر النسوة على يوسف الصدِّيق ، وانبهارهنَّ من حسنه وجماله ٢١٦
- قال بعض العلماء : من لطف الله بنا عدم رؤيتنا للملائكة .. إلخ ٢١٦
- قال بعض الحكماء : لو قال يوسف : ربِّ العافية أحبُّ إليَّ لعافاه الله ، والبلاء موكَّلٌ بالمنطق ٢١٧
- قصة الرجل الذي وقعت عينه على جارية حسناء ، ورأي في نومه يوسف الصديق ٢١٧
- لماذا أُدخل يوسف السجن مع تأكد العزيز من براءته من التهمة ؟ ٢١٧
- يوسف الصدِّيق نموذج للداعية المؤمن ، يدعو إلى الله وهو في السجن ٢١٨
- الصلب أشدُّ أنواع القتل وأول من استعمله الملك في زمن يوسف ٢٢٠
- قصة الرجل الذي رأى في منامه كأنه نال من الرسول وتعبير رؤياه ٢٢١
- ثناء الرسول ﷺ على يوسف بقوله (لو كنت مكانه ولبثتُ في السجن ما لبث لأجبت الداعي) ٢٢٣
- يجوز تقلد الحكم من يد الكافر أو الظالم الجائر ، فقد تقلد يوسف الحكم من ملك مصر ولم يكن مؤمناً ٢٢٤

الموضوع **الصفحة**

- قصة العالم ابن الشحنة مع « تيمور لنك » الطاغية الجبار الذي كان يسأل العلماء ليبطش بهم ٢٢٥
- لما أراد إبراهيم بن أدهم دخول الحمام فمنعه الحمامي بدون أجرة وقصته في ذلك ٢٢٦
- كانت مصر تسمى « أرض الجبابرة » لزيادة الظلم والجور فيها ٢٢٦
- قصة إخوة يوسف لما دخلوا على أخيهم ، وما جرى بينهم وبينه من المحاورة ٢٢٦
- لماذا أمر يعقوب أبناءه بالدخول إلى مصر من أبواب متفرقة ؟ وإثبات أن العين حقٌّ ٢٢٨
- بماذا كان يعوِّذ النبي ﷺ الحسن والحسين ؟ ٢٢٩
- بحث هام في الحيلة الشرعية والحيلة المحرمة ٢٣٠
- حكم السارق في شريعة يعقوب الاسترقاق والاستعباد خلافاً لحكم ملك مصر ٢٣٠
- قصة المرأة التي مات زوجها وابناها وبقيت وحيدة فريدة ٢٣٢
- تقبيل النبي ﷺ ابنه إبراهيم وبكاؤه عليه ٢٣٣
- لا يحرم البكاء على الميت ، إنما يحرم النواح والعويل ، وقوله ﷺ (إنما نهيتكم عن صوتين أحمقين) ٢٣٤
- المصابون بالعمى من الصحابة ، ولماذا فقد يعقوب بصره ؟ ٢٣٤
- رسالة يعقوب إلى عزيز مصر بعد احتجاز ولده بنامين ٢٣٥
- قصة الفتى الذي اعتقل لسانه عند الموت بسبب عقوق الأم ٢٣٧
- اجتماع يعقوب بابنه يوسف بعد غياب أربعين سنة ٢٣٨
- سجود يعقوب وأبناؤه ليوسف كان سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ٢٣٩
- كانت بيوت أزواج النبي ﷺ مبنية من جريد النخل ، وكان عليه السلام زاهداً ٢٤٠
- وصية يعقوب ليوسف أن يدفنه بالشام إلى جانب أبيه إسحاق ٢٤٠
- قصة ميمون بن مهران مع عمر بن عبد العزيز وسبب بكائه ٢٤١
- موت الفجأة رحمةٌ للمؤمن ، وأخذة سخط على الكافر ، وما ورد فيه ٢٤٢
- من وصايا عيسى عليه السلام : لا تجالسوا الموتى ، قالوا ومن الموتى ؟ قال عبيد الدنيا ٢٤٣

« سورة الرعد »

- آيات الله في الكون واضحة وإن عمي عنها الكفار ، والشمس شمسٌ وإن لم يرها الضرير ٢٤٥
- كون الأرض ممتدة ومنبسطة لا ينافي كرويتها ، والكرة إذا كانت كبيرة تشاهد كالسطح ٢٤٥
- عجائب الله عز وجل في الأرض ، والجبال ، والأنهار ، والثمار ٢٤٦
- الإنسان هو العالَم الصغير ، فكما في العالم الكبير أرض ، وجبال ، ومعادن ، وبحار ، وأنهار .. إلخ ٢٤٦
- المرء أسيرٌ في يد نفسه ، والهوى كالغُلِّ في عنقه ٢٤٧

الموضوع — الصفحة

- أوحى الله إلى داود أن أنذر الصدِّيقين وبشِّر المذنبين .. إلخ ٢٤٨
- قصة بعض العصاة الذي مات ، فلما أرادوا دفنه خرجت حية عظيمة ٢٤٨
- معجزة كل نبيٍّ تتفق مع عصر وزمانه ، فمعجزة موسى العصا .. إلخ ٢٤٩
- قصة عليٍّ لما أقبل بصفين وليس معه أحدٌ من الحرس .. إلخ ٢٥٠
- ما يقوله إذا سمع الرعد « سبحان الذي يسبِّح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته .. » ٢٥١
- قصة أحد فراعنة العرب ، الذي دعاه الرسول فسخر ، واستهزأ ثم أصابته صاعقة ٢٥١
- السجود بين يدي الأمراء والعظماء والشيوخ حرام وهو من الكبائر ٢٥٢
- المطر يتكون من الأبخرة التي تصعد إلى السماء ، وليس فيه ما يعارض الدين ٢٥٣
- قصة موسى حين ناجى ربه قال يارب : خلقت خلقاً ثم ربيتهم ثم تجعلهم في نارك .. إلخ ٢٥٥
- عدد الأعضاء المكلفة في الإنسان ثمانية « العينُ ، والأذنُ ، واليدُ ، والبطن .. إلخ ٢٥٥
- صلة الرحم بالتفقد بالزيارة ، والإهداء ، والإعانة ، والسلام ، ولا توقيت فيها ٢٥٥
- زيارة الإخوان والصالحين وإكرامهم واجبٌ على المسلم ، ومن تمام الزيارة المصافحة ٢٥٥
- قصة أويس القرني الذي نبحه الكلبُ ، فقال له لا تنبحني .. إلخ ٢٥٦
- قصة شقيق مع عبد الله بن المبارك ٢٥٦
- الجودُ بذلُ الشيء من غير عوض ، ومن طمع في شكرٍ أو ثناء فهو بيَّاعٌ لا جواد ٢٥٦
- قصة الرجل الذي كان يعبد الصنم ثم أسلم ٢٥٧
- قصة الملك الذي أهدي له قدح مرصَّع بالجوهر ٢٥٨
- قصة السُرَّاق الذين نزلوا على أهل رباط وقالوا نحن غُزَاةٌ ٢٦٠
- كان مرثد لا تنقطع دموعُ عينيه من البكاء ، فسئل فقال لو أن الله وعدني أن يحبسني في حمام .. إلخ ٢٦١
- تغيير الأحكام بحسب المصلحة ، كالطبيب يعامل المريض بما يناسبه من العلاج ٢٦٢
- كان عمر يبكي وهو يطوف بالبيت ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة .. إلخ ٢٦٣
- قال ابن المبارك : فساد هذه الأمة من قبل الخواص : العلماء ، والغزاة ، والزهَّاد ، والتجار ، والحكام ٢٦٤
- شهادة عبد الله بن سلام بالنبوة للرسول عليه السلام ، وما نزل فيه ٢٦٥

« سورة إبراهيم »

- رؤيا بعض الصالحين للإمام النسفي في المنام وما أنشده من الشعر ٢٦٦
- سبب تذبيح فرعون لأبناء بني إسرائيل ٢٦٨
- كان عبد الله بن مسعود يقول : كذب النسابون ويقرأ الآية الكريمة .. إلخ ٢٦٨

الموضوع — الصفحة

- في المثل « من آذى جاره ورثه اللهُ داره » وقصة الزمخشري ٢٧٠
- خطبة إبليس في أتباعه في نار جهنم ، وهي الخطبة البتراء ٢٧٢
- الحديث عن عذاب القبر وما فيه من أهوال ، وسؤال الملكَيْن ٢٧٤
- المثل الذي ضربه الله عز وجل لأهل مكة ٢٧٤
- أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ٢٧٥
- شكوى بعض الفقراء ، وقصة الواعظ معه الذي نبهه إلى نعم الله الجليلة عليه ٢٧٦
- قصة ابن السمّاك مع الخليفة وقوله له : تباً لمُلْكٍ يذهب بين شربةٍ وبولة ٢٧٦
- قول بعض العلماء : إن نعمة الله على العبد في شربة ماء عند العطش أغلى من ملك الأرض كلها ٢٧٦
- راعى إبراهيم عليه السلام الأدب مع الله تعالى حين قال : ومن عصاني ، ولم يقل : ومن عصاكَ ٢٧٧
- يلقى إبراهيم أباه يوم القيامة وعلى وجه آزر الغَبرةُ والقترة ٢٧٨
- استدلال بعض العلماء على وجود الآخرة بموت المظلوم مظلوماً .. إلخ ٢٧٩
- سؤال السيدة عائشة الرسول ﷺ أين يكون الناس حينما تُبدَّلُ الأرض غير الأرض .. إلخ ٢٨٠

« سورة الحجر »

- خروج العصاة من المؤمنين من النار ، وتمني الكفار لو كانوا مسلمين ٢٨١
- قال بعض العلماء : لولا الحمقى لخربت الدنيا ٢٨١
- السحر حرام وضلال ، ومن يداوي الناس من السحر فعمله مباح ٢٨٣
- سجود الملائكة لآدم كان سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ٢٨٥
- لم ينظر إبليس سرَّ الخلافة المودعة في آدم بل نظر إلى خلقته الطينية ٢٨٦
- قال إبليس : وعزتك لا أبرح أُغوي بني آدم مادامت أرواحهم في أجسامهم .. إلخ ٢٨٧
- إبليس سمسار على النار ، وبضاعته الدنيا .. إلخ ٢٨٧
- شكى قوم لأبي مدين وسوسة الشيطان ، فقال : خرج من عندي الساعة .. إلخ ٢٨٧
- قال الإمام أحمد : أعداؤك أربعة : الدنيا ، والشيطان ، والنفس ، والهوى » ٢٨٧
- قيل للشيطان : ما حالك مع الصالحين ؛ قال : كمن يبول في البحر ، أو كمن يطفىء أنوار الشمس بفمه ، هل ترى أجهل منه ؟ ٢٨٧
- النار طبقات ودركات : جهنم ، ولظى ، والحطمة ، والسعير ، والجحيم .. إلخ ٢٨٨
- ليس في الجنة أيام وساعات ، لعدم وجود الشمس والقمر ، بل هي تقديرات ٢٨٩
- أهل الجنة لا يصلون ولا يصومون ، لأن الجنة دار التشريف لا دار التكليف ٢٨٩

الموضوع — الصفحة

- لا عبرة بالنسب والصحبة والقرابة ، بل بالإيمان والعمل الصالح ٢٩٠
- قال ابن عباس : ما خلق الله نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ وما أقسم الله بحياة أحدٍ غيره ٢٩١
- الحكمة من قسم الله ببعض المخلوقات ٢٩١
- للمؤمن فراسة لأنه ينظر بنور الله ٢٩٢
- حكاية الشخص الذي كان يبيع الخمر مع القرد الظريف ٢٩٣
- سبَّ رجل زين العابدين فتغافل عنه ، فقال له : إياكَ أعني ، فقال : وعنك أعرض ٢٩٤
- قصة مالك رحمه الله مع والي المدينة جعفر العباسي الذي نال منه ٢٩٤
- معنى الحديث الشريف « ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن » ٢٩٥
- من حفظ القرآن فظنَّ أن أحداً أوتي أفضل منه فقد حقَّر عظيماً ٢٩٥
- المقتسمون من طغاة مكة واتهامهم الرسول بأنه ساحر ، أو كاهن أو مجنون .. إلخ ٢٩٦
- ما أصاب المستهزئين بالرسول ﷺ من أنواع البلاء ، وطريقة موتهم ٢٩٧
- لو عاين الإنسان جمال الفاعل ، لسهل عليه ألم الفراق ، كما في قصة اللاتي قطَّعن أيديهن ٢٩٧
- الرسول ﷺ سيد العابدين ، وسيد الشاكرين ، وقد عبد ربه حتى أتاه اليقين ٢٩٧

« سورة النحل »

- وسائط النقل متعددة من الخيل ، والبغال ، والإبل ، والحمير .. إلخ ٢٩٩
- من تفكرَّ في الحبة والنواة تقع في الأرض ، فينشقُّ أسفلها وأعلاها .. إلخ ٣٠١
- سميَّ الله الكافر دابة ، ولا يحنث الإنسان بركوبه ٣٠١
- قال بعضهم : خذ الطريق ولو دارت ، واسكن المدن ولو جارت ٣٠٢
- التواضع باب من أبواب الجنة ، والفخر باب من أبواب النار ٣٠٣
- ما كان يفعله المشركون لتنفير الناس من الدخول في الإسلام ٣٠٣
- إذا احتضر المؤمن جاءه ملك الموت فقال : السلام عليك ياوليَّ الله ، وبشَّره بالجنة ٣٠٥
- اخرجوا إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً عادلاً ٣٠٧
- كان أهل الجاهلية إذا ولدت له أنثى هَجَر البيت سخطاً على أهله ٣٠٩
- قال مالك بن دينار : يا حملة القرآن ماذا زرع القرآنُ في قلوبكم .. ؟ ٣١٠
- قدرة الله الباهرة في إخراج الحليب من بين الفرث والدم ٣١١
- قصة الأعرابي الذي سأل النبي عن استطلاق بطن أخيه فقال : اسقه عسلاً ٣١٢
- من حكمته تعالى أن فاوت بين الغني والفقير ، وذلك لتقوم مصالح البشر ٣١٣

الموضوع **الصفحة**

- سأل رجل النبي ﷺ عن الساعة ، فقال : وماذا أعددت لها ؟ ٣١٥
- شكر النِّعم إنما يكون باستعمالها فيما خلقت له ٣١٥
- إمرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت ٣١٧
- جمع الله علم الأولين والآخرين في أشياء ستة في آية ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان ..** ﴾ ٣١٧
- إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، فلا تغترُّوا به .. إلخ ٣١٨
- الهداية أو الضلال مبنيان على اختيار الإنسان ، ولا إجبار ولا إكراه ٣١٩
- حياة المؤمن طيِّبة ، لأنه إن كان فقيراً يطيب عيشه بالقناعة ٣١٩
- رؤي الإمام أحمد في المنام وهو يمشي ويتبختر ٣٢٠
- فوائد الاستعاذة عند تلاوة القرآن ، الاحتراز عن وساوس الشيطان ٣٢٠
- تغيير الأحكام لتحقيق مصالح البشر ٣٢٠
- اتهام المشركين بأن الذي علَّم القرآن لرسول الله غلامٌ رومي يسمى « جبراً » ٣٢١
- قصة تعذيب المشركين لعمار بن ياسر رضي الله عنه ٣٢٢
- قصة الصحابيين اللَّذين أسرهما مسيلمة الكذاب ٣٢٢
- ثناء الأمم العاطر على إبراهيم الخليل ، وكونه أمَّة وحده ٣٢٦
- اختلاف اليهود في اليوم الذي فُرض عليهم فيه ترك العمل واختيارهم يوم السبت ٣٢٦
- قصة التلميذ مع الشيخ أبي محمد عبد السلام الذي طلب منه أن يوجب عليه أوراداً .. إلخ ٣٢٧
- قتلُ وحشيٍّ لحمزة سيد الشهداء ، ثم لمَّا أسلم قال ﷺ « غيِّب عني وجهك » ٣٢٨

« سورة الإسراء »

- الأدلة على أن النبي ﷺ قد عُرج بروحه وجسده من الآية الكريمة ٣٢٩
- الغاية من الإسراء والمعراج إطلاع النبي الأعظم ﷺ على بدائع ملكوت الله ٣٢٩
- ما رآه النبي ﷺ من أحوال العصاة ، المرابين ، والزناة ، وخطباء الفتنة .. إلخ ٣٣٠
- قصة أبي جهل مع النبي ، لما حدَّثه بحادثة الإسراء .. إلخ ٣٣١
- إفساد بني إسرائيل في الأرض ، وما سلَّط عليهم من المجوس الذين أهانوهم ٣٣٢
- ما يدعو به القارىء عند ختم القرآن من الأدعية المأثورة ٣٣٤
- العجلةُ من الشيطان إلا في ستة مواضع : أداء الصلاة في أول وقتها ، ودفن الميت ٣٣٤
- كان الشافعي رحمه الله ينام سويعات ويقضي بقية الليل مضطجعاً يفكرُ في القرآن .. إلخ ٣٣٥
- قال الحسن البصري : « أنصف من أنصفك ياابن آدم ، أنصفَ من جعلك حسيب نفسك » ٣٣٦

الموضوع **الصفحة**

- تنبيه إلى فهم خاطىء في الآية ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها .. ﴾ ٣٣٦
- قصة الأسد ، والذئب ، والثعلب ، وما جرى لهم في الصيد ٣٣٧
- اجتمع بباب عمر عدة من الصحابة ، فخرج الإذن لبلال وصهيب ٣٣٨
- قصة الرجل الذي سأل عمر أنه يلي من والديه ما كانا وليا منه في الصغر .. إلخ ٣٣٩
- سئل ابن عُيينة عن الصَّدقة عن الميت ، فقال : كل ذلك واصل إليه .. إلخ ٣٣٩
- تبديل عشر خصالٍ مذمومة بعشر خصالٍ محمودة : أولها البخل .. إلخ ٣٤٢
- الزنى فيه ست خصال قبيحة ، ثلاث في الدنيا ، وثلاثٌ في الآخرة ٣٤٢
- قصة المسكي الذي كانت تفوح منه رائحة المسك ، وسببُه العفة والطهارة ٣٤٢
- قصة موسى عليه السلام وقول إبليس له : « اذكرني حين تغضب ، واذكرني حين الزحف .. » ٣٤٣
- ما يقع في النفس من قصد المعصية خمس مراتب : الهاجس ، ثم الخاطر ، ثم حديث النفس ، ثم الهمُّ .. إلخ ٣٤٥
- كان ﷺ إذا مشى كأنما الأرضُ تُطوى له من نشاطه وقوة عزمه ٣٤٥
- قال يحيى بن معاذ : ما طابت الدنيا إلا بذكرك ، ولا الآخرة إلا بعفوك ، ولا الجنة إلا بلقائك ٣٤٦
- تنازع الملوك في الدنيا برهان على وجوب الوحدانية لله عز وجل ٣٤٦
- تسليم الحجر على رسول الله ﷺ هو أحد معجزاته ﷺ ٣٤٧
- قصة حنين الجذع من معجزاته أيضاً ﷺ ٣٤٨
- لما طعن عمر رضي الله عنه دخل عليه ابن عباس يثني عليه ويبشِّره .. إلخ ٣٥٢
- لما احتضر الشافعي قيل له : كيف أصبحتَ ؟ قال : أصبحتُ عن الدنيا راحلاً ، ولعملي ملاقياً ٣٥٣
- كل داعٍ إلى معصية الله فهو من جند إبليس وحزبه .. إلخ ٣٥٤
- حكاية لَمَّا أُنزل إبليس إلى الأرض ، قال يارب اجعل لي بيتاً ، قال : الحَمَّامُ .. إلخ ٣٥٤
- سأل يهودي بعض الصالحين لَمَ يأتيكم الوسواس ؟ فقال : يايهودي بيتان بيتٌ مملوء بالذهب .. إلخ ٣٥٥
- المقام المحمود الذي أعطيه نبينا ﷺ هو مقام « الشفاعة العظمى » ٣٥٨
- الرد على المعتزلة في إنكارهم الشفاعة ، ومعنى « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ٣٥٨
- عقد الشيطان ثلاث عقد على رأس الإنسان إذا نام ، وما يقول المسلم عند يقظته ٣٥٩
- حكاية الشاب العابد الذي نسي أذكاره في بعض الليالي ٣٥٩
- آيات الشفاء في القرآن الكريم ست « فيه شفاءٌ للناس » « وإذا مرضت فهو يشفين » .. إلخ ٣٦٠
- قصة الملك الذي اتخذ ضيافة ودعا الأمراء والوزراء إليها ، وجاءه مَلَك الموت .. إلخ ٣٦١
- قصة صناديد قريش وتعنتهم مع الرسول ، وطلبهم أن يزيح لهم الجبال ، ويجري لهم الأنهار ٢٦٣
- قصة الإمام زين العابدين مع الشخص الذي سبَّه وأساء إليه .. إلخ ٣٦٦

الموضوع	« سورة الكهف »	الصفحة

- مثل حاله ﷺ في شدة الوجد بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه .. إلخ ٣٧١
- قصة شخص قتل إنساناً وألقاه في بئر ، وللمقتول كلب يرى ذلك .. إلخ ٣٧٥
- قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين .. إلخ ٣٧٨
- قصة رجل حين سئل إلى أين فقال : إلى الكناسة ولم يقل إن شاء الله وسرقت دراهمه فقال إن شاء الله ٣٧٩
- قصة أبي حنيفة عند المنصور مع الرجل الذي كان يحسده ٣٧٩
- قال إبراهيم الخواص : جلاء القلب دواؤه خمسة : قراءة القرآن بالتَّدَبُّر .. إلخ ٣٨٠
- قصة رؤساء الكفار حين طلبوا منه عليه السلام طرد فقراء المسلمين ٣٨٠
- قال ذو النون : خاطب الله نبيه عليه الصلاة والسلام .. إلخ ٣٨١
- قصة مالك بن دينار أنه مرّ على صبي يلعب بالتراب فسلَّم عليه .. إلخ ٣٨٢
- يحكى أن رجلاً ببلخ أمر عبده أن يزرع حنطة فزرع شعيراً ٣٨٣
- قصة الأخوين المؤمن والكافر ورثا من أبيهما مالاً .. إلخ ٣٨٣
- قال وهب بن منبه : جمع عالم من علماء بني إسرائيل سبعين صندوقاً من كتب العلم .. إلخ ٣٨٦
- لا ينجو من زينة الحياة الدنيا ، إلا من كان باطنه مزيناً بأنوار المعرفة .. إلخ ٣٨٧
- قال عتبة الخواص : بات عندي غلام فبكى حتى غشي عليه ، فقلت ما يبكيك ؟ .. إلخ ٣٨٨
- قصة سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم ٣٨٨
- حكاية عائشة كانت جالسة ذات يوم ، فجاءت امرأة قد سترت يدها .. إلخ ٣٨٩
- روى أن موسى عليه السلام خطب خطبة رقت لها القلوب .. إلخ ٣٩٢
- من وصايا الخضر « كن نفاعاً ولا تكن ضراراً ، وكن بشاشاً ولا تكن عبوساً ٣٩٧
- قال محمد بن المنكدر : إن الله يحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده ٣٩٧
- قصة بعض الصالحين لما همّ السلطان بقتله فلما دخل عليه أكرمه .. إلخ ٣٩٧
- ذكر أن محتاجاً قال لبعضهم : أنا الذي أحسنتَ إليَّ وقت كذا ٤٠٦
- قال أبو يزيد البسطامي : كابدت العبادة ثلاثين سنة .. إلخ ٤٠٧
- قال بعضهم : من عرف سرّ الله في القدر ، هانت عليه المصائب ٤١٠
- قال أبو القاسم : من أراد السلامة فليعتزل قرناء السوء ٤١٥
- وصية بعض الصالحين منها : من كثر نومه فلا يطمع في رقه قلبه ٤١٧
- أوحى الله إلى داود مثل الدنيا كمثل جيفة ، اجتمعت عليها الكلاب يجرونها .. إلخ ٤١٨
- قصة خباب بن الأرتّ مع العاص بن وائل وما نزل بشأنه ٤٢٢
- قال ابن عباس : آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك .. إلخ ٤٢٣

الموضوع | « سورة طه » | الصفحة

- قصة موسى عليه السلام لما تزوج بنت شعيب واستئذانه في الخروج من مدين ٤٢٦
- رؤي بعضهم في النوم فقيل ما فعل الله بك فقال : رضي الله عني ورحمني ٤٢٧
- قصة فرعون مع موسى عليه السلام لما حمله فأخذ لحيته ونتفها ٤٢٩
- روي أن أم موسى عليه السلام جعلت في التابوت قطناً ووضعته فيه وألقته في اليم ٤٣٠
- كان موسى لا يرضع ثدي امرأة ، فخرجت أخته لتعرف خبره .. إلخ ٤٣٠
- قال بعضهم : من ذكر جلال الله تعالى ، استخفَّ غيره ، فلا يخاف أحداً سواه ٤٣١
- قيل ليحيي بن معاذ : ما بال الإنسان يحب الدنيا ؟ قال : حُقَّ له أن يحبها .. إلخ ٤٣٣
- قصة موسى وخروجه ببني إسرائيل ، وخروج فرعون بعساكره ٤٣٩
- حكىأن الحجّاج أحضر أنس بن مالك وقال له : أريد أن أقتلك شر قتلةٍ .. إلخ ٤٣٩
- حكي أن رجلاً قال للدينوري : ما أصنع ؟ فقال : كن كالصبي مع أمه ٤٤٠
- أوحى الله إلى يوشع : إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ٤٤١
- قال أرسطوا : بالتواضع تكثر المحبة ، وبالحلم تكثر الأنصار ٤٤٢
- قال عيسى عليه السلام : من ذا الذي يبني على موج البحر داراً ؟ تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً ٤٤٤

« سورة الأنبياء »

- حكى عن بعضهم : أنه قال : كنت في مجلس بعض الغافلين .. إلخ ٤٥٧
- حكىأن علياً رضي الله عنه صعد المنبر يوماً وقال سلوني ٤٥٩
- حكى أن داود عليه السلام دخل في محرابه ، فرأى دودة صغيرة ، فتفكر في خلقها ٤٦٠
- من وُسِّع عليه في دنياه ، فلم يعلم أنه قد مكر به ، فهو مخدوع عن عقله .. إلخ ٤٦٢
- روى أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان ٤٦٥
- قصة إبراهيم عليه السلام ومعه سارة ٤٦٨
- حكي أن امرأة حبيب العجمي ألحت عليه أن يعمل بالأجرة ٤٦٨
- قصة إبراهيم الخليل عليه السلام لما هم نمرود بإحراقه فصنع له المنجنيق ٤٦٩
- عن يحيى بن معاذ قال : الناس ثلاثةأصناف : رجل شغله معاده عن معاشه ..إلخ ٤٧١
- قصة سليمان مع داود عليهما السلام وما حكم به كل منهما في شأن الغنم ٤٧٢
- قال ابن عباس : إن بني إسرائيل أقبلوا على ملاهي الشيطان ..إلخ ٤٧٣
- لا ينبغي لأحد عُيِّر بالأميّة أن يقول كان النبي ﷺ أمياً .. إلخ ٤٧٣
- قصة أيوب عليه السلام لما اشتد به المرض وبقى على ذلك .. إلخ ٤٧٤

الموضوع **الصفحة**

- يحكىأن عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : مشت جرذان بيتي على العصيّ .. إلخ ٤٧٥
- روي أنه قيل لأيوب عليه السلام : ارفع رأسك ، واركض برجلك الأرض .. إلخ ٤٧٥
- قصة يونس عليه السلام حين خرج مغاضباً لقومه فركب السفينة .. إلخ ٤٧٦
- قال رجل : اللهم ما كنت تعاقبني به في الآخرة ، فعجّله لي في الدنيا .. إلخ ٤٧٧
- من عجائب عيسى عليه السلام أن أمه ذهبت به إلى صباغ ، فأعطاه الصباغ الثياب ٤٧٨
- قال بعض الحكماء : إن الجنة راحة لا يجدها إلا من ترك الفضول في الدنيا .. إلخ ٤٨٠
- لم يذكر في القرآن من الصحابة غير (زيد بن حارثة)كما لم يذكر امرأة إلا (مريم الصدّيقة) .. إلخ ٤٨١

* * *

ثانياً : فهرس أطراف الحديث

« سورة الأنفال »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٥	« إن الله حرّم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات .. »	الشيخان
٩	قوله عليه السلام عن الحبة السوداء « إنها شفاء من كل داء »	البخاري ومسلم
١٥	« يامقلب القلوب والأبصار ، ثبّت قلبي على دينك »	ابن ماجه وأحمد
١٥	« الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها »	الرافعي
١٧	« من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ... »	الحاكم
١٧	« أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه .. »	أبو داود
٢٢	« قال رجل : يارسول الله ، أيّ الناس أفضل ؟ قال : .. »	البخاري ومسلم
٢٣	« موقف ساعة في سبيل الله .. »	ابن حبان وأحمد
٢٥	« لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فاصبروا »	الشيخان
٢٥	« إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر .. »	مسلم وأحمد
٢٦	« من جلس مجلساً كثر فيه لغطه فقال : .. »	الترمذي
٢٨	« الدنيا أهون على الله من هذه السخلة على أهلها »	مسلم
٣٤	« ألا إن القوة الرمي »	مسلم والترمذي
٣٤	« ارم فداك أبي وأمي »	البخاري ومسلم
٣٤	« إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة .. »	أحمد
٣٤	« كل شيء ليس من ذكر الله تعالى فهو لهو ، إلا أربع خصال .. »	الترمذي وأحمد
٣٥	« يا جبريل : من هؤلاء .. »	البزار والهيثمي
٣٦	« المؤمن آلف مألوف .. »	أحمد
٣٦	« مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين .. »	الترمذي
٣٦	« ألا إن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد .. »	مسلم وأحمد
٣٨	« يا أخيّ لا تنسنا من دعائك .. »	الترمذي وابن ماجه
٣٨	« كان فيما مضى قبلكم محدّثون .. »	البخاري ومسلم
٣٨	« إيه ياابن الخطاب ، والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان ... »	البخاري ومسلم

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٠	« إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .. »	الترمذي وأحمد
٤٢	« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .. »	البخاري
٤٣	« كان فيما كان قبلكم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً .. »	البخاري ومسلم
٤٤	« لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة .. »	البخاري
	« سورة التوبة »	
٤٨	« لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف بقدر غدره .. »	البخاري ومسلم
٥١	« إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله .. »	الشيخان
٥٢	« صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته .. »	البخاري ومسلم
٥٣	« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه .. »	البخاري ومسلم
٥٩	« سنّوا بهم سنة أهل الكتاب .. »	مالك
٦٢	« ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها .. »	البخاري ومسلم
٦٤	« لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر »	البخاري ومسلم
٦٤	« لا يورد مرضى على مصحٍّ »	البخاري
٦٥	« تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، ودخل بي في شوال .. »	مسلم والترمذي
٦٦	« والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ... »	مسلم والترمذي
٦٦	« لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »	البخاري ومسلم
٦٩	« أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي .. »	الترمذي
٧١	« اليمين الفاجرة تدع الديار بلا قع »	أحمد
٧١	« اليمين الكاذبة منفقة للسلعة .. »	أحمد
٧٥	« إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان .. »	الترمذي
٧٥	« تضمّن الله لمن خرج في سبيله لا يخرج إلا إيماناً بالله .. »	البخاري ومسلم
٧٥	« مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع .. »	البخاري ومسلم
٧٥	« لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه .. »	أحمد
٧٥	« من شر الناس ذو الوجهين .. »	الترمذي
٨٠	« بئس الخطيب أنت هلا قلت : ومن يعص الله ورسوله »	مسلم والنسائي
٨٠	« لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان .. »	أبو داود
٨٢	« إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة .. »	أحمد والبيهقي
٨٥	« يقول تعالى لأهل الجنة : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى .. »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٨٥	« لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء »	الترمذي
٨٥	« عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتي »	أحمد والطبراني
٨٦	« إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد .. »	أبو داود
٨٨	« ثلاث من كنّ فيه فهو منافق .. »	النسائي
٩٠	« إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من أجزاء نار جهنم »	البخاري ومسلم
٩١	« لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً »	البخاري والترمذي
٩١	« أكثروا من ذكر هاذم اللذات .. »	الترمذي والنسائي
٩٢	« ادفنوا أمواتكم وسط قوم صالحين ، فإن الميت يتأذى بجار السوء .. »	أبو نعيم
٩٤	« إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله .. »	البخاري
٩٢	« الدين النصيحة .. »	مسلم
٩٩	« من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً »	البخاري
١٠٠	« إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها »	البخاري ومسلم
١٠٣	« من توضأ وأسبغ الوضوء .. »	النسائي والترمذي
١٠٣	« من بنى مسجداً لا يريد به رياء ولا سمعة .. »	الشيخان
١٠٤	« انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه »	البخاري ومسلم
١٠٥	« من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »	الشيخان
١٠٥	« يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم .. »	ابن ماجه والحاكم
١٠٦	« لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس .. »	البخاري ومسلم
١١٢	« آية المؤمن حب الأنصار ، وآية المنافق بغض الأنصار »	الشيخان
١١٣	« أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بها عبدٌ غير شاك .. »	الطبري
١١٥	« إن التجار يحشرون يوم القيامة فجاراً .. »	الترمذي وابن ماجه
١١٧	« مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً .. »	أحمد
١١٧	« إن أقواماً خلّفناهم بالمدينة .. »	البخاري ومسلم
١١٨	« فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »	الترمذي
١١٨	« فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمُر النعم »	البخاري ومسلم
١٢٠	« لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، .. »	البخاري
١٢٠	« إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين »	مسلم

« سورة يونس »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٢٦	« من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »	أبو نعيم وأحمد
١٢٧	« ما من قلبٍ إلاَّ بين أصبعين من أصابع الرحمن .. »	سنن ابن ماجه
١٢٨	« لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معيشتهم .. »	الترمذي والنسائي
١٢٩	« من اقتبس علماً من النجوم ، اقتبس شعبةً من السحر »	أحمد وأبو داود
١٣٣	« إن الدنيا حلوة خَضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظرٌ كيف تعلمون .. »	مسلم في صحيحه
١٣٥	« وعظنا رسول الله موعظة بليغة .. فقال أوصيكم بتقوى الله ، والسمع ، والطاعة .. »	سنن أبي داود
١٣٨	« لا تركب البحر إلاَّ حاجاً ، أو معتمراً ، أو غازياً في سبيل الله ، فإن تحت البحر ناراً .. »	سنن أبي داود
١٣٩	« ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبتيها ملكان يناديان .. »	ورد نحوه في الصحيح
١٤٠	« إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ ، يقول الله تعالى لهم : تريدون شيئاً أزيدكم .. »	مسلم والترمذي
١٥١	« إن للهِ عباداً ليسوا بأنبياءَ ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء .. »	سنن أبي داود
١٥١	« سئل ﷺ من أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يُذكر اللهُ برؤيتهم ... »	رواه البزار
١٥١	« الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له ، هي المبشرات .. »	مالك في الموطأ
١٥٢	« لم يبق من النبوَّة إلا المبشرات »	البخاري ومالك
١٥٢	« الرؤيا الصادقة من الرجل الصالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »	الشيخان والترمذي
١٥٨	« ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوةٍ إلا آتاه الله إياها .. »	الترمذي
١٥٨	« اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنيِّ يوسف »	النسائي
١٦٠	« لا أشكُّ ولا أسأل .. »	قتادة وهو موقوف
١٦٢	« مستريح أو مستراح منه »	الشيخان وأحمد
١٦٤	« أيكم يذهب إلى سلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا هو سجد ؟ »	سنن النسائي
١٦٤	« أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثلُ فالأمثل »	ابن حبان

« سورة هود »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٦٥	« حفظتُ من رسول الله ﷺ وعائين ، أما أحدهما فقد بثثتهُ .. »	البخاري في صحيحه
١٦٦	« أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : بلى .. »	البخاري عن وهب
١٧٠	« المستغفر من الذنب وهو مقيمٌ عليه كالمستهزىء بربه »	البيهقي وابن عساكر
١٧٣	« إن الله يُدني المؤمن يوم القيامة ، فيعرِّفُهُ بذنبه .. »	الشيخان وأحمد
١٧٣	« من سَّمع سمَّعَ اللهُ به ، ومن راءى راءى الله به »	مسلم وأحمد
١٧٤	« بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً .. »	مسلم والترمذي
١٨١	« القضاةُ ثلاثة : واحد في الجنة واثنان في النار .. »	أبو داود والترمذي
١٨٥	« لعن اللهُ من لعن والديه ، ولعن اللهُ من ذبح لغير الله .. »	مسلم وأحمد
١٨٥	« لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال : هم سواء .. »	أحمد وأبو داود
١٨٩	« كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل.. »	الشيخان والطبراني
١٩٠	« رحم الله أخي لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركنٍ شديد .. »	الحاكم في المستدرك
١٩٢	« أتعرفون ما هذه الهدَّة ؟ هذا حجرٌ ألقي من أعلى جهنم منذ سبعين سنة .. »	أحمد ومسلم بنحوه
١٩٤	« لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من أحدكم ، نزل بفلاة ... »	ابن ماجه وأحمد
١٩٧	« إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ». »	البخاري ومسلم
١٩٨	« يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إيّاها .. »	مسلم والترمذي
٢٠٠	« شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات .. » وفي رواية « شيبتني هودٌ وأخواتها »	الترمذي والحاكم
٢٠١	« الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفِّراتٌ لما بينهن .. »	مسلم والترمذي
٢٠١	« هل صليتَ العصر معنا ؟ قال نعم ؟ قال : اذهب فإنها كفارة لما فعلت .. »	سنن الترمذي
٢٠١	« أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات .. »	الترمذي والنسائي
	« سورة يوسف »	
٢١٢	« إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني أحبُّ فلاناً فأحبّه .. »	الشيخان وأحمد
٢١٣	« حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النَّارُ بالشهوات »	مسلم والترمذي
٢١٥	« من أبوك يا غلام ؟ قال : أبي فلان الراعي .. »	البخاري ومسلم
٢١٥	« كلُّ بني آدم خطَّاءٌ ، وخير الخطَّائين التوَّابون »	أحمد والترمذي
٢٢٤	« أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر .. »	سنن الترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٢٦	« قلنا يا رسول الله : ممَّ خلقت الجنة ؟ قال : لَبِنَةٌ من فضة ، ولَبِنةٌ من ذهب .. »	أحمد في المسند
٢٢٨	« العين حقٌّ تدخل الرجلَ القبرَ ، والجملَ القدر »	ابن عدي وأبو نعيم
٢٣٣	« من ابتليتُه بحبيبتيه فصَبَر عوَّضتُه الجنة »	البخاري والترمذي
٢٣٣	« يا ابن عوف إنها رحمة ، ثم قال إن العين تدمع ، وإن القلب يحزن .. »	البخاري ومسلم
٢٣٦	« ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه ، .. »	البخاري ومسلم
٢٤١	« من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءَه »	الشيخان والترمذي
	« سورة الرعد »	
٢٤٧	« لا يقولنَّ أحدكم الكرم ، فإنما الكرمُ قلبُ المؤمن »	الشيخان وأحمد
٢٥١	« الرعد ملك من الملائكة موكَّلٌ بالسحاب ، معه مخاريقُ من نار .. »	أحمد والترمذي
٢٥١	« بعث ﷺ إلى رجلٍ من فراعنةِ العرب ، فقال اذهب فادعه لي .. »	البزار وأبو يعلي
٢٥٢	« عجب ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل »	البخاري وأبو داود
٢٥٤	« ليس أحدٌ يُحاسب يوم القيامة إلاَّ هلك ، قلت : يارسول الله .. »	البخاري ومسلم
٢٥٦	« إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوَّضتُه منهما الجنة »	البخاري والترمذي
٢٦٣	« إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها مَلَكاً فصوَّرها .. »	مسلم في صحيحه
٢٦٤	« إن الله لا يقبضُ العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء .. »	البخاري ومسلم
	« سورة إبراهيم »	
٢٧١	« يقول اللهُ لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أن لك ما في الأرض .. »	البخاري ومسلم
٢٧١	« لا أحدَ أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يشركون به ويجعلون له ولداً .. »	البخاري ومسلم
٢٧٣	« مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثلُ الأُتْرجّة ، ريحُها طيِّبٌ وطعمها طيِّبٌ .. »	البخاري ومسلم والترمذي
٢٧٤	« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الهمِّ والحَزَن .. »	مسلم في صحيحه
٢٧٤	« استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل »	الحاكم في المستدرك
٢٧٥	« إن أهون الناس عذاباً يوم القيامة ، رجلٌ يُوضع في أخْمص قدميه جمرتان .. »	البخاري ومسلم

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٧٨	« يلقى إبراهيمُ أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر غَبَرةٌ وقَتَرة .. »	البخاري
٢٧٨	« لا يؤمُّ عبدٌ قوماً فيخصُّ نفسه بالدعاء دونهم ، فإن فعل فقد خانهم »	أبو داود والترمذي
	« سورة الحجر »	
٢٨٤	« خير صفوفِ الرجالِ أوَّلُها ، وشرُّها آخرها ، وخير صفوف النساء .. »	مسلم والترمذي
٢٨٦	« إذا قرأ ابن آدمَ السجدة فسجَدَ لها ، اعتزل الشيطان يبكي .. »	مسلم وابن ماجه
٢٩٢	« اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله .. »	سنن الترمذي
٢٩٣	« يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء أمن الحلال أخَذَ أمْ من الحرام »	البخاري والنسائي
٢٩٤	« لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلاَّ أن تكونوا باكين .. »	البخاري ومسلم
٢٩٥	« الحمدُ لله ربِّ العالمين هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيم الذي أوتيتُه »	أبو داود والترمذي
٢٩٥	« ليس منَّا من لم يتغَنَّ بالقرآن »	البخاري وأبو داود
	« سورة النحل »	
٢٩٩	« واللهِ للهُ أرحم بعباده من هذا الطائر بفرخه »	أبو داود
٣٠٠	« ائتدموا بالزيت وادَّهنوا به ، فإنه يخرج من شجرة مباركة »	ابن ماجه والحاكم
٣٠٠	« لا تقولوا الكرم ولكنْ قولوا العنب والحبلة ، وإنما الكرمُ قلبُ المؤمن »	البخاري ومسلم
٣٠٤	« من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها .. »	مسلم والترمذي
٣٠٨	« إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته .. »	الشيخان وابن ماجه
٣٠٩	« من بركة المرأة تبكيرها بالأنثى »	ابن عساكر
٣١٠	« من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنَّ له ستراً من النار »	البخاري ومسلم
٣١١	« إنها ستكون فتنة ، قلت : وما المخرج منها يا رسول الله .. »	الترمذي والدارمي
٣١٢	« إن أخي قد اشتكى بطنَه فقال : اسقِهِ عسلاً .. »	البخاري في صحيحه
٣١٥	« سأل أعرابي النبي ﷺ : متى الساعة ؟ قال فماذا أعددتَ لها .. ؟ »	الشيخان وأبو داود
٣١٧	« إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة .. »	مسلم وأحمد
٣٢٢	« أفضلُ الجهادِ كلمةُ حقٍّ عند سلطانٍ جائر »	أبو داود والترمذي
٣٢٦	« نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، أوتينا الجمعة من بعدهم .. »	البخاري ومسلم
٣٢٦	« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين ، عضُّوا عليها بالنواجذ .. »	الترمذي وأبو داود

« سورة الإسراء »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٣١	« لَمَّا كذبتني قريش حين أُسري بي ، كرُبت كربةً شديدة لم أكرب مثلها .. »	البخاري ومسلم
٣٣٤	« لم يفقَهْ من قرأ القرآن في أقلَّ من ثلاث »	الترمذي وأبو داود
٣٣٨	« فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »	سنن الترمذي
٣٤٠	« ما من حجرٍ ولاَ مَدَرٍ يسمع هذا إلاَّ بكى ، ثم قال للولد : . »	ابن ماجه والطبراني
٣٤٠	« رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، من أدرك والديه عند الكبر ثم لم يدخل الجنة »	مسلم والترمذي
٣٤١	« بادروا بالأعمال سبعاً : هل تنتظرون إلاَّ فقراً مُنْسياً ، أو غنى مطغياً .. »	سنن الترمذي
٣٤٢	« إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه مثل الظُّلَّة .. »	أبو داود والترمذي
٣٤٢	« العينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش .. »	مسلم في صحيحه
٣٤٤	« يا معشر التجار ، إن الله يبعث التجار يوم القيامة فُجَّاراً إلاَّ من صدق ..	الترمذي وابن ماجه
٣٤٥	« ما رأيتُ شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأنما الأرضُ تُطوى له .. »	سنن الترمذي
٣٤٦	« الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلاَّ ذكرَ اللهِ وما والاه ، أو عالماً أو متعلماً »	الترمذي وابن ماجه
٣٤٧	« إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث ، إني لأعرفه الآن »	مسلم والدارمي
٣٤٨	« كان ﷺ يخطب مستنداً على جذع ، فلما صُنع له المنبر حنَّ الجذع .. »	البخاري وأحمد
٣٤٨	« تناول النبي ﷺ حصيات فوضعهن في كفه فسبحن .... »	الأصبهاني في دلائل النبوة
٣٥١	« أهلُ الجنة مائة وعشرون صفاً ، ثمانون منها أمتي »	الترمذي وابن ماجه
٣٥١	« جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون وهم ينتظرون .. »	سنن الترمذي
٣٥٥	« ما منكم من أحدٍ إلاَّ وقد وُكِّل به قرينُه من الجن ، قالوا حتى أنتَ .. »	مسلم في صحيحه
٣٥٨	« شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »	الترمذي وأبو داود
٣٥٩	« ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة .. »	البخاري ومسلم
٣٥٩	« يعقد الشيطان على قافية رأسِ أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد .. »	الشيخان والنسائي
٣٦٢	« من أبطأ به عملُه لم يُسرع به نَسَبه »	الترمذي وأبو داود
٣٦٨	« كان ﷺ إذا صلَّى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع المشركون ذلك سبُّوا القرآن .. »	الشيخان والترمذي
٣٦٩	« كان أبو بكر إذا صلَّى من الليل خفض صوته ، وكان عمر إذا صلَّى رفع صوته ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : إرفع من صوتك شيئاً .. »	ابن أبي حاتم

« سورة الكهف »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٧٢	« لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل فتاي وفتاتي »	أخرجه الشيخان وأبو داود
٣٧٣	« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر .. »	أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي
٣٧٨	« لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، كل امرأة تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله . »	البخاري ومسلم
٣٨٢	« إن أدنى أهل النار عذاباً من ينعل بنعلين من نار يغلي دماغه .. »	أحمد والدارمي
٣٨٥	« من رأى أحداً أعطي خيراً من أهل أو مالٍ ، فقال عنده ، ما شاء الله .. »	ابن السني بنحوه
٣٨٧	« خذوا (جنتّكم) قالوا يا رسول الله أمن عدو حضر ؟ قال : لا .. »	النسائي والحاكم
٣٨٨	« كيف يحشر الناس يوم القيامة قال حفاة عراة غرلاً .. »	الشيخان والنسائي
٣٨٩	« إياكم ومحّقرات الذنوب فإن مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا .. »	أحمد والطبراني والبيهقي
٣٩٠	« ما ضلّ قوم بعد هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل .. »	الترمذي وابن ماجه وأحمد
٣٩٢	« اتقوا دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .. »	الشيخان
٤٠٠	« ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج .. »	الشيخان والترمذي
٤٠١	« يوتي بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام .. »	الشيخان والترمذي
٤٠٢	« يخرج قوم في أمتي يحقر أحدكم صلاته في جنب صلاتهم ، وصومه .. »	الشيخان والترمذي وأحمد
٤٠٣	« يؤتي بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة .. »	البخاري
٤٠٣	« إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة .. »	البيهقي عن الحسن مرسلاً
٤٠٣	« الجنة مائة درجة ، بين كل درجتين بين السماء والأرض .. »	البخاري
٤٠٤	« إني لأعمل العمل لله فإذا أطلع عليه أحد سرني .. »	
٤٠٤	« إن أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله ، أما إني لا أقول .. »	الإمام أحمد
٤٠٤	« إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ، ليوم لا ريب فيه .. »	أحمد والترمذي وابن ماجه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٠٥	« من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »	مسلم
٤٠٥	« من قرأ الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة . »	الحاكم
٤٠٥	« من قرأ الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق . »	الدارمي
٤٠٧	« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .. »	الشيخان وأبو داود والطبراني
٤١٠	« إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه .. »	البيهقي والديلمي
٤١٤	« إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت .. »	الشيخان وأحمد
٤١٧	« اتلوا القرآن وابكو فإن لم تبكوا .. »	ابن ماجه
٤١٨	« ما من نبي بعثه الله في أمة إلا كان من أمته حواريون وأصحاب .. »	مسلم
٤٢١	« لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم .. »	الشيخان
٤٢٤	« كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك .. »	البخاري
٤٢٤	« أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم .. »	الشيخان والترمذي والنسائي
	« سورة طه »	
٤٢٦	« أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً .. »	الشيخان وأبو داود والترمذي
٤٢٩	« إذا أراد الله بالأمير خيراً قيض له وزير صدق إن نسي ذكره .. »	أبو داود والنسائي
٤٣٨	« إن أهل الدرجات العُلى ، ليراهم مَن تحتهم كما ترون .. »	أبو داود والترمذي
٤٤٢	« مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد .. »	مسلم وأحمد
٤٤٨	« احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبونا الذي أخرجتنا .. »	الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد
٤٥٠	« إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته .. »	الشيخان وأصحاب السنن وأحمد
٤٥٠	« أثقل الصلاة على المنافقين ، صلاة العشاء والفجر ولو يعلمون .. »	الشيخان وأبو داود وابن ماجه وأحمد
٤٥٤	« إن لله أهلين من الناس . أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته »	أحمد والنسائي والحاكم
٤٥٥	« الظلم ظلمات يوم القيامة »	أحمد ومسلم

« سورة الأنبياء »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٥٨	« حبب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني .. »	أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي
٤٦٥	« كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن .. »	الشيخان والترمذي
٤٦٥	« إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب .. »	الترمذي وأحمد والحاكم
٤٦٥	« لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان يفرُّ من البيت الذي تقرأ فيه .. »	مسلم والترمذي
٤٦٦	« لهو المؤمن باطل إلا لثلاث : تأديبه لفرسه ومناضلته عن قوسه .. »	أبو داود والترمذي
٤٦٦	« من لعب بالشطرنج والنردشير فكأنما غمس يده في دم الخنزير .. »	مسلم وأبو داود
٤٦٧	« لم يكذب إبراهيم النبي قط إلا لثلاث كذبات .. »	الشيخان وأبو داود والترمذي
٤٦٩	« مَن شغله ذكري عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين .. »	الترمذي والدارمي
٤٧٠	« ستكون هجرة بعد هجرة . فخيار أهل الأرض ألزمهم إلى مهاجر إبراهيم . »	أبو داود
٤٧٠	« الشام صفوة الله من بلاده ، يجبى إليها صفوته من خلقه »	أبو داود
٤٧١	« تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار »	البخاري وابن ماجه
٤٧٢	« إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد .. »	الشيخان وأبو داود
٤٧٣	« ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، قالوا حتى أنت يارسول الله .. »	الشيخان وابن ماجه
٤٧٥	« بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رِجْلُ جراد من ذهب .. »	البخاري والنسائي
٤٧٧	« إني أروَّعُ في منامي قال قل أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه .. »	مالك
٤٧٧	« ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »	أحمد والترمذي والنسائي
٤٨١	« حياتي خير لكم ومماتي خير لكم تعرض عليّ أعمالكم فما كان من خير .. »	البزار

* * *

ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية

البيت		الصفحة
النَّصْرُ لَيْسَ بِأَجْنَادٍ مُجَنَّدَةٍ	لَكِنَّهُ بِسَعَادَاتٍ وَتَوْفِيقِ	ص ٩
عَلَى المَرْءِ أَنْ يَسْعَى لِتَحْسِينِ حَالِهِ	وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يُسَاعِدَهُ الدَّهْرُ	ص ١٠
وَإِذَا السَعَادَةُ لاحظَتْكَ عيُونُها	نَمْ فَالمَخَاوِفُ كُلُّهنَّ أَمَانُ	ص ١٣
لاَ تُعْجِبَنَّ الجَهُولَ حُلَّتُهُ	فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ	ص ١٥
وَمَازَالَ يَرْعَىٰ ذِمَّتِي وَيَحُوطُنِي فَيَا عَجَباً لِلْخِلِّ تَحْلِيلُ حُرْمَتِي	وَيَحْفَظُ عِرْسِي وَالخَلِيلُ يخونُ وَيَا عَجَباً لِلْكَلْبِ كَيْفَ يَصُونُ	ص ١٧
يَسْتَوْجِبُ العَفْوَ الفَتَىٰ إِذَا اعْتَرَفْ لِقَوْلِهِ « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا	ثُمَّ انْتَهَىٰ عَمَّا أَتَاهُ وَاقْتَرَفْ إِنْ يَنْتَهُوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفْ »	ص ٢٢
لا بَأسَ بالقومِ من طُولٍ ومن عظَمِ	جسمُ البِغَالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ	ص ٢٨
الْزَمِ الصِّدْقَ وَالتُّقَىٰ واغْلَبِ النَّفْسَ والهَوَى	وَاتْرُكِ العُجْبَ وَالرِّيَا تُرْزَقِ السُّؤْلَ والمُنَىٰ	ص ٤٩

البيـــت	الصفحة
كَـــأَنَّ بِـلاَدَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَـــةٌ عَلَى الخَـائِفِ المَطْلُوبِ كِفَّةُ حَـابِلِ	
• • •	ص ٥٦
أَنَـــــا النَّبِيُّ لاَ كَـــــذِبْ أَنَـــــا ابْنُ عَبْـــــدِ المُطلِبْ	
• • •	ص ٥٦
هَجَمَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّـــــهُ مِنْ فَرْطِ مَـا قَـدْ سَرَّنِي أَبْكَـانِي	
يَـاعَيْنُ صَارَ الـدَّمْعُ عِنْـدَكِ عَـادَةً تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْـــــزَانِ	
• • •	ص ٦٨
ظَنُّوا الحَمَامَ وَظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى خَيْرِ البَرِيَّـــةِ لَمْ تَنْسُـــجْ وَلَمْ تَحُمِ	
• • •	ص ٦٨
لاَ تَصْحَبِ الكَسْلاَنَ فِي حَـالاَتِـهِ كَمْ صَـالِحٍ بِفَسَـادِ آخَرَ يَفْسُـدِ	
عَـدْوَى البَلِيـدِ إِلَى الجَلِيـدِ سَرِيعَـةٌ والجَمْرُ يُـوضَـعُ فِي الرَّمَـادِ فَيَخْمُـدِ	
• • •	ص ٧٦
رَحْبُ الفَـلاَةِ مَـعَ الأَعْـدَاءِ ضَيِّقَـةٌ سَمُّ الخِيَـاطِ مَـعَ الأَحْبَـابِ مَيْـدَانُ	
• • •	ص ٧٧
وَمَقْبُـوضُ كَفِّ المَرْءِ عِنْـــدَ وِلاَدَةٍ دَلِيـلٌ عَلَى الْحِرْصِ المركَّبِ فِي الحيِّ	
وَمَبْسُـوطُ كَفِّ المَرْءِ عِنْـدَ وَفَـاتِـهِ يَقُـولُ انْظُرُوا إِنِّي خَرَجْتُ بِـلاَ شَيْءِ	
• • •	ص ٧٨
لَـهُ فَضَـائِـلُ لاَ تَخْفَى عَلَى أَحَـدٍ إِلاَّ عَلَى أَحَـــــدٍ لاَ يَعْرِفُ القَمَرَا	
• • •	ص ٩٣

البيـــت	الصفحة
مَنْ يَشْتَرِي قُبَّـةً فِي عَـدْنَ عَـالِيَـةً ... فِي ظِـلِّ طُـوْبَى رَفِيعَـاتٌ مَبَـانِيهَـا دَلاَّلُهَـا الْمُصْطَفَى ، وَاللهُ بَـائِعُهَـا ... مِمَّنْ أَرَادَ ، وَجِبْرِيـلٌ مُنَـادِيهَـا	ص ١٠٧
يَـا مَنْ يُعَـانِـقُ دُنْيَـا لاَ بَقَـاءَ لَهَـا ... يُمْسِي وَيُصْبِـحُ مَغْرُوراً وَغَرَّارَاً هَـلاَّ تَرَكْتَ مِنَ الـدُّنْيَـا مُعَـانَقَـةً ... حَتَّى تُعَـانِـقَ فِي الفِرْدَوْسِ أَبْكَـاراً إِنْ كُنْتَ تَبْغِي جِنَـانَ الْخُلْـدِ تَسْكُنُهَـا ... فَيَنْبَغِي لَـكَ أَنْ لاَ تَـأْمَنَ النَّـارا	ص ١٠٧
تَرَاهُ يُصَلِّي لَيْلَـهُ ، وَنَهَـارَهُ ... يَظَـلُّ كَثِيرَ الـذِّكْرِ للهِ سَـائِحـاً	ص ١٠٨
سَـافِرْ تَجِـدْ عِـوَضـاً عَمَّنْ تُفَـارِقُـهُ ... وَانْصَبْ فَإِنَّ اكْتِسَابَ الْمَجْـدِ فِي النَّصَبِ	ص ١١٩

قال الشاعر :

رُبَّ رَكْبٍ قَـدْ أَنَـاخُـوا حَـوْلَنَـا ... يَمْـزُجُـونَ الْخَمْرَ بـالمَـاءِ الـزُّلاَلَ ثُمَّ أَضْحَـوْا عَصَفَ الـدَّهْرُ بِهِمْ ... وَكَـذَاكَ الـدَّهْرُ حَـالاً بَعْـدَ حَـال	ص ١٣٠
تَـوَكَّـلْ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ وَاحْتَمِـلِ الرَّدَىٰ ... وَلاَ تَخْشَ مِمَّا قَدْ يَكِيـدُ لَـكَ العِـدَىٰ	ص ١٣٧
إِذَا جَـاءَ مُـوْسَىٰ وَأَلْقَىٰ العَصَـا ... فَقَـدْ بَطَـلَ السِّحْرُ وَالسَّـاحِرُ	ص ١٥٦

البيت	الصفحة
وَمِنْ نَكَدِ الدُّنيا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوّاً لَه مَا مِنْ صَدَاقَتِه بُدُّ	ص ١٥٦
• • •	
أَمْوَالُنَا لِذَوِي المِيراثِ نَجْمَعُهَا وَدُورُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبنِيهَا	ص ١٥٧
• • •	
قُضَاةُ زَمَانِنَا أَضحَوْا لُصُوصاً عُمُوماً فِي البَرِيَّةِ لاَ خُصُوصَاً أَبَاحُوا أَكْلَ أَمْوَالِ اليَتَامَىٰ كَأَنَّهُمُ رَأَوْا فِي ذَا نُصُوصَا وَنَخْشَىٰ إِنْ هُمُ إِنْ صَافَحُونَا يسُلُّوا مِنْ أَيَادِينَا الفُصُوصَا	ص ١٨٠
• • •	
وَمَا يَنْفَعُ الأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَهْ	ص ١٨١
• • •	
يُصَابُ الفَتَىٰ مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ وَلَيْسَ يُصَابُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ فَعَثْرَتُهُ فِي القَوْلِ تُذْهِبُ رَأْسَهُ وَعَثْرَتُهُ فِي الرِّجْلِ تَبْرَا عَلَىٰ مَهْلِ	٢٠٩
• • •	
إِقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِراً إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا	ص ٢١٠
• • •	
وَأَنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْمَاً أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ رَأَيْتَ الَّذِي لاَ كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلاَ عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ	ص ٢١٧
• • •	
خَيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَحُبُّكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ ؟	ص ٢٢٦
• • •	
صَبَرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ خَيْرَ مُعَوَّلٍ وَهَلْ جَزَعٌ يُجْدِي عَلَيَّ فَأَجْزَعُ	

البيت	الصفحة
مَلَكْتَ دمُوعَ العَيْنِ حَتَى رددتَهَا إِلَى نَاظِرِي « فَالعَيْنُ فِي القَلْبِ تَدْمَعُ »	ص ٢٣٢
• • •	
كُلُّ شَيْءٍ مِنَ المَلِيحِ مَلِيحٌ لَكِنِ الصَّبْرُ عَنْهُ غَيْرُ مَلِيحِ	ص ٢٣٤
• • •	
وَالصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُومٌ عَوَاقِبُهُ وَالصَّبْرُ فِي سَائِرِ الأَشْيَاءِ مَحْمُودُ	ص ٢٣٤
• • •	
عَسَىٰ الكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيتُ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبُ	ص ٢٣٥
• • •	
أَلاَ كُلُّ شيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ	ص ٢٦١
• • •	
رَبِّيَ اللهُ لاَ إِلَهَ سِوَاهُ وَنَبِيٌّ مُحَمَّدٌ مُصْطَفَاهُ دِينِيَ الإِسْلاَمُ وَفِعْلِي ذَمِيمٌ أَسْأَلُ اللهَ عَفْوَهُ وَعَطَاهُ	ص ٢٦٦
• • •	
نَامَتْ عُيُونُكَ وَالمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ	ص ٢٧٩
• • •	
تَسَتَّرْتُ عَنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَابِهِ فَعَيْنِي تَرَىٰ دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِيَا فَلَوْ تَسْأَلِ الأَيَّامَ مَا اسْمِيَ مَا دَرَتْ وَأَيْنَ مَكَانِي مَاعَرَفْنَ مَكَانِيَا	ص ٢٨٧
• • •	
عَلَيْكَ بِالْقَصْدِ لاَ تَطْلُبْ مُكَاثَرَةً فَالْقَصْدُ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَنْتَ طَالِبُهُ فَالْمَرْءُ يَفْرَحُ بِالدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا وَلاَ يُفَكِّرُ مَا كَانَتْ عَوَاقِبُهُ	

البيت	الصفحة
حَتَّى إِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ وَفَارَقَهَا ... تَبَيَّنَ الغَبْنُ فَاشْتَدَّتْ مَصَائِبُهُ	ص ٢٩٣
• • •	
وَلاَ تَمْشِ فَوْقَ الأَرْضِ إِلاَّ تَوَاضُعَاً ... فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْمٌ هُمُو مِنْكَ أَرْفَعُ	
فَإِنْ كُنْتَ فِي عِزٍّ ، وَحِرْزٍ ، وَرِفْعَةٍ ... فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمُو مِنْكَ أَمْنَعُ	ص ٣٠٣
• • •	
كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَاً	ص ٣١٣
• • •	
وَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الحَالَتَيْنِ تَنُوبُنِي ... وَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَتَىٰ أَنْتَ مَيِّتُ	ص ٣٥٣
• • •	
إِذَا كَثُرَ الطَّعَامُ فَحَذِّرُونِي ... فَإِنَّ القَلْبَ يُفْسِدُهُ الطَّعَامُ	
إِذَا كَثُرَ الكَلاَمُ فَسَكِّتُونِي ... فَإِنَّ الدِّينَ يَهْدِمُهُ الكَلاَمُ	
إِذَا كَثُرَ المَشِيبُ فَنَبِّهُونِي ... فَإِنَّ الشَّيْبَ يَتْبَعُهُ الحِمَامُ	ص ٣٥٩
• • •	
لَهُ رَاحَةٌ لَو أَنَّ مِعْشَارَ جُودِهَا ... عَلَى البَرِّ كَانَ البَرُّ أَنْدَى مِنَ البَحْرِ	ص ٣٦٦
• • •	
وَهُمْ يُنْفِقُونَ المَالَ فِي أَوَّلِ الغِنَىٰ ... وَيَسْتَأْنِفُونَ الصَّبْرَ فِي آخِرِ الفَقْرِ	
إِذَا نَزَلَ الحَيَّ الغَرِيبُ تَقَارَعُوا ... عَلَيْهِ ، فَلَمْ تَدْرِ المُقِلَّ مِنَ المُثْرِي	ص ٣٦٦
• • •	
يَا صَاحِبِي لاَ تَغْتَرِرْ بِتَنَعُّمٍ ... فَالْعُمْرُ يَنْفَدُ وَالنَّعِيمُ يَزُولُ	
وَإِذَا حَمَلْتَ إِلَى القُبُورِ جَنَازَةً ... فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَهَا مَحْمُولُ	ص ٣٧١
• • •	

البيـــت	الصفحة
وَمَـــازَالَ يَرْعَىٰ ذِمَّتِي وَيَحُـوطُنِي ... وَيَحْفَـــظُ عِرْسِي وَالخَلِيـلُ يَخُـونُ فِيَـا عَجَبَـاً للخِـلِّ تَحْلِيـلُ حُرْمَتِي ... وَيَـا عَجَبَـا لِلْكَلْبِ كَيْفَ يَصُـونُ	ص ٣٧٥
• • •	
وَفِي كُـلِّ شَيْءٍ لَـــهُ آيَـــةٌ ... تَـــدُلُّ عَلَى أَنَّـــهُ وَاحِـــدُ	ص ٤٠١
• • •	
فَقُـولِي تَـــارَةً يَـــارَبِّ زِدْنِي ... وَأُخْرَىٰ لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِـــــدْنِي	ص ٤١١
• • •	
وإني إذا أَوعَـدتُـــه أو وَعَـــدتُـــهُ ... لَمُخْلِفُ إيعـــادِي ومُنْجِـزُ مَـوْعِـدِي	ص ٤١٦
• • •	
إِذَا وَعَـــدَ السَّرَّاءَ أَنْجَـزَ وَعْـــدَهُ ... وَإِنْ أَوْعَـدَ الضَّرَّاءَ فَـالعَقْلُ مَـانِعُـهْ	ص ٤١٦
• • •	
وَخَـالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَـانَ وَاعْصِهِمَـا ... وَإِنْ هُمَـا مَحَّضَـاكَ النُّصْـحَ فَـاتَّهِمِ	ص ٤١٨
• • •	
أَرىٰ الحِلْمَ فِي بَعْضِ المَـوَاضِـعِ ذِلَّـةً ... وَفِي بَعْضِهَـا عِـزّاً يُسَـوِّدُ فَـاعِلَـهْ	ص ٤٤٢
• • •	
سَـــوْفَ تَرَىٰ إِذَا انْجَلَىٰ الغُبَـــارُ ... أَفَرَسٌ تَحْتَـــكَ أَمْ حِمَـــارُ ؟	ص ٤٥٢
• • •	
فَقُـلْ لِلشَّـــامِتِينَ بِنَـــا أَفِيقُـوْا ... سَيَلْقَىٰ الشَّـامِتُـونَ كَمَـا لَقِينَـا	ص ٤٦١
• • •	
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَـانَةٌ ... سُكُـوتِي بَيَـانٌ عِنْـدَهَـا وَخِطَـابُ	ص ٤٧٤
• • •	